الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر

إفريقيا

لمارمول كربخال

الجزء الأول

ترجمه عن الفرنسية

محمد حجي   محمد زنيبر   محمد الأخضر

أحمد التوفيق   أحمد بنجلون

مكتبة المعارف

للنشر والتوزيع

ص.ب: 239 ـ الرباط . المغرب

الهاتف: 265.24

طبع هذا الكتاب بمطابع المعارف الجديدة
سنة 1404 موافق 1984

رقم الإيداع القانوني 117 — 1984

بسم الله الرحمن الرحيـــــم

تقديـــــم

كتاب إفريقيا لمارمول كرفجال يُعدُّ من المؤلفات المهمة التي كتبت في القرن السادس عشر عن افريقيا عامة، وشمالها خاصة، والمغرب الأقصى بصفة أخص، ويحتل الدرجة الثانية بعد وصف إفريقيا للحسن الوزان أو جان ليون الافريقي. وقد تعاصر هذان المؤلفان ولم يفصل بين كتابتهما غير نحو أربعين سنة كما سنرى.

وقد ارتأت الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بعد أن ترجمت ونشرت كتاب وصف إفريقيا للحسن الوزان، أن تعززه بترجمة ونشر كتاب مارمول، لاتحاد موضوعهما وتشابه نظرتهما وطريقتهما في الكتابة، وتكاملهما بحيث تجدهما كثيرا ما يتحدثان عن نفس الموضوع، ويذكر أحدهما ما أغفله صاحبه، أو يحدد ويضبط ويوضح ما بقي عند الآخر عاما أو غفلا أو مبهما. بل لا تكاد تجد مؤرخا أو جغرافيا ممن أتى بعدهما رجع إلى أحد الكتابين على انفراد للاسباب التي ذكرنا.

وإذا كان كتاب الحسن الوزان لا يثير أي إشكال من حيث محتواه، لكفاية الرجل العلمية ونزاهته الفكرية والدينية رغما على ظروف الأسر الدقيقة التي ألف فيها هذا الكتاب، فإن كتاب مارمول — على العكس من ذلك — أثار أمامنا مصاعب شتى جعلتنا نتوقف طويلا ونتردد قبل أن نقدم على الترجمة، ونجتمع أكثر من مرة أثناءها للتشاور في بعض الجزئيات والعبارات أو الكلمات المحرجة. ذلك أن مارمول كتب ما كتب متعصبا للمسيحية ضد الاسلام، وخصص الجزء الأول من مؤلفه لتاريخ الاسلام العام في الشرق والغرب وهو به جاهل، إلّا ما استقاه من مكتبات الأديرة، وحوليات القساوسة، وهي مليئة

بالأساطير طافحة بالكراهية والحقد والتحامل، حتى إن مارمول لايتصور تاريخ القرون العشرة التي تحدث عنها سوى سلسلة من المعارك والحروب المتلاحقة التي لم تتوقف ولم تنقطع بين المسلمين والمسيحيين منذ محمد عليه السلام إلى عهد العثمانيين والشرفاء السعديين في عصره. بالاضافة إلى الروح الملحمية الأسطورية السائدة عنده، فالنصر غالب في جانب النصارى، والهزيمة لا تكاد تنفك عن المسلمين حتى في الوقائع الخالدة الشهيرة كالزلاقة، وما يفقده المسلمون من قتلى وأسرى ولو في الاشتباكات البسيطة لا يعدُّ إلّا بالآلاف وعشرات الآلاف، الأمر الذي جعلنا نفكر أولا في أن نضرب صفحا عن بعض أقسام الكتاب، لكننا رأينا أن ذلك سيبتره وأن نقله كله لا يخلو من فوائد، منها التعرف على مدى جهل المسيحيين بتاريخ الاسلام حتى مشارف العصر الحديث، والتصدي بالتصحيح والتعليق على ما فيه من أخطاء صارخة كيلاً يضلّ بها الأغرار من ذوي النيات الحسنة، بالاضافة إلى الوقوف على روايات الجانب الآخر ووثائقه، ولا سيما فيما يتعلق بالامبراطورية الرومانية، وشبه الجزيرة الايبيرية، وما وراء جبال البرانس من البلاد التي وطئتها أقدام الجيوش العربية الاسلامية.

مارمـــول

لا نعرف عنه إلا ما ذكره في مقدمة كتابه **افريقيا**، وهو ما اكتفت بنقله **الموسوعة الاسبانية** (1) في الترجمة القصيرة التي خصصتها لمارمول ، فقد ولد بغرناطة في أوائل القرن السادس عشر، وخرج من مسقط رأسه وهو حديث السن، فسار في جيش الامبراطور شارلكان الذي غزا تونس سنة 942 هـ / 1535 م، وحضر احتلال هذه المدينة وما جرى فيها من أعمال السلب والنهب وهتك الأعراض وتدنيس الحرمات حقا من طرف المرتزقة الصليبيين، وبعد مغادرة الأسطول الامبراطوري لتونس، بقي مارمول في شمال إفريقيا يقوم بمهمة كلّفه بها شرلكان، وطال مقامه في هذه البلاد نحو اثنتين وعشرين سنة، أسر خلالها من طرف الشرفاء السعديين، وبقي عندهم أسيرا بسبعة أعوام وثمانية أشهر، يسير في ركابهم أين ساروا عبر بلاد سوس الأقصى والصحراء، أو في منطقتي فاس وتلمسان

(1) ENCICLOPEDIA UNIVERSAL ILUSTRADA EUROPEO AMERICANA , MADRID - BARCELONA , T XXX 111 , P 261 .

وغير ذلك من الجهات التي تقلبوا فيها ؛ وعاصر مارمول ثلاثة من ملوكهم : أحمد الاعرج، ومحمد المهدي الشيخ، وعبد الله الغالب، ووصف عن مشاهدة حربهم وسلمهم، وخلافهم ووفاقهم، وأفراحهم وأتراحهم، وبخاصة علاقاتهم بمنافسيهم من الوطاسيين ملوك فاس، وأتراك الجزائر. وذلك ما يجعلنا نُقدِّر أن أسرهُ بالمغرب كان في آخر فترة مقامه بإفريقيا، أي من سنة 959 هـ / 1552 م إلى سنة 966 هـ / 1559 م.

وإذا كان مارمول لم يُفصح عن المهمة التي كلفه بها الامبراطور في إفريقيا، فإن مقامه الطويل فيها، وتنقله الدائب، وتطلعه الكثير، وتعلمه اللغة العربية والبربرية إلى ما تعرض له من سجن وأسر، كل ذلك يدلّ بصريح العبارة على أن الامر يتعلق بالجاسوسية واستخبار أحوال البلاد الاسلامية في هذه المنطقة للتعرف على مواطن الضعف فيها، وتسهيل مامورية جيش الامبراطور الذي كان يُبيِّتُ لسائر أقطار شمال إفريقيا ما صبَّح به تونس، لتحقيق أمنية بطانته الكنسية في الاجهاز على الاسلام بالضفة الجنوبية للبحر المتوسط، وإحلال المسيحية محله. ويعزز افتراض التجسس عند مارمول ما جاء عند الراهب الاسباني فيرناندو دي كونطريراس (2) في رحلته الثانية إلى فاس سنة 946 ــ 947 هـ / 1539 ــ 1540 م من أن مكانة هذا الراهب قد ازدادت لدى السلطان أحمد الوطاسي بسبب ما قدَّم إليه من معلومات حول الأخوين السعديين أحمد الاعرج ومحمد المهدي الشيخ وفشل حصار الشرفاء لمدينة آسفي، حتى إن السلطان الوطاسي سمح له بافتداء الأسرى دون أن يؤدي ثمنهم في الحين. ومن أين يا ترى كان لهذا الراهب القادم من داخل شبه جزيرة إيبيريا أن يحصل على أسرار اقصى جنوب المغرب إن لم يكن من مارمول ومَنْ على شاكلته من العيون المنبثة في عين المكان ؟ وهناك أكثر من دليل يؤكد نشاط الجاسوسية الاسبانية بالمغرب في هذه الفترة، من ذلك ما كتبه راهب ايبريّ آخر يُدعى نيكولا كلينارد (3) وهو مستعرب أيضا أقام سنتين بفاس 947 ــ 948 هـ / 1540 ــ 1541 م، وغرضه الظاهر ــ كما جاء في إحدى رسائله ــ أن يتضلع في اللغة العربية ويقتني كتب المتكلمين وأهل التوحيد

(2) Ricard (R), Les deux voyages du P.Fernando de Contreras (1535 - 1536 et 1539 - 1540) Hespéris , 1934 , T.XIX , Fas. 1 et 2 pp . 39 - 44

(3) Le Tourneau (R), Notes sur les lettres latines de Nicolas Clénard, relatant son séjour dans Royaume de Fes (1540 - 1541) Hespéris . 1934 , T.XIX, Fas . 1 et 2 pp 45 - 63 .

ليستطيع الرد على المسلمين ومحاجتهم بلغتهم ويؤلف في ذلك بنفس القدرة التي يرد عليهم باللسان اللاتيني. ومن بين رسائله الخمس عشرة التي وقف عليها لوطورنو رسالة وجهها كليناردِ إلى شارلكان أواخر سنة 1541 أو أوائل سنة 1542 بعد رجوعه من الرحلة المغربية، الأمر الذي يدل على وقوف رجال الكنيسة صفاً واحداً وراء الامبراطور الكاثوليكي. ولا يخامرنا شك في أن مارمول كان على شاكلة هؤلاء الرهبان المُسيَّسين، راهبا صريحا أو ناشئا في أديرتهم متشبعا بعقليتهم وكراهيتهم للاسلام.

وقد ألف مارمول — زيادة على كتاب **افريقيا** —

— **ثورة الموريسكين بغرناطة** ومالقوا من عقوبات، وقد نشر بغرناطة سنة 1600 ويعتبر هذا الكتاب تفسيرا وتكملة لكتاب مندوس في نفس الموضوع. وترجم كتاب :

— **الهام الجيش المقدس**، كما ذيّل كتاب

— **صلوات القسيسين الرومان.**

كتاب إفريقيـــا

ألف مارمول كتاب **إفريقا** أوأتمه على الاصح بعد سنة 979 هـ / 1571 م بعد ان اطلع على كتاب **وصف إفريقيا** للحسن الوزان، ونسج على منواله، بل اقتفى أثره حذو النعل بالنعل، ونقل منه فصولا كثيرة حرفا بحرف. ومعلوم أن الحسن الوزان أنهى تأليف **وصف إفريقيا** بمدينة روما عام 933 هـ / 1526 م، وطُبع لأول مرة بمدينة البندقية عام 956 ه / 1550 م، وأعيد طبعه بعد أربع سنوات، ثم مرات وكرات، الأمر الذي يدل على مدى إقبال الأوربيين عليه كمادة جديدة لاعلم لهم بها من قبل. غير أننا نفترض أن مارمول لم يطلع على **وصف افريقيا** المطبوع فحسب، بل اطلع على المخطوط الأصلي أيضا لما كان له من صلة وثيقة بالبلاطين الامبراطوري والبابوي. ذلك أن كتاب الوزان المطبوع بالبندقية — وهو الذي ترجم إلى كثير من اللغات الاوربية ونقل أخيرا إلى العربية — مبتور أُسقط منه القسم الأول المتعلق بتاريخ الاسلام الذي أحال عليه المؤلف كثيرا في

الأقسام الباقية. ونسير في افتراضنا قُدما فنقول إنه ربما كان لمرمول يدٌ في بتر كتاب الوزان، وإخفاء قسم تاريخ الاسلام منه وإعدامه. لأننا إذا قسنا القسم التاريخي المفقود للوزان على الأقسام الجغرافية الباقية منهجا وروحا وموضوعية، فإن ذلك لا يروق طبعا وقطعا في أعين الصليبيين المتعصبين، ولا أيسر على مارمول وهو يسلخ كتاب الوزان ــ بدون حياء ــ أن يستأثر بالقسم المتعلق بتاريخ الاسلام ويحوره بما يلائم أهواء قومه ويقحم فيه من الخرافات والأباطيل ما لا يقره منطق ولا واقع.

ومهما يكن من أمر، فإن كتاب **إفريقيا** لمارمول يبقى مع ذلك مفيدا للباحثين في جغرافية إفريقيا وتاريخها في القرن السادس عشر، كذيل مكمِّل لكاتب الحسن الوزان، مُتَفَرِّدٌ بما سَجَّلَ عِينَةً من أحداث ووَصَفَ من مواقع لم يقف عليها غيره.

عملنا في الترجمة

نقلنا هذا الكتاب عن الترجمة الفرنسية التي قام بها نيكولا بيرو دابلانكور (1606 ــ 1664)، ونشرت في باريز بعد موته سنة 1667، في ثلاثة مجلدات وقد تفضل الزميل السيد الحسين بوزنيب أستاذ اللغة الاسبانية بكلية الآداب بالرباط بمراجعة ما نتوقف أحيانا على مقابلته بالنسخة الاسبانية الأصلية المنشورة باسبانيا كذلك في ثلاثة أجزاء، الاول والثاني بغرناطة سنة 1573 ، والثالث بمالقة سنة 1599. وقد حافظنا على نقل النص الفونسي على حاله ، ولم نحذف منه سوى كلمات القذف ، والفصل المتعلق بحياة محمد عليه السلام مع فقرات من فصل الخلفاء الراشدين لما فيها من معلومات خاطئة وعبارات نابية، وترجمنا كذلك الهوامش على حالها أو علقنا عليها حسب الاقتضاء، وأضفنا هوامش أخرى ميزناها عن الأصلية بإضافة كلمة « مترجم ».

الرباط، في فاتح جمادى الآخرة 1403 / 16 مارس 1983

المترجمون

« مقدمـة مارمـول »

ترجمها إلى الفرنسية : ب. ريشولي

إذا رجعنا إلى أبعد تواريخ عصرنا أدركنا أن سلطة القوط، والقرطاجنيين، والرومان، لم تفق قطعا سلطة العرب. فقد خرج هؤلاء (البرابرة)من بلادهم بقيادة نبيهم محمد (1) ، وأبي بكر، وعمر، وعلي، وعثمان، وآخرين من رؤساء ملتهم، فتغلبوا على عدد لا يكاد يعدُّ من الشعوب، أرغموهم على انتحال عاداتهم واعتناق ديانتهم. انتزعوا أولا من يد الرومان المناطق الثلاث في الجزيرة العربية، ثم فتحوا بلاد الشام، وفارس، والهند، عاصفين بعالم الآداب الذي كان مزدهرا فيها، فقتلوا وأحرقوا كل شيء وغمروا أقطار آسيا وإفريقيا وأروبا مآسي، أضف إلى هذه الفتن تخريب المعابد وتدنيس الحرمات، وتضليل الامم (2)، ثم إن طموح هؤلاء المسلمين (3) قد تزايد، ورأوا أن إحراز نصر سيفتح أمامهم السبيل إلى نصر آخر، وسيحطمون بالتالي عقيدة المسيح، ويقيمون عقائدهم في العالم النصراني، لذلك وجهوا أسلحتهم ضد اليونان، وإيطاليا، وإسبانيا، وفرنسا، فهاجموها بحراً وبراً ونشروا أصداء شجاعتهم بكيفية جعلتهم يحملون الرعب إلى القلوب في كل مكان، وترتجف منهم فرائص جميع ملوك الأرض.

ودام ملك العرب ثلاثة قرون كاملة، ولم يضعف إلا بسبب ما أصابهم من الطموح والفتنة . ورغم ذلك فإن الدول الكاثوليكية لم تكن أكثر إطمئنانا، لأن الأتراك الذين يؤمنون بنفس الدين (الاسلامي) والذين لم يحتلوا مكانتهم إلا بقوة السلاح، أوقعوا الكنيسة في اضطرابات جديدة، غير أنه لما بدأت آسيا تتنفس

---

(1) من هنا يبتدىء تحامل مارمول على الاسلام ونبيه الكريم ، فينبزه بألقاب جارحة لم نر بدّا من حذفها .

(2) هذا أيضا يبين تعصب مارمول المسيحي الضيق الافق ضد الدولة العربية الاسلامية ، وقد تركنا مهاتراته على حالها دون تعليق ــ في أغلب الأحيان ــ لأنها مكشوفة تحمل في طيها تكذيبها والرد عليها .

(3) عندما يتحدث مارمول عن المسلمين يعبر عنهم بالكفار ، لذلك أثبتنا في الترجمة كلها كلمة « المسلمين » التي تعبر – لغويا واصطلاحيا – عن مقصوده بالكفار .

الصعداء، وأخذت شوكة العرب تضعف فيها، انتقل هؤلاء المسلمون إلى إفريقيا وإسبانيا أيام رودريق وانضموا إلى الأفارقة الذين سبق لهم أن اعتنقوا دينهم فعملوا جميعا على تخريب أوربا بكاملها. ودامت هذه الحرب في إسبانياسبعمائة وثمانية وسبعين عاما (4) كانت الحرب خلالها سِجالًا بين الطرفين، إلى أن أمد الله بعونه فيرناندو وايزابيلا فطردا هؤلاء الطغاة من الأراضي التي سلبوها وملؤوها رعبا طوال هذه المدة المديدة من الزمن. لكنه من الأكيد أن إسبانيا لم تُصَبْ بهذا القدر من الفجائع إلا من أجل جوارها لافريقيا، التي تفردت أقاليمها بإراقة دم عدد لايحصى من الشهداء. وبالرغم من ذلك لم يكتب أحد لحد الآن تاريخ هذا الجزء من العالم. وإن كان من صالحنا أن تكون لنا معرفة تامة به، سواء للسلم من أجل التجارة، أو للحرب حتى نقوم بها بفعالية. حقا إن علاقات عوائدنا، وديننا،ولغتنا بلغة إفريقياودينها وعوائدها قليلة جدا، وإن خير مؤلفينا لا تربطهم غير صلة ضعيفة بهؤلاء البرابرة، فلا يستغرب والحالة هذه إذا لم تكن لنا بعدُ معهم علاقات خاصة. أما أنا فقد خرجت من مسقط رأسي غرناطة وأنا ما أزال في ميعة الشباب، لكنني لم أغادرها إلّا لِإشارك في الحملة الحربية الكبرى التي قام بها شارل الخامس ضد مدينة تونس، ولما سقطت هذه المدينة المحصنة بقيت أعمل تحت راية الامبراطور في أقطار إفريقيا كلها مدة عشرين سنة، متعرضا لكل ما جرى من أحداث عظيمة تستحق الذكر. لكن الحظ أوقعني في أيدي الأعداء الذين أخذوني أسيرا طوال سبع سنين وثمانية أشهر في مملكة مراكش، وترودانت، وتلمسان، وفاس، وتونس. وفي ذلك الوقت سرت في ركاب محمد (5) عبر صحراء ليبيا حتى وصل إلى المكان المسمى بالساقية الحمراء على تخوم غينيا، وقد استولى هذا الشريف على الأقاليم الغربية لافريقيا متنقلا من نصر إلى آخر. وقمت بأسفار أخرى في البحر وفي البر، كنت أثناءها تارة حرا وتارة أسيرا. فجبت بلاد البربر كلها ومصر، حيث شاهدت أشياء كثيرة هائلة، بدا لي أن الناس المحترمين بإسبانيا سيروقهم الاطلاع عليها، بالاضافة إلى أنني بسبب ميلي طول الحياة إلى كتابة التاريخ، نظرت بإمعان طويل فيما لدينا من مؤلفات وافية مستقصية

(4) هكذا لا يرى مرمول في الدولة الاسلامية بالاندلس سوى سلسلة حروب متواصلة ، ضاربا عرض الحائط بالحضارة العربية الاندلسية التي كانت ملء سمع الزمان وبصره ، وما زالت آثارها ومآثرها قائمة حتى اليوم (إنّها لا تعمى الابصارُ ولكن تعْمَى القلوبُ التي في الصّدور) .

(5) يقصد محمد المهدي الشيخ ثالث الملوك السعديين .

للموضوع، سواء منها الافريقية أو اللاتينية أو الاسبانيةأو كتب الدول المجاورة، واستخرجت من هذه الآثار الشهيرة ما رأيته أكثر ملاءمة لغرضي، أضف إلى ذلك أن معرفتي الدقيقة إلى حد ما باللغتين العربية والافريقية اللتين لا علاقة قوية بينهما، ساعدني على أن أقرأ بتمعن كبير كل ما ألفه كتابهم عن بلادهم. وبعد ذلك قمت بوصف عام لافريقيا، في اثني عشر كتابا، قبسمتها إلى قسمين :

القسم الاول سيحتوي على ستة كتب في مجلدين لكونه أوسع وأطول، ويتضمن الكتاب الاول نظرة عامة على هذا الوصف كله حيث سأتحدث عن إفريقيا، وممالكها، وأقاليمها، ومدنها، ومختلف قبائلها، وأذكر عوائد السكان، وطبائع العرب وأصلهم ودخولهم إلى هذه البلاد، وأصف فيه أغرب الحيوانات، وأشهر الأنهر، وباختصار كل ما يوجد في إفريقيا مما هو جدير بالذكر. ويشتمل الكتاب الثاني على خبر الحروب بين المسيحيين والمسلمين، والخلافات التي قامت بين هؤلاء، منذ أن أنشأ محمد دينه الذي يتحدث هذا الكتاب أيضا عن بدايته.....

وإذا اعتبرنا تواريخ أقدم الممالك، وجدنا أن الامراء الذين ازدهر عهدهم مدة طويلة لم يثبتوا عروشهم إلا على حب رعاياهم والتكيف مع عاداتهم، وأنه فيما عدا ذلك لم يحظ أحد بشرف لقب ملك إلا نظريا، وأنه كان من مصلحة الشعوب أن يحكمها ملك تضفي عليه خاصية التعظيم والتوقير. وهكذا قضى الصالح العام على الأمم أن تختار ملوكا، لأنه عندما لم يكن أحد ينزجر احتراما للدين، ولم تُعرف بعد القوانين الكفيلة بجعل الناس في درجة معقولة من المساواة، وكان الطمع يدفع المرء إلى استعمال قواته ضد العقل لأغراضه الشخصية، نُصب ملوك من شأنهم أن يأخذوا الناس بالطاعة ويفرضوا العيش المتمدن بعض الشيء على أقوام يتيهون في الأدغال كالوحوش. لكن هؤلاء لم يخضعوهم إلا بالحكمة والعدالة، وبالأفضال التي أغدقوها عليهم كسبوا تقديرهم ومحبتهم وحملوهم بعد ذلك على أن يتحدوا على الصفاء ويسعوا جاهدين في طلب ماهو نافع ولائق بهم. وأترك جانبا أنه، بفضل هذه المبادىء تبوأ ساتورن، وهو أول من وضع أساس حصن روما، عرش أرمينا لأول مرة، وفتح مملكة جديدة بإيطاليا بالرغم على عراقيل البابليين وقوات جوبيتير ؛ وبهذا السلوك أصبح رومولوس، المؤسس الثاني لروما ملكا بعد أن كان من الرعاة ؛ واعتلى كذلك العرش نومابومبيليوس وتاركينيوس

بريسكوس، وكانا غريبين من أرومة وضيعة، ولم يخضع الاسكندرُ آسيا إلا بمحبة المقدونيين. وطالما لم تمزق الحروب الأهلية امبراطوريات الاغريق، والقرطاجنيين، والرومان فإن مجدهم العظيم قد ازداد حتى نالوا لقب سادة العالم. وهكذا فإن محمدا الذي اقتدى بهذه الأمثلة، بهر العرب بمظاهر قداسته ... وملك قلوبهم تماما، فأعزُّوه كأمير عظيم، وأجَلُّوهُ كشخصية ذات حياة صالحة وفعلا، فإن هذه الأمم التي قادها ونشطها هذا النبي، صارت قوية جدا بعدما كانت ضعيفة، واستولت تقريبا على جميع الاقطار التي كانت خاضعة للرومان. حقا إن الفتنة تسربت إلى صفوف هؤلاء المسلمين، فقسا بعضهم على بعض، وإن حبهم للحكم الذي افتتنوا به رد ضراوتهم في نحورهم وسقطوا أخيرا في ربقة أعدائهم. وهكذا فإن الشقاق اجتاح أقوى الممالك، ودمر أكثر الجمهوريات ازدهارا وأقواها أسسا، وحوّل امبراطورية الكلدانيين إلى الآشوريين، والآشوريين إلى الميديين، والميديين إلى الفرس، والفرس إلى المقدونيين، وخرب ممالك الاسكندر ذي القرنين، وسلَّط عَقِبَهُ فأذاق بعضهم بأس بعض من أجل الاستئثار بالمملكة بدلا من أن يكتفوا بالتقسيم الذي جعلوه لها. هل أقول إن الشقاق زعزع قوة الاغريق، وحطم جمهورية القرطاجنيين، وقضى على سيطرة الرومان، وإنه عندما سلم القسطنطينية إلى البرابرة، تمكن من الاجهاز على أمبراطورية اليونان ؟ وأخيرا ساد الخلاف بين العرب خلفاء محمد الذين يتحدث هذا الكتاب عن تاريخهم بكيفية خاصة، ونقل الملك من يدهم إلى الأتراك المستبدين اليوم بالحكم بهذا القدر من القساوة. لكننا نأمل أن تستجيب السماء لدعواتنا، وتقضي عما قريب على كبرياء هؤلاء البرابرة. وهذا الحلف المقدس الذي دخل فيها أمراء عظماء ألا يبشر بأننا سنسترجع بيت المقدس ، والقسطنطينية مع بلاد اليونان بأسرها، واننا سنحرر مرة ثانية هذه الشعوب التي تئن تحت عبودية أليمة ؟ ولم يقل حماس المسيحيين المتأثرين بالشفقة والمتحمسين قدوة بملوكهم، لهذه الغزوة الشهيرة، عما كانوا عليه قديما عندما شهروا السلاح، بإيعاز من بطرس الزاهد، وعددهم ثلاثمائة ألف رجل، من بينهم عدد من النبلاء. فزحفوا إلى الشرق وبالغوا المجهود في تقتيل أعداء المسيحية (6)

(6) يشير إلى الحروب الصليبية ، ويتشفى في المسلمين الذين كانوا ضحية وحشية الغزاة الاوربيين في المراحل الاولى ، لكنه يضرب صفحا عن صلاح الدين .

وأما الكتب الأربعة الأخرى من هذا القسم الأول فإنها تتعلق بممالك مراكش، وتلمسان، وفاس، وتونس، مع وصف دقيق جدا للمدن، والحصون والانهار، ومختلف الشعوب التي توجد بها. وسنذكرَ في كل كتاب منها المعارك الدامية التي جرت فيها، والانتصارات الباهرة التي حصلت في كل من هذه الممالك. وإن كان يبدو من الاليق التحدث عن هذه الحروب في الكتاب الثاني الذي يشمل حوليات البلاد، إلا أنني رأيت أن سردها في المكان الذي جرت فيه يزيد موضوعي تماسكا. ولم يكن لي قصد في تأليف هذا التاريخ كله إطلاقا إلا تشجيع الدول الكاثوليكية على حمل السلاح ضد هؤلاء المسلمين الذين يكتسحون بوقاحة مجد المسيحية ولا يفتؤون يحاربوننا ويتحينون الفرص لتحطيمنا. لكن سيسهل علينا إهلاكهم أكثر من أن نسترجع منهم الارض المقدس، لاننا نعرف الان قواتهم، وأن الكبرياء الذي يهيجهم والابتهاج الذي يغمرهم من آلامنا، بالاضافة إلى الشره يدفعهم إلى الاثراء من غنائمنا، كل ذلك يؤدي بهم إلى شن غارات دائمة على أراضينا، وتسليم أنفسهم لأسلحتنا.

وسيكون للقسم الثاني ستة كتب، أدرج فيها كل ما لايوجد في القسم الأول، أي نوميديا، وليبيا، ومصر، واثيوبيا السفلى والعليا، مع الجزر المحيطة بإفريقيا والتابعة لها (7)، وقد وصفتها وصفا دقيقا حسب الترتيب الذي اتبعته في القسم الأول، مما يتعلق بالحروب والأحداث الكبرى. ومع ذلك أرجو من الذين سيقرؤون هذا الكتاب أن يفكروا فيما لقيت من عناء في تأليفه، وإن كنت لسوء الحظ قد أخللت بالتاريخ، فإني أرجو أن يغضوا الطرف عن ذلك بلطف، اعترافا منهم بما أنجزته لصالح إسبانيا كافة، ولخير المسيحية.

---

(7) علق في الهامش بأن كتاب الجزر غير موجود .

افريـقيـــا
لمـــارمــــول

الـكـتــــاب الاول

وصف عام لافريقيا، ولممالكها واماراتها والشعوب التي سكنتها وكل ما فيها من أشياء تستحق الذكر.

الفصل الأول

سبب اطلاق اسم افريقيا عليها، وكيف كانت تسمى من قبل

★ ★ ★ ★ ★ ★ ★ ★

اقتبس اسم جزء العالم المسمى بافريقيا من أحد اقاليمه حيث كانت قرطاجنة قديما. ويسميها بطليموس ليبيا باسم احد اقاليمها الأخرى المتاخم لمصر من جانب الصحراء. وكان العرب قديما قد أطلقوا اسم «البرّ» على جميع هذه الصحاري. ومعناه : الأرض المقسمة . ويقول ابن الرقيق، وهو مؤلف افريقي قديم، في كتابه **شجرة انساب الافارقة** (1)، إن افريقيا اطلق عليها اسم أحد ملوك اليمن وهو مالك الافريقي (2) ويحكى أن هذا الامير هُزم قرب النيل من لدن شعوب ايثيوبيا العليا، وأنه اجتاز هذا النهر لما رأى انهم تمكنوا من الممرات التي كان لابد أن يعود منها، ولم يكن أي سبيل آخر من دونها. فقطع صحاري ليبيا انطلاقا من هناك الى أن وصل الى الجزء الشرقي من بلاد البربر حيث اقام بأرض خصبة ذات مراع كثيرة، وأطلق عليها اسم إفريقية كما يسميها الاهالي حتى الآن، لكن الأجانب يقلبون الكسرة فتحة فتصير أفريقيا. ولهذا فان الجغرافيين الأفارقة لا يدرجون تحت هذا الاسم سوى مملكة تونس، ولا يدخلون في افريقية الا الجزء الشرقي منها.

---

(1) المعروف – اسما – تاريخ ابن الرقيق . انظر عبد السلام ابن سودة، دليل مؤرخ المغرب الأقصى ، 134:1 (طبعة الدار البيضاء) .

(2) يريد افريقيس بن صيفي بن سبا بن يشجب بن يعرب بن قحطان مخطط افريقية . انظر ياقوت ، معجم البلدان ، 300:1 وما بعدها .

ويعتقد بعض المؤلفين من الأهالي ان اسم افريقيا محرف ومشتق من «فرق» التي تعني باللغة العربية الشيء المقسوم أو المفصول، لأنها جزء من التراب يفصله البحر عن اوربا، كما يفصله عن آسيا خليج الجزيرة العربية والمضيق الموجود بين البحر الأحمر والبحر المتوسط. ويثبت يوسف في كتاب **الآثار القديمة** ان لفظة افريقيا مشتقة من عفر بن مندنيس الذي جاء من اليمن ليقيم بليبيا. ويرى غيره أنها مشتقة من أفريجية بمعنى شيء آمن(3). لكن الاشتقاق الاول هو الأفضل في رأيي. فندرج تحت اسم افريقيا جميع البلاد الواقعة بين البحر المتوسط والمحيط، والبحر الاحمر، وساعد النيل الاكبر المتجه نحو الشرق الذي يصب في البحر المتوسط امام جزيرة قبرص.

(3) معنى هذه الكلمة « أرض التوابل » في اللغة البونيقية وهو اشتقاقها الحقيقي . (بوشار) .

الفصـــل الثانــي

وصف افريقيا كما يراها بطليموس

يقسم بطليموس افريقيا الى اثني عشر جزءا أو إقليما تكون البلدان الآتية، ابتداء من المغرب : الموريطانيتان[4]، نوميديا الجديدة، اقليم افريقية، ليبيا السرينيكية، مرمريك، مصر السفلى، ثيباييد، ليبيا الداخلية ، الاثيوبيتان. ويظهر جليا في الخريطة الرابعة لليبيا، وأكثر من ذلك في كتابه الرابع، أن آخر جزء يضعه وراء خط الاستواء جنوبا يقع قرب الدرجة الخامسة عشرة من خطوط الطول، حيث يجعل رأس براس أبريزا مزنبيق على بعد ثماني درجات من الخط. أما الباقي، انطلاقا من هذا الرأس صوب الجنوب، الذي يشمل نحو خمس عشرة أو ست عشرة درجة، فكان بطليموس يجهل معظمه، كما يقوله هو نفسه في آخر الكتاب، حيث يبرز أنه ابتداء من جنوب الأرض الآهلة الى القطب الانطرتيكي تمتد أراض مجهولة على طول ثلاث وسبعين درجة وسبع عشرة دقيقة. وقد اكتشف البرتغاليون هذه البلاد في عصرنا الحاضر وأطلقوا عليها اسم افريقيا الجديدة، وذلك من الدرجة السادسة عشرة للخط الى رأس الرجاء الصالح، كما يشاهد في خرائط بطليموس الجديد. ولم تكن للجغرافيين الأفارقة معلومات عن إفريقيا، إذ يعطونها الحدود التي سأذكرها.

(4) القيصريّة والطنجيّة .

الفصل الثالث

وصف افريقيا كما يراها المؤلفون الافارقة

يتجلى من خلال الوصف العام للبلاد عند الجغرافيين الأفارقة والعرب، ومن جملتهم المسعودي والبكري، (5) أنه لم تكن لهم معلومات أكثر مما كان عند بطليموس، بل يدلون بمعلومات أقل اتساعا، إذ أنهم لا يدخلون في افريقيا لا مصر ولا كل الاراضي الموجودة بين النيل والبحر الاحمر والمحيط، قائلين إن مصر جزء من آسيا لا من افريقيا. بالاضافة الى انهم يطلقون على الاقاليم والخلجان والرؤوس أسماء مخالفة تماما للأسماء التي يطلقها عليها بطليموس، غير متفقين على تقدير الدرجات التي يقوم به بعض الفلكيين، مما هو ناتج عن التغيير الذي طرأ على الاسماء في هذه الأماكن عند مجيء العرب الى افريقيا، لأن هؤلاء غيّروا معظم الأسماء لطمس ذكريات السكان الاوّلين.

ولما انحطت امبراطورية العرب ثار عليهم الأفارقة واسترجعوا منهم أغلب بلدانهم الأصلية، لكنهم اقتدوا بهم في الأسماء، فلا غرابة إذن أن تضمحلّ الأسماء القديمة مع مرور الأزمنة وتغيّر الأشخاص. ومن جهة أخرى، فقد أقفرت عدّة أقاليم وخرّبت عدّة مدن طمس ذكرها، وأسّست مدن أخرى منذ عهد بطليموس تحمل الآن الاسماء التي سماها بها البربر والعرب، لأن الافارقة يعيشون كلهم مجتمعين في أماكن تستمدّ أسماءها منهم، كما يفعل الأعراب في البوادي التي يتنقّلون فيها. وأخيرا فان جميع المؤلفين الافارقة لايبدؤون في وصفهم لهذا الجزء من العالم إلا بأقصى بلاد النوبة، والذراع الأول للنيل في اثيوبيا القريبة من مصر، ثم يتبعون النهر منحدرين حتى البحر المتوسط، على بعد خمسة عشر فرسخا من

---

(5) في النص الفرنسي : وأبو بكر .

الاسكندرية نحو الشرق. ومن هناك ينطلقون مسامتين نفس البحر إلى خليج جبل طارق، ثم يقتحمون المحيط الغربي(6). ويصعدون الى أن يصلوا الى رأس نون، حيث يتمّ العزل بين الافارقة البيض والافارقة السود. وبعد ذلك يتابعون طريقهم محاذين الشاطىء حتى مصبّ نهر الزايير الذي ينبع من بحيرة في صحراء كَواكَة ويصب في بحر مملكة مانيكنغو، ومن هناك يتبعون نفس النهر صعودا، ويعودون الى هذه البحيرة، ثم الي النيل فمملكة النوبة. تلك هي الحدود التي يحدّون بها افريقيا، دون أن يُدخلوا اثيوبيا العليا الواقعة وراء النيل، ولا حتى بلاد القبط التي يسمونها مصر كما تسميها العبرية مصريم، وتسمى القبطية بلغة البلاد.

(6) سماه في الهامش (بحر المغرب) .

الفصل الرابع

وصف افريقيا كما يراها المؤلف

وها هي دائرة افريقيا بما تشتمل عليه، انطلاقا من أقصى الغرب حيث يبدأ إقليم سوس باتّجاه الجنوب دون أن ننسى اي شيء من اليابسة. فمن جبل أيت واكل الذي يسميه بطليموس الاطلس الكبير نسير الى مدينة ماسّة في اقليم سوس، ومن ورائها إلى راس إغير (7) ثم الى رأس نون، فنهر سينيكا الذي يسميه الاهالي سينيدك، والعرب واد نيشر أو النهر الاسود. والذي يفصل بين البيض والزنوج. ونصل بعد ذلك الى جينيوا التي كان أول سكانها على طول الشاطىء هم بنوعيس الذين كان لون بشرتهم اسود أكثر منه زيتونيا. ومن هناك ندخل في اقليم الجيلوف الذي يمتدّ بعيدا ،جدّا على طول شاطىء المحيط، ثم نمرّ بأرض البربسين أو البربر كما يسميهم المؤلفون العرب. وتسكن هذه الشعوب اقليم موصالة الذي يخترقه نهر كبير ينتهي الى البحر من مصبين يمكنان من التوغّل في البلاد. ونصادف بعد ذلك إقليم كامبيا أو كامبو الذي يسميه بطليموس استكريس والذي يرويه نهر آخر عميق تسير نحو عاليته السفن بأكثر من ثلاثمائة فرسخ إلى أن تصل الى اقليم كنطور حيث يتّجرون مع الزنوج ويأتون بالذهب الى البرتغال. ويزعم اهل البلاد أن هذا النهر هو السنكا ذاته وأنه احد أذرع النيجر. وبعد اقليم كامبيا ياتي اقليم كافامانسي حيث يمر الرّها، وهو نهر آخر كبير صالح للملاحة، ويسكن الزنوج في كلتي ضفتيه. وبعيدا عن هناك يسيل نهر سان دومينيك، كما يسميه البرتغاليون، حيث لا يزالون يتّجرون مع الزنوج، على مسافة أكثر من ثمانين فرسخا داخل البلاد. ويتلوه اقليم بّابّاييس حيث ينحدر نهر آخر كبير يسمونه الجزيرات بسبب

---

(7) إيغير – بالشلحية – هو المَنكِب ، ويوجد رأس ايغير في موقع مدينة أكادير التي سميت عند تأسيسها سنة 947% 1541 (حصن المنكب) بالعربية ، و (أكادير إيغير) بالشلحية ، والمعنى واحد . وغلب عليها أخيرا اسم (أكادير) . ويلاحظ أن المؤلف يخلط هنا فيجعل رأس إيغير جنوبي ماسة وهو في شمالها. (مترجم).

وجود جزيرتين صغيرتين آهلتين بالزنوج تلتقيان في مصبّه. واذا توغّلنا اكثر في البحر وجدنا جزر بيجيوهُس وهي مسكونة أيضا، ورغم أن لكل واحدة منها اميرها الخاص الا انها تخضع جميعها لملك الجزيرة المسماة هرموسة (8). ويأتي بعد ذلك اقليم بيافار حيث ينبع كذلك نهر كبير آخر يسيل صوب البحر ويسمى ريو گراندي، لأنه أكبر الأنهار كلها، ويتلقى عدة أنهار صالحة للملاحة. وبعد قطع اقليم بيافار ندخل اقليم المَلوس الذين يسكنون ضفتي نهر دوني لوي، وبعيدا عنه نهر نونيوتريستان. ويسمى هذا الاقليم اقليم الكوكولي ولو أنه يسكنه الملوس. ثم يأتي اقليم الفاك الذين يقطنون على طول النهر الذي يحمل نفس الاسم، ويسمى كذلك بثابث. ويسير البرتغاليون نحو عاليته بعدة فراسخ داخل البلاد. ويمتد فيما وراء هذه المنازل بلاد سابي من حيث ينحدر نهران كبيران : يسمى الأول كلوز والثاني دي كسريس، حيث يذهب سكان (جزر) كناري ليتجروا مع الزنوج. ويوجد أيضا أبعد من هنالك إلى الأمام نهر آخر يسمى ماريف والسييراليونا (9) التي كان يسميها القدماء عربة الآهلة. ويقع بعيدا من هناك المنجم الذي ينقل منه الذهب بكثرة الى البرتغال، حيث بنى البرتغاليون قلعة تحمل هذا الاسم لتسهيل التجارة. وفيما وراءها شاطىء مالاكيط (10) الذي يمتد حتى مملكة منيكونغو، حيث يمر نهر زايير حاملا معه الى البحر ستة أنهر ضخمة (11) معروفة بعض الشيء بواسطة شعوب هذه المناطق الذين اعتنقوا الديانة المسيحية منذ مائة سنة، كما سنذكر ذلك في محله.

وتوجد انطلاقا من هذه المملكة الى رأس الرجاء الصالح صحاري كبيرة ورأسان آخران هما : الرأس الأسود ، ورأس بيرون. وبعد اجتياز رأس الرجاء الصالح الذي يسميه السكان زانكَباي (12) يصادف الشاطىء الذي يحمل نفس الاسم من جهة الشرق، حيث توجد منازل عديدة للمسلمين. وأول أرض تقع فيه هو رأس الايكي، ثم يأتي نهر فوموس، واقليم ألاكَوا، ونهر سانت إسبري ، ورأس الكرانط

(8) أي الجميلة .

(9) أي جبل اللبؤة .

(10) تجعلها الخرائط دونها .

(11) وهي بَنْكار ، فامبا ، كُويلا ، مانْها وزَنْكُولو .

(12) أي خليج زنجبار .

(13) والأرض العالية، ورأس سان سباستيان في اقليم بني مُطاشة. وأبعد من هناك توجد سفالة(14) التي يسكنها الوثنيون ، وهي إقليم طويل يحيط به نهر كبير(15) ينقسم الى دراعين ويجعله كجزيرة. ويسمى هذا النهر زامبير ، يسيرون نحو عاليته من أحد ذراعيه على طول أكثر من خمسين ومائتي فرسخ، وهو يأخذ معه ستة أنهر أخرى شهيرة (16) تنحدر كلها من مملكة بني مطاشة. وليس الذراع الآخر بكبير جدا. ويأتي بعد سفالة اقليم أو مملكة آنكوس، ثم رأس الموزامبيق الذي يسميه بطليموس رعن براس، وهو الرأس الأخضر باللغة الفرنسية. وقد اتخذ البرتغاليون هناك قلعة لترسو فيها السفن الذاهبة الى بلاد الهند الشرقية. وبعد قطع بلاد الموزامبيق ندخل في اقليم كيلوًا ثم في مومباز وميلنْد حيث يصب في البحر الكبير أوبيي الذي يسميه بطليموس رابْط، وسكان البلاد المسلمون بويلمانسي. وهذا الشاطىء كله آهل بالعرب المسلمين، من مصب هذا النهر الى رأس الكرانط، ويسمى شاطىء زنكاباي. ويقع الى الأمام اقليم موگادوشو، ثم اقليما أدييا وأديل ورأس كَواردا فوني(17)، وهو جزء افريقيا الاكثر اتجاها الى الشرق. ثم يأتي اقليم دوباس، ومصب مضيق البحر الأحمر (18)وطول هذا الشاطىء حتى السواقين مائة وعشرون فرسخا، وهو جزء من مملكة الحبشة المشتملة على برناكاص وغيرها من الاقاليم التي يملكها هذا الامبراطور. ويستمر امتداد الشاطىء الى ما وراء السويس، وهو آخر ثغر في هذا الخليج، ويحاذي بلاد مصر من ذاك الجانب. ثم نجتاز برزخ أو مضيق الجزيرة العربية،ومسافته ستون فرسخا (19) تقريبا بين داخل هذا الخليج والبحر المتوسط. ومن هناك ننحدر مع النيل حتى نصل الى مدينة دمياط حيث يصب هذا النهر في البحر، ثم نعود متجهين نحو الغرب متبعين بحر الاسكندرية وساحل صحراء برقة، فنصل الى رأس ميزوراط فطرابلس الغرب وما وراء ذلك الى جربة وقَرْقَنة، وهي جزر تتصل باليابسة قبالة المهراز (كذا) ومدينة قابس وخليجها، وصفاقص،

---

(13) دي لوس كوريانطيس .
(14) أو سِفالة .
(15) يسميها البعض كوّامة عند مصبه .
(16) وهي : بّا مْفسيس ، لُوّانكو ، أُرُويا ، مانيباوُو ، لاديْر ، زُويْنيا .
(17) أوكَواردفو.
(18) بحر القلزم باللغة العربية .
(19) ويقول آخرون 30 أو 40 فرسخا .

والمهدية التي يسميها المحدثون افريقية، وطبُلبو (20) والمنستير، وسوسة ، واقليبية، والحمامات، وبابل ولاكولات (حلق الواراد)، وقرطاجنة التي يسميها بعض المؤلفين الافارقة برفاق، وأوتيك المسماة بالعامية مرسى الدقيق ، وبنزرت، وعنابة، وتستور، والقالة، وكلها في مملكة تونس. ونسير بعيدا من هناك فنجد جيجل وبجاية، وتدلّس، ورأس مطافوز (21) والجزائر، وآثار سبفاري التي يسميها البعض غلطا قبر الرومية، وشرشال، وبريسكار، وتَنسَ، ومستغانم، وأرزيو، ووهران ، والمرسي الكبير، وأون (22) وغيساسة مليلية، وكلها أماكن شاطئية بمملكة تلمسان. ويوجد بعد ذلك يليز (كذا) وفيليز دي كومير أو بالأحرى : البّنيون (23) الواقع في البحر، فتطوان، وسبتة ، والقصر الصغير أو قصر مصمودة ، وهي داخل مضيق جبل طارق . ثم نعود الى المحيط حيث انطلقنا فنجد مدن طنجة، وأصيلا، والعرائش، والمعمورة، وسلا والرباط، وآنفا أو أنافى، والميناء في مرسى فضالة وأبصة (كذا) ، وكلها على شاطىء مملكة فاس. ومن هناك نسير وشاطىء مراكش حيث نجد آزمور، ومازكان التي يسميها العرب البريجة، وتيط، وقنط (24) ، وهما مدينتان خربتان. ثم آسفي، وتفتان (كذا) وماسة، ومنها بدأنا وصفنا الذي يشتمل هكذا على دائرة افريقيا كلها وسنتعرض الآن لتفاصيل الممالك والاقاليم والامارات التي تحتوي عليها.

---

(20) هناك قريتان تسمى إحداهما طُبُولُبُو والأخرى طُبُولُبًا .

(21) (كذا) يظهر أنه يقصد رأس البرج البحري الواقع الى الشرق من مدينة الجزائر .

(22) (كذا) ولعله يقصد هنين .

(23) أي الصخرة ، ويقصد حجرة بادس .

(24) تقع في المكان المسمى اليوم رأس كنطان على بعد 34 كلم شمال آسفي .

الفصل الخامس

الوصف العام لافريقيا حيث تذكر سلسلتان من الجبال تسميان الاطلس الكبير والاطلس الصغير.

تنقسم افريقيا التي بيّنّا حدودها إلى ستة أقسام، وهي بلاد البربر، وبلاد الجريد ، والصحراء، وايثيوبيا السفلى التي هي بلاد السود (25)، ومصر، وايثوبيا العليا. وتضمّ بلاد البربر، وهي أرض خصبة جدا مدنا كثيرة آهلة جدا بالسكان وتشتمل على الموريطانيتين (26) ونوميديا الجديدة ، وإقليم افريقية ، وليبيا المرمريكية . وأما بلاد الجريد أو بلاد التمر فأطلق عليها الاقدمون اسم جيتولي أو نوميدي، أي بلاد الرحل أو الرعاة (27) ، لأن هؤلاء القوم يجوبون البادية دائما وراء قطعانهم، ويسكن جلهم في أكواخ مصنوعة من أغصان الاشجار يسميها الاقدمون ماباليا، والصحراء التي تدل على القفر هي قسم من ليبيا الداخلية اقل اتساعا من غيرها. ويدخل بطليموس فيها أيضا بلاد العبيد التي هي بلاد الزنوج أو ايثيوبيا السفلى. وتحتوي ايثيوبيا العليا على مملكة الحبشة وجميع الاقاليم التي تنتهي الى بحر الجزيرة العربية والبحر الأحمر، مع ايثيوبيا الواقعة تحت مصر حيث مملكة ثوبيا أو النوبة (28) وتكتنف مصر ضفتي النيل من هذه المملكة وفي البحر المتوسط، ولها عدة مدن شهيرة جدا.

---

(25) وبعبارة أخرى بلاد العبيد أو كناوة .

(26) الطنجية والقيصرية .

(27) يسمي بطليموس قسم نوميديا الموغل في جهة الشرق ليبيا السيرومايكية أو البنطابوليسية لاشتاله على خمس مدن كبرى .

(28) هكذا يجعل ثلاث اثيوبيات العليا ، السفلى ، والتي تحت مصر ، لكنه يدخل هذه الأخيرة في الأولى .

وتفصل بلاد البربر على بلاد الجريد سلسلة طويلة من الجبال تسمى الجبال الكبيرة بلغة البلاد ، تمتد من الشرق الى الغرب ؛ ورغم أنها تنقطع في عدة أماكن الا أنها تتواصل من جبل ميس الواقع في طرف جبال الساحل ، ومن شاطىء مَزْرة الواقع على بعد ثمانين فرسخا من الاسكندرية من جهة الغرب ، الى الرأس الداخل في البحر المحيط الغربي قرب مدينة ماسّة . ويطلق أهل البلاد اسم آيدوَاكَال (29) على هذه السلسلة ، ويسميها بطليموس الأطلس الكبير محددا موقعها في الدرجة الثامنة من خط الطول والدرجة السادسة والعشرين والنصف من خط العرض .

والأطلس الصغير سلسلة جبال أخرى تسمى الريف ، تبتدىء من ساحل البحر المتوسط وتمتد من مضيق جبل طارق الى قرب عنابة ولما كان من الضروري عند التعرض للوصف الخاص للممالك والأقاليم أن نتكلم عن سكان هذه الجبال وكثير من غيرها الموجودة في افريقيا كلها ، فعلى القارىء أن يفهم من الأطلس الكبير الجبال الممتدة بين جبال البربر ونوميديا من ميّس الى آيدواكال، ومن الأطلس الصغير جبال الريف التي تبتدىء من مضيق جبل طارق الى ما فوق عنابة على طول البحر ، لكننا لن نهمل ذكر الاسم الخاص بكل واحد منها ، والقبائل التي تسكنها ، غير ناسين أي شيء جدير بالذكر .

(29) لعله تحريف لاسم (إِيدَاوْبَعْقيل) أو بعقيلة التي تُكوّن مع رسموكة وسملالة بلاد جزولة أو الأطلس الصغير ، لأن المؤلف على ما يظهر يعتبر الأطلس الصغير والمتوسط والكبير سلسلة واحدة (مترجم)

الفصل السادس

وصف بلاد البربر، وهو القسم الأول من افريقيا

تبتدىء بلاد البربر من جهة الغرب عند جبل آيدواكال، وتشمل مدينة ماسة وسائر اقليم سوس. ومن هناك تسير وشاطىء المحيط الغربي إلى أعمدة هرقل، ثم تمر بهذا المضيق إلى البحر المتوسط ممتدة الى تخوم الاسكندرية. وتحدها شرقا صحاري برقة تجاه مصر، وجنوبا طرف الأطلس الكبير المواجه للشمال.

يقول ابن الرقيق إن اسم بلاد البربر مشتق من البر الذي أطلقه العرب على البلاد قبل أن تكون آهلة، ومن ثم سموا سكانها برابر. لكن الرأي الشائع أكثر عند الافارقة أنها سميت هكذا باسم بعض السكان الذين كانوا يدعون بربر ويملكون حتى الآن عدة أراض في جينيوا والزنك حيث تقع مدينة بربرة، ويعتقد البعض الآخر أن الرومان، عندما احتلوا افريقيا، أطلقوا هذا الاسم على هؤلاء القوم بسبب عجمة لسانهم، فبقوا يعرفون به منذ ذلك العهد.

هذا الجزء هو أشرف أجزاء افريقيا في الوقت الراهن، لأن فهي أربع ممالك كبيرة تحتوي على اقاليم عديدة ومدن غنية جدا. وأول مملكة وأقصاها موقعا نحو الغرب هي مملكة مراكش، ثم مملكة فاس، وكلاهما في موريطانيا الطنجية. وبعدهما في جهة الشرق مملكة تلمسان، في موريطانيا القيصرية. وأما مملكة تونس فهي أقصاها من جهة الشرق، وتضم البلاد التي كانت تسمى بالذات افريقية.

تشتمل مملكة مراكش على سبعة اقاليم هي، ابتداء من الغرب حاحا وعاصمتها تَدْنِسْتْ؛ وسوس، وقاعدتها ترودانت التي جدد بناءها وجعل منها مدينة شهيرة والد مولاي عبد الله الملك الحالي لمراكش وفاس(30) ، لكنه ليس هو مؤسسها كما يتوهم البعض؛ وجزولةأو جتولة، حيث لا توجد أية مدينة أو قرية

(30) يقصد محمد المهدي الشيخ والد عبد الله الغالب (مترجم)

مسورة؛ وأقليم مراكش الذي كان يسمى قديما بوكانوإيميرو، وكانت أغمات عاصمته قبل أن يؤسس اللمتونيون مراكش؛ ودكالة، وكانت مدينتها الرئيسية تيط التي سميت هكذا - على ما يقال - باسم حفيد نوح الذي صحب معه (31) الى موريطانيا القبائل المسماة باسمه التيطيين. إلا أن البعض يريدون أن يكون مؤسسها مع المدن الساحلية الأخرى هو حانون عندما أرسله القرطاجنيون على رأس ستين سفينة شراعية ذات خمسين مجذافا ليعمروا مدن ليبيا الفينيقية، غير أن هذه المدينة دمرت مع آزمور، فأصبحت الآن آسفي هي عاصمة الاقليم ؛ وهسكورة أو دمنات، وعاصمتها المدينة (32)، وآخر الأقاليم تادلا ، وعاصمتها تفزة.

وتضم مملكة فاس أيضا سبعة أقاليم، أولها وأقصاها موقعا نحو الغرب تامسنا (33) وكانت عاصمتها في القديم آنافا أو أنفا الواقعة على ساحل المحيط، ولكنها خربت مع باقي المدن الاخرى؛ وثانيها إقليم فاس الذي كان القدماء يسمونه (فوليبيل) وليلي، وكانت عاصمتها تيوليت الواقعة في أعلى جبل زرهون أو زرهنون، ولكن منذ أن دمرت، أصبحت العاصمة هي مدينة فاس الشهيرة التي أسسها ادريس؛ وثالثها هو أزغار، وعاصمته القصر الكبير الذي بناه يعقوب المنصور (34)، وكانت العاصمة من قبل هي العرائش، ورابعها هو الهبط، وعاصمته طنجة أو طنشة التي أطلق اسمها على (موريطانيا) الطنجية، مع أن بعضهم يقولون إن هذا الشرف كان لسبتة في مدة من الزمن. وهاتان المدينتان يملكهما الآن ملك البرتغال ويقيم فيهما حرسا قويا، وخامسها هو الريف، وعاصمته فيليزدي كومير (حجرة بادس)؛ وسادسها هو كرط، وأعظم مدنه مليلية التي احتلها فليب الثاني، لكن الأفارقة منحوا هذه الرتبة لتزوطة؛ وسابعها هو الحوز (35)، وعاصمته تازا، رغم أن بني مرين جعلوا من دبدو مدينة عظيمة أخرى.

---

(31) لاحاجة إلى هذا التأويل ، إذ (تيط) كلمة بربرية معناها عين الماء الجارية . وهناك مواقع كثيرة تدعى (تيط) باسم العيون الجارية فيها (مترجم)

(32) أومْدين بحذف أل العربية . وقد ذكر الحسن الوزان في وصف افريقيا - 130:1 - (المْدينْ) هذه ووصفها ، الا أنه جعل عاصمة هسكورة (المدينة) وهي أخرى على بعد أربعة أميال من المدين (مترجم)

(33) كتبت في الاصل الفرنسي (تيميسين) وهو تحريف بيّن (مترجم)

(34) يقصد يعقوب المنصور الموحدي ، وهذا ما عند الحسن الوزان ايضا . انظر كتابه وصف افريقيا ، 234:1 هامش 92 (مترجم)

(35) كتب في الاصل الفرنسي (كوز) بدل (الحوز) و (تزار) بدل (تازا) ، وهو تحريف ظاهر (مترجم)

وتضم مملكة تلمسان أربعة أقاليم : الأول هو اقليم تلمسان، واسمه القديم تميفي (36) وكانت عاصمته هَرَفغول التي دمرت على الساحل، وأما الآن فالعاصمة هي ترمسان أو تلمسان، كما يسميها الأفارقة؛ والثاني هو اقليم تَنَس المسمى باسم العاصمة ؛ والثالث اقليم الجزائر الذي كان يسمى سيفاري وكذلك باسم العاصمة التي دمرت على الساحل، حيث مازالت تشاهد قبة يسميها المحدثون قبر الرومية، قرب ميناء الكشين (كذا). لكن العاصمة الآن هي مدينة الجزائر التي يسميها الأفارقة جزائربني مزغنة؛ والرابع اقليم بجاية الذي تحمل عاصمته نفس الاسم. ويجعل بعضهم هذا الاقليم في عداد مملكة تونس، غير أننا نجعله في اقليم تلمسان على نحو ما فعله بطليموس وغيره من المؤلفين المعتبرين، ولو أنه في الواقع كان خاضعا لملوك تونس وأمراء القيروان في فترة من الزمان.

وتوجد كذلك أربعة أقاليم في مملكة تونس : الأول اقليم قسنطينة (37) الذي يسميه بطليموس نوميديا الجديدة، وتحمل عاصمته اسم قسطنطين، أو قسنطينة حسب الافارقة؛ والثاني اقليم تونس، وكان اقليم قرطاجنة قديما سمي باسم هذه المدينة الشهيرة التي خربها الرومان في قديم الزمان، وهي محطمة الآن كما يقول بطراك بعد أن أعيد بناؤها ثلاث مرات؛ والثالث اقليم طرابلس الغرب الذي يحمل هو الآخر اسم العاصمة؛ والرابع اقليم الزاب، ويشكل قسما من نوميديا القديمة ومن ليبيا المرمريكية أو بنطابوليس، وكانت به من قبل خمس مدن جميلة هي بيرينيس وأرفينو، وبطوليميس، وأبوللني، وسيرين، وقد خربت كلها. ولنتكلم الآن عن صفات البلاد مبتدئين ببلاد البربر.

---

(36) (كذا) والذي عند أحمد توفيق المدني (كتاب الجزائر ، ص 202) أن أصل مدينة تلمسان قرية (ادغادير) ثم قرية (تاقرارت) فانضمت القريتان وأصبحتا تلمسان (مترجم)

(37) كتب في الاصل الفرنسي (قسنطنطين) .

الفصل السابع

الوصف العام لبلاد البربر

إن كل ساحل بلاد البربر المواجه للمحيط، بما فيه السهول الواقعة بين البحر المتوسط والأطلس الكبير، لبتداء من القسم الأخير لاقليم سوس الأكثر إيغالًا نحو الجنوب الى مضيق جبل طارق كله بلاد خصبة جداً، كثيرة القمح والشعير والماشية . فيها اجمل حقول افرقيا باقاليمها الأربعة : سوس، ودكالة، وتامسنا، وازغار، حيث جميع الأراضي مستوية، معتدلة المناخ، تسقيها عدة أنهار جميلة تنحدر من الأطلس الكبير لتصب في المحيط . والساحل الآخر المواجه للبحر المتوسط، من مضيق جبل طارق الى نهاية اقليم طرابلس الغرب، بلاد عالية ـــ منحدرة، مليئة بعدد كثير من الجبال الكبيرة، تمتد في عدة أماكن الى بعد ثلاثين وأربعين فرسخا داخل الأراضي . وبين هذه الجبال وجبال الأطلس الكبير سهول فسيحة في بعض الأماكن، وتلال صغيرة أو هضاب، وكلها كثيرة المزارع والمراعي . وهناك أيضا عدة عيون وجداول تنحدر من الجبال وتسير الى البحر لتصب فيه، راسمة منعرجات جميلة ذات ضفاف هادئة شيقة مليئة بالغياض والخضرة التي تحتفظ بالبرودة، لا سيما في ضواحي مدينة القيروان، لأن الأرض هناك قحلة رملية . وفيما وراء هذه السهول في اتجاه الجنوب، ترتفع البلاد وكأنها تتدرج حتى جبال الأطلس الكبير . وعلى هذه المرتفعات في أماكن مختلفة غابات عظيمة يعيش في داخلها عدد كثير من الوحوش، لكن الأرض لا تنتج كثيراً من القمح . فساحل بلاد البربر المسمى بالريف، حيث تنتهي جبال الأطلس الصغير يعطي الرطوبة اكثر من الحرارة، فلا يحصل بسبب ذلك قمح كثير، ولكن بالمقابل ينتج كمية من الشعير تتغذى بها هذه القبائل . و في كل هذه الجبال غابات كبيرة فيها كثير من القردة والأسد وغيرها من الوحوش . والأرض صالحة جدا لرعى الماشية، لأن الكلأ ينبت فيها بغزارة . وهناك أيضا عدة أماكن للوقاية من

حرارة الشمس في الصيف، لكن الثلج يسقط فيها أثناء الشتاء بمقدار عظيم حتى إن القطعان تموت أحيانا من جراء ذلك إن لم تسحب باكراً إلى السهول.

والأطلس الكبير غير صالح للسكن في بعض المواضع لشدة البرودة أو الصلابة والوعورة، أو لكثافة الغابات وعلوها في شعاب مظلمة عميقة، حيث منابع أكبر أنهار البلاد، لكنه في مواضع أخرى أكثر ليونة واعتدالا، حيث توجد قرى كبيرة آهلة بالبرابرة الافارقة. وجبال الأطلس الكبير الأكثر وعورة والأصعب مسالك تتاخم اقليم تامسنا، والأكثر برودة تتخام اقليم مراكش، لذلك فان القطعان تساق اليهافي الصيف، من أجل الكلا الكثير الذي ينبت بها. الا أن هذه القطعان تخرج منها قبل تساقط الثلوج، لأن برد الرياح يكون إذ ذاك قارساً الى حد انه يتسبب في هلاك الماشية وحتى رعاتها. ويوجد في هذه الجبال مضيق قرب مدينة أغمات يمر منه النوميديون كل سنة الى بلاد البربر في شهر أكتوبر بجمالهم المحملة بالتمر، لكن الثلج يسقط فيه أحيانا بغزارة فيصل الى علو رمح في ليلة واحدة، ويغمر الرجال والبهائم. أما الجبال المتاخمة لمملكتي تلمسان وتونس، فإنها أقل صلابة. وتعطي شيئا من القمح. وفي بعض الأماكن منها أيضا كمية من القطعان، والأرض أكثر اعتدالًا، كما سنرى ذلك في الوصف الذي سنخصصه لها.

الفصل الثامن

فصول السنة وخاصياتها في بلاد البربر

تبتدىء الأمطار ببلاد البربر في آخر شهر أكتوبر، لكن البرد يستمر حتى آخر يناير، غير أنه أخف من برد مملكتي قشتالة وغرناطة، اذ لايكون البرد الا في الصباح، ولا يُلجأ الى التسخين بعد الزوال. ويبدأ البرد يخف في شهر فبراير، ويتغير الطقس ثلاث مرات أو أربعا في اليوم. وفي مارس تنتشر الرياح الغربية والشمالية في أوائل أبريل، فتحيى الأرض وتزهر الأشجار، بحيث إن الفواكه تكاد تكون كلها مكوّنة. وفي مملكة فاس وتلمسان وتونس، وبعض الأماكن من مملكة مراكش ، ينضج الكرز (حب الملوك) في آخر أبريل ، وباكور التين في منتصف ماي، ويبدأ العنب ينضج في أواخر يونيو. وفي بداية يوليوز يوجد الاجاص والتفاح والخوخ والمشمش وسائر الفواكه التي تأتي في نفس الفصل. وينضج التين منذ بداية غشت وعند دخول شهر شتنبر تكون جميع أصناف الفواكه ناضجة. وحينئذ يجفف الأفارقة العنب، إلا أنه اذا سقط المطر أو كان ضباب او ندى كثير، كما يحدث ذلك غالبا، فان العنب لا يجف كما ينبغي فيجعلون منه دبسا او خمرا مطبوخة (صامتا) تصلح عادة كشراب لبربر الأطلس الصغير. ويجنون الزيتون في شهر نونبر، لكن أشجار الزيتون بموريطانيا أضخم وأعلى من التي توجد في مملكة تونس،ولها سنة جسنة وسنة سيئة بالتوالي، كما هو الشأن بأروبا.

يبدأ الربيع ببلاد البربر في الخامس عشر من فبراير، وينتهي في الثامن عشر من ماي. وهذان الشهران معتدلان دائما، ويكون الهواء فيهما لطيفا. وان لم يسقط المطر في تلك البلاد من خامس وعشري أبريل الى خامس ماي تكون المجاعة، اذ تعتبر هذه الفترة كمفتاح للسنة.

ويبدأ الصيف في التاسع عشر من ماي، وينتهي في السادس عشر من غشت، وتكون الحرارة قوية جدا أثناء هذه المدة، لكن التي لا تحتمل أكثر هي

حرارة شهري يونيو ويوليوز حيث يكون الظل غير خطير. وتسبب أمطار يوليوز وغشت عدة أمراض خصوصا الحمى الوبائية.

ويبدأ الخريف في سابع عشر غشت، وينتهي في سادس عشر نونبر، غير أن الحرارة تأخذ في الانخفاض منذ شهري غشت وشتنبر.

ويبدأ فصل الشتاء في شابع عشر نونبر وينتهي في رابع عشر فبراير، بمجرد دخول شهر نونبر يشرع الفلاحون في زرع الاراضي في السهول، إلا أنهم في الجبال يزرعون منذ شهر أكتوبر.

يعد الأفارقة في السنة أربعين يوما من البرد القارس، وأربعين يوما من الحر الشديد. يدوم البرد القارس من ثاني عشر دجنبر الى العشرين من يناير، والحر الشديد من ثاني عشر يونيو الى الواحد والعشرين من يوليوز. ويحسبون الاعتدالين في سادس عشر مارس، وسادس عشر شتنبر، والانقلاب الصيفي في سادس عشر يونيو، والشتوي في سادس عشر دجنبر، وعلى ذلك ينظمون فلاحتهم وملاحتهم.

وهناك عدد كبير من هؤلاء القوم أميون، سواء من الأفارقة أو العرب، لا يحسنون القراءة ولا الكتابة، لكنهم يدلون بمبررات كافية في شأن الحرث بواسطة قواعد الفلك، ويستخرجون هذه القواعد من كتاب **كنز الفلاحة** الذي ترجم من اللاتنية الى العربية في مدينة قرطبة على عهد يعقوب المنصور ملك مراكش وخليفتها. يحتوي هذا الكتاب على شهور السنة الاثني عشر باللاتنية، ويتبعونها بما يخص الحرث، لكنهم يتبعون الشهور القمرية في أعيادهم وصيامهم، كالعرب الذين تتكون سنتهم من ثلاثمائة وأربعة وخمسين يوما، أي بنقصان أحد عشر يوما من سنتنا (الشمسية). ولهذا النسبب فان هذه الأعياد تتغير دائما ولاتأتي أبدا في نفس الوقت. وعندما ينتهي الخريف، وفي أوائل الربيع وأثناء الشتاء كلها تنزل أمطار غزيرة مصحوبة بالرعد والبرق، وتسقط الصواعق في عدة أماكن كما يسقط الثلج والبرد، وتهب في بلاد البربر ثلاثة أصناف من الرياح الخطيرة جدا، وهي الشرقية، والجنوبية، والجنوبية الشرقية، وبالأخص في شهر ماي ويونيو، حيث تيبس جميع المحصولات وتحول دون نضج الثمار. ويكثر أيضا الضباب في تلك الفترة ويكون خطيرا، وليس للسنة في جبال الأطلس الكبير سوى فصلين اثنين، اذ يدوم فصل الشتاء من شهر أكتوبر الى شهر أبريل، وتسقط الثلوج بكثرة الى حد أن السكان يضطرون كل صباح الى ازالتها من امام أبواب بيوتهم ليتمكنوا من الدخول

والخروج. ومن أبريل الى شتنبر تكون أشهر الصيف الستة. لكن قمم الجبال تظل مغطاة بالثلوج طوال السنة، لاسيما في موريطانيا. وينبت القمح تحت الثلج في كثير من الأماكن، وكلما ذاب الثلج بدأت تظهر السيقان، وتجنى في جميع هذه الجبال كمية من الشعير، لأن السكان رغم كون الأراضي وعرة حجرية، يتخذون سطوحا من الحدور التي يزرعونها بعد دعم الأرض بالجدران . ومحصول الشعير فيها جيد جدا وغليظ ، رغم أنه حامض بعض الشيء يزعج أضراس الخيل .

الفصل التاسع
أشهر أنهار بلاد البربر

واد سوس

اتخذ اقليم سوس اسمه من نهر هو أكبر أنهار بلاد البربر في جهة الغرب، ويدعي بعضهم أنه هو الجزيرة التي كان بها قصر آنطي وحدائق هسبريد. ويبدو مع ذلك أنه هو أونة بطليموس التي يجعلها في الدرجة الثامنة طولا، وفي الثامنة والعشرين وثلاثين دقيقة عرضا . يخرج هذا النهر من الأطلس الكبير، بين هذا الاقليم واقليم حاحا . ثم يخترق سهول سوس متجها نحو الجنوب الى ان يصب في المحيط قرب كَرسطن (كذا) . ويسقي أكثر البلاد خصبا وسكانا في تلك المنطقة : ويتخذ منه السكان جداول يسقون بها حقول قصب السكر . ويفيض في الشتاء حتى لا يعبر من اي مكان الا أنه في الصيف يمكن عبوره من كل جهة .

وادتنسيفْتْ

وهناك نهر كبير آخر يسمى تنسيفت، يخرج أيضا من الأطلس الكبير قرب مدينة أغماي في أقليم مراكش، فيخترق اقليم دكالة ويذهب ليصب في المحيط قرب آسفي، بعد أن يكون قد تلقى أنهارا عديدة من هذه الجبال . وأهمها أسيف المال الذي ينبع من جبل سيكسيوا (38) فوق مراكش ، وواد نفوسة الذي يخرج كذلك من الأطلس الكبير في أعلى مراكش، وأغمات الاتي من بحيرة قرب المدينة التي تحمل نفس الاسم وكانت من قبل عاصمة لهذا الاقليم-كما ذكرنا-وتقع في نفس الأطلس . تنحدر هذه الأنهر من الجبال ، وبعد أن تخترق السهول الخصبة الفسيحة لهذين الاقليمين تسير الى أن تنضم الى تنسيفت الذي يمكن رغم عمقه

---

(38) أوسيكْسْيِيوَا .

عبوره في بعض المواضع صيفا، سواء على الأقدام أو ركوبا على الخيل . ويوجد بالقرب من مراكش جسر مبني بالحجر مركب من خمس عشرة حنية، وهو أحد البيانات الجميلة بافريقيا، بناه -على ما يقال- يعقوب المنصور ملك مراكش وخليفتها، لكن أبا دبوس آخر الملوك الموحدين أمر بهدم ثلاث حنايا منها أثناء حربه مع يعقوب أول ملوك بني مرين، ليمنع بذلك حصار مراكش، غير أن عمله هذا ذهب سدىً لأن خصمه مر من مكان آخر وعزله عن ملكه . ولم يعد بعد ذلك بناء هذه الحنايا الثلاث . يطلق بطليموس على مصب هذا النهر اسم أسمة، ويجعله في الدرجة السابعة طولا، والثانية والثلاثين عرضا

واد تِساوين

تساوين : نهران ينبعان من عينين نضاختين، تبعد إحداهما عن الاخرى بمسافة فرسخ في جبل غجدامة الذي هو جزء من الأطلس الكبير، وبعد أن يخترقا سهول قليم هسكورة يصبان في واد العبيد، كما يدعوه أهل البلاد . ويسمى كل من هذين النهرين تاساوت، ويسميان معا مجتمعين تساوين، ومعناها باللغة الافريقية الأطراف او التخوم . ويسقيان السهول التي يمران بها بواسطة جداول تستخرج منها، فينتج عن ذلك كمّيّة من القمح والشعير والدخن والكندي (كذا) وكثير من الخضر .

واد العبيد :

واد العبيد، معناه نهر الزنوج أو الرقيق بلغة البلاد، ينبع أيضا من أحد جبال الأطلس الكبير المسمى أنماي بين اقليمي هسكورة وتادلا، وبعد أن يمر بصخور وعرة وشعاب عميقة مظلمة يتوجه نحو الشمال حافرا مجراه بكيفية لا تسمح بأخذ أي ماء منه لسقي الحقول . وانطلاقا من هناك بعد أن يتضخم بمياه تساوين وأنهار أخرى صغيرة يصب في أم الربيع، قرب معبر عريض وآمن جدا يسميه الأفارقة مشرع الصفا، أي المعبر المنبسط . وترتفع مياه هذا النهر الى أقصى حد، بصفة خاصة في شهر ماي حيث تذوب الثلوج في الجبال .

أم الربيع

وأم الربيع نهر ضخم ينبع من أحد جبال الأطلس الكبير، بين اقليم تادلا ومملكة فاس ، حيث يجري بين سهول أدكسوم (39) ، ثم بعد توغله في واد ضيق

(39) (كذا) ولعله تحريف لاسم أدخسان (مترجم)

يتجمع بحيث يعبر على جسر جميل بناه أبو الحسن رابع ملوك بني مرين (40) . وانطلاقا من هناك في اتجاه الجنوب يخترق سهولا تفصل اقليم تامسنا عن اقليمي تادلا ودكالة، ثم يسير ليصب في المحيط قرب آزمور آخذا معه واد العبيد، ونهرا آخر يدعى درنة ينحدر هو الآخر من هذه الجبال . نهر أم الربيع غير صالح للعبور ماعدا في الصيف وفي الاماكن التي يتسع فيها في السهول خاصة، والا فيعبره السكان عوما على حزم من القصب مرفوعة على جلود منفوخة، وذلك لعدم وجود أي جسر . وهذا النهر مليء بالشابل إلى حدّ أنه تُزوّد به مدينة مراكش والأقاليم المجاورة، فصلاً عما يحمل منه بمقادير كبيرة أيضا الى بلاد الاندلس والبرتغال . ويصطاد عادةً في أواسط ماي، وكان ملك الرتغال يحصل منه على فوائد كبيرة عند ما كان يملك مدينة آزمور، لكن الشريف (السعدي) يمنح الان هذا الحق لتجار مسيحيين . يسمي بطليموس هذا النهر روسبيد، ويجعل مصبه في الدرجة السادسة واربعين دقيقة طولا، وفي الدرجة الثانية والثلاثين وثلاثين دقيقة عرضا . وهذا المصب صعب جدا، الأمر الذي من أجله تخلى ملك البرتغال عن هذه المدينة بعد أن احتلها.

أبو رقراق :

أبو رقراق نهر كبير يخرج كذلك من أحد جبال الأطلس الكبير في مملكة فاس، و يبدأ الجريان في أودية عميقة جداً بين جبال شاهقة، ثم بعد مروره بين تلال صغيرة يسير في سهول، ومن هناك الى المحيط ليصب فيه بين سلا والرباط اللتين لاميناء لهما سوى مصبه . ويسميها بطليموس سلا ويجعلها في الدرجة السادسة وعشر دقائق طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وعشر دقائق عرضا . ومصب أبي رقراق كثير الأخطار على السفن، حتى إن السكان يستعملونه كوسيلة دفاع ضد النصارى.

واد بَهْث :

بهت وبهيت نهران ينبعان أيضا في جبال الأطلس الكبير بمملكة فاس، حيث يجمعان كمّيّة من المياه، ويندفعان من هناك كالسيول في البداية من جبال

---

(40) ليس ابو الحسن رابع ملوك بني مرين ، وانما هو الحادي عشر منهم (مترجم)

عالية، ثم ينحدران شيئا الى جبال أخرى أقل ارتفاعا، ويصلان الى سهول ازغار حيث يتحولان الى بحيرات مليئة بكمية وافرة من السمك . يسكن حول هذه البحيرات عدد كثير من اعراب الخُلْط وبني مالك سُفيان، حيث يرعون قطعانهم ويحصلون على الكثير من السمن والسمك، إلى حد أن إفراطهم في أكلها يتسبب لهم في مرض شبيه بالجذام . وماء هذين النهرين ممتاز ضد الحصى، الشيء الذي يجلب اليه العديد من الناس سواء من فاس ومكناس أو غيرهما من الأماكن . ويسيل هذان النهران متقاربين بعض الشيء، ويمكن عبورهما طوال السنة، ماعدا أيام الشتاء أو عند ذوبان الثلوج في الجبال.

واد سبو :

سبو هو أحد الانهار الكبرى ببلاد البربر . ينبع في سِلِليكَو أحد جبال الأطلس الكبير باقليم الحوز، ويخرج من واد عميق مظلم ليسير من هناك بين جبال عالية ثم بين تلال، منحدرا الى سهول، مارا على بعد فرسخ ونصف من فاس، وبعد أن يفصل بين إقليم الهبط وأزغار يصب في المحيط قرب مدينة المعمورة. وتصب في سبو أنهار عديدة، مثل ورغة وأَوْدُورْ اللذين ينحدران من جبال غمارة أو الريف . وقال بعضهم — خطأ — إن عيونه آتية من جبال غياتة وزرهون كما لوسحب معه هذه الأنهر وغيرها على حدّ سواء من إمارة تازا ومملكة فاس، مع نهر آخر يسمى إِنَّاوْنْ خَلْوَان الذي ينبع في أعلى فاس . وعلى الرغم من عظمة سبو، فانه يمكن عبوره في بعض الأماكن، باستثناء فصل الشتاء أو الربيع حيث يعبر فيهما على الزوارق . ويكثر السمك في هذا النهر، وخصوصا الشابل الجيّد، فتتزود منه مدينة فاس وعدة مدن أخرى بالاقليم بثمن بخس . ويتسع سبو في المصب الى درجة أنه يستطيع اقتبال سفن كبيرة . ويمكن السفر على متنه الى فاس لو كان سكان هذه المناطق عقلاء، لأن ذلك سيجعلهم لا يشترون القمح المحمول اليهم برًّا من ازغار بضعف ثمنه . ويسمى بطليموس هذا النهر سبُور، ويجعل مصبه في الدرجة العاشرة وعشرين دقيقة طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وثماني عشرة دقيقة عرضا.

واد لُكُوسْ

لكوس نهر كبير ينبع في جبال غمارة، ثم يتجه نحو المغرب مخترقا إقليمي أزغار والهبط، ومن هناك يمر قرب القصر الكبير مكوّنا بحيرات كبيرة كثيرة

السمك، ثم يسير حيث ترسو بعض السفن المسيحية المحملة بالبضائع الاروبية، إلا أن مدخله صعب جدًا لدرجة أن الربّان يتعرض للهلاك ان لم تكن له حنكة كبيرة . يسمى بطليموس هذا النهر ليس، ويجعل مصبه في الدرجة السادسة وعشرين دقيقة طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين وخمس عشرة دقيقة عرضا .

واد أمْلاَلُّو :

أمْلاَلّو(*) نهر آخر كبير يخرج من أحد جبال الأطلس الكبير، بين مدينتي تازا ود بدو ، لكنه أقرب الى هذه الأخيرة منه الى الأولى ، فيخترق المفازات الجافة الوعرة بترايست (كذا) وتَفْرَطة ، ويسير ليرتمي في ملوكان .

واد ملوكان (ملوية ؟)

ملـــوكان (40م) نهر كبير ينبع أيضا في الأطلس الكبير، على بعد تسعة فراسخ من كرسلوين في اقليم الحوز، ثمّ ينحدر مخترفا مفازات وعرة قاحلة، متوغلا في أخرى (41) أكثر وعورة وقحولة، فيسقي سفوح جبال بني يزناسن، ثمّ يمر مسرعا كالنبل غرب مدينة تساسة (كذا) ليرتمي قريبا منها في البحر، حاملًا معه أملالو وغيره من الأنهر المنحدرة من نفس الجبال . ورغم كونه عريضا جدا فانه لا يخلو من معابر في عدة أماكن تجعل عبوره سهلا في الصيف، واعتاد المسيحيون أن يسيروا فيه بزوارقهم متسترين بأوراق الاشجار والاغصان ليفاجئوا المسلمين الذين يذهبون للصيد أو لمزاولة أعمالهم، لأن النهر كثير السمك عند المصب، وسمكه جيد . ويسميه بطليموس مولوكار، ويجعله في الدرجة العاشرة وخمس وأربعين دقيقة طولا ، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد زيز وواد الهبرة :

زيز (41م) والهبرة نهران يلتقيان في سهل سراط في مكان يعرف باسم شَمُرّة . ينبع الاول من الاطلس الكبير، منحدرا من أحد جوانب مفازة أنكَاد بين

(*) كتب في الأصل الفرنسي « ملولو » . وما أثبتناه هو المطابق لنطق السكان الآن (مترجم)

(40م) لعله تحريف « ملُوكيين سيدي عبد الله » بأعلى ملوية على بعد نحو عشرة كيلو مترات من كرسيف ، في اتجاه منبع ملوية . ولكن الظاهر أنه يقصد « واد ملوية » الكبير (مترجم)

(41) هى مفازات أنكَاد وكرط .

(41م) خطأ واضح ، لأن زيز من الأنهر التي تندثر في الصحراء ، ولعل مارمول يقصد واد إيسلي الذي يصب في واد تافنة . أما الهبرة فقبيلة عربية من فروع بني مالك تقطن على ضفاف واد الشلف (مترجم)

مملكتي فاس وتلمسان، وهو لا يفيض في أغلب الأحيان، لكنه كثير العمق دائما، ومع أنه مليء بالسمك الا أن الاصطياد فيه يصعب جدا من أجل شدة صفاء مائه . وينبع الثاني قرب معسكر في امارة بني راشد او بني عراش بمملكة تلمسان، وبعد انضمامه الى الاول يصبان معا في البحر المتوسط قرب أطلال أرزيو القديمة، ويسميان سراط باسم السهل الذي يمران به . وعلى ضفافه يقطن أعراب أقوياء يدعون بني عامر، كثيرا ما يشنون الغارات (من ثم) الى وهران .

واد تافْنة

تافنة نهر صغير يخرج من جبال الأطلس قرب نوميديا القديمة، فيجري نحو الشمال مخترقا مفازة أنكاد ليصب في البحر المتوسط ، على بعد سبعة فراسخ من وهران الى جهة الغرب . وهو قليل السمك، ويسمى نهر أرسكول . ويسميه بطليموس سگة، ويجعل مصبه في الدرجة الحادية والعشرين طولا، وفي الدرجة الرابعة والثلاثين وأربعين دقيقة عرضا .

واد مِينا :

ونهر مينا كبير بعض الشيء، ينحدر من نفس الجبال ثم يمر في سهول وعرة قاحلة، حيث تقع مدينة بطاحة، ويجري نحو الشمال الى البحر المتوسط قرب أرزيو ويسميه المغاربة منذ عهد قريب سينا، باسم أحد الأولياء الذي أعاد بناء بطاحة بعد أن خربها بنو مرين . ويسمي بطليموس هذا النهر قلماط، ويجعل مصبه في الدرجة الثالثة عشرة طولا والرابعة والثلاثين عرضا .

واد الشّلَف

الشلف نهر كبير ينبع من جبال ونشريس ، ثم ينحدر مارا بسهول خالية بين تنس وتلمسان، ويذهب ليصب في البحر المتوسط قرب مستغانم من جهة الشرق . وصيد السمك طيب جدا في مصبه الذي يجعله بطليموس في الدرجة الرابعة عشرة وخمس عشرة دقيقة عرضا، ويسميه كرطين، ويسكن على ضفافه اعراب أثرياءشجعان يسمون اولاد سعيد، يفوق عدد الراجلين منهم ثلاثين ألفا، والفرسان ألفين .

واد سلف

سلف (42) نهر ضخم يخرج من الأطلس الكبير فيحاذي سهول متيجة من أحد جوانبها، ثم يسير ليصب في البحر المتوسط، على بعد خمسة فراسخ من الجزائر العاصمة الى جهة الغرب. ويكسوه من كلا الجانبين كمّيّة كبيرة من الأشجار ذات الظلال الظليلة ويحمل اسم مازفران (43) قرب مصبه، حيث يسميه بطليموس قِنَلاف، ويجعله في الدرجة السادسة عشرة وأربعين دقيقة طوالا، وفي الدرجة الثالثة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا.

واد سِفاية :

ينبع سفاية من الأطلس الكبير، وبعد أن يخترق سهول متيجة يصب في البحر المتوسط شرقي مدينة الجزائر، قريبا قليلا من أنقاض ميتافوس التي كان الأفارقة يسمونها تَمَنْدفوست. وبين هذه المدينة ومدينة الجزائر يصب في بحر نهران آخران (44) ينحدران من نفس الجبال ويفيضان قليلا في الشتاء، لكنهما ينقصان في الصيف. ويسميه بطليموس سفاية صاف، ويجعل مصبه في الدرجة الثامنة عشرة وعشر دقائق طولا، والدرجة الثالثة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا.

واد يَسّر :

واد يسر نهر ضخم ينبع في الأطلس الكبير على حدود نوميديا، ثم يسيل نحو الشمال ويصب في البحر المتوسط، شرقي أنقاض مدينة ميتافوس، قرب قرية بني عبد الله في دلس(45) حيث تصطاد كمية من السمك. يسميه بطليموس سربت، ويجعل مصبه في الدرجة التاسعة عشرة وثلاثين دقيقة طولا، وفي الدرجة الثانية والثلاثين وخمسين دقيقة عرضا.

الواد الكبير :

الواد الكبير ينبع هو الآخر من الأطلس الكبير في جهة اقليم الزاب، ويمر بين جبال شاهقة ثم يسير ليصب في البحر المتوسط، قرب بجاية(46) ويرتفع كثيرا

---

(42) بعله يقصد وادي الشّفة المنحدر من جبال الاطلس المتيجي (مترجم)

(43) كتب في الاصل الفرنسي : أصفران.

(44) هما واد الحراش، وواد الحميز.

(45) بل يصب قرب مندورة غربي رأس جينيت، بعيدا نسبيا عن دلس.

(46) بل قرب جيجل.

عندما تنزل الأمطار وتذوب الثلوج، لأنه يتلقى عدة جداول تنحدر من هذه الجبال . وهو مليء بالأسماك لكن سكان هذه المدينة لايولونها كبير اهتمام ، لأنهم يفضلون عليها اسماك البحر . يسمي النصارى هذا النهر زنكنور، ويسميه بطليموس نافاووقنا،ويجعل مصبه في الدرجة الثانية والثلاثين ونصف درجة عرضا .

واد سوف غمـار :

واد سوف غمار(47) نهر كبير آخر ينبع من نواحي جبل أوراس باقليم بجاية، ثم ينحدر مارا بسهول يابسة قحلة، فيسقي أسوار قسطنطينية، حيث يلتقي بالرافد مرزوخ ويتابع سيلانه تجاه الشمال مخترقا جبال وعرة جدا ليصب في البحر المتوسط . ويفصل هذا النهر أراضي القل عن آراضي جشار،آي يفصل موريطانيا القيصرية عن اقليم إفريقية . ويسميه بطليموس امبساك، جاعلا مصبه في الدرجة السادسة والعشرين وخمس عشرة دقيقة طولا ، والدرجة الواحدة والثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد يدوش :

وينبع يدوش (48) أيضا من الأطلس الكبير قرب قسنطينة، ثم يسيل مسرعا منذ خروجه من منبعه بين الجبال، منحدرا الى سهول، الى أن يصبب في البحر المتوسط على بعد فرسخ من عنابة الى جهة الشرق . وعلى بعد فرسخ من أعلى مصبه مازالت تشاهد بعض بقايا هِبّون التي كان أسقفها هوسان أوغوستان، ويجعلها بطليموس في الدرجة الثلاثين وعشرين دقيقة طولا،وفي الثانية والثلاثين وخمس وعشرين دقيقة عرضا .

واد البربر :

واد البربر(49) هو نهر آخر كبير، ينبع أيضا من الأطلس الكبير قرب مدينة لوربوس، في مملكة تونس، وله منعطفات ومنعرجات كثيرة في هذه الجبال الى حد

---

(47) يقصد – ولا شك – أحد أصول أو روافد واد القبلي الحالي . وسوف ربما كانت تحريفا لكلمة « أسيف » البربرية بمعنى النهر .(مترجم)

(48) لعله يقصد واد سيبوس الحالي .

(49) لعله المسمى اليوم واد الزوارة .

أن المسافرين من عنابة الى تونس يعبرونه خمسا وعشرين مرة، بدون أن يوجد أي جسر أو زوزرق أثناء مثل هذا المجرى الطويل . ويصب أخيرا في البحر قرب ميناء تيورك، على بعد ستة فراسخ من مدينة باجة . يسميه بطليموس روبريكات، ويجعل مصبه في الدرجة الثلاثين وخمس وأربعين دقيقة طولا، وفي الدرجة الخامسة والثلاثين وعشرين دقيقة عرضا، وتستخرج كمية كبيرة من العقيق من جوانبه الى مدينة عنابة (49م) .

واد مُجَرْدة :

مجردة نهر أكبر من سابقيه، ينبع من نفس الجبال في المكان الذي يتاخم اقليم الزاب، غيز بعيد من مدينة تبسة، يتجه نحو الشمال في منعرجات كبيرة، ثم يدور في اتجاه البحر، على بعد فرسخين من تونس، فيتابع سيره قاطعا ثلاثة عشر فرسخا(50) الى جهة الغرب، ثم يصب في البحر . يرتفع ماؤه كثيرا عندما تسقط الأمطار، فيتوقف المسافرون أحيانا خمسة أيام أو ستة، لعدم وجود جسر أو سفينة، ويسميه بطليموس براگادة، ويجعل مصبه في الدرجة الثامنة والثلاثين وأربعين دقيقة طولا ، وفي الدرجة الثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد قابس :

ينبع نهر قابس من جبل باخليف في مفازات ليبيا، ويسيل في رمال ناعمة متجها نحو البحر حيث يصب قرب مدينة قابس . وماؤه ملح وحار جدا عندما يستقى حتى إنه لابد من تركه يبرد في الهواء الطلق ساعة قبل أن يشرب . يسميه بطليموس تريتون، ويجعل مصبه في الدرجة الثامنة والثلاثين وأربعين دقيقة طولا، وفي الدرجة الثلاثين وخمس وأربعين دقيقة عرضا .

واد ماجرو :

ماجرو نهر آخر ينحدر من الأطلس الكبير، قرب جبل ميِّس، ثم يصب في البحر قرب طرابلس الغرب مخترقا الرمال الناعمة لهذه المفازات . يسميه بطليموس سينف، ويجعل مصبه في الدرجة الثانية والأربعين وخمس وعشرين دقيقة طولا، وفي الدرجة الواحدة والثلاثين وثلاثين دقيقة عرضا .

(49م) يتبع مارمول – على عادته – الحسن الوزان وينقل ما في كتابه وصف إفريقيا على علاته . انظر التعليقين رقم 18 و 19 من ترجمتنا لكتاب الوزان ، 2|253 .

(50) في غار الملح .

الفصل العاشر

بلاد الجريد التي كان القدماء يسمونها نوميديا أو حيتولا

يحدّ المحيط بلاد الجريد من جهة الغرب، من مدينة ماسّة في اقليم سوس الى رأس نون، وهو ما يطلق عليه الأفارقة اسم السوس الأقصى، لكنها تمتد من جهة الشرق الى مدينة الواحات التي تقع على بعد ثلاثين فرسخا من مصر. وتحدّها شمالا جبال الأطلس الكبير التي تفصلها عن بلاد البربر، وجنوبا مفازات ليبيا أو الصحراء. وهذا القسم من افريقيا أقلّ اعتبارا من بلاد البربر، لأنه يشتمل على مفازات كبيرة جدا وأماكن قاحلة، وحتى المسكونة منها يبعد كثيرا بعضها عن بعض، لا سيما في اتجاه الصحراء حيث يقلّ الماء ولا يكاد يوجد. وكثيرا ما يتحدث الكتاب الأفارقة عن هذه المناطق، لأنه خرج منها عدّة مرات قبائل محاربة حكمت افريقيا في مختلف العصور، وخصوصا منهم المرابطين الذين دخلوا الى بلاد البربر وهم في غاية القوة، الا أن هؤلاء الكتاب لو يطلقوا اسم مملكة على أية واحدة من هذه المناطق. وهاهي أهمّ إمارات نوميديا :

سجلماسة : المتاخمة للموريطانيتين ؛

والزاب الذي ينتهي عند جبال بجاية وقسنطينة ؛

وبلاد الجريد الصغرى الممتدة الى الأطلس الكبير، في المكان الذي يتاخم فيه مملكة تونس، من قسنطينة الى طرف جبل ميس وتسمى جميع هذه المساحات الشاسعة بلاد التمر(50م) بسبب الكمية الهائلة التي تجنى منه هناك. وقد بسط ملوك بلاد البربر نفوذهم عليها مرارا ، ويملك معظمها حتى الآن ملوك مراكش وفاس وتونس ، بينما يملك الأتراك تلمسان. لكنّ أغلب هذه الشعوب خاضعة لحكم أشراف بلادهم، ولهم شيوخهم أو أمراؤهم الخاصون. وهم شديدو البأس كثيرو العدد. ولو كان جهازهم الحربي يناسب قيمتهم، كما هو الحال بأوربا، لحقّقوا أعمالا حربية عظيمة.

(50م) وهذا هو معنى كلمة بلاد الجريد .

وليس في **سجلماسة** إلا مدينة واحدة تحمل نفس الاسم، وتحكم الاقليم كلّه. وفي **الزاب** أيضا خمس مدن، أهمّها بسكرة التي يحتلّها الآن أتراك الجزائر، اذ استوى عليها حسن أغا أثناء حكمه. وباقي المدن هي بورجيو، ونفطة، وتُلْغَة، ودَوْسَن. ويشتمل الاقليم المسمّى بلاد الجريد بالذات على خمس مدن كذلك، عاصمتها توزر، بينما الأخرى هي قفصة، ونفزاوة، وتوركو، ولستيتن. وحتى لا أطيل في الوصف العام، سأقتصر هنا ذكر المدن العظمى التي يعيش أكثرها في نظام جماعي. وهذه المدن هي تشيت، ودان، وإفران، وأقّا، ودرعة، وتفوست (كذا)، وكنانة (كذا) ومضغرة، وتفيلت (كذا) والرّتب، وتبَلْبَت، وتُدغة، وفَرْكْلَة، وتَزَرين، وبني كَومي، ومزالق، وأبوعنان، والقصيّر، وبني بصري، وواحدي (51) وفيكَيكَ، وتيكَرارين، ومزاب، ووركَلة : وهي مدينة كثيرة السكان قريبة من أكَدز بإقليم اثيوبيا السفلى.

---

(51) كذا في الأصل الفرنسي ، وهو « وكدة » حسب التسلسل عند الحسن الوزان في وصف افريقيا . (مترجم) .

الفصل الحادي عشر
حالة البلاد

هذا القسم من افريقيا أشد حرارة من بلاد البربر، لانه يقع جنوب جبل الأطلس، لذلك فانه يكاد يكون كله مجدبا، وينقصه الماء ولو أن بعض الأنهر ترويه بعد خروجها من هذه الجبال متجها بعضها نحو الجنوب وبعضها الآخر نحو الغرب، ثم تتحول الى بحيرات كبيرة في وسط الرمال، كلها محاطة بالنخيل الذي يحمل كمّيّة هائلة من التمر، حتى إنها تغمر بلاد البربر ويعلف بها السكان خيلهم بدل الشعير. ذلك لأن التمر يشكل ثروتهم الرئيسية، فيترفهون به على طريقتهم وبما يستخرجون من قطعانهم. ويوجد على الأرض الواقعة بين هذا النخيل بقرب المياه أشجار مثمرة وخضر، لكنها أقل خصبا وفائدة من التي في بلاد البربر لأنهم لا يحسنون فلاحتها. أما القمح والشعير فيستخرج منهما نزرٌ يسيرٌ ، لكن المراعي بالمقابل جيدة للغاية، خصوصا في منحدرات الأطلس الكبير المواجهة للجنوب، حيث تكثر أيضا الوحوش المفترسة. وتضمّ هذه الجبال منازل كبيرة وجماعات عظيمة للبربر، لكن لا يوجد شيء من ذلك في الجانب الآخر على حدود ليبيا، لأن التربة هناك في غاية الجدب والقحط لا ينبت فيها سوى العليق والشوك ويصلان الى علو كبير.

وبالجملة فبجوار ليبيا أو الصحراء لا توجد عين ولا جدول، وكل المياه التي يمكن الحصول عليها تأتي من آبار ماؤها ملح أجاج، ويصعب العثور عليها لوقوعها في أماكن متطرفة. وتكثر في هذه الفلوات العقارب والأفاعي وغيرها من الحيوانات السامة التي تقتل الناس والبهائم. وتأتي الغلة مبكرة في بلاد الجريد قبل بلاد البربر، حيث يحصد القمح فيها ابتداء من شهر ماي، ويجنى التمر في اكتوبر. ولا كروم هناك غير بعض الشجيرات التي يموت عنبها مبكرا بحيث لا يبقى شيء منه بعد آخر يونيو. ولا برودة هناك ماعدا في جبل الأطلس، بسبب سقوط الثلوج فيه

لكن البرد القارس يبتدئ في منتصف شتنبر ويستمر الى آخر يناير. واذا نزل المطر في شهر شتنبر فان محصول التمر يكون سيئا، لأن الرطوبة تفسده ؛ واذا نزل المطر في أكتوبر وأبريل كان محصول القمح كثيرا، لأن الأنهر عندما تفيض تخصب السهول التي تكون بدونها قحلة عقيمة، الا أن التمر بالمقابل يكون محصوله جيدا جدا عندما لا ينزل المطر، وهذا ما يفضله أهل البلاد، إذا مهما كان محصول القمح في السنة كثيرا فانه لا يكفي لأكثر من ستة أشهر، بينما تُمكّن وفرة التمر من المبادلة مع بلاد البربر والحصول منها على الكمية المرغوب فيها من القمح والشعير. وتجنى في الاقليم خمسة أنواع من التمر يختلف بعضها عن بعض من حيث الطعم واللون، حتى يظن أنها ليست نفس التمار، ولا تتشابه إلا في الشكل والنواة ، يسمى أجودها بوسكري، وأقل منه جودةً بوزيار، وذلك ما يُصدَّر عادة الى اسبانيا، لأن الأخرى ربما فسدت على متن البحر لشدة رطوبتها. وتوضع الأنواع الثلاثة الأخرى في سلال لكونها في غاية الرخاوة، فتصبر هكذا طويلا في مكانها الى أن تنقل عبر بلاد البربر.

الفصـــل الثـانــى عشــر

أهــم الأنهــار المــوجــودة بهــا

درعة

أول نهر سنتحدث عنه هنا هو **درعة** وهو كبير جدا، ينبع من جبال الأطلس الكبير التي تحد اقليم هسكورة، ثم يتجه نحو الجنوب مخترقا اقليم درعة المسمى باسمه . ويحيط به من الجانبين عدد كثير من النخيل الطويل، ذي الظل الظليل، إلا أنه يتوغل من هناك في مفازات الصحراء حيث ينتشر في الرمال الدقيقة مكونا بحيرات كبيرة، ينتجع حولها النوميديون في فصل الربيع مع مواشيهم ، لأن جمالهم تجد هناك كمّيّة من الكلأ الطيب . ويجفّ هذا النهر في الصيف الى درجة أنه يُعبر دون أن تبلّ الأرجل في كثير من المواضيع ، لكنه يفيض عند نزول المطر بحيث لا يمكن عبوره لا للراجل ولا للفارس ، ومجراه منحدر الى درجة أنه يستحيل عبوره بالزورق ، بالاضافة الى أنه مجوّف وغير مستوٍ ، ويصير ماؤه مراً ملحاً أيام القيظ .

زيــــز :

زيز نهر كبير أيضا يأتي من نفس الجبال ، حيث يقطن قسم من جماعات السّينيك (كذا) وينحذر نحو الجنوب جاريا بين الجبال شاهقة ، ثم يمرّ قرب كَرْسِلْوين(52) مخترقا إمارات كنانة ومطغرة والرّتب ، فإقليم سجلماسة . ويدخل في مفازات الصحراء حيث يسيل بين النخيل ، ويخرج منها قرب مدينة سكّيهلة ليتجه ثانيا نحو الجنوب ، ويكوّن بحيرة في وسط رمال لا يسكن حولها أحد ، إلا أن الصيد الكثير يقتات منها .

---

(52) مدينة في مملكة فاس .

ڭيــر :

ڭير هو الآخر نهر كبير من جبل الأطلس ، يتجه نحو الجنوب مارّا بالمفازات ، ثم يدخل في إمارات بني ڭومي ، ومنها في رمال ليبيا أو الصحراء حيث يتحول الى بحيرة يجول حولها عدد من جماعات الأعراب والأفارقة بقطعانهم . وهذه الأنهر الثلاثة هي أهم أنهر بلاد الجريد التي هي جيتوليا أو نوميديا القديمة .

الفصل الثالث عشر

القسم الثالث من افريقيا المسمّى الصحراء والقبائل التي تعيش فيه

الصحراء هي أصغر قسم في افريقيا كلها . تبتدىء من جهة الغرب عند ساحل المحيط حيث منازل نون، وتمتدّ من هناك على طول نفس الساحل حتى تصل الى نهر السنغال ، وتسير من جهة الشرق الى تخوم مدينة الواحات ومملكة كاوكة . ويحدّها شمالا مفازات بلاد الجريد ، وجنوبا بلاد السود ،وهي ليبيا الداخلية التي يصفها بطليموس، ويُدخل فيها ايضا نوميديا واثيوبيا السفلى، ويجعلها متاخمة في الشمال للموريطانيتين ولافريقية بالذات وسيرانكة، ويحدها شرقا بجزء من المزمبيق واثيوبيا القريبة من مصر، وجنوبا باثيوبيا الداخلية في اقليم أجسيمبة، وغربا بالمحيط، من الخليج الهينبري أو الغربي الى طنجة التى هي طرف موريطانيا الطنجية . لكن المحدثين يجعلون لهذه الأقاليم حدودا أخرى، ولا يدمجون فيها سوى الصحراء التي هي أرض في غاية الجدب والفقر، ليس فيها الا مفازات جافة رملية غير صالحة للسكنى في أغلب الأحيان، ويقطع الانسان فيها أحيانا مائة فرسخ أو مائتين دون العثور على قطرة ماء . فالمنازل إذن بها نادرة، ومتباعدة جدا بعضها عن بعض في المواضع التى توجد فيها بحيرات أوغدران، حيث الهواء أكثر اعتدالا . والسكان القاطنون بالصحراء خشنون جدا، وهم أقرب الى الحيوان منهم الى الانسان، لا يفكرون في الخروج من هذه الفلوات ليختاروا مساكن أحسن من مساكنهم . وأعظم سكان البلاد يوجدون في القسم الغربي بالقرب من المحيط والنيجر ونون والسنغال، وهو شعب قوي حكم اثيوبيا وخرج منه بعض ملوك السود الذين يحكمون حتى الآن ونزيكة، وتركة، ولمطة، وبرداوة، وتغازة حيث توجد معادن الملح ومنها يحمل الى الزنوج، وأوجلة، وسرت، وبرداوة . وفي بعضها أماكن مسورة بالطوب . وكان سكان هذا القسم الغربي من الصحراء يسمون قديما بالسبائين، من سبأ بن قوس الذي سكنها، ويسمى سكان القسم الشرقي فوتيين، من فوت بن سام . ولهذا أطلق القدامى اسم فوتية على قسم افرقيا الذي سمى منذ ذلك العهد ليبيا السرنيكية . هذا ما يمكن أن يقال إجمالا عن سكان الصحراء الذين سنقدم لهم وصفا خاصا في مكان آخر.

الفصل الرابع عشر

خاصية البلاد

الصحراء بلاد حَارة جدا وجافة، لا أنهار فيها ولا عيون، ولا ماء غير ماء البحيرات إلتي تحدثنا عنها أو بعض الابار المالحة النادرة، بحيث إن التجار الذاهبين من نوميديا الى بلاد السود يأخذون معهم جمالا لاتستعمل إلا لحمل الماء، زيادة على التي تحمل البضائع . ويحدث هذا على الخصوص عندما يريدون التوجه من مملكة فاس الى تنبكتو ، أو من مملكة تلمسان الى أكدز، أو عندما يقصدون القاهرة عن طريق تخترق كل هذه المفازات وتمر على طول بحيرة كبيرة يسكن على ضفافها زنوج صاوُوكَرهان الذين هم من اثيوبيا السفلى . وفي هذه الطريق، لا سيما المؤدية الى جينيوا وتنبكتو ، توجد بعض الآبار المحفورة في الصحراء : وخوفا من أن يطمسها الرمل تسور من داخلها بعظام الابل بسبب افتقاد الحجر، ثم تغطي بجلودها، إذ تهب في الصيف ريح شرقية تحمل الرمال من مكان الى آخر وتغطي هذه الآبار . ويكون الاعصار شديدا أحيانا الى درجة ان الرجال والجمال يتعبون من أجله وتغمرهم الرمال التي تصل الى علو رمح . ويقال إن الموميات تصنع من هذه الأجساد، ولو أن أغلب الظن أنها تصنع في حي البربر الذي سنتكلم عنه في الفصل التالي . وعندما يصل الناس ـــ للأسف الشديد ـــ الى مواقع هذه الآبار، لا يستطيعون أحيانا العثور عليها بسبب الرمال التي تغطيها، فيموتون عطشا . لكن بعض حداة الابل لهم من الخبرة مايجعلهم يهتدون اليها دائما مهما كانت مستورة، غير أن مهارتهم لا تفيدهم شيئا في بعض الاحيان حين تكون هذه الآبار مردومة لدرجة أنه لايمكن الوصول الى الماء رغم التعب المبذول في حفرها (54) ، الامر الذي يجعل عملهم يذهب سدى، ويضطرون الى قتل جمالهم لشرب الماء الموجود في بطونها، لأن الجمل عندما يشرب يأخذ من الماء ما يكفي لمدة اثني عشر أو خمسة عشر يوما، ولولا ذلك لكان هذا السفر

---

(54) بسبب عمقها .

مستحيلا، فيستدركون بعض الوقت عند افتقاد الماء بهذه الحيلة الى أن يصلوا الى الأماكن التي يوجد فيها، ان لم يموتوا في الطريق .

وأما الفصول فليست متشابهة في كل الأعوام، لأنه اذا نزل المطر منذ منتصف غشت الى فبراير، نما الكلأ بغزارة في كل مكان وأفاد القطعان التي ترعى على طول البحيرات، وكذلك التجار عندما يسافرون يجدون عَدَدًا من البحيرات وكثيرا من اللبن والسمن بثمن رخيص . لكن إذا انحبس المطر في ذلك الوقت ــ وغالبا مايحدث ذلك ــ تأذى التجار كثيرا وكذلك أهل البلاد، بالاضافة الى ان هذا الجفاف يكون مصحوبا دائما برياح عاتية تحمل معها جبالا من الرمال . والمحصول الزراعي قليل جدا في الصحراء، اذ لا يزرع فيها سوى الشعير وحتى ذلك ليس في كل مكان ، فيكون القوت العادي إذن من التمر واللبن والسمن واللحم ، بحيث إن المعيشة هناك ضنك بعض الشيء ، كما سنبينه عندما نتحدث عن هذه القبائل .

الفصل الخامس عشر

وصف بلاد العبيد، أو بلاد السود، وهو القسم الرابع من افرقيا وما فيها من ممالك وأقاليم

إن بلاد السود التي يسميها الأفارقة كُنَاوَة، والزنج، والنوبة، هي اثيوبيا السفلى (55) التي يدمجها بطليموس في ليبيا الداخلية . يحدها المحيط غربا ، ومفازات الصحراء شمالا ، واثيوبيا العليا جنوبا، حيث توجد بلاد الحبشة، واثيوبيا القريبة من مصر شرقا . وهذا الجزء من افرقيا اكبر من جميع الأجزاء الثلاثة السابقة، ويحتوي على عدة قبائل، وأنهار عظيمة تصب في المحيط، وأرضه منخفضة الى درجة أن مد البحر يدخل الى البلاد على مسافة عدة أميال . والقبائل الأكثر ثراء والمحكومة بطريقة معقولة بعض الشيء هي التي يسميها العرب كُناوة، وتقطن على ضفاف النيجر، لأن هذه الطريق هي التي يسكلها التجار الذاهبون الى الشرق، ويقصدها عدد من أهل بلاد البربر ونوميديا وغيرهما . والسكان الذين يقطنون على طول الساحل هم كذلك متحضرون بعض الشيء، منذ أن أخذ البرتغاليون يتجرون معهم ، لا سيما سكان منيكنغو الذين اعتنقوا الديانة المسيحية . ويوجد كذلك بعض المتحضرين من بين الذين يسكنون في الجهة الشرقية نحو بلاد النوبة ويتاخمون الحبشة، لكن الساكنين بداخل البلاد الذين يسميهم العرب قبائل الزنج، حيث توجد جبال الأرض وكين فانهم قوم متوحشون ليس لهم سوى وجه الانسان، ولا يتعامل معظمهم مع الأجانب بأية تجارة ولا يطيقون حتى النظر إليهم . شغلهم الرئيسي هو تعاطي الفتك والسرقة بحيث انهم يتحاربون فيما بينهم على الدوام . يقول أحد المؤرخين (56) : إنه يوجد من بين هذه

---

(55) أو بلاد العبيد .

(56) هو المسعودي .

القبائل قبيلة شديدة البأس تُدعى بربر باسم العاصمة (57) وهي شجاعة لكنها بالغة القساوة، تحارب بالنبال سواء منها الرجال والنساء، ويضيف أنهم يعلمون وجوههم بجراح عديدة ليتميزوا بها في ميادين الحرب . لكنهم رغم حذقهم ومكرهم فانهم على درجة من الخشونة لا تسمح لهم بالاتجار ولو مع بعض جيرانهم . يرتدون الجلود ويتكاثر عددهم إلى حد أنهم ربما يُغطون الأرض كلها في النهاية لولا أن ريحا (58) تهب في هذه الأحياء كل ستين سنة فتغمرهم بالرمال ، بالاضافة الى أنها مؤذية لدرجة أنها تجفف مياه البحيرات والآبار وتهلك الحيوانات . وليس لهذه الريح نفس الخطورة في اتجاه المحيط ولا في جهة النيل أو بلاد كُناوة ، إلا أنه تهبّ بشدة في وسط اثيوبيا السفلى الكثيرة الرمال كالصحراء ، فتهلك السكان .

يقتتل هؤلاء السود دومًا، كما يقتتل الذين يوجدون في حدود ليبيا والمحيط، بسبب أحقاد قديمة بينهم . وجميع من وقع في أيديهم من أعدائهم رجالا كانوا أو نساء أو أطفالا، باعوهم الى الافارقة والأعراب والبرتغاليين الذين يتجرون عادة في ساحلهم وعلى طول أنهرهم، ويأخذون منهم في مقابل ذلك الخيل والجوخ والقماش والزيت والخمر وغيرها من البضائع المستوردة من أوربا . وأول اقليم يلاقيه المرء في جهة الغرب هو اقليم بني عيس، فاقليم الجيلوف ، وفي داخل البلاد ممالك ولاتة أو كَناتة، وغينيا، وجيني أو كَناوة، ومالي، وتنبكتو أو إزة، وكَاغو، وكَوبر، واكَدز، وكَانو، وكنينة، وبرزيكَريك، وزنفرة، وونكَرة، وبرنو، وكَاوكَا، ونوبة أو النوبة، ومدينتهما الرئيسية سرفاك الواقعة على النيل من جهة الغرب، لكن اذا تابعنا السير على طول الساحل وصلنا الى آخر مملكة منكنغو . وتوجد في قلب البلاد عدة اقاليم للزنج وللجبال الارض والكين، معظمها مجهول، ولا يتجر سكانها البتة فيما بينهم، ويتحاربون دوما بسبب اختلاف نحلهم ومللهم . وهناك أقاليم أخرى يعرفها التجار، مثل بثو، وتمين، ومدية، وكَرهان ومندِنكا، وسنتحدث عنها باسهاب في القسم الثاني من هذا الكتاب .

---

(57) بربرة . (لعل المقصود ما يسمى بلسان عامة أهل المغرب . بَامبَارَة) (مترجم) .
(58) ريح الفويدة .

الفصل السادس عشر

خصائص بلاد السود

هذه البلاد حارة، وفيها بعض الرطوبة بسبب مجاورة النيجر وغيره من الأنهار الكثيرة التي تخترق هذا القطر، لا سيما على طول النجير في اتجاه حدود الصحراء حيث لا توجد ربى ولا جبال، لكن بحيرات عظيمة في كل مكان، تتكون من فيصان الأنهر، وتحيط بها أدغال تكثر فيها الفيلة وغيرها من الوحوش . وتوجد على طول المياه مراع جيدة وأراض تزرع فيها كمية وافرة من الدخن الدقيق والغليظ ولو أن القوت الرئيسي للسود هو جذور النباتات التي يسمونها «كُنام» ولا تُنبت أرضهم فواكه كما هو الشأن في بلاد البربر، إلّا أنّ لهم أنواعا من الأشجار السامقة تحمل ثمارا تشبه القسطل ويسمونها «كُور» . ولا يزرع فيها قمح ولا شعير، لأن التربة حارة جدا والمطر لا يسقط إلا ثلاثة أشهر في السنة (59) فلا ينمو فيها شيء من هذه الحبوب ، لكن فيها الجلبان ، والفول ، والحمص، والثوم القصبي، والخيار، والقرع، والبطيخ، ونبات الخصر، والترمس والفول عندهم في حجم متناه في الكبر، الأول مثل البندق الغليظ مبرقش بمختلف الألوان، والآخر عريض أحمر قان لامع ولو أن بعضه أبيض . يزرعون الذرة في يوليوز ويحصدونها في شتنبر، لأن المطر ينزل اذ ذلك بكثرة ويتسبب في فيضان الأنهار . ولا ينفع المطر البلاد ولا يضرها، لأن ماء الأنهار كاف لانبات ما يزرع في الأراضي المنخفضة، لا سيما التي يمكن أن يصل اليها النيجر، لأنه يفيض مثل النيل، يرتفع وينخفض في آن واحد معه، بحيث إن عمليات الزرع والحرث والحصاد تتم في ظرف ثلاثة أشهر، لكن هؤلاء القرم كسالى الى درجة أنهم لايزرعون إلا ما يكفيهم لمؤنهم، ولا يهمهم أن يفضل لهم شيء لادّخاره أوبيعه . وعندما يريدون حرث أراضيهم يجتمعون رباع أوخماس ويرفعون التراب رفعا خفيفا أمامهم بالجوارف أو المناقش، ويرمون فيه بذورهم التي تجعلها مياه الفيضان تثمر

(59) في يوليوز وغشت وشتنبر .

بغزارة . لاوجود للكروم في البلاد كلها، ويصنع الخمر عندهم من السائل(60) الذي يقطر من بعض النخيل ويكون له لون الخمر الفاتح. وللحصول على ذلك يضربون جذع النخلة بالفأس مرتين أو ثلاثا ويضعون تحته قرعا يجتمع فيه السائل ويعطي كل جذع ثلاثة أكيال (البنتة)(61) أو أربعة في ظرف أربع وعشرين ساعة، ويشربون من هذه الخمرة اللذيذة التي تسكر إن لم تمزج بالماء . وهي حلوة الطعم في اليوم الأول التي تستخرج فيه، لكنها تكون أفضل وأسلم بعد ثلاثة أيام أو أربعة ولو أنها تفقد حلاوتها التي تتناقص، واذا احتفظ بها مدة طويلة صارة كالخل .

(60) ويسمى ميكول .
(61) البنتة : كيل للسوائل سعته نحو نصف ليتر .

الفصل السابع عشر

نهر النيجر

يقول بعضهم إن النيجر والنيل ذراعان لنهر (الجيون) الذي ينحدر من الفردوس الأرضي، وإن الأول اتخذ اسمه من السود الذين يمرّ بأرضهم، لكن العرب يعتقدون أنه جزء من النيل يسيل تحت الأرض الى بحيرة النّوبة في صحراء ساوة، ويتجه من هناك نحو الغرب مكونا أيضا بحيرة أخرى كبيرة يسمونها نيجرطا، حيث يتضخم بمياه عدّة أنهر ويسير في منعرجات كبيرة ليصب في المحيط الغربي، بواسطة قناتين عريضتين، تدعى إحداهما سينكّال والأخرى كامبا. وتفصل الأولى الصحراء عن السود من جهة الغرب. والغريب أن الرجال فيما وراء ذلك شطر الجنوب، شديدو السواد أقوياء معتدلو الأجسام، والأرض خصبة مكسوة بالأشجار والظلال. وأما في جهة الشمال فالرجال قصار القامة هُجناء، لكن بعضهم بيض خائرو القوى، والأرض مجدبة يابسة، بحيث لا ترى غير الرمال في كل مكان. وعرض مصب الذراع الأول المسمى سينيكّال نصف فرسخ كبير، وهو عميق جدا، لكن الذراع الآخر أقل منه. ويكون هذان الذراعان جزيرة تمتد أمامها كُوم رملية كبيرة داخلة في البحر بمسافة فرسخ، وبما أن المدّ يرتفع وينخفض كل ست ساعات، فانّ البحر يتوغل بأكثر من خمسة وعشرين فرسخا داخل البلاد، ولابد من انتظار ارتفاع المدّ للدخول الى الجزيرة، لأنه يغطي حينئذ الكوم الرملية فيسهل دخول السفن اليها. ويوجد على ضفاف هذا النهر وروافده أشهر السكان من بين السود.

وبما أن النيجر يفيض ويتراجع في آن واحد النيل وبنفس الكيفية، فانه يغمر سطح الأراضي كلها، بما فيها من سهول ووديان، فتمتلىء به، وينتقل السود من طرف الى طرف بواسطة زوارق ليست حسنة الصنع ولا مأمونة أكثر من التي في مصر. يبتدىء فيضانه في منتصف يونيو ويدوم ثمانين يوما، سواء في الارتفاع أو الانخفاض. ولبطليموس معلومات قليلة عن منبع النيل — وان كان له إلمام

بجبال القمر ــ اذ يقول في الكتاب الرابع ان الثلوج تأتي من هذه الجبال فتذوب وتنصب في بحيرات كبيرة فيخرج منها النيل ؛ لكن ليست هذه الثلوج وحدها هي التي تكونه ، بل كذاك العيون الموجودة في هذه البحيرات كما سنبيّن ذلك عندما سنتعرض له خصيصا . ويقول بطليموس أيضا إن النيجر يكون بحيرة نيجرطا مضافةً إلى مَنْدر وتَلَمانت، وينقسم شمالا الى ذراعين يتوجهان نحو جبال أورفكُّول وساكابول، ثم الى ثالث يتوجه نحو الشرق، فوق بحيرة ليبيا(62) . إلا أن ليون الافريقي يقول عكس ذلك، ويؤيد نظرَهُ التجارُ الذين يذهبون من ولاتة والجلوف الى القاهرة الكبرى صعودا مع النهر . لأنهم يثبتون أن النيجر ليس له أي ذراع يتجه نحو الشرق، بل انها كلها تذهب الى الغرب، وهذا مما لايجهلونه، اذ يرجعون مع هذا النهر منحدرين من تنبكتو الى غينيا ومالي والمحيط .

ويسقي بلاد السود عدّة أنهر أخرى يعرف معظمها معرفة جيدة الملاحون البرتغاليون الذين يصعدون معها الى داخل البلاد قصد التجارة على مسافة مائتين وثلاثمائة فرسخ . وقد تكلمنا عن هذه الأنهر في الفصل الرابع، وسنتحدث عنها أيضا بإسهاب، عندما سنتعرض لوصف الأماكن والسكان الموجودين على طول ضفاف هذا النهر .

---

(62) لهذه البحيرة 35 درجة طولا ، وست عشرة درجة وثلاثون دقيقة عرضا .

الفصل الثامن عشر

وصف بلاد مصر ومافيها من مدن مهمة وأقاليم

يضيف بطليموس مصر الى مَرْمَريكة في وصفه لها، لكن الكوروموغرافيين اللاتينيين يضعونهما في خريطتين منفصلتين، والمؤلفون الأفارقة لا يدمجونها في افريقيا، وعلى الأقل قسمها الشرقي. وظن بعضهم أن البحر غمر هذه البلاد كلها في البداية، وأنه عندما تراجع شيئا فشيئا، كما فعل في أماكن أخرى، استمر فيضان النيل زمنا طويلا وجرف من اثيوبيا التراب والطمي بكثرة حتى تكونت منهما تلك السهول الجميلة الخصبة التي يسميها العرب مصر، واليهود مصريم، وأهل البلاد القبط. يحدها الأفارقة غربا بمفازات برقة وليبيا والمرمريك، وشرقا بآسيا، وشمالا بالبحر المتوسط، وجنوبا بأراضي ومنازل البُجَة أو النوبة (63) . وفي كل مكان عدد كبير من القرى والمدن الجميلة الغنية، ويخترق النيل هذه المنطقة من طرف الى طرف آخر، من اثيوبيا العليا الى البحر المتوسط، محيطا بعدة جزر في مجراه، منقسما إلى عدة أذرع.

يقسم بطليموس مصر كلها الى قسمين، العليا والسفلى، ويسمى اللاتينيون هذه الأخيرة أودين، واليونانيون الدلتا، لانها تشكل مثلثا على صورة هذا الحرف. ويدع بعضهم هذا القسم من بين الجزر، اذ هو أيضا جزيرة بالفعل. ومصر العليا هي اقليم طيبس المسمى باسم مدينة طيوة ذات الشهرة العظيمة عند هوميروس (64) التي كان لها مائة باب، وعشرون ألف حارس من الجنود (65) دون المشاة، وكانت مقر بلاط ملوك مصر فحولوه منذ العهد الى ممفيس ثم الى الاسكندرية . وكان الملوك الأوائل يُسمون فراعنة كما كان أباطرة الرومان يسمون

(63) في اثيوبيا المحادية لمصر .

(64) في الفصل التاسع من الالياذة .

(65) مائتان في كل باب .

قياصرة ، وهو لقب تشريفي ، وسمي أواخرهم بطالسة . وكانت بابيلون مصر واقعة على رأس الدلتا، وأبعد منها الى الأمام بابل طوم - أوطون حسب العرب - حيث كان العبرانيون مستعبدين إلى أن حرّرهم موسى وأجازهم البحر الأحمر ثم الاردن ليدخلوا أرض الميعاد . وكانت قاعدة آخر ملوك مصر - كما ذكرت - هي الاسكندرية التي أنجبت بطليموس، وأسسها الاسكندر، وامتدحها القيصر وجمهور كبير من الكتاب . ومازالت كذلك شهيرة بتوافد التجار عليها من أجل الاتجار فيها، وذلك أعظم مافي الشرق . ويقسم الافارقة المحدثون مصر الى ثلاثة أقسام : الريف، والصعيد، والبحيرة، ويشمل القسم الأول الجبال وكل الساحل الذي تقع فيه مدينتا الاسكندرية ورشيد مع مافيه نحو النيل صعوداً حتى القاهرة، ويمتد القسم الثاني من القاهرة الى منازل البَجّة حيث كان أشراف مصر يقطنون في القديم، ويواجه القسم الثالث الذارع الاخر للنيل الذي يسير الى مدينتي دمياط وتنيس اللتين سنتحدث عنهما وعن سائر مدن هذا الاقليم باسهاب في غير هذا الموضع .

الفصل التاسع عشر

خاصية البلاد

مصر بلاد شديدة الحرارة قليلة الأمطار، يفسد الغيث هواءها ويتسبب في الطاعون والامراض الخطيرة . والحرارة في مصر شديدة في الصيف الى درجة ان التراب يحرق كالنار . ولما كانت الحرارة تتسرب الى المنازل فانهم يشيدون بروجا عالية ضيقة فيها منافذ كلها حتى يستطيع الهواء المرتفع الذي هو أكثر برودة أن يضفي بعض الرطوبة على الغرف السفلى بواسطة المدرج . والطاعون كثير الانتشار في القاهرة، حيث يموت أحيانا عشرة آلاف أو اثنا عشر ألف شخص في اليوم الواحد، كما تكثر فيها الاصابة بالجذري والقرع . وتأتي الفصول في مصر مبكرة جدا، اذ يحصد القمح منذ بداية ابريل ويدرس ويخزن في العشرين من ماي، لأن النيل يأخذ في الارتفاع والفيضان حوالي منتصف يونيو، مرتفعا ومنخفضا مدة ثمانين يوما(66) وفي هذه المدة كلها تتحول المدن والقرى في مصر الى جزر، ولا يمكن التنقل في البلاد كلها الا بالزوارق .

غير أن ذلك يساعد السكان على نقل القمح والمواشي في زوارق كبيرة يسمونها برشية، تحمل سبعة آلاف أو ثمانية آلاف صاع من القمح، وعدة آلاف من الغنم، الامر الذي لا يستطيعون انجازه لولا فيضان النهر . وجميع أقسام مصر الثلاثة خصبة، لكن الذي يسمى الصعيد أكثرها قمحا وشعيرا وخضرا وغنما ودجاجا وكتّانا .

والريف منطقة وعرة لكنها كثيرة الفواكه والأرز في الوديان . وتنتج البحيرة — ومعنها ساحل البحر — كمية من قصب السكر والقطن والثمار . وسكان القسمين الأخيرين أكثر تحضرا من غيرهم بسبب الاتصال بالتجار الوافدين من كل جهة(67) بينما الأولون، وكذا القاطنون داخل البلاد، لا يتجرون إلا مع عدد قليل من تجار إثيوبيا، وليسوا في جملتهم غير فلاحين أو أصحاب حقول .

---

(66) 40 يوما في الارتفاع و 40 يوما في الانخفاض .

(67) يعني أوربا وآسيا وبلاد البربر .

الفصل العشرون

وصف إثيوبيا العليا والامارات التي تشتمل عليها .

وصف إثيوبيا العليا التي توجد فيها مملكة الحبشة عند مصب البحر الأحمر ، وتمتد جنوبا إلى جبال تلمي التي تسمى أيضا جبال الذهب ، الواقعة تحت الخط (68) وطول ساحلها (69) من هذا الجانب الى السواكن مائة وعشرون فرسخا ، حيث يوجد بالجبال بعض المسلمين الذين لا يعترفون بهذه المملكة ، وهم شجعان أبطال يحاربون بالأسلحة هم وخيلهم ، ويستعملون النبال على الطريقة الفارسية . وهم في حرب دائمة مع ملكي برناكاس وتكرماهون الذين توجد مملكتاهما بين النيل والبحر ، ويخضعان لامبراطور الحبشة الذي تمتد مملكته غربا إلى سود إثيوبيا السفلى المسمين الزنج ، وأغلبهم وثنيون يؤدون له إتاوة ذهبا، اذ توجد بتلك الجهة عدة مناجم ، سواء في الجبال أو السهول ، حيث يأتي الذهب الى سفالى، حسب قول البرتغاليين الذين يترددون على هذه المنطقة . ويحدها النيل شمالا من النوبة الى أسفل جزء من جينيووفا وأبعد من ذلك غربا . وفي كل هذا المتسع توجد أقاليم عديدة وممالك وإمارات يختلف جدا أمراؤها من حيث الديانة واللغة والعادات ولون البشرة ، إلا أنهم يعترفون كلهم بامبراطور الحبشة ويؤدون له الخراج ويخدمونه في الحرب كعاهل لهم . وسنذكر فيما بعد أسماء الممالك ضمن ألقاب هذا الامبراطور الذي اتخذ صيفا مقرا عاديا له، لأن الأرض فيها خصبة جدا، والطقس معتدل . تحتوي هذه الممالك على دائرة (70) تزيد على سبعمائة فرسخ ، وهو ما يعادل تقريبا مساحة اسبانيا كلها وبلاد الغال الى نهر الرين حيث جعل القيصر حدودها ، وبسبب اتساع

---

(68) يضيف المؤلف : على حدود بلاد النوبة ، لكن هذه تقع شمالا .

(69) وهو ساحل أبيكس ، على طول البحر الأحمر .

(70) بل يلزم القول على الطول ، لأن لها دائرة 2.500 فرسخ .

هذه الامبراطورية واختلاف الفرق الدينية (71) فيها، تقوم حرب دائمة بين هؤلاء القوم الذين يثورون غالبا ضد أميرهم حتى اذا انبرم الصلح بينه وبينهم كان لديه دائما ما يناقش فيه جيرانه الذين يوجد من بينهم بعض الأقوياء جدا . ولذلك فانه يظل دائما في البادية تحت خيام تنقل من هنا الى هناك حسب توفر المياه والمراعي ، إذ يبحث في فصل الصيف عن الاماكن الرطبة والطقس الأكثر اعتدالا. ومن الأشياء العجيبة مشاهدة محلته وخيامه التي تنتشر على أكثر من ثلاثة فراسخ في كل جهة، مع مساحة كبيرة في الوسط، وأخريات أقل منها سعة في مواضع مختلفة لا تتغير أبدا، ذلك لأن جميع الأزقة والمساكن والساحات منظمة بكيفية تمكن من التعرف على موقع خيام الضباط الكبار في أي مكان أقيم المخيم. وهناك ثلاث عشرة كنيسة تحت قباب كبيرة يتحتم على الرهبان أن يحضروا فيها القداس والتبشير. ويوجد في المخيم أكثر من مائتي ألف رجل من المحاربين والخدم. وحيث إن الأمير في تنقل مستمر فلا وجود لعاصمة ولا لمدن يزيد عدد سكانها على ألفي نسمة، وهي غير مسورة كما يجب، ولا يعمرها سوى الرهبان والفلاحين والتجار وغيرهم من الناس الذين لا يذهبون أبدا إلى الحرب. والدور مبنية بالطين ولوح الخشب المحكم الالتصاق (72)، لكن الكنائس والأديرة الكبيرة فخمة، وهي مبنية بأحجار ملصقة بالجير. وفي كل مكان من هذه المملكة عدد من الجبال، بعضها مرتفع وعر المسالك إلى درجة أنه لا يمكن الوصول الى المدن والقرى إلا بمنعرجات ومسالك ضيقة جدا يكفي باب واحد أن يمنع المرور منها. إلا أنه توجد بأعلى هذه الجبال سهول كبيرة وجداول عديدة تجعلها خصبة جدا قمحا وماشية كما هو الشأن في معظم أجزاء البلاد. وجميع الامارات الخاضعة لهذا العاهل بعيدة عن الساحل، ومع كونه ذا سيطرة مطلقة في البر فإنه ضعيف جدا في البحر، لانه لا يملك سفنا حربية ولا ما يلزم لصناعتها من خشب، اللهم إلا بعض المراسي الصغيرة البعيدة عن شاطىء البحر . ويخترق النيل البلاد كلها ، وفيها يوجد منبعه وفيضاناته، كما سنذكر ذلك فيما بعد. وقد وصلت عظمة هذا الامبراطور إلى درجة أنه يبدو إلها أكثر منه إنسانا منذ مائة وعشرين سنة ، بحيث إن الكثير من

---

(71) من إسلامية ووثنية ومسيحية .

(72) أو بالآجر .

الملوك والامراء الخاضعين له لم يكونوا يرونه إلا صدفة، وكان من الشرف العظيم لهم إذا ذهبوا لمخاطبته أن يريهم رجلا أو يدا من خلال ستور رواقه، لكنه كان يخاطبهم دائما بلسان غيره. إلا أنه، منذ أن خسر الامبراطور داود بعض المعارك، أصبح حكيما من جراء الهزيمة وبدأ يظهر للناس، وخصوصا منذ أن تعلم من البرتغاليين أن تلك هي عادة ملوك أوربا. وأما الالقاب التي يتحلى بها فهي : داوود حبيب الله، عماد الدين، من دم يهودا وسلالته، ابن داوود، ابن سليمان، آبن عماد صهيون، ولد نطفة يعقوب، ابن يدمريم، ابن نوح من اللحم، امبراطور إثيوبيا العظمى والعليا وجميع الممالك والدول التابعة لها، ملك كُوا وسفالة ، وفتكًا، وأنكوس، وبارو، وبعلكنسية، وآديا، وفانج، وكشان، ومارة، وفيكيميدري، ودمباية، وأمباية، وتكريماهون، وسباين، وبرنكاس، الحاكم حتى الى النوبة إلخ ... وهو في حرب دائمة مع العرب الذين يجتازون مضيق البحر الأحمر (المندب) ويفتحون الأراضي الواقعة بين النيل والبحر، حيث يوجد إقليما بارناكَاس وتكَريماهون. وهؤلاء القوم كلهم فرسان يحارب معظمهم بالنبال كالفرس. وتتكون قوات هذا الامبراطور من فرسان اعتادو أن يذهبوا إلى القتال مسلحين بالخوذ العالية والزرود مع تروس ورماح مسننة بالحديد في طرفيها، وخيلهم أيضا مسلحة كخيل رجال الدرك بأوربا. ويحارب الرجالة بالنبال والسهام، وكثير منهم بالمقاليع، وغالبا ما يكونون في بروج خشبية تحملها الفيلة، ومنها يقذفون العدو. ذلك لانهم لم يعرفوا المدفعية ولا الأسلحة النارية إلا منذ مجيء البرتغاليين الذين تركوها لهم. والاتاوات التي تؤدى لهذا الامبراطور من الذهب الخالص غير المسكوك، ومن معادن أخرى. ويعطيه بعضهم ماشية أو حريرا أو قماشا من القطن، ويعطيه آخرون الملح والتوابل، لكن الذين يسكنون قرب جبال بهت يؤدون إتاواتهم أسودا ونمورا وغيرها من الحيوانات المفترسة، فيضعها في ملاعب للتفرج عليها. ويعطيه بعضهم جلود حيوانات مهيأة أو غير مهيئة. ولا تسك النقود في إماراته، لكن الذهب والفضة يتخذان فيها بالوزن. وهناك سكة خفيفة جدا وذهب ردىء يصنعهما العرب الذين يسمون صرافين و«بردليس» ويسميها بعض المؤلفين «بريط جان» غلطا أو تحريفا للاسم، لأن الأحباش يقولون «بيوك جان»، أي يوحنا المحترم، والكلدانيون «جان إنكون»، أي يوحنا الثمين والعظيم، لكن « بريط جان» الحقيقي هو أمير تتَرِيّ .

الفصل الواحد والعشرون

خاصية البلاد والأشياء العجيبة فيها

إن معظم إثيوبيا العليا منتج للماشية الكبيرة والصغيرة، وللقمح والشعير وجميع أنواع الخضر كأوربا. وباقي الزرع عاليا بحيث إنه يُخفي الرجل راكبا على فرسه، وخاصة الذرة. وفي بعض الأماكن كروم مرسلة وأخرى معروشة تنتج عنبا في غاية الجودة يعصر منه الخمر، لكنهم يشربون عادة نبيذا من تفاح الغابة، كما يفعل سكان جبال أسبانيا وبسكاية، وفي بعض الأماكن يشربون نبيذ العسل[73] كما يفعل سكان موسكو وليفونيه وليتوانية. وهذا الشراب لذيذ جدا وقوي كالخمر المالفوازي (اليوناني) الذي له نفس المذاق. ينشطهم هذا المشروب ويُصِحّ أجسامهم حتى إنهم لا يعرفون طبيبا ولا صيدليا. يحصدون الزرع ثلاث مرات في السنة، لأنهم بمجرد ما يجمعون الحبوب يزرعون أخرى حيث إن الأرض ينقصها الماء من جراء الأنهر الخارجة من بحيرات النيل. والهواء معتدل بها طوال السنة مثل الخريف هنا، لكن الأمطار غزيرة في دسمبر ويناير وفبراير، وتسقط حينئذ الثلوج في الجبال ويكون البرد قارسا جدا وبالاخص في جهة الغرب. ويدوم الصيف أربعة أشهر تكون خلالها الأرض شديدة الحرارة والساحل كله مليئا بريح معدية بسبب البحيرات والغدران المتكونة من المياه العذبة المختلطة بالمياه المالحة. والخريف[74] معتدل جدا في الجبال رغم الحرارة المفرطة في السهول. وفي كل أنحاء البلاد أشجار مثمرة مثلما يوجد في أوربا، وكثير من الخضر والبقول والجلبان والفول موجودة في الشهور كلها. ويربى فيها عدد من الماشية الكبيرة والصغيرة، وتتخذ مرابط للنوق والحجور والأتن، ولاسيما للبغال التي هي الأكثر استعمالا عندهم. والحاصل أنها بلاد كثيرة الخصب فيها كمية من معادن الذهب والفضة والقصدير والنحاس وغيرها من المعادن، إلا أن سكانها متكاسلون لدرجة أنهم يفضلون التنقل من هنا إلى هناك وحمل السلاح على العمل.

(73) بسموله ميد

(74) يبدو أن هذا متناقض مع ما قاله سابقا .

الفصل الثاني والعشرون

في نهر النيل وماله من عجائب

إن النيل الذي يسمى هكذا في إفرقيا وأوربا على حد سواء هو أكبر الأنهار كلها، ولذلك فإن شعوب إثيوبيا العليا يطلقون عليه اسم ابنهي، أي أبي الأنهار . واعتقد القدماء أنه أحد أذرع جيحون المنحدر من الفردوس الأرضيّ، كما توجد بعض الاشارات إلى ذلك عند مختلف المؤلفين، وخصوصا منهم لوكان(75) الذي يجعل قسيسي مصر يتحدثون عنه بإسهاب أثناء الغداء لدى صلاة صغار . لكن يبدو أن القدامى لم يطلعوا جيدا على أصله، لان بعضهم يقول إن البحيرات التي يخرج منها إنما تتكون من مياه الثلوج التي تسقط من جبال القمر، ويؤكد غيرهم خلافا لذلك أن منبعه في الصحراء حيث تتكون هذه البحيرات متباعدة جدا بعضها عن بعض، لكن البعض الاخر يزعمون أن في هذه الجبال شبه بداية نهر وأن هذه المياه تنحدر بقوة إلى أسفل الصخور بحيث تفتح الارض وتتسرب الى هذه البحيرات من حفر باطنية، إلا أن جميع هذه الآراء مرفوضة اليوم بفضل التجربة، إذ اكتشف أن المياه الخارجة من جبال القمر هي منابع النيل الحقيقية، وأن الثلوج والامطار هي المتسببة في فيضاناته . وتسمى الآن هذه الجبال جبال بهت ومعناه : مجمع المياه ، وهي عبارة عن سلسلة من الصخور تمتد مما وراء الخط الى مملكة إيصيفا عبر مملكة كوجيان ، وكلتاهما في إثيوبيا العليا . وهذه الجبال أعلى من جميع جبال إفريقيا وأوربا ، وهي مكسوة دائما بالثلوج والجليد ، ونظرا لكونها تحت مدار الجدي فإنه عندما يحين القيظ وترسل الشمس أشعتها عليها عموديا تذوب كل هذه الثلوج وهذا الجليد كما هو الحال هنا، وتسقط بقوة في البحيرات، بحيث إن النيل يفيض بسبب هذه المياه ومياه الأمطار المتهاطلة بغزارة في إيثيوبيا العليا أثناء شهر ماي . لكن ارتفاع النيل لا يبدأ في مصر إلا في منتصف يونيو، إذ لابد من هذه الفترة كلها ــ حسب قول الاحباش ــ لتستطيع المياه أن تنحدر من هذا البعد الشاسع . وسألت يوما تجاراً

(75) الكتاب 10

إيثيوبيين كانوا يتجرون في النوبة ومصر عن سبب عدم المعرفة الحقيقة لموقع منابع هذا النهر، فأجابوا أن في سفح جبال بهت وفي الضواحي أدغالا كبيرة كثيفة ومغارات مليئة بالوحوش، لا يجرؤ أحد على أن يقترب منها دون أن يتعرض للهلاك، وأنَّ مياهه تسير من هناك نحو الجنوب وهي تتضخم باستمرار فتكون بحيرة عظيمة يبدو أن ليس لها أي مجرى، إلا أن عدة أنهار تخرج منها من جهة الجنوب وتسيل نحو أماكن مختلفة، بعضها الى الشرق وبعضها الى الغرب، متبعة منعرجات طويلة ومكونة عددا من البحيرات حتى إنه ليعسر على المرء أن يعلم من أين يمكن أن تاتي كل هذه المياه . وأضاف هؤلاء التجار أنه كثيرا مايقع للايثيوبيين التائهين في هذه الفلوات، والاعراب الذين ينشدون جمالهم الابقة بسبب النزو فيقتفون أثرها أحيانا الى مسافة مائتين أو ثلاثمائة فرسخ الى الجنوب، أنهم يرون بدون انقطاع مياه هذا النهر على نفس الشكل مكونة بحيرات كبيرة وأذرعا عديدة . ويصادفون أيضا جبالا كبيرة خالية جدباء . ويؤكد المسعودي أن هناك يوجد أثمن الزمرد الذي يسمونه دبنيس، ويشاهد أيضا رجال متوحشون يهربون من التحدث مع غيرهم . وأول بحيرة يكونها النيل وأكبرها تسمى صافي، يحدها شرقا إقليما كَوجيان وبيكَيميدري، وغربا إقليم دامباي وأزيد من عشرين جزيرة آهلة بالاحباش الخاضعين لامبراطور إثيوبيا . يخرج النيل من هذه البحيرة هادئا، ثم يخترق بسرعة بلاد هذا الامبراطور مكونا عدة منعطفات، ويحاذي بحيرة الزنوج دون أن يضيق في مجراه، الى أن يصل بين جبال فيها شلالات أو دور مصر التي يسميها القدماء كاطادوب . ويسكن على ضفتيه عدد من شعوب السود ، وتزرع على طول الشاطىء بذور البنك التي تسمى عادة بذور النيل ، ويسميها العرب بلاذر . تسمى البلاد الواقعة شرقي النيل الحبشة بالعربية ، والواقعة غربيه بلاد النوبة والزنج وجينيووفا ، النوبة في جهة مصر ، والزنج وسط البلاد ، وجينيووفا في جهتي الغرب والشمال على طول النيجر والمحيط . وانطلاقا من الشلالات انحدارا يتوسع النيل ويسيل على مهل مكونا منعطفات كبيرة دون أن يكون سهل العبور ولا صالحا للملاحة ولو في مكان واحد، وذلك إلى جزيرة ميرووي التي يسميها المصريون «ناولباب» أي بحر المراسى الطيبة ، وأهل بلاد النوبة والاحباش يدعونها سبأ التي كانت تحكمها ــ على ما يقولون ــ ملكة سبأ أوما جدة التي ذهبت لزيارة الملك سليمان، وكانت ملكة كنداس هي الاخرى تحكم هذه البلاد

فأرسلت خصيها لحمل الهدايا إلى بيت المقدس حيت عمّده سان فيليب . ويشك بعض المؤلفين في اسم هذه الملكة بدعوى أن النساء لا يملكن إطلاقا في إثيوبيا(76) بموجب قانون صادر عن سليمان، على ما يقال . إلا أن الجواب عن هذا هو أن المرأة كان في استطاعتها أن تصبح ملكة بالزواج لا بالوراثة، وان كانت تحمل اللقب بفضل علمها وشجاعتها، كما يقول الاحباش .

وهذه الجزيرة في غاية الكبر، وتشمل الان ثلاث ممالك مميزة بعضها عن بعض، وملوكها مختلفون في الديانات والعادات، متحاربون أحيانا الى درجة الابادة . أولهم وأشدهم بأسا في غرب الجزيرة، وهو مسلم . والثاني الذي توجد ممالكة في جهة الشمال من جنس السود، وهو وثني . والثالث في الجنوب، وهو حبشي مسيحي من رعايا إمبراطور إثيوبيا . ومن هذه الجزيرة انحدارا يصير النيل صالحًا للملاحة، وتصل الزوارق في ظرف خمسة عشر يوما الى مدينة الجزيرة التي كان القدماء يسمونها سيان حيث تسقط أشعة الشمس عموديا، حسب أقوال الشعراء، وينعدم فيها الظل عند الزوال، وهذا أول موقع مصري على حدود مملكة النوبة، ومنه الى أسفل يسير المسافرون على متن النيل بكل أمان . وضفافه من جميع الجهات آهلة جدا بالمصريين والغرب، وريفه خصب بسبب فيضانه . وتصب جميع مياهه ــ كما قلنا ــ في البحر المتوسط بواسطة قنوات مختلفة قبالة جزيرة قبرص .

يبدأ فيضان النيل في مصر حوالي الخامس عشر من يونيو ويدوم تضخمه أربعين يوما، وتراجعه أربعين يوما، وبذلك يعرف غنى السنة التالية أو فقرها وما عسى أن يكون سعر الزرع فيها، ذلك أنهم وضعوا في جزيرة مقابلة للفسطاط تسمى المقياس ــ أي وسيلة القياس ــ غلامات من ذراع إلى ذراع على عمود منصوب في وسط بركة علوه ثمانية عشر ذراعا، فيدخل النيل من إحدى القنوات في السابع عشر من يونيو، وهو التاريخ الذي تاخذ فيه المياه في الارتفاع بهذه المناطق، فترتفع في بعض الايام بأصبعين وفي بعضها بثلاثة أصابع، وفي أخرى بأربعة أصابيع . ويذهب كل يوم من القاهرة نواب لمشاهدة هذا العمود، إذ توجد

(76) فهي ليست من هناك ، بل من الجزيرة العربية التي تسمى تسمى أيضا إثيوبيا في الكتاب المقدس ، ولذلك سميت زوجة موسى إثيوبية .

البركة في مكان لا يدخله أحد إلا برخصة من العامل. وبعد أن يشاهد النواب مقدار ارتفاع النيل، يطلعون عليه أطفالا صغارا يضعون طاقية صفراء على رؤوسهم ليتميزوا بها، فيتجولون عبر المدينة كلها وفي ضواحيها(77) معلنين العلو الذي حققة النهر كل يوم . وتكرر هذه العملية ما دام النيل في ارتفاع، ويناولهم أهل الدور شيئا جزاء أتعابهم . وإذا بلغ ارتفاع النيل خمسة عشر ذراعا، فتلك علامة الرخاء، والى حدود اثنى عشر ذراعا فان السنة مازالت معقولة، لكن من هذا القدر الى عشرة أذرع تكون المجاعة . أما وصل الى ثمانية عشر ذراعا فتكون السنة جيدة جدا، غير أن ذلك يكون نذيرا بخطر ناتج عن تكاثر المياه . وتكون الحالة أسوأ إذ زاد الارتفاع على ثمانية عشر ذراعاً، لأن البلاد كلها تكون مهددة بأن تغمرها المياه، ويضطر الضباط الى إعلان ذلك عبر الأزقة ويذهب هؤلاء الأطفال الصغار صائحين بأنه يخاف من غضب الله، لأن فيضان النيل وصل الى أعلى السدود إذاك يهرع السكان الى المساجد للدعاء والصلاة ويتصدقون . ويرتفع النيل هكذا أربعين يوما ويتناقص في مدة مماثلة . وبما أن الزاد ينفدوقتذاك فيكون لكل فرد الحرية ليبيع ما عنده من قوت كيفما شاء ، غير أن المواد تخضع للمكس عند انقضاء هذه المدة وخصوصا الخبز الذي يدوم سعره السنة كلها . فبحسب مقدار الفيضان يعلم النواب والضباط مسبقا الأراضي التي سقاها النيل ، وما سقي منها أكثر من اللازم أو أقل بحسب علوها، وبناء على ذلك يسعرون القمح والشعير . وتقام اثر ذلك في القاهرة احتفالات كبيرة حتى ليظن أنه حدث انقلاب كلي . يغطي السكان زوارقهم بالقماش والزرابي الخفيفة ، ويذهبون لتناول العشاء على سطح الماء تحت ضوء عدة مشاعل، ويذهب العامل نفسه مصحوبا بأعيان المدينة وضباط العدل الى القناة الكبيرة المسدودة بجدار متين عندما يشرع النيل في الارتفاع فيتناولون المعاول ويهدمون الجدار بأيديهم في حبور عظيم فيتدفق النيل من هذه الثلمة وينتشر في أزقة المدينة كلها ومن الضواحي ، وتكون القاهرة ذلك اليوم شبيهة بمدينة البندقية لان الناس يقطعون الازقة راجلين أو على الزوارق . ويستمر الحفل سبعة أيام وسبع ليال بالولائم والموسيقى ، وهذا أحد احتفالات مصر التي مازالت تقام الى يومنا هذا .

---

(77) أو قرى النواحي تكون بمثابة ضواحي القاهرة .

ذلك ما وجدناه من أصح الأخبار المتعلقة بالنيل ، بعد أن استخبرنا بكامل العناية أهل البلاد والاثيوبيين الذين ياتون اليها للاتجار ، وخاصة منها ما يتعلق بفيضان هذا النهر الذي يشاهد اليوم بدقة أكثر مما كان يشاهد من قبل.

الفصـــل الثالــث والعشـــرون

الحيوانات الموجودة بافريقيا وهي مخالفة لحيوانات أوربا وباقي خاصيات البلاد

الجمـــل

البعير الذي يسميه العرب جملا ، أي ثروة السماء ، حيوان داجن وديع جدا ، ويوجد منه عدد وافر في افريقيا كلها ، وخصوصا في بلاد البربر وصحاري جيتولي وليبيا . وليس للاعراب ثروة أغلى من الجمل ، ولا مال يفيدهم أكثر منه ، بحيث إنهم إذا تحدثوا عن رجل غني قالوا انه يملك كذا من آلاف الجمال ، دون أن يذكروا له غيرها . و كل الذين يملكون عددا كبيرا من الابل هم سادة لاسلطة لأحد عليهم ، لأنهم يجوبون المفازات حيث لايمكن الوصول إليهم لمهاجمتهم بسبب فقدان الماء . والجمال موجودة أيضا في آسيا ، (78) ويستعملها الترك في أوربا لحمل الامتعة ، كما يفعل في افريقيا جميع الاعراب والافارقة الذين يعيشون في الفلوات (79) وكذلك ملوك البربر . وجمال إفريقيا أفضل من غيرها إذ تصبر عن الشعير لمدة أربعين أو خمسين يوما ، وإذا وضعت عنها الاحمال سيقت لترعى في البراري حيث تأكل الاعشاب والشوك وعروش الاشجار ، ويجتر طول النهار ما أكلته في الليل . ولا بد عند الشروع في السفر أن تكون الابل سمينة ، إذ دلت التجربة على أن هذا الحيوان اذا مشى اربعين أو خمسين يوما دون ان يأكل الشعير أخذ شحم سنامه ينقص ، ثم شحم بطنه ، واخيرا شحم قوائمه ، فلا يستطيع بعد ذلك أن يحمل ثقلا . وجمال آسيا غير قادرة علي هذا التعب ، فيضطرون الى اعطائها يوميا حصتها ، بحيث إن كل جمل محمل بالبضاعة له جمل آخر يحمل الحبوب المعدة له ولنفسه ، فتسير دائما محملة دون ان تفقد سمنها . لكن قوافل إفريقيا التي تذهب الى إثيوبيا لا تكترث بالرجوع لأنها لا تجيء بشيء ثقيل ، وعندما تصل الى

(78) وذلك عند التتر والفرس والتركمان .

(79) في الصحراء وبلاد الجريد .

هنالك تباع الجمال الهزيلة وتشترى أخرى سمينة توضع عليها المؤن وقليل من الذهب وبعض السلع الخفيفة في الاياب .

والابل ثلاث أصناف ، منها ما يسمى هجينا ، وهي أضخمها وأكبرها وتحمل الى حدود ألف (رطل) لكنها تحمل الاثقال قبل ان تبلغ ثلاث سنوات أو أربع ، واذا أرادوا وضع الحمل عليها اكتفوا بمس ركبتها وعنقها بقضيب ، فتبرك حينئذ وتبقى هكذا تجتروهم يضعون عليها الأثقال ، واذا كانت صغيرة فإنها تصيح . واذا شعرت أنها محملة وأن حارسها أزاح الحلقة الموثوق بها الحبل ليقودها به كاللجام ، نهضت لحينها بحملها .

إن الافارقة وكل الذين يريدون أن تكون لهم جمال جيدة لحمل الاثقال يخصونها ، ماعدا واحدا منها يحتفظون به لعشر إناث . وهناك جمال أخرى تسمى بختا لها سنامان يحمل على كليهما ، وهي صالحة أكثر للركوب ، إلا أنها لاتوجد سوى في آسيا . والصنف الثالث يسمى ركاهل أو مهاري أي وحيدة السنام ، وهي أصغر وأدق من الأولى ، ولكنها لا تصلح لغير الركوب وتسرع في الجري بحيث ان البعض منها تقطع خمسة وثلاثين أو أربعين فرسخا في اليوم الواحد وتتابع سيرها في المفازات هكذا ثمانية أيام أو عشرة لا تأكل غير القليل. ويستعملها جميع أمراء نوميديا الاعراب وأفارقة ليبيا بمثابة خيل البريد إن سنحت الفرصة لقطع مرحلة طويلة ، كما أنهم يمتطونها في القتال . والفحول المعدة للانجاب يعتريها النزوفي أوائل يناير ، فتكف اذذاك عن الاكل والشرب الا قليلا ، غير أنها تهيج الى درجة أنها لاتتقاتل بينها فحسب ولكنها تكون خطيرة على سائقيها ، لأنها تتذكر حينئذ أدنى أذى لحقها منهم فتأخذ بأسنانها من أمكنها لحصول عليه ثم تتركه يسقط على الارض فترفسه بأخفافها حتى يصير عجينا . وتتصارع أيضا مع حيوانات أخرى مسددة لها ضربات بالاخفاف والاسنان ، وشوهد منها ما هاجم الاسود . ولايدوم النزو سوى أربعين يوما، ترجع بعدها الى ليونتها العادية.

يتحمل الجمل الجوع والعطش بصبر ولا يشرب عادة إلا مرة(80) في ظرف خمسة عشر يوما أو عشرة أيام على الأكثر، وان أعطي الماء لِأَقَلّ من ذلك أضرّ به. وهو لين الجانب بطبعه، وله شيء من الانسانية بحيث إنهم إذا أرادوا إلزامه قطع

(80) يورد كل ثلاثة أيام .

مراحل أطول من العادية لم يعاملوه بالعنف بل أخذوا يغنون حوله لتشجيعه إذا لاحظوا أنه يتوقف ويمتنع من متابعة السير، وإذ ذاك يأتي بأكثر مما يرتجى منه ويسرع أكثر من الفرس بالمهماز.

يسمى العرب هذه الحيوانات جمالا على العموم، ويدعون المجموعة منها إبلا، ويقتاتون في معظم السنة بلبانها مع التمر، ولحمها عديم الطعم، ولاسيما السنام الذي يشبه طعمه طعم ضرع بقرة سمينة . يملأ الافارقة والاعراب آنية ودنانا من لحوم الجمال يقلونها مع الشحم ويدخرونها هكذا السنة كلها لغذائهم العادي. والحاصل أن الجمل من بين جميع الدواب هو الأقل كلفة لصاحبه والاكثر فائدة له. تصير الابل جميلة جدا في البلاد الحارة، وتموت في البلاد الباردة عندما يسقط الثلج وتضطر الى قضاء الشتاء هناك. لذلك يتخذونها دائما في السهول ورمال إفريقيا، اللهم إلا إذا سيقت محملة من نوميديا الى بلاد البربر، فتقضي يومين أو ثلاثة أيام لاجتياز جبال الأطلس.
ويشاهد عدد منها في إسبانيا يرسله إليها عمال مراكز الحدود، لكنها لا تعيش فيها طويلا لكون البلاد شديدة البرد بالنسبة لها.

الفــرس

تسمى خيول بلاد البربر في أوربا «بارب» ، لكن هناك نوعا آخر منها يسمى خيولا عربية ، وهي من نسل الخيول الوحشية الموجودة في صحاري الجزيرة العربية . يقول الأفارقة إنه بدأ ترويضها وجمعها في الاصطبلات في عهد الشيخ إسماعيل ، غير أنها تكاثرت منذ ذلك العهد حتى ملأت آسيا وافريقيا . وما زال البعض متوحشا في صحاري الجزيرة العربية وليبيا . هذه الخيول خفيفة جدا تظهر سرعتها في صيد اللمث والنعام عندما تجري ورائها وتمسكها ، فتبلغ قيمتها إذ ذاك ألف أوقية ذهبا أو مائة بعير لكنها نادرة في بلاد البربر . ويربي أعراب الصحراء وسكان ليبيا العديد منها للقنص لا يستعملونها للسفر ولا للقتال ، ولايطعمونها إلا التمر ولبن النوق في المساء وفي الصباح ، الشيء الذي يقويها ويجعلها خفيفة هزيلة أكثر منها سمينة ، وهذا ما يليق بها ، غير أنهم يرسلونها في المراعي عندما يوجد الكلأ . وأما «البارب» التي يربيها كبار بلاد البربر فليست شديدة السرعة ولا تصبر على الركض ،إلا أنها أجمل من الأولى ، اذ يعتنون بها أكثر ويطعمونها الشعير

. ولا يبقى الأمراء بدون تربية بعض الخيول العربية ليتمكنوا من الفرار إذا اقتضت الضرورة . وكان للشريف محمد وهو ملك المغرب وقتئذ فرس من هذه الخيول خلصه من مخاطر كبيرة بسرعته المتناهية ، عندما كان أخوه يستنهض القبائل ليستولي على البلاد . وكان يعلفه في الاصطبل دون ان يعمل أي شيئ، ولا يقبل أن يمتطيه أحد ، ويعتني به كثيرا ، وكان لونه كميتا فاستحال الى بياض ناصع من الشيخوخة ، وكان هذا الأمير يقول إنه سيبني له قبرا كما فعل الاسكندر ذو القرنين بفرسه .

الفـرس الـوحشـي

الخيول الوحشية نادرة الوجود ، تعيش كما قلت في صحاري الجزيرة العربية وليبيا يحسبها العرب وحوشا فياكلونها ، ويقال ان لحمها لذيذ جدا في صغرها . لكنها سريعة الجري بحيث يستحيل أن تلحقها الخيل أو الكلاب ، فينصبون لها أشراكا(81) في الاماكن التي تقصدها للشرب ويقبضونها بهذه الكيفية . وهي أصغر من الأخرى رمادية اللون ، ويوجد من بينها بيضاء ، إلا أن شعر أعرافها وأذنا بها قصير جدا ومنتفش .

الفـرس البحـري

والفرس البحري حيوان عظيم يعيش في الماء ، وتوجد كمية منه في النيجر والنيل ، يشبه وجهه وجه الفرس ولونه لون الفهد(82) شعره قصير جدا وعرفه صغير ، وذنبه مغطى بالشعر من كل جهة ، إلا أن وسطه وأردافه خالية من الشعر تماما ، له أسنان وأنياب في غاية الكبر ، يذهب بها البرتغاليون الذين يتجرون مع السود الى بلادهم ليصنعوا منها حلقات ، يعتقدون أنها تداوي البواسير. وتخرج الافراس البحرية من الماء ليلا لترعى وتعود اليه قبل النهار ، وتشكل خطرا كبيرا على الذين يسافرون على متن هذه الأنهر ، اذ غالبا ما تهاجم السفن وتقلبها . وهي خفيفة في اليابسة تجري بسرعة الريح . ويصيدها بعض السود

---

(81) تخبأ الاشراك في الرمال .

(82) أوهورمادي أسمر ووجهه وجه الفرس

وهي ما تزال صغيرة فيربونها ، إلا أنه لا ينبغي أن تترك لتقترب من الماء ، لأنها بمجرد ما تراه اذا كان عميقا قليلا تغوص فيه . وللحصول عليها عندما تخرج من الماء يحفر الاهالي حفرا كبيرة في جانب الزروع والمروج التي تأتي اليها لترعى ، ثم يغطونها بالأعشاب وبعض الأغصان وينسحبون بعد ذلك الى أن يروها آتية ، فيصيحون عليها ويحدثون ضوضاء من كل جهة ليرعبوها ، فتسقط في هذه الأشراك عندما تحاول الرجوع الى النهر . وفي نفس الوقت يقتلها الرجال المسلحون المعدون لذلك ، ولا يتركون حيا منها سوى المهار والاناث . لحمها طيب جدا ، وجلدها يصلح لأشياء كثيرة لأنه غليظ صلب كجلد الجاموس .

اللمـت

«الدانت» الذي يسميه الأفارقة لمثا له شكل ثور صغير ، غير أن قوائمه صغيرة وعنقه طويل جدا . وتشبه أذناه أذني الماعز ، وله قرن أسود في وسط الرأس مستدير كحلقة مصوغة . وهذا الحيوان لونه مائل الى البياض وأظلافه شديدة السواد مفلوحة . وهو سريع الجري الى درجة أن أي حيوان لا يمكن ان يدركه ماعدا (البارب) . وتصاد هذه الحيونات بسهولة في الصيف ، عندما توهن أظلافها على الرمال الملتهبة من كثرة الجري ، فيوقفها الألم على الفور كما يفعل بأيول هذه الصحاري وظبائها . وتكثر هذه الحيوانات في صحراء نوميديا وليبيا ، وخصوصا في اراضي المرابطين ، وتصنع من جلودها تروس جميلة ، لاتؤثر النبال في أجودها ، وذلك ما يجعلها غالية الثمن ، ويبيضونها باللبن الحامض . ولحم هذا الحيوان جيد جدا ، ويدخره المغاربة مملحا في الآنية ، وله طعم لحم الثور إلا أنه أطيب مه قليلا .

البقر الوحشي

الوحش الذي يسميه نصارى افريقيا البقر الوحشي لونه لون القسطل القاتم وهو أصغر قليلا من العجل، ذو قرنين شديدي السواد والحدة، ويشاهد كثير منه في بلاد البربر يسير في قطعان من مائة ومائتي رأس، وخاصة في إقليمي دكالة

وتلمسان وفي صحراء نوميديا وأماكن أخرى . جريه سريع كالايول، ولحمه طيب، وجلده تصنع منه الاحذية إذا دُبِغ .

الغزال

الغزال له قامة الايل الإسمر ولونه، قرناه أسودان قائمان على شكل قرني الماعزة، غير أنهما مستديران وحادّان جدا . توجد الغزلان في نفس الاماكن التي يكون فيها البقر الوحشي، وتشاهد قطعان منها بدكالة وتلمسان . بطن هذا الحيوان أبيض ولاينام إلا في أماكن نقية نظيفة، ولحمه لذيذ، يسرع كثيرا في جريه، ولا يأمن على نفسه في المكان المكشوف إن لم يكن على أحد المرتفعات أو السهول . فإذا رأى رجلا آتيا على فرسه أو كلبا هرب بكل ماله من قوة وسبقهما في العدو . ومهما كان صيده صعبا فإن الاعراب لايفتؤون يقتلون منه الكثير .

الثور البحري

الثور البحري الذي يسميه العرب هكذا يعيش في الماء، وتوجد منه كمية وافرة في النيجر والنيل . يشبه الثور تمام الشبه وله قامة عجلة بنت ستة أشهر، وجلده صلب جدا يعيش أياما كاملة بل أشهراً في اليابسة ولو أنه عادة لا يخرج من الماء أبدا. يصاد منه الكثير، وتوجد منه كمية في القاهرة وغيرها من مدن مصر وبلاد السود . يهتم به الصيادون كثيرا لأن لحمه جيد جدا .

حمار الوحش

حمار الوحش رمادي اللون، توجد منه كمية في صحراء نوميديا وليبيا، وفي البلدان المجاورة . وهذا الحيوان سريع الجري لاتدركه سوى الخيول «البارْب» وبمجرد ما يُبصِرُ إنسانا يقف بعد أن يصيح ثم يرفس بقوائمه ويأخذ في الجري عندما يقترب منه . يُصاد بالاشراك وغيرها من الوسائل المبتكرة . تذهب حُمُرُ الوحش جماعات للمراعي والموارد، ولحمها جيد جدا، غير أنه لابد من تركه يومين حتى يبرد بعد طهيه وإلا كانت رائحته كريهة أشبه ماتكون بشحم الايل . وقد شاهدنا العديد من هذه الحيوانات في سردينيا لكنها أصغر منها .

الاسد

والاسد الذي يسميه العرب هكذا هو أقوى الحيوانات المفترسة كلها وأكثرها شجاعة وشراسة، لانه يفترسها جميعا سواء كانت وحشية أو أهلية، ويمزق القطعان كما يمزق الانسان في كثير من الاحيان ويأكله ، وربما هاجم أحيانا مائتي فارس، خاصة إذا كان قرب مأوى يمكن اللجوء اليه وفي مكان يتعذر محاصرته فيه . وإذا علم الاعراب أهل البلاد بوجود أحد هذه الاسود الضارية في البادية احتشدوا جماعات كما لو أرادوا شنَّ حرب، وأخذو الدفوف والنفير والأبواق، ثم امتطوا خيولهم وذهبوا للبحث عنه في عرينه مع بعض الرماة، لانه لا يسير أبدا في النهار، ويخرج في الليل للبحث عن فريسته . فإذا وصلوا إليه طوقوه من كل جهة وأطلقوا عليه السهام والنبال من بعد استدراجه الى الخلاء المكشوف، فيقصده بمجرد ما يحس بالجروح، ويرتمي على الخيل والرجال وهو يزأر. عند ذلك يأخذون في الضرب والنفخ في الآلات التي ذكرتها ليزعجوه ، ولولا الخطر الكبير الذي يتعرضون له لكان ذلك من أجمل الصيد في العالم، لكن الاسديحدث دائما مجزرة كبرى لاسيما في الخيل .

وفي عام ألف وخمسمائة وأربعة وأربعين، عندما كان الشريف محمد ملك المغرب(83) متوجها بجيشه الى تلمسان، شاهدنا أسدا يتحارب مع رجاله في أجمة قرب جدول ماء، واستمر القتال أزيد من ساعتين جرح أثناءهما السبعُ أحد عشر فرسا وقتل ثلاثة رجال، وكان في استطاعته أن يفعل أكثر من ذلك لولا أن أصابوه من بعيد بالنبال وأطلقوا عليه أزيد من ستين طلقة نارية . إنه كان حقا من أكبر وأشرس ما شوهد من الأسدفي افرقيا منذ عهد طويل .

يُهاجم هذا الحيوان قطيع الغنم فيأخذ منه ما يعجبه الى الجبال تارة والى العرين الذى فيه أشباله تارة أخرى، وغالبا ما يدخل أكواخ الرعاة، فإذا وجد أحدهم نائما فعل به مثل ذلك، لكنه يفر اذا ما واجهوه . ويحكي الأسرى الفارون

---

(83) يقصد محمد المهدي الشيخ ثالث الملوك السعديين (986 – 964 / 1491 – 1557) . ونشير إلى أن غزو محمد المهدي الشيخ لتلمسان في هذه السنة التي ذكرها مرمول ، الموافقة لعام 951 هـ لم تتحدث عنها المصادر المغربية ، وإنما المعروف فيها أن أول زحف لجيش الملك السعدي على أتراك تلمسان كان إثر فتحه مدينة فاس عام 956هـ / 1549 . وقد تكون رواية مرمول صحيحة – وهو يتحدث عن مشاهدة – اعتبارا لكون محمد المهدي الشيخ كان في هذه السنة (951 هـ / 1544 م) قد توج انتصاراته على البرتغاليين بدخوله الى مراكش ومبايعتها له (مترجم)

من بلاد البربر السازون ليلا عبر الجبال للتوجه نحو الساحل الذي هو بيد المسحيين، أنه إذا صادف أحدهم أسداً ليلا وتابع طريقه بهدوء دون أن يلتفت، فإن الأسد لايهاجمه إطلاقا، بل يغض الطرف عند ملاقاته، لكن إذا صدرت منه أدنى علامة للخوف وثب عليه في الحين ومزقه . وقد حدث مرارا أن تبع أسد أسيراً في الطريق وفي الممرات، فإذا لاحظ الخوف لا يعتريه لم يجسر على مهاجمته، إلا أنه لا يفتأ يتبعه آملا أن يفاجئه وهو نائم أو غافل . ويحسب بعضهم أنه يساير هكذا هؤلاء الاسرى المسحيين ليدلهم على الطريق ويشيعهم، لكنه يفعل ذلك لياكلهم إن استطاع، الامر الذي لا يتجرأ على القيام به إذا رأى أنهم ثابتون، وكذلك مع الحيوانات المفترسة الاخرى .

يوجد العديد من الأسود في إفريقيا، وما يوجد منها في الجبال الباردة ليس بجريء مثل الأخرى ولا يؤذي كثيرا خصوصا الانسان . أما ما يوجد منها في اقليمي تلمسان وفاس ، او في مفازات أنكاد قرب تلمسان ، وبين عنابة وتونس فهو أعنف وأشرس من سائرها . وفي فصل الشتاء عند النزو تتحارب الاسود حتى الموت ، واذا صادفت في طريقها رجلا أو حيوانافمن النادر الغريب أن ينجو ، لأنها تسير مجتمعة ثمان أو عشار فتفترس ما تصادفه في الطريق . وقوة هذا الحيوان عظيمة الى درجة أن كل ما يمسكه بأسنانه يذهب به ولو كان بعيرا ، إلا أنه رغم كل شجاعته يخشى النار . فاذا قضى الأعراب ليلة في أحد الأماكن المكشوفة، أوقدوا ناراً كبيرة لمنعه من الاقتراب منهم، واذا أبصروا أسدا رموا الى جهته مشاعل حامية فأوقفوه حالا بهذه الطريقة . ونادرا ما يأتي الاسد دون ان يرى ، لأن بعض الحيوانات وهي أكبر قليلا من الثعالب ولها نفس الشكل ، من عاداتها أن تتبعه لتأكل فضلاته ، وتنبح كالكلاب ، بحيث يدل صياحها على أن الاسد غير بعيد فيتوقون منه . يكره الأسد هذه الحيوانات كرها شديدا ويمزق كل ما يصادف منها، لكنها ماكرة الى درجة أنها تحتاط ولا تقترب منه حتى يشبع ويترك فريسته .

وفي مدينة فاس يلاعبون الأسود مثل ما يفعلون بالثيران في اسبانيا ، وهناك مكان معدلها محصن باسوار عالية محاط بحُجيرات لا تتسع أبوابها إلا لدخول رجل واحد وتقفل بالمتارس (84) وبمجرد ما يقتحم الأسد الساحة يخرج كل الذين

---

(84) أو بأقفال قوية

يوجدون داخل الحجيرات في آن واحد ، ويتوجهون نحوه وهم يطلقون صيحات عظيمة ويثيرون غضبه برميه بالسهام ، فيسرع اليهم من جميع الجهات (85) ولا يسعهم في هذه الملاقاة إلا الفرار الى أجحارهم عندما يقترب منهم واغلاق الباب دونه . فيحاول الاسد ما استطاع أن يفتح الباب بمخالبه واسنانه ، واذا أمسكهم قبل يلجوا الجحر — وقد يحدث ذلك — فانه يمزقهم . واذا أغضبوه كثيرا وسمعوه يزأر أدخلوا ثورا يصارعه ، فيكون المشهد جميلا ، لأنهما يقتتلان قتالا عنيفا داميا لابد أن يهلك فيه أحدهما ، وغالبا ما يكون الاسد هو الهالك . لكن اذا حدث ان قتل الاسد الثور خرج الرجال فورا من مخابئهم ليحاربوه ، وبيد كل واحد منهم رمح قصير (86) إن عدد الذين يصاولون الاسد عادة اثنا عشر رجلا ، فاذا رأوا أن عددهم أكثر من اللازم سحبوا بعضهم ، لكن إذا كان عددهم غير كاف فإن الملك وأعضاء حاشيته يرمون الاسد بالقسي الى أن يقتلوه . والذين يصارعون الاسود من بربر جبل زلاغ يعطون عشر أوقيات عن هذا الاحتفال الذي غالبا ما يفقدون فيه حياتهم .

وهناك نوع آخر من السباع يسمونها نمورا (87) وهي كذلك قوية شرسة ، لكنها لا تؤذي إطلاقا إن لم يلحقها أذى ، ولاتعتدي على الغنم ، غير أنها عدو لدود للكلاب فتفترسها . ويوجد منها العديد في اقليم قسنطينة . ويصطادها الافارقة وهم راكبون على الخيول لأنها تفر من القوم ، لكنها إذا ضيق عليها صمدت بقوة . وتكثر النمور أيضا في إثيوبيا العليا ، خصوصا في جبال بهت وآكرض وكوين .

الضبـــع

والضبع (88) له قامة الذئب ونفس الشكل تقريبا ، لكنّ له رجلين ويدين كالانسان . لا يؤذي الحيوانات أبدا لأنه جبان قليل الحيلة ، غير أنه يخرج الجثث

---

(85) أو من طرق الميدان الى الطرف الآخر
(86) أو حــربــة
(87) الاراقــط
(88) الضبع بالعربية واليفاف باللغة الافريقية .

من المقابر ويأكلها ، وهذا أمر سهل لأن الأفارقة يدفنون موتاهم في الحقول . واذا عثر الصيادون على جحر الضبع قصدوه وهم يغنون على نغم الدفوف ، فيذهل او ينشط بحيث لا يغادر مكانه ، فيعمد أحدهم على مهل الى رجله ويوثقها بحبل ثم يجره الى الخارج فيقتلونه دون ان يأكلوا لحمه ، لأن المغاربة يكرهونه بالاضافة الى أنه لا يساوي شيئا .

سنــور الزبــاد

والسنور الذي يسميه العرب الزباد حيوان وحشي بطبيعة الحال ، يعيش في جبال إثيوبيا . ويصدر كثير من هذه السنانير الى أوربا ، لأنها تصاد صغيرة وتربى في اقفاص من خشب متينة جدا ، ويغدونها باللبن والدقيق والقمح المطبوخ أو الارز ، وأحيانا باللحم . لونها رمادي مائل الى البياض مخطط بالأسود كالقطط الرومانية ، لكنها أكبر منها وأقوى . وما الزباد سوى العرق الذي يرشح من أجسادها ، ولاستخلاصه يهيِّجونها بقضيب ليحثوها على الانتقال من جهة الى أخرى في القفص حتى تعرق ، فيستخرجون الزباد من بين قوائمها ومن حول عنقها وذنبها ، يفعلون ذلك مرتين او ثلاث مرات في اليوم .

القــردة

هناك عدة أصناف من القردة ، بعضها في لون القطط الوحشية ، بذنب طويل وخطم أبيض أو أسود ، تسمى عموما في اسبانيا «كاطوس باوليس» وتأتي من بلاد السود . ومنها غينون التي تسمى في افريقيا بابوان لاذنب لها . ويوجد كثير منها في جبال موريطانيا وبجاية وقسنطينية . ولهذه وتلك أرجل وأيد وحتى وجوه تشبه الانسان إن صح التعبير ، مع ذهن ثاقب ودهاء كثير . تأكل القردة الكلأ والقمح وكل انواع الفواكه ، وتذهب جماعات لاختلاسها من الحدائق أو الحقول . لكن قبل ان تخرج من ملاجئها يصعد أحد القردة الى مرتفع يشرف منه على السهل كله ، فاذا لم ير أحدا صاح بهم ليخرجوا ثم لايتحرك من هناك ما دامت هي في الخارج . وبمجرد ما يرى أحدا قادما يصيح صيحات كبيرة ،

فتاخد القردة كلها في القفز من شجرة الى شجزة هاربة الى الجبال . انه لمشهد عجيب عندما تفر ، اذ تحمل الاناث على ظهزها أربعة أو خمسة من صغارها ولا يمنعها ذلك من القيام بقفزات واسعة من غصن الى آخر . ويصطاد عدد كثير منها بحيل مختلفة بالرغم على قوة حذقها . وتعض إذا كانت متوحشة ، لكنها تربى بسهولة عندما تصانع قليلا . وتلحق أضرارا كبيرة بالفواكه والزروع ، إذ لاشغل لها إلا قطفها ورميها على الأرض ، كانت ناضجة أولا ، فتفسد منها أكثر مما تأكله وتأخذه . والقردة المعلمة تأتي بالعجائب ، مقلدة الانسان في كل ما تشاهده .

الفيــل

الفيل الذي يسميه الافارقة هكذا حيوان وحشي ذو قامة وحجم في غاية الضخامة ، ليس لأرجله مفاصل وولا كعاب ، شعره كشعر الثور . علوه عشرة أقدام، ولا عنق له بكل المعنى ، اذ يبدو رأسه الضخم وكأنه ملتصق بكتفيه . وأذناه كأنهما ترسان ، وفمه في حلقه مغطى بخرطوم يتناول به أكله ويحك به جسمه ويرفع به كل ما يأخذه الى وزن مائتي رطل يحمله على كتفيه . واحيانا عند ما يدخل في الماء يأخذ منه قدر 150 رطلا بخرطومه ويقذف به في الفضاء بعلو رمح . يسرع كثيرا ، واذا ما حث في سيره قطع في يوم واحد مسافة ستة أيام وهو يحفظ ويسمع كل ما يقال له ، لأن له شيئا من الادراك . يوجد العديد من الفيلة في بلاد السوس ، وخصوصا في الجبال الواقعة على طول النجير وفي إثيوبيا العليا . تسير الفيلة جماعات ، وإدا صادفت أحدا ابتعدت عنه وتركته الى حال سبيله . ولكن اذا اراد أن يسيء اليها رفعته بخرطومها ثم القت به على الارض ورفسته بارجلها الى أن يموت . ورغم كل هذا الحيوان ووحشيته فانهم يصطادون الكثير منه في اثيوبيا بالطريقة التي سنذكرها : يبنون في الأدغال الكثيفة التي يقضي بها الليل حظيرة بالأوتاد المشتبكة بالاغصان الغليظة ، تاركين فيها ممرا له باب ملقى على الأرض . وبمجرد ما يدخل الفيل الحظيرة يجذبون الباب بحبل إلى أعلى من فوق شجرة فيصبح سجينا ، ثم ينزلون ويقتلونه بالنبال لكن إذا حدث أن أخطؤوه وخرج من الحظيرة قتل كل من وجد في طريقه . وفي الهند وإثيوبيا العليا يصطادون الفيلة بكيفية أخرى ، فضلا عن أنهم ياخدون الصغيرة منها ويربونها .

وتشاهد في أوربا فيلة صغيرة وأخرى كبيرة جدا يصعب اطلاعها الى المركب

وعندما يذهب الاثيوبيون الى الحرب يضعون على ظهور الفيلة بروجا من خشب فيها عشرة أو اثنا عشر محاربا يقذفون بالنبال والحجر والسهام . ويتخذ العاج من عظام هذا الحيوان وأنيابه ، ويشكل احدى التجارات الرئيسية للبرتغاليين مع السود .

الدّمّـان

الدمان حيوان أنيس جدا يشبه الخروف إلا أنه في حجم العجل المتوسط ، له أذنان طويلتان متدليتان ، والانثى وحدها هي التي لها قرنان . ويشكل الدمان كل ما في ليبيا من ماشية تزود السكان بكمية وافرة من السمن والجبن . وصوفه لينة جيدا ولو أن فيها شيئا من القصر . وهذا الحيوان هادئ جدا يسمح للأطفال بالركوب عليه ويحملهم على ظهره الى مسافة فرسخ فأكثر . يوجد الدمان بكثرة في صحاري ليبيا ، إلا أنه نادرا ما يشاهد في نوميديا وبلاد البربر ، إذ لا وجود له هناك .

خروف خمسة أرباع

لايختلف خروف خمسة أرباع عن خروفنا إلا بالقرون والذنب العريض المستدير الذي يزداد طولا كلما ازداد الحيوان سمنا حتى يبلغ وزن بعض هذه الأذناب خمسة عشرة أو عشرين رطلا ، وهو الذي يعلف في البادية . ففي مصر يربون الكثير منه في د ورهم بالنخالة والشعير ، فيكون له ذنب كبير لا يستطيع سحبه فيربطون الذنب الى مدرجة صغيرة مشدودة في قرون الخروف . وتزن أذناب الكثير منها ثمانين رطلا ، والحاصل أن شحم هذا الحيوان كله في الذنب ، وله أربعة أو ستة قرون ، وأحيانا أكثر أو أقل من ذلك ، بعضها معقوف الى أعلى وبعضها الى أسفل كما هو الحال في أوربا . وهو قليل ما عدا في تونس ومصر وخرفان مصر أكبرها .

التمســاح

التمساح حيوان جريء لكنه حذر ، توجد منه كمية وافرة في النيجر والنيل يزيد طوله على عشرة أذرع ، وعلوه ذراع ونصف ذراع ، دون الذنب الذي طوله مقدار طول الجسم . له أربعة أرجل كأبي بريص ، وجلد صلب لا تستطيع القذيفة أن تخترقه . وعندما ياكل التمساح يحرك فكه الاعلى بخلاف عادة سائر الحيوانات ، لان عظم الفك الأسفل وعظم الصدر يُكوِّنان عنده قطعة واحدة ، غير أن هذا من حكمة الطبيعة ، اذ يتضايق بتحريك الفك الاسفل ، لان قوائمه قصيرة جدا . ويختلف كبر التماسيح بحسب سنها . يقتات الكثير منها بالسمك ، مع ان البعض الآخر يأكل الناس والحيوان كلما تمكن منهما . ولهذا الغرض فإن التماسيح تختبىء بمهارة في الماء ملتصقة بجانب الضفة ، فإذا رأت احدا رمت بذنبها خارج الماء وسحبته داخله . ومن حسن الحظ أنها ليست كلها على هذا الشكل ، والا لما استطاع أحد الاقتراب من الانهر التي تسكنها . وغالبا ما يحدث أنها تقترب ليلا من جانب الزوارق فتقلب رجلا بذنبها وتأكله في جوف الماء .

وتخرج أحيانا للتجول تحت أشعة الشمس في بعض جزر النهر فتفتح أفواهها ثم تاتي بعض الطيور البيض من حجم السُّمُنة فتدخل فيها لنقب فضلات اللحم الباقية بين أسنانها والتي تولّد ديدانا تزعجها كثيرا . تدخل هذه الطيور وتخرج من أفواهها بكل اطمئنان ، لأن التمساح لو أراد غلق فمه لما استطاع، إذزودت الطبيعة هذه الطيور بشوكة على رأسها تخزبها أعلى حنك التمساح فترغمه على فتح فمه . وتضع التماسيح بيضها في الارض وتغطيه بالرمل، غير أن أفراخها ترتمي في النهر بمجرد ما تولد . ويضل بعضها فياخذ طريق الصحراء فيكون ساما بخلاف التي تعيش في النهر فإنها ليست بسامة . ياكل العديد من المصريين لحم التماسيح ويجدون طعمه لذيذا، ويباع شحمها بثمن غال لانه ناجع في علاج القرحة والسرطان. وإذا أراد الصيادون أخذها ربطوا حبلا غليظا طوله خمسة وعشرون أو ثلاثون باعا الى شجرة ضخمة أو أعمدة غرسوها في جانب الماء لهذا الغرض، وشدوا في الطرف الآخر للحبل كلابا في غلظ الأصبع وطول قدم ونصف مربوط فيه خروف أو ماعزة، فيخرج التمساح فوراً الى اليابسة عندما يسمع صياح هذا الحيوان فيبتلعه هو والكلّاب، حينئذ يأخذ الصيادون في إرخاء

الحبل شيئا فشيئا وجره من حين لاخر . يقفز التمساح في هذه الاثناء ويتخبط ثم يتعب بعد أن يتألم وتنهك قواه فيسقط كالميت، ويسرع الصيادون الى شق حلقه وأسفل بطنه وبين أرجله حيث الجلد ناعم، لأن جلد ظهره من الصلابة والغلظ بحيث لا تكاد تخترقه رصاصة تطلق عليه من بندقية، بالاضافة الى أن فمه كبير جدا بحيث يسع بقرة، وأنيابه في غاية الحدة، وإذا قتل الصيادون تمساحًا وضعوا رأسه فوق أسوار المدينة كتذكار . يقول السكان القاطنون على طول النيل إن التماسيح لم تكن خطيرة أيام ملوك مصر والرومان كما أصبحت عليه بعد ذلك . وذكر المسعودي في كتابه عن عجائب الدنيا أن عثمان بن طولون لما كان واليا على مصر تحت حكم خلفاء بغداد عام 875 (89) كان تمثال من الرصاص في حجم تمساح منقوش عليه حروف مصرية في أسس معبد للوثنيين بمدينة تحمل اسم هذا الحيوان، وكان يبدو أن هذا التمثال صنع تحت بروج نجوم رصداً لمقاومته، وأن عثمان سارع الى تحطيمه، فأصبحت التماسيح منذ ذلك الحين تؤذي كثيرا . والغريب أن التماسيح الموجودة فيما بين القاهرة الى البحر انحداراً لا تؤذي أحدا، بينما التي توجد من نفس المدينة صعودا تقتل وتأكل من تمكنت من الحصول عليه . ويظهر أن هذه الحيوانات كلما انحدرت واقتربت من البحر وجدت كثيرا من السمك تقتات به، وإذا صعدت قل ماتجده من السمك .

السلحفاة العملاقة

السلحفاة حيوان مشوه يزحف عبر المفازات(90). ويوجد في الصحراء كثير من السلاحيف العملاقة في حجم برميل خمر كبير . وذكر البكري الجغرافي الافريقي في الكتاب الذي ألفه حول ممالك ومسالك افرقيا أن رجلا وجد نفسه ليلا في هذه الصحاري وهو متعب بالطريق، فنام سلحفاة ظانا أنها صخرة، ولشد ما كان استغرابه عندما استيقظ في الصباح فوجد نفسه قد ابتعد بنحو فرسخ عن المكان الذي نام فيه، واندهش لما علم أنها سلحفاة . لاتتحرك هذه الحيوانات من مكانها في النهار، لكنها تتجول ليلا ببطء حتى يظن أنها لاتسير . وتباع قشرتها في بلاد البربر بكثرة وهي كبيرة كالترس صلبة الى درجة أن قديفة لا تستطيع

(89) « سنة 270 هجرية » . هكذا في هامش الترجمة الفرنسية . والصواب أن السنة الهجرية 261 هي الموافقة للسنة الميلادية 875م . وقد عبر المؤلف بخلفاء بابلون عن العباسيين ملوك بغداد كعادته (مترجم)

(90) مفازات ليبيا

اختراقها . وقد رأينا واحدة منها في دار السلاح للشريف (91) بمدينة تارودانت . ويعتقد الافارقة أن لحم السلحفاة مفيد في مرض الجذام شريطة أن يتناوله المريض سبعة أيام متوالية وألا يتعدى عمر السلحفاة سبع سنوات .

التنّيـــن

التنين (92) حيوان سام قاتل إذا لمس أو لسع . يوجد كثير من التنانين في كهوف الاطلس الكبير، إلا أنها ثقيلة قبيحة الشكل بحيث لا تتحرك إلا بصعوبة، لأن أجسامها في غاية الغلظ من جهة البطن، وسائرها مرتخ . للتنين رأس وجناحان كالطائر، وذنب وجلد كالحية، وهو مرقط بمختلف الالوان، ورجلاه كرجلي الذئب، وليست له قوة لرفع جفنيه . ويعتقد مؤرخو افرقيا أنه يتولد من النسر والذئبة، وأن هذه الاخيرة تنتفخ به لدى حملها حتى تنشق فتضع هذا الوحش . ويكثر جدا في إثيوبيا العليا في جبال بهت (93) .

الهـــدرة

الهدرة أفعى صغيرة طويلة العنق والذنب جدا تكثر في مفازات ليبيا، وهي سامة، إذا لسعت كان أنجع الدواء هو قطع الموضع الملسوع قبل أن يعدي السم باقي الأطراف .

الضّـــب

يشبه الضب السام الأبرص الذي توجد منها كمية في البُّوي ومملكة نابولي، الا أنه أكبر منه قليلا، طوله قدم ونصف، وعرضه أربعة أصابع . يولد في صحراء ليبيا ولايشرب الماء أبدا، بل يقال إن الماء يقتله . يشبه بيضُهُ بيض السلحفاة، وهو غير سامّ، يأكله الاعراب مشويا، وطعم لحمه كطعم لحم الضفدعة . وهو في غاية الاستعداد والثبات بحيث إذا دخل جحرا وبقي ذنبه خارجه لايمكن إخراجه منه

(91) محمد (المهدي الشيخ السعدي) .

(92) يشك الكثير في وجود هذا الحيوان

(93) أو جبال القمـر

مهما بُذل في ذلك من جهد . لكن الصيادين يوسعون الجحر بمعول ويخرجونه . وإذا مرت ثلاثة أيام على قتله ووضع قرب النار تحرّك كما لو كان حديث عهد بالقتل .

الـــوَرل

الورل كثير الشبه بالضب، غير أنه أكبر منه قليلا، ويولد أيضا في صحاري ليبيا، ويأكله الاعراب بعد أن يقطعوا رأسه وذنبه حيث يكمن السم .

الحِرْبـــاء

الحرباء كالسامّ الابرص العاديّ في الكبر، لكنها مشوهة عديمة القوة . لها ذنب طويل مثل الخُلد، تسير ببطء وتتغذى بالهواء وأشعة الشمس التي تتقبلها فاتحة فاها ودائرة دوما الى جهتها . ليس لها شعر بل شامات على الجلد، تتحول الى لون المكان الموجودة فيه . ويحكي أهل البلاد عنها أشياء غريبة، من جملتها أنها تكره الحيات، فإذا أبصرت حية نائمة تحت شجرة، صعدت الى الغصون ووقفت مستقيمة على رأسها وتركت لعابها يسيل مثلما تفعل الضفدعة، وفي طرفه نقطة كالدرة من خاصيتها أنها تقتل الحية بمجرد ما تلمسها . ويقول بعضهم إنها عندما تتعرض للشمس تخرج لسانها فينزل عليه الذباب وتقتات منه ، إلا أنني لا أشاطرهم هذا الرأي رغم أنني شاهدت منها الكثير في بلاد البربر وخاصة في مملكة المغرب .

النعـامـة

تشبه النعامة الاوزة قليلا الا أنها أكبر منها بكثير . ولها ساقان طويلتان جدا ، وطول عنقها أربعة أشبار أو ستة ، ويتكون ذنبها وجناحاها من ريش طويل أسود وأبيض . وأظفار أحيانا ، يغطي جسمها الضخم ، لأن الريش لا يصلح لها للطيران ولكن للجري ، إذ تحركه لتحث نفسها وهي تجري ، وتخز نفسها أيضا بظفر أو شوكة لتتقوى أكثر ، ولذلك فهي سريعة الجري . وتولد النعامة في الصحاري بين الرمال الجافة القاحلة ، وهناك تضع عشر بيضات أو اثنتي عشرة بيضة ، بعضها في حجم كرة غليظة وبعضها أقل من ذلك . ويقول أهل البلاد

إنها ضعيفة الذاكرة بحيث تنسى موقع بيضها ، لكن اناث النعام تجري هنا وهناك فتحضن البيض في الاماكن التي تصادفها فيها . وبمجرد ما تنقف الافراخ البيضة تنطلق مسرعة الى درجة أنه يتعذر إدراكها . وهذا الطائر من البساطة والصمم بحيث لا يسمع شيئا . يأكل كل ما يجده ولو كان حديدا حاميا ، يبتلعه ويهضمه . لحمه منتن لَزِجٌ ، لاسيما لحم الساقين ، الا أن جميع سكان نوميديا ياكلونه . وإذا أخذوا أفراخ النعام ربوها وسمنوها ، ثم ساقوها الى المراعي قطعا فترعى في الفلاة ، وعندما تصبح سمينة جدا يذبحونها ويملحونها . واذا قتل الاعراب بعض هذه الطيور أزالوا ريشها كله وذهبوا به الى الحدود لبيعه الى تجار أوربا ، فيسويه هؤلاء ويصبغونه بمختلف الألوان ثم يبيعونه للمتطرفين الذين يزدانون به ويحملونه على رؤوسهم بكبرياء . ويوجد كثير من النعام في سهول أونزار وسدرة بين مراكش وسلا ، وكذا في سهول يوفت ، ومسون ، بين فاس وتلمسان .

الببغاء

الببغاء التي تكثر في جبال إثيوبيا مختلفة الألوان ، تقلد كلام الانسان وصوت سائر الحيوان ، إلا أن الخضراء منها تتعلم بسهولة أكثر . بعضها في حجم الحمام البري وبعضها أصغر منه ، تشاهد منها أنواع جميلة جدا ذات ذنب طويل بقدر قدم ونصف أو أكثر ، إلا أن هذه لا تتعلم الكلام أبدا ، ولها بالمقابل صوت رخم جدا ، بينما أصوات الأخرى منكرة .

وحيد القرن

يوجد وحيد القرن في جبال بهت بإثيوبيا العليا ، وهو رمادي اللون ، يشبه مهرا ابن سنتين ، إلا أن له لحية التيس ، في وسط جبهته قرن طوله ثلاثة أقدام مصقول أبيض كالعاج ، به خطوط صفراء من الاعلى الى الأسفل يستعمل كترياق ، ويقال ان الحيوانات الاخرى تنتظره قبل أن تشرب حتى يغمس قرنه في الماء ليطهره . . وهذا الحيوان شديد الحذق سريع الجري حتى إنهم لايستطيعون قتله ولا أخذه ، لكنه يترك غابته كما يفعل الأيل فيعثر عليه الصيادون في الصحاري . ويقول

بعضهم إن«المونوصيبرو» (94) لايشبهه، وإن قرنه ليست له القوة الكافية لمقاومة السم ، رغم أن إيليان أسهب في ذكر خاصيته .

العنقاء

العنقاء (95) التي يسميها بعضهم خطأ الزرافة ـــ وهي حيوان آخر ـــ مازالت موجودة في جبال إثيوبيا العليا ، وخصوصا منها جبال بهت ، ويسميها الاعراب العفريت ، وهي مطابقة للشكل المرسوم على الزرابي .

الزرافة

أما الزرافة فتوجد في بلاد النوبة بأعلى مصر ، وهي في حجم عجل كبير . طول عنقها طول الرمح، ولها رأس التيس الجبلي وأذناه ، بطنها لامع ، ورجلاها الخلفيتان قصيرتان جدا ، والاماميتان طويلتان ، ولون شعرها بين الأسود والأبيض يشبه شعر الثور . تسير برصانة دون أن تستغرب أو تتحرك لاي شيء . يقول الأفارقة إنها تتولد من حيوانات مختلفة الانواع . وتبتعد عن سائر الحيوانات في الادغال وتفر من الانسان . تصطاد الزرافات صغيرة في الاماكن التي تختلف اليها أمهاتها .

الماعز الوحشي

يوجد في مملكة الحبشة قرب النيل باتجاه الشرق كثير من الماعز الوحشي الذي يبلغ الذكر منه حجم العجل الكبير ، ويطول شعر هذا الحيوان حتى يسحب على الأرض ، لكنه غليظ خشن كشعر عرف الفرس . توجد منه جلود معتبرة تدبغ بجذور شجرة الحناء التي توجد جيدة كثيرة في هذه البلاد . يقول ابن الجزار إن في إمكان ستة رجال أن يقيموا في أغصان هذه الشجرة بدون أن يستطيع أحدهم الامساك بيد الآخر .

---

(94) كلمة يونانية تعني وحيد القرن

(95) يشك كثير في وجود هذا الحيوان وما قبله .

وتوجد في نفس البلاد بقرات كبيرة ليس لها شعر ، وذنبها طويل يسحب على الارض ، وعنقها مبرقش بمختلف الألوان . ويسميها المصريون ضمنيات أي كثيرة أو خصبة .

ويجنى في إثيوبيا العليا عقار (96) ذو خاصية كبيرة يشبه الحلبة ويحمل الى مصر حيث يستعمله الاطباء ضد البلغم .

وهناك حارة في جينيووفا تسمى يمس في شرق الصحراء الى جهة النيل بين مدينتي رفين وكوكو ، اذا وضع فيها القطران او الزفت تحول الى بلسم في ظرف بضعة ايام وأعطى رائحة أطيب ومفعولا أكثر . ويحدث نفس الشيء للصمغ الذي يحملونه الى ذلك المكان لهذا الغرض .

حجـر السحـر

توجد في هذه البلاد أيضا أحجار إنسانا بالعربية حسب قول ابن الجزار حجر السحر ، لها شكل أعضاء تسمى وتناسبها ، بعضها يشبه الأرجل ، وبعضها الآخر السواعد أو الرأس أو القلب، فضلا عن التى تشبه إنسانا كاملا. يقول إنهم يتعاطون السحر كثيرا هناك ، ومن كسب منهم حجرا كاملا حظي باعتبار كبير لأنهم يعتقدون أن من حمل منه شيئا مكّنه من اكتساب رضى الملوك والعظماء ، وبالتالي رضى كل من يتحدث معه (97) .

العصـي المطريـة

ويذكر نفس المؤلف أنه يوجد بهذه البلاد شجرة تسمى عود التصويت تنتج عِصيا كالخيزران ، إذا أمسكت باليد وحركت أحدثت نغمات بديعة، وذلك دون أن تنكسر أو تفقد صوتها ولو ضربت بها على الاكتاف عدة ضربات .

---

(96) اسمه العلمي كولوفانيـا Culuphania

(97) كم أود لو تخلى المؤلف عن ذكر أساطير منقولة عن الغير .

يقول المسعودي إنه توجد في جبال الارض والكون بين الزنج والنوبة أحجار تدعى أحجار العجائب ، وباللغة العربية أحجار البهت ، من خاصياتها أن من نظر إليها أصبح أخرس . ويضيف الى هذه الخرافة أخرى أكثر إثارة للسخرية ، وهي أن قصر الاعجاب الذي أمر الاسكندر ذو القرنين بتشييده كان مبنيا بهذه الاحجار ، وانه استشار أستاذه أرسطا طاليس في اقتلاعها ، فأشار عليه أن يبعث برجال وجوههم مغطاة على أن يقود كل واحد منهم عبدلا ستر على وجهه ، حتى اذا شعروا بأن العبيد صاروا خرسا أمروهم بتغطية الحجر دون أن يروه ، ويترتب هكذا بعضه بعد بعض ثم يضعونه في صناديق مقفلة . وبهذه الوسيلة ــ يقول المسعودي ــ جمعوا عددا كافيا من الأحجار لتشييد هذا القصر الجميل .

الفصـــل الرابـــع والعشـــرون

في أقدم سكان إفريقيا ، وأصل شعوب بلاد البربر

كانت مصر منذ الطوفان أول قطر في إفريقيا كلها سكنه مصرائيم ابن سام وحفيد نوح . وعمّر إثيوبيا ابن آخر لسام (98) وحكمها ، واستوطن ابن ثالث (99) ليبيا التي كانت تسمى قديما فتحية باسمه ، والتي تسمى حاليا بلاد السود ، حيث توجد النوبة ، والزنج وجينيووفا (100) في طرف موريطانيا الطنجية . وآلت الى سبشا ابن شوس في قسمته المفازات الواقعة بين هده البلاد ونوميديا . وأما توت ، وهو حفيد آخر لشام ، فحمل معه الى موريطانيا الطنجية الشعوب المسماة بالتوتيين .

يؤكد المؤلفون الافارقة أن الجزء الشرقي من بلاد البربر ونوميديا كان غير مأهول مدة طويلة من الزمن ، ويتنازعون فيما بينهم فيمن يرجع اليهم حق الاستيطان ، فيعزو بعضهم ذالك الحق الى قبائل من آسيا طردها العدو فلم تامن في اليونان الذي التجأت اليه ، واجتازت الى بلاد البربر فوجدتها بلادا خصبة خالية فعمرتها . وينسب البعض الآخر ذلك الحق الى قبائل من فينيقيا وفلسطين كانت في حروب ضارية ضد الآشوريين عند تأسيس مملكتهم (101) فطردت من بلادها ، وأن أهل مصر رفضوا استقبالهم فاجتازوا الى صحاري افريقيا حيث بدأوا يستقرون . لكن أشهر المؤلفين الافريقيين يؤكدون أن أول سكان بلاد البربر ونوميديا الذين يسمون حاليا البربر كانوا خمس جاليات أو قبائل من السبئيين جاؤوا مع مالك الافريقي ملك اليمن الذي تكلمنا عنه في الفصل الاول ، وما زالوا يحملون أسماءهم ويسمون صنهاجة ، ومصمودة ، وزناتة ، وغمارة ، وهوارة ، ومنهم

---

(98) هو شـوس
(99) هو فتـح
(100) أو جينيفـا
(101) أو لدى ملكهم .

خرجت ستمائة سلالة من البرابرة ، واليهم يرجع أكبر أهل افريقيا كلها . عمروا في البداية الجزء الشرقي من بلاد البربر ، ثم تفرقوا منه في مختلف الاماكن حتى أصبحوا سادة وأمراء أكبر قسم من افريقيا . ويسمون عادة برابرة لأن موطنهم الاول كان في بلاد البربر ، بينما الذين كانوا من قبل في موريطانيا الطنجية ونوميديا وليبيا يسمون شلوحـا . (102) .

ولما ألفت هذه الشعوب إفريقيا بعد مدة طويلة من الزمان استقرت كلها في البادية تعيش جماعات تحت الخيام ، لأنها كانت غنية بالمواشي . لكن مع مرور الزمان لم تستطع التوافق بينها ، فنشبت بينها حروب كبيرة بقي المنتصرون فيها مالكين للسهول ، بينما اضطر الآخرون الى اللجوء الى الجبال بدون المواشي حيث اختلطوا بالافارقة القدامى الشلوح والجيتول ، وبنوا مثلهم دورا يتقون بها رداءة الطقس ، فأصبحوا خاضعين لمن كانوا ينتمون اليهم . وهذا هو السبب الذي من أجله يوجد بإفريقيا برابرة يسكنون تحت الخيام ، وآخرون يسكنون في الديار ، رغم كونهم جميعا من سلالة القبائل الخمس التي ذكرتها . الا ان الذين يجوبون البادية كالاعراب هم أشهرهم وأكثرهم ثروة وأشدهم بأسا . وهؤلاء وأولئك غيورون متشبثون بعاداتهم وعراقه أصولهم ، وهم مشهورون جدا بين سائر الافارقة . ومواطنهم الرئيسية المنتشرة كثيرا عبر بلاد البربر ونوميديا . ومواطنهم الرئيسية المنتشرة كثيرا عبر بلاد البربر ونوميديا وليبيا معروفة الى حدما ، اذ بها توجد قوة كل جماعة أو قبيلة .

تحتل مصمودة اقصى الجزء الغربي من مريطانيا الطنجية ، ويقطنون جبال الاطلس الكبير ، من الرأس المسمى إدواكال المتوغل في المحيط الى اقليم هسكورة أو دومنيط ، بتلاله وسهوله من كل جهة ، على امتداد أربعة أقاليم هي حاحا ، وسوس ، وجزولة ، ومراكش ، وكانت عاصمتها أغمات .

وما زال لزناتة مساكنها القديمة في سهول تامسنا التي هي آخر أقاليم مملكة فاس وأوغلها الى جهة الغرب ، وكانوا أكثر القبائل قوة ، إلا أنهم فقدوا هذه القوة ، ويسمون الشاوية . وبقي بعضهم من الابطال الشجان مقيمين في جبال الأطلس الكبير المحاذية لولايتي فاس وتلمسان ، وهم في حرب دائمة ضد الاتراك

(102)ابن الرقيق في كتاب نسب الافارقة .

الذين استولوا على هذه المملكة الأخيرة . ويوجد بعضهم في إقليمي قسنطينة وتونس منهم من يعيش في البادية كالاعراب ، ومنهم من يعيش في المنازل . لكن أكثرهم بسالة وحرية هم القاطنون بنوميديا وليبيا . واختلط بقبيلة زناتة هذه قبيلة هوارة الخاضعة لها . وتشغل صنهاجة من جبال برقة الى جبال نفوسة وونشريس ، وبعضهم يرحلون مع زناتة .

وتستقر غمارة في جبال الاطلس الصغير (الريف) الواقعة على ساحل البحر المتوسط ، وتشغل من حدود سبتة الى ذلك الطرف من موريطانيا الطنجية الذي يتاخم موريطانيا القيصرية . وحكم من بين هذه القبائل الخمس زناتة ، ومصمودة ، وصنهاجة عبر مختلف الأزمنة بلاد البربر ونوميديا وليبيا عند انحطاط إمبراطورية العرب ، إذ لم يكونوا خاضعين من قبل سوى للرؤساء او الشيوخ لكل جماعة تسمى قبيلة ، بعدما هزموا في مختلف الازمنة من طرف الشعوب الاجنبية التي لن نتكلم عنها في هذا التاريخ . إلا أنه ، خلال حكم آل إدريس مؤسس مدينة فاس ، اغتصب الحكم المكناسيون الزناتيون في الوقت الذي بدأ آل عبد الرحمان (الامويون) يحكمون اسبانيا (103). ثم إن فرقة أخرى من زناتة نوميديا تسمى مغراوة انتزعت من آل عبد الرحمان عدة أقاليم كانت قد استولت عليها في افريقيا ، فانتصرت في آن واحد عليهم وعلى المكناسيين ، وأسست ولايات مختلفة في بلاد البربر لا في نوميديا ولو أنها كانت تملك أغلبها ، لكن طردها اللمتونيون من قبيلة صنهاجة الذين يسميهم مؤرخونا المرابطين ، لأنهم صحبوا معهم عددا كبيرا من سكان حدود جينيووفا الذين يسمون بافرقيا المرابطين اعتبارا لكونهم أول من اعتنقوا الاسلام أيام هشام بن عبد الملك .

وثار بعد ذلك أحد فقهاء هذه الفرقة المسمى المهدي ضد المرابطين وحاربهم بشدة بمساعدة بعض الافارقة (104)، فملك خلفاؤه افريقيا كلها تحت اسم الموحدين ، لأنهم كانوا يتبعون فرقة تسمى هكذا ، أي قانون الاتحاد ا. وظهر عليهم بعد ذلك بنو مرين ، وهم أيضا من زناتة ، فطردوا الموحدين ، ثم طردوا بدورهم من طرف قبائل أخرى من سلالتهم تسمى بني وطاس الذين سلبهم الحكم الشرفاء الحاكمون حاليا (السعديون) في موريطانيا الطنجية .

---

(103) في قرطبة .

(104) الموحدين

وانحدر أيضا من هذه القبائل الخمس ملوك تونس وتلمسان ، لأن بني زيان الذين كانوا يدعون أولا بني عبد الواد هم من قبيلة صنهاجة ومن سلالة مغراوة ، حكموا تلمسان الى أن استولى الاتراك عليها ، وملك آخرون (105) تونس ، من هنتاتة من قبيلة مصمودة . وأما القبيلتان الاخريان غمارة وهوارة فإنهما استولتا على بعض الاقاليم وإن لم يكن لهما ملك ، بحيث يظهر جليا أن جميع الملوك الذين حكموا إفريقيا منذ انحطاط الدولة العربية كانوا من هذه القبائل الخمس (106) . وسنذكر الاسماء الحديثة للسلالات المنحدرة من كل واحدة منها عندما سنتعرض لوصف الاماكن والجبال التي تقطنها .

(105) بنو حفص

(106) تنتسب هذه القبائل الخمس الى الجزيرة العربية ، لكن لا حظ لها في امبراطورية خلفاء محمد .

الفصل الخامس والعشـــرون

أصل زواوة ، وهم شعوب افريقيا ، وسكناهم ومنازلهم

زوارة منتشرون في أقاليم بلاد البربر ونوميديا ، ومعظمهم رعاة ولو أن من بينهم صناعا ينسجون القماش والجوخ . وهم في الغالب خاضعون للملوك أو الأعراب على فقرهم المدقع ، ويعيشون في الجبال و التلال ، ويقيمون داخل حفر . يقول المؤلفون الأفارقة إنهم جاؤوا من فينيقيا بعد أن طردهم منها يوشع بن نون ورفض المصريون اقتبالهم ، فاجتازوا الى ليبيا حيث أسسوا قرطاج قبل ميلاد المسيح بألف ومائتين وستين سنة . وبعد ذلك بكثير — يقول ابن الرقيق — عثر على حجر كبير في إحدى العيون منقوش عليه هذه الكلمات باللغة البونيقية : ((هربنا الى هنا من وجود ذلك الطاغية يوشع ابن نون)) وقبل مجيء هذه الشعوب ، كان أسكليبيوس وهرقل قد حكما افريقيا (107) ولكن منذ خراب قرطاج الاول وقبل أن تعيد بناء هاديدون ، عبرت هذه الشعوب الى القسم الغربي من بلاد البربر تحت قيادة رئيسهم نون ، وأسسوا فيه مدينتي ليبيا الفينيقيتين حيث كانوا يقيمون عندما جاء الرومان الى افريقيا . ويقال ان البلاد سميت موريطانيا من أجلهم ، لأنهم كانوا يدعون مورأو موروفور . ومهما كان الامر فان زواوة قوم محاربون ذوو نشاط كبير كانوا في القديم أقوياء جدا ، وحتى بعد مرور بعض الوقت بقي منهم من يعيشون أحرارا يتكلمون لغة البرابرة والعربية أيضا ، خصوصا منهم الذين يجوبون في ضواحي مدينة لربوس الواقعة على حدود تونس ، لأنهم يتاجرون دوما مع سكانها ، ومقرهم الرئيسي في اقليمي تلمسان وفاس . لكن اقواهم يقطنون بين مملكة تونس وبلاد الجريد ، ومن هناك كثيرا ما يجرؤون على مهاجمة ملوك تونس ، وقد هزموا

---

(107)عام 1693 قبل الميلاد . وحكما أيضا اسبانيا .

منذ عهد قريب (108) والي قسنطينة الذي أراد أن يخضعهم لسلطته (109) وأكسبهم هذا الانتصار شهرة كبيرة جعلت كثيرا من أنصار الملك يتجهون نحوهم ، واصبح رئيسهم (110) أحد أمراء إفريقيا المرموقين . ويدعى الان سلطان كوكو، وهو في حرب دائمة ضدّ الأتراك(111)، تفتخر هذه الشعوب بكونها من أصل مسيحي، وحتى يتميزوا عن سائر الأفارقة والعرب فانهم لايحلقون لحاهم ولايقصون شعر رأسهم من كل جهة كما يفعل المسلمون . وهم بالاضافة الى ذلك أعداء ألداء للعرب ولسائر شعوب افرقيا . ومن جهة أخرى، فانهم حسب عادة قديمة، يشمون بالحديد صلبيا أزرق على خدهم أو يدهم، ولاسبب لذلك في اعتقادهم سوى بيان أصلهم، غير أن السبب هو أن الرومان والقوط عندما كانوا يحكمون بلاد البربر ونوميديا أعفوا المسحيين من كل اتاوة، بحيث إن كل واحد كان يدعي أنه مسيحي عند مجيء الجباة . ولتفادي هذه الخدعة أمروا المسيحين الحقيقيين أن يتخدوا صلبيا منقوشا على الوجه أو اليد . ففعل ذلك هؤلاء الزواوة لهذا الغرض، وتمسكوا بمسيحيتهم الى أن جاء العرب . ومازال بعض الأفارقة الآخرين يحملون صلبانا لنفس الغرض، لكن مع مرور الزمان اتخذوا عوض الصلبان علامات أخرى حفاظا على ذكرى عراقتهم وشرف أرومتهم . وتستوشم بنات الأعراب أيضا ليكنّ أكثر أناقة، فيرسمن بواسطة مبضع على أثدائهن وأيديهن وسواعدهن وأرجلهن مختلف الصور باللون الأزرق، لكن هذه الصور تختلف عن صور زواوة .

---

(108)(عام 1500 ، الموافق لسنة 897 هجرية) . هكذا في هامش الترجمة الفرنسية ، وسنة 1500 توافقها 905 هـ (مترجم) .

(109) وهو مولاي ناصر بن محمد ملك تونس . وقد قتل في هذه المعركة مع 200 من الخيل . هكذا في هامش الترجمة الفرنسية ، ولا يعرف من ملوك تونس الحفصيين من اسمه ناصر ، بل محمد المنتصر ، وهذا لم يطل ملكه الا نحو سنتين 836 – 837هـ / 1432 – 1433م . (مترجم) .

(110)الشيخ

(111)سلطنة كوكو كانت لآل ابن القاضي الغبرينيين ببلاد زواوة شرقي الجزائر (لا بين تونس وبلاد الجريد) . وتقع قرية كوكو على بعد 18 كلم جنوب شرقي مدينة أربعاء بني راثن . (انظر أ.ت. المدني ، حرب ثلاثة مائة سنة ، ص 211) (مترجم) .

الفصل السادس والعشرين .

سائر الأفارقة الذين يعيشون في صحاري ليبيا .

لقد ذكرنا كيف استقرسطة بن شوس وحفيدُ نوحٍ في صحاري ليبيا الداخلية، ومنه انحدر سكان السنغال (112) وزوانزيكة(113) وتركة ولمطة، وبردوة الذين هم السكان الرئيسيون لهذه الصحاري التي كان شعوبها يدعون قديما سبطيين من أجل ذلك ، بالاضافة إلى وجود أقوام آخرين ليسوا أكثر شهرة ولا عددا، تعيش قبائلهم الفقيرة دون نظام ولاتهذيب في أماكن وعرة قاحلة يتاخم جلها بلاد السود، وأطلق عليهم اليونانيون آسم رُحَّل (نوماد) واللاتنيون آسم «نوميد» ويعيشون تحت الخيام كالأعراب ويجوبون البلاد هنا وهناك وراء إبلهم .

يقطن سكان السنغال على ساحل المحيط الغربي، منحدرين من هناك شرقا الى مالح تغازى، وشمالا الى حدود السوس، وحاحا، وذرعة، التي يسميها العرب السوس الأقصى . ويتاخمون جنوبا بلاد كَناوة (114)حيث توجد مملكتا ولاتة وتمبكتو وتبتدىء مواطن الونزريس أو الزوانزيك في جهة الغرب عند حدود تغازى منتشرة شرقا الى صحراء أير، وشمالا الى أقاليم سجلماسة، وتبلبة، وبني كَراي، وجنوبا الى صحراء كَير المفضية الى مملكة كَير في بلاد السود .

وتبتدىء مواطن تركَة في صحراء أير، وتمتد شرقا الى صحراء اكَيد، وشمالا الى صحراء توات واقليمي تكورارين وميزاب، وجنوبا الى صحراء أكَدز .

وتبتدئ مواطن لمطة عند صحراء إكَيدي، وتمتد شرقا الى صحراء بردوة، وشمالا الى أقاليم تكَورت، ووركَلان، وغدامس(115) ، وجنوبا إلى صحراء كَانو التي هي إحدى ممالك بلاد السود .

(112) تكتب في الترجمة الفرنسية (سينغا) بدون لام .

(113) هي وانـزري .

(114) هي بـلاد السـود .

(115) والمرابطون بينهم وبين سجلماسة .

وتأتي شرقيّهم مواطن بردوة تمتد الى حدود أوجلة، ويتاخمون من جهة الشمال صحراء فاس وبرقة، ومن جهة الجنوب صحارى بورنو التي هي الأخرى إحدى ممالك السود .

وأوجلة، وسرت، والواقد هي مواطن أخرى موغلة في جهة الشرق ومجاورة لمصر وسنتحدث عنها في محلها، ويوجد في بعض تواريخ افريقيا أن سكان السنغال حكموا بلاد السود وخصوصا ممالك مالي، وتنبكتو، وأكَدر، وان أحفادهم مازالوا يحكمونها. ولكل موطن شيخُه أو حاكمه الذي يخضعون له ويحترمونه كأمير، والغريب أنهم لايتحاربون بينهم البتة، ولايتنازعون على الأراضي التي يملكها كلّ منهم

الفصل السابع والعشرون

العرب الذين يسكنون في المدن ويسميهم الأفارقة - تبكيتاً - حضراً أي كيسين

اجتاز العرب المسلمون الى افرقيا عام653، في خلافة عثمان ثالث الخلفاء الراشدين، الذي أرسل اليها جيشا مؤلفا من أزيد من ثمانين ألف محارب بقيادة عقبة بن نافع(116)وبعد أن انتصر هذا القائد في بعض المعارك ضد الرومان، بني مدينة القيروان التي يسمونها تحريفا قروان، على بعد ثلاثين فرسخا من تونس نحو الشرق . يقول المؤلفون الأفارقة إن معظم هؤلاء العرب عادوا الى الجزيرة العربية محملين بالغنائم، بعد أن نهبوا البلاد كلها، وان الذين استقروا في بلاد البربر شيدوا فيها مدنا وقصورا أخرى غير القيروان ليتحصنوا فيها، وعبروا من حين لآخر الى بعض الأماكن الافرقية فاختلطوا بصنهاجة وبرغواطة والسنغال، الذين يطلق عليهم عادة اسم شعوب بلاد البربر الذين كانوا يتكلمون لغةً لاتينيةً فاسدة بعد أن حكمهم الرومان مدة طويلة حتى نسوا لغتهم الاصلية بحكم طول مخاطبتهم لهؤلاء الحكام .

يسمى العرب القاطنون في مدن افرقيا عادة حضراً، أي كيسين، ويتعاطى جلهم التجارة، وان كان من بينهم من يدرسون ومن يلازمون بلاط الملوك . لكنهم لايتمتعون بالتقدير الذي يتمتع به العرب الآخرون القاطنون في البوادي بسبب مصاهرتهم لشعوب أخرى . ويسمى المؤلفون القدماء عادة العرب الذين يجوبون موريطانيا الطنجية غربيين، وأقاليم مملكة فاس غربًا، لكونهم يسكنون الغرب ، كما يسمون الذين يجوبون البلاد الواقعة جهة الشرق شرقيين .

---

(116)دخل العرب الى افريقية قبل عقبة بن نافع في خلافة عثمان بقيادة عبد الله بن سرح عام 26 هـ / 647 م انظر تفاصيل ذلك عند أ الناصري الاستقصا 1 : 66 وما بعدها (مترجم)

الفصل الثامن والعشرون

أصل العرب كلهم عامة والذين يعيشون منهم في البادية تحت الخيام

تنقسم الجزيرة العربية التي أتى منها جميع العرب، سواء من منهم بافرقيا أو بغيرها، الى ثلاثة أقسام : بيطري، واليمن ، والخالية ، سكنها أولا ثلاثة إخوة هم عرب وسبأ، ويبطر بنو قريش أحفاد سام، فعمّر بيطري هذا الأخير، وفيه مدينة بيطرة القديمة، وعمّر اليمن سبأ فأطلق عليه اسمه سابىء أي حامل المبخرة بسبب البخور الموجودة فيه، ثم الخالية حيث تقع المدينة القديمة إسين أو إسيرناتة التي يسكنها العرب الذين أطلق اسمهم على الجزيرة(117) ويسمى أهل البلاد هذا العربي يعرب بن قحطان ويجعلونه مخترع اللغة العربية . وأتى بعد هؤلاء إسماعيل بن ابراهيم وهاجر فانحدر منهما الهاجريون الذين أطلق اسمهم على البلاد وعلى مدينة هجر نوم التي يسميها سطرلبون هجرينة وسميت بيطري نبطية من نبطي، والسكان سدريين من سدر، وكلاهما من أبناء اسماعيل، والشعوب الثالثة التي عمرت هذه المنطقة هم أعقاب شتورة الزوجة الثانية لابراهيم، استقروا في جزء كبير من اليمن وعلى طول ساحل البحر الأحمر، ومنه عبروا الى ليبيا مع عفر بن مندنيس حفيد ابراهيم وشتورة، ومنه أخذ يوسف اسم افرقيا . وتنحدر الشعوب الرابعة من يسوع ابن اسحاق الذي عمر عقبه جُزْءَ بيطري من الجزيرة العربية المتاخم لأرض الميعاد . ويسمى بلين وبطليموس هؤلاء (السارية) لأن يسوع بن اسحاق حفيد ابراهم وسارة، اتخذ أعقابهُ اسم الزوجة الشرعية . وتسمى جميع هذه الشعوب الأربعة اليوم عربا، غير أن سنّيي صحراء بلاد العرب كانوا يعتبرون دائما أكثرهم سيطرة لكونهم أكثر عدداً وأشد بأسا، ولهذا استعملهم أباطرة الرومان في عدة حروب، وتتبع سائر شعوب الجزيرة العربية عاداتهم وقوانينهم، حسب قول هيرودوت وديودور، وها هو أصل كل من يسمون الآن عربا .

---

(117) معظم هذه الاصول خاطئة ، والاسماء المذكورة مأخوذة من العبرية . انظر بوشمار في كتابة فيليغ .

يقول ابن الرفيق : انه في عام999،الموافق سنة400 للهجرة(118) عبر ثلاثة شعوب من العرب الى افرقيا بأسرهم باذن من خليفة القيروان بالقاهرة، ذلك أن خلفاء افرقيا منعوهم من العبور الى ذلك التاريخ، وكذلك خلفاء مصر، منذ أن زالت سلطة خلفاء دمشق وبغداد، كما سنذكر ذلك في محله . وكان من جملة هذه الشعوب الثلاثة شعبان من صحراء الجزيرة هما بنو هلال وبنو سليم، والثالث الذي اسمه معقل من اليمن . وكانوا جميعا يكونون نحو خمسين ألف محارب انتشروا في كل مكان بشرق بلاد البربر، ثم صاروا يملكون عدة أقاليم من افرقيا مع مرور الزمان . ومنهم تناسل الأعراب الذين يعيشون في البادية تحت الخيام . ويطلق الأفارقة ثلاثة أسماء مختلفة على العرب، فالذين عمروا الجزيرة العربية قبل ميلاد إسماعيل عربا عاربة لكونهم ينتمون الى عارب، ويقولون إنهم عرب أصيلون، والذين ينتمون الى اسماعيل يسمونهم عربا مستعربة، ومعناه العرب الذين تعربوا، لأنهم اتخذوا اللغة العربية ولم يولدوا عربا، ويسمون الصنف الثالث الذين أتو الى افرقيا عربا مستعجمة أي العرب الذين اختلطوا بشعوب بلاد البربر .

---

(118)(كذا) ويقابل عام 400 هـ 1009 – 1010 م .

الفصل التاسع والعشرون

مواطن أعراب افريقيا وجماعاتهم ، وعددهم
وفي مقدمتهم قبيلتهم الرئيسية المسماة (السكاكين)

ان السلالة الرئيسية لقبيلة (السكاكين) [119] تسمى أولاد (حداج) وأشرفهم الذين أتى بهم مولاي يعقوب المنصور رابع خلفاء الموحدين وأمير المسلمين من مملكة تونس ، وأسكنهم في اقليم دكالة بمملكة مراكش وفي قسم من اقليم تادلا ، فكانوا دائما ميّالين للحرب . ومنذ مائة سنة اضطهدوا من طرف ملوك البرتغال وأحيانا من طرف ملوك فاس . ويطلق عليهم عادة اسم شراكة لأنهم جاؤوا من الشرق الى هذه البلاد حيث كان أعراب آخرون . وتتفرع هذه السلالة الى ست عمائر أخرى تسمى عائلة أو جماعة ، يعيشون في دواوير أو قرى [120] مؤلفة من مائة أو مائة وخمسين خيمة منصوبة كلها على شكل دائرة يترك وسطها خاليا مستديرا تحبس فيه الماشية ليلا . وهذه الخيام التي يبلغ عددها أحيانا مائتين مصنوعة من نسيج أسود من الصوف وشعر الماعز وغيرها ، وكذلك من نسيج سعف النخل [121] ويكوّن كل ذلك مجموعا هذا النسيج الخشن المتراص جدا بحيث يقاوم المطر وحرارة الشمس القويين في هذه المناطق ، وتتراص الخيام بعضها مع ـض حتى كأنها حائط لايخترقه سوى ممرين أحدهما لدخول قطعان الماشية لآخر لخروجها ، ويغلق هذان الممران ليلا بالشوك لمنع دخول السباع . وهذه اسماء هؤلاء الأعراب وعددهم .

أولاد عمران (لطالي) وعددهم ألف وخمسمائة فارس وثلاثون ألف راجل كلهم

(119) اسم (السكاكين) محرف ولا شك ، وكذلك أسماء أخرى آتية وضعناها بين قوسين . أما القبائل الأربعة التي ذكر المؤرخون أنها انتقلت الى افريقية والمغرب بنو سليم ، وبنو جشم ، وبنو هلال — ثلاثتهم من مصر — وبنو الحرث من قبائل كهلان القحطانية . انظر أ. الناصري ، الاستقصا ، 2 : 146 (مترجم) .

(120) قرى تُنقل لأنها لا تتكون من خيام .

(121) نوع من اللبـد .

من أحسن الجنود . يفتخر الفرسان بحذقهم وبسالتهم ، ويعتبرون في غاية النبل والنباهة .

أولاد عمران (دفتاني) عددهم ألف ومائتا فارس وخمسة وعشرون ألف راجل في مائة قرية .

أولاد عقو عددهم تسعمائة فارس وخمسة عشر ألف راجل ، متفرقون في ثمانين دوّارا .

أولاد سبيطة ، عددهم خمسمائة فارس وتسعة آلاف راجل ، موزعون على أربعة وستين دوّارا.

وأولاد بوعزيز ، عددهم ثمانمائة فارس وأكثر من خمسة عشر ألف راجل ، موزعون على أربعة وسبعين دوّارا . وأما أولاد فرج فعددهم خمسمائة فارس وستة آلاف راجل في أربعة وخمسين دوارا .

وكان هؤلاء الآعراب جميعا أقوياء قبل أن يحتل البرتغاليون مدينتي آسفي وآزمور ويخضعوا لهم مدنا أخرى تدعى غريبية السكة كان سكانها أقل عددا ، وللانتقام من هذه الاهانة ، انضم الأعراب الى البرتغاليين فأصبحوا بوسائلهم أقوى من الشرقيين وحاربوهم بضراوة مدة من الزمان .

وتؤلف غريبة السكة مائتين وخمسين قرية أو دوارا ، بها ستة آلاف فارس وخمسون ألف راجل . وهناك أيضا في اقليم دكالة رهط من البربر يعيشون في الدواوير كالأعراب ويدعون أولاد الشياظمة . ويمتد موطنهم من نهر أكوز الى صور في اتجاه الجنوب ، ويفوق عددهم خمسين ألفا من أحسن المقاتلين .

ويقطن الاعراب المنتمون الى سميت – وهو فرع آخر من (السكاكين) – هذا الجزء من ليبيا الشرقية المتاخم لمفازات طرابلس ، وقلما يأتون الى بلاد البربر ، إذ ليس لهم فيها تراث ولا أي شيء يملكونه ، بحيث إنهم يستقرون دوما في الصحاري مع قطعانهم وعددهم ثمانون ألف محارب جلهم راجلون ، موزعون على ثلاثمائة قرية .

وهناك آخرون يسمون أولاد سويد يرحلون في البوادي بين تونس والقيروان ويصلون الى مفازات برقة ، مكونين عددا لا يحصى من الدواوير ، يعيشون أحرارا ويملكون جزءا هاما من ليبيا المرمريكية ، ويسيطرون على قبائل أخرى ، يسالمون

الملوك أو يحاربونهم كما يشاؤون ، ويخدمونهم مقابل أجور . ويقوم بعضهم بأسفار في صحاري ليبيا للاتجار في مملكة وركلة ببلاد السود . ولهم عدد وافر من الجمال والبقر وغيرها من المواشي ، حتى إنهم يزودون باللحوم جميع جيرانهم ، ويذهبون في الصيف الى المعارض والأسواق التي تقام في المدن والقرى ، إلا أنهم لايبتعدون في الشتاء عن صحاراهم ، وينيف عددهم على خمسين ألف محارب يكادون يكونون جميعا راجلين .

وأما الأعراب الذين يسمون دلاج ، وهم فرع آخر من أولاد اثبج الآنفي الذكر ، فانهم ينتقلون في غالب الأحيان بين الجزائر وبجاية ، ويقضون باقي الأوقات على حدود مملكة فاس ، مقيمين في السهول البحرية لمملكة تلمسان . وكان الذين يقطنون بين جبال الأطلس الكبير يؤدون الاتاوة إلى ملك تلمسان ، إلا أنهم تخلوا عنها الآن ويعيشون في حرية . فاذا أراد الأتراك المسيطرون على هذه الدولة أن يستعملوهم لخدمتهم فعليهم أن يؤدوا لهم أجرة غالية .

ويقطن أولاد المنتفق — وهم فرع آخر من أولاد اثبج — سهول اقليم أزغار بمملكة فاس ، ويسمون الآن الخلط ، يؤدون الاتاوة الى ملوك فاس ، ويزيد عددهم على ثمانية آلاف فارس مجهزين أحسن تجهيز ، وأكثر من خمسين ألف راجل . ويعيش الفرع الآخر المسمى أولاد صبيح على حدود تلمسان وفي نوميديا حيث يملكون أراضي كثيرة وعددهم ثلاثة آلاف من أحسن الفرسان ، وأكثر من عشرين ألف راجل ، من بينهم عدد من حاملي القاذفات النارية ، لاسيما منذ أن انتخبوا شيخا لهم أحد الاسبانيين الذين اعتنقوا الاسلام ، كان مدربا في بجاية فأسره الترك عندما فتح صالح رايس هذه المدينة .

يقضي هؤلاء الأعراب عادة الشتاء في الصحراء (122) لاحتياجهم الى مراع رعاها إبلهم ومواشيهم الكثيرة ، بينما يعيش بعضهم في السهول الواقعة بين سلا ومكناس ، حيث يملكون كمية من القطعان والاراضي الصالحة للحرث . ويؤدون كذلك الاتاوة الى ملك فاس ، وعددهم ثمانية آلاف فارس وأربعون ألف راجل ، ويسمون حاليا بني مالك سفيان . وحيث إنهم جيران للخلط فانهم يعيشون معهم مجتمعين ، ويشكلون أفضل فرسان لملك فاس الذي يوليهم أكثر اهتمام .

---

(122) ذلك لأن الكلأ يوجد فيها في هذا الفصل .

الفصـــل الثلاثــون

في عرب بني هلال ومواطنهم ومنازلهــم

انحدر من قبيلة هلال ــ التي هي القبيلة الثانية ــ إحدى عشرة عمارة :

أُولاها بنو عامر القاطنون بين تلمسان ووهران الذين يعمرون سهول كرط كلها الى جبال بني راشد ، وينتشرون نحو ليبيا الى صحراء تكوراين . ويسمون حاليا المليانيّين أو شرفاء مليانة ، وينقسمون الى خمسة بطون (123) يمكن ان يصل عددهم الى ستة آلاف فارس من أحسن الفرسان وخمسين ألف راجل . وهم أثرياء مسيطرون على برابرة الحقول . واذا ما أغضبهم الاتراك لم يتردّدوا في الدفاع عن أنفسهم ، وان لم يجسروا على ذالك خوفا من أسلحتهم النارية ونبالهم انسحبوا الى الصحارى .

وثانيتها أولاد عروة القاطنون على حدود مستغانم . وهم قوم متوحشون من كبار اللصوص يعيشون في اضطراب دائم ، ولا يبتعدون أبدا في الصحاري ، اذ ليس لهم أي ملجأ أمين ولا يجدون أحدا يرغب في أستئجارهم . عددهم ألف وخمسمائة فارس وأزيد من خمسة عشر ألف راجل غير مسلحين كما يجب . وأسوأ من ذلك لباسهم الرديء .

وتسمى العمارة الثالثة عقبة ويقطنون على حدود مليانة ويساعد هؤلاء القوم أحيانا ملوك تونس ، مع أنهم لصوص قساة كالآخرين . وعددهم ألف وخمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل .

وتسكن العمارة الرابعة المسماة أولاد هبرة في السهول بين وهران ومستغانم ، وهم فلاحون يؤدون الاتاوة لملك تلمسان وأحيانا لوالي وهران إن لم يستطعوا غير ذلك ، ويناهز عددهم مائة وخمسين فارسا وألفي راجل .

والعمارة الخامسة تسمى مسلم ويعيشون في مفازات مزيلة ، وتمتد مساكنهم

(123) وهم : أولاد عمرو ، وأولاد سليمان ، وأولاد موسى ، وأولاد عتيق ، وأولاد عبد الله .

الى مملكة بجاية . وهم أيضا لصوص كبار ، يستخلصون الاتاوة من برابرة مسيلة وغيرها في الاراضي المجاورة .

والسادسة أولاد رياح الذين آلت اليهم في التقسيم مفازات ليبيا المقابلة لقسنطينة ، وهم قوم أشداء يسيطرون على جزء من نوميديا ، وينقسمون الى ستة بطون ، هي بلال ، وآوو ، وشيفة ، ويعقوب ، وحنيشة ، ويحي ؛ وكلهم نبلاء شجعان مجهزون أحسن تجهيز ، يقتسم معهم ملك تونس موارده . ويعيش أولاد بلال في السهول الواقعة بين تونس وبجاية ، وأولاد آوو في السهول الداخلية المملوءة عيونا وأنهارا جارية في سهول جميلة ممتدة الى مدينة لوربوس ؛ ويحتل أولاد شيفة السهول الممتدة من هذه المدينة إلى حدود نوميديا حيث يقطن أولاد يعقوب ، وينتجع أولاد حنيشة في بوادي قسنطينة وعنابة ، وهم أشجع الناس وأغناهم في مملكة تونس كلها ، ويخضع لهم البربر الشاوية وغيرهم كثير ممن يسكنون في الدواوير ويتكلمون اللغة البربرية ، ويبلغ عددهم جميعا أكثر من خمسين ألف فارس ، بما فيهم أولاد يحيى الذين يعيشون معهم . ولهم كلهم رؤساء أو شيوخ يحكمونهم ، لكنهم لا يبتون في القضايا الجنائية ولا يمكنهم أن يتخذوا عقوبة شرعية ، لأن نفوذهم ينحصر فقط في مسائل السلم والحرب . فاذا قتل أعرابي آخر شهر أولياء الميت في الحين السلاح ضد القاتل وقضوا على كل من عثروا عليه ثأرا للضحية ، إلا أن الشيخ يتدخل في نزاعهم ويصلح ذات بينهم لاخماد هذه الفتن .

والعمارة السابعة وهم أولاد سويد المقيمون في الصحراء بين اقليم تنس ونوميديا ، ولهم شهرة كبيرة وسيطرة على البربر لأنهم شجعان حاذقون ، سواء كانوا راجلين أو راكبين ، يسيرون دائما مسلحين كما يجب ، ومرتدين ملابس حسنة . يناهز عددهم ثلاثة آلاف فارس وخمسة عشر ألف راجل ، يستعين بهم عادة ملوك تلمسان في الحرب ويؤدون لهم الأجور .

والثامنة أولاد أشجع المنتشرون في أماكن مختلفة والخاضعون لأعراب آخرين . ويعيش أغلبهم في اقليم كرط بمملكة فاس ، ويختلطون بغيرهم ، بعضهم مع أولاد عمران ، وبعضهم مع أعراب دكالة الذين ينتجعون في ضواحي آسفي .

والعمارة التاسعة وهم أولاد الحارث القاطنون في سهول هلين باقليم حاحا بمملكة مراكش ، يرتبطون بأولاد (سديمة) .ورغم أنهم اعتادوا استخلاص الاتاوة من برابرة هذا الاقليم فانهم فقراء ناقصو التسليح ، ولهم مع ذلك أربعة آلاف فارس وثلاثون ألف راجل موزعون في مائتي قرية ، بما فيهم أولاد النضر ، العمارة العاشرة لهذه القبيلة .

أما الحادية عشرة والأخيرة فهم اولاد كرفة المنتشرون أيضا في أماكن مختلفة ، وليس لهم رئيس ولا شيخ خاص بهم ، بحيث إنهم مختلطون مع آخرين ، وخصوصا مع أولاد منبه وأولاد عمران . وأكثر تجارتهم في التمر الذي يأتون به من اقليم سجلماسة بنوميدا ليبيعوه بفاس ويستبدلوا به القمح وبضائع أخرى ، لأن هؤلاء القوم يربّون عددا كبيرا من الابل التي تحمل البضائع . ويتفرع عن هذه العمارة عدة بطون يطول سردها ويكاد يستحيل حصرها . وعلى من يرغب في اطلاع أوفى أن يقرأ يوحنادي ليون (الافريقي) الذي فصل القول في هذه الشعوب (124).

---

(124)انظر الحسن الوزان (ليون الافريقي) ، وصف افريقيا (طبعة الرباط 1980) ، 1:41 – 47 .

الفصل الواحد والثلاثـــون

في أعراب قبيلة معقل ومواطنهم

لقبيلة معقل – وهي ثالثة القبائل – ثلاثة وعشرون عمارة :

أولها وهي الرئيسية أولاد مختار الذين تفرع عنهم أولاد روحة وأولاد سليم . ويعيش أولاد روحة في حدود مفازات دادس وفركلة نوميديا ، وليسوا أغنياء ، ولا يملكون الا قليلا من الأرض ، لكنهم معروفون بالشجاعة حتى إن الراجل منهم لا يخشى مهاجمة فارسين ، لشدة مهاراتهم واستعدادهم ، وعددهم ستمائة فارس وثمانية آلاف من أحسن الراجلين .

ويقيم أولاد سليم قرب نهر درعة على نفس الحدود (125) وينتقلون في غالب الأوقات عبر الصحارى ، ولهم حظ من غنى ، لأنهم يذهبون كل عام ببضاعتهم الى مملكة تنبكتو ، ولهم في درعة بالسوس الأقصى ممتلكات عديدة وكثير من الابل . وعددهم ثلاثة آلاف فارس وعشرون ألف راجل ، كلهم جنود ممتازون .

والعمارة الثانية ، وتعد من الفروع الرئيسية ، هم أولاد عثمان الذين ينحدر منهم أولاد حسين وأولاد كنانة . يقطن أولاد حسين قرب المحيط . على تخوم ماسة بمملكة مراكش في اقليم سوس . وهم نحو خمسمائة فارس وعشرة آلاف راجل ، نظامهم غير محكم . إن الذين يقطنون في الصحارى مع قطعانهم يعيشون أحرارا ، ولكن بعض من يقيمون في اقليم أزغار بمملكة فاس مختلطين ببني مالك سفيان يؤدون الاتاوة الى ملك فاس ؛ وكذا أولاد كنانة الذين يعيشون بين أظهر الخلط . وعددهم ثلاثة آلاف فارس وأزيد من عشرين ألف راجل ، وكلهم جنود نشطون ومسلحون كما يجب حسب عاداتهم .

وتسمى العمارة الثالثة أولاد حسان ، ولهم ثلاثة بطون : أولاد حسن ، وأولاد منصور ، وأولاد عبيد الله . وانحدر من اولاد حسن سبعة أفخاذ اخرى وهي دليم ،

(125) أي حدود نوميديا .

وبرابش ، والأوداية ، والرحامنة ، واحمر ، وذوي منصور ، وذي عبيد الله . يعيش دليم في صحارى ليبيا مع الصنهاجين الأفارقة ، وحيث انهم لا يملكون شيئا خاصا بهم ولا يمكنهم الحصول على أي اتاوة من احد ، لذلك فانهم يعيشون عيشة بائسة كلصوص أشرار . يأتي هؤلاء الأعراب عادة الى إقليم درعة ليبادلوا المواشي بالتمر مرتدين لباسا رديئا ، ويبلغ عددهم خمسمائة فارس وتسعة آلاف وخمسمائة راجل ، يقيم البرابش كذلك في صحاري ليبيا باتجاه سوس الأقصى الواقع في طرف مملكة مراكش وهم عديدون ولكنهم فقراء ولو أنهم يملكون كمية وافرة من الابل . وكانوا في القديم سادة مدينة نوميديا ، الا أن ما كانوا يستخرجون منها لم يكن يكفي حتى ليبطرة خيولهم . وهذه المدينة الآن في ملك الشريف ، وهم في فاقة شديدة رغم أن عددهم يفوق خمسين ألف محارب من بينهم سبعمائة فارس ، ويقطن الأوداية في الصحارى بين ودان وولاته (126) وهم سادة ودان ، ولحد الآن فان ملك ولاتة يؤدي لهم . وكان الرحامنة يعيشون في صحراء أقا ولهم أراضي كثيرة ، ويأتون في الشتاء الى تشيت وكان عددهم قديما يفوق عشرة آلاف محارب من بينهم سبعمائة فارس . لكن الشريف (محمد المهدي الشيخ) الذي ساعدوه في الاستيلاء على تشيت ونواحيها كافأهم بنقلهم الى بلاد البرب مع كل من كانوا معهم وأسكنهم اقليم تامسنا بمملكة فاس ، حيث هلكوا جميعا في واقعة ضد أبي حسون الوطاسي عندما أعاده صالح رايس ملكا على فاس . ويعيش أولاد أحمد في صحاري تكاوست بنوميديا منتجعين عبر اقليم السوس الأقصى حتى رأس نون . وعددهم ثمانية آلاف محارب، من بينهم حوالي ثلاثمائة فارس غير منظمين .

وينحدر من ذوي منصور أربع فصائل هم أولاد عمران، النبهي، وأولاد حسين، وأولاد أبي الحسين .

يعيش أولاد عمران في نفس الصحاري المقابلة لسجلماسة ويتنقلون في صحراء ليبيا كلها الى إكيدي . وكانوا في القديم أقوياء أشداء يجبون الخراج من أقاليم سجلماسة تدغة وتبلبلة ودرعة التي هي الان في ملك الشريف، غير أن أهميتهم تضاءلت ولوأنهم حافظوا دوما على حريتهم، ومهما استطاعوا أخذوا الاتاوة من البربر، وهم أغنياء جداً لوفرة التمور في مناطقهم، معدودون في خيرة الشجعان

---

(126) كتبت (كتاتة) في الترجمة الفرنسية (مترجم)

يبلغ عددهم ثلاثة الاف فارس وأزيد من خمسة آلاف راجل، إلا أن من بينهم أعرابا آخرين مملقين يعيشون كرعايا لهم، ويملكون بعض الخيل والماشية يسمون أولاد كرفة وأولاد أشجع وأولاد عمران فرقة أخرى تمتلك أماكن مختلفة في نوميديا تمتد الى اقليم فكيك، ويؤدي اليهم الاتاوة جميع برابرة هذه المناطق . يأتون في الصيف الى كرط بمملكة فاس منتجعين عبر حدود موريطانيا الطنجية كلها من جهة الشرق . وهم نبلاء نابهون يسعى ملوك فاس للحصول على صداقتهم ومحالفقهم .

ويقيم أولاد المنبهي في نفس الصحراء، وهم سادة مطغره والرتب من أقاليم نوميديا . وهم كذلك في غاية النباهة والشجاعة، يصل عددهم الى ألفي فارس وعشرين ألف راجل، بحيث إن سكان سجلماسة يؤدون اليهم الاتاوة .

ويعيش أولاد حسين في جبال الاطلس الكبير، وكانوا قديما يخضعون لسيطرتهم عددا من جبال البربر وبعض المدن والقرى التي أقطعهم اياها بنو مرين مكافأةً لهم على ماساعدوهم عليه من الاستيلاء على بلاد البربر . وموطن هؤلاء الأعراب بين مملكة فاس واقليم سجلماسة، وكان شيخهم يقيم بمدينة كرسلوين التي هي الان في يد ملك فاس . وهم قوم أثرياء أشداد يجبون الخراج من عدة مناطق، وعددهم ستة الاف فارس وأزيد من خمسين ألف راجل . ينتجون أيضا عبر اقليم الظهرة مع أعراب آخرين كأتباع لهم .

وينقسم أولاد أبي الحسين الى قسمين، بعضهم يعيشون في مفازات الظهرة حيث لاسلطة لهم تذكر، وبعضهم أصيبوا بضعف لدرجة أنهم لم يستطيعوا المُقام بهذه الأماكن، فرحلوا الى ليبيا حيث بنوا مساكن حقيرة وعاشوا في بؤس يُؤدون الاتارة الى الأعراب الآخرين .

وانحدر من ذوي عبيد الله أربع عمائر أخرى رئيسية، هم أولاد خراج، وأولاد هدج، وأولاد ثعالبة، وأولاد جعوان .

يعيش الأولون وهم الاكثر عددا في صحاري بني كَومي وفجيج بنوميديا، ويملكون أراضي شاسعة ومراعي لقطعانهم . يتلقون عادة اعانات مالية من تلمسان . لكن منذ أن استولى الأتراك على هذه المملكة أزعجوهم كثيرا لامتناعهم من الخضوع لهم ، ويفوق عددهم أربعة الآف فارس وثلاثين ألف

راجل ، يتجولون كثيرا ولايحصلون على معاشهم الامن اللصوصية . وفي فصل الشتاء لايبرحون مفازاتهم، أما في فصل الصيف فيذهبون الى جهة تلمسان .

ويقيم أولاد هداج قريبا من هناك في صحراء أنكاد . وهم قوم بؤساء لايعشون كغيرهم إلا بما اختلسوه لجيرانهم، فانهم يهيمون دائما على وجوههم، واذا همَّ أعداؤهم بمتابعتهم فروا الى الفلوات .

ويقطن أولاد ثعالبة في اقليم الجزائر، بينما يعيش أكثرهم نبلًا في سهول متيجة وينتجعون في مفازات نوميديا الى تكدنت . وكان الذين يسمونهم من بينهم بني تومي سادة الجزائر وتدلس عندما فتح بربروس هاتين الامارتين، وقضى على هذه السلالة التي كانت من الشجاعة والمجد بمكان، وكان عددهاينيف على أربعة الآف فارس وأربعين ألف راجل . ومن بقي منهم خضع للترك واختلط بأعراب آخرين .

ويقطن بين مستغانم ونهر شليف فرع آخر من هذه السلالة يدعون أولاد سويد، ويملكون كمية وافرة من القمح والماشية، فيهم أزيد من ألفين من أحسن الفرسان، وعدد كبير من الراجلين، وكثيراً مايتحاربون مع بني عامر وأتراك الجزائر، غير أنهم اذا وقع الضغط عليهم من طرف هؤلاء التفوا جميعا لمقاومتهم، ويذهبون للانتجاع في مفازات ليبيا . وأما أولاد جعوان فإنهم متفرقون في عدة أماكن، بعضهم مع أولاد خراج، وبعضهم مع أولاد هدج، وهم بمثابة رعايا لهم .

ذللكم هو إحصاء الأعزاب المنتشرين في افريقيا الذين يعيشون في الدواوير (127) ولنتحدث الآن عن عاداتهم وسيرتهم وكيفية محاربتهم .

---

(127) قرى متنقلة .

الفصل الثاني والثلاثون

في حياة أعراب افرقيا وعادتهم وأسلوب قتالهم

تختلف عيشة أعراب افرقيا باختلاف الأماكن التي يقيمون فيها . فأعراب نوميديا وليبيا فقراء بؤساء كأهل هذه البلاد، إلا أنهم يمتازون عنهم بمزيد من الشجاعة(128)، إذ بالاضافة الى أنهم يتجرون في الابل مع السود فانهم يملكون كمية وافرة من الخيل ويذهبون دوما لطراد الأيول وغيرها من الوحوش التي تكثر في هذه البقاع . ومن جهة أخرى فانهم يتعاطون كثيرا للفلسفة الطبيعية بقدرما يتعاطون للفصاحة والشعر، فينظمون قصائد مقفاة موزونة يصفون فيها كما هو الحال بأروبا حروبهم وصيدهم وحبهم، ويتغنون بها بلطافة على أنغام الدف والعود والكمان كما يحدث في بعض الرقصات البرتغالية. وكثير منهم يغنون ويعزفون وينظمون في آن واحد . وهم صرحاء بطبعهم، محافظون على سمعتهم، إلا إنهم فقراء لايملكون شيئا يعطونه، واذا نزل بهم غريب أحسنوا معاملته وأطعموه، ولا يستطيعون أن يفعلوا أكثر من ذلك. يرتدون لباسا شبيها بلباس النوميديين، غير أن نساء هم يتزيَّنَّ أحسن .

وكانت صحاراهم في القديم موطنا للجيتول والنوميد لكنهم طردوا هؤلاء الشعوب إلى تخوم بلاد السود، وأصبحوا يملكون البلاد بكل أمان . واذا بقي من النوميد أحد خضع لهم. والأعراب المقيمون في بلاد البربر بين الأطلس الكبير والبحر المتوسط أكثر غنى وشهرة، فضلا عن كونهم يرتدون لباسا أفضل . خيامهم أكبر وأحسن صنعاً، وخيولهم أجمل وأكثر زينة ولوأنها أقل خفة . يحرثون أراضيهم ويحصدون الشعير والقمح بكثرة، ويملكون كمية وافرة من المواشي الكبيرة والصغيرة، بحيث إنهم لايستقرون بمكان واحد منتجعين المراعي هنا وهناك ، ليسوا شجعانا كأعراب الصحراء، وهم أقل تمدنا وأكثر بخلا، لكنهم لايتخلون عن ايواء

---

(128)أو من النبل

الغرباء واكرامهم مجانا . والمقيمون منهم في إمارات ملك فاس يؤدون اليه الخراج، لكن الذين يقيمون بمراكش وخصوصا باقليم دكالة كانوا يعيشون أحرارا قبل أن يستولي ملك البرتغال على مدينتي آسفي وأزمور . غير انهم انقسموا على أنفسهم وتسببوا في خرابهم، إذ كان ملك فاس يهاجمهم من جهة وملك البرتغال من جهة أخرى، فضلا عما أصابهم من الطاعون والمجاعة، فاضطروا الى تسليم أنفسهم للبرتغاليين كعبيد، وبيع نسائهم وأولادهم لهم للحصول على قوتهم . فأصبح جلهم بذلك رعايا للبرتغاليين ، وانسحب الباقون الى الداخل منضوين تحت لواء الشريف الذي أخد يسترجع البلاد قدما فقدما الى أن تمكن أخيرا من السيطرة على الاقليم، وخضع له الآن جميع سكانه كسكان الأقاليم المجاورة . وأما الأعراب المقيمون بالصحراء على حدود تلمسان وتونس، فانهم يعيشون كالأمراء، يتعهدهم ملكا تلمسان وتونس وينفقان عليهم ، يعولهم هذان الملكان اللذان يستعملانهم ويستخدمانهم في الحرب . ولهم دائما عُدة حسنة وخيول جياد وخيام جميلة، يذهبون صيفا الى تونس لتسلم السلاح وأجورهم ، ويتزودون في الخريف بالميرة والملابس والعدة لقضاء الشتاء في الصحراء مع قطعانهم (129) وفي فصل الربيع يقبلون على صيد الطيور والحيوانات الوحشية، ولذلك اتخدوا كلابا وصقورا جيدة . وهم ظرفاء أدباء يفتخرون بالشعر، ويقرضون بالفعل أشعارا جزلة بلغتهم . لكن نظرًا لبُخلهم وغدرهم فانه لايحسن الركون اليهم . ترتدي نساؤهم لباسا حسنًا بالنسبة للبلاد، قمصانا سودًا عريضة الأكام جدا، فوقها قماش أزرق أو أسود يتدثرن به ويثنين طرفًا منه بشكتين من فضة في موضع الثدي، ويقلبن الطرف الآخر على رؤوسهن. يضعن في آذانهن أقراطا وحلقات فضية، وفي سواعدهن وسيقانهن أساور وخلاخل حسب زي البلاد، بالاضافة الى خمار من نسيج أبيض ناصع على رؤوسهن يتلثمن به عندما يرين غريبا ويرفعنه عندما يكن في خيامهن . يصحبن أزواجهن معهم على الابل في هودج صغير شبيهٍ بسلة مصنوعة من أغصان الصفصاف لايسع غير شخص واحد، ومغطى ببساط . يَصْحَبْنَهم سواء في السفر أو الحرب ليشجعنهم بحضورهن وحتى لايقلقن من غيابهم . وعندما يكن طفلات يتجملن عادة بوشم عدة أرقام ورسوم مليحة باللون الأزرق على الجسم كله (130) بحد مبضع ومادة الزاج، وتحذو حذوهن

(129) لوجود الكلأ فيها آنذاك .

(130) في الذقن ، والعنق ، والثدي ، والذراعين ، واليدين ، والرجلين ، والساقين .

الافرقيات، باستثناء اللواتي يقمن بالمدن فانهم يحتفظن ببياض وجوههن على الخلقة التي ولدن عليها . وتشم بعضهن فقط زهرة صغيرة أو صورة ثدي على الخدين والجبهة والذقن بدخان العفص والزعفران الذي يترك علامة سوداء قاتمة، ويسودن حواجبهن كذلك، ويمدح الشعراء كثيرا هذه الأنواع من التسويد ويعتبرها النبلاء من الأناقة، لكنها لاتدوم أكثر من يومين أو ثلاثة، واذا تزينت السيدات هكذا لم يبدين زينتهن إلا لأهل بيتهن متوهمات أنهن سيحظين هكذا بجمالٍ أوفر وحب أقوى من أزواجهن .

والأعراب الذين يعيشون في صحاري برقة بين بلاد البربر ومصر فقراء بؤساء ، لأن البلاد جافة قاحلة لاتستطيع إعالتهم ، وهي قليلة الكلأ لا تنتج أي نوع من الزرع . حقا إن هناك بعض الاماكن الصغيرة التي يسكنها أهل البلاد يجود بها بعض النخل الرديء الذي ينتج القليل من التمر ، ويزرع فيها اليسير من القمح حول البيوت ، بالاضافة الى أنهم في معركة دائمة مع الأعراب للحفاظ عليه ، ويستبدلونه أحيانا معهم بالابل والغنم . لكن عدد هؤلاء الأعراب كثير بحيث إنه لا يكفي لقوتهم ، وتصيبهم المجاعة حتى يضطروا الى تسليم أبنائهم للتجار المسيحيين الذين يأتون اليهم بالقمح من صقيلة ، ويشترطون عليهم ان لم يفكوهم بأداء الدَّين في وقت معين أن يبقى هؤلاء الأطفال عبيدا . وقد رأينا الكثير منهم في هذه الجزيرة متنصرين . وهؤلاء القوم هم أكبر لصوص العالم ، لأنهم يسلبون كل من تمكنوا منهم ويجعلونهم عبيدا لهم ، فلا يجسر المسلمون على أن يمروا بهم آحادا أو جماعات ، خصوصا على طول الساحل حيث ينتشرون في كل مكان . ومن أجل هذا فإن القوافل المتجهة الى مصر تسير على بعد مائتي فرسخ من البحر تقريبا ، وهو بدون شك الطريق الذي اتبعه كاتون حسبما أرى ، لكثرة الوحوش والحيات التي تصادف فيه . وبالتالي فانهم أسوأ شعوب افريقيا، ويبدو عليهم الهزال والشحوب من قلة التغدية ، وتراهم دائما وسخين مرتدين أقبح لباس .

وجميع الأعراب القاطنين في جهة الغرب ، حيث توجد مملكتا فاس ومراكش ، يحملون عادة رماحا طولها خمسة وعشرون شبرا . وهي مصنوعة من شجر المُرّان ، بخلاف التي هي من شجر الدردار المستوردة من أوربا التي يستحسنونها كثيرا حتى إنها تباع بعشرين دينارا إن كانت من قلب الخشب .

ويستعملون كذلك تروسا من جلد صنف من الجاموس ، ولهم منها كمية وافرة .

يرغب الملوك في اتخاذ مخازن للسلاح يوجد بها الكثير من الزرود والخود . ويقتنون سيوفهم في الغالب من بلاد النصارى ، وهي غالية الثمن اذا كانت جيدة ، لأن التي تصنع في البلاد ليس جيدا فولاذها ولا مسقاها لانعدام الماء اللائق لذلك .

ومنهم فرسان يحملون القسي ويستعملونها بمهارة ، لكنهم لايستعملون القاذفات النارية ولا يحبونها أصلا . فإذا أرادوا التناوش أزالوا الغطاء عن سروج خيولهم ليكونوا أكثر حرية ولا تزعجهم الريح في حركاتهم . ويتباهون بامتلاك أنفس العُدد ولا يذهبون بدونها. وهناك من الفرسان من يحمل ست حراب أو سبع ، ومنهم المهرة الذين يستطعون اصابة قعر صحن من بعد أربعين قدما . وهم يجرون بأقصى سرعة ، وتدور خيولهم بحذاقة لا تتصور .

وأما الأعراب القاطنون جهة الشرق من مملكة تلمسان الى صحاري برقة ، فانهم يحملون حرابا طولها أربعون أو خمسون شبرا ، وطرفاها مصفحان بالحديد لتضرب من أمام ومن خلف . وأخطر طعناتهم التي يصيبون بها العدو عند انسحابهم ، لأنهم عندما يرون عدوا يلاحقهم عن قرب يحولون الحربة الى الذراع الأيسر ويطعنونه من بعيد وهم هاربون بحيث لا يشك في اصابته أدنى شك . وقد حذقوا هذا التمرين حتى إن منهم من لا يتصنع أبدا من مهاجمة عشرة فرسان أو اثني عشر فارسا بمفرده في السهل ، ويجعلهم يدافعون عن انفسهم بكل حرج . لقد سبق أن قلت إن هذه الحراب ليست من المران ، وان بعضها من الدردار . وأجودها تصنع من جذور نبات يستورد من صحارى ليبيا ، وهي من خشب اسود صلب ثقيل ، إذ كلما ثقل الخشب كانت الحربة أجود إذا حسن استعمالها . وليس للذين يحملون مثل هذه الحراب تروس ، لكن لهم بعض الرماح التي ذكرت ، ولا يهتمون كذلك بالخود والزرود لأنها تمنعهم من الدوران بسهولة ، فلا يحملها الا الذين يستعملون الرماح . ويحمل بعضهم قسيا لكونهم لا يستعملون الأسلحة النارية ، لاسيما اذا كانوا راكبين .

ويمتاز سكان تلمسان وفاس عن غيرهم بزينة خيلهم وبقيمتهم ، والموغلون منهم أكثر الى جهة الغرب أحسن استعدادا وأكثر نبلا وعظمة ، والراجلون منهم

لا يكاد يُنتفع بهم لأنهم لا يتحاربون الا على الخيل ، إلا أنهم منذ زمن قليل أخذ بعض الشيوخ يملكون أسلحة نارية وخصوصا منهم سكان مملكة تلمسان ، لكنهم لايستعملونها إلا لارهاب الأعراب الآخرين الذين يخشون النار بكيفية غريبة . إنهم لا يحسنون استعمال هذه الأسلحة ويحاربون بها في اضطراب . وفعلا فإن طريقة محاربة هؤلاء الشعوب تختلف كثيرا بالنسبة لسائر الأمم ، اذ لا يحاربون مجتمعين بل متفرقين في كل جهة ، فاذا اكتشفوا موطن ضعف حملوا عليه وتعجلوا منه الانتصار ما أمكنهم ذلك ، لكن اذا هوجموا أولا تراجعوا في الحين ولو كانوا أضخم عددا ، ثم أعادوا الكرة من كل جهة مرات مختلفة محاولين زحزحة عدوهم . وباختصار إنهم على قدر كبير من المهارة والاستعداد ، حتى إنهم يقتحمون الكتائب دائما ويتراجعون أو يتقدمون بسرعة كبيرة مالم توجد أسلحة نارية . وإذا حاربوا المسيحين بذلوا كل ما في وسعهم لجرج خيولهم أو قتلها ، لأنهم يعلمون أنهم مسلحون كما يجب لا تمكن إصابتهم بسهولة ، فعلى الذين يواجهونهم أن يحذروا من هذا . ولن أزيد على هذا لأختصر حديثي ، وان كان هناك كثير مما يقال في هذا الموضوع .

الفصل الثالث والثلاثون

في لغة الأفارقة

ان الأفارقة القدماء الذين يسمون شلوحا أو برابرة ، ولو أنهم مشتتون عبر افريقيا كلها ، فانهم مع ذلك يكتبون ويتكلمون كلهم لغة واحدة تسمى لغة أبي مالك مخترع النحو العربي (؟) ولا يمنعهم من التكلم أيضا بلغة البلاد التي تختلف كثيرا عن غيرها من اللغات ولو أنها تحتوي على بعض الكلمات العربية التي أدخلت فيها بواسطة هؤلاء الشعوب الذين جاؤوا الى افريقيا في مختلف العصور. وتقول السلالات الخمس [131] التي تحدثنا عنها في الفصل الحادي والعشرين لتأييد كونها أتت من اليمن إن لغتها الأم هي العربية ، وإنها فسدت بتعاقب العهود منذ انتقالها الى افريقيا حيث كانت مضطرة الى التعامل مع امم أجنبية ، لكن المفردات العربية التي رسخت فيها لدليلٌ كافٍ على أصلهم . واللغة التي يتكلمون بها حاليا مكونة من العربية والعبرية ، واللاتنية ، واليونانية ، والافريقية القديمة التي كانوا يستعملونها لدى مجيئهم الى البلاد ، لأنه لاأحد يخالف في وجود لغة طبيعية خاصة بافريقيا مختلفة عن لغة العرب . وتحمل اللغة التي يتكلمون بها الآن ثلاثة أسماء [132] تكاد تدل على نفس الشيء ، مع أن البرابرة الأقحاح يختلفون في النطق وفي مدلول كثير من الكلمات . فأقربهم جورا للعرب وأكثرهم اتصالا بهم يمزجون كلامهم بالعديد من كلمات لغة أبي مالك (العربية) التي هي أشرف اللغات ؛ ويمزج الأعراب كلامهم كذلك بعدد كبير من الكلمات الافريقية . ويتكلم أهل غمارة وهوارة الذين يعيشون في جبال الأطلس الصغير [133] لغة عربية فاسدة ، وكذلك

---

(131) وهي التي يطلق عليها اسم برابرة بالذات .

(132) وهي الشلحة ، وتامازيغت ، والزناتية .

(133) يقصد جبال الريف (مترجم) .

جميع سكان مدن بلاد البربر المقيمين بين الأطلس الكبير والبحر . لكن سكان مراكش وجميع أقاليم هذه المملكة ، سواء منهم النوميديون والجيتول المقيمون بجهة الغرب ، يتكلمون اللغة الافريقية الصافية المسماة الشلحة وتامازيغت ، وهما اسمان قديمان جدا ، أما سائر الافارقة البرابرة القاطنين في الجهة الشرقية المتاخمة لمملكة تونس وطرابلس الغرب الى صحارى برقة ، فانهم يتكلمون جميعا لغة عربية فاسدة ، وكذلك الذين يعيشون بين جبال الأطلس الكبير والبحر ، سواء كانت لهم منازل قارة أم لا ، بالاضافة الى زواوة ولو أن لغتهم الرئيسية هي الزناتية ، بحيث إن الذين يتكلمون اللغة العربية الفصحى بافريقيا قليلون ، لكنهم جميعا يستعملون في كتاباتهم الأصلية لغة أبي مالك التي تقرأ وتكتب عادة في كل بلاد البربر ونوميديا وليبيا . وهاتان اللغتان مختلطتان عند السود ،لأن الأقاليم القريبة من السنيغال والبلدان الأخرى العربية الاسلامية فيها عدد كبير من الكلمات العربية والافريقية ، ففي جيلوف ، وجينيووفا ، وتنبكتو ، ومالي، وكاغو،وكناطي يتكلمون لغة سونغاي ، وفي كوبر وكانو وكيسينا وبرزكرك ، ووانكرا يتكلمون لغة كوبر ، وهي لغة أخرى ، وفي بورنا وكوكا يتكلمون لغة ثالثة تشبهها بعض الشيء ، وفي النوبة يتكلمون لغة رابعة مختلطة بالعربية والكلدانية والمصرية .

وتفضي هذه الأقاليم كلها الى النيجر . ولكن الأقاليم الأخرى الأكثر توغلا في الجنوب مازالت فيها لغات مختلطة ، وأهمها الزنجية والحبشية . وفي بعض المناطق يسمع صفير عوض الكلام ، يصفرون أكثر مما يتكلون (134) . وهناك شعوب في غاية من التوحش حتى إنهم لايتكلمون ولا يتواصلون مع غيرهم ولا يظهرون لأحد ، فاذا أخذ منهم أسير ترك نفسه يموت جوعا من شدة الغيظ . وسنذكر في سم الثاني من هذا التاريخ عدة أشياء حقيقية واقعة تتعلق بشراسة هذه الأمم ، سنتحدث عن امبراطور الحبشة وممالكه . ولما فتح العرب المسلمون بلاد مصر أخذ المصريون لغتهم ، ثم أخذوا اللغة التركية التي يستعملونها للتظرف ، ولم يحتفظ باللغة المصرية الاصيلة التي كانت موحدة ومشتركة في البلاد كلها إلا أولئك الذين تمسكوا بالديانة المسيحية ، مع أن هذه اللغة ممزوجة بالعربية والحبشية في بعض المناطق ، وكثير من العبرانية في سائر البلاد.

(134) كل لغة لا نعرفها يبدو لنا عند سماعها أنها صفير .

الفصل الرابع والثلاثـــون

في الحروف القديمة للأفارقة التي يستعملونها اليوم

يعتقد أشهر المؤرخين العرب أن الأفارقة لم يكونوا يستعملون سوى الحروف اللاتينية عندما فتح المسلمون بلاد البربر التي كانت ومازالت موطن نبلاء افريقيا . الا أنهم لا يمارون في أنهم كانوا يتكلمون لغة أخرى غير اللاتينية ولو أن هذه كانت أكثر تدوالا ، لذلك فإن جميع كتب التاريخ التي تركها لهم الآريون مترجمة عن اللاتينية ومقتصرة على أسماء النبلاء والأمراء ، وتتعلق بعهود ملوك فارس ، وآشور ، واسرائيل ، أو بالتقويم القيصري ، لكنه ينبغي الاعتراف بأنهم لم يتوفروا منها إلا على القليل النادر ، لأن الخلفاء الخوارج أمروا عندما كانوا يحكمون افريقيا بإحراق جميع الكتب التاريخية والعلمية حتى لا تقرأ سوى مؤلفات نحلتهم . ويقول بعضهم إن الأفارقة كانت لهم حروف غير اللاتينية ، لكن اليونانين والرومانين والقوط أرغموهم على تركها ، مثلما فعل العرب بالفرس حيث أمر الخلفاء باحراق كتبهم ظانين أنهم لن يكونوا أبدا مسلمين مخلصين مادام بين أيديهم وسائل إذكاء وثنيتهم . بالاضافة الى أنهم منعوهم من دراسة العلوم ، وكذا في افريقيا (135) لذلك فإن جميع الآثار المكتوبة الموجودة قديما عبر افريقيا كلها قبل مجيء العرب لاتنية أو قوطية ، والحديثة منها عربية .

يقول ابن الرقيق : إن الرومان طمسوا العناوين والحروف القديمة التي وجدوها في افريقيا عندما احتلوها، ووضعوا مكانها عناوينهم وحروفهم حتى يخلدوا وحدهم ، الأمر الذي هو معهود عند الفاتحين . ومن ثم لم يبق أي أثر للحرف

(135) لا حاجة الى دحض هذا التحامل السافر ، فالعالم كله يعرف حض الاسلام على العلم والمشاركة الفعالة للفرس المسلمين في مختلف ميادين المعرفة حتى إنهم فاقوا العرب في ذلك .

الايفريقي . وليس من الغريب إذن أن يكون الأفارقة الأقدمون فقدوا حروفهم بعدما مرت عليهم عدة قرون تحت نير مختلف الأمم المتباينة الأديان ، وأن المتأخرين منهم لم تكن لهم سوى حروف عربية منقوطة غير مشكولة مع علامات تحل محل الشكل. وكما هو الحال في اللغتين الكلدانية والعبرية اللتين تشبههما اللغة العربية كثيرا حيث إنها تكتب كلها بعكس اللاتنية ؛ فالنحو العربي لذلك صعب جدا ، ولا يحسن القراءة والكتابة إلا المتضلعون فيه لأن العربية تكتب بعدة علامات ، ورسمها أعسر من اللاتنية لأن الالتباس في الكلمات كثير ، فرب كلمة واحدة إذا كتبت بشكلين مختلفين دلت على معنيين متباينين ، كما أن الشدة وهي مضاعفة الحرف ، لها عدة دلالات لنفس الشيء ولنفس الكلمة .

الفصل الخامس والثلاثـــون

في العادات القديمة والاعتقادات الباطلة لشعوب افريقيا

كان أفارقة بلاد البربر الأقدمون يعبدون الشمس والنار ويقيمون لهما معابد فخمة يحتفظون فيها بالنار بكل عناية ، كما كان يفعل الفرس أو الرومان في معبد فيسطا . واستمروا في وثنيتهم الى سنة 349 وحتى تعديل تقويم قيصر عام 387 ، حيث اعتنقوا الديانة المسيحية . غير أنهم لم يكونوا كلهم كاثوليكين أو أورطودكسيين بسبب التأثر السيء الذي كان يلحقهم من مختلف البدع السائدة آنذاك، فشن العرب الحرب عليهم مدة طويلة وانتصروا بعد معارك متعددة . وكان سكان نوميديا [136] وليبيا يعبدون الكواكب ويقربون لها القرابين . وأما زنوج إثيوبيا السفلى فلم يتفقوا في عبادة الآلهة، فعبد بعضهم الشمس وآخرون القمر ، وعبد هؤلاء النجوم وأولائك الماء أو النار وقليل منهم عبدوا أول شيء حيّ صادفوه لدى مغادرة سكناهم ، وكان سكان إثيوبيا العليا يعبدون إله السماء باسم كيكيمو ، دون أن يرشدهم الى ذلك أي فقيه أو خطيب . ثم اعتنقوا الديانة اليهودية بايعاز من ملكة سبا أو ماجدة التي علمت — على ما يقولون — بحكمة سليمان البالغة ، فذهبت اليه وتعلمت منه قانون موسى واطلعت على أحوال الرسل . وتهوّد أيضا بعض شعوب اتيوبيا السفلى وتمسكوا جميعا بهذه الديانة الى مجيء خصي [137] ملكة كنداس الذي عمّده سان فيليب ، فدعاهم الى الدين المسيحي ودخل فيه عدد منهم . لكن لما كانت سنة 1067 الموافقة لعام 469 للهجرة ودخل يحيى بن أبي بكر الى إثيوبيا السفلى وعلمهم بعض الفقهاء المسلمين مبادئ دينهم ، وخصوصا منهم سكان النوبة وجينيووفا المتخامتين لصحراء ليبيا وبلاد مصر ،

(136) يعتبر نوميديا هي جيتوليا كعادته .

(137) وهو يهوديكسة .

حيث يوجد لحد الآن عدد كبير من الفقهاء والقراء . وعبر بعد ذلك آخرون بجيشهم لفتح اسبانيا ومصر ، فرجعوا منها منتصرين بعد ان أعدوا جل هذه الشعوب بدينهم . لكن سكان اثيوبيا العليا ظلوا محتفظين بايمانهم بالرغم على أن لهم عدة اعتقادات باطلة يهودية بسبب مكوث اليهود الطويل بين أظهرهم على قلة عددهم ، إلا أنهم اضمحلوا أخيرا . وسكان اثيوبيا السفلى الموجودون في بلاد الزنج أو على ساحل المحيط كلهم وثنيون ، ومعظمهم جفاة بحيث يستحقون لقب وحوش أكثر من أناس . ومنذ أن أخذ البرتغاليون يجرون على طول هذا الساحل ، اعتنق البعض منهم الديانة المسيحية ، كما سنذكر ذلك فيما بعد . وكان المصريون كذلك وثنين ، ثم مسيحين ، ومن ثم انتقلوا الى دين محمد ، وان بقي كثير منهم متمسكين بالديانة المسيحية .

الفصل السادس والثلاثــــون

كيف بدأ أمير البرتغال دون هنري اكتشاف الشواطئ الغربية لافريقيا والهند ، والابحار اليهــا

كان الأمير دون هنري بن الملك دون يوحنا الأول عاهل البرتغال ، يُحِبُّ كثيرا علم الفلك والكوزموغرافيا ، ولكي يتفرغ الى تعاطيهما بحرية ذهب إلى رأس سان فانسان في الغرب ليقيم به ، بعد أن حمى سبتة ضد المغاربة الذين حاصروها سنة 1419 ، وشيد به مدينة مازالت تحمل اسمه وهي مدينة الأمير (138) وحيث إنه كان مرتاحا بهذا المكان ، قرر إرسال سفن على طول الساحل الغربي لافريقيا ليتسنى له السير من هناك الى الهند الشرقية ، كما كانوا يفعلون في القديم . وكان قد تعلم ذلك من خلال قراءة كتب القدامى التي كان متبحرا فيها ، لا بوحي إلهي كما يعتقد البعض ، إذ لو كان ذلك صحيحا لأتم الاكتشاف ظاهرا عوض أن يشرع فيه فقط . إلا أنه بفضل مطالعته ودراساته الدائبة افترض افتراضات طبيعية ليست يقينية دائما أن ذلك يمكن أن يكون . لأنه بقطع النظر عن مينيلوص الذي يقال إنه دار حول ساحل افريقيا كلها مرورا من مضيق جبل طارق ووصل الى البحر الأحمر ، ومن هنا الى الهند ، فإن حانون القائد القرطجاني أرسل بأمر من القرطاجيين على رأس ستين مركبا لتأسيس مدن (139) خارج مضيق جبل طارق ، على طول ساحل إفريقيا ، فأوغل في إبحاره على طول هذا الساحل حتى كاد يصل تحت الخط ، ثم وضع عند رجوعه في معبد ساتورن الرحلة التي كتبها بيده . ويظهر جليا من خلالها ومن الملاحظات المتعلقة بسفره أنه اجتاز رأس سييرا ليونا التي يسميها بطليموس مركب الآهة (140) . وقرأ أيضا في تاريخ هيرودوت الذي يطلق عليه سيسيرون لقب أبي التاريخ ما قاله عن الابحار الذي

(138) وهي طيرسا نافال .

(139) وهي التي سميت لبيفينيقية .

(140) جبل ليون .

أمر به نيكو ملك مصر بعض الفنيقيين الذين كانوا مهرة في شؤون البحرية ، فركبوا السفن في البحر الأحمر وذهبوا الى أن وصلوا الى المحيط ، وبعد أن داروا حول افريقيا كلها عادوا الى البحر المتوسط من مضيق جبل طارق ، ثم وصلوا الى مصر بعد سنتين . وربما قرأ لنفس المؤلف أيضا أن كسيرسيس أمر ساطاسبّ بالابحار في المحيط الى رأس افريقيا ، لكنه تعب من هذا السفر الطويل ونفد زاده فاضطر الى الرجوع الى مصر . ويذكر سطرابون أن الشاب قيصر بن أغسطس صادف على بحر بلاد العرب بقايا بعض المراكب الاسبانية التي ألقت بها العاصفة على طول الساحل ، كما أن بلين ، وكرنيليوس نِيبُّوس ، وبو ميُّو نيوس ميلا تحدثوا مثلا عن أسفار أودوكس في هذه المناطق . واعتمادا على هذه الشهادات وغيرها ، مع الرحلات التي كان يتوصل بها يوميا من الأفارقة الذين هم أعلم منه بهذه الأمور ، عزم الدون هنري على القيام بهذا الاكتشاف الذي لم يعد أحد يتحدث عنه ، فأرسل لهذا الغرض مرتين من يحققون ساحل المحيط بمراكب توغلت سبعين فرسخا وراء رأس نون الذي يسمي هكذا ، لأن الذين كانوا يمرون به لايعودون اليه أبدا . ولما رجعت هذه المراكب سلّح مركبا آخر جعل قيادته ليوحنا كونساليز ، لكن العاصفة عاكسته كثيرا حتى لم يستطع إدراك ساحل افريقيا ، فسار بدون شراع الى أن وصل الى جزيرة صغيرة قاحلة سماها بّويرطوسانطو (141) . ولما عاد وروى قصة سفره ، فان برطولومي بّيريس تربو الذي أسند إليه حكم هذه الجزيرة أمِر بتعميرها بصحبة يوحنا كونسا ليززاركو ، وتريستان فازتيشيرا لجودة تربتها ونقاء هوائها وعذوبة مائها . ولما وصلوا الى هذه الجزيرة سار هذان الأخيران في زورق لاستكشاف أشجار تبدو قريبة ، فإذا هي جزيرة أخرى أكبر من الأولى بكثير سمياها ماضير بسبب الجبال المكسوة بالغابات التي تغطي الجزيرة كلها . ولما عادا وأسند إليهما حكم الجزيرة آل أمر المنطقة المسماة مونشال (142) الى يوحنا كونساليز ، ومنطقة مادريكو الى تريستان فاز ، وبدءا في تعميرها عام 1420 دون أن يقع اكتشاف جديد إلا بعد ثلاث سنوات . وفي عام 1423 اكتشف جيل يانييز ، وهو خادم آخر للأمير ، رأس بوجادور ، ورجع اليه في السنة التالية مع ألونصو كونساليز بالدايا . فبعد أن تجاوزوا الرأس وصلا الى انكَرادى لوس

(141) الميناء المقدس .

(142) يعني النهائي .

ريوس (143) المسي هكذا لوفرة هذا النوع من السمك فيه ، غير أنهما اظطرًا الى الرجوع الى الأمير بعد أن أخذت مؤنهما تقل دون أن يصادفا أحدا يخاطبانه هناك . وانما ابصر آثار أخفاف الجمال على الرمال وآثار قافلة ، ثم عادا اليه عام 1435 بأمر من الأمير وتجاوزاه الى أن وصلا الى خليج صغير أنزلا به فارسين ليتقدما فيه ويستطلعا من هنالك ، فلقي هذان الفارسان تسعة عشر مغربيا مسلحين بالحراب والرماح ، وهاجماهم للقبض على أحدهم ، إلا أن هؤلاء تصدوا لهما وأصابوا آحد الفارسين بجُروح ، فاضطرا الى الالتحاق بالمركب الذي حملهما الى البرتغال بعد أن أطلقا على هذا المكان اسم شاطئ الفارسين.

ولم يحدث أي اكتشاف منذ هذه السنة حتى سنة 1440 ، لا لموت الملك دون دُوارت الذي ترك كولي ولي عهده مايزال طفلا صغيرا فحسب ، ولكن أيضا لعلمهم بوجود محاربين مسلحين عارفين بأمور الحرب ، فاتضح أنه من الضروري ارسال عدد أكبر من الرجال والسفن . وهكذا أرسل الأمير عام 1441 اثنين من رجاله هما أنطوان كونساليز ، ونونيوتريستان في مركبين . فسبق هذا الأخير الى اكتشاف الرأس الأبيض المسمى هكذا لأن أرضه بيضاء رملية ، بينما اكتشف الآخر رأس الفارس الذي سماه هكذا لأنه سبي وهو راكب فرسه بعض الزنزج الذين كانوا أول من حُملوا الى لشبونة . ولما عاد هاذان القائدان الى البرتغال فرح الأمير فرحا شديدا بهذا السبي إذ رأى أنه بدأ يجني ثمار عمله ، وعند انتشار هذا النبأ استأذنه بعض سكان طافيلا بالغرب في الذهاب للمشاركة في هذه المغامرات ، فسلحوا في العام التالي ست سفن كرافيل وشرعوا في سفرهم بقيادة لانصيرو ، خادم الأمير . فوصل هذا القائد يوم عيد القربان المقدس الى جزيرة لاس كَاسكاس التي سميت هكذا لكثرة ما لقوه فيها من طيور البلشون فكانت لهم طعاما طريا . ثم عبروا الى جزيرة نار ، والى جزر قريبة أخرى اختطفوا منها عدة زنوج . وفي العام الثاني أرسل الأمير على متن سفينة حربية فانسان دي لاكَوس مع لويس كادا موست أحد نبلاء البندقية ، فذهبا الى جزيرة بويرطوسانطو الواقعة على مسافة مائتي فرسخ وراء رأس سان فانسان ، ثم الى مضير التي ليست بعيدة عنها إلا بثلاثة عشر فرسخا ، ومن هنالك الى جزر

(143) أي خليج السمك الأحمر

كاناري البعيدة بنحو مائة فرسخ ، وانطلقا من جزيرة لّابالم فوصلا الى الرأس الأبيض الواقع على بعد نحو ثلاثمائة فرسخ ، ثم الى نهر كَامبرا . وفي هذه السنة وصل الى جزر إركين قائد إحدى سفن الأمير المسمى كونزاليس دي سينترا ، فقتله مغاربة إقليم السوس الأقصى مع بعض رجاله .

ويقول بعضهم إن الملك دون ألفونسو أرسل سنة 1461 صويرو مينديز لتشييد قلعة في هذه الجزيرة، إلا أنهم أخطؤوا حسب دليل سفر كَادَا مُوسْت الذي صادف عددًا كبيرًا من العمال يبنون القلعة في هذه الجزيرة عندما قام بهذا السفر سنة 1445 رفقة فانسان دِيَازْدي لاكَوس، لكن يمكن أن يكون الملك دون ألفونسو أرسل هذا الرجل ليتمم بناء الحصن لَا لانشائه، فالأمير دون هانري هو لامحالة مشيد هذا الحصن، لان كادا موست يقول إن البرتغاليين كانوا في ذلك الوقت قد اكتشفوا نهر سينيكَال (144) بعد مرور عام على اكتشاف الرأس الأخضر، خلافا للقائلين إنه لم يكتشف إلا عام 1445 من طرف ديونيزيو هرنانديز خادم الملك دون يوحنا الذي أسر أول زنوج سيقوا إلى البرتغال .

نرى من هنا أن هذا الرأس إن كان قد اكتشفه هذا البرتغالي فان ذلك كان عام 1443 أو 1444 لا عام 1445، حيث كان يوجد عدد كثير من الزنوج في البرتغال حملهم اليه من قاموا منهم باكتشافات أخرى . وفي هذه الأثناء صادف لويس دي كاداموست وهو يبحر نحو نهر كَامبرا أنطوان دي نول الجنوي الذي وجهه الأمير لنفس الغرض، فانضما إلى بعضهما ووصلا الى هذا النهر ثم رجعا منه الى البرتغال دون أن يتعدياه . وعادا اليه في السنة الموالية على متن سفينة جهزها لهما الأمير، فاكتشفا جزر الرأس الأخضر، وكان ذلك عام 1445، لاعام 1460، كما يقول بعضهم خطأً، لأن الأمير مات تلك السنة في ثالث نونبر، وكان ابن أخيه الملك ألفونسو الخامس قد أقطع هذه الجزر وجزر طرسيريس لأخيه الأمير دون فرناند، فوصل هاذان الغريبان إلى جزر الرأس الأخضر بعد ثلاثة عشر يومًا من مغادرتهما البرتغال، وأطلقا اسم بوينا فيستا على الجزيرة الأولى التي وصلا إليها، واسم جاك وسان فليب على الثانية لأنهما اكتشفاها ذلك اليوم، واسم ماي على الثالثة اعتباراً للشهر واليوم الذين اكتشفت فيهما . ومن هناك ذهبا حتى

(144) هو سينيديك بلغة البلاد .

وصلا إلى نهرها الذي يسمى الآن كارامانصا باسم أمير البلاد، ثم تابعا طريقهما إلى الرأس الأحمر، ومنه عادا الى البرتغال .

ولنرجع الى موضوعنا، فإن أنطوان كونصاليس اكتشف سنة 1445 في مركب الأمير وادي الذهب، ووصل لانسيرو إلى الرأس الأخضر بعد عدة أتعاب ومخاطر، لكن بعض سفنه من نوع الكرافيل عادت لعدم استطاعتها متابعة السفر، فجاء إلى جزيرة تِيدِرْ بمركبين فقط، وعاد من هناك إلى البرتغال حاملًا معه ستين زنجيًا استولى عليهم . وفي عام 1446، سار نونيو تريستان إلى الوادي الكبير البعيد عن الرأس الأخضر بأكثر من ستين فرسخا، واقتحم نهراً آخر على بعد أكثر من عشرين فرسخا، حيث كان مضطراً إلى مقاومة أهل البلاد الذين هاجموهم بثلاثة عشر زورقا محملة بالمحاربين يرمونهم بالحراب والنبال المسمومة، فقتلوه هو وثمانية عشر من أصحابه . والتحق الباقون بالبرتغال بعد إطلاق اسم قائدهم المقتول على هذا النهر .

واكتشف ألفارو هِرناندير في نفس السنة رأس موست، وجاوز الرأس الأخضر بمائة فرسخ، فنزل إلى اليابسة وحارب أمير الاقليم وقتله بيده . ثم سار الى مصبّ نهر تابت البعيد عن رأس نونيو تريستان، ومنه عاد الى البرتغال . ومنذ ذلك الوقت الى سنة 1455 لم يحدث أي اكتشاف ملحوظ، اللهم إلّا ماكان من جزر الآصور التي سبق أن اكتُشفت على ضوء مزية منحها الملك ألفونسو الخامس لسكان جزيرة سان ميشيل (145) والتي أعفاهم بمقتضاها من الأداء عن كل ما يحملونه الى البرتغال . وكان الملك ألفونسو هذا شجاعا كبيرا، لأنّه واصل الحملة على افرقيا وأخذ من المغاربة مدن القصر الصغير، وأصيلا، وطنجة، وخلفه الملك دون مانويل فأتم حرفيا اكتشاف افِرقيا والهند، حيث حدثت عدة أشياء شهيرة وصفها بتفصيل المؤرخ البرتغالي كَوميز يانيير ويوحنادي بارُّوس المفوض لدى الغرفة التجارية للهندفي كتابه حول آسيا . وبما أن هذا ليس من موضوعنا فلن نتكلم عليه هنا، مكتفين بالالمام بشيء منه في القسم الثاني من هذا التاريخ فيما يتعلق بافرقيا .

(145) كان ذلك عام 1447 .

الفصل السابع والثلاثون

رسالة من هيلين ملكة الحبشة إلى دون مانويل ملك البرتغال

باسم الأب والابن والروح القدس، أشخاص ثلاثة في إله واحد (146) والسلام والفضل لسيدنا ومنقذنا المسيح بن مريم العذراء المولود ببيت لحم، وبركته المقدسة على أخينا الحبيب المسيحي المخلص الملك دون مانويل، سيد البحار وقامع المسلمين والجاحدين ، رحمكم سيدنا المسيح ونصركم على أعدائكم، ووسع حدود إمبراطوريتكم بجاه رسله الانجيليين الأربعة يوحنا، ولوقا، ومارك، وماتيو، وحفت بكم قداستهم وصلواتهم. نحيطكم علما، أيها الأخ العزيز، أنه وصل الى هنا من قصركم العالي الشامخ مبعوثان، أحدهما عامي والآخر قسيس، وكلاهما يدعى يوحنا، وقد أطلعانا على عدة أشياء لحملنا على أن نسلم اليهما المؤن والرجال . لكن حرصاً منا على أن يتم ذلك على الوجه الأكمل، أرسلنا اليكم أحد رجالنا سفيراً وهو أخونا ماتيو بإذن من البطريق مارك الذي يمنحنا البركة، ويرسل الكهنوتيين الى بيت القدس، هو أبونا وأبو دولتنا كلها، وعمدة الايمان بالمسيح والثالوث المقدس الذي بعث أيضا برسل الى أحد موانئكم بالهند بأمر منا للمحادثة مع رجالكم وتزويدهم بالمؤن وعدد الجنود المطلوبة، واطلاعهم على خبر تجهيز أمير القاهرة أسطولا حربيا مكونا من كذا وكذا من الزوارق المستديرة والسفن الحربية لارسالها ضد جيوشكم، على أننا سنزودكم لمقاومته بعدد هام من الجنود الموجودين في مضيق مكة، وبال، والمندب لتوفدوهم إلى الهند أو الى الطور لابادة هؤلاء الكفار ومحوهم من الدنيا، بينما سنزحف نحن في البر الذي نتحكم فيه تحكمكم في البحر، حتى نحرم الكلاب من أكل القرابين المقدمة لقبر المسيح . وها هو الوقت الذي نبأ به المسيح أمه مريم العذراء المقدسة بظهور ملك من الافرنج يستأصل الكفار . إنه

(146) نقلنا هذه الرسالة حرفيا على ما فيها من عبارات منكرة ، لتحصيل الفائدة التاريخية ، ولما علم من أن حاكي الكفر ليس بكافر .

الوقت ذاته الذي تنبأ به . فتقبّلوا إذن كُلّ ماسيقوله لكم سفيرنا عنا وكأننا نحن الذين نخاطبكم وضعوا ثقتكم فيه لأنه أقْدرُ من أمكن أن يقع عليه اختيارنا لهذا الغرض، ولو وجدنا من هو أذكى منه لأوفدناه إليكم . وكان بودنا أن نعرب لكم عما سنقوله لكم بواسطة مبعوثيكم، لكنا خشينا ألا يعبّروا عنه كما نحب . وبالتالي فاننا نرسل اليكم معه صليبا من الخشب الذي صلب عليه سيدنا المسيح ببيت القدس، وقد حُمل الينا من نفس المدينة، ونحتفظ بمثله تماما من الخشب الأسود له حلقة صغيرة من الفضة ، وكان في استطاعتنا أن نرسل اليكم كمية من الذهب، لكننا أحجمنا عن ذلك خشية أن يستولي عليها الكفار في أي مكان نضطر الى المرور به . وكم تكون سعادتنا كبيرة لو رضيتم بتزويج بناتكم بأبنائنا وإرسالهن الى هنا، وتزويج بناتنا بأبنائكم فنرسلهن اليكم مع كميات هائلة من الذهب والفضة مهوراً لهن . والسلامُ والفضل من منقذنا المسيح ومريم العذراء المقدسة يعمّان ممالككم وأبناءكم وسائر أفراد أسرتكم آمين :!

كما نخبركم أننا إن ذهبنا الى الحرب فسنزعج كثيرا الكفار أعداء عقيدتنا المقدسة، لكن مما لكنا ليست على الساحل، وليس فيها غابات يستخرج منها الخشب لصناعة السفن، اللهم إلّا ماكان منها بعيداً جداً عن مراسينا، بالاضافة إلى ضيق هذه المراسي وصغرها . هذا مايجعلنا عاجزين على البحر، حيث تستطعون عمل الكثير . حفظكم المسيح دوما، لأن ماعملتوه في الهند يعدّ حقا من المعجزات، إلا أنه عندما تسلحون ألف سفينة فاننا نزودها بالمؤن ونمدّ الذين يقصدوننا بكل الضروريات .

وفي استطاعتي أن أُقدّم لكم أكثر من هذا عن هؤلاء الأحباش، لكنني أحتفظ به للقسم الثاني من هذا التاريخ .

الفصل الثامن والثلاثـــون

براءة من ملك مانيكونغو إلى الأمراء جيران مملكته ، عندما اعتنق الديانة المسيحية

نحن دون ألفونسو ، بفضله المقدس ، ملك مانيكونغو وأمير الأمبود ، فاننا لكي يتمكن الجميع في الحاضر والمستقبل من الاطلاع على المنن والنعم التي أولانا إياها مولانا الاله القادر ، على كل شيء ، نحيط الجميع علما ، الحاضرين واللاحقين ، الأهالي والأجانب ، آن ممالكنا وإماراتنا كان اكتشفها فيما سبق رجال ممالك وإمارات البرتغال ، في حياة يوحنا الثاني ، وبعده على عهد الملك الأعظم الأفخم دون ما نويل ، الحاكم حاليا ، وأن هؤلاء الأمراء أرسلوا ، بالهام إلهي ، رهبانا وقسيسين وغيرهم من رجال الدين ليهدوا الملك والدي الى طريق الخلاص ويعلموه الايمان المقدس الكاتوليكي الذي يعيش عليه هؤلاء الأمراء ورعاياهم ، وذلك أملا في الأشياء الحاضرة وتنمية للايمان الحقيقي الذي ثبته في هذه البلاد فضل الله الذي لاينتهي ليكون العمل مطابقا للمحبة التي أوصاهم بها الرب . وينفذوا وصاياه بصفتهم كاثوليكين وأوفياء حقيقين ، فإنهم جدوا واجتهدوا بحيث إن الملك والدي استمع الى المذهب المسيحي ، وأظهر في هذه الأوائل استعدادا كبيرا لتلقيه ، رغم أنه صرف عنه طول حياته بوسوسة الشيطان عدو الصليب ، فلم يؤثر لذلك فضل الله في نفسه . إلا أننا ، وبالرغم على أننا كنا آنذاك صغارا جدا ، فاننا كنا متنورين بالروح القدس منةً غريبة ولطفا خاصاً حبانا بهما الثالوث المقدس، الأب والابن والروح القدس، ثلاثة أشخاص في إله واحد (147) الذي نؤمن ونعترف به بقوة ، فقد قبلنا المذهب المسيحي، بحيث أصبح هذا المذهب يزداد رسوخا وثباتاً في قلوبنا برحمة من الله ساعة بعد أخرى ويوما بعد يوم . ولما ابتعدنا عن كل ضلالات الوثنية التي عاش فيها أسلافنا لحدّ الآن، فتوصلنا الى معرفة حقيقية، ألا وهي أن سيدنا المسيح هو

(147) نقلنا هذه الرسالة كذلك – على مافيها – لنعرف مدى رفض الأفارقة السود للمسيحية ، وإلحاح المبشرين ومموليهم طوال أجيال لنشر المسيحية عن طريق الترغيب والترهيب .

الاله الحق والانسان الحق، وأنه نزل من السماء الى الأرض ليتكون جسما بشريا في بطن العذراء لفداء البشر الذي كان تحت سيطرة الشيطان بسبب خطيئة أبينا آدم، فقاسي ألم الموت والعذاب على خشب الصليب بمدينة القدس، ودفن ثم بعث في اليوم الثالث ليقوم بالنبوآت، ووقع خلاصنا جميعا بفضل هذا الموت . وبسبب هذا التصديق الحقيقي الذي كان هؤلاء الرهبان المسيحيون يلقنوننا إياه باستمرار سخط علينا والدنا الملك ورعاياه كبيرهم وصغيرهم، واحتقرنا فنفانا إلى بلاد نائية أقمنا فيها زمنا طويلا محرومين من رؤيته ونعمه . ومع ذلك فإننا لم نتحمل المشاق بدون ارتياح في سبيل الايمان بسيدنا المسيح وبكامل الثقة التي حبتنا بها رحمته دائما لنتحمل البلاء أكثر فأكثر عند الاقتضاء، آملين مطمئنين إلى أنه سيعيننا ويمنحنا رضاه حتى لاتذهب على الأقل أعمالنا وإيماننا القوي سُدىً لخصوص خلاص أرواحنا . وبعد أن قضينا منفانا هكذا أُخبرنا باحتضار أبينا، وأن أخانا الطريد يطمح بدون أي حق في أن يصبح سيد البلاد بإعانة ومساعدة من الأعيان والشعب كله الذي كان يكرهنا لأننا اعتنقنا دين السيد المسيح، لكن الله الذي لايخذل ولن يخذل أبدا الذين يخدمونه ويتوسلون اليه أعاننا على الذهاب الى مقر أبينا . فوصلنا بعد موته بقليل، ووجدنا أخانا قد استولى على المملكة وهو مسلح محاط بعدد لا يحصى من الرجال، فتظاهرنا بالتعب لننجو بأنفسنا، وذات يوم توجهنا مع ثُلَّة من الأصحاب لم يكن عددهم يزيد على ستة وثلاثين رجلا، الى ساحة المدينة التي مات فيها والدنا، وكان جمهور غفير من الشعب يحيط بأخينا، فاستغثنا بالسيد المسيح وبدأنا نحارب أعداءنا بشجاعة وصاح رجالنا بإلهام إلهي لنحْمل، لنحْمل ! فهربوا . نعم أخذوا يفرون لحينهم معترفين منذ ذلك الحين بأنهم كانوا يرون صليبا أبيض في الهواء والحواري السعيد سان جاك في عدد كبير من الفرسان المسلحين المُرْتَدِين لباساً أبيض يطاردون المهزومين ويقتلونهم . وأخيراً كانت المذبحة عظيمة بقدر ماكانت الهزيمة شنيعة، وأُسر أخونا في المعركة وحُكم عليه بالاعدام لكونه ثار علينا، وأصبحت مقاليد الأمور بيدنا وحكمنا البلاد كلها باطمئنان كما نحن عليه اليوم . وقد رأينا من المناسب أن نطلع الملك دون مانويل على المعجزة التي حبانا بها المسيح، إذ إليه يرجع الفضل في تنويرنا وتمكيننا من التمتع بهذه الثروات الطائلة، فأوفدنا اليه سفيراً ابن عمنا دون بِيذْرُو أحد الستة والثلاثين الذين آزرونا، فبواسطته وبواسطة الرسائل التي وافانا بها دون مانويل عرفنا الأعمال الجليلة التي قدمت الى الله شكراً له على ما أُسبغ علينا من ظاهر النعم .

ولما رأى هذا الأمير أنه عمل لاتنقطع ذكراه جدير بأن يفيد كثيرا أينما عرف، أرسل إلينا في جملة ماأرسل للمزيد من تنمية عقيدتنا المقدسة الكاثوليكية وإرضائنا بواسطة دون بيدرو، وسيمون دى سيلفا، من أعيان مملكته، أسلحة مرسومة في رسالة بعث بها إلينا لنثبتها على نقودنا كما اعتاد أن يفعله مع الملوك والأمراء المسيحيين ليعرف من هم ومن أين أتوا ويتميزوا فيها بينهم، وهي تمثل الصليب الذي ظهر في الفضاء والحواري سان جاك مع سائر الحواريين الذي كانوا يحاربون معنا في صحبته، والذين ساعدونا على الانتصار باعانة مولانا الاله . هذه الأسلحة مشتملة على الأسلحة المرسلة من عند الله بواسطة أحد الملائكة إلى أول ملك للبرتغال في معركة ضد المغاربة انتصر عليهم فيها، فتسلمناها إذن كهدية من الله وكمنة خاصة أولانا إياها ملك البرتغال، بحيث إننا نعتبر هذه الهدية فضلا عظيما من أخ حقيقي في يسوع، ومن صديق وفي سنظل معترفين له بالجميل مدى الأزمان وبكل قوانا . وبهذه الصفة نصرح أننا نقدم حياتنا خدمة له ولذويه، لشدة امتناننا له، لافيما يتعلق بالأمور الدنيوية فحسب، ولكن أيضا بالأمور الروحانية، وسلام كثير من الناس الذين نجوا بواسطته، متمنين أن يتكرر ذلك آستقبالًا، لأنه هو الذي هدانا الى ذلك بأعماله وعلى حسابه، وسيجازيه مولانا إذ فعل ذلك لوجهه خدمة له . فنأمر إذن جميع أعقابنا بحمل هذه الأسلحة إلى قيام الساعة، وإلا لحقهم السخط . وليتذكروا المعارك التي سيخوضونها ماذا تعني والطريقة التي اكتسبناها بها، وأنها أرسلت من ملك البرتغال، لأننا نرجو من رحمة الله أنهم إذا حملوها انتصروا دائما على أعدائهم واحتفظوا بدولتهم . لكن حيث إن من الانصاف أن من يخلصون في خدمة ملكهم يجزون عن عملهم ويتمتعون ببعض المزايا، حتى لاينسى إحسانهم، فانه أرسل إلينا مرة أخرى عشرين شعاراً من مختلف الأسلحة، على غرار ما يقدم عادة للنبلاء والفرسان الذي يخدمون بإخلاص الملوك والأمراء المسيحيين لنهديها إلى جميع الرجال الستة والثلاثين الذين قاتلوا معنا عندما انتصرنا في المعركة، أي الى مَنْ كانوا أعلى انتسابا وأكثر شجاعة لتخليد ذكراهم ومكافأتهم على ماأسدوه الينا من خدمات، ولحمل الآخرين على خدمة ملكهم وأميرهم باخلاص وتفان . لذلك فإننا ندعو السيد المسيح الذي أبى بواسع حلمه ورحمته الا أن يتحمل العذاب والموت من أجلنا، أن يذكرنا ويعفو عن سياتنا ويحفظنا في إيمانه المقدس الكاثوليكي الرسولي الروماني، نحن وأبناءنا وشعوبنا، وان يختم لهم هذه الحياة بما يعلم أنهم راغبون فيه . وحررت الخ...

ذلك هو مضمون الرسالة التي بعث بها ألفونسو ملك مانيكونغو إلى كافة أمراء ونبلاء ممالكه سنة 1512، وأوفد في نفس الوقت دون بيدرو ابن عمه الى رومة ليبلغ طاعته الى قداسة البابا وأرسل بنفس الوسيلة إلى الملك دون مانويل هدية تحتوي على تحف من بلاده منها كمية من العاج، وعدة حزم من جلود السمامير، وسنانير الزباد، والذئاب، والفهود، وغيرها من الحيوانات، مع كمية من النسيج النباتي، بعضه أسود، وبعضه أبيض، وبعضه مصنوع بكثير من الدقة والألوان الزاهية حتى ليظن أنه من الحرير . وأرسل أيضا مع ابن عمه اثني عشر من أبناء النبلاء ليتعلموا مبادىء الدّين ويطلعوا على عادات المسيحيين، فوزعهم الملك مانويل على الأديرة .

ورغم أن هذه الرسالة كان يجب أن تُدرج في القسم الثاني من هذا الكتاب ، حيث سنتعرض لوصف مملكة مانيكونغو ، إلا أنني لم أرد فصلها عن رسالة ملكة اثيوبيا لأنها من نفس النوع ، وأضفت اليها الرسالة التي وجهها ملك مانيكونغو هذا الى البابا بواسطة ابنه دون هانري وابن عمه دون بيدرو ، الأمر الذي لن يَمَلّهُ ـــ فيما أعتقد ـــ القارىءُ الذي سيرتاح بالعكس للاطلاع من ثم على أخبار أمير بعيد جدا كان أول من اعتنق الديانة المسيحية في تلك الأقطار كلها وتمسك بها .

الفصل التاسع والثلاثون

براءة من ملك مانيكونغو الى البابـــا

الى القديس السعيد أبينا في يسوع، سيدنا بولس الثاني الحبر الأعظم بالعناية الربانية . إن ولدكم الحقير دون ألفونس بمنّ الله، ملك مانيكونغو وأمير الأمبود بفضل الله يُرسل من يقبل أرجلكم المقدسة بكل خشوع، ونظن، أبانا السعيد، أن قداستكم سبق أن عرفتم كيف أوفد يوحنا الثاني ملك البرتغال ثم خلفه الملك الكاثوليكي دون مانويل إلى أقطارنا بتكاليف باهظة وبكل عناية وعناء رهباناً صرفونا عن عبادة الأصنام الى مذهبهم، وخلّصونا من تلك العبودية العظمى فاعتنقنا ديانة سيدنا المسيح، وتلقينا ماء التعميد المقدس الذي غسلنا وطهرنا من الشر، وخلّصنا من أخطاء الوثنية التي كانت لاصقة بنا الى ذلك الحين، وأبعد عنا كل غوائل الشيطان وفتنه . لأننا تقبلنا بمعجزة الايمان بسيدنا المسيح من كل قلبنا بعد أن تلقينا المبادىء المتعلقة به، كما علمنا أنه كان من عادة الملوك المسيحيين أن يقدّموا طاعتهم وإذعانهم الى قداستكم بصفتكم النائب الحقيقي للمسيح والراعي لرعاياه . ورغبة منا في تقليدهم في عادة ربانية مقدسة لأن ذلك من المعقول، حيث إن الله الرحمن القدير أراد أن يؤلف بيننا في نفس الايمان، فاننا نوفد إلى قداستكم سفراءنا ليقدموا إليكم من لدنّا الطاعة الواجبة لكم بالكيفية التي اعتاد الملوك المسيحيون الآخرون أن يقدمُوها لكم . أحد هؤلاء المبعوثين هو عزيزنا وحبيبنا آبننا دون هنري الذي تكفل أخونا الأعز الملك دون مانويل بتعليمه في ممالكه، سواء في الكتاب المقدس، أو فيما يتعلق بالدين الكاثوليكي، والآخر هو دون بيدرو دي صوفا ابن عمنا الأعز. وكلفناهما معا، بالاضافة الى تقديم الطاعة الواجبة لكم منا، ببعض التعليمات الخاصّة لاطلاع قداستكم عليها، والتي نرجوكم بكل خضوع أن تتفضلوا بالاصغاء إليها وتلقيها وإعارتها كل ثقة كما لوفهنا بها أمام قداستكم التي نرجو الله أن يحفظها برحمته لخدمته المقدسة .

وحرر بمدينة مانيكونغو عام ألف وخمسمائة واثني عشر للميلاد .

وقد حظيت رسالة الاعتماد والطاعة هذه بعناية البابا ومجمع الكرادلة الذين لم يلبثوا أن سلموا الجواب عنها للسفراء الذين ارتاحو كثيراً للشرف والاقتبال الحسن الذين خصُّوا بهما، فخرجوا من رومة بهذه الرسائل، وذهبوا إلى البرتغال، ومن ثم رجعوا الى مملكة مانيكونغو، فخصص لهم الملك ألفونسو اقتبالًا حسنا وهو الذي استمر على ديانة المسيح وكذلك جميع عقبه الى يومنا هذا . ذلك ماكان يمكن أن يقال بصفة عامة عن الأفارقة ودينهم وعاداتهم . وسنتحدث في الكتاب التالي عن محمد وأصل ملته وما أثارث من حروب في آسيا وإفريقيا وأوربا .

نهاية الكتاب الأول

الكتاب الثاني

في ملة محمد، وانتشار خلفائه في أوربا، وآسيا، وافرقيا

الفصل الأول

في نسب محمد وأصل ملتـــه (1)

(1) حذفنا هذا الفصل لما اشتمل عليه من معلومات غير موضوعية .

الفصل الثاني

في اختلاف العرب بعد وفاة محمد وكيف عينوا أبا بكر خليفة له .

لما احتضر محمد عين خليفة له صهره عليًا زوج فاطمة، قائلا عنه إنه ولي صالح من سلالة الأنبياء . معترفاً بأن أبا بكر وعمر وعثمان ليسوا أقل منه في شيء، إلّا أن الملك أمره بجعل علي وفاطمة حاميين للدين وتعيين علي بعد موته للحفاظ عليه، وأن يجتمع القادة والفقهاء للنظر في هذا الأمر (2) لكن صهره أبا بكر الذي كان حاضرا وأقوى منهم جميعا انتخب باجتهاد من عمر وعثمان اللذين كان لهما نفس الحقوق، ووطّدا بذلك أملهما في الحصول على انتخابهما كذلك، بالاضافة الى أنه كان متقدما في السن وعليّ في ريعان الشباب . فلما حُرم علي مما كان ينتظره، أخذ ولديه وانصرف الى داخل الجزيرة العربية حيث كان جيشه مرابطا في هذا الجزء الذي آل اليه حسب التقسيم الذي وضعه محمد كما آلت بلاد الفرس لعمر، ومصر وإفرقية لعثمان، وسوريا وسائر اقليم الامبراطورية لأبي بكر . وعندما وصل علي الى الجزيرة العربية أخذ يشتم الخليفة الجديد (3) ويتهمه بأنه سمّ محمداً ولم يحتفظ بمبادئه . وبناء على ذلك سن شرائع جديدة أباح فيها عدة أشياء حرمها الآخرون ووضع المذهب الامامي الذي جلب اليه كثيرا من المتبربرين، وشهر حربا دائمة ضد خلفاء محمد .

ومن جهة أخرى، حشد أبوبكر جميع قواته لمتابعة الحرب ضد الامبراطورية، فدخل الي فلسطين وأخذ يجتاحها . ولما وصل هذا الخبر إلى تيودور بوكير أسرع اليها قادماً من القيصرية، إلا أنه عندما أراد تحويل الخلاف الى معركة غلب عام ستمائة وثلاثة وثلاثين، وهو العام الحادي والعشرون للهجرة، وترك في

(2) كل ما ذكر مرمول ، ومعظم ما سيذكره في هذا الفصل ، خطأ لا أساس له من الصحة ، أثبتناه للتدليل على مدى بطلان معلومات المسيحيين عن الاسلام والمسلمين حتى مطلع العصر الحديث . والثابت الذي لا جدال فيه أن النبي عليه السلام لم يوص بالخلافة لأحد ، إلا اشارة في قوله : مُروا أبا بكر فَلْيُصَلِّ بِالنّاسِ . (مترجم)

(3) يعني أبا بكر (كذا في هامش الترجمة الفرنسية ، والظاهر أنه يقصد معاوية بن أبي سفيان – مترجم –) .

ميدان المعركة عدداً كثيرا من القتلى والأسرى . يقول بّول دياك : إنه حدث ذلك العام زلزال عنيف في بلاد اليهود، وظهر نجم مذنب يتجه ذنبه نحو الجنوب إشارة لسيادة المسلمين، ودام ظهوره ثلاثين يوما في نفس المكان والاتجاه من الجنوب الى الشمال . ومات بعد ذلك أبو بكر مشكوكا في أنه سمَّ عندما كان يعتزم القيام بمشاريع أكثر أهمية، ودفن في المدينة عند ضريح محمد، وخلفه رفيقه عمر الملقب بالخطيب .و ناسب هنا أن نتكلم عن المذاهب الأربعة ...وعن عقائد المسلمين المتشددة قبل أن نتعرض لذكر عمر وما جرى من أحداث في خلافته (4) .

(4) حذفنا بقية هذا الفصل لنفس السبب السابق .

الفصـــل الثالـــث

في اختلاف الفرق الاسلاميـــة وأصلهـا (4م)

... ومن هناك جاءت طائفة المرابطين الذين يعيشون في الصحاري كالرهبان منعزلين أو مجتمعين مؤمنين بالفلسفة الأخلاقية متبعين عدة مبادئ تخالف مذهب الأشعري وينكرها الفقهاء . لكن الشعب يجلهم كأولياء لكونهم يعيشون بحرية أكثر . وقد بدأ مذهبهم كما قلت عام سبعمائة ، إلا أن واضعه لم يطلع عليه تلامذته إلا شفويا دون كتابة . وبعد مرور قرن ، قام عربي آخر (5) من العراق بوضع شروح ضخمة لهذا المذهب أحدثت اظطرابات كثيرة في بلاد الفرس ، لأن الخليفة أمر بمنعها بعض الوقت ، الى أن جاء عربي آخر (6) معنى اسمه في لغتنا موزع الجواهر ، فأعادها الى النور . وتبعته عدة شعوب ، ونشر مذهبه عبر افريقيا كلها ، وأرسل مريديه يدعون اليها في آسيا وأوربا ، لكن خليفة العراق جمع الفقهاء فمنعوه مرة ثانية وحُكم على المرابطين بالاعدام . ومع ذلك فإن المؤلف الذي سجن وسيق الى الخليفة محمد ألح عليه حتى أذن له في مناظرة الفقهاء الذين منعوا مذهبه ، شريطة أن يعدم إن أخفق ، وإن نجح خلصه من محنته . ولما انتصر اعتنق الخليفة مذهبه وأقره عليه ، ثمّ أمر بتشييد رباطات ومدارس للمرابطين في افريقيا وآسيا . واستمر هذا المذهب مائة سنة أخرى ، الى أن جاء الامبراطورية ملك شاه التركي من آسيا فاظطهد هم حتى اضطر بعضهم الى الفرار الى مصر ، والبعض الآخر الى الجزيرة العربية ، حيث أقاموا وكأنهم في المنفى مدة عشرين سنة . ولما آلت الامبراطورية الى خلفه كسلشاه ، عمل أحد مستشاريه المسمّى نظام الملك على إعادة المذهب، بحيث إنه، بواسطة مرابط آخر (7)، ألف مجلدا يحتوي على سبعة كتب، تمّ الوفاق بين علماء الشريعة والمرابطين،

(4م) حذفنا القسم الاول من هذا الفصل المجافي للتواتر التاريخي ، حيث ينسب المؤلف وضع المذاهب الاربعة الشهيرة : المالكية والحنبلية والشافعية والحنفية للخلفاء الراشدين الأربعة ، والامامية لعلي بن أبي طالب !.

(5) أبو يزيد (؟)

(6) أبو جوهرة (؟)

(7) الجـزولـي . (كذا) !

على أن يحمل الأولون أسماء الفقهاء وحفظة الشريعة، ويُدعى الآخرون علماء الحقيقية والمصلحين . ودام هذا الاتفاق الى أن خرَّب التَّترُ مدينة بغداد عام ألف ومائتين وثمانية وخمسين، فأبادوا هؤلاء الخلفاء، الأمر الذي تسبب في انشقاقات كبرى بين أتباع محمد . غير أن هذا لم يتمكن من إيقاف انتشار هذا المذهب الذي قد غمر آسيا وافرقيا، وأخذ الفقهاء يدافعون عنه بحماس ضد علماء الشريعة . إلا أنه أخذ يتناقص منذ ذلك العهد إلى درجة أن المرابطين عدلوا عن معظم عقائدهم للتوفيق مع خصومهم، دون أن يتخلوا مع ذلك عن ملذات الحياة، اذ لم يفتأوا يرقصون ويغنون ويطربون وينشدون القصائد الغرامية بالموسيقى، مما يخالف الشريعة المحمدية . ويحضر هؤلاء المرابطون في الأعياد والولائم التي يقيمها الأعيان، وهم ينشدون أشعاراً في مدح عليّ وبنيه، وبعد أن يأكلوا ويشربوا جيدا، يغنون ويرقصون بأناشيد غرامية، وينشطون في الخلاعة إلى أن يتجردوا من ثيابهم، حتى إذا لم يطيقوا أكثر من ذلك سقطوا على الأرض شاهقين باكين . ويقال عندئذ إنهم اكتووا بالحب الالهي . ويعتبر من عذّب نفسه أكثر أعظمهم ولاية . ثم يأتي أحداث مرد يقودونهم وراء هم كتلامذة لهم فيرفعونهم ويعانقونهم ويقبلونهم عدة مرات، وأخيرا يرجعونهم الى زواياهم . وهناك عدد كبير من هؤلاء القوم في بلاد البربر وخاصة في مملكة فاس يفدون من هذه المناطق ومن نوميديا والظهرة، حيث يمارسون هذا المذهب أكثر من غيره .

وتوجد كذلك طائفة أخرى لهذا المذهب في تركيا مكونة من أعضاء نشيطين أيضا يعيشون في مرح ويسميهم الأتراك دراويش، يرتدون جلود غنم ناشقة في الشمس واحداً من أمام وآخر من خلف، ويترك ماسوى ذلك من أجسامهم عاريا . يحلقون شعرهم كله، بحيث لاتبقى لهم لحية ولاشعر على رأسهم، يأخدون بأيديهم عكاكيز غليظة معقدة لتمييزهم عن الآخرين، ويتحلون بأقراط من ذهب أو فضة مرصعة بالجوهر والماس، لايعيشون إلا بالتسول ويُجلون كثيراً ضريح عربي اسمه الفارس الصنديد (8) لأنه – حسب قولهم – كان السبب في استيلاء طائفته على معظم آسيا، وهو مدْفون في أحد رباطات الأناضول، وعليه بناء في وسط سهل يقيمون فيه مجلسهم العام بحفاوة كبيرة وأفراح . ويزيد عددهم أحيانا على ثمانية آلاف مريد، ولكن لايبقى منهم عادةً أكثر من خمسمائة . يسمى

(8) هو سيدي عبد الله البطل (؟)

مقدمهم حسن بابا، أو الأب المشترك، تخليدا لذكرى الحسن أو محيي الدّين مؤسس الطائفة . يذكرون في هذا المجلس أبرز ماشهدوه من حوادث مع أوهام كثيرة، ويتلون معجزات علي وبنيه، مدونين كل ذلك في كتاب يثبتون فيه أسماء كل قائل، ويقيمون في أول يوم جمعة وليمة كبرى في وسط البادية، يتناولون على إثرها الحشيش، وهو نبات منشّط يُغيب العقل . ثم يأخذون في قراءة هذه الحكايات، وبعد ذلك يعودون الى الخانقاة، فيجلسون حول رئيسهم أو مقدمهم، مُشيدين بمذهبهم . وبينما يتحدث بعضهم مع بعض، يرسم آخرون على أيديهم وسواعدهم وسيقانهم قلوباً دامية مختلطة بعروش وأوراق وفواكه، ذاكراً كل واحد منهم اسم السيدة التي يتناول من أجلها كل هذه الأسرار . ترسم هذه الأرقام برأس مفصد، ثم يوضع فحم مسحوق على الجرح فيبقى الرسم ثابتا على الدوام . يعتقدون كقاعدة لاتنخرم أنهم يكسبون طبيعة الملائكة بالصيام والصدقة، وأن روحهم تطهر لدرجة أن الله لايعود ينظر الى ذنوبهم، غير أنه لابد للسالك من قطع خمسين مرحلة ليصل الى هذه الدرجة . لذلك يخصصون البداية لأذكار طويلة وصيام كثير على غرار ما فعله أبناء علي، ويستسلمون بعد ذلك لجميع أنواع الخلاعة . ولهم ديوان شعر في أربعة أجزاء، من نظم سيدي الوردي، وزاد فيه ابن طارق قصائد رقيقة حتى ليظن أنها لاتتكلم الا عن الحب . وشرحها مسلم آخر اسمه الفرغاني، مستخرجا منها درجات الطريقة الخمسين، والأناشيد التي يغنون بها حينما يذهبون الى الولائم، خاصة في افرقية ومصر . وعندما يختمون حزب الأناطولي يفترقون جميعا ليعود كل واحد منهم الى رباطه أو خانقاته، سائلين الصدقة لدى عودتهم في كل مكان مروا به . يعيش أكثرهم منعزلين مع حيوان وحشي يربونه ليظهروا أنهم منقطعون عن العالم حتى يقطعوا الدرجات الضرورية للوصول الى الكمال . ويوجد في كل رباط لحاف أخضر مبسوط على الأرض مع شمعدان من النحاس الأصفر بدون شمعة، وسيف مكسور للتذكير بآثار علي، اذ يقولون إنه قتل به عشرة آلاف مسيحي بضربة واحدة، وإنه كان ينشره في المعارك على العدو من مسافة مائة ذراع ويخترق به الجبال .

يدعي بعض هؤلاء المرابطين (9) أن السماوات والكواكب والعناصر انما تكون مجتمعة إلها واحدا، وأن الديانات كلها حسنة لأن الجميع يعتقدون مخلصين

(9) هذا رأي بَليـن

أنهم يعبدون من هو أهل للعبادة، ويقولون أكثر من هذا، إن العلم الالهي كامنٌ في رأس قائد هم الذي يدعونه القطب، كما لوقيل عنه ولي الأولياء . يختارونه من بين الأربعين الأكبر سنا الذين يطلقون عليهم اسم الأبدال، ثم ينتخبون سبعين آخرين من بين سبعمائة وخمسة وسبعين، وهم أدنى درجةً عندهم، فيفرض على هؤلاء جميعا أن يسيحوا في الأرض عدداً معلوما من السنين كمساكين فقراء، ويتجول عدد لايحصى منهم على امتداد الأقطار التي تنتشر فيها طريقتهم عراةً حفاة مكشوفي العورات، ويتظاهر الكثير منهم بالجنون، ويقومون بأعمال اعتصاب كبيرة، فيطؤون أحياناً في وسط الأزقة والساحات العمومية النساء والفتيات أو الحيوانات، ويُعتبرون مع ذلك أولياء، وأغرب من هذا جهل الناس الذين يأتون، بعد الفراغ من هذه الأعمال، ليلثموا ثوب المرأة أو ينتفوا شعر البهيمة التي اغتصبوها، أو يأخذوا قطعة من لباس المرأة محتفظين بها كذخيرة، قائلين إن الحب الالهي تمكن من هؤلاء الأولياء الى درجة أنهم لايبالون بما يفعلون .

ويوجد الكثير من هؤلاء النساك في مصر وافرقيا، وقد شيد مولاي محمد والد الحسين ملك تونس، رباطا ممتازا لأحدهم (10) ومنح جميع أهله عطايا جزيلة من أجله . أتذكّرُ أنني عندما كنت بمدينة الجزائر رأيت أحدهم يمتطي دائما عصاً لها رأس فرس مصنوع من جلد باللّجام والعنان، وكان يقول للجمهور إنه يقطع على هذا الفرس مسافة مائة فرسخ في ليلة واحدة، وإن فرسه يعلف كيلا من الشعير كل يوم، وكان الأتراك والمغاربة يكرمونه ويقدمون العطايا له ولفرسه . ورأيت آخر بالمغرب كان الشريف على وشك ان يلقي عليه القبض ويعاقبه لأنه اغتصب بكراً لدى خروجها من الحمام . لكن الزوج والأهل تدخّلوا لصالحه حتى أنقذوه، ثم أرسلوه الى تونس بعد أن أقاموا له وليمة .

ومنهم آخرون، من نفس المذهب، يجوبون الأزقة وهم يرقصون في هياج شديد، حاملين كتباً من الأغاني الغرامية، متمنطقين بأحزمة صوفية طويلة جدا في طرفها عدد من الأجراس، فاذا لقوا غلاما جميلا أخذوا يرقصون حوله، محركين هذه الأجراس وكأنهم يلاطفونه . وهناك آخرون كثيرون يرتدون جلود الأسد أو النمر وغيرهما من الوحوش، ويمشون مُسدلين شعوراً طويلة كالنصارى، واضعين أذرعهم على أكتافهم، لايأكلون ولا يشربون إلا بعد مرور عدة أيام، ولا يتزوجون أبداً، لكن

(10) هو سيدي الدّاهـي .

يسمح لهم أن يصطحبوا معهم غلمانا صغارا يغتصبونهم، كما يوجد عدد آخر منهم بتركيا يقيمون في المدن والقرى لايتسولون إطلاقا، وانما يقتاتون بما يعطى لهم عند مرورهم، يعيشون منعزلين عن الآخرين حماقة منهم أكثر منها عبادة، ويعتبرون أولياء . يقولون إن الذين فقدوا حسّهم فقدوه بسبب جذب الاله لهم، وبذلك يختارون المعتوهين من بينهم على أساس هذا الاعتقاد ويكرمونهم . وهناك آخرون يُدعون (كلندير) يعيشون جماعات في رباطات (11) يكتبون على أبوابها : من أراد الدخول في هذه الطريق فعليه أن يكون حصورا يعيش بعفاف. ويرتدي هؤلاء المتدينون لباسا خشناً من الصوف وشعر الخيل . يحلقون شعرهم كله . ويضعُون على رؤوسهم قلانس كبيرة مع خيوط من الشعر المفتول، ويتحلون بأقراط في آذانهم، وقلائد في أعناقهم وأساور من حديد في أذرعهم، مع حلقة من الفضة تمر وسط عوراتهم، يسيرون دائما وهم ينشدون أبياتاً من نظم مؤسس طريقتهم (12) الذي سلخه العرب حيّاً لأنه قال شيئا ضد محمد (13) لكن هذا لم يمنع مذهبه من البقاء، بل ازداد توسعا . ولو أنهم يخفون العديد من الرذائل تحت معطف العفاف . ولشيعة عليّ اعتقاداتٌ أخرى باطلة لاتقل عن هذه خشونة، لكننا نتحدث الآن عن اعتقادات المسلمين عامة .

وهناك طائفة أخرى (14) لاتدين إلّا بنوع من السحر، يصومون كثيراً ولايأكلون مافيه حياة، ساعاتهم كلها منظمة، في النهار والليل، لجميع وظائف الحياة (15) يعرفونها بواسطة أرقام أو صور أو حروف يحملونها معهم في شبه يوميات (16) يقولون إن أرواحاً سماوية تظهر لهم وتُطلعهم تماما على شؤون الدنيا . لذلك يهابهم الناس ويُجلونهم كثيرا في افرقيا لكونهم سحرة كباراً . واضع مذهبهم يسمى البُوني (17) ويدعوه العرب أبا الرقى والسحر، ألف كتبيا في كيفية استعمال هذه الاطارات أو الجداول . ولهم كذلك ثلاثة كتب أخرى، أولها وأهمها يسمى اللمحات المتنورات ويتضمن صيامهم وأذكارهم، والثاني شمس المعارف في كيفية

(11) تسمى [illegible] باللغة العربية ، وتكايا باللغة التركية .
(12) نسرامسي (؟)
(13) في هجارينة أو هجرانية .
(14) سيدي الحرف .
(15) كالأكل ، والشرب ، والصلاة ، واللباس ، الخ ...
(16) أو إطارات فحسب .
(17) أحمد بن علي البوني (المتوفى عام 622هـ / 1225م) المتصوف المغربي صاحب التصانيف الكثيرة في أسرار الحروف ، وأشهرها **شمس المعارف الكبرى** المطبوع مرارا . (مترجم) .

صنع الجداول وفائدتها، والثالث في سر أسماء الله الحسنى يبين فضائل أسماء الله التسعين .(18)

وللعرب والمغاربة بافرقيا مذهب آخر، يقضي أتباعه حياتهم في الغابات والخلوات كالزهاد، لايقتاتون إلا ببقول الحقول والفواكه البرية، دون أن يعرف أحد حقيقية عقيدتهم لأنهم يفرون من التحدث الى الناس . فاذا لقى بعضهم بعضا لايتكلمون إطلاقا . وقد شاهدت في عام ألف وخمسمائة واثنين وأربعين أحدهم بمراكش أمر الشريف (19) بإحضاره من الجبل الأخضر (20) حيث كان يُزار ويُتبرك به كولي، لمعرفة المذهب الذي يتبعه، لكنه امتنع تماما من الاجابة عن أسئلته ولم ينبس ببنبت شفه مكتفيا بكتابة الجواب على الأرض بأصبعه . فقال له الشريف مرتين أو ثلاثا، تكلّم إذ يمكنك أن تتكلم معي أنا الفقيه الشريف . ولما رأى أنه امتنع عن ذلك قال له بغضب : لم ترد إذن أنَ تتكلم، فاعلم أن الله منحني خاصية أستطيع به أن أرغم البُكم على الكلام ! ثم أمر فوراً بشد يديه وجلده بضراوة . لكن كله لم يجد نفعا . وعند ذلك أمر بإلقائه في السجن الذي يحشر فيه المسيحيون كل ليلة، فأخذ يتحدث إليهم طوال الليل باحثاً عن أشياء كثيرة تتعلق بديننا، وعلمنا منه أنه من شيعة محمد محيي الدين بن الحسين، وأنه كان يجتاز الدرجات الخمسين لهذا المذهب . ولما أطلق الشريف سراحه وتوجه الى محاربة مدينة فاس، خرج من كهف كان يسكنه (21) وطفق يحشد الجنود ويحث الناس على الثورة فبلغ الشريف ذلك وأمر بأخذه وضرب عنقه في الحين .

إنه من العجيب مشاهدة الزهد الذي يتصنعه هؤلاء البؤساء عبيد الشيطان ليخدعُوا الناس بطهارة مزعومة ثم يستغنون بعد ذلك .

ولهم مذهب يسمى القدرية أو الداودية ، باسم داوود الذي يقول بأن كل واحد خاضع للقدر ومحكوم عليه مسبقا دون اختيار . لهذا امتنع العرب، اعتبارا لهذه القاعدة، من الذهاب الى الحرب فكان ذلك سبب إنكاره ومنعه في المملكة الاسلامية كلها . ويوجد في القاهرة ومدن بلاد البربر عدد كثير من الناس المتنقلين الذين يتنبّؤون بالغيب بثلاث طرق : الأولى بفنٍّ سحري ورسم بعض

(18) لله تعالى 99 اسما (مترجم) .
(19) مولاي محمد (المهدي الشيخ) .
(20) باقليم دكالة .
(21) بمراكش .

الصور، والثانية بملء إناء من الطين بالماء وإلقاء قطرة زيت فيه تعود صافية جدا فيشاهد فيها ـــ حسب قولهم ـــ جنود من الشياطين كالجيوش، بعضهم يزحف بحرا وبعضهم براً . وبمجرد مايتوقفون يطلب منهم مايراد معرفته فيجيبون بإشارات من أعينهم وأيديهم . غير أنه لابد من حضور أطفال صغار لتحقق هذه العملية السحرية، لأن الكبار يقولون إنهم لايرون شيئا . ينظر الأطفال في الزيت ويُسألون هل يرون إشارات الشياطين فيجيبون بنعم، ويحظون بالثقة التامة ويرحون بهذه الوسيلة أموالا طائلة . يسمونهم في موريطانيا سحرة (22) لأنهم يفتخرون بكونهم يسحوون العفاريت بأقوالهم .

والطريقة الثالثة لهؤلاء المتنقلين تتمثل في نساء يوهمن أنهن يتحدثن مع الجن، بعضهم أبيض وبعضهم أحمر أو أسود . وعندما يردن التكهن يتبخرن بالكبريت وغيره من الروائح الكريهة، فيتقمصهن العفريت – حسب قولهن – ويتغير صوتهن كما لوكان يتكلم بأفواههن، فيقترب منهن حينئذ الراغبون في استشارتهن ويطلبون بتذلل كبير مايريدون، ثم ينصرفون بعد أن يجابوا عن سؤالهم تاركين هدية في دار الساحرة . لكن الحذاق من الناس يسخرون من هذه الحماقات ويرمون هؤلاء الخبيثات بكونهن يضاجع بعضهن بعضا (23) على خلاف نظام الطبيعة . فاذا أتتهن فتاة جميلة قصد الاستشارة طلبن منها الاستمتاع بها عوض الأجرة، وترغب الكثيرات من الفاجرات في هذا العمل، فيطلبن من هؤلاء الساحرات أن يخبرن أزواجهن بأنهن مسحورات ليسمحوا لهن بالانخراط في سلكهن . ويوم يتم قبولهن يُقمن حفلة كبيرة، كما لو دخلن في دير للبنات .

وهناك أيضا (البومصيليون)، وهم بلاشك سحرة كبار، يحاربون العفاريت – حسب قولهم – ويشكلون مشهدا مروعا بأجسادهم المتخنة بالجراح، وكثيراً مايمثلون في وسط الهاجرة معركة أمام جميع الناس تدوم ساعتين أو ثلاث ساعات بالحراب والمزاريق، إلى أن يَخِرّوا محطمين من تلقي الضربات، لكنهم يسترجعون وعيهم بعد فترة من الاستراحة، ويتجولون . إنني لم أتمكن بعد من التعرف على طريقتهم، غير أنهم يعتبرونهم متدينين . ويوجد آخرون في بلاد البربر

---

(22) مطلسمين .

(23) مساحقات .

يسمون معزمين يفتخرون باسهم يطردون العفاريت، فان لم يوفقوا الى ذلك قالوا إن الروحاني كافر أو إن الأمر يتعلق بروح سماوية . يرسمون أدواراً يكتبون عليها بعض الحروف ويضعون علامات على يد الممسوس أو وجهه، ثم يطلقون عليه بخوراً كريهة الرائحة ويرقونه، سائلين الروحاني كيف دخل الى هذا الجسد، ومن أين هو، وما اسمه، وأخيرا يأمرونه بالخروج .

ويتنبأ آخرون (24) بسحر له مساس بسحر اليهود، غير أنهم لايستخرجونه من الكتاب، قائلين إنه علم طبيعي، لكن ممارسته تتطلب أن يكون المرء فلكيا ضليعاً . وكان الشريف محمد عارفاً به، لكن عندما كان يريد تطبيقه يستغرق يوماً كاملا لوضع صورة الوسط بمساعدة فقيهين آخرين . فكان يرسم سبع دوائر، بعضها داخل بعض، ويرسم في أصغرها (25) صليبا يضع في أركانه الأربعة ما يمثل الرياح الأربع، وفي ملتقى أذرع الصليب القطبين . ويرسم خارج الدائرة العناصر الأربعة ويقسمها أربعة أرباع وكذلك يفعل بالدائرة التالية فيقسمها أربعة أرباع أخرى، وكل قسم يقسمه إلى سبعة أقسام، جاعلا في كل واحد منها حروفاً عربية كبيرة، فيتكون من ذلك ثمانية وعشرين حرفاً في كل عنصر، وفي الدائرة الثالثة يثبت الكواكب السبعة، وفي الرابعة البروج الاثني عشر، وفي الخامسة الأشهر الاثني عشر بالأسماء اللاتنية، وفي السادسة منازل القمر الثمانية والعشرين، وفي الأخيرة أيام السنة الثلاثمائة والخمسة والستين، وخارجها الرياح الأربع الرئسية . ثم يأخذ حرفا من كلمة الشيء المطلوب ويضربه في كل الأشياء معدودة إلى أن يرى العدد الذي أعطاه الحرف، ثم يقسمه بطريقة خاصة ويضعه في بعض الأقسام حسب نوع الحرف والعنصر الذي فيه . وبعد عمليات الضرب والقسمة والجمع ، كان يرى ماهو الحرف الذي يناسب العدد الباقي، فيصنع بالحرف أو العدد الذي وجده ماصنع بالأول، وهكذا دواليك حتى يستنتج ثمانية وعشرين قسما أو حرفا عربيا، فيؤلف منها مثلا، ومن المثل حكمة تكون هي جواب الوسيط، وتركب دائما في بيت شعر من وزن أول بحور الشعر العربي وهو الطويل الذي يسمى هكذا لامتداده واشتماله على ثمانية أوتاد واثني عشر سببا، وكان الاقتراح يسبق دائما الجواب . ويوجد بافرقيا قليل من الناس يعرفون هذا السر، رغم وجود كتابين،

---

(24) الزايرجية .

(25) وهي الدائرة التي في داخل الدوائر كلها .

أحدهما للمرجاني التونسي والآخر لأحد المؤرخين(26)، ويحظى الذين يعرفون هذا الفن بتقدير عظيم ، إلا أن جميع التنبؤات بالغيب محرمة في الشريعة المحمدية ، ولا أحد يُقدم استعمالها ماعدا الملوك وكبار الأمراء . ذالكم كل ماكان يمكن الكلام عنه بايجاز بخصوص الطوائف والمذاهب والاعتقادات عند المسلمين . وعلى من يرغب في التعرف أكثر من ذلك أن يقرأ الأكفاني الذي يعد اثنتين وسبعين فرقة مختلفة تماما بعضها عن بعض .

(26) هو ابن خلدون .

الفصل الرابع .

في عصر الخليفة الثاني محمد، والأشياء التي حدثت في عهده .

لما مات الخليفة الأول أبو بكر خلفه رفيقه عمر بن الخطاب في أواخر سنة ستمائة وأربع وثلاثين، فحارب أولاً علياً، وبعد هزمه استولى على مدينة البصرة وعدة أماكن أخرى في الجزيرة العربية . ثم وجهّ أسلحته ضد المسيحيين فدخل إلى الشام بجيش عرمرم وقام فيها بأعمال إتلاف كبرى، عندئذٍ تصدّى له تيودور أخو الامبراطور هرقل بجميع قواته، فانهزم قرب (كَباطة)، ويقول بعضهم إنه هلك في المعركة، بينما يقول آخرون إنه انسحب الى (ايديس)، وعاد عمر منتصراً الى الجزيرة العربية بعد استيلائه على بعض الحصون . وعندما بلغ الامبراطور خبر الهزيمة أرسل جيشا آخر بقيادة يوناني (27) ركز جنوده في ضواحي حصن إيميس وأوقف في الحين تقدم الأعداء وردهم بشدة حتى طردهم من اقليم دمشق، لكنهم انتشروا على طول نهر بردنيس وأحدثوا فيه اضطراباً كبيراً اضطرَّ معه أهل البلاد الى تركه . إلا أن الامبراطور الذي لم يغادر بيت المقدس منذ انتهاء حرب فارس محترسا من كبار رجال الدولة، خشيه أن يتعرض لبعض الاخفاق لو أقام في الاقليم مدة أطول، أخذ أنفس مافي المعبد من ذخائر وتحف خوفا من أن يستولي عليها العدو وعاد الى القسطنطينية، تاركا باهام وتيودور (28) في تلك المناطق .

وفي العام الموالي (29) حشد عمر جنوده وقصد دمشق، فعلم باهام بذلك (30) وأرسل الى تيودور متوسلًا لينضم اليه، لكن العرب اعترضوا طريقه وهزموه قبل الالتحاق به، فنادى الجيش بباهام امبراطوراً لشجاعته، وانزوى بقايا جند

(27) هـوبـاهـام .

(28) تيودور ساسيلاتيـو .

(29) سنـــة 635

(30) في اليوم الذي كانت ستقع فيه .

تيودور في مدينة كَابار، رغبة في الحفاظ على ولائهم لهر قل . ولما بلغت العرب هذه الأخبار توجهوا نحو باهام الذي أغراه لقبهُ الجديد فقبل المعركة ظانا أنه سينتصر، إلا أنه ما شبَّ القتال حتى ثارت ريح جنوبية قذفت بغبار ورمل هذه الأرض الجافة الرملية في أعين الرومان، وألجأتهم الى الانسحاب عاجلا الى ممرضيق لنهر إرموا ستان، عبر مسالك وعرة صلبة انهزموا فيها، وغرق الباقي في النهر . فانتصر عمر وذهب لمهاجمة مدينة دمشق فاستولى عليها عام ستمائة وستة وثلاثين، ثم على سائر بلاد فينيقيا . وحمل السكان على اعتناق دينه بتعسف كثير .(31)

وفي العام التالي (32) حشد عمر جنده لارساله إلى مصر، ولما علم بذلك الرومان المقيمون بالبلاد اختاروا قائداً لهم سيروس أسقف الاسكندرية الذي خشي بطشة المنتصر، فأرسل اليه بعض الأشخاص يطلب هدنة لمدة ثلاث سنوات، على أن يؤدي له مائتي ألف بيزان (33) ذهبا سنويا، الأمر الذي خلص مصر هذه المرة لكن عند انصرام مدة المهلة اعتبر الامبراطور هذه الجزية إهانة له، فاستدعى سيروس إلى القسطنطينية وعيّن مكانه مانويل الأرميني الذي كان قائدا مُحنكاً، فرفض الجزية وعرض نفسه للدفاع بالسلاح بدلًا مما أعطي بدناءة دون استشارة الامبراطور. فاغتاظ عمر من هذا الجواب وأرسل ضده جيشا قويا بقيادة معاوية (34) الذي لم أقل منه خبرة بالسلاح ، فأرغم مانويل على الانسحاب من مدينة الاسكندرية لعدم توفره على القوة الكافية للصمود . اعترف الامبراطور حينئذ بخطئه وأوفد سيروس لاستئناف الهدنة، لكن العرب ذكّروه بما عامل به معاوية، وأنه يستحيل عليهم مغادرة مصر بقدر مايستحيل عليه أن يجر أسطوانة من رخام كانت هناك، فليرجع إذن الى هرقل ليخبره أن الوسيلة الوحيدة لانقاذ نفسه هي أن يؤدي اليهم الجزية، فرجع سيروس بهذا الجواب، وتابع العرب تقدمهم إلى أن ملكوا مصر كلها في ظرف أربع سنوات وطردوا منها حاميات الامبراطور (35) . وفي هذه الأثناء توجه عمر نفسه بجيش قوي لمهاجمة مدينة بيت لحم التي يسميها

(31) لا حاجة الى التنبيه على ما في هذا الفصل من أخطاء وتحامل ، فعمر لم يحارب قط عليا ، ولم يدخل الى الشام الا بعد انتصار المسلمين لأخذ مفاتيح بيت المقدس ، ولم يرغم أحدا على اعتناق الاسلام ، بل تصرفاته في احترام الديانات الأخرى شهيرة ثابتة في كتب التاريخ . (مترجم)

(32) عام 637 .

(33) البيزان هو الجزء الخمسون من المارك ، وهو ربع أوقية تقريبا .

(34) أحد فؤاد محمد (كذا) بالأصل والهامش ، وهو خطأ ، لأن قائد فتح مصر هو عمرو بن العاص . (مترجم) .

(35) في أوائل سنة ستمائة وسبع وثلاثين .

العرب القدس المبارك أي مكان البركة، وبعد حصار دام سنتين اثنتين سلمها الأسقف سوفرونيوس حين رأى نفسه لم يعد قادراً على الدفاع عنها، شريطة ألّا يحدث أي تشويش في فلسطين ملزماً عمر الاقسامَ على ذلك . وتنقسم هذه البلاد التي يسميها العرب فلسطين إلى ثلاثة أقسام تحمل كلها اسم فلسطين وتقع في الشام . وقد دخل عمر الى المدينة المقدسة عام ستمائة وثمانية وثلاثين مرتديا ثياباً خشنة (36) فقصد تواً معبد سليمان حيث أدّى الصلاة، وأمر بأن يغسل المذبح وجميع حجرات المعبد والأسوار بالماء العطر، وذلك ما أدىّ بالأسقف سوفرونيوس الى أن يقول : إنه الحادث البغيض الذي تنبأ به دانيال قبل أن يلفظ أنفاسه، بعد أن دافع باستمرار عن الديانة الكاثوليكية ضد أخطاء هرقل والمعتقدين طبيعة التوحيد في المسيح ، محتفظا أمدا طويلا بطهارة كنيسته . ثم أخضع عمر جميع بلاد اليهود . ومن ثم ملك المسلمون بيت المقدس مدة أربعمائة وستين سنة ، منها ثلاثمائة واثنتان وسبعون سنة من لدن العرب ، وثمانية وثمانون من لدن الأتراك ، الى أن استولى عليها كود فَرْوَادِي بُويُون سنة ألف وتسع وتسعين بعدما أجلى العرب الأتراك عنها بتسعة شهور .

وفي سنة ستمائة وتسع وثلاثين أرسل عمر قسما كبيرا من جيشه الى بلاد ما بين النهرين تحت إمرة أسد الله (39) لكن الخليفة الامبراطور (40) الذي كان مقيما آنذاك بأوزروين أبرم هدنة معه على أن يؤدي له جزية قدرها مائة ألف بوزان ذهبا ، شريطة ألا يدخل الى الاقليم أبدا ، فانتقل الى إدريس وأرسل اليه جزية السنة الأولى . لكن الامبراطور (41) اغتاظ لكون هذا الاتفاق أبرم بدون استشارته ، فنفاه وأرسل القائد العام فرسانه ليتولى القيادة مكانه ، ولم تكن خسارة فسخ هذه الهدنة بأقل من التي وقعت في مصر ، اذ أن أسد الله الذي كان قائدا كبيرا عبر الفرات فورا وحاصر مدينة إد يس وفتحها ، ثم توجه منها الى قنسطانس ، وبارة ، وأخضع بلاد ما بين النهرين في ظرف ثلاث سنوات . وفي هذه الأثناء شيد عمر قلعة في مصر بجوار أطلال منف ليضمن عبور النيل ، وبنى العرب حولها عدة

(36) مصنوعة من الصوف والـوبـر .

(39) لا شك أنه تحريف لسيف الله الذي هو لقب خالدين الوليد . وقد قاد خالد فعلا جيش المسلمين بالعراق لكن أيام أبي بكر ثم أرسل الى الشام . والقائد الذي أمّرَهُ عمر على جيش فتح فارس هو سعد بن أبي وقاص (مترجم) .

(40) يوحنا كيط .

(41) بطليمـوس .

منازل نظرا لوجود مسجد عمر الذي يضم قبر إحدى حفيدات (42) محمد التي يعظمها كثيرا سكان المناطق المجاورة . وسميت هذه المدينة منذ ذلك العهد القاهرة (43) ، وهي اليوم أكبر مدينة في العالم . يقول بعضهم إن معاوية هو الذي شيَّد هذه القلعة ، ويقول آخرون إنه عمرو بن معاد (44) وكان أيضا من قواد عمر . والواقع أنها شيدت تحت حكم معاوية أثناء خلافته .

وفي عام ستمائة وثلاثة وأربعين أرسل عمر جيشه ضد الفرس لما رأى من ضعف قواتهم بسبب الحروب السالفة، ذلك أن سيريك - كما قلنا - سلم أباه وأخاه للامبراطور، ولم يتول الحكم مدة سنة عقابا له، فترك الامبراطورية لابنه الذي قتل كذلك غدرا، حتى إن هذه الشعوب انتخبت مكانه أرنوميسة ليصلح شؤونها، لكنه هلك في واقعة ضد عمر وهو يفكر في صد بطشه، وبذلك خضع الفرس لسيطرة العرب الذين استولوا على اسمهم وامبراطوريتهم . وحيث إن عمر أصبح سيد جميع الدول التابعة له ، فإنه جعل مقر اقامته ببيت القدس حيث بنى مسجدا فخما تكريما لمحمد إلا أن فارسيا(45) من غلمانه قتله بعد أن تولى الحكم مدة عشر سنوات، وكان عمر أميرا قاسيا شجاعا، لكن عدله لم يكن أقل من شجاعته، لأنه انتصر في معارك عديدة وأخضع دولًا كبيرة، فلم يمنعه ذلك من جلد ابنه حتى الموت لكونه انتهك حرمة فتاة، وأسس مذهب الخليفة (46) وأمر بجمع قرآن محمد الذي كان أميا لايعرف القراءة ولا الكتابة، ولكنه كان كلما خطر بباله شيء أملاه على أحد كتابه حتى كان يملي نفس الشيء عدة مرات عند فقدان ذاكرته (47) وأمر عمر باقامة الصلوات في شهر شتنبر (!) بجميع المساجد وأن يتلى بعد ذلك قرآنه عموميا (؟!) كان عمر رجلا قصير القامة أصلع أسمر اللون ذا لحية بيضاء كثيفة (48) ولما أحس بالموت من جراء الطعنة التي تلقاها عين خلفا له عثمان الذي كان من كبار صحابة محمد وأيده بقوة وصاهره مرتين .

(42) نفيسة بنت زين العابدين ، حفيد علي .

(43) بل الفسطاط ، ولم تأخذ اسم القاهرة الا مع جوهر الصقلي قائد الفاطميين في القرن الرابع للهجرة (مترجم) .

(44) بل عمرو بن العاص .(مترجم) .

(45) المغيرة . (كذا بالهامش) ، والصواب أن القاتل فيروز الملقب أبا لؤلؤة ، وكان غلاما للمغيرة بن شعبة (مترجم) .

(46) ياله من بهتان !

(47) بل كان يكتب نفس الخطبة لمختلف الجماعات في مختلف الأماكن . (كذا) وأبلغ رد على هذه التقولات قول الله تعالى : إن هو إلا وحيٌ يوحى . (مترجم) .

(48) وهو مدفون قرب محمد .

الفصل الخامس .

في عثمان ثالث الخلفاء ، وما حدث في عهده .

لما احتضر عمر استولى عثمان على جميع ذخائره بحذاقة كبيرة ، وفرق المال على المحاربين وأهل بيته ، مستجلبا أفئدة الرؤساء والجنود ، فانتخب ثالث الخلفاء وأرسل سبعمائة سفينة حربية الى قبرص بقيادة معاوية والي مصر ، فحاصر مدينة قسطانس ، ودمر معظم الجزيرة بعد أن فتحها ، لكنه منها عند اقتراب أسطول الامبراطور . وبعد أن هاجم بدون جدوى فاما كوست (49) وأرض ذهب الى مشتاه في فنيقيا ، وكان اذ ذاك امبراطور القسطنطينية هو قنسطانس حفيد هرقل شرسا مثله ، فأرسل عثمان معاوية لفتح قبرص (50) بقوات أكثر بحيث إنه أخذ مدينة أراض عنوة ثم مدينة نيقوسية التي دمرها تدميرا كاملا ، وأخذ معه جميع سكان الجزيرة وتركها قاعا صفصفا . وفي نفس السنة جمع عثمان كل أحاديث الدين المحمدي ورتبها فصولا ووضع ما سمي بالشافعية (51) وبعد عودة معاوية منتصرا من حرب قبرص ، أرسل عثمان جيشه البري لمهاجمة كابَّادوس (52) ، حيث أسر أزيد من خمسة آلاف مسيحي ، ثم ذهب إلى الشام بعد أن اجتاحها . وفي العام التالي (53) أرسل عثمان عقبة بجيش قوي إلى افريقيا التي كانت مضطربة بسبب انقسام الامبراطورية . ذلك أن البطريق كَريكَوار ، لما مات هرقل(54) ، ثار في بلاد البربر حيث كان القوط قد استولوا على عدة حصون باعانة الافارقة ، بحيث كانت البلاد كلها في حالة استنفار . ولتتميم خرابها فان عقبة بعد أن دخل من جهة ضحاري برقة بثمانين ألف مقاتل ، نهب الجانب الشرقي كله من بلاد البربر ، وقتل أو شتت جل جنود كَريكَوار قرب الموقع الحالي لمدينة القيروان . وفر كَريكَوار إلى إيطاليا تاركا إفريقيا للعرب الذين أخضعوا قسما كبيرا منها . ثم عاد معظم

(49) عام 648 م .
(50) عام 648 م .
(51) يا للجهـالـة !
(52) تحت إمارة أبي بغينة بن هراشة (؟) .
(53) عام 651 .
(54) ابن نـافـع .

جيشهم إلى الشرق محملا بالغنائم النفيسة ، بينما مكث عقبة في افريقيا مع باقي جنده . وبأمر من الخليفة الذي كان يمنعه من أن يألف الأماكن البحرية ، ترك الساحل كله للرومان وفق المعاهدة التي أبرمها مع الامبراطور قسطنطين ، وبنى مدينة على بعد خمسة وثلاثين فرسخا من تونس الى جهة الشرق في المكان الذي انتصر فيه على كريكوار ، وسماها القاهرة ، أي النصر (!) لكنا سميت منذ ذلك العهد القيروان ، أي النصرين بسبب انتصار آخر أحرزه العرب في نفس المكان ، كما سنذكر ذلك في غير هذا المحل . ثم عمَّر أماكن أخرى وأمر بتشييد حصون في المواقع التي لا توجد فيها ، مازجا العرب بأهل البلاد لتكوين أمة واحدة ، ويقول ابن الرقيق إنهم أول عرب غرسوا الدين المحمدي بإفريقيا .

ولما رأى قسطنطين أن العرب بلغوا هذا المبلغ من القوة طلب الهدنة من معاوية فلم يجبه إلى ذلك وقام باستعدادات عظيمة في طرابلس الشام للزحف إليه . وفي هذه الأثناء قام أخوان من تلك المدينة ، متأثرين بالبؤس السائد في البلاد فحطما السجون التي كانت تضم أزيد من سبعة آلاف مسيحي فحرراهم وحملوا السلاح ضد العرب . وبعد أن قتلوا بعضهم وألجؤوا الباقين إلى الفرار، اسرعوا إلى الميناء وأخذوا السفن اللازمة لفرارهم وأحرقوا الباقي منها، ثم انسحبوا إلى طراس، ولم يجرؤوا على البقاء في البلاد . فلم يعبأ معاوية بالخسائر وكوَّن من جديد جيشا آخر ونهض بنفسه إلى مدينة القيصرية، بينما كان عبد الله عبد المطلب (؟) وأبو الخطار يكتسحان شواطىء فينيقيا وليسيا بأمر منه، لمواجهة الامبراطور الذي كان يمخر عباب هذا البحر بألف سفينة . ولما التقى هذان الجيشان البحريان نشبت معركة طاحنة – على ما يروي بول دياكر – حتى كُسي البحر كله دما وأجساداً ميته، فأراد الله أن ينتصر المسلمون بسبب الذنوب التي ارتكبها الامبراطور أو بسبب آخر، وكاد يقتل الامبراطور لولا أن أغاثه أحد الشجعان من خدامه الأوفياء، فتبادل معه اللباس عندما رأى مركبه على وشك الغرق وحمله إلى مركب آخر، ثم اختلط بالأعداء الذين لم يستطعوا القبض عليه حياً فأحاطوا به وقتلوه . وهكذا نجا الامبراطور خلافا لما كان يظن أصحابه، وذهب إلى القسطنطينية مثقلا بالخزي، بينما توجه العرب إلى فينيقيا منتصرين مكللين بالفخار والغنيمة مصممين على مهاجمة القسطنطينية في السنة الموالية . لكنهم غيروا خطتهم لأن معاوية ذهب لحصار جزيرة رودس فاستولى عليها وحطم التمثال العظيم الذي كان بأرضها بعد

أن بقي قائما بها طوال ألف و ثلاثمائة وسبعين عاما . وكان هذا الشمثال (55) من نحاس، علوه مائة وسبعة وعشرون قدما، ولو أن بْلين يذكر أن علوه لا يتجاوز سبعين ذراعا (56) ، إذ تطلب صنعه اثني عشر عاما وأخيرا كسره العرب وباعوا المعدن ليهودي حمله على تسعمائة بعير . وفي نفس السنة ثار فَارَانْي القائد العسكري الارميني ضد الامبراطور، وأرسل أولاده إلى معاوية كرهائن ووعده أن يسلم له أرمينيا كلها . فأرسل إليهامعاوية جيشا آخر بقيادة أبي الاسد فانضمّ إليه واجتاح جزءا كبيرا من البلاد، متوغلا فيها إلى أن وصل إلى جبل القوقاز، محرقا ومذبحا . وفي سنة ستمائة وست وخمسين أحدث معاوية خسائر جسمية على طول شواطىء بحر إيجي، وفي جزر سيكلاد . وبعد أن رجع إلى رودس أرسل جيشا إلى صقلية فنهب الجزيرة كلها بعدما استولى على مدينة صاراكوسة، لكن الأسقف أولامب الذي كان واليا عليها من قبل الامبراطور (57) سارع إليها في الحين وطرد منها العرب بعد أن انتصر عليهم في معركة دامية، إلا أنه أجهد نفسه كثيرا فمرض ومات متعبا بعد أيام قليلة .

وفي نفس الوقت ذهب معاوية بجيشه البري لحصار مدينة القيصرية عاصمة كابّادوس ، لكنه علم بنبإ وفاة عثمان قبل أن يستطيع القيام بأي عمل ، فرجع لحينه الى دمشق على أمل أن يخلفه . ودام حكم عثمان اثني عشر عاما . وكان علي قد اتخذ لقب خليفة، وحكم داخل الجزيرة العربية وكأنه متربص في كمين، فأرسل عددا كبيرا من أنصاره ليقتلوا عثمان رغم أن بعضهم يزعم أنه قتل نفسه عندما رآهم يستولون على قصره وخشي أن يقع بين أيديهم، وفقد خاتم محمد الذي كان الخلفاء السابقون يحملونه ، فصنع اخر على شكله من الفضة ونقشت عليه هذه الكلمات : «أيها المكابرون ! أيها التائبون ! » . لم يكن لون بشرة عثمان كغيره من العرب ، بل كان أبيض اللون ، ربع القامة مهيبا طويل الحية كثّها . وكان تاجرا ثريا عندما جاء محمد بدينه ، فضلا عن كونه ذا سخاء كبير تجاه المحاربين ، عاش سبعة وثمانين عاما ، ودفن بدون احتفال سنة ستمائة وثمان وخمسين الموافق للعام السادس والأربعين للهجرة (58) .

---

(55) هو تمثال الشمس .

(56) يساوي الذراع قدما واحدا ونصفا .

(57) هي أرض تابعة للحاكم الايطالي .

(58) بل قتل عثمان عام 35هـ / 656م . ولم نر فائدة في التنبيه على ما في هذا الفصل – كغيره – من خلط وتخامل يدركهما القارىء بديهة (مترجم)

الفصل الســادس

في علي ومعاوية الذين حكما في نفس الوقت ، وكيف انفرد هذا الاخير بالملك بعد وفاة علي وأصبح رابع الخلفاء ، والأشياء التي حدثت في عهده

لما مات عثمان سنة ستمائة وثمان وخمسين ــ كما ذكرنا ــ وقع نزاع كبير حول انتخاب خلف له بين عليّ ومحمد بن عثمان ، وابن أمية الملقب بسيف الطلى أو سيف القرن (!) وبعد أن انتصر علي على محمد بن عثمان بايعه جميع الأنصار والمهاجرين خليفة ما عدا معاوية الذي عارضه بصفته قائدا للجيش واتهمه بالعمل على قتل عثمان . وحيث إنه كان قائدا عسكريا محنكا فإنه عبر الفرات وتحصن جهة أمنين وبابلون حتى لا يضطر إلى القتال . فأصبح عليٌّ في عوز كبير من الماء الذي هو نادر الوجود جدا في البلاد . وأخيرا وبعبد أحد عشر شهرا اتفق الفقهاء على الاصلاح بينهما ، فسلموا قضيتهما الى حكمين عين كل واحد منهما أحد الفريقين (59) لكنهما لم يتفقا وأراد كل واحد منهما أن يعطي الحكم لصاحبه . فاستؤنف القتال وجرت معارك كبيرة سالت فيها الدماء بغزارة ، وخربت هذه الأقاليم عن آخرها ، إلى أن عمل معاوية في اغتيال علي بينما كان في مسجد مدينة البصرة . ويقول بعضهم إن قاتله يهودي . وسميت المدينة التي قتل فيها مشهد علي من أجل هذا القتل . وكان علي قصير القامة ، مكسو الذراعين والبطن بالشعر ، طويل اللحية ، يخفض بصره دائما حتى لا يراه أحد ، وكان يبدو عابسا . ويحمل خاتما نقش عليه هذا الشعار «أعبد الله ربي بقلب مخلص» . ومات عام ستمائة وتسعة وخمسين الموافق للعام السادس والاربعين للهجرة (60)

وبعد موته بايع أهل الكوفة والعراق الحسن بالخلافة ، وهو أكبر أولاد علي ، وكان كثير الشبه بجده محمد . فنهض لحينه ضد معاوية ، لكن عندما أوشك الجيشان أن يلتقيا خشي معاوية سوء العاقبة إذ كان أقل منه مودة عند الناس وأكثر

---

(59) الاشعري والعاصي (أبو موسى الاشعري وعمرو بن العاص – مترجم –)

(60) بل قتل علي عام 40هـ / 661م بمسجد الكوفة على يد عبد الرحمان بن ملجم الخارجي ، والأخطاء التاريخية الأخرى هنا أيضا واضحة . (مترجم) .

ضعفا ، فقال إنه ليس من الانصاف أن يراق الدم من أجله فتخلى عن الحكم وذهبا معا إلى الكوفة ليأخذ بيت المال ، ثم الى المدينة بالجزيرة العربية حيث وضع معاوية بيديه التاخ على رأس الحسن وسلم عليه بالخلافة والامارة ، إلا انه بفضل هذه الطاعة المزعومة كان من الأسهل عليه أن يسمه ، فأصبح المالك بكل اطمئنان . وكان الحسن يحمل خاتما نقش عليه «لا غالب إلا الله».

ولما تخلص معاوية من خصمه صوب سلاحه ضد الرومان ونهب أقاليمهم . فطلب منه الأمير قنساطس الهدنة ، وقبلها معاوية شريطة أن يؤدي له يوميا علي سبيل الاعتراف به عشرة بيازين من الذهب مع عبد وفرس جيد . وبعد ذلك شن معاوية الحرب على الفرس بسبب شقاق كبير حدث في الدّين المحمدي نتيجة الخلافات فيما كتبه أتباع ملته ، حيث كان الفرس منقسمين بين آراء عمر وعلي ، فاضطر معاوية إلى محاربتهم وإرغامهم على اتباع عقائد الشام (61) . وبعد أن مهد البلاد عاد إلى دمشق عاصمة المملكة آنذاك . وهو أول من ترك اسم الخليفة وتلقب بلقب ملك وامبراطور (62) ، لأن الآخرين كانوا يكتفون بأن يسودوا روحيا ودنيويا دون هذا اللقب الفارغ ، يعاقبون ويجازون ، ويحاربون أو يسالمون كيفما شاؤوا . وقليلا ما كانوا يحضرون بأنفسهم مع الجيوش ، ولهم وزير تحت إمرتهم كما كان يوسف تحت إمرة فرعون يحكم ويتولى جميع الأمور باسمهم .

وحدث أن اغتيل الامبراطور قسطانس من طرف رعاياه ، تاركا امبراطوريته إلى إبنه قسطنطين (63)وهو ما يزال صغيرا ، إلا أن سابور عامل أندرينوبل ثار عليه وطلب من معاوية ن يساعده على أن يصير امبراطورا على أن يتنازل له عن رومانيا كلها ، وتوسل إليه قسطنطين من جهته ألا يساعد أحد الرعية الثائر ضد ملكه ، وأن يقر الهدنة التي أبرمها مع أبيه . ولكن معاوية الذي زها بانتصارات عظيمة لم يستجب له وقال إنه سيعين من يؤدي له مالا أكثر ، الأمر الذي أغاظ سفير الامبراطور (64) فأجاب بأن قسطنطين سيدافع عن نفسه بشجاعة ضد كل منهما ويحقق النصر بعون الله . وبمجرد ما خرج السفير أبرم معاوية معاهدة مع رسول

---

(61) لم يكن آنذاك من خلاف ديني إلا خلاف شيعة علي والخوارج الخارجين عليه . (مترجم) .

(62) كان ذلك سنة 660 الموافق لعام خمسين للهجرة .

(63) قسطنطين الرابع .

(64) أندري .

سابور وصرفه على أمل أن ينجده في الحين ، لكن هذا الرسول وقع في كمين نصبه له سفير قسطنطين عند عودته فأمر بشنقه وبعث بمعاهدة معاوية الى الامبراطور.

ولما وصلت هذه الأخبار إلى معاوية أرسل قواده الحربيين إلى سابور مع طائفة من الجيش ، لكن قبل وصولهم زحف البطريق نيسيفور إلى آندرينوبل بأمر من الامبراطور ، وعندما اقترب من المدينة أراد سابور أن يخرج منها لمحاربته ، إلا أن فرسه جمح لدى مروره تحت الباب فدقَّ عقد القبة رأسه ومات . وعندما تفرق أنصاره بسبب موته هدَّأ نيسيفور الاقليم وأعاده إلى طاعة الامبراطور . ولم يجرؤ قائد معاوية الذي كان في إكَزابولي على ترك مكانه ، فأخبر سيده الذي أمده بابنه البكر (65) ليعززه في كالْسيدْوان . وبعد أن اجتاحا معا البادية كلها ذهبا لمهاجمة إحدى مدن فريجيا (66) فاستوليا عليها ونهباها وتركا فيها حامية من خمسة آلاف عربي ، ثم عادا لقضاء فصل الشتاء في الشام . لكن بعد خروجهما بعث الامبراطور إليها آندريا ليسترجعها . فوصل إليها في منتصف الليل والبلاد كلها مغطاة بالثلج ، والعرب منزوون في دورهم من شدة البرد ، فوضع السلاليم واستولى على الشوارع والأبواب التي حاول العرب أن يخرجوا منها عند الشعور بالخطر ، لكن جنود الروم انقضوا عليهم وقتلوهم . وهكذا أخذت المدينة وكسرت الحامية بأسرها وعوضت بأخرى لحماية المدينة .

وفي هذه الأثناء لم يُخلد معاوية إلى الراحة ، بل حشد سرا أسطولا بحريا قويا في الاسكندرية ، تأهبا لمهاجمة بلاد اليونان وطراس ، ولما علم أن كل ما جمع الامبراطور قسطانس من الغنيمة في إيطاليا يوجد بسيرا قوسه في صقلية ، وجه إليها جيشه . وعندما حضر العرب على حين بغتة ألفوا المدينة بغير حرس فاستولوا عليها بسهولة ، لكنهم نظرا لعدم اطمئنانهم بجوار إيطاليا حملوا كل الغنيمة على ظهر سفنهم وقفلوا راجعين إلى بلاد الكنانة . ويقول بعضهم إن قسطنطين عندما وصله نعي أبيه (67) أخذ كل الذخائر من سيرا قوسة وحملها إلى القسطنطينية .

(65) يـزيد .
(66) أموتيـوم .
(67) سنة 672 .

وبينما كانت هذه الأحداث تقع في أوربا وآسيا ، كان البرطيق كَريكَوار الذي فر من إفريقيا ــ كما قلنا ــ قد عاد إلى قرطاج مع ما أمكن من فلول الجند ، فهزم عقبة في بعض المعارك واسترجع جل حصونه . ولما علم معاوية بالأمر ، جهز جيشين عظيمين في مصر ، أحدهما في البحر والثاني في البر ، فأدخل هذا الأخير في مفازات برقة بقيادة محمد بن نصر الذي انضم الى عقبة وانتصرا معا على كَريكَوار وأرغماه على الفرار إلى قرطاج ، ومن هنالك إلى إيطاليا ، بعد أن قتلا العديد من رجاله ، واسترجعا كل الحصون المفقودة . ظن هذا القائد أنه أنهى الحرب فعاد إلى مصر ومعه ثمانون ألفا من الاسرى العبيد ، وتخلف عقبة بالقيروان ، وكان ذلك سنة ستمائة واثنتين وستين وهو العام التاسع والأربعون من الهجرة .

وفي سنة ستمائة وسبعين الذي هو العام الثاني عشر من حكم معاوية ، جهز جيشا عرمرما في الشام (68) وبعث الى سيليسيا وكرمانيا فقام بإتلافات جسمية . ثم جهز في العام التالي جيشين بحرا وبرا بقيادة ابنه يزيد للاستيلاء على القسطنطينية . لكن الامبراطور قسطنطين دافع عنها باستماته طوال ستة أشهر دام فيها الحصار . ومن هناك أخذوا سيزيك عنوة وقضوا بها فصل الشتاء ، ثم عادوا في فصل الربيع الى القسطنطينية ، بحرارة شديدة ، واستمرت الحرب سبع سنوات كاملة حول القسطنطينية ، وأخيرا أراد الله أن ينتصر المسيحيون ويضطر العرب الى الانسحاب بخسائر كبيرة سواء في السفن أو في الجنود ، ولما كان انسحابهم في فصل الشتاء (69) فقد أدركتهم العاصفة في بحر ايجي ، وفقدوا أكثر ما بقي لهم من الجنود والسفن .

وبعد عامين بعث معاوية مرة أخرى بجيشين قويين (70) ضد المسيحين ، فهزمهما رجال الامبراطور ، إذ كان القدر ما زال يساعد المسيحين ، بحيث إن العرب فقدوا أكثر من ثلاثمائة ألف رجل في جميع هذه الحروب . ونظرا لهذه الخسائر الجسمية طلب معاوية الهدنة من الامبراطور ، فقبلها لمدة ثلاثين سنة ، على أن يؤدي له سنويا ثلاثة آلاف بوزين من الذهب ، وثمانين من الرقيق وجياد

---

(68) تحت إمرة ابن نصر وسويد بن غلاقة الغياهفي (؟)

(69) عام 676 م وهو الثالث والستون للهجرة .

(70) تحت إمارة إسحاق بن سفيان بن عوف والقاسم والفضل (؟)

الخيل ، ويطلق سراح خمسين أسيرا مسيحيا يختارهم . ولما انتشر خبر هذه الهدنة في كل مكان ، أسرع موسى القائم بغزة وغيره من ولاة الاقاليم البعيدة – وكانوا خصوصا لمعاوية – بأداة الاتاوة للامبراطور حتى تشملهم الهدنة ، وهكذا أبرم السلم وعمت العافية جميع أقاليم الشرق .

وفي هذه الأثناء قام أحد القواد العرب من جيش البحر بالشام بإحراق جميع سفنه ، لما رآى من غلبة جانب الامبراطور وفر الى القسطنطينية . وفي نفس السنة انتشر الوباء في مصر إلى درجة أن كاد يهلك فيها جميع جنس العرب . وبخصوص الهدنة فإنها كانت مضرة بالمسيحين بقدر ما كانت مفيدة للعرب ، لأن الامبراطور الذي دبر إهلاك المحاصرين في عاصمته ، فتح مسالك جبل القوقاز أي الأبواب الكسبينية ، الشيء الذي لم يوافق عليه قط الاسكندر ذو القرنين – حسب ما قيل – خوفا من أهل الشام . فإن المردويت الذين كانوا دائما محصورين في هذه الصخور انتشروا إلى إن وصلوا إلى لبنان الذي يشكل حاجزا متينا للعرب ، لأن المسيحين الذين لم يستطيعوا الاتفاق مع العرب ، انضموا إليهم وصاروا يشنون غارات كبيرة من هذه الجبال على السهول ، يحطمون من كبرياء العرب الذين لم يبق لهم سوى جيش الفضل والقاسم اللذين كانا يدمران ميناء هرقلية ، حتى إن الامبراطورية بدتوكأنها تستعيد رونقها القديم ، غير أن الامبراطور قسطنطين الذي كان يفضل الطمأنينة العاجلة على الآجلة ، أبرم الهدنة مع العرب ووجه قواته ضد المردويت فطردهم من الجبال التي احتلوها ، تاركا الأرض حرة لأعدائه .

وفي هذه الأثناء عندما رأى معاوية نفسه في سلمن مع المسيحين عمل على تهدئة الخلافات الواقعة في ملته التي أنتجب عدة فرق ، فجمع الناس بمدينة دمشق ، وأمر كل من كان لديه مكتوب لمحمد (عليه السلام) أو خلفائه أن يأتي به اليه. لكن تضارب الآراء أدى الى خلق نزاعات بين الفقهاء لم يستطيعوا الفصل في أي شيء منها ، فاختار هو ستة من بين أفقههم، وعزلهم في دار وأمر كل واحد منهم أن يختار على حدة ما يراه أفضل ، وألف من ذلك ستة كتب سميت بالقرآن ، أي المجموع أو مضمون الشريعة، وقذف بالباقي في النهر، ثم أعلن أنه لا يقدم أحد على الايمان او القول أو العمل بما يخالف ما كتب في هذا السفر إلا عرض نفسه للزندقة ، وبعد ذلك قام عربي يدعي الأشعري فجمع هذه الكتب في

مجلد واحد يحمل اسم مؤلفه .(70)

ثم إن معاوية الذي سبق أن قاد الجيوش في أيام عمر وعثمان ، وفتح عدة أقاليم ، وكان شبه مصلح لشريعة محمد ، مات عام ستمائة واثنين وثمانين ودفن بدمشق التي اتخذها حاضرة ملكه لخصبها وجودة هوائها . وكان قصير القامة أبيض اللون ضخم الجسم ، أسود اللحية ، وكان يحافظ على سوادها في شيخوخته بالخضاب أشهل العينين . عاش سبعا وسبعين سنة ، حكم منها أربعا وعشرين . وكان منقوشا على خاتمه : «رب اغفر لي » وكان أميا لا يحسن القراءة ولا الكتابة ولا الحساب . وبما أنه كان مقداما سديد الرأي ، فإن محمدا كان يدعو له أحيانا على المائدة :« إلهي ، علمه هذه الأشياء واحفظه من المهالك !» ليبين أنه لو كان عالما لا ستُفيد منه كثيرا . (71)

(70م) اختلط على مرمول أمر القرآن الكريم بكتب الحديث الصحاح الستة ، وخلط – كعادته – تاريخ جمع القرآن الذي تم في عهد عثمان ، بتاريخ جمع صحاح الحديث الذي لم يتم إلا بعد اكثر من قرنين على وفاة معاوية ، وبلغ قمة الجهل بتاريخ الاسلام في زعمه أن الأشعري (ولا شك أنه يخلط كذلك بين أبي موسى وأبي الحسن) جمع الكتب الستة في واحد نسبه إلى نفسه !. (مترجم)

(71) جهل مرمول أن معاوية كان من كتّاب الوحي ومات في رجب عام 60 / أبريل 680 م ، واختلط عليه امر دعاء النبي صلى الله عليه وسلم لمعاوية ، فقد دعا له وهو يردفه على راحلة – لا على مائدة الطعام كما وهم – بعد أن سأله عليه السلام عما يليه منه ، قال معاوية : بطني ، فقال عليه السلام ما معناه : اللهم املأه علما وحكمة (مترجم).

الفصل السابع

في يزيد بن معاوية خامس الخلفاء ، وما حدث في عهده

ما كاد يموت معاوية حتى بايع العرب بالخلافة ابنه يزيد الذي لم يرث شيئا من خصال أبيه ، لشغفه بالأمور التافهة ، وقضاء وقته في نظم الأشعار الغرامية والاقبال عليها ، فكان يكره كل علم آخر حتى الدين . وكانت أخته نفسها من بين حظاياه (!) وأقر الهدنة التي كان أبوه قد أبرمها مع الامبراطور قسطنطين ليعيش رعاياه في سلام ، لكن أهل الكوفة (في العام الثاني من حكمه) انتخبوا خليفة لهم أصغر أبناء علي المسمى الحسين ، فاستنفر يزيد جيشا عظيما لمحاربته بقيادة أخيه عبد الله الذي أمر بقتل الحسين غيلة بينما كانوا يستعدون للمعركة في سهول كربلاء بضواحي الكوفة ، فأقبر في نفس المكان الذي قتل فيه ، وبنى العرب فيه بعد ذلك مدينة تكريما له تحمل اسم السهل. ثم إنّ يزيد امتحن جميع أبناء علي وقتل عددا كبيرا من أشراف الجزيرة العربية ، الامر الذي جعله مكروها لدى كل القبائل . واتفق أن أحد أفراد أسرته ، وهو المختار ، أثار ضده جميع بلاد الفرس مدعيا الخلافة ومصرحا بأن يزيد أقدر على الشعر منه على الملك . وهلك يزيد في العام الثالث من حكمه وعمره أربعون سنة . وكان يحمل خاتما كتب حوله « الله ربي » . وخلفه ابنه معاوية فلم يحكم سوى ستة أشهر ، وأبرم الصلح مع إمبراطور القسطنطينية ثم مات بعد ذلك . وفي العام الأخير من حكم يزيد عبر العرب الى إسبانيا بأسطول يقدر بمائتين وسبعين سفينة جمعوها من الاسكندرية ، ولما نزلوا بمملكة بلنسية ، حاربهم الملك بامبا وهزمهم ، فسقط العديد منهم في ساحة القتال ، فضلا عن الأسرى الكثيرين ، وعاد الناجون إلى مصر . وفي نفس السنة دخل هذا الأمير الطيب أحد الاديرة وارتدى لباس الرهبان .

الفصل الثامن

في عبد الله ، سادس الخلفاء ، والأشياء التي حدثت في عهده

خلف يزيد بعد موته أخوه عبد الله ، لكن الناس كانوا يكرهون أهل هذا البيت . فعزم العرب على إعادة عقب علي إلى العرش لانتسابهم إلى محمد (عليه السلام) بواسطة كبرى بناته فاطمة ، الأمر الذي تسبب في حروب كثيرة ، فأهل الشام بايعوا مروان بالخلافة ، بينما بايع عرب آخرون (القاوقاو) وابن عمر أي (ديداكو) (م71) بالاضافة الى القائم المختار الذي كان خليفة في بلاد الفرس ، فتحاربوا فيما بينهم . فزحف عبد الله بجيشه ضد مروان وحاربه فغلبه وقتله في الشهر التاسع من حكمه . لكن العرب نصبوا مكانه ابنه عبد الملك الذي استنفر لحينه جيشين ، أرسل أحدهما ضد عبد الله تحت قيادة جعفر بن ابي طالب والآخر ضد (ديداكو) ،والتقى جعفر وعبد الله على ضفاف الفرات حيث كسر عبد الله واضطر إلى الفرار إلى دمشق تاركا عددا كبيرا من القتلى في جنده . لكن السكان الذين كانوا يكرهونه من أجل قتله مروان امتنعوا من اقتباله ، فتوجه الى القاهرة فامتنع السكان كذلك من اقتباله . ولما رأى نفسه مهجورا من الجميع ، أبحر خفية مع أحد خدمه ليعبر الى اليونان ، ورمت به العاصفة في إحدى الجزر ، فعرفه الناس وقتلوه . وكان قد حكم عاما فقط وبقي عبد الملك ، بعد موت عبد الله ، منفردا بالحكم في اطمئنان ، واعترف له بالخلافة في كل مكان ما عدا في بلاد الفرس .

(م71) هذه الأسماء محرفة كالحقائق التاريخية . والمعروف أن عرب الشام انقسموا بعد موت معاوية بن يزيد ، فست كلب الى بني أمية ، فرقة مالت الى خالد بن يزيد بن معاوية ، وأخرى الى مروان ابن الحكم ، بينما مالت قيس الى عبد الله بن الزبير . انظر تفاصيل ذلك عند حسن ابراهيم حسن ، **تاريخ الاسلام السياسي** 1 : 314.312 . (مترجم) .

الفصل التاسع

في عبد الملك، سابع الخلفاء، والأشياء التي حدثت في عهده

وبعد هزيمة عبد الله، فتحت دمشق أبوابها للمنتصر عليه الذي نبش قبر يزيد وأخرج جثته فأحرقها وألقى رمادها في النهر، انتقاما لموت مروان . وحتى لا يترك أيَّ أثر لآل هذا البيت «السفياني» اضطهد بضراوة كل من كانوا ينتمون إليه وألقى بهم إلى الوحوش المفترسة، غير أن أحدهم، وكان غنيا قويا، يدعى ابن طعمون (72) هرب إلى افرقيا مع بعض ذويه وأصدقائه، تخلصا من جنونه، واختفى إلى أن وصل إلى أقصى موريطانيا الطنجية . ولما عرف السكان أنه من سلالة خلفاء دمشق خضعوا له كأمير نظراً لشهامته وفضله، فشن حروبا عظيمة ضد الرومان والقوط الذين كانوا يحتلون ساحل بلاد البربر . وبعد انتصارات عديدة تكاثر أنصاره فتلقب بلقب أمير المسلمين احتقاراً لخلفاء الجزيرة العربية . يقول بعضهم إنه كان ابناً لمعاوية وانه بنى مدينة مراكش الواقعة في سفح جبل الاطلس قرب أغمات . لكن المؤلفين العرب ينسبون تأسيسها بتحقيق أكثر، إلى ملوك لمتونة أو المرابطين الذين يسميهم مؤرخونا «المورافيد» .

ووجد ابن طعمون سهولة كبيرة لاثبات نفوده، لأن عبد الملك الذي لم يستطع الصمود أمام (ديداكو) الذي هزم جنوده واحتل دمشق، لم يتمكن من إرسال جيش لمحاربته . ولم يتمتع طويلا بانتصاره إذ هلك بالطاعون الذي اجتاح الشام كله مع المجاعة، في الوقت الذي اتخذ فيه لقب خلفة دمشق .

ومن جهة أخرى فإن المردويين الذين أحرزوا على انتصارات في منطقة جبل لبنان ومدوا نفوذهم إلى بيت المقدس، نكثوا عهد العرب بعد أن علموا بموت الامبراطور قسطنطين، واضطهدوهم لدرجة أنهم لم يجرؤوا على الظهور في أي مكان، من (موبسويست) إلى أرمينيا الرابعة . وعندما استولى المختار هو الآخر على

(72) لعله يقصد حسان بن النعمان ، عامل الأمويين على مصر ، الذي بعث به عبد الملك بن مروان واليا على المغرب بعد استشهاد زهير بن قيس البلوي ، وهو الذي كان له البلاء الحسن ضد الفرنج ومن حالفهم من البربر ، لكن أخبار مارمول – كالعادة – تختلط فيها الحقائق بالاباطيل والتحريفات والأوهام الكثيرة . (مترجم) .

بلاد فارس طمح إلى حكم جميع العرب، بحيث إن عبد الملك الذي أثقلت كاهلة رزايا عظيمة وخشي أخرى أعظم منها إذا ما قاومه جوستنيان الذي لم يكن عمره آنذاك يجاوز ستة عشر عاما، أرسل إليه يطلب منه المحافظة على الهدنة التي أبرمها والده قسطنطين مع جده معاوية . ويعتقد بعضهم أن معاوية لم يكن هو الذي أبرم الهدنة، وإنما عقدها مروان، لكن الأول هو الأصح، وانما تبعه الآخرون، لأن يزيد ومروان طلباها من قسطنطين وطلبها عبد الملك من جوستنيان الذي منحه إياها بنفس الشروط . وإذا كان لزاما عليه بهذا العهد ان يطرد المردويين من لبنان، فإن عبد الملك أعطاه نصف مدخول أقاليم أرمينيا وقبرص وإفريقيا . وبعد إتمام الهدنة أمر جوستنيان أن تشيد للعرب الأفارقة بعض المحلات على طول الساحل ليسكنوها . وحيث إن المدويين امتنعوا من وضع السلاح، أرسل الامبراطور ضدهم جيشا طردهم من المواقع التي كانوا قد احتلوها، وبعد أن أسر وقتل كثيرا منهم، ترك البلاد حرة للعرب . ولما تخلص عبد الملك من هؤلاء المتوحشين أرسل جيشا باسلا ضد المختار، فهزمه هذا الأخير بقوات الفرس واكتسب شهرة كبيرة بفضل هذا الانتصار، حتى إن عبد الملك اضطر إلى أن يذهب بنفسه إلى بلاد ما بين النهرين . وفي هذه الاثناء ثار عليه أسد (!) ومعه آخرون عديدون فاضطر عبد الملك إلى أن يصرف قواته ضده، وحيره بوجوده إلى أن ألزمه الا ستسلام وطلب العفو منه، فعفا عنه في الحين ولكنه أمر بقتله بعد ذلك .

غير أن عبد الله بن الزبير حرض السنيين، واتخذ لقب خليفة في بلاد ما بين النهرين، فأرسل جيشا قويا ضد المختار بقيادة أخيه . ودارت بين الفريقين معركة دامية قتل فيها المختار ونتج عن هزيمته فتح بلاد فارس كلها . لكنه لم يتمتع طويلا بانتصاره لأن عبد الملك أتى لقتاله على ضفاف الفرات، وبعد أن قتله وهزمه استولى على جميع البلاد التي كان فتحها . ولما علم عبد الله بهذا الخبر خشي من خوض المعركة، فانزوى في مكة حيث أرسل عبد الملك (كيان) (73) لمحاصرته، فأخذ المدينة وأحرق المسجد الذي كان هناك . وبهذه الانتصارات أصبح عبد الملك منفردا بحكم الجزيرة العربية باطمئنان، وكذا بلاد فارس، وما بين النهرين،

(73) (كذا) والمعروف أن الحجاج بن يوسف الثقفي هو الذي حاصر عبد الله بن الزبير في مكة وقضى عليه . (مترجم)

وأرمينيا والعراق التي كانت قد ثارت كلها، جاعلا هكذا حدا للحروب الأهلية . لكن الامبراطور جوستنيان الذي سول له شبابه أن يفسخ الهدنة أبى إلا أن تضرب النقود التي كانت تؤدي له كإتاوة بسكة الامبراطور، وقد أرسل إليه عبد الملك يطلب منه ألا يفسخ المعاهدة لسبب تافه كهذا، إذ أن النقود المذكورة لها الوزن والقيمة القانونيان، مضيفا أن العرب لن يرضوا أبدا أن تحمل سكتهم سلاح وشعار المسيحيين . وتوهم الامبراطور أن ما صدر عن عبد الملك إنما صدر عن تخوف، فأهمله واستنفر جيشا خفيفا جدا مؤلفا من ثلاثين ألفا من العبيد بقيادة نيبولون الذي كان من نفس المنطقة، إذ كان قد أخضعهُم إلى طاعته منذ عهد قريب . وقاد الجيش البطريق ليونس واسترجع في فترة قصيرة أقاليم هيبيريا وألبانيا وهركانيا وميديا التي انتزعها العرب من الامبراطورية، ثم زحف الامبراطور نفسه بفرسانه وعبيده لمحاصرة سيباستوبول ولما كان عبد الملك قد تخلص من المردويين والثوار، فإنه حشد جنوده وأرسل إلى محمد خليفته يستعطفه لاغاثة هذا الحصن . فبعث محمد إلى الامبراطور يستعطفه للمرة الثانية ألا يفسخ هدنة أبرمت بكيفية رسمية ومذكراً بعقاب الله الذي وقع الاقسام به لالتزام العهد، والأيمان الكثيرة التي حلف بها حتى لاُينقض، لكنه عندما رأى عدم اكتراث الامبراطور بذلك، أخذ وثيقة العهد فجعلها في رأس رمح بشكل راية وتقدم لمحاربته . وقبل أن يأذن بالقتال بعث أيضا برسولين آخرين ليتوسلا إلى جوستنيان ألا ينقض الصلح، وأعطاهما كيسا كبيرا من الذهب يحملانه سرا إلى نيبولون ويَعِدانِهِ بمبلغ أكبر إن هو ترك فريق الامبراطور والتحق بفريق المسلمين، فاغتر نيبولون بأمل باطل وقبل الهدية والتحق بالعرب ومعه عشرون ألفا من العبيد . وقد اندهش الامبراطور قبيل بدء المعركة لهذا الحدث الغير المنتظر، فأمر بانسحاب جنوده، ولم ينج هو مع قليل من جنده إلا بمشقة عظيمة . ولما وصل إلى صخرة لوكاط المشرفة على البحر في تخوم نيكوميديا أمر يقدف من أعلى إلى أسفل بجميع العبيد الباقين في جيشه وبكل نساء وأولاد الذين التحقوا بصفوف الاعداء ، وأن ترمي الجثث في البحر .

وقد استرجع العرب المنتصرون كافة الاقاليم التي كان استولى عليها ليونس، وتراجع جوستنيان يجر أذيال الخيبة إلى القسطنطينية، غير أن البطريق سيبا ستيان حاكم أرمينيا حشد جيشا قويا وانقض على العرب فطردهم من ولايته، الشيء الذي لم يمنعهم من تخريب سائر الاقاليم الشرقية . فاستولى كاجان على كل هذا الجزء من

بلاد فارس الذي كان يعترف بالامبراطورية الرومانية وقام القائد محمد مع عبيده المتمردين بإحراق طراسة وذبح أهلها، غير أن الدولة المسيحية كانت ممزقة بسبب الحروب الأهلية بحيث لم يصمد أحد أمام تقدم العرب . ذلك أنَّ البطريق ليونس الذي استولى على الامبراطورية أبعد جوستينيان إلى الكيرفونيز، وحيث إنه كان في تخوف دائم من جراء جريمته لم يجرؤ على إنجاز أي مشروع . وبخصوص إفرقيا فبمجرد ما عين امبراطورا أرسل البطريق يوحنا بأسطوله الحربي ليطرد العرب من الحصون التي كانوا يحتلونها على طول شاطىء البحر المتوسط والتي منحتهم إياها المعاهدة الأخيرة . فانتصر عليهم في مختلف المعارك وطردهم منها . لكنه نظراً لكونه لم تكن له القوة اللازمة لاخضاع الاقليم، فإنه ترك قسما كبيرا من الجيش تحت قيادة أبسيمار، ورجع إلى القسطنطينية ليطلب المزيد من القوات من الامبراطور الذي لم يبد الحماس الكافي للقيام بهذه المهمة العظيمة . ومن جهة أخرى فإن عبد الملك الذي لم يتحمل هذا العار جهز أسطولا بالاسكندرية وأرسله إلى إفرقيا بقيادة عبد الله بن محمد الذي رأى نفسه أقوى من العدو، فهاجم طرابلس الغرب، ثم قابس، فاستولى عليهما وخربهما، وانتقل إلى قرطاج بينما كان الرومان يبحرون شطر أوربا ليعودوا منها بقوات كثيرة، إلا أنهم لما وصلوا إلى جزيرة كاندي، وكان رؤساء الجيش مغتاظين من ذهابهم وإهمال الامبراطور وتهاونه، فعزلوه واختاروا مكانه أبسيمار، ثم توجهوا إلى القسطنطينية وقبضوا على ليونس، وبعد أن جدعوا أنفه ألقوا به في غيابات السجن . وهكذا تُركت إفرقيا للعرب، فاستولوا على قرطاج ودمروها بقايدة (زقالة) (؟) وتقدموا إلى أن وصلوا إلى عاصمة القسطنطينية مطاردين القوط والرومان، ومن ثم التحقوا بموريطانيا، وتحصنوا ضد القوط الذين كانوا يستولون على ساحل المحيط مع بعض المُدن والأقاليم في الداخل . ولما رأى أبسيمار هدوء بقية الامبراطورية، أرسل مددا إلى المراكز التي بقيت له في افرقيا والتي كانت تتناقص باستمرار بقدر ما كان العرب يستولون عليها .

وإذا رجعنا الى آسيا ، فإن أبسيمار ما كاد يعلم بانتخابه حاكما حتى سرح جيشا قويا إلى العرب بقيادة أخيه هرقل ، فسار مسرعا ينتقل من نصر إلى آخر في بلاد الشام كلها ، ومزق أشلاء أكثر من مائتي ألف من العرب ، ومن ثم انتقل إلى (ساموساط) ، فخرب كثيرا من المدن وزرع الرعب في كل مكان ،

وزحف بعد ذلك إلى الطاغية القائم (أبيبسا) ؟ فهزمه بعد أن قتل الكثير ممن معه ولما وصلت هذه الأخبار إلى أمراء أرمينية الذين كانوا يعترفون بسلطة عبد الملك اغتالوا جميع العرب الذين كانوا في أقاليمهم ، وأسرعوا إلى الأمبراطور الذي وضع على الفور حاميات في جميع حصونهم . لكن عبد الملك أرسل إليها في الحين جيشا قويا بقيادة محمد الذي فتح أرمينية وقبض على أعيان البلاد فأحرقهم جميعا في ساحة كبرى كان قد حبسهم فيها . ثم دخل إلى سيليسيا التي قتل هرقل فيها عددا كثيرا من رجاله وأسر الكثير منهم وأرسلهم إلى الامبراطور . وفي نفس الوقت مات عبد الملك بعد حكم دام واحدا وعشرين عاما ، فخلفه ابنه الوليد .

الفصل العاشر

الخالد أبو الوليد[74] بن عبد الملك بن مروان ثامن الخلفاء، وما جرى في عهده من أحداث

بعد موت عبد الملك عين العرب خليفة له ابنه الوليد الذي يسميه الكتاب العرب سيف الله[75] ورئيس المزهوّين (؟) وتولى الحكم عام سبعمائة وثمانية[76] ولم يطل عهده سوى تسع سنوات كانت مؤذية جدا للمسيحية . فبمجرد ما تربع على العرش نزع للمسيحين كنيسة دمشق الكبرى التي كانت أجمل معبد في العالم سواء من حيث جمالها أو من حيث هيكلها فحولها إلى مسجد . ولكن ، ليظهر الكره الذي كان عنده للمسيحين منع استعمال اللغة اليونانية التي كانوا يتعاملون بها في إمبراطوريته كلها . وثار الأرمينيون للمرة الثانية في عهده ودخلوا تحت إمرة الامبراطور . ومن جهة أخرى فانه أرسل جيشه لينهب الأقاليم الرومانية فاستولى على مدينة مسطان وعدة حصون أخرى صغيرة ، وعاد العرب بعد ذلك إلى الشام محملين بالغنائم . ثم عبروا إلى كالاتيا فنهبوها كلها من أقصاها إلى أقصاها بعد أن هزموا حامية الاقليم .

ثم إن ملك البلغار[77] أعاد جوستنيان إلى الحكم ،فاغتنم العرب الفرصة للتوسع بسبب الفتن التي حدثت في المسيحية، وحشدوا جيشا عرمرما دخلوا به الى افريقيا ففتحوها حتى المحيط . وثار الأفارقة[78] بسبب موت عبد الملك فشهروا السلاح ضد العرب وهزموهم . وأراد الوليد أن يغيث قومه، فكوّن جيشا قويا في مصر، وأرسله بقيادة موسى بن نصير إلى إفريقيا فدخلها عبر مفازات برقة ،

(74) لا يعرف لهذا الخليفة إلا اسم الوليد .
(75) اختلط على مرمول اسم هذا الخليفة الأموي باسم الصحابي خالد بن الوليد .
(76) بل ولي الوليد الملك بعد وفاة أبيه في منتصف شوال عام 86هـ / أكتوبر 705
(77) وهو تريبيليوس .
(78) من بلاد البربر ونوميديا وليبيا .

ومكث بعض الوقت للاستراحة في القيروان التي تسلم حكمها من ابن أخي عقبة أو حفيده ، ثم تابع سيره وفتح قسنطينة عنوة ، وانتقم شر انتقام من الذين قتلوا الوالي . ثم سار نحو الموريطانيتين اللتين أخضعهما بجيش مؤلف من مائة ألف مقاتل ، ويقال إنه سار إلى أن وصل (تفتان) (79) الواقعة في طرف إفريقيا من تلك الجهة ، وإنه عندما رأى أن لا وجود لليابسة وراءها أدخل قوائم فرسه في المحيط كتحدٍّ لكونه لم تبق أية أرض لم يفتحها (80) ورجع من هناك عبر نوميديا وليبيا وفتح جميع البلاد الممتدة بين النيجر والبحر الابيض المتوسط، ماعدا بعض الحصون (81) في اتجاه جبل طارق التي كان يحتلها القوط. وبعد كل هذه الانتصارات عاد الى القيروان بعد أن استخلف على موريطانيا الطنجية محاربا شجاعا يدعي طارقا .

كان القوط يحكمون اسبانيا منذ ثلاثمائة سنة خلت بعد أن طردوا منها الرومان ، وكان كل ما هو واقع بين البحر المتوسط ، وأعمدة هرقل ، وجبال البرانس ، والبحر المحيط ، خاضعا للملك رودريق الذي كان يملك علاوة على ذلك منطقة « لنكَدوك» إلى نهر الرون (82) وكن يوليان واليا من قبله على حصون إفريقيا ، يجعله بعضهم أمير سبتة وآخرون أمير إسبارتين .وقد رأيت بطليطلة قديما مكتوبا على الرق عنوانه **كتاب الملوك** يدعي فيه يوليان ابن أخي الملك ، ويقال إنه كان ذا سلطة واسعة وأموال طائلة بإسبانيا وإفريقيا بالاضافة إلى مرتبة عاية . ويروي المؤلفون القدماء أنه كانت له ابنة اسمها كابا لم يكن جمالها أقل خطرا على اسبانيا مما كانت عليه هيلين على طروادة . ذلك أن الملك اغتصبها وهي تعيش في كنف الملكة (83) فأخبرت أباها في الحين ، وكان يوجد إذ ذاك في اسبانيا مع زوجته . فاغتاط الأمير لهذه الفضيحة ، وكان رجلا شهما ، فسكت عنها بضعة أيام ، ثم تعلل بمحاربة العرب في افريقيا وطلب من الملك أن يأذن له بالرجاع إلى ولايته. ولما تسلم الاذن على أمل أن حضوره سيوقف تقدم الاعداء، ركب البحر مع

---

(79) المدينة التي تتحدث عنها المصادر العربية هي أسفي .

(80) اختلط مارمول هنا أيضا أمر موسى بن نصير بأمر عقبة .

(81) من سبتة وطنجة وأصيلا الخ ...

(82) يؤول المؤلف نفسه أسفله بلاد الغال القوطية ، أو الأكيتين . (وكثيرا ما يكتب العرب اسم هذا الملك باللام « لدريق » . (مترجم) .

(83) هذه عادة قديمة مازالت مستمرة ، وهي تربية الفتيات الشريفات في حجر الملكات .

زوجته حاملا معه أعز ما يملك من النفائس وعبر إلى سبتة . وبعد مدة تظاهر بأن امرأته مريضة محتضرة ، وطلب من الملك أن يأذن لابنته بأن تأتي لتودعها الوداع الأخير . وبمجرد ما دخلت تحت سلطته أطلع موسى على السبب الحقيقي لغضبه ووعده بأن لا يسلمه الحصون التي يحكمها فحسب ، بل بأن يمكنه من إسبانيا كلها إذا أعطاه القوات الكافية لفتحها . فأخبر موسى الوليد باقتراح الكونط يوليان ، فأبدى ترددا كبيرا لهذا المشروع ، نظرا للخطر الذي قد ينجم عن الثقة بالعدو ، فضلا عن أن قوات القوط إذذاك رهيبة . فاكتفى موسى حينئذ بإعطائه بعض الفرق العسكرية واعدا إياه بأكثر منها إذا نجح . وكان الكونط يلح كثيرا ويعد بفتح إسبانيا عن طريق حصون ولايته ، مؤكدا أنهم سيتبعهم عدد كبير من الأشراف لما يكنونه من حقد للدون رودريق ، ومن بينهم أبناء الملك فيتيز الذين اغتصب منهم التاج ، فضلا عن العديد من الحانقين الذين لم يكونوا ينتظرون سوى فرصة الثورة التي تسهل عليهم النزول . وكان يقول إنه لا خوف إطلاقا من أشراف القوط المنغمسين في الترف والملذات الذين فقدوا حماسهم الأول ، وإن الشعب مجرد من السلاح ، وإن العديد من الحصون مكشوف ، ولا أحد يقاوم إذا رأى الكونط على رأس الحملة ، إذ كانت بيده القوات الرئيسية للدولة . إلا أن موسى لم يجرؤ على مخالفة أمر الخليفة ولم يرسل سوى مائة فارس وأربعمائة راجل تحت قيادة طارق حتى يرى ماذا سيفعل . فنزل الكونط بهذا العدد القليل من الجنود بالجزيرة الخضراء الواقعة في خط سبتة والقصر ، فجمع هناك كل أقاربه وأصدقائه ، مبينا لهم ما أسداه من خدمات للدون رودريق وما تلقاه منه من عقوق ، وكيف هتك عرض ابنته ، وتسلط على الدولة وتجبر على الرعية ، متوسلا إليهم بأن يساعدوه في مهمة بهذا القدر من الانصاف ، وأن يعززوه بقواتهم عند مجيئه في العام الموالي بجيش أكثر عددا لتحقيق غرضه . فوعدوه بأنهم لن يتأخروا عن نصرته عندما تحين الفرصة ، وعلى هذا العزم عاد كل واحد إلى موطنه . وكان ذلك سرحكم إلهي سخّر غضب الكونط لمعاقبة القوط المنغمسين في ذنوبهم ، حتى إن الملك فتيشة كان قد تزوج عدة نساء واتخذ عدة فتيات حظايا ، ولم يكتف بهذا بل أباح لرعاياه أن يسلكوا نفس السلوك ، وللرهبان أن يتزوجوا ويتسرروا ما شاؤوا ، وأدّى به الأمر أن خلع طاعة الكرسي البابوي . ولتعجيل الانتقام منه أراد الله أن يأمر الملك بتحطيم جميع أسوار المدن والحصون وبحظر حمل السلاح ، حتى إن

بعضهم ذهب إلى القول بأنه أمر بكسر السلاح ليكون أكثر اطمئنانا . ولما أراد الكونط أن يشهر الحرب ويجرب رجاله ، نزل بقادس مع أكثر عدد ممكن من الجنود، واستولى على المدينة فأحرق كل ما فيها وذبح أهلها وأسر الكثير من الناس. ثم أخذ يجوب الشاطىء كله وقام بإتلافات جسمية ، ورجع الى سبتة محملا بالغنائم . ولما رأى موسى هذه البدايات الحسنة أعطاه في السنة الموالية اثني عشر ألف رجل تحت إمرة نفس القائد الذي عبر مضيق جبل طارق (84) حيث يوجد ميناء ممتاز ، ثم إلى ميلارية أو الجزيرة الخضراء ، وطريفة ، وهي إحدى مدن البيتيك السفلى . وعندما انتشر خبر مجيء الكونط في اسبانيا كلها جمع أهله وأصدقاؤه أكثر ما استطاعوا من الرجال بدعوى أنهم سيعترضون العدو ، وانضموا إليه ، بحيث إنهم أتلفوا جميعا جزءا كبيرا من الأندلس . ولما بلغ الدون رودريق هذه الأخبار جمع بكل ما استطاع من السرعة جيشا بقيادة ابن أخيه إنيينو صانشيز ، وكان من أشجع رجال عصره ، لكنه للأسف قتل في معركة مع جميع من كان معه ، فجزع الملك لذلك كثيرا ، لأنه كان قد أعده ليكون خليفة له . وتسارع العرب وتكاثروا لما بلغهم خبر هذا الانتصار ، وأحدثوا إتلافات كبيرة في كل مكان ، ولما علموا أن الملك زاحف اليهم بجيش عرمرم تراجعوا إلى الحصون التي كانوا قد احتلوها (85) ومعهم العديد من الأسرى والكثير من الغنائم.

لم يكن دخول العرب إلى إسبانيا ، الذي يسميه مؤلفوهم فتح الأندلس ، عام اثني عشر وسبعمائة ، بل عام اثنين وسبعمائة حسب رواية مؤرخيهم ، أي في العام الثاني والتسعين للهجرة (86) بحيث إنه إما أن يكون وقع خطأ في عدة سنوات خلافة الوليد ، أو يكون حدث ذلك في عهد أبيه عبد الملك (87) لكنني أكتفي بما يقوله مؤرخونا لقلة التوافق بين المؤرخين القدماء .

---

(84) باللغة العربية جبل الفتح ، وكان يسمى قديما كالبي . « وقد تغاضى مرمول عن اسم جبل طارق !!. ولو أنه يتحدث عن القائد طارق ، ويسمي المضيق مضيق جبل طارق (مترجم) » .

(85) وهي جبل طارق ، والجزيرة الخضراء ، وطريفة التي كانت تسمى قديما كارطيفية .

(86) تقول الرواية العربية إن عبور طارق الى الأندلس كان في شعبان عام 92هـ / ماي – يونيو 711 . (مترجم) .

(87) يبدو أن الغلط ناتج عن كونه جعل موت محمد (عليه السلام) في العام العشرين للهجرة ، بينما كان في العاشر حسب ما يبين .

(والواقع أن وفاة الرسول – عليه السلام – كانت يوم الاثنين 13 ربيع الأول عام 11هـ / 8 يونيه 632) (مترجم) .

ولما حشد الملك رودريق جيشه عزم على السير بنفسه لمواجهة العرب رغم تقدم سنه ، فاستدعى جميع الأساقفة والنبلاء بطليطلة وذهب مسرعا إلى إشبيلية ، دون أن ينتظر وصول الجنود القادمة من الجبال وما وراء البرانس ، بعد أن ترك لهم أمرا بالالتحاق به فور وصولهم . وأخبر هناك بأن موسى يستعد للحاق بطارق في قوات هائلة ، وأن طليعة العرب قد وصلت إلى خيريس دي لافرونطيرا التي كانت تدعى قديما قديما صادوينة ، بحيث إنه تصدى لهم بأزيد من مائة ألف رجل . فالتقى الجمعان عند نهر وادي الليطى ، العرب من جهة طريفة والمسيحيون من جهة إشبيلية قرب غدائر ملح ، حسب قول عبد الملك . وبدأ الاشتباك يوم الأحد عند ممر النهر ، ثاني يوم من شهر سبتمر ودام ثمانية أيام سقط خلالها عدد كبير من القتلى من كلا الطرفين . وكانت إسبانيا قد أصيبت منذ عامين بالمجاعة والطاعون ، كما كانت قليلة الدربة على السلاح لعدم قيامها بأي حرب منذ مائة وأربعين سنة ، فضلا عن كون معظمهم قد جردوا من السلاح ، الأمر الذي جعلهم يقاتلون بشجاعة أكثر مما يقاتلون بقوة . وأخيرا في التاسع من نفس الشهر ، لقي ابنا الملك غيطشة (88) طارقا ليلا ووعدهما بتنصيبهما في مملكة أبيهما . فتحولا إلى جهته بأزيد من مائتي ألف رجل ، وبذلك رجحت كفته . ولما رأى الملك رودريق ــ وكان طاعنا في السن ــ أنه هوجم من طرفهما ، نزل من عربته واختلط بالأعداء ممتطيا فرسا له(89) ، لكنه عندما رأى جنده يفرون من كل جهة تجرد من الثياب والحلي التي كان يرتديها ملوك القوط في الحرب ــ حسب قول بعضهم ــ وتبع الجم الغفير حتى وصل إلى إحدى مفازات البرتغال حيث قضي بقية حياته في صحبة أحد الزهاد . ويضيفون أن هذا الرجل الزاهد سجنه في حجرة مع حية ذات رأسين ظلت تقرضه يومين كاملين(90) إلا أن هذه الرواية ينبغي أن تؤول بتبكيت ضميره . ويقول المؤلفون اللاتينيون إنه مات بفيزيو ، وإنه عثر على كتابة على قبره هذا نصها «رودريق مدفون هنا ، تبا لغضب يوليان الأثيم الذي تسبب في موت ملكه وخراب بلاده ، بالرغم على أمر ربه ودينه ، وستبقى ذكراه بغيضة » لكن عبد الملك وغيره من العرب يقولون إنه مات في المعركة هو

(88) وهما سيسيبر وإيفازيي

(89) كان هذا الفرس يسمى أوريليا .

(90) كما حدث لاوريست .

وكافة أشراف القوط ، وإن بعض العرب حملوا حليه إلى موسى(91) فلما سألهم عن مصير الملك أجابوه بأنهم لم يعثروا عليه ، وإنما وجدوا سلبه في بحيرة غرقت فيها خيول كثيرة واختلطت . وعلى إثر هذه الواقعة التي لم يحضرها يوليان ، لأنه كان قد ذهب ، التجأ الهاربون إلى أستيجي(92) حيث التحق بهم الآتون من قشتالة ومن وراء الجبال الذين لم يستطيعوا الحضور في المعركة . فعادوا بهذه القوات لمهاجمة العدو وتضييق الخناق عليه في الوقت الذي وصل الكونط يوليان لا غاثته وهو مرتاح ، فحمل على جيس النصارى وقتل أو أسر جلهم . وفي نفس الوقت ذهب طارق لمحاصرة أستيجي ، ولما احتلها قسم جيشه إلى أربعة أقسام ، باقتراح من الكونط ، ليسيطر على جميع الحصون قبل أن يتمكنوا من حشد قوات جديدة .

وكان أبناء الملك غيطشة مع أسقف إشبيلية(93) خالهما في جهة مالقة ، وبعد أن احتلا هذه المدينة عبرا إلى اللبيري(94) وهي مدينة قديمة تشاهد أطلالها بجبل إلفير ، على بعد فرسخين من غرناطة في طريق قرطبة . واحتلت جميع الحصون المجاورة في آن واحد مخلفة عددا كبيرا من القتلى . وذهب أحد المرتدين ، واسمه ماجيطار ، بجيش آخر لحصار مدينة قرطبة حيث كانت له بعض المواطأة . وقد مكن بعض السكان رجاله من الدخول ليلا بالقرب من باب الفارون من نقب فتسلقوا بحبال صنعوها من نسيج عمائمهم التي قطعوها لفائف ، ثم فتحوا الأبواب وأدخلوا ما جيطار الذي أحرق كل شيء وذبح ، وعمد بعض أعيان المدينة إلى انتخاب أحد قوادهم الحربيين للدفاع عنهم فصمدوا في كنيسة سان جورج طوال ثلاثة أشهر ، إلى أن ركب يوما رئيسهم وذهب للبحث عن إغاثة فأخذ ثم أخذت الكنيسة عنوة ، وقتل أو أسر كل من كان فيها . ولهذا فإنها مازالت تسمى إلى يومنا سان جورج الأسرى

وتوجه تدمير ، وهو مرتد آخر ، بالقسم الثالث من الجيش رأسا إلى مملكة مرسية ، فسلم سكانها أنفسهم حسب قول المؤرخ العربي ، ثم حارب أهل

---

(91) عبارة عن جبة وخفين وخيزران وتاج .
(92) هي الآن إيسيشا .
(93) وهو أولباس .
(94) كانت تدعى قديما مالاسي أو ماليسي .

بلنسية في سهول سانكونار وانتصر عليهم بعد أن قتل عددا كثيرا منهم ، وتوجه طارق بباقي الجيش إلى طليطلة فأدخله إليها سرا اليهود القاطنون بالحي الواقع إلى جهة السهل (95) فنهبها وحمل معه كمية من الذخائر . ويقول عبد الملك إنهم وجدوا في الكنيسة الكبرى مائدة مرصعة بالذهب والماس تبلغ قيمتها خمسمائة ألف دينار ، ويقال إنها التي تناول عليها المسيح العشاء مع حوارييه ، أو هي مائدة سليمان حسب ابن راشد . ومن هناك عرج إلى وادي الخزا ومدينسيلي التي يسميها العرب مدينة المائدة ، لأنهم وجدوا مائدة لها ثلاثة أرجل مصنوعة من زمردة واحدة ، من ذلك الزمرد الذي يدعى دويين ، وهو أعلاها قدرا وقيمته (96) .

وبعد أن ظل طارق يتمتع بالانتصارات في اسبانيا ، لحق به موسى وقد حسده على مجده ، وبمجرد وصوله إلى طليطلة طالبه بحساب دقيق لجميع الغنائم . وهناك انقسم الجيش إلى فريقين ، توجه أحدهما نحو إشبيلية بقيادة موسى ، فأقام الحصار في طريقه على كرمونة ، حيث إن بعض رجال الكونط يليان الذين دخلوا على حين غرة فتحوا الأبواب ليلا للعرب ، فتصرفوا فيها بالنهب والتخريب . وعرجوا من هناك على اشبيلية . لكن السكان بعد أن هزموا الكثير منهم أثناء خروج لهم أرغموا موسى على الانصراف ، خشية أن يسرع إلى نجدتهم أهل الغرب والاستريمادور حسبما كان يروج من أخبار . فقصد مدينة ماردة لحصارها ، فتلقاه أهلها على بعد ميل من ساحتها لكنهم هزموا وتراجعوا إلى المدينة ، فحاصرها موسى طيلة أيام عديدة حتى إن المحاصرين لم يستطيعوا مقاومة الجوع وآلات الحرب فسلموا أنفسهم اضطرارا . ويرجع تأسيس هذه المدينة إلى قيصر وإتمامها إلى أغسطس، لكن جميع الأباطرة بعدهما عملوا على تزيينها ببعض المباني الفاخرة . ويقال إن العرب وجدوا فيها جرة مصنوعة من جوهرة (97) كان أحد ملوك إسبانيا قد جاء بها هناك . وكانت قد استخرجت قديما من معبد بيت المقدس عندما خربه نابوكودونوسور . وبعد أن حُملت هذه القطعة النفيسة إلى دمشق ، وضعها سليمان الذي خلف الوليد في المسجد الأعظم .

(95) هو ما يسمى اليوم بكَرانتشة .
(96) يبدو أنها كانت من الزمرد الأخضر .
(97) ربما كانت من الصدف .

ولنعد الى تاريخنا فنذكر أن موسى توجه الى الاستريمادور بعد أن ترك حامية في قلعة ماردة ، لكن سكان إشبيلية وبعض جيرانهم (98) هاجموا ماردة أثناء غيبته ودخلوها عنوة وقتلوا كل من كان بها من العرب . ولما علم موسى بذلك عاد فورا بجنوده ، فتراجع المسيحيون لعدم تجرئتهم على انتظاره ، تاركين المدينة فارغة ، وفتحت له الأبواب واعتذر أهلها عن قلة مقاومتهم الناتجة عن ضعفهم . وفي هذه الأثناء دخل طارق منتصرا الى الاقليم القوطي (99) الذي كان حاكمه مانيوزا يقيم في حصن شيشون ، فسلم هذا الحصن الى طارق وانضم اليه ، وتبعه كذلك مونيوز والي سردانيا . وقد ارتكب هذان الرئيسان القوطيان هذه الفعلة ليحتفظا بحكمهما ، فساعدا العرب وألحقا أضرارا جسمية بالمسيحيين . ومن ماردة التي كان يقيم بها موسى ، أرسل ابنه عبد العزيز إلى مملكة بلنسية حيث حارب أهل أوركَيلا (100) وبلنسية وأليكانط ودانية ، فهزمهم جميعا ، واستسلمت له المدن شريطة أن يقيم بها من يرغب في ذلك من المسيحين . وتوسل إليه البلنسيون أن يترك لهم جميعا كنيسة سان برتيلمي التي كانت تدعى قبل ذلك معهد سان بازيل ، لكن سائر المعابد حولت إلى مساجد ، باستثناء المعبد الواقع في الساحة التي عذب فيها سان فنسان ، الذي استعمل بعد كمستشفى . ومن هناك انطلق العرب منتصرين عبر أقاليم سوكَورب ولاردة وطرشوشة وسرقسطة التي سقطت في أيديهم ، فدمروا بشراسة أجمل ما كان يوجد بها من مبان ، وقتلوا من وجدوا من المسيحين . ومن هناك ساروا إلى طاراكونا فدخلوها عنوة لأن سكانها لم يقبلوا تسليم أنفسهم ، وبعد أن نهبوا كل ما كان فيها خربوا المدينة التي بقيت على هذه الحال إلى أن أعاد بنائها بيرنار مطران طليطلة عام ألف وتسعين بأمر من البابا ايربان الثاني . ولما استولى عبد العزيز على مملكة بلنسية ترك الحرس في كل مكان ، ووجه قواته ضد إشبيلية التي فتحها بعد مقاومة عنيفة من السكان ، ومن هناك دخل إلى الغرب في البرتغال ، واستولى على يورط التي كانت إذ ذاك عاصمة لوزيتانيا . ثم عاد إلى الاستريمادور ففتحها ودخل إلى قشتالة عن طريق مضيق زيبرير ، فوصل إلى مدينة الكامبو ، وفايادوليد وبركَوس ، محتلا جميع الحصون الواقعة في طريقه ومطاردا المسيحين المساكين الذين

(98) من فيزة ونيبيلة .
(99) وهو اللانكدوك أو الاكيتين مع بعض الحصون التي لم تكن بها .
(100) أوريولا قديما .

كانوا يفرون إلى الجبال والصخور الوعرة ، لأنه عندما لم يعد لهم رئيس أخذ كل واحد يفكر في خلاصه الشخصي ، سواء بالمسالمة أو بالفرار . وكان جلهم يلجؤون إلى هذه الوسائل بإقناع من أولياس ومن الكونط يوليان وابني غيطشة وغيرهم من الخونة الذين كانوا يقودون العرب ويوهمون الناس بأنهم سيعودون عما قريب إلى إفرقيا ويتركون التاج ألى ورثة الملك الشرعيين .

والحاصل أنهم تصرفوا بكيفية جعلت العرب يُخضعون في ظرف أربعة عشر شهراً معظم إسبانيا، وذلك بقدر من الهيجان لم يعرف مثله قط لا للرومان ولا للقوط ولا لأية أمة أخرى، لأنهم استأصلوا جنسهم وملكهم . يقول عبد الملك إن هذه الجيوش الأربعة انتصرت في ثلاثين معركة بأراض مكشوفة، وانتشرت أنباء هذه الانتصارات في إفرقيا فجذبت إلى إسبانيا عددا وافرا من العرب والبربر حتى إنهم ملؤوا جميع المدن والقرى . وبما أنهم لم يأتوا ليحاربوا بل ليعمروا، فقد صحبوا معهم زوجاتهم وأولادهم . وفي ثورة بهذا الحجم من الضخامة حدث تغيير في الأخلاق والعادات واللهجات، وضاعت أسماءالمدن والجبال والأنهار والسهول، وذهب الكثير من المسيحيين إلى فرنسا وإيطاليا وانكلترا واليونان يطلبون النجدة من الأمراء المسيحيين، والتجأ عدد كبير من أشرافهم إلى جبال البرانس التي يبدوا أن الطبيعة جعلتها كسور لاسبانيا من جهة الشمال . وفعلا فقد أتاها خلاصها من هذا المكان، لأن الذين انزووا فيه لم يكتفوا بالصمود ضد العرب، لكنهم بدأوا ينتشرون من هناك وينتصرون عليهم . فهنالك احتُفظ بالايمان وباللغة القوطية القديمة التي يقول بعضهم إنها لغة أرمينية فاسدة . ومن جهة أخرى فإن هذين الخائنين منيوزا ومنيوز اللذين انضما إلى العرب بعدد كبير من الرجال، وهما يعرفان البلاد، جعلا يضطهدان بشراسة من كانوا يفرون من وجه العرب ويلتجؤون إلى الجبال والأماكن الوعرة في أستوريا، وألابة، وكَيبوسكوا والبرانس . وقد أخضع منيوز كل البلاد الواقعة في سفح هذه المرتفعات من سالسي إلى وادي أرانة، مع اللامبوردان، والبوسرداَن، والروسيون، وأودية كَوبيان، وفييلس، وارتكب فيها أعمالا وحشية فظيعة . ولم يتعد هذه الأماكن، لأن النصارى دافعوا عن أنفسهم في الخوانق وبعض القصور القديمة الخربة التي رمموها، فضلا عن المعالق التي شيدوها من جديد في بلاد سوبارب، وأيوسة، وقشتالة، وليون، وغيرها من الأماكن، حيث انتخبوا من بعد كَارسي راميريز ملكا لهم .

وفيما وراء جبال البرانس قرب المحيط (101) حيث توجد أودية سالازار ورونسفو وسان يوحنابيي دي بور، لم يحسوا كذلك بشدة العرب لوعورة الصخور التي صمدت أيضا في وجه طموح الرومان، ودخل منيوزا بجيش آخر إلى كاليسيا، والأستوريا، وأفييلو، وسانتيان، وبسكاي، حيث قام أيضا بأعمال إتلاف جسيمة في السهول والأودية، لكن الجبال سلمت كلها من قهر العرب . فإلى هناك انسحبت قوات إسبانيا وصمدت صمودا كبيرا . وحيث إن هؤلاء القوم لم يكن لهم أمير يسوسهم فقد هيأ الله لهم بيلاج بن فافلة، وهو فارس قوطي كان الملك غيطشة قد أمر بقتله لينكح امرأته التي كانت فائقة الجمال، فخشي بيلاج أن يصيبه سوء، والتجأ إلى مدينة كانطابُري (102) التي هي الآن خربة، حيث عَاشَ مع أخته الحسناء عندما انتصر العرب في المعركة، إلا أنه لما شاهد شدتهم في تخريب مملكة القوط ومحو اسمهم، وظن أنه غير آمن في ذلك المكان، ذهب إلى شيشون (103) التي كان منيوزا واليا عليها . وبالرغم على أن هذا الخائن ضد رأي الجميع انضم إلى العرب وسلم لهم البلاد، فإنه مكث معه بضعة أيام أصبح خلالها منيوزا عاشقـــا لأخت بيلاج، فأرسله إلى قرطبة للتفاوض مع العرب حتى يستمتع بها في غيابه، وكذلك فعل واعدا أن يتزوج بها . وبما أنه لم يف بوعده وكان يستهزىء بها فإنها شكت ذلك إلى أخيها بعد أيام، فالتجأ مَعها إلى الصخور تجنبا لما هو أسوأ . فاغتاظ عاشقها من ذلك إلى درجة أنه أوهم طارقا بأنه يجند الجنود ضده وأنه لابد من التخلص منه . وعملا بهذا الرأي أرسل طارق جندا من المتطوعين ليقضوا عليه، لكن عند وصولهم إلى بريتيد حيث كان بيلاج مقيما، رق لحاله أحد المسيحيين من الجند فنبهه، ففر مسرعا وعبر نهر بيوني الذي كان في غاية المد وحال دون مطاردته ممن كانوا يتبعونه، فدخل وهو حزين جدا إلى وادي كانكَاس، وشاء الله أن يلتقي بعدد من نبلاء أستوريا، وبيسكاي، وجيرانهم الذين وفدوا بتفويض من قومهم ليخضعوا إلى سيطرة العرب . ولما علم بسبب سفرهم عاتبهم بحدة وألقى عليهم خطابا من هذا القبيل جاء فيه (104) : «إنه من

---

(101) أي في سفح الجبال التي يمرون بها .
(102) قرب لوكَروني .
(103) أو كَيشون .
(104) ليس من المناسب أن يسرد خطاب في ملخص تاريخ ، ولهذا فإنني لم أذكر منه سوى اللب .

الخطير جدا التفاوض مع هؤلاء المسلمين(104م) الذين دنسوا المعابد واعتدوا على أقدس الأشياء، إنهم يلقنون الأطفال دينهم ويضطهدون الناس لارغامهم على اعتناقه. فعار على قوم صمدوا في وجه المسيطرين على العالم كله ودافعوا عن أنفسهم ضد القوط والرومان أن يخضعوا لنير العرب ، فالبنسبة إليهم لم يهزموا مع الآخرين وما زالت قواتهم كاملة، فَلأَنْ يعانوا الموت خير لهم من أن يخضعوا الى قساوتهم واذا كان أضعف الحيوانات تتعرض للموت لانقاذ صغارها، فماذا عسى أن يفعل أناس شجعان في مثل هذه المناسبة ؟ وبما أن نساء المسيحيين الأولين وأطفالهم ضحوا في سبيل دينهم، فمن العار عليهم أن يخونوا هذا الدين لتسليم أنفسهم إلى سلطة البرابرة . فلا ينبغي الاطمئنان إلى وعودهم، وبالاحرى وعود الذين تنكّروا لايمانهم وسلموا وطنهم إلى المسلمين . لَأَنْ يموتوا بكرامة خيرٌ لهم من أن يتحملوا كل ما عاناه الآخرون على حساب ما عاهدوا به، وإن الكثرة لا تغني شيئا في المكان الذي هم فيه إذ يمكن الدفاع بقليل من الرجال ضد قوات كبيرة، وإنهم قد اعتادوا العمل والشقاء، وإن العديد من المسيحيين سيسارعون إليهم بمجرد ما يرون أنهم يقاومون ، فوراءهم فرنسا أمّ شبيبة شجاعة لن تطيق تحمل أعداء خشنين كهؤلاء على أبوابها لمدة طويلة، وسيكون الله في عونهم إذا دعوه لانقاذهم، وسيعطيهم القوة الكافية للصمود».

بهذه العبارات وأمثالها أذكى بيلاج حماسهم، حتى إنهم رجعوا إلى بلادهم دون أن يتقدموا أكثر ولا أن يقوموا بمهمتهم، فاستدعوا هناك القبائل وأخبرهم أنهم لقوا شخصا كبيرا قديسا صرفهم عن الخطأ الذي كانوا على وشك ارتكابه . فانتخبه أهل بيسكاي واستوريا رئيسا عسكريا (105)، وصعد لحينه إلى جبل أوزيب حيث جعلوا يحاربون بانتظام أكثر من ذي قبل . ولما انتشرت هذه الأخبار انضم إليه كل الذين أمكنهم الانفصال عن العرب، وظل الذين لم يستطيعوا ذلك ينتظرون الفرصة . وقد أطلق عليه العرب سخريةً لقبَ ملك الجبال . ولم يطق طارق تحمل هذا العار فسرح له جيشا قويا بقيادة إبراهيم بن علقمة بصحبة أسقف إشبيلية وحاكم شيشون (106). ولما رأى بيلاج أنه أضعف من خصمة وضع

(104م) عبر عنهم – كعادته – بالكفار .

(105) عـام 717 .

(106) وهما أولباس ابن الملك ايجيته ومنيوسة .

معظم رجاله في كمين في الجبال، وأقام هو مع ألف من الرجال الأكثر خفة في السلاح معسكراً في الدروب ليحمي منافذها .

واختار لهذا الغرض كهفا كبيرا (107) يصعب الصعود اليه يوجد في فوهة أستوريات أوفييدو، فحاصره العرب هناك . وحاول أسقف إشبيلية أن يقنعه بتسليم نفسه بدعوى أن القوط لم يستطيعوا المقاومة بكل فرسانهم، واعداً إياه بجميع أنواع المعاملة الحسنة في هذه الحالة . لكن بيلاج غضب من هذا الكلام ورده ردا قبيحاً، فرجع الاسقف ساخطا ونصح رجاله بالهجوم على الكهف . يقول البطريق دوم رودريك إن الله حقق ذلك اليوم معجزات لصالح المسيحيين، وأعانهم في محاربة أعدائهم الذين كانت الأحجار والنبال والسهام تتحول ضدهم، حتى إن بعضهم أقام في مكانه لم يبرحه ونجا الباقي منهم فرارا. وبعد أن حمد بيلاج الله على مثل هذه الاغاثة الغير المتوقعة، طارد فجأة الأعداء وأجلاهم عن هذه الجبال . وفقد العرب عشرين ألف رجل بينما لم يقتل ولو مسيحي واحد ! ولجأ الذين خلصوا من المعركة إلى جبل يقال إنه ذاب تحتهم فعرقوا جميعا في نهر يْوان المار بسفحه (108) وأخد الخائنان أولباس ومنيوزة اللذان لم يستطيعا تسلق الجبال وقتل هذا الاخير، أما الأول فلم يعرف مصيره ولم يذكره بعد المؤرخون

ولما علم موسى بذلك ظن أن المسيحيين المنضمين إلى فئته قد دبروا المؤامرة ضد العرب، فضرب عنق الكونط يوليان وابني غيطشة جزاء خيانتهم ، لكن ذلك تسبَّب في أن النبلاء المتحالفين مع العرب أو جسوا منهم خيفة وانضموا إلى استوريا، وتبعهم في ذلك كثيرون، والذين لم يكونوا من قبل آمنين في الجبال خرجوا ناشرين البنود لمهاجمة العرب في السهول، وانتصروا عليهم في عدة اشتباكات، واسترجعوا منهم مدن ليون، ورويدة، ومانسيلا، وكاكا، وسائر مراكز المنطقة . غير أن الوليد لم يكن عاطلا في آسيا، فأرسل لدعم انتصارات طارق وموسى ثلاثة جيوش قوية في المملكة بقيادة ثلاثة رؤساء شجعان هم مروان، والعباس، والمختار، فجاسوا

---

(107) كهف أنيا أوسانت مارى .

(108) في مكان يدعى أولاكلياص .

ولم نر فائدة في التعليق على تحامل مارمول على العرب والمسلمين وإغراقه في التحيز للمسيحيين حتى بحشد الأوهام والخرافات .(مترجم) .

خلال ديار رومانيا وسيليسيا، واستولوا على عدد كبير من المــــدن والحصون، ثم عادوا إلى دمشق محملين بالغنائم بعد ما هزموا حاكم أرمينيا (109) . ولم يقف الوليد عند هذا الحد، بل جهز ثانيا جيشا أقوى مما سبق ليقيم الحصار أمام القسطنطينية، ولم يقبل إطلاقا الهدنة التي طلبها منه أنسطار الثاني وخلفه تيودور الثالث .

وفي هذه الاثناء شبت الفتنة بإسبانيا بين القائدين، إذ أساء موسى معاملة طارق إلى أن ضربه ــ على ما قيل ــ ، الامر من أجله عاد طارق إلى دمشق بصحبة رفيقين له هما ماجيطار وتدمير، واتهم موسى أمام الخليفة باختلاس المال وغير ذلك من الجرائم . وقاد موسى من جهته نصف جيش إسبانيا تاركا النصف الآخر لابنه عبد العزيز، وعبر إلى بلاد البربر ليرجع إلى الطاعة بعض الأفارقة الثائرين، لكنه توصل أثناء سيره بأمر من الخليفة بالعودة إلى دمشق . فحث السير ودخل إلى نوميديــــا حيث قام بأعمال قاسية ضد المغلوبين، وبعد أن دخل بلاد السود رجع إلى القيروان من الجانب الشرقي لليبيا محملا بالغنائم، ثم أخذ طريق دمشق حاملا معه جميع ذخائره . وعندما وصل إلى الاسكندرية أرسل إليه سليمان أخو الخليفة يأمره بألا يسرع، لأن الوليد محتضر، وربما استولوا على ذخائره، فلم يعبأ موسى بذلك ووصل قبل موت الوليد بخمسة أيام، فغضب سليمان وعزله عن حكم إسبانيا في خلافته، كما سنذكره في محله . ومات الوليد عام 718، بينما كان ليون إيزور (110) امبراطورا بالقسطنطينية . لكن المؤلفين العرب ــ كما أسلفنا ــ غير متفقين مــــع مؤرخينا، إذ يجعلون تاريخ فتح إسبانيا عام اثنين وسبعمائة ، والآخرون يجعلونه عام اثني عشر وسبعمائة .

---

(109) وهو أباسيوس .

(110) مات الوليد في منتصف جمادى الآخرة 96هـ / فبراير 715م . أما الامبراطور ليون ايزوريان فلم يستلم الحكم إلا سنة 717 ، وظل امبراطورا الى سنة 741م . (مترجم) .

الفصل الحادي عشر

في سليمان (الحفصي) (111) تاسع الخلفاء وما وقع في خلافته من أحداث تستحق الذكر

تولى سليمان (الحفصي) خلافة العرب عام ثمانية عشر وسبعمائة، ولم يحكم سوى ثلاث سنوات، وسار على نهج أخيه الرامي إلى مهاجمة القسطنطنية، فجهز أسطولا حربيا بكل ماكان يحتاج اليه للقيام بهذه المهمة . ولما وصلت هذه الأخبار إلى الامبراطور استعد للمقاومة وأمر السكان بادخار قوت ثلاث سنوات، وبخروج من لم تتوفر لديهم الوسائل لذلك من المدينة مع ذويهم . ثم أمر بتجهيز عدة مراكب في الميناء، وادخر كمية من النيران الصناعية (الاغرقية) وغيرها من الآت الحرب في انتظار مجيء العرب . وفي هذه الأثناء غضب سليمان على موسى – كما أسلفنا – وعزله عن ولاية إفرقيا وإسبانيا، وأرسل مكانه يزيد (112) وبقي موسى منكوبا إلى أن مات غيظاً .

وبعد أن استولى سليمان على أباسيا وليسيا وإيبيريا أمر مروان بن محمد (113) بالدخول إلى طراس بجيش قوي ومحاصرة القسطنطينية برا، بينما يهاجمها هو بحرا . فامتثل مروان ودخل إلى طراس وهو ينهب ويكتسح كل شيء إلى أن عسكر أمام المدينة، وأمر بحفر خندق من بحر إلى آخر محصن بسور متين يمنع كل خروج من المدينة، وخيم منتظرا سليمان الذي كان قادما بألف وخمسمائة سفينة، بعضها محمل بالآت الحرب، فكان البحر مغطى بها من مانيافي إلى سيكلوبيوم (114) حتى إنهم أوقعوا الرغب في الامبراطور والسكان الذين رأوا أنفسهم محاصرين بحرا وبرا وقد سدت أبواب النجدة في وجوههم . لكن ثارت زوبعة خطيرة أرغمت الجيش

(111) لا معنى لكلمة (الحفصي) هنا ، فنسب سليمان بن عبد الملك بن مروان صريح في بني أمية . (مترجم) .

(112) بل محمد بن يزيد مولى قريش أو مولى الأنصار هو الذي حل محل عبد الله بن موسى بن نصير في القيروان عام 97 ، واستمر واليا على افريقيا والاندلس الى وفاة سليمان بن عبد الملك . (مترجم) .

(113) بل أمير الحملة على القسطنطينية هو سلمة بن عبد الملك بن مروان ، أخو الخليفة . (مترجم)

(114) بضواحي القسطنطينية .

البحري على الارساء في شواطئ طراس ، ولما كانت السفن الكبرى لا تستطيع أن تحمي نفسها فقد أرسل الامبراطور في الحين مراكبه ضدها محملة بالنيران الاغريقية فأحرق جلها وأغرق ، وتحطم الباقي قرب أسوار القسطنطينية ، ومات سليمان أسفا على هذه الخسارة (115) ورغم قيام بعض الخلاف بين العرب لتعيين خلف له ، فإنهم لم يبرحوا أن عينوا عمر حتى لا ينقطع الحصار .

(115) لم يقد سليمان بن عبد الملك الحملة البحرية بنفسه ولا مات أسفا على فشلها ، ولا اختير عبد العزيز من أجل متابعة الحصار . (مترجم)

الفصل الثاني عشـــر

في عمـر الثـانـي اسما ، عاشـر الخلفــاء
وما حدث في أيامــه مما يستحـق الذكــــر

بعد موت سليمان خلفه ابن عمه عمر بن (عبد العزيز)(116) حفيد عبد الملك ، في أوائل سنة إحدى وعشرين وسبعمائة (117) بينما كان الحصار أمام القسطنطينة . ولقب أسد الله . وعين أهل الشام مكانه يزيد أخاه البكر (118) إلا أن هذا الاخير خشي أن يثور الجيش فبعث لحينه إلى عمر يبايعه ، وقام عمر من جهته بأسرع ما يتصور من الاجراءات لجمع المراكب في مصر وإفرقيا وأوربا ، وحشد الجنود والمؤن والعدد وغيرها من الأشياء اللازمة للحصار الذي تابعة مروان بصعوبة كبيرة طوال فصل الشتاء كله . ذلك أنه سقطت الأمطار والثلوج بغزارة فهلك عدد كثير من الناس والدواب . وعند قدوم فصل الربيع جاء الضحاك بن سفيان بن عروف (؟) بأربعمائة سفينة من مصر . غير أنه لما وصل قرب القسطنطينية وأخذ ينزل من الزوارق والقوارب المؤن والعدد لحملها إلى الجيش البري ، واغتنم الاسرى المسيحيون هذه الفرصة للذهاب الى المدينة وإخبار الامبراطور بأن الجيش البحري لم يجرؤ على الدنو من مانيافيا خوفا من النيران الاغريقية وأنه أرسى بميناء كرطان . وفي غداة الغد ذهب الامبراطور مبكرا لمهاجمته بالنيران الاغريقية ، ولم يرجع إلا وقد أحرق أو شتت قسما كبيرا منه . ومن جهة أخرى فإن مروان عندما أرسل جزءا من الجيش إلى نيسي ونكوميدي لاجتلاب الميرة انقض عليهم بغتة أمراء بلغاريا وطراس الذين كانوا قد لجؤوا إلى الجبال مع رعاياهم ، وقتلوا منهم نحو ثلاثين ألف رجل . ورغم كل هذه الخسائر تابع مروان الحصار بشجاعة كبيرة إلى أن حضر يزيد بأسطول مؤلف من ثلاثمائة وستين سفينة جمعها في إفرقيا ، لكنه خشي أن يحرق أسطوله إذا اقترب من القسطنطينة ، فمر

(116) في الأصل عمر بن معاذ ، وقد أصلحنا ليستقيم السياق . (مترجم)

(117) بل بويع عمر بن عبد العزيز يوم مات سليمان في 20 صفر 99هـ / 2 أكتوبر 717م . (مترجم)

(118) لا يعرف هذا تاريخيا .(مترجم)

بالقرب من شواطئ بيتيني واجتاح البلاد كلها بعد أن نزل رجاله إلى البر ، واضطر أخيرا إلى الانسحاب بعدما هزمته جنود الاقليم التي تجمعت لمقاومته . وفي هذه الاثناء كانت القسطنطينية ، تُقْذَف بجميع الاختراعات والآلات التي اخترعها الانسان للاستيلاء على المدن ، لكن المحاصَرين كانوا يدافعون عن أنفسهم بأكثر من ذلك ، وتمكن الأسطول الامبراطوري بواسطة النيران الاغريقية من الاستيلاء على الخليج وتمكين الزوارق الحاملة للمؤن من المرور إلى القسطنطينية . ولم تكن الحالة كذلك في المحلة ، إذ كانوا مضطرين إلى أكل الخيل والجمال بسبب افتقاد المؤن ، وحتى الموتى ــ حسب قول بعضهم ــ والبراز الذي كان تذرى عليه النخالة أو الدقيق . وانتهت الطامة بظهور الطاعون في الجيش فأتلف ثلثه ولم تسلم منه القسطنطينية ، إذ هلك به فيها ما يفوق مائة ألف نسمة . وعندما أخبر عمر بهذه الرزايا عزاها إلى غضب الله وأمر مروان برفع الحصار ، لكن هذا الأخير ما كاد يخرج من قناة القسطنطينية حتى أغرقت زوبعة رهيبة معظم سفنه وأحرقت نار السماء جزءا آخر منها ، فكان البحر يشاهد وهو يغلي فيذوب قار البواخر ، حتى لم ينجح من ثلاثة آلاف مركب إلا خمسة عشر أسر منها المسيحيون خمسة ، وذهب الباقي ليحمل إلى الخليفة عمر نبأ الكارثة .

ولما تخلص الامبراطور من هذا الخطر حمد الله على المعجزات الظاهرة للعيان التي أنعم بها عليه ، لكن عمر الذي عزا غضب الله إلى سماحه للمسيحين بالقيام بأشياء مخالفة للدين المحمدي ، ألزم كل من كان أبوه أو أمه مسلما بأن يعتنق الاسلام فورا وإلا قُتل ، وأمر بألا يسمح لأحد بأكل لحم الخنزير أو عصر الخمر أو شربه في مملكته بأسرها . وأعفى بهذه البراءة من جميع أنواع الاتاوات والخراج المسيحيين الذين يعتنقون الاسلام ، وأثقل كاهل الآخرين . كما أمر ألا يقبل حلف المسيحيين إذا كانت لهم قضايا مع المسلمين ، و(وسوس له الشيطان) فطلب من الامبراطور (119) أن يعتنق الاسلام وأرسل إليه أحد الاسلاميين ليلقنه إياه (120) .

---

(119) ليـون (ايزوريان) .

(120) من أعظم حسنات عمر بن عبد العزيز رفعه الجزية عمن أسلم من أهل الذمة ، وقد أضر ذلك كثيرا بدخل بيت المال ، وضج الولاة بالشكوى ، وكتب إليه أحدهم مستأذنا في أن يفرضها على من أسلم لكثرة الداخلين في الاسلام ، فأجابه عمر برسالته المشهورة : « فضع الجزية عمن أسلم ، قبح الله رأيك ، فإن الله إنما بعث محمدا صلى الله عليه وسلم هاديا ، ولم يبعثه جابيا ، ولعمري لعمرُ أشقى من أن يدخل الناس كلهم في الاسلام على يديه » . فأين هذا مما يدعيه من إرغام المسيحيين على اعتناق الاسلام وتهديدهم بالموت ؟! (مترجم)

ثم إن عبد العزيز بن موسى (بن نصير) الذي تركه أبوه بإسبانيا ليخلفه أثناء غيابه ، ذهب ليقيم بإشبيلية التي أطلق عليها اسم مدينة حمص بسبب تشابه تجارتها وميناثها بمدينة الشام التي تحمل نفس الاسم . ولما علم بموت أبيه كتب إلى أحبابه وأنصاره بإفرقيا أن يلحقوا به ووعدهم بأنه سيعطيهم المال والتُّراث ، فجلب ذلك إلى إسبانيا قوات كبيرة تمكن بواسطتها من أن يُعترف به في كل مكان . وبذل كل ما ما استطاع من جهد لطرد المسيحيين من البلاد ، وتزوج — حسب قول بعضهم —(121) أرملة الملك رودريق، وكانت امرأة افريقية جميلة نبيلة(122) . وهي التي أوصته بأن يُدعى ملكا ووضعت على رأسه تاجا من ذهب عندما كانا منفردين في غرفتهما ، متوهمة إياه أن ذلك يليق به كثيرا ، ويقال أيضا إنها هي التي أمرت باتخاذ باب المشور الذي كانوا يدخلون منه للتحدث إليه منخفضا كثيرا ليكونوا مضطرين إلى الانحاء إلى الارض تعبيرا عن احترامه الكبير . وحدث أن رآه عربيان (123) من الأشراف وعلى رأسه التاج ، فكرها ذلك الحلي الذي يحرمه الاسلام وطعناه بخنجر في أحد المساجد وهو يصلي ، ثم فعلا مثل ذلك بزوجته ، وعيَّنا مكانه أيوب بن حبيب (اللخمي) الذي لم يحكم سوى ستة أشهر ، وخلفه الحر بن عبد الرحمان (الثقفي) الذي حكم عامين اثنين . وعندما قويت شوكة بيلاج استرجع من أيدي العرب عدة حصون سواء بالقوة أو بالحيلة . وبانضمام الفونسو ابن دوم بيدري ، دوق بسكاي وقريب الملك رودريق بالزواج من ابنته(124) انتصرا معا على العرب في عدة معارك . ومات الخليفة عمر في بداية السنة بعدما حكم عامين اثنين ، وخلفه أخوه يزيد(125) .

(122) وهي إيجيلون أوفيلينت .
(123) السيد وحبيب (؟)
(124) أوريفيند
(125) ليس يزيد بن عبد الملك أخا لعمر بن عبد العزيز وإنما هو ابن عمه . (مترجم) .

الفصل الثالث عشر

في يزيد الثاني اسما، حادي عشر الخلفاء وما وقع من أحداث تستحق الذكر في خلافته

وتولى الحكم يزيد الثاني اسما عام ثلاثة وعشرين وسبعمائة، ولم يدم حكمه إلا ثلاث سنوات ونصفا. وفي العام الأول من خلافته بويع يزيد آخر (126) في بلاد فارس، وزحف إلى دمشق بجيش عرمرم. لكن الخليفة الحقيقي أرسل لاعتراضه جيشا أقوى بقيادة مروان (127) الذي هزمه وقتله ثم أعاد بلاد فارس إلى طاعة يزيد (بن عبد الملك) ومكنه بذلك من ناصية الامبراطورية العربية كلها. وفي العام الثاني أغراه أحد يهود فينقيا بأن يأمر بنزع جميع التماثيل من معابد المسيحيين، لكن معظم المدن امتنعت عن ذلك فمات دون أن ينفذ هذا الأمر، غير أن الأمبراطور ليون باغراء من ذلك الاسلامي الذي تحدثنا عنه (128) اعتنق هذه البدعة التي تسببت في أضرار كبيرة للمسيحية جمعاء. ذلك أن الامبراطور تصلب في رأيه بضرورة تحطيم التماثل، بينما عارضه بشدة البابا كَريكَوار الثالث قائلا: إنه ليس له أي حق في التدخل في شؤون العقيدة ولا في في خرق عادات الكنيسة التي أقرها البابوات، ولما لم يتمكن من صرف الامبراطور عن خطئه، أعلن البابا حرمانه ومروقه، وأوقف في إيطاليا جميع موارد الامبراطورية.

وفي عام أربعة وعشرين وسبعمائة زحف إبراهيم بن عبد الملك (129) الذي خلف الحر في ولاية إسبانيا بجيش قوي ضد بيلاج الذي جعل كرسي إمارته في مملكة ليون، فحاربه قرب دالهِيُور وقتل بها مع معظم رجاله، وإن كان ابن راشد

(126) أي المهلب بن أبي صفرة (كذا). والصواب: يزيد بن المهلب (مترجم).

(127) بل بقيادة مسلمة بن عبد الملك أخي الخليفة. (مترجم).

(128) بيكَيت.

(129) الذي خلف الحر بن عبد الرحمان الثقفي هو السمح بن مالك الخولاني، ولم يتول إمارة الأندلس قط أي أموي قبل عبد الرحمان الداخل. انظر أحمد المقري، نفح الطيب، 1 : 299. (مترجم).

يقول بأنه قُتل بطرطوشة . فاختار أهل قرطبة فورا ملكا عليهم عبد الرحمان بن عبد الله (الغافقي) الذي لم يدم حكمه سوى تسعة عسر شهرا . وفي هذه الفترة هزم كل من بيلاج وصهره ألفونسو العرب في عدة معارك ، واسترجعا عدة حصون عمراها وحصناها . وأخيرا مات يزيد عام سبعة وعشرين وسبعمائة في شهر فبراير (130) وخلفه ابنه الوليد الثاني (131) .

(130) مات يزيد بن عبد الملك يوم 25 شعبان عام 105 /28 يناير سنة 724م . (مترجم) .

(131) قفز مرمول على ملك هشام بن عبد الملك الذي خلف يزيد بن عبد الملك ، ودام حكمه من عام 105 الى عام 120هـ /724 – 743 ، وسيذكر في الفصل 16 هشام بن يزيد – خطأ – مكان إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك ! (مترجم) .

الفصل الرابع عشر

في الوليد الثاني اسما ، ثاني عشر الخلفاء
وما وقع في خلافته من أحداث تستحق الذكر

بعدما شارك الوليد في الامبراطورية عمه حسن (؟) لصغر سنه ، دامت خلافته تسعة عشر عاما . ولما كان مسالما أكثر منه محاربا ، فإنه شيد في السنوات الأولى من حكمه مساجد وقصورا فاخرة في دمشق وغيرها من المدن الكبرى ، كما غرس عدة بساتين وجلب إليها الماء بواسطة قنوات لتزيين المدن وسقي الحدائق . غير أن القواد العسكريين لم يبرحوا يحاربون ، وهكذا فقد استولى مروان (132) على مدينة قيصرية بعد توغله في الكابادوس (133) . وفي نفس الوقت حدث شيء غريب في شاطئ آسيا حيث شوهدت الأرض تحترق من قاع البحر ، وخرج منه شبه سيل من اللهب والدخان قذف إلى السماء بأحجار الجبال والصخور لشدة يبسها من كثرة الاحتراق ، حتى كانت تطفو على سطح الماء . ويضيفون أنها كانت كثيرة جدا لدرجة أنها غطت الجبال (134) وتكونت منها جزيرة . واغتنم الوليد وجود الحروب الأهلية لمحاربة الامبراطورية ، فأرسل ابن عمار ومعاوية على رأس جيش يتألف من تسعين ألف رجل لمهاجمة مدينة نيسي في بيتينيا ، لكن المسيحين صمدوا بشجاعة حتى إنهما اضطرا إلى التراجع بخسارة في جنودهما وسمعتهما ، ولو أنهما استوليا على مدينة طي التي كانت قوية ونهبا جميع الأماكن غير المحروسة ، ثم عادا إلى الشام.

وبعد ذلك شن كفان أمير كازاري ابن ملك البلغار الحرب ضد العرب في جهة أرمينيا ، فغلب وقتل كَرداك والي هذا الاقليم وإقليم ميدي وأخضعهما معا إلى

(132) بل أسد بن عبد الله القسري عامل على خراسان . (مترجم) .
(133) عــام 729 .
(134) في ليسبوس وأبيدي وآسيا الصغرى وما سيدونيا .

الامبراطورية الرومانية (135) . ومن جهة أخرى أبرم مروان الهدنة مع كايان ، وقاد جيشا قويا ضد أتراك جبل القوقاز (136) الذين يقطنون في أماكن منيعة قرب أبواب (الكاسبيان) ، فكانت له معهم معركة دامت يوما كاملا هلك فيه العديد من الرجال من كلا الفرقين دون أن يتم النصر لأحدهما . وبما أنه كان محبا للحرب فقد وجه سلاحه من هناك ضد الامبراطورية الرومانية ، فذخل الكابادوس ، واستولى على قلعة كُرفيان بسبب خيانة بعض المسيحين المزيفين الذين سلموا له القلعة . وعاد في السنة الموالية لمحاربة الأتراك بجيش أقوى ، إلا أنه عندما وصل إلى ميدان القتال ظن أن العدو حامل عليه بقوات عظيمة ، فانسحب دون أن يقوم بأي شيء .

هذا وكان الغلب في اسبانيا لبيلاج وألفونسو ، وكذا للنافاريين والتيراكَونيين ، وذلك بعد أن انتخبوا ملكا لهم كَارسي راميريز في سان يوحنا بيي دي بورط . وأخيرا مات بيلاج عام اثنين وثلاثين وسبعمائة بعد أن حكم أربعة عشر عاما ، وإن كان مطران طليطلة قد زاد سنتين في مدة هذا الحكم ، وتوفي هو الآخر بعد ذلك بمدة ، وخلف بيلاج ابنُه فافيلا (137) فلم يبق في الحكم غير عامين حتى قتله دب أثناء الصيد . واتخذ هؤلاءالأمراء مدينة ليون كقاعدة لملكهم ، واختاروا كشعار (138) لهم أسدا في مجال من فضة ، لا ليكونوا ملوكا لهذا المجال ولكن لأنهم حاربوا كالأسود دفاعا عن وطنهم .

فــرنســا

وفي أثناء حكم فافيلا ، وبينما كان عبد الرحمان (الغافقي) واليا بإسبانيا ، دخل العرب إلى فرنسا بجيش قوي من جانب اللانكَدوك ، وهذا ما يدعونا إلى التحدث عن هذه البلاد وأصل الفرنسيين . كانت بلاد الغال (أو الكَول) التي نسميها الآن فرنسا تحت حكم الألمان ، وهم شعب محب للحرب أتى من الفرانكوني . ذلك أنه في عام أربعمائة تقريبا خصص لهم البطريق الروماني أييتيوس الذي كان واليا على بلاد الغال ، كمنطقة لسكناهم حارة السكوانيين الواقعة قرب

---

(135) عـام 730 .

(136) وهم الاودين والطوطاسيون و الوثنيون .

(137) في كاربكـاس .

(138) في الأصل : كسلاح ، لكن السياق يقتضي الشعار (مترجم) .

ألمانيا (139) وذلك ليستعمل قواتهم ضد الهُون الذين كانوا يجتاحون أوربابقيادة أتِّيلا . وانتشر هؤلاء القوم في مدة وجيزة حتى استولوا على هذه الدولة وطار صيتهم في كل مكان . ومنذ ذلك العهد انهمك أمراؤهم في الملذات فأصبحوا كسالى وفقدوا شهامتهم الأولى ، وتركوا عبء تدبير الشعوب لوزرائهم الذين صار كل شيء تحت سيطرتهم . وأول هؤلاء الوزراء الذي اكتسب شهرة في بلاد الغال ضد الثوار الذين ظهروا في الاقليم بسبب ضعف الملك هو بِيِّبَّان بن أرنولف ، دوق بافيير ، وبعده ابنه الثاني شارل مارتيل (140) الذي كان شجاعا مقداما قويا لدرجة أن الفرنسين كانوا يعتبرونه أميرا لهم . وفي ذلك الوقت فان أُود ، دوق الاكتين والأمير القوطي عندما رأى شارل مارتيل مشتغلا في محاربة الثوار ، اجتاح الحدود حتى أرغم شارل على أن يوجه قواته ضده ، في حين اجتاز العرب جبال البرانس ودخلوا مدينة ناربون عنوة وقاموا فيها بأعمال قاسية ليبثوا الرعب في باقي المدن ، ولما هوجم أُود من طرف عدوين بهذا القدر من القوة ، تواطأ مع العرب بواسطة صهره مونيُوزة أمير سردانية ، وألحق بفرنسا أضرارا كبيرة بفضل قواتهم التي أعاروه إياها . لكن عندما رآى أنهم يحتلون جميع القلاع لأنفسهم دون أن يخبروه بذلك ، وقد استولوا على مدينتي نيم وأفينيون (141) مع كل الأماكن المجاورة عزم على طردهم . فجهز لهذا الغرض جيشين قويين وحاربهم فغلبهم وقتل جلهم . لكن سام (؟) الذي كان يقودهم هرب الى إسبانيا وشكا ذلك إلى عبد الرحمان كما لو أن مونيوزة خدعهم ، فلم يطلب عبد الرحمان مزيدا من الايضاح ، وزحف بجيشه محاصرا في قلعة سردانية ، ففر ليلا لافتقاره إلى الماء ، وعندما توجه إلى جبال البرانس ليعبر إلى الاكيتين فاجأه العرب وضربواعنقه وبعثوا برأسه وبزوجته إلى عبد الرحمان ليكون انتقامهم تاما من الذين خدعوا اسبانيا . ولما تخلص عبد الرحمن من عدو كان في استطاعته أن يغدره من خلف لو اجتاز إلى فرنسا ، حشد ما يُربي على خمسمائة ألف رجل ودخل إلى هذه المملكة ، حيث أخذ بالتقتيل منذ عبوره نهر الرون حتى كان لا يشاهد فيها بعد ذلك بزمن طويل سوى أكداس من العظام . ودخل اليها في السنة الموالية بقوات أكثر . استورد قسما منها من إفريقيا ،

---

(139) حسب رأي بعضهم .

(140) تحت حكم تيودوريث .

(141) ويضيف المؤلف : وكذا جبل تيلوز بكامله .

وفي عزمه السيطرة على فرنسا فحاصر مدينة تولوز وإن كانت حصينة متوفرة على كل ما تحتاج اليه للدفاع . لكنه هاجمها بشدة حتى ملكها ، وأتبعها بوردو فاستولى على كل شيء فيها ودمر حتى المعابد وانتقل من هناك عبر منطقة البيريكور الواقعة في الجانب الآخر من نهر الكَارون ، إلى سانطونج ولانكوموَا وليموزان ، وأتى إلى بواتيي وقد انتصر على أود في معركتين قتل فيهما عددا لايحصى من رجاله . ومن هناك انطلق إلى تور التي احتلها عنوة ودمرها وأحرق كنيسة سان مارتان والقصر الملكي(142) فأفزعت كل هذه الانتصارات أود لدرجة أنه ندم على ما فعل ، وتصالح مع شارل مارتيل ليصمدا جميعا في وجه عدوهما المشترك .

رأى شارل أنه لايمكن مقاومة هذا السيل إلا بقوات كبيرة، فحشد لهذا الغرض جميع قوات فرنسا، واستنجد بالألمان والبوركَينيين، ومع الثقة في رحمة الله شرع في محاربة العدو . ويقال إن الحرب دامت ستة أيام، كانوا يحاربون من الصباح إلى المساء، وإن عبد الرحمان في ليلة اليوم السادس عندما رأى أنه فقد ستين وثلاثمائة وخمسة عشر ألف عربي دون أن يفقد المسيحيون أكثر من ألف وخمسمائة، لم يرد انتظار نصر اليوم السابع ، فترك جميع خيامه منصوبة بما فيها من الذخائر وهرب إلى إسبانيا مع من كان قادرا على اتباعه . لكن النفاريين الذين احتلوا ممر الجبال قتلوه ومن معه . ولما أراد شارل في الغد الرجوع إلى المعركة ولم ير أحدا قادمًا إليه عرف أن العدو قد انسحب، فدخل إلى معسكره ووجد الأموال الطائلة، وقد خلص هذا النصر البلاد من كارثة عظمى، وفرنسا من الفزع والعبودية التي كانت إسبانيا تئن منهما . وبعد موت عبد الرحمان انتُخب خلفًا له عمر بن سعد(143) الذي حكم عامين وثلاثة أشهر، ثم تلاه ابن قاسم الذي لم يحكم سوى شهرين وسبعة أيام، فأيوب لمدة سنتين، فجعفر لمدة ستة أشهر وثلاثة أيام إذ خنقه رجاله . وخلفه محمد(144) الذي لم يحكم سوى شهرين، وتبعه عبد الرحمان الفقيه الذي حكم ثمانية عشر شهرا والذي قتله رجاله غدرا، وخلفه عبد الملك(145) الذي

(142) بل احتل بواتيي لاتور ودمر الكنيسة سان هيليرلاسان مارتان .

(143) جميع أسماء الولاة من عمر بن سعد هذا الى ابن الشيخ ، بل وفي الصفحات التالية كلها خيالية خاطئة ، باستثناء محمد وعبد الملك . وقد خلف عبد الرحمان الغافقي بالتتابع : عنبسة بن سحيم الكلبي ، ثم عذرة بن عبد الله الفهري ، ثم يحيى بن سلمة الكلبي ، ثم عثمان الخثعمي ، ثم حديفة بن الاحوص ، ثم الهيثم بن عدي ، ثم محمد بن عبد الله الاشجعي ، ثم عبد الملك بن قطن الفهري الخ ... انظر أحمد المقري ، **نفح الطيب** ، 299:1 . (مترجم) .

(144) محمد بن عبد الله .

(145) ابن حسن (كذا) . والصواب : ابن قطن (مترجم) .

دام حكمه عامين أحرز المسيحيون خلالهما بعض الانتصارات على العرب واسترجعوا عدة حصون بمناسبة هذه التغيرات . وأخيرا لما مات عبد الملك انتخبوا ملكا عليهم ابن الشيخ، أو أتينيو، الذي أمر فوراً بذبح جميع الذين انتخبوه خوفا من أن يعاملوه بمثل ما عاملوا الآخرين . وكان شجاعا جدا فاستولى على كاليسيا كلها، وأخذ عنوة مدينة بامْبلونة، وملك إقليم نافار كله .

ولما مات أُود استولى شارل مارتيل على جزء من إماراته . لكن ابني الاول هونولْدْ كايْفر شهرا الحرب ضده بإعانة أهل ناربون، فعبرا نهـر الرون واجتاحا كل شيء تاركين عددا كبيرا من المقتلى . ذلك أنهما لما دخلا إلى أقليم ألوبْروج، الذي يسمى الآن دوفيني، خرباه قبل أن يتمكن شارل من حمايته . غير أنهما بمجرد ما علما باقترابه منهما انسحبا، وبعدما أكدا مع أُتينيو العقد الذي أبرمه أبوهما مع عبد الرحمن، سلما له بعض الرهائن واستقدما عددا كبيرا من العرب إلى فرنسا، فلم يدخلوها على الحالة التي كان عليها سلفهم كأناس ملتقطين من مختلف الأعمار، بل كانوا شبيبة مقدامة بقيادة أُتينيو الذي أخذ أولًا مدينة ناربون، ثم مدينة أفينيون التي سلمها لهم الكونط موريس . وعندما كان العرب يجوبون هكذا الاقليم كله وهم منتصرون، أُرسل شارل لمحاربتهم شيلدبْراند (146) ملك لومباردي بجنود مسلحين بأسلحة خفيفة جدا، فحاصرهم في هذا الحصن الأخير ونظرا لموقعه على نهر الرون ولكون أُتينيو حصنه لم يخطر بباله أن الفرنسيين سيقدرون على التمكن منه، وكان يصدهم أحيانا في هجمات شجاعة . وأما شارل الذي لم يكن له إذ ذاك عدو آخر، فإنه وصل إليها بكافة جنوده واستطلع الحصن وقوات العدو، وأعد كل ما كان ضروريا للحملة الأخيرة . قسم محاربيه إلى ثلاث فرق سلم قيادة الاولى إلى ابنه بِّيبَّان (147)، والأخرى إلى شِيلدِبْرَانْد، واحتفظ بالثالثة لنفسه . وهوجم الحصن بشدة من ثلاثة مواقع مختلفة . وكانوا إذ ذاك يستعلمون في الهجوم أبراجا من خشب محمولة على عجلات كبيرة يديرها الذين في داخلها بواسطة طاقات دون أن تمكن مهاجمتهم، ومنها كانوا يقذفون ضد المدافعين عن السور . وعندما كانوا يقتربون من الحصن، ينزلون جسرا على الحائط ويدخلون إليه من هناك، لكن المدافع جعلت كل هذه الحيل باطلة . وقد دافع الأعداء أولا عن

(146) الدوق شيلدبراند ، عم شارل .

(147) ورد في النص اسم شارلمان .

أنفسهم بشجاعة برمي النبال وقذف الأحجار والرماح المشتعلة المطلية بالقار، كانوا يقذفون بها المهاجمين، بينما كان أتينيو يتحرك في كل مكان قائما بمهمة الجندي والقائد معاً، فاتكاً فتكا ذريعا بالمتسلقين . لكن الغلبة كانت للمحاربين الموجودين في أعلى الأبراج، وعندما وقع الاشتباك بالايدي بعد مدّ الجسور، لم يستطع المحاصَرون مقاومة جهودهم . فركب أتينيو مع الاعيان في مراكب كانوا قد أعدوها جاهزة، وفر إلى ناربون حيث كان قد ترك قسما من جنوده، لأنها كانت حصنا قادرا على الدفاع وعلى تلقي الاغاثة من البحر . وبعد أن احتل شارل أفينيون وأسر جميع من كان فيها من العرب، أسرع إلى تلك الجهة وحاصر عدوه في المدينة حتى لايترك لـه الوقت للتحصن بها . ودافع أتينيو عن نفسه فيها جيدا كما فعل في أفينيون، وعندما أخبر شارل بمجيء عمرو (148) من إسبانيا بقوات كبيرة قصده لمحاربته قبل انضمامهما، تاركا ولده حول الحصن مع قسم من الجند . والتقى الجيشان قرب كوليور حيث قتل شارل عمراً بيده وهزم عددا كبيرا من جنده، حتى لم يكد يبقى منهم من يحمل نبأ الهزيمة . عندئذ ترك أتينيو ناربون وركب البحر مع أكثر عدد ممكن من رجاله عائدا إلى قرطاجنة ومنها إلى قرطبة . وكان ذلك عام سبعة وثلاثين وسبعمائة، أو خمسة وثلاثين وسبعمائة – حسب قول بعضهم – في عهد ألفونسو الكاثوليكي، صهر بيلاج، الذي اغتنم هذه الفرصة ليضطهد العرب اضطهادا كبيرا ويسترجع منهم عدة حصون .

آسيا

ولنرجع الآن إلى قضايا آسيا فنقول :

وفي عام تسعة وثلاثين وسبعمائة أرسل الوليد جيشا قويا إلى أقاليم الامبراطورية، فقام بأعمال إتلاف جسمية في طراس، ثم انسحب عندما لم يتمكن من الامدادات . وبعد زمن قليل حرض الامبراطور ليون ضد البابا، وقام بأعمال وحشية في صفوف الكاثوليكيين، ثم أرسل جيشه البحري بقيادة مانيس (149) الذي كان مثله مارقا، فنهب جميع شواطىء طراس، وكاندي وبُوي وكالابْر وصقلية، فارضاً إتاوات ثقلية في كل مكان، ومستصفيا أموال الكنائسيين . ولما رآه الوليد مشتغلا بهذه الحَرب، أدخل سليمان (150) إلى أرمينيا التي كانت تحت

---

(148) هو الذي كان يحكم اسبانيا مكان أتينيوس .

(149) أو مـانيـت .

(150) ابن مـروان .

سيطرة الامبراطور، ولما لم يجد أحداً يقاومه أفرد خمسة عشر ألف رجل بقيادة ابن مالك وأبي عبد الله البطل، فزحفا في اتجاه أكرونيوم، إلا أنهما كانا يسيران بدون نظام، ففاجأهما فرسان الامبراطور وقتلوا الرئيسين ومزقوا الباقي كل ممزق، باستثناء ثمانمائة جندي .

إسبانيا

وبمجرد هزيمة عمرو ثار أحد العرب المسمى المسمسي (؟) بمدينة سرقسطة . وخضع لملك فرنسا ليستفيد من إعانته ، لكن أتينيو بادر بإرسال عبد الرحمان لمحاصرة الحصن، فاستسلم لعدم نجدته بسبب موت شارل . ودام حكم أتينيو هذا ست سنوات، ومات أثناء حصار مدينة طنجة . ولما كان عبد الرحمان قويا في إسبانيا، فإن الخليفة الوليد خشي أن يتمرد عليه، فاستدعاه وأرسل عربيا آخر يسمى عبد الملك ليتولى الحكم مكان أتينيو، فاستولـى عبد الملك بدون قتال على جميع ماكان بأيدي العرب في إسبانيا، ثم عبر إلى إفرقيا وتابع محاصرة طنجة إلى أن تمكن منها، فأسر جل السكان وأخضع عدة حصون كانت خارجة عن طاعة مغاربة إسبانيا . وفي أثناء وجود عبد الملك بإفرقيا انتخب أهل قرطبة ملكا عليهم عباسي (؟) الذي ألحق أضرارا كبيرة بالبلاد وتلقب بأمير المسلمين، فكان ذلك سبب الحرب بين كبار إسبانيا، لأن كل النبلاء شاركوا في هذه الحرب. ولما علم عبد الملك بالنبأ قفل راجعا وحارب عباسي فغلبه وقتله ، وصحب معه عددا كثيرا من الاعراب أتي بهم من إفرقيا فألفوا إسبانيا وبنوا فيها عدة حصون ورمموا أخرى كانت قد خربت . ثم توجه لحصار قرطاجنة التي كانت ما تزال تابعة للمسيحيين، وبعد الاستيلاء عليها أراد أن يعود إلى قرطبة لكنه مات في الطريق . وانتخب العرب مكانه القطران (؟) الذي كان متنسكا جداً، يعظم الأجانب كثيرا وخاصة أهل دمشق . فحنق عليه عرب إسبانيا لذلك وثاروا عليه، لكنه غلبهم قرب طليطلة بسبب وجود عدد كبير من الأجانب في جنده . ولما رأى أن عدد الأهالي أخذ ينقص منذ ذلك الوقت، وأن الأجانب أصبحوا في غاية القوة، قام بطرد أهل دمشق من قرطبة، فذهبوا إلى أفيلا وحشدوا خلقا كثيرا وعادوا لمحاصرته في قلعة قرطبة، وقتلوا بها كل أصحابه وشنقوه في شرفات أحد الأبراج، وعينوا في نفس الوقت أحدهم ملكا اسمه ابن الحاج . ولما علم أبناء القطران بموت أبيهم، وكانوا يومئذ بناربون، جاؤوا بجيش لمحاصرة قرطبة، لكن ابن الحاج ذهب

لملاقاتهم فهزمهم ورجع إلى المدينة فمات بعد سبعة عشر يوما، ودام حكمه ستة أشهر . يقول بعضهم إنه مات تعباً لأنه حارب بشجاعة، ويقول آخرون إنه مات مسموما . وبايع أهل قرطبة مكانه ملكا عليهم عبد السلام بالرغم على أهل دمشق الذين عينوا بدورهم قاسم بن قرار . ومن أجل هذا طلب القرطبيون من الخليفة أن يرسل ملكا إلى اسبانيا، وإلا فسيضيع كل شيء، فأرسل في نفس السنة الزبير بن سالم بقوات كبيرة فقبله القرطبيون ملكا . وهو الذي أصلح بفضل حكمته بين عرب إسبانيا وأدخل جنوده إلى قرطبة، وشريش، والبيرة، وإشبيلية، وجيان، وإلى ثغور الاندلس كلها، ونزع من رعاياه المسيحيين ثلث أموالهم وأعطاها لرجاله، الأمر الذي جعله محبوبا من البعض مرهوبا من الآخرين . وجهز جيشا باسلًا للعبور إلى فرنسا، إلا انه قبل وصوله إلى جبال البرانس انتصر عليه الملك بِيّبّان الذي خلف شارل، وصده ثانيا إلى ما وراء نهر الابرو . وفي نفس الوقت فإن تِوان، وهو قائد عربي آخر كان واليا على قشتالة من طرف الزبير، تنازع مع الملك ألفونسو فهزمه قرب مدينته وقتله هو وجل عرب دمشق الذين كانوا قد تبعوه .
وبعد هذا الانتصار جند هذا الامير جيشا قويا ونزل إلى السهل غازيا جميع البلاد الممتدة بين إسطيلة، وقريون، وبِّيسْويِركَة، ودْوِيرو، ومن هناك دخل إلى البرتغال فاستولى على مدن بورتي، وبراكيس، وفيزيو، ثم ليدِسمة، وسلمانكا، وسامورا، وسيمانكا، وسالدينيا، وميراندا، وسيكوفيا، وأفيلا، وأوسما، وسبولفيدا، ومدن أخرى بقشتالة . ومن ثم توجه إلى نافار، وسار منتصرا إلى جبال البرانس، حيث أرجع المسيحيين إلى الأماكن التي خرجوا منها فرارا من العرب، وقام بتعميرها وتحصينها من جديد . ثم رم الكنائس وزينها وزودها بكل ماهو ضروري للخدمة الدينية . واندهش العرب لهذه الانتصارات لدرجة أن معظمهم ثاروا على الزبير، فاضطر الوليد إلى إرسال عقبة ليحكم مكانه، وقد دام حكم الزبير ثلاث سنين .
لكن عقبة (151) تجبر وطغي فثارت عليه عدة مدن وخاصة منها قرطبة، متبوعة بأخرى في الاندلس . ولما رأى نفسه غير قادر على المواجهة عبر إلى إفرقيا وجاء منها بعدد كبير من العرب والأفارقة أخمد بهم جميع هذه الاضطرابات وأعاد قرطبة إلى طاعته . ومات بعد ذلك بقليل من مرض أصابه . وقبل أن يوفد الخليفة من

(151) لقد شيد أوقة قرب لازة ، بين برفيسكة وبركَوس .

يقوم مقامه بويع مكانه عبد الرحمان الذي كان واليا على لارا . غير أن الوليد سرعان ما أرسل أبابكر بقوات جديدة، لكن ولاة إسبانيا رفضوه وحشدوا جنود قرطبة، وطليطلة، وأراكون ، وبلنسية، وحاربوه فقتل . وصمموا العزم بعد ذلك على التخلص من طاعة خلفاء دمشق . ولما علم الوليد بالخبر جهز جيشا قويا بمصر وآخر بإفريقية، وأرسلهما إلى إسبانيا بقيادة رضوان، وهو قائد كبير تمكن من إخماد هذه الاضطرابات دون إراقة دم، وأرجع القوم إلى ما يجب عليهم من الطاعة .

إفرقيا وإسبانيا

ومات يزيد بالقيروان، وكان قد تولى حكم إفريقيا واشتهر أمره بها منذ خلافة عمر . وتسبب موته في اضطرابات كبيرة في هذا الاقليم، حيث إن أبا الحجاج (152) النائب السابق لعبد الملك أثار القبائل وسيطر على معظم البلاد ، وخاصة موريطانيا الطنجية ، وقاوم الوليد بشجاعة وتلقب بأمير المسلمين ، لكنه لم يستطع الاستيلاء على القيروان حيث كان الحكم فيها بيد بعض أقارب يزيد . وما كاد نبأ ثورة أبي الحجاج ينتشر بإسبانيا حتى ثار فيها شخص يدعى عبد الملك الذي ساعد بعض المسيحين المولّدين وتغلب على رضوان منتحلا لقب ملك وخليفة . إلا أن نفوذه لم يمتد على غير طليطلة وقشتالة وأراكون ، لأن رضوان ثبت في قرطبة وسائر أمصار الأندلس ، ولما لم ير رضوان أملا في الحصول على نجدة من جهة إفريقيا أرسل جميع جنوده إلى الحصون الواقعة على الثغور ، ثم أبحر إلى الاسكندرية ومنها ذهب إلى دمشق على أمل أن يأتي بقوات جديدة . وما إن ذهب حتى حاصر عبد الملك قرطبة فأوفدت لحينها إلى أبي الحجاج تطلب منه النجدة وتعده بالطاعة خوفا من أن تقع تحت سيطرة عبد الملك ، فجمع حينئذ أبو الحجاج جيشاً قويا في بلاد البربر التي كان قد استولى عليها وعبر إلى إسبانيا ، وبعد أن استقبله القوم بقرطبة وبجميع حصون الأندلس الأخرى ، زحف إلى عبد الملك الذي كان قد انسحب إلى طليطلة . وما برح عبد الملك يتقدم نحوه

(152) لعله يقصد يوسف بن عبد الرحمان الفهري ، إلا أن هذا كان اخر ولاة الاندلس قبل مجيء عبد الرحمان الداخل .(مترجم)

بجميع قوات المولدين ويحاربه على ضفاف واديان حيث غلب أبو الحجاج وانزوى إلى قرطبة . وبما أنه فقد عددا كثيرا من الجند فإنه لم يجرؤ على انتظار عدوه بها ، وذهب مرة ثانية إلى جبل طارق حيث كان قد ترك أسطوله ، ومن هناك إلى إفريقيا واعداً في أي مكان مرَّ به أنه سيعود بقوات أكثر عددا . وفي هذه الأثناء تمكن عبد الملك من الدخول إلى قرطبة والحصون المجاورة لها ، حيث قام بأعمال وحشية فظيعة ضد الذين امتنعوا من طاعته . ومن جهة أخرى لم يكد أبو الحجاج يصل إلى بلاد البربر حتى جمع جيشا قويا سلم قيادته لعبد الرحمان الذي استُقبل استقبالا حسنا بمالقه والبيرة ، وزحف نحو قرطبة التي تحصن بها عبد الملك عندما شعر أنه غير قادر على خوض المعركة . لكن عبد الرحمان أرغمه على القتال وقضى عليه ، ثم سار إلى طليطلة فسلمت نفسها عن طواعية ، وجال في جميع الأقاليم وأعادها إلى طاعة أبي الحجاج .

وبينما كانت هذه الأشياء تقع في اسبانيا ، وصل رضوان إلى دمشق وأطلع الخليفة على كل شيء . فارتأى الخليفة البدء باخماد الثورة بإفريقيا ، وجند لذلك جيشين قويين ، أحدهما بحري والآخر بري ، وجعل قيادة الأول المعسكر بالاسكندرية لرضوان والثاني ليوسف ، على أن يسيرا إلى بلاد البربر ، ومن هناك إلى إسبانيا . ولما علم أبو الحجاج بهذا النبأ زحف إلى الجيش الذي كان آتيا من البر ، وأرسل باقي جنوده لحراسة الثغور البحرية ضد الأسطول الوافد ، والتقى الجيشان البريان في سهول تاجورة على بعد ثلاثة فراسخ من طرابلس الغرب ، فغُلب أبو الحجاج وقتل بعد معركة دامية ، وهرب ابنه (153) صوب موريطانيا ببقاياالعسكر . واستولى المنتصر على طرابلس وقابس والقيروان وسائر الأقاليم الشرقية لأفريقيا (154) ،وردها كلها إلى طاعة الوليد .

آسيـــا

ولنرجع إلى الشرق فنذكر أن الامبراطور ليون مات عام اثنين وأربعين وسبعمائة ، فخلفه ابنه قسطنطين كوبرونيم الذي دام حكمه خمسا وثلاثين سنة ، ولم يكن أقل مروقا وفسوقا وعداء للديانة الكاثوليكية من أبيه ، ونازع ألطوباز في الحكم وغالبه ، وأثناء هذه الحرب ألحق الوليد أضرارا جسمية بأقاليم الامبراطورية ،

(153) عبد الـهادي .

(154) أي افريقيا الرومان التي لم تكن تمتد إلا الى ليبيا .

واضطهد عددا كثيرا من المسيحين لارغامهم على التخلي عن دينهم . وفي ذلك العهد مات الشهيد السعيد أوتريك بن البطريق ماريانوس ، وكان محترما جدا في بلاد ما بين النهرين ، يقال إن عدة معجزات حدثت عند موته . وأخيرا مات الوليد عام ستة وأربعين وسبعمائة[155] وخلفه يزيد (الجليد ؟)

(155) خلط مارمول في هذه الترجمة – كما أشرنا اليه سابقا – بين هشام بن عبد الملك وابن أخيه الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وطالت خلافة هشام نحو عشرين سنة ، بينما لم تزد مدة الوليد على سنة وشهرين واثنين وعشرين يوما ، إذ مات في 28 جمادى الآخرة عام 126هـ /17 أبريل 744م . (مترجم) .

الفصل الخامس عشر

في يزيد (الجليد؟)(156) ثالث عشر الخلفاء
وما حدث من أشياء في خلافته تستحق الذكر

أخذ يزيد الملقب (بالناقص) زمام الحكم لأنه كان جميلا (!) عام سبعة وأربعين وسبعمائة ، ولم يحكم إلا عاما استولى فيه على جزيرة قبرص ، أثناء حروب قسطنطين وألطوباز ، ثم خربها وحمل جميع السكان إلى الشام . يقول بُول دْياكر : إن كوسم بطريق الاسكندرية أنكر ضلالات القائلين بوحدة الطبيعة والمشيئة في المسيح التي أدخلها البطريق سيروس إلى مصر في عهد امبراطورية هرقل ، واعتنق الديانة الكاثوليكية مع جميع هذه الشعوب وكان في ذلك الوقت عدد كبير من الشهداء . فقد أمر يزيد بقطع لسان بطريق دمشق الذي كان يخطب علَناً ضد مذهب المانويين والعرب ، ثم نفاه إلى اليمن حيث قاسى العذاب المهين عقابا له على ما قاله ضد محمد ، وكذلك مات سان بيير لنفس السبب إذ كان يعلن أن محمدا دجال وأن كل الذين يؤمنون به مقضي عليهم بالهلاك الأبدي ، وأنه لابد من الايمان بالأب والابن والروح القدس المجموعين بحسب وحدة الجوهر ، والدخول في حمى الكنيسة . فقتله هؤلاء (المسلمون) (157) وأسلم الروح الى خالقه . وبعد ذلك بقليل قُتل يزيد غيلة من طرف بعض المسلمين ، وخلفه ابنه هشام (158) .

---

(156) لايعرف يزيد بن الوليد بهذه الصفة ، وانما يوصف بالناقص لأنه نقص في أعطيات الناس التي كان الوليد زادها ، وردّ العطاء إلى ماكان عليه أيام هشام . (مترجم) .

(157) دعاهم خدام الشيطان . (مترجم) .

(158) لم يُقتل يزيد ولم يُخلِّف ولدا يدعى هشاما ، وانما مات بعدما أوصى بالخلافة لأخيه إبراهيم بن الوليد ، ومن بعده لعبد العزيز بن الحجاج . (مترجم) .

الفصل السادس عشر

في (هشام)[159] رابع عشر الخلفاء
وما حدث في خلافته مما يستحق الذكر

بدأ (هشام بن ألس!) يحكم عام ثمانية وأربعين وسبعمائة ، وما إن تربع على العرش حتى انتخب بعض المسلمين خليفة لهم مروان الذي كان إذ ذاك واليا بمصر ، فتسبب ذلك في اضطرابات كبيرة ، حيث إن الشاميين كانوا يفضلون هشاما بينما يفضل المصريون والحجازيون مروان . وقد أبرم هذا الاخير الهدنة مع الامبراطور قسطنطين على أن يؤدي له كل سنة ثلاثمائة غلام ، وأن يسلم إليه كل ما كان احتله العرب في طراس . وفي مقابل ذلك وعده الامبراطور بمساعدته ، وذلك ما فعل ، إذ حصل مروان بهذه الوسيلة على انتصاره على هشام ، فقتله هو وأولاده وجميع آل بيت الوليد الذين كانوا يربيونه. وبعدما تمكن من الشام أمر بهدم أسوار إليوبوليس ، وبيت المقدس ، ودمشق ، وقتل شر قتلة جميع كبار الدولة الذين ساعدوا فريق هشام . لكن هذا لم يمكن من إخماد الاضطرابات كما سنراه في محله .

---

(159) لعله يقصد ابراهيم بن الوليد الذي بويع بعد موت أخيه يزيد ، لكن مع ذلك يبقى معظم ما في هذا الفصل من نسج الخيال . (مترجم) .

الفصل السابع عشر

في مروان ، الثاني اسما ، خامس عشر الخلفاء
وما حدث في خلافته مما يستحق الذكر

بويع مروان بن محمد خليفة للعرب بعد موت (هشام) حوالي سنة ثمان وأربعين وسبعمائة ، ولم يدم حكمه ست سنوات (كاملة) . وفي هذه الأثناء بعد ان انتهى يوسف ورضوان من حرب إفريقيا وتركا فيها أحد أبناء يزيد والياً على القيروان ، جازا إلى إسبانيا بجيش قوي ليطردا منها عبد الرحمان الذي قاوم (160) بشجاعة بمساندة المولّدين . وأرسل مروان جيشا عرمرما (161) إلى إسبانيا نزل بقرطاجنة، وانضم إلى جيش الأندلس ، فأدخل يوسف الرعب إلى قلب عبد الرحمن الذي جاز إلى إفرقيا دون أن يجرؤ على انتظاره ، ومكث بضعة أيام في نوميديا يطلب العون من العرب والأفارقة الذين لم يعترفوا بخليفة دمشق ، وبالأخص أبناء أبي الحجاج الذين كان لهم بعض النفوذ . ثم إن رؤساء جيش مروان بإسبانيا عندما لم يجدوا عدوا يقاتلونه وجهوا سلاحهم ضد الفرنسيين ، فقطعوا البرانس وجابوا منطقة ناربون كلها . لكن بّيّان بن شارل مارتيل جمع جنوده . وفاجأهم وهم غير منظمين ، فقتل عددا كبيرا منهم وأرغم الباقين على الفرار دون أن يجرؤوا على العودة طوال بقية حكمه .. واكتسب هذا الأمير شهرة كبيرة بهذا النصر لدرجة أن الفرنسيين عزلوا الملك شيلدريك وبايعوه مكانه ، في عهد البابا زكريا ، وعينوا ابنه شارل ولياً لعهده ، فلقب منذ ذلك الحين بشارلمان ، وان اعتقد بعضهم أنه كان أخاه .

وفي هذه الأثناء ثار ثلاثة من العرب ، هم ثابت (بن نعيم) و(الضحاك بن قيس الشيباني) (162) ، وسليمان (بن هشام) الذي يسميه الآخرون (ذا السمن)

---

(160) عـام 751 .

(161) كان قد جُمع بالاسكندرية بقيادة رؤية .

(162) في الأصل : ضبط ، وهو بدون شك تحريف للضحاك الثائر الخارجي المشهور . (مترجم) .

ثاروا في الشرق على مروان الذي طاردهم بقوّة السلاح ، فتمكن من ثابت وقتله ، وقتل الضحاك أيضا الذي كان قد هزم ابنه وقتله ، ثم أرغم سليمان على الفرار إلى بلاد فارس . واغتنم الامبراطور قنسطانس هذه الفرصة ليفسخ الهدنة ، فدخل إلى الشام واحتل حصونا منها ، لكن مروان بعد أن انتصر على (الضحاك) توجه إلى الامبراطور قنسطانس فاسترجع منه بعض تلك الحصون مكبدا المسيحيين خسائر جسمية في الأرواح ، ثم عبر إلى إيميس فحاصرها واستولى عليها في ظرف أربعة أشهر .

وكان قد وقع قبل ذلك بقليل زلزال كبير في فلسطين ، دمر عدة مدن ، وامتد إلى طراس ، واليونان ، وإيطاليا . وتلته فتن الفرس ، حيث جدد (سليمان بن هشام) مذهب المختار الذي يزعم أن عليا كان نبيا أكبر من محمد ، ثم إنه بإيعاز من أحد العرب المسمى (كثبان)(163) الذي تلقب بأمير المسلمين . وأثار العبيد ضد أسيادهم ، فكان ذلك بداية فرق (السَّبَئِيَّة والكيسانية)(164) الذين كان بعضهم يتبع مذهبا وبعضهم مذهبا آخر . وكان هو رئيسا للأولين فجند والي الاقليم(165) مائة ألف جندي لمحاربتهم فقاتلوا وانتصروا رغم عددهم القليل ، لأنهم يعتقدون أن رئيسهم وليّ صالح . وقد دفعهم هذا الانتصار إلى الزحف ضد مروان الذي كان على رأس جيش مؤلف من ثلاثمائة ألف رجل ، وقتلوا معظمهم قرب نهر زبان ، وفر مروان على جسر كان قد ترك به حرسا حتى لا يتبعه العدو ، وصحب معه نساءه وأولاده وانسحب إلى مصر مع أربعة آلاف فارس . فأتبعه سليمان ابنه (سالم)(166) لمطاردته بقسم من الجيش . وفي السنة الموالية دارت بينهما معركة دامية غُلب فيها مروان وأخذ أسيرا . فضرب سالم عنقه ، ثم قتل كل من وقع في يده من آل هذا البيت . أما الباقون ففروا إلى إسبانيا وموريطانيا حيث أسسوا عدة ممالك ، كما سنذكر ذلك في مكانه .

وانحدر من (ذي السمن) هذا أو سليمان ، موسى الكاظم الذي نصب من جديد آل محمد على العرش ، ومنه انحدر الصوفية الذين يحكمون بلاد الفرس

(163) لعله تحريف لاسم أحد دعاة العباسيين . (مترجم) .

(164) في الأصل كلمتان غير مفهومتين ربما كانا ما أثبتناه ، وذلك ما يقويه السياق . (مترجم) .

(165) (ابلين) عامل مروان .

(166) لاشك أنه يقصد أبا مسلم الخراساني ، وقد جعله ـ خطأ ـ ابنا لسليمان بن هشام ، كما اختلطت عليه أحداث نهاية الدولة الأموية ، انظرها مفصلة عند حسن إبراهيم حسن ، **تاريخ الاسلام السياسي**، 1:361 – 370 . (مترجم) .

(167) وكان مروان صديقاً كبيرا للمسيحيين ، يعطف على العلماء ، وقبل أن يسمى تيوفيلاكت بطريقاً لانتيوش ، اعتبارا لعلمه وقدره ، وقتل شر قتلة العباس الذي كان يظهد المسيحيين كثيرا.

إسبانيـا

ولنعد إلى الأحداث المتعلقة بإسبانيا . بعد انسحاب العرب من فرنسا حشد ألفونسو ملك ليون جنوده واستولى على بعض حصون نافار ، فجاء يوسف لملاقاته قرب كالاهور على ضفاف نهر الابرو ، فغُلب واحتُلَّتْ جميع البلاد حتى سرقسطة . وقد عمل هذا الانتصار على إثارة بلنسية وبرشلونة وغيرهما من الحصون ضد يوسف الذي انسحب إلى طليطلة في اضطراب وتابع ألفونسو تقدمه إلا أنه أدركته الوفاة بعد أن حكم ثمانية عشر عاما ، تاركا ابنه (168) خلفاً له . فقاتل هذا الأخير منذ سنته الأولى يوسف الذي دخل إلى كَاليسيا بجميع قوات العرب بمجرد ما وصله نبأ هذا الموت ، وقتل ابن عمه وأكثر من خمسين ألف رجل (169) ، وانضم إليه أهل كَاليسيا الذين أغراهم هذا الانتصار ، بينما ثار العرب على يوسف مستنجدين بعبد الرحمان (170) الذي كان بإفريقيا . فجاز حينا إلى إسبانيا مع بعض العرب والأفارقة ، وبعد أن نزل بمالقة استُقبل استقبالا فخما في قرطبة التي أراح بها جنده ، وأضاف إلى جيشه حاميات الأندلس ، ثم زحف إلى طليطلة . ولما تلقى يوسف هذه الأخبار خرج ليحاربه بجميع ماتمكن من جمعه ، لكن عبد الرحمان عبر مضايق سييرَامُرينَة بأسرع ما يمكن وعسكر بواديان . وعندما التقى الجيشان وقع اشتباك أسفر عن انهزام يوسف وانسحابه الى طليطلة، فلم يُقم بها إلا قليلا وترك حكمها لابن أخيه جعفر ، والتحق مسرعا بمدينة الليبيري ، بينما دخل عبد الرحمان قرطبة منتصرا. وبعد أن حشد يوسف قوات جديدة توجه يبحث عن عدوه لسوء حظه ، لأنه غُلب وقُتل قرب قرطبة . وهكذا فإن عبد الرحمن من بني أمية انفرد بحكم الأندلس ، وخلع طاعة خلفاء دمشق ،

---

(167) هـــراء !

(168) فرُويلـة .

(169) عـام 674 .

(170) عدو يوسف وآل العباس (يقصد عبد الرحمان بن معاوية الأموي المعروف بالداخل . (مترجم) .

وتلقب بملك قرطبة [171] ، وانحدر من سلالته خلفاً عن سلفٍ ثمانية ملوك [172] حكموا أزيد من مائتين وخمسين سنة بما فيها حكمه ، إلى أن أُخذ محمد المهدي آخر حاكم بقرطبة ، كما سنذكر ذلك فيما بعد .

(171) وأمير المسلمين .

(172) هم : ابنه هشام الرضى ، فالحكم بن هشام ، فعبد الرحمن الاوسط ، فابنه محمد ، فابنهُ المنذر ، فأخوه عبد الله بن محمد ، فعبد الرحمن الناصر ، فابنه الحكم المستنصر ، فهشام بن الحكم ، فالمهدي ، فالمستعين سليمان بن الحكم . (مترجم) .

الفصل الثامن عشر

في أبي العباس (السفاح)(173) سادس عشر الخلفاء وما وقع في خلافته

انقسمت الامبراطورية بعد موت مروان ، فبايع الفرس الامير سلمان (؟) والشاميون أبا العباس بن محمد ، وأهل إسبانيا عبد الرحمن بن معاوية (174) وأهل الجزيرة العربية عبد الله بن محمد ، والمصريون سليمان الاعرج بن سليمان الذي كان أول سلاطين مصر وجعل مقر مملكته في القاهرة . وكان جميع هؤلاء من سلالة علي ، والعباس عم محمد ، فاجتمعوا بالكوفة لاقصاء باقي الخلفاء عن وراثة الملك . واقتسموا هكذا الخلافة باستثناء إسبانيا ، الشيء الذي لم يمنعهم من الاعتراف بأبي العباس كخليفة أعظم ، وعينوا خلفا له أخاه عبد الله وبعده هشام بن موسى (175)

إسبانيا

وكانت إسبانيا إذ ذاك في غاية الاضطراب بسبب حروب عبد الرحمان ، وقدم جعفر أمير طليطلة وبعض الرؤساء الآخرين إتاوة لفرويلة وبيبان ليظاهراهم على عبد الرحمان . ولما أبرم هذا التحالف أرسل بيبان ابنه شارل مع عدد كبير من نبلاء الفرنسيين لينضم إليهم والي فرويلة ، فساروا إلى طليطلة حيث خصص لهم جعفر استقبالا حسنا جدا وحققوا انتصارات باهرة ضد عبد الرحمان. ولما عسكر شارل بضواحي طليطلة عشق ـــ حسب ما يقال ـــ غيلانة بنت جعفر ووعدها بالزواج شريطة أن تتنصَّر ، فرضي أبوها بذلك آملا أن يستعيد ملكه ، وشيد

(173) في الأصل : أبو بابا ، وهو تحريف لأبي العباس . (مترجم) .

(174) في الأصل : عبد الرحمن بن أمية ، وهو تحريف ظاهر . (مترجم) .

(175) كل ما في هذه الفقرة باطل مما يتعلق بتقسيم الامبراطورية الاسلامية بين هذه الاسماء التكرات التي لا وجود لها إلا في مخيلة مارمول ، ولا أدل على سخافته من جعله إمارة مصر في القاهرة ، وهي لم تؤسس الا بعد نحو قرنين من هذا التاريخ ! لذلك فإننا لا نتتبع أخطاء الكتاب المكشوفة ، ولا نعلق إلا عندما نخشى اللبس . (مترجم) .

قصرا في البساتين التي كان شارل مخيما بها ، لتقام فيه حفلات الزفاف ، وما زال يسمى حتى الآن قصر غيلانة ، وقد فعل ذلك ــ على ما يبدو ــ خوفا من أن تدخل جموع المسيحيين إلى المدينة فيملكوها . لكن هذه الحرب لم تنجح كما كانوا يؤملون ، لأن عبد الرحمان أبرم هدنة مع بييان لتفريق أعدائه . وحينما علم شارل بذلك وبمناورات أخيه الأصغر الذي كان يطمح إلى الملك ، أخذ غيلانة والتجأ إلى بوردو . ويقول بعض المؤلفين العرب وخاصة ابن الجزار في كتابه **نوادر المدن** إنه كان بقصر غيلانة غدير يعلو ماؤه وينخفض حسب مسيرة القمر ، بفن سحري ، وإذا ما ارتفع سال إلى المدينة من فوق الجسر . ويروي آخرون حكاية غيلانة بكيفية أخرى قائلين إن شارل تخاصم مع بيّيان فذهب مع عدد من النبلاء إلى طليطلة جيث خصص له جعفر استقبالا حسنا ، فعينه قائدا لجيشه وأرسله ليحارب ملك قرطبة ، وفي أثناء مُقامه بطليطلة ، جاء أحد أشراف العرب الأقوياء اسمه برامانت (؟) فطلب الزواج بغيلانة ، لكنه لم يفز بمرغوبه وأقام الحصار على طليطلة ، فحاربه شارل وقتله بيده ، وخرجت غيلانة بعد ذلك لتتسلى في بستانها التي كانت تستحم فيها أحيانا ، فخطفها شارل وهرب بها عبر الطريق التي تسمى طريق غيلانة ، وذخل فرنسا وتزوج بها في بوردو . ورغم عدم اتفاق المؤرخين لا في التاريخ ولا في الظروف ، فمن المؤكد أن شارل تزوج بهذه الأميرة ولم تنجب له أي ولد .

آسيا وإفريقيا

ولنرجع إلى حوادث آسيا . ففي أول سنة من حكم (أبي العباس السفاح) دارت حرب دامية بين العرب بسبب خبر عدم وفاة مروان ، فكان لابد من إبراز جثمانه المدفون لتهدئتهم . وفي نفس السنة حمل السلاح أهل بلاد البربر الأفارقة والليبيون ضد العرب بمساعدة عبد الهادي بن أبي الحجاج وثائرين على الشريعة المحمدية ، فقتلوا والي قسطنطينة وجميع الفقهاء الذين صادفوهم . ولما علم سالم (؟) بهذه الفتن وهو بمصر ، جهز جيشا مؤلفا من عشرين ألف فارس وخمسين ألف راجل ، ودخل به بلاد البربر مخترقا مفازات برقة ، فأخمد الثورة وقتل عبد الهادي . ثم إن الأفارقة الزناتيين أصحاب الثورة انسحبوا في اضطراب إلى مفازات نوميديا . وبعد ذلك مات (أبو العباس) في أوائل سنة ستين وسبعمائة (176) وخلفه أخوه عبد الله الذي أنجز أشياء كثيرة ، كما سنراه في الفصل التالي .

(176) توفي أبو العباس السفاح في 13 ذي الحجة عام 136هـ /8 يونيه 754م . (مترجم)

الفصـــل التاســع عشـــر

في عبد الله بن محمد (أبي جعفر المنصور) سابع عشر الخلفاء وما حدث في خلافتـــــه

لما أخذ عبد الله زمام الحكم ، كما اتُّفق عليه في جمع الكوفة ، حيث عُين خليفة ، علم بمكة أن شخصا آخر يدعى عبد الله بن علي قد بويع بالخلافة في الشام ؛ فطلب من ملك الفرس أن يحتفظ له بالمنصب السياسي الذي آل إليه بموت أبي العباس ، معربا عن تعظيمه لآل بيت علي ، ومقدما له وعودا كبيرة للحصول علي رغبته . ومن جهة أخرى جند عبد الله بن علي المنتمي إلى بني أمية جيشا باسلامن العرب والفلسطينيين والعبيد والانتيوشيين أعداء فريق الفرس (177) السائد ، وأقام الحصار أمام بلدك (178) إلا أن أمير المسلمين الذي كان جيشه على أهبة القتال ، حاربه قرب نصيبين والجأه إلى الفرار إلى دمشق بقليل من الجند ، إذ كان الباقي قد هُزم ، فانتشى بهذا الانتصار ولم يعبأ بعبد الله الآخر الذي كان الخليفة الشرعي، غير مهتم إلا بالاستيلاء على الامبراطورية كلها. لكن المغلوب عندما فر إلى دمشق ثار جميع الشاميين وعرب المنطقة لصالحه ، ولم يكتفوا بمنع المنتصر من الدخول إلى البلاد ، بل استرجعوا منه الحصون التي احتلها منذ واقعة نصيبين . وحشد عبد بن محمد من جهته قوات الجزيرة العربية وتصدى للأمير ، ولكي يهزم هذا الأخير بسهولة ، صالح عبد الله الآخر ووعده أن يدعه يتمتع وحده بملك الشام . ولما علم الأمير بهذه الأخبار ترك طرفا من رجاله يحرسون الحصون التي استولى عليها لئلا يحارب عَدُوَّيْنِ قويين معا . ثم لجأ إلى بلاد الفرس بما تبقى له من جيشه ، جازما كل الجزم أن عدويه لن يطول اتفاقهما ، وعازما على أن يطيل الحرب . وفعلا فإن عبد الله بن محمد الذي استدعى الآخر بدعوى التشاور معه ، استقبله بحفاوة كبيرة ، غير أنه أنزله في بيت كان قد أمر بنقض أساسه ، فسقط عليه ليلا وسحقه . ثم إنه عند تصوره الصعوبة التي سيجدها في

---

(177) المـوروفـور .

(178) علق عليه بأنه بابلون . وذلك ما يدل على أن (بلدك) تحريف لبغداد لانه سيعبر فيما بعد عن بغداد ببابلون ، وواضح أن بغداد لم تؤسس بعد في الفترة التي يتحدث عنها هنا . (مترجم)

التغلب على الأمير الذي كان يملك بلاد الفرس كلها ، أرسل إليه ليبايعه بالخلافة وسلم إليه سيف محمد ونعاله ، وهما علامة هذا المنصب . فأتى إليه الآخر بخمسة آلاف فارس وانفردا على حدة للتحدث ، فطعنه عبد الله بخنجر ، ثم ركب فرسا وانقضَّ فجأة بمساعدة أصحابه على فرسان الفرس وألجأهم إلى الفرار . وبعد ذلك قاد جيشه إلى بلاد فارس فاستولى عليها بكاملها بعد أن قتل كثبان داعية الأمير ، وأصبح بهذه الوسيلة منفردا بالحكم لا يعارضه أحد فيه (179) .

إسبانيا

وفي نفس الوقت اجتاح عبد الرحمان ملك قرطبة قشتالة كلها بعدما توصل بإمداد قوي من إفرقيا (إذ كانوا يقدرون جيشه بثلاثين ألف فارس ومائتي ألف راجل)، واسترجع في فترة وجيزة كل ما أخذه المسيحيون للعرب من حصون، حيث إن ملك ليون لم تكن لديه قوة كافية لمقاومته . وبعد أن استولى على ممالك قشتالة، وأراكون ونافار، والبرتغال، باستثناء الجزء الشمالي لاسبانيا الذي تركه حراً لانه كان محصنا من لدن الطبيعة، ذهب لمحاصرة جعفر في طليطلة . إلا أنه اضطر إلى رفع الحصار، ليتركب جيشه في الثغور المجاورة تحرسها باستمرار، وعاد إلى قرطبة لقضاء فصل الشتاء بها بعد أن ألحق أضرارا بجسمية أثناء هذا الغزو حتى إن المؤلفين يعدونه ثاني مخرب لاسبانيا .

آسيـا

ولنعد الآن إلى شؤون آسيا . فبمجرد ما تمكن عبد الله (المنصور) من الحكم وجه غضبه نحو رعاياه المسيحيين، فضاعف إتاواتهم وأرغم حتى الرهبان والراهبات على أدائها. ثم أمر ببيع جميع ممتلكات الكنيسة جهاراً ونزع الصور والصلبان والنواقيس من جميع الكنائس، ناهيا الرهبان عن الاحتفال بالديانة المسيحية أو تلقينها . ومنع سلطان مصر (180) هو الآخر من صنع الصلبان وبناء

(179) خلط مارمول – كعادته – في سرد أحداث بداية خلافة أبي جعفر المنصور، ولم تختلط عليه الأسماء فحسب، بل الوقائع نفسها أيضا، وحتى لا نتتبع كل ذلك بالتأويل والتصحيح، نشير فقط الى أن عبد الله بن علي الذي بويع بالشام فعلا هو عم أبي جعفر المنصور ، وليس أمويا ، وأنه لم يكن آنذاك للفرس ملك ، وإنما كانت بلادهم تابعة للخلافة العباسية . والشخصية الأخرى التي يدعوها «الأمير» يظهر أن المقصود بها هو أبو مسلم الخراساني ، وهو نفس المدعو «كثبان داعية الأمير». وقصة قتل أبي مسلم الخراساني مشهورة لا

(180) علق عليه بأنه سالم . ولا يعرف من بين ولاة مصر في عهد أبي جعفر المنصوز من اسمه سالم ، وانما المعروف محمد بن الاشعث ، وحميد بن قحطبة . (مترجم)

كنيسة أو دير، ومن مجادلة المسلمين في الدين، وإلا قتل فاعل ذلك . هكذا كان التعسف الذي كان يعاني منه المسيحيون رعايا الملوك العرب (181) .

إسبانيا

ولما قُتل الملك فرويل من طرف أتباعه، نُصب مكانه أخوه أو ابن عمه أوريليو . وفي نفس الوقت عاد الملك عبد الرحمان لمحاصرة طليطلة، فاستغاث جعفر بهذا الامير وبشارل لمان الذي كان قد أصبح ملك فرنسا على إثر وفاة أبيه بيّبّان . ولما رأى أن أحدا لم يُنجده، وأن شارل كان مشتغلا في بلاده وأوريليو ليست له قوة كافية للذود عن نفسه، سلم نفسه وخضع لعبد الرحمان الذي دخل إلى طليطلة وترك فيها ابنه سليمان واليا عليها . وتبعه في ذلك أميرا كالاهور وكوردوفية اللذان امتنعا حتى ذلك الوقت من الخضوع إليه . ومن هناك ذهب عبد الرحمن إلى سرقسطة لمحاربة أحد العرب الذي استولى عليها . لكن هذا الاخير لم يجرؤ على انتظاره فترك المدينة ودخلها عبد الرحمن دون مقاومة، ثم عاد إلى قرطبة .

وفي عام سبعة وستين وسبعمائة اجتاز الأتراك جبل القوقاز ثم عادوا إلى بلادهم بعد ما اجتاحوا أرمينيا . وفي العام الموالي مرض هشام بن موسى (182) بزكام شديد في رأسه، فسمه عبد الرحمن (؟) الذي أراد إقصاءه من الملك بواسطة طبيب يهودي أعطاه سفة زعم أنها ستنظف دماغه . فما إن تناولها حتى ذهبت بوظائف عقله ولسانه، فعين العرب مكانه ابن الخليفة عبد الله المسمى محمداً والملقب بالمهدي أي المقدم (؟) ولم يكتف الخليفة بهذا بل حرص على ضمان الخلافة في عقبه واضطهد بضراوة جميع أقارب الخلفاء الآخرين وآل علي جميعا . فهرب منهم إلى بلاد الهند الشرقية والمناطق الأخرى النائية من استطاعوا التخلص من يديه تفاديا للاضطهاد . ولم يبق منهم إلا واحد بالمدينة أهل لشيخوخته، غير أنهم ضربوا عنق أحد ابنيه وفر الآخر واسمه إدريس، إلى موريطانيا الطنجية، حيث استقر بوليلي (183) ونال تقدير البربر لفصاحته وعلمه، حتى إنهم بايعوه ملكا، وأسس ابنه مدينة فاس، كما سنذكر ذلك في محله .

(181) كتب التاريخ الصحيح كلها شاهدة بحسن معاملة ملوك المسلمين لرعاياهم من أهل الذمة ، سواء بالمشرق أو بالمغرب . (مترجم)

(182) بل عيسى بن موسى العباسي . (مترجم)

(183) بجبل زرهون وفي الأصل « تيوليت » وهو تحريف ظاهر . (مترجم)

افريقيا

وفي عام سبعين وسبعمائة ثار الأفارقة من قبائل زناتة وهوارة مرة أخرى ضد عرب إفريقيا وقاتلوهم، فاحتلوا عدة أقاليم من بلاد البربر بعد أن اجتازوا جبال الأطلس الكبير بجيش قوي، إذ لم تكن للعرب قوة كافية للدفاع عن أنفسهم، فانسحبوا إلى مفازات القيروان. لكنهم عادوا لمحاربتهم بعد أن وصلهم المدد من مصر، ودبَّر والي القيروان شؤونه بأسلوب حسن حتى أبرم الصلح دون إراقة دم أحد.

آسيا

وفي نفس الوقت تصدى عبد الله للمسيحيين بعد أن أرسى قواعد ملكه، وأرسل جيوشه إلى رومانيا والكابادوس حيث قامت بأعمال إتلاف ضخمة، بعد أن خلف ليون قسطنطين كوبرونيم. إلا أنه ذهب إلى بيت المقدس وألزم المسيحيين واليهود أن يضعوا علامة على أيديهم يميزون بها، ومن عثر عليه منهم بدون هذه العلامة أصبح رقيقا، وذلك ما حمل الكثير منهم على مغادرة بيوتهم واللجوء إلى مكان آخر.

ولنرجع إلى إسبانا. لما شاهد أوريليو انتصارات عبد الرحمن أبرم معه الهدنة على أن يقدم له مائة فتاة كل سنة من بنات النبلاء وبنات العامة، بالاضافة إلى عدة شروط أخرى قاسية، ومات في نفس السنة.وثبت ابنه سيلو (184) الهدنة مع عبد الرحمن، ولم يدم حكمه سوى ثمانية أعوام، بحيث لم يقع شيء غير ذلك يستحق الذكر في عهده.

وفي عام ثمانية وسبعين وسبعمائة ذهب أبو العرب إلى فرنسا وتقدم إلى شارلمان ليكون أحد أتباعه إلى أن يعود ثانيا إلى دولته، وقد قطع هذا الامير الجبال بجيش قوي ودخل إلى نافار فحاصر بامبلونة وسلم له العرب الحصن بعد معارك دامية. وقصد من هناك سرقسطة فاستسلمت لحينها، وبعد أن أعاد إليها المسيحيين الذين طردوا منها وضعها تحت حكم أبي العرب. ودخل بعد ذلك إلى قطالونيا

(184) هو الذي ترك سرقسطة .

(185) هما أبو داوود وأبو الحافظ (؟)

التي سلمها إليه عد وان (185) لأبي العرب كانا يحكمانها، وأخيرا عاد إلى فرنسا. يقول بعض المؤلفين الفرنسيين إن عبد الرحمن حارب شارل في العام الموالي (186) بعد أن جاءة مدد من إفريقيا، وجمع ما استطاع جمعه من جند إسبانيا، وإن معارك عدة دارت بينهما في ضواحي بايون، حيث لقي مصرعه ما يربو علىأربعين ألف فرنسي، وكان أوجي والد رولان من بين القتلى، لكن شارلمان ساعده عدد كبير من نبلاء إيطاليا وألمانيا، فاضطر عبد الرحمان إلى الانسحاب. وحاصر شارلمان بايون (187) سبعة أشهر، فغلب عبد الرحمان الذي لم يكن قد قطع الجبال بعد تقهقر إلى اسبانيا، وتبعه شارلمان بجيش للمسيحيين لم ير قط مثله في اسبانيا، وانتصر عليه في عدة معارك وأخضع اسبانيا كلها. لكن هذا القول صادر عن المطران توربان وهو غير ثقة كغيرة من الذين يقولون إن شارلمان بعد ما احتل بامبلونة وغيرها من حصون هذه المنطقة، قصد سرقسطة حيث حاربه (188) عبد الرحمان فغلب وفقد ثلاثين ألف عربي، وأن شارلمان بعد هذا الانتصار مر بموقع آخر (189) فاحتله عنوة، ثم رجع إلى سرقسطة فانستسلمت له طوعا وسلمها إلى أبي العرب كما أسلفنا، بعد ذلك عاد إلى فرنسا لاخماد ثورة، لكن الكاسكونيين تمردوا في الطريق ونهبوا الامتعة، الشيء الذي سمح به أبو العرب لأنه لم يرض أن يرى سلب جميع ذخائر إسبانيا. لكن الذين يقولون هذا لم يذكروا أن عبد الرحمن ذهب إلى فرنسا ولا أن شارلمان قتله، وهذا هو الأصح كما سيتضح فيما بعد (190).

آسيـــــا

ولنعد إلى آسيا. ففي عام ثمانين وسبعمائة، أيام حكم عبد الله (أبي جعفر المنصور) عبر الأتراك مضايق جبل القوقاز، أي أبواب الكاسبيين، بعدد كبير كالمرة الأولى، وحاربوا المسلمين ثم انسحبوا محملين بالغنائم بعد أن لحقت خسائر كبيرة بالطرفين. ومات عبد الله في العام الموالي (781) بعد أن حكم واحدا وعشرين عاما (191) وخلفه ابنه المهدي.

(187) كانت تدعى قديما كينوم .
(188) عام 779 أو 775 .
(189) نشطـة .
(190) الاسطورة واضحة في حكايات انتصارات شارلمان ويتناقض ذلك مع انهزامه الساحق في عقر داره واستنجاده بنبلاء ايطاليا وألمانيا ، والفرنسيون يدعون عصر شرلمان العصر الاسطوري ، وأنشودة رولان الفرنسية القديمة شهيرة في أدبهم . (مترجم)
(191) مات أبو جعفر المنصور في 6 ذي الحجة عام 158 /7 أكتوبر سنة 775م ودامت خلافته اثنتين وعشرين سنة . (مترجم)

الفصل العشرون

في محمد المهدي، ثامن عشر الخلفاء وما حدث في خلافته

أخذ محمد المهدي زمام الحكم عام واحد وثمانين وسبعمائة، وحكم تسع سنين (192) وقد قام أولا بجولة في الأقاليم الرومانية بامبراطورية ليون الرابع (193) فحشد هذا الأخير جميع قواته لمقاومته، وجعل قيادتها لقائد من العبيد (194) فدخل إلى أرمينيا (195) بجيش ينيف على مائة ألف رجل فانتصر على ابن محمد (196) في معركة منتظمة، وتوجه منتصرا إلى دمشق التي التجأ إليها المنهزم مع فلول جنده وحاصره هناك. ولما رأى هذا الامير أن المدينة في شدة الضيق وأن السكان أخذوا يفكرون في الاستسلام، اتفق مع القائد العبد وأعطاه أموالا كثيرة لرفع الحصار. وقد اخترق هذا القائد بلاد الشام، وجمع كل اليعاقبه (197) وردهم إلى طراس، ثم عاد منتصرا محملا بالغنائم.

ولما وصلت هذه الانباء إلى محمد (المهدي). جمع كل قواته وذهب إلى بيت المقدس حيث قسم جيشه ثلاثة أقسام، وأرسله إلى أقاليم الامبراطورية، فدخل ابنه (الرشيد) إلى رومانيا ومعه الفرس والكوراكسانيون الموروفور، وابن الازور إلى إيديس، وابن الزبير إلى أرمينيا، وقد أمرهم الخليفة جميعا بهدم جميع الكنائس وذبح كل من يرفضون اعتناق الاسلام (198) لكن ابن الازور أعلن لدى وصوله إلى إيديس أنه لن يرغم أحدا على ترك دينه إن لم يسبق له أن كان مسلما،

(192) بل ولي الخلافة في نفس اليوم الذي توفي فيه أبوه ، ودام حكمه عشر سنين وشهرا . (مترجم)

(193) كوبرونيم .

(194) لاكانة .

(195) دراكون أحد أقاليم الفرات .

(196) علق عليه بأن المراد « إسبال » وهو تحريف لهارون الرشيد الذي اشتهر بالنيابة عن والده المهدي في غزو بلاد الروم .(مترجم) .

(197) المارفين .

(198) لا أبلغ في الرد على هذه الترهات من قول الله تعالى « لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ » . ويظهر أن الأمر كان يتعلق بالمرتدين الذين اعتنقوا الاسلام ثم عادوا الى الكفر طوعا أو كرها ، وهؤلاء لهم حكمهم في الاسلام .

الامر الذي اضطر من أجله الكثيرون إلى أن يفضحوا انفسهم، فقتلهم بعدما أذاقهم عذابا قاسيا. ولم يقم الرشيد بأقل من ذلك في رومانيا حيث أمر بقتل عدد كبير من المسيحيين وتهديم الكنائس في كل مكان، ثم عاد محملا بالغنائم. أما ابن الزبير الذي قام بنفس الأعمال في أرمينيا فقد هزم من قبل جنود الامبراطور وهرب إلى الشام بعد أن فقد اثني عشر ألف عربي.

إفريقيـــا

وفي عام تسعة وثمانين وسبعمائة شهر أهل البلاد الأفارقة السلاح في وجه العرب وقتلوا عددا من الفقهاء وحملة الشريعة، إلا أن والي القيروان أسرع إلى نجدتهم ورفع الحصار عن قسنطينة، وعاقب الثوار بشدة. فانسحب إلى مفازات ليبيا من قدر منهم على التخلص من قبضته. ولما مات ليون الرابع في السنة التالية، تولت الامبراطورة إيرين الحكم نيابة عن ابنها الصغير قسطنطين، وخشيت قوات العرب التي كانت تجتاح أقاليم الامبراطورية، فأبرمت هدنة مع محمد (المهدي) مقابل إتاوات أدتها إليه كل سنة.

إسبانيـــا

ولنعد إلى إسبانيا حيث مات الملك سيلو عام ثمانين وسبعمائة، وخلفه ألفونسو ابن فرويل، لكنَّ موركَا، وهو ابن غير شرعي لألفونسو الكاثوليكي سلبه التاج بمساعدة قوات عبد الرحمن، ومات بعد خمس سنوات من توليه الحكم مكروها من كافة المسيحيين، لأنه كان يقدم لهذا الأمير المسلم كل سنة مائة فتاة، بالاضافة إلى عدة فضائح أخرى. ولما خلفه ابن أخيه فيماران أرجع المملكة منذ ذلك العهد إلى دوم ألفونسو وامتنع من التزام ما التزمه سلفه، فأرسل إليه عبد الرحمن جيشا قويا بقيادة موسى، فقتل هذا الاخير في معركة قرب أليد مع ستين ألف عربي فضلا عن الاسرى، فاضطر عبد الرحمن إلى إبرام هدنة بشروط معقولة. ولما لم يبق لعبد الرحمان نزاع لامع المسيحيين ولا مع عرب إسبانيا، أمر ببناء جامع قرطبة[199] ومات قبل إتمامه، بعد أن حكم خمسين عاما وثمانية أشهر وأربعة أيام[200]

(199) سنة 790 في 23 أبريل .

(200) بل مات عبد الرحمان بن معاوية عام 172هـ / 789 – 989م ، بعد أن ملك 33 سنة . (مترجم)

وخلفه ابنه عثمان [201] الذي كان أكبر أبنائه الاثنى عشر وبناته التسع . ومات أيضا في تلك السنة ابن العربي أمير سرقسطة، واستسلمت المدنية إلى شارلمان. وفي نفس الوقت مات الخليفة محمد المهدي بعد حكم دام تسع سنوات [202] تاركا ابنه خلفا له موسى (الهادي) فلم يحكم سوى عامين. أكد خلالهما الهدنة التي كان أبوه قد أبرمها مع الامبراطورة إيرين دون أن يقوم بعمل يستحق الذكر أثناء خلافته، ثم خلفه ابن عمه [203] هارون الرشيد الذي كان بطلا كبيرا.

---

(201) بل الذي خلف عبد الرحمن بوصية منه هو ابنه هشام ، ولم يكن أكبر إخوته ، وإنما كان أبوه يتوسم فيه الشهامة . (مترجم)

(202) مات محمد المهدي في 22 محرم 169هـ /4 غشت 785م بعد أن حكم عشر سنين وشهرا . (مترجم)

(203) بل أخوه .

الفصل الواحد والعشرون

في هارون الرشيد، تاسع عشر الخلفاء وما حدث في خلافته

لما مات محمد المهدي وابنه (موسى الهادي) بايع العرب خليفة لهم هارون الرشيد الذي دام حكمه ثلاثا وعشرين سنة، فاضطهد المسيحيين كثيرا. وما إن بويع (204) حتى نقض الهدنة مع الامبراطورة إيرين، وأرسل جيشا قويا إلى جزيرة قبرص التي لجأ إليها عدد كبير من القراصنة المسيحيين فجعلها تحت سيطرته. وأرسل برا جنودا لا يقلون عددا إلى أقاليم الامبراطورية بقيادة عبد الملك الذي دخل منتصرا إلى رومانيا بعد أن خرب كالاسيا والكابادوس وتابع سيره إلى مالاكيا حيث هزم فرسان الامبراطور ثم عاد إلى بيت المقدس محملا بالغنائم.

وظهر في العام الموالي ببلاد الفرس انشقاق كبير في مذهب المرابطين الذي ينكره الفقراء التابعون للازهري (؟). ولما عزم هارون على التوجه إلى تلك المنطقة، أجاب الامبراطور نيسيفور بقبول الهدنة بالشروط التي كان قد اتفق عليها مع إيرين، ودخل إلى بلاد الفرس وقضى على جميع الفتن، وترك الحرية لكل واحد في أن يتبع المذهب الذي يختار، ثم عاد الى بيت المقدس.

وفي عام واحد وثمانمائة حشد هارون ما يزيد على ثلاثمائة ألف رجل من الفرس (205) والشاميين والعرب، وبعد أن فسخ الهدنة مع الامبراطور دخل إلى رومانيا فانتهبها واجتاحها كلها، ولما وصل إلى تيان شيد فيها مسجدا فخما للمسلمين. واحتل عدة حصون (206) حتى وصل إلى أنسيردون أن يلقى أية مقاومة. وكان نيسيفور قد استولى على الحكم بعد أن خلعت الامبراطورة ابنها وفقأت عينيه من أجل خلاعته، فأشفق لحال المسيحيين التعساء وقواته التي لا يمكن الاعتماد عليها، وأراد أن يهدىء الرشيد فكتب إليه أنه مندهش لكونه شهر السلاح في وجهه وهو لم يغضبه في شيء، ونقض الهدنة المؤكدة بكثير من الايمان،

(204) في منتصف ربيع الأول عام 170هـ/سبتمبر 786م . (مترجم)
(205) الفرس الموروفـور .
(206) وهي هيراكلي ، ومالوز ، وآندروز ، وطبزة .

فلا داعي للتعلة باختلاف الديانات، إذ كان محمد يوصي بحب المسيحيين كإخوة له، والله لا يرضى بإراقة الدم، ولم يقبل محمد مثل هذه التضحيات، فإذا كان محتاجا إلى المال ــ وهذا لا يظن من أمير بهذا القدر من الشجاعة والسطوة ــ أعطاه إياه، أما إذا أراد سلبه، فالله في عليائه ساهر لاحقاق الحق، فليس من الانصاف أن تكون للبشر الذي لا يدوم ضغائن دائمة كحال الشياطين ! فكان لهذه المواعظ مفعولها لدرجة أن الرشيد أرسل إلى نيسيفور هدية من الأشياء التي أخذها، ومنحه الهدنة على أن يؤدي له كل سنة ثلاثين ألف بيزان ذهبا، فضلا عن ستة آلاف كجزية عن الامبراطور وابنه. وبعد أن تسلم إتاوة عام رجع منتصرا إلى بيت المقدس مفتخرا بكونه أخضع نيسيفور وابنه للجزية. وبعد ذلك أمر بتحطيم الحصون دون أن يسمح للامبراطور بإعادة بنائها، لكن إيمان ووعد الطاغية (207) داما أكثر من إيمان ووعد المسيحيين ، إذ بمجرد ما انسحب الرشيد، أعاد نيسيفور بناء الحصون وحشد جيشا استرجع به كل ما كان قد فقده. ولما علم الرشيد بذلك، أرسل ابن الزبير إلى رومانيا فاحتل مدينة طبزة وجاس خلال الديار، وأمر بتحطيم جميع كنائس المسيحيين، ثم عاد منتصرا إلى بيت المقدس.

وفي العام التالي (208) أرسل الرشيد جيشه إلى قبرص بقيادة سميت فخرب الجزيرة كلها، وأمر بهدم الكنائس، وذهب في فصل الربيع الموالي لمحاصرة رودس التي دافعت عن نفسها ببطولة حتى اضطر إلى رفع الحصار بعد أن دمر البلاد، ورجع إلى الشام، لكن معظم جيشه هلك بسبب هبوب زوبعة أثناء رجوعه.

إفريقيـــــا

وبينما كانت هذه الأشياء تحدث بآسيا، دخل زناتة إلى بلاد البربر، وهم قوم شجعان ينتقلون عبر صحاري نوميديا والظهرة كأنهم منفيون ، فتمكنوا من قسنطينة وقتلوا الوالي الذي أقامه بها حاكم القيروان، ثم طردوا العرب من الاقليم واستولوا عليه (209).

(207) بهذا يعبر مارمول المتعصب عن الخليفة المتسامح الذي عفا عند المقدرة ، وكان باستطاعته أن يقضي نهائيا على الامبراطورية المسيحية .

(208) عـام 803 .

(209) عام 795 .

إسبانيـــا

وحتى نعود إلى إسبانيا نذكر أن دوم فيرمود، الذي كان دائما يعترف بأنه يحتفظ بالمملكة لانفونسو، بعد أن مات عبد الرحمن عام تسعين وسبعمائة، طلب من ابنه (هشام) (210) مواصلة الهدنة التي لم يقبلها هذا الأخير إلا بشرط تسليم مائة فتاة كالعادة. لكن فيرمود لم يرض بهذا الشرط قائلا إنه لم يتعود فعل مثل هذه الرذائل، راجيا من الله أن يؤيده. ثم إن سليمان أخا (هشام) ثار ضده بطليطلة وتلقب بملك إسبانيا. بمساعدة بعض الثوار، فاضطر (هشام) إلى إبرام هدنة مع فيرمود دون قيد ولا شرط. ولم تنته الحرب المستعرة بين الاخوين إلا بانسحاب سليمان والتجائه إلى مدينة مرسية بعد أن انهزم في عدة معارك، وخاصة بالقرب من فيلش، ولم يغادر مرسية إلا عندما اضطر إلى الهروب إلى بلاد البربر. يقول ابن راشد إنه سمح له بالخروج منها شريطة أن يعبر إلى تلك البلاد، وبعد ذلك تمكن أخوه من طليطلة ومن سائر معاقله الأخرى. ومات فيرمود عام اثنين وتسعين وسبعمائة وخلفه ألفونسو (211) الملقب بالعفيف، وإن كان بعضهم يقولون إنه تزوج إحدى أخوات شارلمان. ودام حكمه إحدى وأربعين سنة، واحتفظ في بعض الوقت بالهدنة المبرمة مع الملك المسلم. ولما انتهت حرب سليمان استسلم عرب سرقسطة إلى (هشام) الذي عين مالكا حاكما لهم، ثم ألّف جيشا قويا سلم له قيادته ليتوجه إلى أكيتين ويجوس خلال ديارها، فاحتل ناربون وعدة حصون أخرى، وكانت الغنيمة التي أحرز عليها عظيمة حتى قال بعضهم إن خمسها فقط (212) الذي بعث به إلى (هشام) استعمل لتتميم المسجد الفخم الذي كان أبوه قد شرع في بنائه بقرطبة. بالاضافة إلى أنه حصل على عدد كثير من الأسرى بحيث إن الاحجار التي أمرهم بحملها على أكتافهم من ناربون إلى قرطبة كانت كافية لبناء مسجد داخل القصر، تخليدا لذكرى هذا الانتصار. وكان (هشام) أول ملك مسلم بإسبانيا جهز أسطولا أرسله من ألمرية ليسير في البحر بقيادة محمد ويغير على جزر ميورقة ومنورقة ويابسة وسردانية، وقام كذلك بإتلافات جسيمة في شواطئ فرنسا وإيطاليا (213).

(210) في الأصل عثمان .

(211) ابن فرويل .

(212) وقدره خمسة وسبعون ألف دينار ذهبا .

(213) عام 797 .

وفي نفس الوقت ثار سعد (214) وهو قائد عربي كان مقيما بمدينةبرشلونة ومعترفا بالخليفة، فاحتل (هشام) المدنية وألجأه إلى الفرار إلى فرنسا، حيث وعد شارلمان بالخضوع له وإعانته على احتلال كاطالونيا بسهولة إن استطاع هو أن يعيده إلى منصبه. فقطع شارلمان جبال البرانس عام سبعة وتسعين وسبعمائة، وبعد أن احتل برشلونة أسند حكمها إلى سعد بالاضافة إلى كيسكار وسرقسطة وحصون إخرى، ثم عاد ظافرا إلى فرنسا. لكن سعدا امتنع من الوفاء بما وعد ومن أداء الاتاوة إلى شارلمان، فسرح اليه ابنه لويس الدبونير (دمث الاخلاق) (215) لارغامه على ذلك. ولما أحس سعد بدنوه مع عدد من النبلاء حصن قلعته أوثق تحصين، واحتمى بها ليدافع عنها أحسن دفاع ، إلا انه اضطر إلى الاستسلام بعد حصار دام سنتين، والخروج مع زوجته وأولاده، وسلم لويس الحصن إلى العربي لولو (؟) الذي ساعده كثيرا في هذه الحرب، ثم عاد إلى فرنسا. ولولو هذا أزعج كثيرا العرب الخاضعين (لهشام)، وذلك بواسطة الجنود الذين كان يأتي بهم من فرنسا، فوسع جدا إمارته وساعده في ذلك أيضا موت (هشام)، فلم يعد يقاومه أحد في هذا التغيير.

ولما مات (هشام) كان ولده البكر عمر قد ذهب إلى بلاد البربر ليقوم فيها ببعض الفتوحات، فنصب أهل قرطبة مكانه أخاه الثاني (الحكم) (216) وما إن سمع بهذا الخبر حتى عاد إلى إسبانيا وشن عليه عدة غارات لقي حتفه فيها أخيرا. وبعد موته ذهب الحكم إلى إشبيلية وأقام فيها طوال حكمه الذي دام ستة وعشرين عاما وتسعة أشهر وخمسة أيام (217) وأنشأ أسطولا عظيما عام واحد وثمانمائة، وأرسله يجوس خلال شواطئ إيطاليا، ويعمر جزيرتي ميورقة ومنورقة بالسكان، ويستولي

(214) تذكر المصادر العربية الوثيقة ان سعيد بن الحسين الأنصاري ثار بطرسوسة من شرق الاندلس واعصوصبت عليه اليمانية ، لكنه لم يلبث أن قتل على يد أنصار هشام ، ولا ذكر لشارلمان ولا لابنه ، ولا لولو ! أما الثائر ببرشلونة فهو مطروح بن سليمان بن يقظان ، وملك أيضا سرقسطة ووشقة ، وكان مآله القتل أيضا على يد بعض أصحابه .(مترجم)

(215) عـم 799 .

(216) في الأصل (علينتان) ولا معنى له . وقد مات هشام بن عبد الرحمان عام 180هـ /796م بعد أن ملك سبع سنين وسبعة أشهر وأياما . فخلفه – بعهد منه – ولده الحكم بن هشام ، ولا أصل لمن سماه مارمول (أخا عمر) ولا لذيوله . نعم خرج على الحكم في أول ولايته عماه عبد الله وسليمان ــ وكانا بالمغرب الأقصى – فحاربهما الحكم وكانت عاقبة سليمان القتل ، وأخلد عبد الله إلى السكون .

(217) بل ظلت قرطبة عاصمة الخلافة الأموية وعاش فيها الحكم بن هشام طوال ملكه إلى أن مات بها آخر سنة 206هـ /822م ، بعد أن ملك 27 سنة .

وفي أيامه كانت وقعة الربض المشهورة (189 – 202هـ) حيث حاول الفقهاء خلعه لسوء سيرته الدينية ، فحاربهم وخرب ديارهم وألجأهم إلى الخروج الى مدينة فاس . انظر أحمد المقري ، نفح الطيب 339:1 ، والهامش رقم 3 .

على جزيرتي الكرس وسردانية. ولما علم شارلمان بهذه الانباء، وكان قد اتخذ لقب امبراطور، أرسل أسطولا حربيا أدرك أسطول الحكم في شواطئ سردانية، فدارت بينهما معركة شديدة انتصر أخيرا فيها الفرنسيون، بعد أن أغرقوا أحد عشر مركبا للأعداء وساروا من هناك إلى ميورقة وطردوا العرب من هذه الجزر. ثم إن سليمان الذي كان يحارب (الحكم) وهرب إلى بلاد البربر، رجع مرة أخرى إلى اسبانيا بجيش مؤلف من العرب والأفارقة، وانضم إلى عبد الله أحد إخوته، وتمكن من مملكة بلنسية، وحث طليطلة على الثورة وذبح حاميتها، لكن (الحكم) غلبه وأمر بذبحه، فانقاد عبد الله للمنتصر بعد ما رأى أخاه ميتا، لكن دون أن يسلمه طليطلة التي استمرت متمتعة بالحرية أكثر من ثماني سنوات. وقد دخل (الحكم) - بعد انتصاره - الى أركون، واحتل سرقسطة التي كانت خاضعة لشارلمان، ثم جاب الاقليم كله مارا ببرشلونة وأرغم لولو على الخضوع له. وإذ ذاك جهز شارلمان جيشا قويا وأرسله عاجلا إلى الفونسو يطلب منه المدد في هذه العملية. ورغم الهدنة التي أبرمها مع (الحكم) فإنه بعث إليه يقول إنه لم يعد يرغب في إيقاء السلم بينهما ما دام يشن الحرب على الامراء المسيحيين، وبعد أن انضم جيشا فرنسا وإسبانيا إلى بعضهما، دخلا إلى أراضي العدو واحتلا بها عدة مراكز في فترة وجيزة من الزمن .

وفي سنة ثلاث وثمانمائة (218) حاصرا مدينة لشبونة بالبرتغال وأخذاها عنوة، ثم رجع كل واحد منهما إلى بلاده محملا بالغنائم، دون أن يعترض أحد طريقهما، لأن (الحكم) كان مشتغلا بحرب قطالونيا بجميع قواته. وأخيرا تخلى عن هذه المهمة لينتقم من عدوه. ولما وصل إلى قرطبة أرسل إلى ملوك موريطانيا وإلى شيوخ العرب يستنجدهم ضد الامراء المسيحيين. وعندما وصله المدد في فصل الربيع من السنة الموالية، دخل إلى قشتالة بجيش عرمرم، وأخذ يخرب أراضي المسيحيين، فحشد الملك ألفونسو جنوده وانضم إلى الجيش الذي أرسله إليه شارلمان، وشرع في الحرب ضد (الحكم) قرب أليد حيث مات ستون ألف عربي، وترك الغنيمة للفرنسيين الذين أبلوا البلاء الكثير وردهم إلى بلادهم فرحين مغتبطين. وفي نفس السنة (219) ثار على (الحكم) أميران (220) من حاشيته وحارباه طوال سنتين قبل أن

(218) أو 800 .
(219) 803 .
(220) علق على ذلك بأنهما بجل وغراد ، ولا معنى لذلك إذ الثائران هما بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج الذي ملك سرقسطة ، وعبيدة بن حميد المتسلط على طليطلة . (مترجم) .

يستطيع إرجاعهما إلى طاعته، لأنهما كانا معززين من طرف دوم ألفونسو، واغتنم شارلمان هذه الفرصة فأرسل لويس الديبونير على رأس جيش إلى قاطالونيا فاحتل طرطوشة وبرشلونة ولاردة. وأرسل الحكم من جهته فقهاءه إلى إفريقيا ليحملوا المغاربة على إعانته ضد المسيحيين، وبذلك حشد جيشا قويا بمساعدة الافارقة والعرب ودخل إلى قطلونيا واسترجع جميع الحصون التي كان الفرنسيون قد احتلوها في السنة الماضية. وأعاد شارلمان الكرة فأرسل لويس ديبونير لكن (الحكم) لم يجرؤ على انتظاره وانسحب إلى قرطبة، فاستولى الفرنسيون للمرة الثانية على البلاد، ثم عادوا إلى فرنسا ليقضوا بها فصل الشتاء. وهناك يقال إن رولان حقق العجائب مع بعض الفرسان الفرنسيين الآخرين. فأبرم (الحكم) مع شارلمان هدنة لم تدم سوى عامين، لأن مسيل الذي كان يحكم سرقسطة من قبل الحكم، نقض الهدنة مع الفرنسيين وشن عليهم حربا عوانا في قطلونيا، حتى اضطرت برشلونة إلى الاستسلام. لكن لويس الديبونير أسرع إليها واسترجعها طوعا (221) وطرد العرب كلهم من المدينة. وبعد أن عمرها من جديد بالمسيحيين ترك أزنار يحكمها ثم عاد إلى فرنسا. وجعل أزنار هذا من هذه المدينة عاصمة قطلونيا واحتل في أراكون كيسكار التي كان يحكمها عبد الله باسم شارلمان، فشكاه عبد الله إلى شارلمان فأمر بإرجاعها إليه. غير أن أزنار ظل يعمل ضده حتى ثار عليه السكان وبايعوه ملكا، فأصبح بذلك سيد هذه الامارة لمدة طويلة.

وفي هذا الوقت توجه عمروس (222) الذي كان حاكم مدينة كيسكار بضاحية باصة، إلى طليطلة، بأمر من (الحكم) يطلب من أهلها الرجوع إلى الطاعة ويعدهم بالعفو، فسمح له هؤلاء القوم لشدة سذاجتهم بالدخول إلى مدينتهم، ولعبد الرحمن ابن (الحكم) الابن الاكبر للخليفة، الذي ما إن دخل اليها حتى أمر بتذبيح ستة آلاف من السكان. وفي نفس السنة (223) عندما رأى الملك ألفونسو العفيف نفسه بدون أولاد، وأنه في حاجة إلى قوات أخرى ليقاوم العرب، أرسل خفية إلى شارلمان الذي كان يعرف قدره طالبا منه أن يمده بالاعانة على أن يتخلى له عن تاج الملك. فقبل شارلمان هذا الشرط وجهز جيشا قويا أرسله عبر

---

(221) عام 806 .
(222) هو كمروس بن يوسف المعروف بالمُولَّد . (مترجم)
(223) 809 .

الجبال (224) للدخول إلى نافار، كما فعل ذلك من قبل، لكن ألفونسو عندما علم بخبر مجيئه، استدعى إمارته ليطلعها على ما اعتزمه. ولما لم تذعن لارادته أرسل إلى هذا الأمير يحذره ويطلب منه أن يقف ولا يتقدم أكثر، في انتظار فرصة مواتية. غضب شارلمان إذ رأى نفسه محروما من آماله ومن المصاريف التي أنفقها، إضافة إلى العناء الذي كابده، فتوغل في ممر رونسوفو مع عدد كبير من الامراء المسيحيين الذين كانوا في حاشيته، واغتاظ ألفونسو لهذا وأمر جيمع رعاياه بأخذ السلاح، وتحالف مع (الحكم)، ثم أسند قيادة جيشه إلى ابن أخته دوم برنار (225) وأمر الحكم من جهته والي سرقسطة بحشد أكثر عدد ممكن من الناس والانضمام إليه لمنع الفرنسيين من الدخول إلى إسبانيا، وتوجهوا جميعا نحو رونسوفو لمنعهم من المرور. وكان عدد الفرنسيين مائة وأربعة وثلاثين ألف محارب بقيادة رولان وأوليفيي وأسطولف، وكل منهم برتبة كونط القصر، وهي رتبة كان لها نفس السلطة التي للملك في الشؤون الحربية. وكان الجيش معسكرا في وادي أوسبيتة بجانب جبال البرانس المطلة على فرنسا، والجيش الاسباني في الجانب الآخر (226) ومنه أرسل برنار من يحتلون الممرات وقمم الجبال ليمنعوا الفرنسيين من المرور. وكان شارلمان مصحوبا بأرسطان ملك بروطاني، وكونديبو ملك فريز، وكايفر دوق كيين، وياصون دوق بوركوني، وعدد آخر من الأمراء والنبلاء المرموقين الذين كانوا — فيما يظهر — يحتقرون قوات إسبانيا. فقسم جيشه إلى ثلاث فرق، وإن قيل إن ذلك كان حيلة من كانولون. الفرقة الاولى التي كانت بمثابة الطليعة قادها رولان وأوليفيي مع جميع نبلاء فرنسا، والثانية قادها لويس الديبونير مصحوبا بجميع الامراء، أما الثالثة فاحتفظ بها شارلمان مع الكونط كانولون. وكان الجيش الاسباني مقسوما إلى فرقتين، إحداهما مؤلفة من المسيحيين بقيادة برنار، والاخرى مؤلفة من المسلمين بقيادة ماسيل، فضلا عن الجنود المنفردين المنتشرين هنا وهناك على قمم الجبال، وعندما شرعت الطليعة في الصعود وهي مثقلة بالاسلحة متعبة بالسير انقض عليها الاسبانيون من كل جهة وهزموها بسهولة. فقتل أوليفيي ورولان، واضطر الباقون إلى التخلص بالفرار. ولم يكن الذين ماتوا في المعركة بأشقى ممن لم يموتوا فيها، لان

---

(224) عام 809 حسب تواريخ كاسكونيا ، أو 800 .

(225) ابن دونية شيمينة أخت الملك الكونط سانشودبازدي سالدانيا .

(226) في وادي كارلو .

هؤلاء هربوا إلى الصخور والجرفة فلقوا كثيرا من العنت وماتوا شر ميتة. وبعد انهزام الطليعة لم تستطع المعركة التالية أن تقاوم أكثر، فتابع برنار انتصاره إلى أن اقترب من معسكر شارلمان الذي انسحب إلى تولوز مع حاميته بعد أن شاهد ذلك الاضطراب، وعاد الاسبانيون والعرب إلى اسبانيا منتصرين.

وفي السنة الموالية (227) لما رأى الحكم الخلاف قائما تبين ملك فرنسا وملك اسبانيا قطع العلاقات مع الاسبانيين، فأرسل ملكهم في الحين يستنجد بشارلمان، معتذرا له بأسلوب لطيف حتى أبرم الصلح معه. وقسم الحكم جيشه إلى تجريدتين، إحداهما بقيادة أبي العباس، والأخرى بقيادة مالك، فأرسل الأولى الى كاليسيا، والثانية إلى قشتالة. وقسم ألفونسو جيشه كذلك إلى تجريدتين أسند إحداهما إلى برنار الذي غلب أبا العباس وقتله في نارون، وهزم هو مالكا قرب نهر سيفا الذي غرق فيه القائد المسلم، وفقد الخليفة في هتين المعركتين معظم العرب.

وفي سنة إحدى عشرة وثمانمائة، دخل عمر الذي كان يحكم ماردة في الاسترامادور إلى أراضي ألفونسو وحاصر مدينة بينيفانت، لكن برنار أسرع لاغاثتها وقتل عمر بيده وحقق ذلك النهار أعمالا بطولية بحيث لم ينج إلا القليل من العرب. وفي نفس السنة دخل الحكم إلى البرتغال بجيش عرمرم وحاصر مدينة لشبونة التي احتلها طوعا، واسترجع عدة حصون لدى عودته من يد دوم ألفونسو، لكن عندما كان يحاصر ليديسم، أسرع الملك لنجدتها ونازله في معركة قتل فيها عدد كبير من الجهتين دون أن تسفر عن غالب ومغلوب، فانسحب ألفونسو إلى جهته وعاد الحكم إلى قرطبة بعدما كلف ألكاما بحراسة الحصون التي احتلها (228)، وأرسل أيضا أسطوله إلى شواطئ إيطاليا، فنهب قسم منه جزيرة سردانية في طريقه، ونهب القسم الآخر جزيرة ميروقة، غير أن برنار ملك إيطاليا تعرض للأولين وقتل جلهم.

وفي سنة اثنتي عشر وثمانمائة حاصر ألكاما مدينة سامور بعد أن حشد جمهورا كبيرا من العرب في باداشوس ــ التي يسميها العرب بلاد العيش، أي بلاد الحياة ــ فانتصر عليه فيها برنار وقتله، ثم استمر في انتصاره تاركا القليل من

---

(227) 810 .

(228) عام 811 .

الاعداء يتمتعون بالحياة. وفي نفس السنة، حينما رأى الحكم أن أموره لا تسير على الوجه المطلوب، طلب المدد من أمراء إفريقيا، فأرسلوا إليه جيشين في فصل الربيع من السنة الموالية (229)، دخلا معا إلى أراضي دوم ألفونسو الذي قسم هو الآخر جنوده قسمين لمقاومتها. فانتصر برنار على أحدهما عند حدود البرتغال في مكان يسمى فالديمور، وانتصر الملك على الآخر بالقرب من نهر أورنيس حيث قتل عدد لا يحصى من العرب، واسترجعت عدة حصون من يد العدو. ولما أهين الحكم هكذا أبرم الهدنة مع شارلمان ودوم ألفونسو، وأعلن برنار أثناء ذلك الحرب على الملك دوم الفونسو وسلبه مدينة كاربيو الواقعة بين سلامنكا وألفادي طورم ليزغمه على أن يرد إليه أباه الكونت سانشودياز ديمالدان الذي كان سجينا عنده. ووقع الاتفاق أخيرا على أن يرد برنار مدينة كاربيو إلى الملك، ويرد الملك إليه أباه. وعندما سلم برنار المدينة استلم أباه ميتا، فغضب ورجع إلى فرنسا حيث عينه الملك قائدا عاما لجيوشه.

آسيـــــا

لقد ذكرنا في الفصل الثامن عشر كيف اضطهد عبد الله بن محمد آل علي ليقيم دولته ويسلمها لابنه محمد المهدي، حتى إن أحدهم (230) هرب إلى موريطانيا الطنجية واستقر بوليلي (231) في جبل زرهون. وبما أنه كان من آل بيت محمد (عليه السلام) لين الجانب، فقد ملك قلوب هذه القبائل حتى إنهم أجلوه كصالح وأطاعوه كأمير لهم، فكان أول من غرس بها هذا الدين، وكان كثيرا ما يرسل جنودا إلى إسبانيا لشن الغارة على المسيحيين، فأكسبه ذلك الكثير من التقدير والمال والشهرة. ولم يعقب إلا ولدا من جارية مسيحية من سلالة القوط (232) وإن كان يعتقد أنه لم يولد إلا بعد وفاته. فربي هذا الوليد بكامل العناية، وعهد بتربيته إلى أحد موالي أبيه القدماء اسمه راشد، إذ لم يقبل الشعب ملكا آخر غيره. فأصبح هذا الامير الذي يسمى إدريس ـــ كأبيه ـــ أحد ملوك إفريقيا الأكثر سلطة، وأحرز على انتصارات عديدة في شبابه. وهو الذي أسس مدينة فاس على

---

(229) 813 .

(230) وهو إدريــس .

(231) في الأصل أيضا : تيوليت .

(232) بل هي كنزة البربرية المسلمة .(مترجم)

النهر الذي يحمل اسمها سنة ثلاث وتسعين وسبعمائة، أي عام خمسة وثمانين ومائة للهجرة (233) ودام ملك هذه الدولة في موريطانيا كلها — أو في جزء منها — مائة وخمسين سنة، إلى أن أبادتها دولة مكناسة، ثم دولة محيي الدين (كذا) أحد خلفاء القيروان الخارجيين.

وفي سنة أربع عشرة وثمانمائة (234) مات هارون الرشيد في بلاد فارس بينما كان يستعد لمحاربة الامبراطور بشدة ، تاركا خلفا له ابنه محمد الذي ظهرت في خلافته شيعة بغداد (235) وحدث الانشقاق في مملكة العرب، كما سنذكر ذلك في الفصل التالي .

(233) المشهور أن المولى إدريس بن ادريس شرع في بنائها يوم الخميس فاتح ربيع الأول عام 192 /4 يناير 808 . انظر ابن أبي زرع ، **القرطاس** ص 38 . (مترجم)

(234) مات هارون الرشيد بمدينة طوس من أعمال خراسان ، في 3 جمادى الآخرة عام 193 /24 مارس سنة 809 بعد أن حكم 23 سنة وشهرين ، وأوصى بالخلافة من بعده لابنه الأمين ، وللمامون من بعده ، وللمؤتمن من بعده .(مترجم) .

(235) سماها مارمول — كعادته — بابلون . (مترجم)

الفصل الثاني والعشـــرون

محمد الخليفة العشرون وماجرى في عهده

ما إن تولى محمد (1) مقاليد الدولة حتى جرت بينه وبين أخيه عبد الله (2) عدة حروب انسحب أثناءها المسيحيون المظلومون من البلاد واستقروا في جهات أخرى. وكانت مدينة القدس أكثرها تعرضا للاضطهاد. فقد وقع استهانة بالاماكن المقدسة، وتركت الكنائس والأديرة وحصل اضطهاد لعدد من القساوسة ورجال الدين، فاضطر الآخرون للالتجاء الى قبرص والى القسطنطينية وسط المزيد من المحنة والخطر. ورأى الاخوان في النهاية أن نزاعهما سيسبب خراب الدولة فاتفقا على أن يحملا كلاهما لقب الخليفة ، ونقل محمد مقره من دمشق إلى بلدك أو بغداد التي بناها على أنقاص بابل القديمة (أو بالاحرى على انقاض سلوقية الواقعة على يوم من بابل) وهذا الانقسام نشأت عنه عدة ثورات. فكان هنالك خمس خلفاء : اثنان بإفريقية وواحد باسبانيا والآخران ببغداد والقاهرة (3).

ففي أفريقية كان واحد منهم يتولى الملك بفاس والثاني بالقيروان، حيث كان هنالك سيد عربي يدعى الأغلب أو الغالب حكمت أسرته أزيد من مائة وستين سنة الى أن خلغ من لدن المهدي الشيعي الذي كان أول خليفة بافريقية، أصله من الشرق، مثل إدريس بالنسبة للغرب، وكلاهما من أصلين مختلفين ومذهبين متغايرين. فالمهدي كان من بيت العباس، عم محمد، وادريس من بيت علي صهره. ولم يكن هنالك اعتراف بخليفة بغداد لامن جهة افريقيا ولا من جهة اسبانيا، ذلك أن الحكام فيهما، وبخاصة في القيروان أصبحوا جد أقوياء، اذ أنهم

---

(1) المراد به محمد الأمين ابن هارون الرشيد (مترجم) .

(2) عبد الله هو اسم الخليفة المامون (مترجم) .

(3) كل هذا يخالف وقائع التاريخ (مترجم) .

امتدوا بسيطرتهم الى بلاد الزنوج واستولوا على صقلية وعلى جزء من طوسكانيا ومن مملكة نابولي. وعظمت حاشيتهم الى درجة أن القيروان ضاقت بهم فتحولوا الى رقادة القريبة منها وزينوها بكثير من البناءات حتى غدت تضاهي بغداد. وزيادة على الامير والاشراف الذين كانوا يقطنون بالقيروان فان معظم سكانها كان يوجد من بينهم عدد من الفقهاء لا يقل عما كان يوجد بالبصرة. وقد اتسعت القاهرة بكثرة منذ أن استقر بها السلاطين، (4)، بحيث أصبحت تعتبر اليوم كأكبر مدينة في العالم. (5) وأما خلفاء الشرق، فقد ظلت حاضرة ملكهم هي بغداد حتى خربها التتار في سنة ألف ومائتين وثمانية وثمانين، وكانت هي آخر سنة في ملك أولئك الخلفاء

وفي تلك الاثناء، رأى محمد انتعاش فرقة المرابطين (الدعاة) بفضل دعوة المسمى جوهر الذي كان يوجه دعاته في كل مكان، فعقد جمعا في بغداد ندد فيه بتلك الفرقة وطارد أتباعها الى الحكم عليهم بالقتل. ولكن جوهر دافع عنها أحسن دفاع ضدا على فقهاء الاشعرية، مما جعل الخليفة ينضم اليها.

وفي ذلك الوقت قام الامبراطور ميخائيل، صهر نقفور بحرب كبيرة سأتحدث عنها هنا، لانها كانت في قسم منها مع القوات العربية وكان هنالك رجل يدعى طوماس يتصف بشجاعة كبيرة لكنه من أصل وضيع وكان في خدمة أحد شيوخ القسطنطينية. فحلت به مصيبة حملته على الالتجاء عند العرب ونال شهرة كبيرة وحصل على ثقة الخلفاء في مدة عشرين سنة حتى انهم، بعد أن دخل في دينهم، وجهوه على رأس جيش لمحاربة الامبراطورية وكان قد وعدهم بادخالها تحت طاعتهم. ويقول الآخرون بأنه كان تركيا، من سلالة بردان وأنه بسبب صداقته مع ليون أراد أن يأخذ الثأر من قاتله. (6) فحشد جيشا كبيرا من الفرس والميديين والكلدانيين والعرب والايبيريين وغيرهم من أمم أخرى، وساروا وراءه إما بدافع المحبة أو بدافع المصلحة أو بالقوة بالنسبة للبعض منهم، وانضم إليه كذلك عدد من النبلاء المسيحيين الذين ساندوه بسبب كراهيتهم لميخائيل على ما يتصف به

---

(4) يستعمل المؤلف كلمة سودان ، وهو لفظ استعمله المؤلفون الأوربيون في معنى سلطان ، وكانوا يقصدون به في الغالب ملوك مصر في عهد الاسلام . (مترجم) .

(5) بإدخال عدد من الأماكن المجاورة التي كانت بمثابة أرباض منفصلة .

(6) ميخائيل .

من رذائل. واستطاع بهذا الجيش أن يسيطر على كل أقاليم الشرق (7)، وخرب عددا من المدن في آسيا من التي كانت تريد أن تظل على وفائها للامبراطور. ولم يبق اذن، من بين قادة الامبراطورية الا اثنان، كراسيلا وأولفيان، هذا في أرمينية والآخر في غيرها (8)، وقد اعترف الامبراطور منذ ذلك الحين أجمل اعتراف بخدمتهما. وعظم شأن طوماس بما ناله من انتصارات، فتخلى امبراطور وتوج نفسه على يد أيوب، أسقف انطاكيا، الذي جعل منه شريكا في الامبراطورية. وجمع الامبراطور(9) بعض الجنود لدى سماع هاته الاخبار، واستطاع الآخر أن يهزمهم بسهولة لانه كان اقوى. فقد كان لديه ثمانون ألف رجل وبما أنه كان مسيطرا على الجيش البحري فقد بلغ بانتصاره الى أبيه، محرقا ومحطما كل شيء. ومن هناك انتقل الى تراقيا مستورا بليل حالك مظلم، وكان عدد من الطرف الآخر يستسلمون له كل يوم، دون أن يستطيع أورفيان ولا كراسيلا، اللذان أتى بهما الامبراطور أن يقاوماه، ثم أخذ في مهاجمة القسطنطينية برا وبحرا فكسر السلسلة التي كانت تغلق الميناء ولم يستطع أن يستولي على المكان بالقوة ، فخيم حوله بقسم من الجيش، بينما كان القسم الآخر يخضع بقية تراقيا. وبينما كان يراوده الأمل في الاستيلاء على المدنية، جاءت عاصفة أبعدت سفنه وأرغمته على الانسحاب الى آسيا، لأن فصل الشتاء كان قريبا. وما أن عاد الربيع حتى جدد الحصار بجنود أكثر من ذي قبل . ولكن الامبراطور كان قادرا على الدفاع، فخرج من جميع الأبواب وقتل فريقا منهم وبث الفوضى في البقية. وهجم جيش الامبراطور البحري في نفس الوقت على جيش العدو فهزمه. وعلى اثر ذلك، قام أحد اقرباء ليون من الذين ساندوا طوماس وكان مغضوبا عليه من الامبراطور، فاغتنم الفرصة ليحصل على رضا أميره. وبما أنه كان على رأس فيالق كثيرة، فقد هجم على الجيش من المؤخرة. وثار طوماس لهذا الغدر وكان لديه من القوات ما يساعده على الاحتفاظ بمعسكره، فهجم عليه بقوة وغلبه وقتله. ثم إنه أخفى هزيمته وكتب الى كل مكان بأنه هو الذي هزم الامبراطور وأنه يحاصره داخل العاصمة. ووجه الامبراطور أثناء ذلك سفنه ليلا الى الجيش البحري الموجود في باروط فأثار لديه رعبا كبيرا بما أطلقه من نيران

---

(7) في الأصل كلمة غرب .
(8) في أوسيسيان .
(8) ميخاييل .

اصطناعية حتى أحرق منه جزءا ودمر الجزء الآخر، باستثناء ما أخذوا منه الى القسطنطينية، وانضم الفار منها الى الجيش البري، فانتشر صدى هذا الانتصار في كل مكان وأعلن ملك البلغار، (10) بدافع الرغبة في الغنائم، وكذلك من أجل تأكيد المهادنة التي كان أبرمها مع ليون، عداءه لطوماس فجاء لملاقاته قريبا من القسطنطينية (11) وأنشب معه الحرب وألحق به الهزيمة،ورجع مثقلا بالأسرى والغنائم ولما انتشر الخبر انضمّ من بقوا في المعسكر الى الامبراطور والتحق طوماس بجنوده وخيم بمكان يستطيع منه أن يروع السكان وأن يتلقى بعض النجدات عن طريق البحر. ولكن الامبراطور الذي عظم جيشه بفلول جنده هاجمه في حصنه وأجبره على الفرار، فالتجأ الى اندرينوبل مع معظم من استطاع ان يضمهم اليه، وقد شاهد أن الآخرين تخلوا عنه، وكذلك فعل ولده أنستازي الذي تبناه في قصر بيزي. وعلى إثر ذلك هب الامبراطور لمنازلة أندرينويل وحاصرها وشدد عليها الخناق حتى خلت منها الاقوات. فأرسل السكان سرا اليه يلتمسون عفوه وسلموا اليه طوماس. فبطحه على الأرض ومر على جسده وهو يدوسه باقدامه، ثم طوّفه محمولا على حمار بعد أن قطع يديه ورجليه والشقي يصيح يا الاه، أنت الملك الحقيقي، فكن رحيما بي. وأراد الامبراطور أن يعلم منه اسم شركائه ، لكنه لم يسم أحدا، ومات في العذاب دون أن يتنازل . وأما أنستازي الذي التجأ الى بيزي ، فقد وقع تسليمه وجرى عليه العقاب بنفس الشدة .

اسبانيــــا

ولنرجع الى الغرب الذي لم يكن أقل تعرضا للحروب بعد أن هزم الفونس وبرنارد الجيشين الموجهين من الحكم في عام ثمانمائة وثلاثة عشر وأجريا معه الهدنة ومات شارلمان في السنة التالية بعد أن تملك على فرنسا طوال سبع وأربعين سنة، قضى منها اربع عشرة سنة وهو امبراطور. وخلفه ولده لويس الطيب، مما حرك آمال المسلمين . وفي تلك الاثناء ثار عامل بلنسية عبد الله على الحكم وحاربه

(10) مونتاف .

(11) في مكان يسمى سيدوكت .

طوال أربع سنوات وثار في نفس المدة عامل ماردة محمد، وهو يظن أن النجدة ستأتيه من ألفونسو. ولكن هاته الثورة قمعت بمجرد نشوبها. ذلك أن عبد الرحمن ابن الحكم قضى عليه واحتل البلد. وقد استطاع ان يضم اليه بعض الجنود ويذهب الى الفونسو الذي أحسن استقباله ووجهه الى غاليسيا ضد بعض الشعوب التي انتقضت بتحريض من فارس اسمه دون ريموند .وبعد سنوات عمل محمد مع دون الفونس نفس ما عمله مع الحكم ، فتحالف مع ريموند وقام الاثنان بغارات في بلاده مع حشود من العرب تمكنا من اجتذابهم الى جهتهم وقاد ألفونس جيشه على الفور وسار في طريق غاليسيا وما ان رآه ريموند حتى تخلى عن محمد وتزوج بابنة أخيه . ووجد محمد نفسه معزولا ، فالتجأ الى قصر سانت كريستين حيث حاصره الملك. ولما أدرك أن لا منجاة له، قرر أن يقوم بآخر مجهوده أو أن يدبر أمر فراره، لكنه غلب ووقع في الاسر ثم قطعوا رأسه. وبعد أن هدأ دون الفونس هاته الثورة واسترجع كل الاماكن التي أخذت منه، رجع الى ليون في سنة ثمانمائة وعشر وعقد الحكم معه الهدنة ، ثم دخل الى قطلونية على رأس جيش قوي فحاصر العاصمة (12) التي دافع عنها بشجاعة برنارد ديل كامبيو قائد فرنسا، أو شخص آخر يحمل نفس الاسم، بحيث انه ما بلغ خبر وصول لويس الطيب حتى رفع الحصار وابرم الهدنة لمدة ثلاث سنوات بعد أن أهلك قسما من جنده في الهجوم. وبعد انتهاء الهدنة، التي لم يحدث أثناءها شيء يذكر، جمع جيشا آخر من العرب الأفارقة وقصد برشلونة (13).لكن الحمى أصابته في الطريق وانتهت مشاريعه مع نهاية حياته. وتوفي الملك الفونس بعد سنة ثمانمائة وأربع وعشرين (14) وأوصى بالتاج لدون رامبر (15)، الذي تهادن مع عبد الرحمان لمدة طويلة.

استلاء العرب على جزيرة اقريطش

في تلك الاثناء، طلب العرب المستقرون بمملكة بلنسبة والذين ساندوا عبد الله ضدا على الحكم، من عبد الرحمان الاذن بالذهاب للاستقرار في مكان ببلاد

---

(12) برشلونة .
(13) 819 .
(14) 824 .
(15) ابن الملك .

النصراينة، وقد شاهدوا أن ملكي فرنسا واسبانيا في سلم مع بعضهما. فجمعوا عددا من السفن التي أعطاهم اياها ومن التي جاءتهم من افريقية وذهبوا للنزول في جزيرة كورسيكا تحت قيادة مومن عبد يمر (16) ولما استولوا على قسم من الجزيرة جاء إليهم جيش من ايطاليا وهجم عليهم وطردهم بعد أن قتل رئيسهم فانتخبوا كراكيكس (17) مكانه ويسميه الغير أشعب. وبما أن اقاليم الامبراطورية كانت في حالة ضعف بسبب الحروب السابقة، فقد ساروا بحرا الى جهة اليونان وعاشوا في عدد من الجزر وجدوها بدون حماية. وتيقنوا أن جزيرة اقريطش ستكون هي أيضا غير محمية مثل الاخرى، وأدركوا أنها أحسن مكان للاستيطان، بسبب خصب البلد وحسن موقعه، فقرروا الرجوع الى اسبانيا للتزود بكل ماهو ضروري لانجاز مشروع كبير كهذا، وعاد كراككس في السنة التالية الى اليونان باربعين سفينة محملة بأناس رغبتهم في النهب أكثر من رغبتهم في الاستيطان. ولكن هذا القائد ما ان نزل إلى الأرض حتى وجه قسما من الرجال للقيام بخدمات وأحرق السفن، اذ كانت له نوايا أخرى. ولما اشتكوا له من عمله، ذكرهم بأنهم طلبوا منه منزلا أحسن من بلنسية، وأنه ماكان ليجد لهم أحسن مما هم فيه ولا مكانا أفضل للحصول على الغنى، ولما عبر البعض عن قلقهم من غياب نسائهم وأولادهم، يدَّدَ تخوفهم قائلا إنهم سيجدون غيرهم في الجزيرة فساندوه بقوة في المكان الذي نزل به وسموه قنداق (18). ولما علم الامبراطور (19) بهذا الحدث، ولم يكن له شي يعمله في بلده، وجه لهم حاكم أقاليم الشرق مع جنود وقائد شجاع اسمه داميان. ولكن العرب غلبوهم وطردوهم، وقتل القائد أثناء ذلك، وحينئذاك أتى اليهم راهب كان يسكن بالجبال وقال لهم ان المكان الذي اختاروه للاستيطان لم يكن صالحا مثل الذي دلهم عليه. فاستقروا هنالك ووضعوا الأسس الاولى لمدينة كانديا، ومن هنالك استولوا على كل الجزيرة وأصبح السكان حوالتهم تابعين لهم.

ومن جهة أخرى، خرجت مجموعة من العرب من ألمرية باسبانيا وذهبوا للاستقرار بكورسيكا وسردانيا، ولكن الايطاليين طردوهم من هنالك بقيادة شارل كونت بوكاريد، وقتل خمسة آلاف من العرب، وجاءت بعد ذلك فرصة الحرب التي أثارها بيبين ملك ايطاليا على البندقيين، فرجعوا وبعد أن نهبوا جزءا من جزيرة

(16) كذا بالاصل . وهي محرفة عن اسم أبي حفص عمر المعروف بالبلوطي الذي خرج بجماعة من الربضيين من الاندلس وذهب في خبر طويل ، لفتح جزيرة اقريطش (المترجم) .

(17) لعلها تحريف عن الاقريطشي الذي عرف به عمر البلوطي .

(18) لم نهتد لمعنى هاته الكلمة المحرفة عن أصل عربي ، ولا شك (مترجم) .

(19) ميخائيل .

سردانيا وقتلوا كثيرا من سكانها أخذوا منها مجموعة كبيرة وعددا من الاسرى الى كورسيكا.

واراد الامبراطور ان يطهر الجزيرة من أولئك العرب، فوجه اليها سبعين سفينة كبيرة وعددا من السفن الصغرى مع كثير من الجنود، تحت قيادة رجل اسمه كراتير الذي ماأن وصل الى الجزيرة حتى أنشب الحرب مع العرب ودامت من الصباح الى وسط النهار مع تكافؤ المعسكرين. وفي الاخير أحرز النصر فأخذ في تقتيل الأعداء بشدة، وفر الباقون الى مدينة كانديا، متسترين بالليل، لكن الغالب دخلته نشوة الانتصار، فملأ بطنه خمرا ولحما، دون أن يضع حراسة ولا خفيرا، فهب العرب الذين لم يخلدوا الى النوم في نفس الليلة، وهجموا على القوم وذبحوهم دون أن يفلت واحد منهم وفر القائد في سفينة، متظاهرا بأنه تاجر، فوجهوا وراءه رجالا أرجعوه، فوضعه كراككس في المشنقة . ولما بلغ الخبر الامبراطور وجّه قائدا أكثر رزانة (20) وتجربة ، فقام بالقرصنة حول الشاطىء، وقتل وأسر عددا من العرب مما جعلهم يفقدون كبرياءهم.

صقليـــــة

في عام ثمانمائة وثمانية وعشرين، قام آوفيم الذي كان يقود كتيبة في صقلية باختطاف راهبة من ديرها، فاشتكى اخوتها الى الامبراطور، فامر الوالي بأن يجدع انفه، فعلم الضابط بالامر فتآمر عليه وانتقل الى افريقية ووعدا عبد الله (21) ، ملك القيروان، من اسرة الاغالبة، الذي كان آنذاك قويا، أن يسهل عليه الاستيلاء على صقلية ثم على الامبراطورية، وبناء على ذلك حشد عبد الله جيشا كبيراووجهه تحت قيادة اخيه علقمة الذي طرد رجال الامبراطورية من الجزيرة (22) وبني حصنا أسماه باسمه من الجهة المطلة على افريقية وهي التي تسمى الآن علقمة، وانتشر النبأ عن ذلك باروبا فهب المسيحيون من كل جهة وقاموا بالحصار، ولكن عبد الله وجه القائد أسدا على رأس جند استطاعوا ان يفكوا الحصار والتحقوا بالاخرين فطردوا النصارى من الجزيرة وأصبحوا أسيادا عليها في عهد البابا غريغوريوس الرابع.

---

(20) أوريفـــان .

(21) خطأ في اسم الأمير الأغلبي المعني بهاته الأحداث ، وهو زيادة الله الذي حكم في فترة 201 – 223هـ 816 – 837 . وأما عبد الله فقد حكم قبل ذلك التاريخ في فترة 196 – 201 / 812 – 816 (المترجم) .

(22) كانت في ملكية الامبراطور

ثم ان الغالبين تقاسموا الاراضي ومداخل الدولة وضربوا سكة رأيتها، في جهة منها حروف عربية وفي الاخرى حروف وشعارات مسيحية. وتلقى أوفيم جزاء خيانته على الفور في سرقسطة (23) اذ قتله السكان هنالك وهو يحمل شارات الامبراطورية. وما ان سيطر العرب على صقلية حتى دمروا كلبرية والاقاليم الايطالية الاخرى وبنوا حصونا في جزر مالطة وجوز وبانطانلي لتكون ملاجيء للجيوش البحرية وتتلقى الامدادات الموجهة اليها من افريقية.

وفي سنة ثمانمائة وسبعين أنشب قائد الجيش البحري الايطالي ارمانجفر المعركة قرب جزيرتي كورسيكا وسردانية فاستولى على عدد من السفن وخلص خمسمائة عبد مسيحي. ومن جهة أخرى كان عرب صقلية يعرفون ان البندقيين يتسلحون بكثرة لفائدة الامبراطور، الذي تدخل تلك الجزيرة في ممتلكاته، فانسحبوا اليها محملين بالغنائم التي جمعوها من كل السواحل. وكان هؤلاء المسلمون يسيطرون هنالك على مدينة بالرمة، ولم يكن هنالك من يعترض عليهم. ولما جاء بونيفاس، كونت كورسيكا، ومعه البندقيون وبعض النبلاء من رومانيا الى افريقية وكانوا يشكلون جيشا عظيما واستقروا ما بين أوتيكا وقرطاج، وانتصروا على العرب في اربع معارك وهزموا عددا كبيرا منهم. مما اجبر المقيمين منهم بصقلية على التخلي عن الجزيرة لنجدة بيوتهم واسرهم. وهكذا حرر بونيفاس صقلية من اولئك اللصوص ورجع الى ايطاليا مثقلا بالغنائم.

اسبانيا

اذا رجعنا الى الحديث عن اسبانيا ، فان عبد الرحمن ملك قرطبة (24) قطع الهدنة مع دون رامير في نفس السنة . بتحريض من ملك فاس وغيره من أمراء افريقية الذين قدموا له مساعدتهم . وهكذا اجتاز الى اسبانيا عدد من العرب والافارقة حتى امتلأت بهم الأرض كالجراد ، فتوغلوا في أراضي دون رامير وألحقوا بها أضرارا كبيرة. وكان دخول تلك الفيالق وقطع الهدنة مفاجأة

---

(23) سراكوزة .
(24) 834 .

كبيرة لدون رامير ، الذي لم يكن مستعدا لمجابهتهم بعد احدى عشرة سنة من السلم ، حتى انه وجه الى عبد الرحمن يترجاه أن يحافظ على الهدنة اذ لا داعي لالغائها . ولكن هذا الأمير الذي دخلته الكبرياء بما كان لديه من قوات رد على السفراء بأنه لن يمنح الهدنة الا مقابل مائة من البنات كجزية سنوية ، طبقا لما جرت عليه العادة مع اسلافه . غضب ذلك الملك الطيب لهاته الوقاحة ، وعاوده الأمل في الانتصار وجمع كل قواته على عجل وذهب لملاقاة اعدائه الذين كانوا يتحركون حول فطنار ، يحرقون ويخربون كل شيء وكانت المعركة دامية واستمرت النهار بأكمله مع تكافؤ الخصمين (25) . لكن الملك وقد رأى دنو الليل وضعف رجاله ، انسحب الى جبل (26) وظل طول الليل يتهجد ويتوسل الى الله أن يهب له النصر ، وأثناء دعواته أخذته سنة من النوم فرأى الحوارى القديس يعقوب يقول له بأن الدفاع عن اسبانيا قد طوق به كشريك له ، وأن عليه أن يكون شجاعا ، وأنه سينتصر بعون الله

وان عددا من ذويه سيموتون في المعركة وأن الدليل على ما يقوله هو أن الناس سيشاهدونه على جواد ابيض عند اشتداد القتال وأن عليه بمجرد بزوغ النهار هو وجيشه بكامله أن يعترفوا بخطاياهم وأن يتلقوا سر القربان المقدس

وبعد ذلك يتقدم بشجاعة نحو العدو. ودعا الملك الاساقفة والمرشدين وكل النبلاء في الحين واخبرهم برؤياه، ثم دعاهم هم وكل الجنود الى الاعتراف وتناول القربان واستانف القتال وشاهد الحواري يضرب الاعداء كما يؤكده المؤرخون ويذكره هو في الامتياز الذي منحه الى دار الحواري السعيد، بما نذر كبراء المملكة بان يسموه باسم القديس يعقوب. واخيرا، غلب العرب بنجدة من السماء وذكر بانه مات منهم سبعون الفا، عدا عددا كبيرا من الاسرى وفر عبد الرحمن الى قرطبة . واحتفاء بهذا الانتصار، أسس دون رامير جماعة فرسان القديس يعقوب وقد جرت هاته المعركة في سنة ثمانمائة واربع وثلاثين وفي رواية اخرى سنة ثمانمائة وخمس وثلاثين، في بداية عهد هذا الامير فكانت من بين اعظم الانتصارات التي استطاع الاسبان ان يحرزوها على العرب، وفيها هلك نخبة الاشراف الافارقة، مما جعل عبد الرحمن يلتمس الهدنة من دون رامير.

---

(25) في مكان اسمه كلافيشو بأرض أونيل .

(26) أونيرود لجاميتو .

من جهة اخرى رأى عرب افريقية أن الامبراطور منهمك في البطالة بالقسطنطينية، وان الامراء النصارى كانوا متنازعين فيما بينهم فهجموا على ايطاليا هجوما لم يسبق له مثيل واستولوا على سيفيتا فيشيا، وتقدموا نحو روما ودخلوا في حي الفاتيكان الذي لم يكن مقفلا آنذاك ونهبوا وأحرقوا كنيسة القديس بطرس، وانتزعوا الابواب التي كانت من الفضة ووضعوا البابا (27) في الحصار وفي نيتهم ان يستولوا على المدينة وأن يضعوا النار في كل شيء ويريقوا الدماء. ولكن لما وافاهم النبأ أن مركيز لومبارديا آت لانقاذ مركز البابوية على رأس جيش كبير، لم يجرؤوا على انتظاره وانسحبوا محرقين ومخربين كل ما صادفوه في طريقهم. ومن هناك تراجعوا مع الطريق اللاتينية بعد ان نهبوا كنيسة القديس بولس التي كانت في طريق اوستي، فأحرقوا كنيسة القديس جرمان ودير القديس بونوا في قمة كاسينو، وأخذوا من هناك تحفاثمينة. وبعد أن الحقوا الضرر بمنطقة روما وضعوا غنائمهم على ظهر السفن في نهر كارسيلان ورجعوا الى افريقية. وجاء جيش عربي آخر في نفس السنة الى ايطاليا واستولى على مدينة اوترونت بكلبرية وهنالك بنى حصنا دون ان تظهر مقاومة لذلك اثناء انقسام الامراء المسيحيين، وازدادوا قوة بعد موت الامبراطور (29) الذي كان متحالفا مع البندقيين من اجل طردهم من الجزيرة، وكان قد أعد جيشا خاصا لهذه الغاية، وفي نفس السنة مات الخليفة محمد وحل محله ولده امبراييل (30).

(27) كُريكُوريوس الثاني .
(28) كُيـدو .
(29) ميخائيل .
(30) 834 . وسيكون لنا تعليق على هذا الاسم الغريب في بداية الفصل التالي . (مترجم)

الفصل الثالث والعشرون

امبراييل الخليفة الواحد والعشرون وما جرى في عهده

تولى امبراييل (1) الخلافة ببغداد سنة 834. ولما كان شابا شجاعا وكان يكره النصارى، حشد كل جيوشه وتوغل في الاقاليم الرومانية. ولما وصل الخبر الى تيوفلس الذي خلف أباه ميخائيل خرج للقتال بجيشه، وباشارة من محاربين مقدامين تيوفيب ومانويل تقدم الى المعركة، مع أن عدد جنوده كان اقل بكثير من جنود العدو، الا أن امبراييل، إما بدافع الخوف من الأحداث أو استصغارا لجيشه ترك قائده العام (2) على رأس جيش قوامه ثمانون الف جندي لمحاربة العدو، ورجع الى سوريا مع باقي الجيش. وبعد معركة طويلة انهزم الرومان، وكاد الامبراطور ان يسقط في الاسر لولا نجدة تيوفيب الذي انقذه ومعه الفان من الفرس وكل نبلاء البلاط. ولكن العرب طاردوه وحاصروه في احد النجود. فامر تيوفيب بالنفخ في النفير وباطلاق صيحات الفرح وكأنهم تلقوا نجدات . بحيث ان العرب انسحبوا وجمع الامبراطور فلول جيوشه وعاد الى القسطنطينية . وفي السنة التالية تقدم تيوفيب لحربهم بأمر من الامير وغلبهم بالقرب من كرسيان ، (3) حيث اخذ ازيد من خمسة وعشرين الف أسير. وتشجع الامبراطور بهذا الانتصار، فاراد ان يلاقي العدو بنفسه في السنة الموالية. ولكنه لما دخل في المعركة، لم يصادف الا ما يسوءه وكاد ان يقع في الاسر لولا نجدة مانويل الذي شاهده مطوقا من كل جهة فاستطاع ان يحدث ثغرة وسط الفيالق التي كانت محيطة به، ووجده في حالة اندهاش، خارجا عن الطور، فرفع يديه وقال له اما ان يفر او يقتله حتى لا يترك للبربار الافتخار باخذ الامبراطور كاسير. ولما عاد الى القسطنطينية افاض من كرمه

(1) هذا اسم غريب . ولا شك أن المراد به الخليفة المعتصم الذي تولى الخلافة في سنة 833 لا 834 . ولعله محرف عن إبراهيم ، لأن المعتصم يُكنّى أبا إسحاق (مترجم) .

(2) زكريــاء .

(3) 836 .

الواسع على مانويل مكافأة له. الا انه بعد مرور مدة من الزمان، أراد ان يلقي عليه القبض ويفقأ عينيه، لما بلغه من اتهامات حقيقية أو مزورة، وعلم مانويل بما عزم عليه، فانتقل الى امبراييل الذي قابله بملاطفة كبيرة وعينه على قيادة جيش لمحاربة الفرس، اذ نال عدة انتصارات وحصل على شهرة كبيرة ثم عاد الى خدمة الامبراطور بطلب منه، وفي سنة ثمانمائة وثلاثين حشد تيوفلس جيشا، مرة اخرى، واستصحب تيوفيب ودخل الى اقاليم سوريا. ولكن العدو لم يخرج للحرب، بحيث ان الامبراطور عاد الى القسطنطينية دون القيام باي عمل. ولكن في السنة التالية، لما بلغه ان امبراييل قد وجه جيشه لمحاربة الفرس، سار في طريق سوريا والحق اضرارا بتلك الاقاليم وبمدينة زبطرة نفسها التي كانت مسقط رأس امبراييل، برغم كون هذا الاخير رجا منه أن يتخلى عنها. ثم قفل الى القسطنطينية وترك قيادة الجيش لتيوفيب، الذي نادى به الجنود كامبراطور، وقد ثاروا لعدم توصلهم بارزاقهم. لكنه رفض هذا الشرف ووجه يعتذر للامبراطور، مظهرا ان ماحدث كان مخالفا لارادته.

من جهة اخرى غضب امبراييل من تيوفلس لأنه لم يحترم مسقط رأسه، فجمع جيشا ضخما ليقوم بهجوم مماثل على مدينة عمورية في فريجية، التي ازداد الامبراطور بها، ولما علم الامبراطور بذلك وجه النجدة تحت قيادة تيودور كراتير وجمع كل القوات ليجابه العرب. وما بلغت الانباء الى امبراييل حتى وجه زكريا مع عشرة آلاف من الخيل التركية وكل الارمينيين لملاقاة الامبراطور الذي اخذ يتقدم في طريق سوريا. وعندما وصل زكريا الى طراز يمن تقدم تيوفلس الى المكان المسمى انزي ووجه مانويل للتعرف على العدو وشاهدهم هذا الاخير من اعلى جبل فنصح الامبراطور الا يغامر بالمعركة مع رجال اقوى منه، ولكن هذا العاهل خشي ان تاتيهم امداد جديدة فقرر المناجزة وحصل على بعض النجاح في البداية لكن النصارى تضرروا في النهاية من كثرة السهام التركية، فاخذوا في الفرار تاركين الامبراطور مع قواده وسط الاعداء. وجاء المطر على الاثر فابطل مفعول السهام التركية وتشجع المغلوبون، فالزموا العدو بالانسحاب. وفي الليلة الموالية قام مانويل بدورية في مجموع المعسكر فاكتشف ان الفرس الذين كانوا من جهتهم امسوا يتفاوضون مع العرب والزم الامبراطور بالانسحاب عند بزوغ الفجر، ثم انسحب هو بنفسه مع بقية الجيش. واتصل زكريا من بعد بامبراييل فقاموا بحصار عمورية.

وطال بهم الحصار حتى غدوا يفكرون في الانسحاب واذا بخائن (4) مدفوع بالمال أو بنقمة شخصية يفتح لهم باب المدنية فخربوها راسا على عقب، رغم انها كانت اجمل مدن آسيا، ووضعوا يدهم على كل من كان يقدر على الدفاع واخذوا البقية اسارى. وكان عدد من قادة الجيش من جملتهم (5) واتي بهم امام امبراييل الذي سر من هذا الفتح، اذ انتقم شر انتقام ممّا حدث بزبطرة من اضرار. ولدى بلوغ هاته الانباء الى تيوفلس وجه السفراء اليه بالهدايا، واجيا منه ان يطلق سراح اولئك القادة وان يقدم له كفدية مائتين وخمسين الفا قطعة ذهبية لكنه اجاب ان هذا الشيء قليل وان هاته الحرب كلفته اكثر من ذلك. فحصل للامبراطور من ذلك قلق كبير حتى مات .

فاذا رجعنا الى اخبار اوربا، فان امراء ايطاليا المسيحيين كانوا في نزاع مع بعضهم (6) فاتفق ملوك موريطانيا والقيروان فيما بينهم ووجهوا جيشا ضخما الى صقلية تحت قيادة سبا الشجاع، الذي نزل بمنطقة البوى وحاصر طاونطا. ولما علم الأمبراطور تيوفلس بذلك وجه لمحابهته تيودوس مع جيش بحري للالتحاق بستين سفينة حربية في ملك البندقيين الذين كانوا احلافهم. وتظاهر سبا بالخوف لدى سماع هاته الانباء ورفع الحصار وفي نيته ان يهاجم جيش الامبراطور قبل ان يتصل بالبندقيين. وبما انه دبر الامر بمهارة، فقد صادف الجيش على غير نظام فهزمه واستولى على عدد من السفن واغرق الاخرى ومن هناك هاجم البندقيين . وبعد معركة كبرى قضى على جميع سفنهم الحربية، وتشجع بهذا الانتصار فدخل في خليجهم وساير شواطئهم واستولى بالقرب من مدينتهم على بعض سفنهم المشحونة ببضائع من الشرق. وعندما وصل الى انكون تملك الذعر اكثر سكانها فخرجوا منها، فاستولى عليها وبعد ان نهبها اشعل فيها النار من كل جهة، ومن هنالك عاد لحصار طاوانط وضيق عليها الخناق حتى استولى عليها بالقوة ثم عاد الى صقلية محملا بالغنائم. وفي سنة ثمانمائة وسبع واربعين في عهد البابا ليون الرابع بينما كان يجري منتصرا في كل البحر المتوسط ويرجع الى افريقية بكمية من الغنائم والاسرى، فاجاته عاصفة شديدة حتى وجد صعوبة في اللجوء الى اوتيكا مع اربع من السفن في حالة رديئة ، وغرق الباقي وهذا ما جعل النصارى يعرفون شيئا من الاستراحة.

(4) بوتيتيس .

(5) كاليست ، قسطنطين ، كراتير ، تيودور ، باتريس الخ ....

آسيــــــا

بينما كانت هاته الاحداث جارية بايطاليا، كانت آسيا مسرحا لتحركات العرب اثر وفاة تيوفلس الذي ترك من بعده كخلف له ميخائيل الذي كان ما يزال طفلا تحت حضانة امه تيودورا. وقد انتزع هذا الامير الحكم من يدها، واول ما فعله هو انه حشد جيشا قويا ودخل الى البلاد حيث اراق الدماء واشعل النيران في كل مكان وذهب ليحاصر سميساط (6) التي كانت مشهورة بتحصيناتها وثرواتها. وتظاهر المحاصرون بالخوف فاقفلوا ابوابهم. وراوا المهاجمين لهم قد مالوا الى التراخي وتفرقوا من اجل النهب واهملوا الحراسة. فلما جاء اليوم الثالث من الحصار وكان يوم احد وقد اجتمع الناس للقداس، آنذاك خرجوا عليهم من كل مكان باندفاع قوي وقد تعززوا بعدد كبير من العرب، وبعد ما قتلوا طائفة من اعدائهم الجاوا البقية الى الفرار. ومما زاد الطين بلة ان بعض الهراطقة (7) طاردوهم مع العرب واسروا عددا من القواد النبلاء وباعوهم لاعدائهم وافلت الامبراطور من المصيبة بسبب سرعة فرسه. وفي السنة التالية وجه امبراييل جيشا لمحاربة الامبراطورية قوامه ثلاثون الف رجل، فذهب الامبراطور للقائهم على رأس اربعين الفا واخذهم من تراقيا ومقدونيا وتركه العرب يمر ثم رجعوا عليه بالهجوم وكادوا ياسرونه لولا مانويل الذي انقذه من بينهم لكنهم الجاوا جيشه للفرار.

أفريقيــــــا

رجع الى افريقيا، فقد اثرى ملك فاس مما سلبه من البلاد ومن اسبانيا وبني في سنة ثمانمئة واربعين القسم الذي يوجد غرب الوادي وبدا بمسجد القرويين اكبر مساجد افريقيا وافخمها. وكان السلم مخيما على مجموع اسبانيا بينما كان عبد الرحمن منهمكا في تحصين المدن الخاضعة له وتزيينها جالبا اليها المياه، ومشيدا بها المساجد، واستقدم الصناع من دمشق ليقيموا بها معامل الحرير (8). وكان هو اول من سك اسمه في النقود العربية. واثناء ملكه، جاء الانجليز لا سبانيا (9) لمساعدة النصارى، وحاصروا مدينة لشبونة، حيث أحدثوا خسائر عظيمة حواليها، وهدموا

---

(6) مدينة الفرات .

(7) بولينيين ومانويين .

(8) 846 حسب بعض الروايات .

(9) 840 .

سورها من جهة البحر، وبما ان السكان كان يضيع منهم ماء السقايات الموجودة هنالك، فقد رفعوا الماء الى كل جهات المدينة بواسطة الآلات والقنوات. ورأى الانجليز حينئذ ان مجهودهم كله لا يجدي نفعا، فرفعوا الحصار وذهبوا لأخذ قادس، ثم انضموا الى بعض السفن المسيحية ودخلوا اشبيلية، ولكن بما انهم كانوا منهمكين في حصار شريش، فان عبد الرحمن فك الحصار وبعد ان قتل عددا كبيرا من الانجليز وأحرق كثيرا من سفنهم استرد اشبيلية وقادس (10) ومات بعد ذلك بقليل، تاركا العرش لمحمد أكبر اولاده البالغ عددهم اثنين وأربعين. وقاد محمد الحرب ضد عربي اسمه عمر بن قاسم وغلبه وقتله واستمر في مهادنة دون رامير، الذي بعد ان دام في الملك ستا وعشرين سنة، ترك العرش لولده دون اوردونيو، الذي كان شجاعا ونال عدة انتصارات على العرب. وفي نفس الوقت مات امبراييل وخلفه ولده المامون.

---

(10) ابن رشد في تاريخه .

الفصل الرابع والعشرون

المامون (11) الخليفة الثاني والعشرون وما جرى في عهده

ما ان تولى المامون مقاليد الامبراطورية حتى بدت منه ميول الى الفضيلة والعلوم. ولما علم ان الفيلسوف ليون اسقف تيسالونيكي جاء الى القسطنطينية حيث التجأ بعد ان طرد من كنيسته بسبب الخلاف الذي كان قائما بين الاغريق واللاتينيين، فيما يخص تقديس الصور، اذ لم يبق يعيش الا بما كان تلاميذته يمنحونه اياه، كتب اليه بواسطة مملوك مسيحي سبق ان كان تلميذا له. وكان رياضيا كبيرا، وقد علم ان استاذ هذا التلميذ العالم لا يحظى باعتراف الامبراطور، ولا يعامل حسب قيمته، كتب اليه يرجوه ان يقدم اليه ليتعلم على يده هو وكل العرب، واعدا اياه بان يجعل منه اغنى الفلاسفة. وكلف حامل الرسالة بان يبذل كل جهده ليأتي به معه. لكن الخبر شاع في القسطنطينية فمنعه الامبراطور من الخروج وبنى له اكاديمية. ولما حرم المامون من تحقيق مشروعة، وجه اليه طالبا منه حل بعض القضايا الهندسية، فلما ارضيت رغبته مع مزيد من الفوائد الجديدة، قال ان من يحظى بمحادثة شخص من هاته الاهمية لهو رجل سعيد، ووجه سفارة الى الامبراطور مع هدايا سنية ورسالة هذا نصها :

« من المامون أمير المؤمنين وملك العرب الى امبراطور النصارى . كان في نيتي ان أذهب لزيارتك كصديق ، ولكن اتساع امبراطوريتي وطبيعة شعوبي لايسمحان لي بالحظوة بمثل هذا الشرف ، فاني أرجوكم أن توجهوا الي العالم الكبير الفيلسوف ليون ، حتى استفيد من مذهبه الذي أشعر نحوه بشغف كبير . ولا تنظروا الى اختلاف الدّين فانا أطلبه كصديق . واعتبارا لذلك فسأحافظ معك على سلم دائم وأوجه لك ألف مثقال ذهبي لأساعدك على تعويض مصاريف

(11) هنا نجد خطأ من أخطاء المؤلف الفادحة ، إذ يجعل المامون بعد المعتصم ، مع أن الخليفة الذي حل محل هذا الأخير هو ولده الواثق (المترجم) .

الحرب الأخيرة » . لكن الامبراطور لم يعبأ بطلب المامون ، بدعوى أنه لا ينبغي تلقين العلوم للمسلمين ، حتى لا يساهم ذلك في مضاعفة قوتهم . ولكنه بدأ يحب الاداب واقتدى بذلك الخليفة الكبير ، فأحسن الى ليون وأرجعه بعد ذلك بقليل الى اسقفيته في تيسا لونيكي .

ايطاليـا

وفي عهد هذا الامبراطور وتحت بابوية ليون الرابع ، استأنف عرب افريقيا القتال مع النصارى واخذوا طريقهم الى روما على رأس جيش ضخم. وحينما وصل ذلك الجيش الى اوستى أثار ذعرا شديدا في المدينة، وحتى اضطر البابا الى جمع كل الاشراف وحثهم على ان يكونوا جديرين باجدادهم، ثم تقدم اليهم ووراءه الشعب بكامله. ويروي البعض ان شارل الاصلع ملك فرنسا جاء لنجدته وشارك في المعركة . ولكن الرأي السائد هو أن النّجدة لم تأته من أي جهة . ولما صار وجها لوجه مع العدوّ ، جثا على ركبتيه قبل الدخول في المعركة وتوسل الى الله الذي نصر جيديون على الكفار والذي لم يتخل قط عن شعبه ان يستجيب لدعواته ببركة المسيح الذي أراق دمه في سبيل نجاتنا وان يسعفه بالدفاع عنه من أعداء شريعته. ثم اتجه الى عيسى الذي خلص القديس بطرس من أمواج البحر، والقديس بولس من غرقه الثالث، فتوسل اليه ان ينجيه من هاته العاصفة وان ينصره على اعداء النصارى حتى ينال اسمه المقدس كل تهليل وتمجيد. وبعد ذلك امر بالحرب ، وهذا ما تبادر اليه الرومان بحماس كبير، يحدوهم الأمل الوطيد في الانتصار، حتى انهم ما سبق لهم ان بذلوا مجهودا أكبر من ذلك بحيث ان العرب بعد ان قاوموا في البداية ، غلبوا في النهاية وقتل أو أسر أكثرهم بينما فر الباقي في السفن حيث اتمت العاصفة هزيمتهم. ورجع البابا منتصرا الى روما حيث قوبل في ابهة كبيرة واحتفال واستخدم أسراهُ في اغلاق حي الفاتيكان الذي سمي باسمه المدينة الليونية، والتي جعلها مسكنا للكورسيكيين الذين هاجروا من جزيرتهم فرارا من وجه العرب.

آســـيـــا

بينما كانت هاته الاحداث جارية بايطاليا، توغل الخليفة المامون في اقاليم الامبراطورية، ولما علم الامبراطور بذلك وجه لملاقاته عمه بيترونيوس، الذي كان واليا على تراقيا، مع كل قوات الدولة ولما تقابل الجيشان، كان المامون متخوفا على

مصير المعركة، فسأل احد الاسرى عن اسم المكان الذي يوجدون به، فاجابه النصراني ان المكان يسمى لالنسيون، واسم ميدان القتال ابتوسانت والنهر هير. فتشاءم من ذلك لان لنسيون معناه حزن الشعب وابتوسانت محدوفين وهير مدوسا تحت اقدام العدو. ولم يتوان عن اثارة الحرب مع بترونيوس، الذي كان يتراجع اكثر ما يمكن، وفي الغد رتب صفوف جنده للمعركة، وهجم على بترونيوس وفي التحام القتال وجد نفسه مطوقا من كل جهة وقام بعدة محاولات ليفتح ثغرة في صفوف اعدائه، لكن جهوده ذهبت سدى فعاد الى المعركة أكثر حمية، فقتل وهزم جيشه بكامله (12) ، وحاول احد اولاده ان ينقذ فلوله في مليتان، ولكن النصارى كانوا مترصدين للهاربين في ممر كاريسان فاسروه وقادوه الى بترونيوس الذي وجهه الى الامبراطور مع جثة والده.

اسبانيــــا

ولم تكن اسبانيا آنذاك اقل تمرسا بالحرب، ومع ان دون اوردونيو وشارل الاصلع كانا يعيشان في هدنة مع محمد ملك قرطبة، (13) فان سكان طليطلة (14) انتقضوا تحت قيادة موسى بن قاسم (15)،وكان هذا القائد من كبار الشجعان ويحظى بعطف العرب الذين كبر عليهم ان يدوم السلم مدة طويلة. فحشد قوات كثيرة بدعوى مهاجمة النصارى وترك ولده لوطا في طليطلة (14)،ودخل الى ارغون واستولى على مدن سرقسطة وكسكار ومن هنالك قاد الحرب على المسيحيين المستقرين في تلك النواحي . وتحول الى قطلونية فهزم دون يوفر في المعركة وحاصر برشلونة (16) ولكن بعد ايام من الحصار تحقق انه لا يستطيع اخذها فخرب كل البلاد المحيطة بها ودخل الى فرنسا فتسمى بالخليفة في كل مكان وبملك اسبانيا واتخذ معسكره الشتوي بمدينة أربونة التي استولى عليها، ثم هزم الفرنسيين في معركة واسر جنرالين منهم (17) . ويقول بعض المؤرخين إن شارل الاصلع لم يكن في امكانه الحضور في تلك المعركة ولذلك مال الى التفاهم معه ومنحه المال ليجلو عن بلاده، ولكن

---

(12) رواية تخالف ، بالطبع ، الحقيقة التاريخية ، إذ مات المأمون في فراشه إثر مرض ألم به (مترجم) .

(13) الذي كان ملكا على قرطبة في تلك الآونة هو عبد الرحمن بن الحكم الذي لم يمت إلا في سنة 238هـ/852م وليس ولده محمد.. (مترجم) .

(14) يخطىء المؤلف هنا ، وإنما المراد تطيلة (مترجم) .

(15) الصواب موسى بن موسى بن قسي الذي كان وليا على تطيلة (مترجم) .

(16) 852 .

(17) سانشوويطرس .

آخرين يقولون، وروايتهم أرجح، انه سار نحوه وطارده الى جبال البرانس واجرى معه المعركة في مكان يدعى فال كارولو فهزمه وقتل كثيرا من العرب الذين كانوا معه، وفي السنة التالية عقد هذا العربي الصلح مع محمد ملك قرطبة(18) الذي أثبته سيدا على البلاد الخاضعة له في مقابل ان يعترف به ملكا عليه. ثم حشد موسى جيشا كبيرا، ودخل الى بلاد دون اوردونيو وخرب كل شيء الى مكان اسمه البيض أو البانيا، وقد رآه صالحا لبناء حصن به. فبناه وترك به حامية ثم عاد الى بلده، وعلى اثر ذلك جاء اوردونيو بقصد محاصرة الحصن الجديد، ولكن موسى رجع لنجدته وعسكر في جبل (19). فوزع الملك جيشه الى فرقتين عند قدومه، وترك واحدة منهما امام الحصن وتقدم اليه بالاخرى ودخل معه في القتال وهزمه، واصيب العربي بثلاثة جراح فمات بعد ذلك بقليل في سرقسطة. وقتل ايضا صهره اسد الذي كان ينوب عنه في قيادة الجند، ويقال انه بقيت في الساحة اثنا عشر الفا من الخيل وعدد كبير من المشاة. وبعد هذا الانتصار التحق الملك اوردونيو بجنده المحاصر للحصن، الذي لم يصمد الا سبعة أيام، ثم وقع الاستيلاء عليه عنوة، واخذ كل ما كان موجودا به، ماعدا النساء والاولاد الذين اخذوا كاسرى . وامر الملك بعد ذلك بهدم الحصن، ثم رجع الى ليون . واثناء وقوع هاته الاحداث، وجد ملك قرطبة (20) فرصة للقطيعة مع اوردونيو بدعوى نجدة تابعه. ولكن لما علم بالفوز في المعركة، ادار سلاحه الى لوط وحاصر مدينة طليطلة (14) التي دافعت عن نفسها بشجاعة، بحيث انه رفع الحصار وهب ليستولى على مدن سرقسطة وبلنسية اللتين كانتا في حوزة موسى. وبما ان لوطاً كان يسعى في نفس الوقت للحصول على نجدة اوردونيو، فانه دخل في تبيعته، وتلقى فريقا من جنده في طليطلة (14) وفي السنة التالية تحرك اردونيو نحو مدينة قورية التي كانت في قبضة احد العرب (21) وجاء لملاقاته وهزم، وبعد ذلك استولى الملك على المدينة وعمرها بالنصارى ثم اتجه الى شلمنقة وهزم في السهل حاكمها (22) ودخل المدينة عنوة، وحول سكانها الى

---

(18) 854 .

(19) جبل كُواندوش .

(20) محمد .

(21) سيت الكاتب . هكذا ورد في هامش الأصل .

(22) مسعودي . هكذا ورد في هامش الأصل .

عبيد ثم رجع الى ليون. ولما شاهد ملك قرطبة تقدمات اوردونيو تصالح مع لوط على اساس ان يعبر له عن الخضوع وان يؤدي له كل سنة اتاوة كعربون عن (23) اعترافه، في مقابل ذلك يترك له لقب الملك ويجعله في حمايته . وفيما كان هذا الصلح يعقد أمام طليطلة ، هب ملك ليون نحو سرقسطة بقصد الاستيلاء عليها وعلى غيرها من المراكز المجاورة . وفي السنة التالية (24) وجه ملك قرطبة يطلب النجدة من خلفاء فاس والقيروان وقد وجهوا له عددا من الفرسان والمشاة اتى البعض منهم عن طريق جبل طارق والبعض الاخر عن طريق مملكة بلنسية، والتقى الجميع بقرطبة في سنة ثمانمائة وتسع وخمسين. وطلب الملك اوردونيو من جهته النجدة من ملوك فرنسا ونافاريا فوجهوا اليه جيشا متكونا من الجسكون والبروفنسيين والنافاريين، وحصل اللقاء على نهر تاجة، وجرى قتال كبير وهزم النصارى وقتل عدد من النبلاء أواسروا. ومات من العرب أكثر، وتابع محمد انتصاره فدخل في بلاد النصارى حيث جعل كل شيء رهن الاحراق والقتل واستولى على مدينتي سمورة وشلمنقة، ونهب السهول، ومن هناك دخل الى نافاريا وواصل انتصاراته الى طلوزة. لكن بينما كان يفكر في الرجوع عن طريق الجبال ليأخذ استراحة الشتاء في الاندلس، كان ملك نافاريا سانشوغرسية، ينتظره في الممر، فهزم فريقا من جنده، ولدى انتشار هاته الانباء، تحالف لوط مع بعض الامراء العرب. من جيرانه (25) وتلقوا مساعدات من دون اوردونيو، واجروا حربا طويلة مع ملك قرطبة . وفي تلك الاثناء قام الملك اوردونيو بعدة غارات على الأعداء، واستولى على عدد من مراكزهم وبنى مدينة اراندادودويرو في سنة ثمانمائة وإحدى وستين . وفي السنة التالية استولى على لارة واوكا مع كل الجهات المجاورة لها، ومن جهة اخرى، واصل محمد حربه مع لوط (26) ، وبعد ان اخضع بعض الرؤساء الذين ثاروا عليه، ذهب ليهجم على مدينة طليطلة. ولما علم لوط بذلك، طلب النجدة من دون اوردونيو الذي لبى طلبه. ولما اقترب محمد من طليطلة، وضع قسما من جيشه في كمين وتقدم بالقسم الآخر مستدرجا الاعداء خارج الاسوار بسبب جنده القليل. وبعد ان تعارك قليل معهم، انهزم وجعلهم يقعون في الكمين

(23) 857 .
(24) 858 .
(25) ضدًا على محمد .
(26) الصواب لب بن موسى .

حيث جرى القضاء عليهم، وقتل في هاته الموقعة الف وخمسمائة من النصارى واكثر من ثلاثة الاف من جنود لوط، الذي رجع بسرعة الى المدينة، وجاء محمد ليعسكر امامها، ووجه لملوك المغرب، من قبيل المباهاة، بقايا اهم النصارى الذين قتلوا في المعركة، ولما رأى ان حصار المدينة سيطول، قفل الى قرطبة، وفي سنة ثمانمائة واربع وستين، مات الملك اوردونيو في اوفيدو بعد ان بقي في الملك ثماني عشرة سنة، وترك كخلف له ولده الفونس الذي لقب الكبير، وكانت لهذا الاخير حرب مع رعاياه طول عشر سنوات ونال انتصارات على العرب بعد ذلك، ولما توفي المامون كما ذكرنا تولى بعده عثمان (27) كما نشير الى ذلك في الفصل التالي.

---

(27) 865 .

الفصل الخامس والعشرون

عثمان (1) الخليفة الثالث والعشرون وما جرى في ملكه

بعد وفاة المامون حدث انقسام بين العرب ، بعد تعيينهم كخلف له على رأس الامبراطورية عثمان. فقد ثار الفرس عليه، ولكنه ضبط شؤونه بمهارة حتى انه تمكن من اعادة الامن الى نصابه دون اراقة دم كثير. ومن جهة اخرى، راى عرب اقريطش كيف ان امبراطورية القسطنطينية كانت تمزقها الحروب المدنية ، اذ قتل باسيل ميخائيل وجعل نفسه امبراطورا ، فهاجموا كل الشواطىء وجزر اليونان، ثم اتجهوا الى خليج البندقية، فاستولوا على مدينة كراد، التي كانت في حوزة تلك الجمهورية. ولدى هاته الانباء، راى باسيل من مصلحة الامبراطورية وان ينتقم من اولئك المتوحشين وان يسترجع تلك البلدة، فوجه اليهم جيشا بحريا ليطردهم من المكان الا انه خسر المعركة اذ كاد يتعرض للوقوع في الاسر وترك عددا من القتلى والاسرى، ولما رجع الى القسطنطينية، حاول ان يعوض خساراته، فوجه جيشا بحريا ثانيا الى كاتديا. وتقدم هو بنفسه لمواجهة عثمان . فأما القائد (2) الذي وجهه للعرب في اقريطش، فقد قمع جبروتهم في معركة انتصر فيها، وبعد ان توغل في سوريا استولى على عدد من المدن والقصور ووصل الى مدينة تفريكة التي حاصرها. ولكن الحصار طال ويئس من أخذها فانتقل الى الفرات حيث استولى على عدد من الأماكن في الضفة الأخرى، البعض منها عنوة والبعض صلحا. وفرض الجزية في كل مكان، ثم عاد يقضي الشتاء في القسطنطينية. وسار الى سوريا في السنة التالية بمجرد حلول الربيع ولم يستطع اخذ الحدث التي احرق ارباضها فلام جنوده على جبنهم لان السكان لم يظهروا مقاومة كبيرة فاجابه شيخ بأن الاستيلاء على تلك المدينة سيجرى على يد شخص اسمه قسطنطين سيكون ولده، وأن الذي

---

(1) يسير المؤلف في خلطه وخطئه فيجعل بعد المأمون خليفة اسمه عثمان ويشير إلى أحداث وهمية (مترجم) .
(2) كريستوفل .

يحمل هذا الاسم حاليا ليس هو ذلك الشخص . وبعد ان قام الامبراطور بمحاولات يائسة ضد هذه القلعة قتل جميع الأسرى الذين كانوا في معسكره وعاد الى القسطنطينية.

وفي نفس الوقت دخل عرب افريقيا الى إيليريا بجيش بحري وهاجموا احدى القلاع (3) فوجه الامبراطور لانقاذها اسطولا من مائة سفينة ألزمهم بايقاف الحصار والرجوع الى ايطاليا حيث التقوا مع عرب جبل كركانو، فأجروا عدة تحريات على طول الشاطىء ثم حاصروا مدينة باري (4) ولما استولوا عليها لم يكتفوا بالعيث في أرض بوى بل تحركوا في كل شواطىء ايطاليا حيث استولوا على عدة قلاع.

وفي نفس الوقت دخل الامير حاكم طرسوس الى اقاليم الامبراطورية على رأس جيش من العرب ارتكبوا عدة تعسفات، وكان يسمى نفسه خليفة مثل صاحب بغداد. وحاول والي الشرق (5) ان يتعرض لحملتهم الجنونية فوجه الامير يقول له انه دخل في القتال وان ابن مريم لن ينقذه من أيديهم . ولم يبق هذا السب بدون عقاب . ففي يوم القتال ، أخذ الوالي رسالة ذلك المتوحش، وربطها على صورة للسيدة مريم لتكون كلواء وهزم الأعداء واثخن في قتلهم ، وقطع رأس الامير الذي اسر مع آخرين ولكنه اتهم منذ ذلك الحين بأنه تخلى عن اخذ طرسوس فعزل واسندت ولايته الى شخص آخر (6) تمكن العرب من ان يباغتوه في معسكره ويهزموه ويجبروه على ان يبحث عن سلامته في الفرار.

وفي عهد بابوية البابا يوحنا الثامن عانت ايطاليا من غارات العرب المتكررة، ولم يكن لها امل في نجدة ملوك اروبا الذين كانوا يحاربون بعضهم البعض، فاستنجدت بامبراطور القسطنطينية الذي وجه جيشا، وترجى من ملك فرنسا ان يعززه بقواته بحيث امكن بفضل هذين الجيشين الانتصار على سلطان ملك العرب واسره وقتل الكثير من رجاله، ويقول المؤرخون بان شارل الاصلع امسك هذا السلطان اسيرا في كانو طوال سنتين، ولم ير ضاحكا فيهما الا مرة واحدة وذلك حين شاهد عربة تمر في الطريق فذكره ذلك بحظ الكبراء وتقلب الأيام التي

---

(3) ارسكوسة .
(4) قاعدة بوي .
(5) أندريه سايز .
(6) ستيبيوت .

تضعهم تارة فوق عجلتها وطورا تحتها، ونصح الملك ان يطرد النبلاء من مدينتي كابو وبينيفان (7) اذا كان يرغب في الاحتفاظ بهما. ثم انه ابلغ النبلاء في نفس الوقت بهذا المشروع فاقفلوا الابواب لما ذهب الملك للصيد وحرروا السلطان الذي أبلغهم الخبر. وسرعان ما اخذوا ثمن ثورتهم. ذلك ان السلطان جمع العرب من كل جهة من البوى (8) ومن افريقية ومن صقيلية ثم جاء ليحاصر كابو التي وجدت نفسها مضطرة لتوجيه الاعتذار الى شارل الاصلع لتحصل على اغاثته ولكنهم لما رأوا انه مسرور من مصيبتهم بدل ان ينجدهم، وجهوا لامبراطور القسطنطينية الذي وعدهم بمساعدته الكاملة، بيد ان العرب قبضوا على رسولهم واخذوه الى السلطان. ولما عرف هذا الاخير فحوى مهمته ألزمه اذا اراد ان ينقذ حياته بان يقترب من اسوار القلعة ويقول للسكان أن لا امل لهم في نجدة الامبراطور. ويقال انه لما مر قريبا من الابواب قال لهم بصوت منخفض بان يصمدوا. وعلم السلطان بذلك فقتله، ورأى ان لا مطمع له في الاستيلاء على المكان فرفع الحصار. ولكي يرجع عثمان الى آسيا هجم على جزيرة قبرص، وهنالك تلقى ضربة اثناء حصار فما جوست (9) ومات من جرائها، بعد أن أقام في الملك ثماني (10) سنوات فخلفه القائم آدم .

---

(7) Capoue , Bénevent (مترجم) .

(8) كتب هكذا بالفرنسية : Pouille

(9) Famagoste

(10) 873 هكذا في الأصل . ومن المعلوم أنه لم يمت أي خليفة في تلك السنة التي تدخل في عهد الخليفة المعتمد 256 – 279هـ / 870 — 892م .

الفصل السادس والعشرون

القائم آدم (1) الخليفة الرابع والعشرون وما حدث في ايامه

لما تولى القائم آدم (2) مقاليد الامبراطورية، جرت له حروب مع الفرس وفي نفس الوقت مع امير العرب في كانديا (3) فوجه الحملات الى جزر اليونان وشواطئها. ولكن رجاله تكبدوا الهزيمة على يد الجيش البحري الموجه من لدن الامبراطور (4) الذي أخذ أو أحرق عددا من سفنهم، وجمعت البقية بعض السفن القرصانية فذهبت للعيث في البلوبونيز والجزر المجاورة. وقام نسطاس الذي كان قائدا لاسطول الامبراطور، لما بلغته هاته الانباء لمطاردتهم. وكان يعرف انهم لابد ان يصلوا الى سوطون اوبيلي أوباطراس ، فدفع سفنه الى ما وراء خليج كورانت (5) وباغتهم فاحرق الكثير من سفنهم، وأغرقت الاخرى الى عمق البحر، وقتل قائدهم (6) في المعركة، بحيث حطم اسطولهم بكامله.

وبينما كانت هاته الأحداث جارية، كان الخليفة يحارب الفرس الذين بسبب ما وقع عليهم من ضغط استنجدوا بالاتراك، وقد اصبح هؤلاء، في الأخير جد اقوياء، بحيث خلفوا العرب في الحكم . فاذا عدنا الى احداث الغرب، نجد الفونس الكبير منهمكا في الحرب مع النصارى، فدخل العرب الى بلاده، وتسببوا في أضرار طوال السنوات الست التي دامت فيها الحرب. ولربما كان ضررهم افظع لو لم يدب

---

(1) لا يوجد أي خليفة عباسي بهذا الاسم في هاته الفترة ، وهنالك القائم بالله العباسي الذي تولى الخلافة في سنة 422هـ أي 1031م وهو تاريخ يبعد بـ 158 سنة عن التاريخ المشار إليه في النص . ولا يمكن أن يكون القائم الفاطمي الذي حكم بعد ذلك . ثم إن اسم آدم يزيد في اللبس والارتباك . ومجمل القول أن المؤلف خبط عشواء في هذا الموضوع (المترجم) .

(2) سنه 874 .

(3) – سويتو أبوكابا – هكذا ورد اسمه في الهامش .

(4) باسيل .

(5) على جرارات .

(6) بوتيك .

الانقسام بينهم، وفي نفس الوقت خرج من قرطاجة اسطول من ستين سفينة كبيرة مجهزة احسن تجهيز، فتحرك في بحار الشرق والحق أضرارا كبيرة بجزر زانت وصيفا لونيا الى أن وجه اليهم الامبراطور جيشه البحري، فاغرق أكثرها واخذ عددا من الاسرى، ثم قام من هنالك بتحركات في كل ذلك البحر، مشيعا الارهاب، وهاجم صقلية وعاد مثقلا بالغنيمة الى القسطنطينية. وذهب العرب الموجودون آنذاك حول مسينا ليضربوا شواطىء فينيقيا وسوريا حيث احدثوا اضرارا كبيرة. ذلك ان الامبراطور اخذ كل رجال البحرية من سفنه ليشغلهم في المعابد التي كان يبنيها بالقسطنطينية ولما وجه لهم جيشا بحريا للأخذ بالتأر هزموه. لكن نقفور فوكاس وهو القائد الشجاع المحنك وجه لهم جيشا جديدا، فكانت له عدة انتصارات عليهم.

وفي ذلك الوقت توفى امبراطور باسيل، تاركا ولده ليون الفيلسوف خلفا له ، وقد حكم هذا الأخير الامبراطورية طوال خمس وعشرين سنة وكان كأبيه صاحب بناءات كبيرة. واستولى العرب في تلك الاثناء على جزيرة لمنوس حيث قتلوا عددا من النصارى، ثم رجعوا محملين بالغنيمة، واستراحوا مدة أثناء الحروب المدنية بافريقية.

اسبـــانيـــا

ولنرجع الى الأقاليم الاخرى. ففي عهد الملك الفونس الكبير، حشد محمد ملك قرطبة جيشين (7) ووجههما لنهب مملكة الفونس تحت قيادة المنظري (8) وأبي القاسم، ودخل هذا الاخير الى قشتالة والأول الى ربع ليون وحشد الملك الفونس جيشا التقى فيه عدد من النفريين والكاسكون وسار اليهم وألزم هذا الأخير بالانسحاب تاركا وراءه خسائر كبيرة. ولكن المنظري الذي كان يعيث في جهة شلمنكة انسحب بدون أن يقوم بشيء يذكر لما علم بهزيمة أبي القاسم وبتوجه الفونس نحوه، ولما فشل ملك قرطبة في تلك الجهة ادار قواته نحو طليطلة، وترك ولده المنذر في طلبيرة وتجاوزها، وأخضع عددا من القلاع في تلك الدولة . ولما راى لوط (9) ملك طليطلة، (10) ، جيش اعدائه موزعا توجه لحرب المنذر، ولكنه غلب

(7) سنة 872 .
(8) لعله يقصد المنذر بن محمد (مترجم) .
(9) لـب (مترجم) .
(10) تطيلة .

بمحاربة الثائر العربي عمر، ولم يشأ ان يتراجع عنها حتى يقتل المتمرد، ثم رجع الى قرطبة. وبعد أن بويع ملكا(11) ، أكد الهدنة مع الفونس وتوفي بعد سنتين دون ان يقوم بشيء يذكر. وخلفه اخوه عبد الله الذي ظل في الملك خمسا وعشرين سنة وأكد نفس الهدنة. ولكن في سنة ثمانمائة وخمس وثمانين (12) رأى ان الفونس خلافا للعقد اخذ يحصن سمورة وفازو وغيرها من المعاقل التي كانت خربت اثناء الحرب، فوجه فقهاءه (13) يطلبون النجدة من افريقيا، وجمع عددا من العرب فدخل الى قشتالة وخربها الى شلمنقة التي استولى عليها قبل ان يهب الفونس لنجدتها، ثم انسحب الى قرطبة، ومن جهة اخرى، دخل الفونس الى مملكة طليطلة وخرب الجهة الخاضعة لعبد الله (14) ثم رجع الى أوبيط. وفي السنة الموالية جمع عبد الله قواته، وبفضل النجدات التي أتته من افريقيا انتزع من يد الفونس مدينتي نشارة وأوقة، ومن هناك دخل الى نافاريا فقام بحصار بنبلونة حيث اعتصم الملك دون سانشو مع وجوه دولته . وبعد مناوشات مات فيها عدد من الرجال من الجانبين، استولى عبد الله عنوة على المدينة، وقتل فيها الملك دون سانشو مع معظم النبلاء. وعاد العرب على الفور مثقلين بالغنائم والأسرى، وهب الملك الفونس لنجدة ملك نافاريا، فاقتفى آثارهم ودخل لمملكة طليطلة واستولى صلحا على مدينة وادي الحجارة، ثم انجلى الجنود من الجهتين وابرمت الهدنة لست سنوات.

لما وضع خليفة بابل (15) حدّا للحرب مع الفونس وارجعهم الى الطاعة بعد ان الحق ضررا بالغا بتلك الأقاليم، وجه قواته ضد الامبراطور (16) ودخل بلاده وأكره على الانسحاب في فوضى، ولما علم بهزيمته توجه لمحاصرته في طليطلة التي قطع عنها كل أبواب الأمل ، بعد أن هدم الجسر، بحيث اضطر لوط أن يسلم له بالبيعة . وبينما كان محمد منهمكا في هذه الأحداث، أغار الفونس على بلاده واجبره على المهادنة، على شرط ان لا يعود احد منهما الى بناء الحصون التي خربت اثناء الحروب . ودامت الهدنة ست سنين الى وفاة محمد الذي ترك خلفا له المنذر، الولد الأكبر من بين اربعة وثلاثين من اولاده. وكان هذا الأمير منشغلا آنذاك

(11) سنة 880 . والحقيقة أن المنذر تولى سنة 886 (مترجم) .
(12) 885 . لم يتول عبد الله إلا في سنة 888 (مترجم) .
(13) علماء في الشريعة المحمدية .
(14) سنة 886 .
(15) هذا مثال من جهل المؤلف بتاريخ الاسلام ، إذ يذكر بابل وهي المدينة التي كانت في حكم الانقراض والتي حلت محلها بغداد . وفي هامش الأصل تكرار لاسم القائم آدم (مترجم) .
(16) ليون الفيلسوف .

بجيش قوي وارتكب فيها الوانا من السفك، لكن الامبراطور توجه اليه بعد ان جمع كتائبه وغلبه في سوريا. وفي نفس الوقت هزم قائد (17) جيشه البحري اسطول الاسكندرية، واثخن في قتل الأعداء، وأخذ عددا كبيرا من الأسرى ، وخفضت الهزيمتان من قوات العرب ومن كبريائهم، وهكذا استمتع النصارى بشيء من الراحة الى أن تولى مقاليد الامبراطورية قسطنطين ولد ليون الذي كان الوصي عليه أثناء صغره رومانوس لكابينوس. وأثناء حكم هذا الاخير، حصل قائدان (18) للامبراطور انتصارات في عدة معارك واستوليا على عدة مدن بسوريا ، وعلم الامبراطور، بعد هاته البدايات السعيدة ، ان عرب كانديا كانوا يعبثون في شواطىء الامبراطورية ، فوجه لهم جيشا بحريا تكبد هزيمة بسبب جهل القائد . وقتل معظم النصارى أو وقعوا في الأسر إلا ان فوكاس (19) قائد جيوش الشرق سير الحرب مع الخليفة بمهارة بحيث استولى على عدة مدن وخرب جزءا من سوريا. وبينما كانت هاته الاحداث جارية ، ذهب فوكاس آخر (20) الى عرب كانديا وحاربهم بدون هوادة طوال سبعة اشهر. وبعد ان انتصر عليهم في عدة معارك وخرب مدينة كانداس، استولى على عدد من القصور واسر قائدهم (21). ولولا انه استدعي الى القسطنطينية لتم له الاستيلاء على كل الجزيرة، وسار قائد الاقاليم الشرقية ليون لمحاربة الخليفة الذي كان قد توغل في الامبراطورية على رأس جيش كبير واسترجع الحصون التي كان الرومان استولوا عليها، وفتح معه المعركة، فهزمه وقتل واسر اكبر قسم من العرب وعاد الى القسطنطينية منتصرا. وفي السنة الموالية علم الامبراطور ان الخليفة عاد بجيش جديد، فوجه اليه نقفور فوكاس في الشرق وجاز هذا القائد الى سوريا فدخل معه في المعركة وغلبه بعد قتال شديد ثم استولى على مدينة بيروى ونهبها (22) ماعدا القصر. وبالاضافة الى الثروات التي وجد بها، حرر عددا من الاسرى المسيحيين واخذ معه عددا منهم ورجع منتصرا الى القسطنطينية حاملا معه بقصد التبرك قسما من ثياب القديس يوحنا، وحل

---

(17) هيميت .

(18) كوربها وتيوفيلوس .

(19) باردو فوكاس أو فوكاس المزور .

(20) نقفور فوكاس .

(21) كوراب .

(22) سنة 891 .

فوكاس بعد ذلك محل رومانوس فوجه اليه عرب صقلية يطالبون بالمال الذي وعدوا به، حسب زعمهم، من لدن اسلافه ، فغضب لذلك لانه لم يرض ان يقال انه في عصره كانت الامبراطورية تؤدي الجزية. فوجه لهم جيشا تحت قيادة البطريق مانويل وكانت تنقص هذا الأخير الحنكة فترك جنوده يتفرقون عند نزولهم الى الأرض بحيث تمكن العرب من الانقضاض عليهم وقتلوا مانوليل وسحقوا او اسروا معظمهم ولم يتمكن من الفرار الا القليل من السفن.

وكان حظ سيميسا احسن فقد وجه الى كيليكيا وحقق انتصارا كاملا على العرب بالقرب من مدينة أدنة وتصرف في امره احسن تصرف حتى ان الامبراطور في السنة الموالية اصبح سيدا على معظم الاقليم واستولى على عدد من حصونه ، ولكنه لم يهاجم لاطرسوس ولا لموبسويست، بسبب قدوم الشتاء، وعاد للاستراحة العسكرية في كابدوسيا، وما أن عاد الربيع، حتى سار الى كيليكيا ووجه أخاه ليون مع قسم من الجيش يقصد حصار طرسوس ، بينما هاجم هو موبسويست التي يقسمها نهر سار من الوسط. ولما رأى العرب ان النصارى تملكوا احد الشطرين ، أشعلوا فيه النار وانسحبوا الى الآخر. ولكن وقعت مطاردتهم بشدة بحيث تم الاستلاء على الحصن الذي استؤصل كل سكانه أو أخذوا أسارى، واستسلمت مدينة طرسوس عندما وصلها الخبر، وبعد ثلاثة ايام وصل جيش الاسكندرية البحري، وكان الخليفة قد وجهه لنجده المسلمين. ولكن لم يستطع أن يقرب من البرّ ، فاضطر للبقاء في عرض البحر، حيث وجد نفسه وجها لوجه مع بحرية الامبراطور، التي أغرقت جزءا منه، بينما ذهب الباقي في العاصفة. وعاد الامبراطور منتصرا الى القسطنطينية وأخذ معه ابواب طرسوس وموبسويست التي كانت من البرونيز المصنوعة بمهارة وجعلها في قصره بعضها تجاه الشرق والآخر تجاه الغرب. وقد أرجع هذا الامبراطور، أيضا جزيرة قبرص الى الامبراطورية بعد أن ظلت في حوزة العرب مدة طويلة. واستولى على عدد من المدن حوالي لبنان وعلى الشاطىء الذي خرب أكبر جزء منه. ثم انتقل الى انطاكية الواقعة على نهر العاصي فحاصرها. ولكن الاقوات قلت لديه، بعد طول الحصار، بسبب تهاطل الامطار بدون انقطاع مما ادى الى فساد الطرق فبنى قصرا في جبل طوروس (24) لمضايقة

(23) أنا فارطا ، روسو ، أدانه .

(24) اليوم موروس .

السكان ورجع الى القسطنطينية، تاركا امر الجيش الى قائد محنك ليجعله في طور الاستراحة الشتوية. وما أن ذهب الامبراطور (25) الى حال سبيله، حتى حاول ميخائيل بورج الذي كان يتولى القيادة في هذا القصر المشيد حديثا، مرات متعددة الاستيلاء على انطاكية، وفي ذات يوم استولى على رأس احد الابراج الواقع على باب من ابواب المدينة. فنصب السلاليم ليلا، وكان الطقس شديدا، فصعد مع ثلاثمائة من الجند وذبح جماعة الحراس النائمين، وتحصن هناك. ثم طلب النجدة من الجنرال الذي رفض ان يسمع اي شيء من البداية للسبب الذي ساذكره من بعد، وهاجم السكان في تلك الاثناء بورج بكل قواهم ولكنه دافع جيدا عن نفسه وأتته في النهاية النجدة من الجيش بكامله، فاستولى على البلد، ولما علم الامبراطور بالامر، كان قلقا اكثر منه راضيا، لأن المتنبئين اخبروه أنه سيموت عند الاستيلاء عليه، وهكذا عامل الرؤساء معاملة سيئة، وعزلهم من مناصبهم في السنة السادسة والاخيرة من ملكه.

اسبانيـــــا

وأما في الغرب، فبعد انقضاء الهدنة بين الملك الفونس وعبد الله ملك قرطبة، ضم هذا الاخير جيشه الى جيش لوط، ملك طليطلة (26) وقام بغارات كبيرة على أراضي النصارى، وذلك اثر النزاع الذي قام بين اولاد الملك الفونس، والذي من أجل انهائه اعطى ولاية ليون لدون غرسيه وولاية غاليس لدون اوردنيو، بينما انسحب هو الى اوبيدو. وهزم اوردونيو مرتين جيش عبد الله في سنة ثمانمائة وثمان وتسعين (27) وتسعمائة . ولدى عودة دون الفونس من زيارته لكنيسة القديس يعقوب، امر غرسية بجمع جنده لعزمه على محاربة العرب، وهكذا عاث في أرضهم بجيش كبير، ثم عاد ليقضي الشتاء في سمورة ومن هنالك الى اوبيدو، ومنذ ذلك العهد الى سنة تسعمائة وسبع ، لم تزد الحرب الا اشتعالا في اسبانيا، حيث جاء عدد من الناس من افريقيا لنجدة الامير عبد الله الذي كان مهاجما من كل مكان. وبعد ذلك توفي (28) تاركا العرش لعبد الرحمن الذي لقب بنصير الشرع (29)

---

(25) بطرس الخصي .

(26) نذكر مرة أخرى أن لوط يدل على اسم لب وطليطلة على تطيلة

(27) ـــ ٨٩٨ .

(28) سنة 907 .

(29) ناصر الدين .

وفضل على أخيه الاكبر بتاثير من ملك افريقيا. ومات الفونس بعد ذلك بسنتين، وان كان البعض يروون وفاته بمجرد عودته الى سموة، ودفن باوبيدو مع زوجته شيمين، وترك وليا لعهده بمملكة ليون ولده دون غرسية، ومات خليفة سوريا (30) ايضا وهو شيخ، بعد ان قضى في الملك اربعا وأربعين سنة، وتسببت وفاته في انشقاقات داخل الامبراطورية العربية، اذ ادعى أربعة اشخاص انهم أولياء لعهده، في نفس الوقت، ونصب احد منهم نفسه كخليفة ببغداد ، والآخر بايونيا، والثالث بفارس والرابع بمصر (31) هذا بغض النظر عن عمال المدن والاقاليم الذين كانوا يختلفون في ولائهم ويحارب بعضهم بعضا. هاته الانقسامات التي لم يبق لنا من اخبارها الا القليل اضعفت الامبراطورية العربية كثيرا.

(30) القائم ادم .
(31) هنا يسرح المؤلف بالطبع مع خياله ويأتي بأخبار ملفقة لا علاقة لها بالتاريخ ، وإنما القصد منها لمز العرب والطعن في الاسلام (مترجم) .

الفصل السابع والعشرون

قصدار (1)، الخليفة الخامس والعشرون وما جرى في عصره

بعد وفاة قائم آدام، الذي لم يكن موفقا في حروبه مع امبراطور القسطنطينية قام خمسة خلفاء بالشرق، وبما أن خليفة بغداد هو الذي اعتبر شرعيا والآخرون غاصبون، فلن نذكر الا إياه في مقام الخلفاء. كان اسمه قصدار، وبذل كل ما في المستطاع ليجمع اليه الآخرين حتى يحاربوا كلهم المسيحيين، ويعيدوا الامبراطورية العربية كما كانت، وبما أن الامبراطور فوكاس كان قد مات وأن زيميسكا هو الذي حل مكانه، فقد عول على مهاجمته، ليبدأ عهده بعمل عظيم، ثم تحالف مع الامراء العرب الآخرين وجمع جيشا قويا، شارك فيه حتى أهل القيروان وحاصر أنطاكيا (2) ولكنها أحسنت الدفاع عن نفسها بفضل فيالق ميزوبوتاميا، حتى ان العرب برغم تفوقهم من حيث العدد هزموا، واكرهوا على الفرار للنجاة بأنفسهم وتراجع قصدار الى بغداد بما بقي له من جنود، ثم انه بعد ذلك استولى على فارس بمساعدة مصر وافريقية.

اسبانيا

فاذا عدنا الى الحديث عن اسبانيا، فان دون غرسية بعد ان حل مكان ابيه، واصل الحرب ضدا على ملك قرطبة، ودخل الى بلده فاستولى على عدد من المدن والقصور، وهزم والي طلبيرة (3) مثخنا في جيشه ومطاردا الهاربين الى مدنهم. وهكذا رجع مثقلا بالغنائم، مع الولي الذي أخذه اسيرا. الا ان حراسه تركوه يفر

---

(1) اسم غريب لا يذكر بأي خليفة من الخلفاء، وهو من قبيل التلفيقات والخرافيات التي تضمنها الكتاب فيما يخص تاريخ الخلفاء والاسلام، بوجه عام (مترجم).

(2) أنطاكية على نهر العاصي.

(3) — أيولا أو يحيى — كذا في هامش الأصل، ولعله يقصد يحيى بن هاشم الذي كان واليا على لاردة، وعرف هو وأخوه محمد بعداء الامويين.

خطأ منهم. ومات في السنة الثالثة من توليه الملك بمدينة سمورة، ومن هناك حمل جثمانه الى اوبيدو. وخلفه أخوه دون اوردونيو. (4) وانتصر هذا الأخير في عدد من المعارك مع العرب وفي السنة الأولى من عهده دخل الى بلادهم وجال فيها بدون مقاومة، ثم رجع الى قشتالة. وفعل نفس الشيء في السنوات الموالية. وفي سنة تسعمائة واربعة عشر حاصر طلبيرة وهزم عبد الرحمن الذي هب لنجدتها وإكرهه على الانسحاب الى قرطبة ، وبعد ذلك استولى على القاعدة بالقوة وأحرقها وأراق دماء اهلها وعاد منتصرا من هنالك الى سمورة حاملا معه الوالي كاسير. وتذكر بعض الروايات ان هاته المعركة جرت في عهد أخيه دون غرسية. وقلق عبد الرحمن لما تكبده من خسائر، وغار من توسع عدوه فوجه الى افريقيا يطلب المدد من امراء البيت الادريسي وأمراء مكناسة الذين كانوا يحكمون الموريطانيتين. فاجتاز محمد المطرف، أمير سبتة، مع عدد من رؤساء موريطانيا الطنجية على رأس جيش قوامه ثمانون ألف رجل ولحقوا بعبد الرحمن حوالي قرطبة. وحاصروا في عام تسعمائة وستة عشر كلهم مدينة أسما التي كان اردونيو قد حصنها ليجعل منها حاجزا دون العرب. وما علم اردونيو بالخبر حتى بادر الى المكان وهزمهم، ولكن نظرا لكثرة عددهم، فقد تمكن عبد الرحمن في الحين من ان يؤلف منهم جيشا جديدا الا ان فصل الشتاء كان على الأبواب، فانسحب الى قرطبة بعد ان وزع الجنود على الحدود، ورجع الأفارقة الى بلاد البربر ، بعد ضياع كثير من رجالهم. ولما علم اوردونيو في السنة التالية بذهابهم، دخل الى استرامدورة حيث اصاب الكل بالاحراق واراقة الدماء واصبح سكان ماردة وبطليوس تحت ذمته. ثم رجع بعد ذلك منتصرا الى ليون ومحملا بالغنائم. وفي نفس السنة عقد عبد الرحمن معه هدنة لثلاث سنوات، ثم منع ماردة من اداء اي جزية واعدا اياها بالنجدة.

ولدى هاته الانباء، دخل اوردونيو الى استرامدورة، فنهبها والحق بها اضرارا ثم تجاوزها فحاصر طلبيرة، وبرغم كون عبد الرحمن حصنها من جديد وزودها بكل ماهو ضروري لمواجهة الحصار، فانه سار اليها وتكبد هزيمة، وفقد اكثر من خمسة وعشرين الفا من العرب واضطر للتراجع الى قرطبة . وبعد ذهابه، استولى اوردونيو، وقد اصبح سيدا على الاقليم، عليها عنوة (5) وخربها، ثم ذهب ليقضى الشتاء في

(4) 910 .

(5) سنة 910 .

سمورة. وما ان عاد عبد الرحمن الى قرطبة حتى وجه فقهاءه الى افريقيا ليحصل منها على النجدة، بحيث انه بمجرد حلول فصل الربيع في السنة التالية جاء اثنان من كبار الرؤساء في طنجيطانيا واجتازا الى اسبانيا مع عدد كبير من الفرسان والرجالة ثم التحقوا به وذهبوا لمحاصرة مدينة سانت اثيان دوكَرمان. وبما ان اوردونيو لم يكن يتوفر على قوة كافية لاجراء المعركة معهم، فانه هاجمهم ليلا على بغتة، فأثار فيهم الاضطراب وطردهم الى قرطبة ، واجتهد عبد الرحمن في الاحتفاظ بالافارقة طوال الشتاء، والزمهم بان يستقدموا جنودا آخرين . وفي السنة التالية، دخل الى غاليسيا وحاصر بويرتو، حيث توجه اوردونيو متبوعا بكل النبلاء وبجيش قوي. وجرت المعركة بين الطرفين دون التمكن من معرفة المنتصر. وفي سنة تسعمائة وثلاث وعشرين دخل عبد الرحمن الى نافاريا لحصار كنتبرية. (6) فوجه سكانها الى الملك أوردونيو طالبين الاغاثة، واعدين إياه بأن يصبحوا من اتباعه. ولما علم عبد الرحمن بذلك، ترك قسما من جيشه في معسكره، وفتح المعركة معه بالقسم الآخر، قريبا من يوتكيرا، وهزمه حسب بعض لأقوال ، وأسر اسقفي توى وشلمنكة، بينما تقول بعض الروايات ان اوردونيو رفع الحصار وتابع عبد الرحمن واستولى على نخارة ونهب كل البلاد المحيطة بها. (7) ومات في السنة الموالية وتولى مكانه في الملك اخوه دون فرويل، الذي لم يتمم السنتين، بحيث ان التاج انتقل الى دون الفونس الرابع ابن اخيه الملك أوردونيو ، وما ان مات الملك اوردونيو حتى وجه عبد الرحمان الى افريقيا للحصول منها على النجدة حتى يفوز بطائل اثناء هذا التغيير. وفي سنة تسعمائة وخمس وعشرين عاد الى اسبانيا سيد سبتة محمد مطرف على رأس زعماء افارقة آخرين ومعهم خمسة عشر ألف فارس وأربعون ألفا من الرجالة ، والتحقوا بعبد الرحمن الذي دخل الى قشتالة وامعن في القتل والاحراق. ثم قام بحصار سان اتيان دوگرماز، واستولى عليها بعد عدة هجمات ثم قطع الدويرة، فأخذ بنبلونة ورجع الى قرطبة، دون ان يعترضه شيء في طريقه، لأن الامراء المسيحيين كانوا منهمكين في الحرب المدنية فيما بينهم، وفي السنة التالية لم يترك عبد الرحمن فرصة التوسع تمر، ودخل الى أراكَون وأثار الرعب في كل مكان، وكان قائد جيشه ضابطا عربيا شجاعا استحق لقب الحبيب المنصور (8)، أي

(6) قريبا من لوكرون .
(7) سنة 914 .
(8) اسم لم نجد له أثرا في المصادر العربية (مترجم) .

المحبوب من الله والمنصور من قبله لما حققه من انتصارات على نصارى الشرق. وبما ان البلاد بكاملها كانت في حالة خوف لعدم وجود رئيس بها، فقد اجتمع نبلاء أراكَون وانتخبوا ملكا عليهم دون اينيجو الذي بشجاعته وسيرته استطاع ان يدبر بسرعة ماهو ضروري للدفاع ووجه الى ملك ليون (9) بقصد التحالف معه. ولكن هذا العاهل الذي كان في سن الصغر ولم يكن معه من يشير عليه بالرأي السديد، تصرف ببطء في هاته القضية، حتى كادت اسبانيا بأسرها ان ترجع الى قبضة المسلمين . ولكن الله لا يتخلّى عن ذويه في ساعة المحنة، اذ بعث فرناندكونساليز قند قشتالة (10) وقد سبق لهذا الاخير ان تمرس على قتال العرب في معارك مختلفة، ورأي في الاخير ان المنصور جاء ليهاجمه بجيش من مائة الف جندي، فتصدى له بجنود جمعهم من كَاسكونيا، وبروفنسا ونافارا وأراكَون وقشتالة وهزمه قرب نهر ارلانصا، حيث سقط في المكان ثلاثون الف افريقي زيادة على عرب اسبانيا (11) واضطر للفرار الى قرطبة. الأمر الذي بالاضافة الى مصائب اخرى، جعل العرب يخفضون من كبريائهم. وفي بعض الروايات جرت هاته المعركة في سنة تسعمائة وخمس عشرة، ولكن ابن الحاج المؤلف الافريقي، الذي كان يعيش في العصر الذي نعتمد عليه في حساب السنين ، يقول انها كانت في سنة ثمانمائة وسبع وعشرين من الهجرة الموافقة لسنة تسعمائة وثلاثين من ميلاد سيدنا (المسيح) . ومنذ ذلك التاريخ الى سنة تسعمائة وخمس وثلاثين لم يحدث شيء يذكر باسبانيا .

ايـطـاليـا

في ايطاليا انتقضت اقاليم بوى وكلبرية على يان سيميسكا، امبراطور القسطنطينية. فغضب لهاته الثورة وجلب العرب لتلك الأقاليم، فكادوا يصبحون مسيطرين على مملكة نابولي برمتها ووصلوا الى قريب من روما. وما ان راى البابا يوحنا العاشر (12) هذا العدو القوي على ابوابه، حتى طلب النجدة من اخيه البرت، ماركيس توسكانيا (13) فجمع قواته مع قوات الرومانيين ومشى نحو العرب.

---

(9) ألفونسو الرابع .
(10) سنة 930 .
(11) في منطقة حسينيس .
(12) أو الحادي عشر .
(13) نورد هنا أسماء الأعلام الايطالية الغربية بالكتابة اللاتينية :
TIBRE , Golfe de SIPONTEN GARGANO , LABOUR , POUILLE , TOSCANE BENEVENT , cap d'OTRANTE , TULES , PESCARE .

فكانت معركة كبيرة غلب العرب فيها(14)، واضطروا للرجوع الى بوى(13)، والتخلي عن كل الحصون التي امتلكوها. ولكن بعد ذلك بمدة تجمعوا بفضل وصول بعض الفياليق من إفريقيا وصقلية وانهزموا في معركة ثانية بارض لابور (13)، وأجبروا على الفرار منها الى حصن جبل كركانو، (13)، الذي كانوا بنوه بفوهة (15) خليج سيبونتي (13). وبما انهم لم يكونوا في حالة استعجال، بسبب كون الأمراء الايطاليين منقسمين على انفسهم فقد وجدوا ما يكفي من الوقت لترميم قوتهم، والقيام بغارات هنا وهناك من نهر تبر الى نهر بسكارا ومن تولس الى رأس اوترانتي (13). بل انهم استولوا على مدنية بنيفانتو ومحقوها ملحقين اضرارا بالبلاد كلها. مما اضطر سكان تلك الاقاليم للخضوع لسيطرتهم خوفا من الاسر والنهب. فكان ذلك سببا في ترسيخ سلطة العرب بايطاليا.

إفريـقـيـــا

وكانت افريقيا هي أيضا مضطربة بانقساماتها، اذ في سنة تسعمائة وست وعشرين ثار أهل البلاد على العرب ودخلوا في حرب طويلة الامد، شديدة القساوة. وانطلقت من موريطانيا الطنجية التي كان الملك فيها بيد الادارسة. ذلك ان فريقا من قبيل زناتة اسمه مكناسة اعلن العصيان واستولى على عدد من اقاليمها وبوأ مدينة مكناسة منزلة شريفة ، وهنالك وضع حدود حكمه على بعد اثني عشر فرسخا من فاس. وفي تلك الاثناء، قام احد الدعاة المرابطين (16) وكان له حرمة بدعوى ولايته، فأقنع سكان اقليم تامسنا على حدود مراكش ان لا يطيعوا بيت ادريس ولا يؤدوا ضريبة، لانه لم يكن قائما بالعدل وكان يظلم الأهالي (17). وتمكن من اقناعهم بأنه نبي وانه جاء عنوة لتخليصهم من الطغيان، ومارس عليهم سلطة دنيوية وروحية وجمع قوات الاقليم (18) التي كانت من الكثرة الى حد انه استطاع ان يجمع من اربعين مدينة وثلاثمائة قرية مسورة ثمانيين الف فارس ومائتي الف من

(14) في بادية روما .
(15) حيث توجد الآن قمة سانت آنج .

(16) في هامش الأصل : كومين بن منال . ولا وجود لهذا الاسم في المصادر (مترجم) .
(17) إقليم تامسنا كان خاضعا في تلك الآونة لدولة برغواطة (مترجم .
(18) تامسنا .

الرجالة. وهكذا اعلن الحرب على ملك فاس الذي كان منشغلا بمجابهة انتقاض زناتة واضطر لابرام الصلح معه وتثبيته فيما تولاه عن طريق الاغتصاب حيث تولى الملك طوال ثلاثين حولا وتتابع خلفاؤه من بعده طوال مائة سنة الى أن تولى يوسف بن تاشفين الملك، وبعد ان بنى مدينة مراكش، خرب ذلك الاقليم كما سنشير الى ذلك في مكانه. بعد ذلك. في سنة تسعمائة وأربع وثلاثين، جاء من بلاد العرب مشعوذ آخر بلباس الحجاج، مدعيا انه نبي من سلالة العباس الذي منه خلفاء العرب، وكذا سادة القيروان من اسرة بني الاغلب. فأقبل عليه الناس في مملكة تونس وعظموه تعظيم الاولياء حتى ان عبد الله آخر الامراء الأفارقة كان يكرمه مثل أبيه، ولا يفعل شيئا دون موافقته، وسمى نفسه يمام الموحدين ، بسبب نقاء اخلاقه ومذهبه وقال عنه الذين كتبوا تاريخه، وخاصة من اهل تونس، انه يهودي الاصل وسموه معابدين الشيعي (20) . وتذرع بكون الأدارسة ملوك فاس خارجين عن الدين، فأثار عليهم البلاد لصالح الزناتيين، وبعد ان خرب عدة مدن بموريطانيا (21)، استولى على اقليم الهبط الذي توجد به سبتة وطنجة واصيلا. وكانت موريطانيا الطنجية مقسمة آنذاك الى عشرة اقسام بسبب كون ادريس الملك الثاني لفاس قسمها على اولاده العشرة بالسوية. لكن بما انهم لم يكونوا متفاهمين مع بعضهم، فلم يكن في مستطاعهم ان يقاوموا عدوا يبلغ مثل هاته القوة. وطلب اميران من هاته الاسرة الاغاثة من عبد الرحمن ملك قرطبة، اذ كانوا ساعدوه مرارا في حرب النصارى، ولكن المهدي والمكناسيين اسرعوا في خطتهم بحيث انه لما وصلت النجدة، كان هؤلاء الأمراء قد وقع قتلهم وخربت اقاليمهم، وبعد الانتصار تسمى المهدي خليفة، وبنى لنفسه قصرا على غرار خلفاء بغداد وعين سودان (22) أوقائدا عاما على رأس جيوشه، وبعد ان رتب الامور حسب رغبته سار الى جبل الاطلس، ليأخد الجبايات وحصل على بيعة كل شعوب نوميديا، (23) ولكن حينما

---

(19) الاشارة في هذا الكلام لابن تومرت ، لكن المؤلف يخلط بين اسم إمام ويمام ، وما ذكرت المصادر أن المهدي تسمى يمام الموحدين (مترجم) .

(20) كذا في الأصل . ولعله يقصد أبا عبيد الله الشيعي أو المهدي الشيعي ، الخليفة الفاطمي الأول . ومهما يكن ، فالمؤلف يخلط خلطا فاحشا بين الفاطميين والموحدين (مترجم) .

(21) أرشقول ، المزمة الخ....

(22) سودان من الأسماءالغريبة التي أطلقها الاوربيون في العصر الوسيط على أمراء المسلمين . بمعنى سلطان (مترجم) .

(23) الاسم الذي كان يطلقه الرومان على جزء كبير من الجزائر الحالية .

وصل الى سجلماسة، الواقعة على بعد اربعمائة فرسخ من القيروان في اتجاه الغرب، قام حاكمها (24) في الاقليم كله، فرفض الخضوع له واثار عليه السكان بدعوى انه كذاب وهزمه ووضعه في الاسر ولكنه اشفق عليه في الاخير، وبعد ان تركه مدة طويلة في الاسر اطلق سراحه، تقديرا لفكره وعلمه، بالاضافة الى كونه كان يدعى انه من نسل محمد. وفي الوقت الذي كان فيه اسيرا بسجلماسة، قام الحبيب المنصور (25)، قائد الخليفة هشام ملك قرطبة، فأتى بجيش الى افريقيا لمساعدة ادريس، ودخل الموريطانيين وامتلك اكثر اقاليمهما. وليسهل انتقال الجيوش حصن مدينة ارشقول في موريطانيا القيصرية واصيلا في موريطانيا الطنجية ووضع فيهما حامية استقرت مدة طويلة تحت سلطة ملوك قرطبة. ولكن المرابطين طردوهم في الاخير بعد ان استولوا على البلاد وخربوا تلك الحصون وغيرها كما سيأتي الحديث عن ذلك. واما المهدي الشيعي فانه لكي يجازي شيخ سجلماسة على اطلاق سراحه تآمر عليه مع بعض المرابطين والفقهاء في الاقليم، وجاء اليه كما هي العادة بدعوى الزيارة، وأغمد فيه خنجره وهو يسلم عليه. وهزم جنوده وأصبح سيدا على ذلك الاقليم وما يجاوره من الاقاليم. وصدرت منه مظالم كثيرة حتى اصبح ممقوتا لدى الجميع وثارت عليه. شعوب نوميديا وليبيا للقضاء عليه، وانسحب الى الجزء الشرقي من بلاد البربر حيث بنى هنالك مدينة على الساحل قرب مدينة القيروان. وحصنها بقدر ما كان ضروريا للاطمئنان على امنه وسماها مهدية لكن النصارى سموها افريقية .

ايطاليــا

وبالنسبة لايطاليا، نجد عبد الله في نفس الوقت الذي كان وهو حاكم على القيروان، يوجه فيه الجيوش الى ايطاليا واسبانيا، كان يوجه جيشا لمحاربة نصارى الشرق، (26) وانضاف الى سفن صقيلية، التي كانت تحت حكم العرب آنذاك، فجاء ليحاصر جنوة واستولى عليها بعد مقاومة طويلة. وسلب كل من كان قادرا

(24) زناتي إفريقي من بيت عبد الواد – كذا بهامش الاصل ، ولا نحتاج إلى أن نشير الى ما في ذلك من خطأ فادح . (مترجم) .

(25) لعله يقصد بهذا الاسم المنصور بن أبي عامر الذي كان مع هشام المؤيد ، ولعل لقب الحبيب هو تحريف للقب الحاجب (مترجم) .

(26) سنة 935 .

(67) DANDALO

على حمل السلاح وأخذ الباقي الى افريقية مع كل الثروات الموجودة في المكان. وبعد ذلك بزمان، تدخل دندالو (27) احد اشراف البندقية، لدى احد الاعداء بكل ما يستطيع حتى ردوا الاسرى الى جنوة، لكن المؤلفين لا يذكرون كيف تمَّ ذلك.

اسبانيـــــا

وفي نفس السنة، ذهب الملك اينبجو مع فرناند كونزليس ليحاصر مدينة بنبلونة، التي استسلمت صلحا، بحيث انهما اخرجا منها العرب وأحلا النصارى محلهم. ولدى هاته الانباء، وجه عبد الرحمن أبا يحيى على رأس جيش لمحاصرة سرقسطة. ولكنه لم يحصل على طائل كبير . وفي تلك الاثناء استولى الملك اينييجيو والكونت فرناند كونزاليس على نافاريتا ونشار ولوجرون (28) وعدد من الحصون الصغيرة الصالحة لتكون وقاية من العرب. ولكن الاول مات في نشار، تاركا الملك لولده دون غرسية ينييجز (29)، وفي نفس السنة، ترهب الملك الفونس في دير سانت فيكوند (30)، تاركا التاج لأخيه دون رامير. ولكنه ندم من بعد على ذلك واراد ان يسترجع الملك. مما الزم رامير الذي كان له جيش على اهبة الاستعداد لمهاجمة العرب، بمحاصرته في مدينة ليون، حيث قبض عليه بعد سنتين من الحصار ووضعه في السجن مع اولاد الملك فرويل الثائرين الذين كان سمل اعينهم. وتوفى الفونس بعد سنتين (31) ودفن في دير سان بولس بمدينة ليون، تاركا دون رامير على رأس الدولة دون منازع. واوقف هذا الاخير العمل بالهدنة التي كان دون الفونس امضاها مع عبد الرحمن، ودخل على رأس جيش قوي الى مملكة طليطلة واستولى على مدينة مدريد، ثم رجع ليقضي الشتاء في ليون، بعد ان نهب البلاد. ولدى هاته الانباء، طلب عبد الرحمن النجدة من افريقيا، ووجه له المنصور ثلاثين الف رجل تحت قيادة سيفال ابن اخيه الذي التحق بعبد الرحمن في قرطبة ورافقه في السنة التالية لمحاصرة مدينة اوسما. (32) وهب اليهما فرناند كونز ليس مسرعا

(28) NAVARRETTE , NACHARE , LDGROGNE

(29) DON GARCIA IGNIGUEZ

(30) S.' FECOND

(31) سنة 942 .·.

(32) هنالك خلط بين الأسماء والتواريخ . فالمنصور لم يكن في عهد عبد الرحمان الناصر ، واسم سيفال لم نتبينه في اللغة العربية ، والوقائع نفسها غير مضبوطة . (مترجم) .

فغلبهم وأكرههم على الرجوع الى قرطبة. وعلم ابن يحيى (33) بهزيمة عبد الرحمن فثار عليه مما ادخل الفرقة في صفوف العرب، واعطى الفرصة لامراء النصارى لجمع قواتهم (34) والدخول الى بلد العدو، حيث استولى على قلهرة وتطيلة وغيرها من حصون ابن يحيى، الذي اصبح تابعا لدون رامير، ولكنه ثار بعد ذلك بزمن. وفي نفس السنة طلب عبد الرحمن، مرة اخرى الجنود من المنصور الذي اعلن نوعا من الحرب المقدسة على المسيحيين، واسند قيادة عدد هائل من الافارقة والعرب للبطل ابي العابد، (35) والتحق هذا بعد الرحمن في سنة تسعمائة وخمس واربعين، وتوغل في قشتالة وحاصر سيمانكا. ولما علم رامير بالخبر، جمع كل النبلاء والتحق بدون فرناند، وذهب لمهاجمة الاعداء، برغم تفوقهم عليه، (36) وظلت نتيجة المعركة غير واضحة زمانا طويلا، ولكن الشجاعة غلبت الكثرة، في الاخير، فأسر ابن يحيى بعد ان خسر ثمانين الف رجل. ويسمي العرب هذا اليوم، الذي كان هو السادس من اغسطس، يوم برانكو. (37) وبعد ذلك خلص عبد الرحمن فلول جيشه في قصر الهونديك على نهر التاج حيث جاء دون رامير لحصاره، ولكنه انسحب ليلا وافلت نحو قرطبة. ولما استولى النصارى على ميدان المعركة استغنوا بما غنموه من معسكر العدو ، واستولى دون رامير على القصر، ثم عاد منتصرا الى ليون. وفي الامتياز الذي وهبه الكونت كونزاليس الى سانت ميلان، قال بان الحوارى القديس يعقوب رئي في ذلك اليوم وهو يحارب العرب . ونظرا لتأثير السن والخسارات على عبد الرحمن، فانه طلب الهدنة من دون رامير، واستمتع بها طوال حياته.

إفريقيـــــــا

وفي تلك الاثناء قامت بإفريقيا قبيلة مغراوة، التي هي فرع من زناتة، فاشهرت السلاح على مكناسة وعلى عبد الرحمن، وبما انها تالبت مع قبيلة صنهاجة فقد حاربتهم محاربة قاسية طوال بضع سنوات. وفي سنة تسعمائة وست واربعين،

---

(33) حاكم سرقسطة .
(34) سنة 944 .
(35) اسم لم نجد له أثرا في المصادر العربية (مترجم) .
(36) كان لديهم خمسون ألف فارس ومائة وخمسون ألف راجل .
(37) أو الفوندرييت – ولكن المصادر العربية لا تذكر هذين الاسمين . (مترجم) .

ظهر في الجهة الشرقية من افريقيا فقيه اسمه ابو يزيد، فتبعه عدد كبير من السكان لكراهيتهم للمهدي بسبب مظالمه. فجمع حوله أكثر من اربعين الف رجل وقال عنه انه مارق من الدين . ودعي من قبيل السخرية فارس الحمار، لأنه كان من عادته ان يركب الحمار ويضع لثاما على وجهه. ولما كان المهدي غيرقادر على مجابهته، فقد تحصن داخل مهدية حيث جاء ابو يزيد لمحاصرته. لكن عبد الرحمن ملك قرطبة أسعفه باربعين سفينة. فحارب ابا يزيد، وغلبه هو وولده الذي كان قائدا عاما للجنود والذي قتل هنالك. وبعد هذا الانتصار، استولى المهدي على القيروان وعلى بني الأغلب، واخضع كل السكان، اما صلحا واما عنوة بحيث ظل ملكا على شرق افريقيا بدون منازع وعلى جزء من الغرب وكان اول الخلفاء الخارجين على السنة الذي حكم بالقيروان هو وابناؤه من بعده.

اسبانيا

في اسبانيا اعتبر عبد الرحمن ان سبب خسائره راجع لتساهله مع النصارى القاطنين بمملكته (38) وللمسلمين في الاذن لهم بالتصاهر فيما بينهم. فأراد ان بفرض على النصارى المتصاهرين مع المسلمين ان يدخلوا هم واولادهم في دين محمد. مما ادى الى ان يموت كثير منهم شهداء. (39) وقبل موته، استقدم من افريقيا جيشا لمحاربة النصارى، ولكن توفي اثناء العزم على هذا المشروع عام تسعمائة وثمانية وخمسين، بعد ان ظل في الملك ازيد من خمسين سنة، وترك كخلف له ولده هشاماً، وبسبب صغر سنه، جعل المنصور وصيا عليه (40) وكان هذا هو الذي أتى بجيش افريقيا. وفي هذا الاقليم، مات المهدي عام تسعمائة وواحد وخمسين، تاركا كخليفة له ولده عبد الله الذي لم يكن اقل منه سطوة. ذلك أنه في اول سني ملكه، وجه جيشا قويا الى ايطاليا فاعاد بناء قصور مالطة وبانطلاريا (41) التي كان الجيش الامبراطوري قد خربها. وانزل عددا من الجنود بصقيلية ودخل الى كلبرية التي نهبها كلها مع بوى وباسيليكا، وبنى حصنا في ريشول قبالة مسينا وآخر في

---

(38) سنة 951 .

(39) آلوديا ، ونونيلون ، والأخوات كريكوار ، وناتال ، وليليوزة ، وفيكتور ، وبيلاج الخ ....

(40) هذا مثال من أخطاء المؤلف . (مترجم) .

(41) جرى آنذاك اضطهاد كبير بإسبانيا .

اواترانت (42) بحيث انه اذا اضيف اليهما حصن جبل كركانو، الذي بناه المهدي، اصبح العرب يتوفرون على ثلاثة حصون عند تراجعهم وقد استطاعوا ان يلحقوا منها أضرارا كبيرة بدولة النصارى طوال ثمانية عشر عاما .

آسيـــــا

فاذا رجعنا لآسيا، نجد ان باسيل بورفيروجينيت (43) واخاه قسطنطين كانا يحكمان الامبراطورية اثر وفاة زيميسكا. وفي عهدهما ثار سكليز (44) وسمى نفسه امبراطورا، ولكنه غلب امام فوكاس الذي كان يقود جيوش الشرق وفر الى كوسدار. ووجه باسيل الى الخليفة يرجوه ان لا يشمل بحمايته خائنا، ولكن بما انه كتب الى سكليز بواسطة نفس الرسول ، بأنه سيعفو عنه اذا عاد الى واجبه، فقد تمكن كوسدار من اكتشاف الرسائل وألقى القبض على الجميع ومن بينهم الرسول .

وفي نفس الوقت ثار إنارك بفارس وتذرع بالدّين، فحشد جيشا كبيرا وحرر البلاد من سيطرة العرب، وبعد ان تكبد كوسدار عدة هزائم حرر سكليز من السجن واسند اليه قيادة جيشه. ولكنه لم يقبل الا قيادة النصارى الثلاثة الالآف الذين كانوا اسارى معه، وهزم بمساعداتهم انارك ثم انسحب الى بلاد الروم لئلا يقع تحت غطرسة كوسدار الذي كان قد وجه وراءه جيشا، ولكنه لم يستطع منعه من الانسحاب، ومات إنارك آنذاك، تاركا كخلف له ولده محمدا الذي استنجد بالاتراك ليدافع بهم البابليين والهنديين، ومات كوسدار، ايضا في هاته السنة، (45) تاركا خلفا له ولده البساسير، وهو الخليفة ما قبل الأخير الذي سنتحدث عنه في هذا التاريخ.

---

(42) أسماء الاعلام الواردة هنا بالحروف اللاتينية :
CALABRE , POUILLE , BASILICATE , RICHOLES , MÈSSINE , OTRENTE

(43) BASILE PORPHYROGENETE .

(44) SCLERE

(45) سنة 958 .

الفصل الثامن والعشرون

أصل الترك، وبداية سيطرتهم تحت البساسير (1) الخليفة السادس والعشرين

تولى البساسير الحكم في امبراطورية بغداد في الوقت الذي كان فيه العرب يجتازون من الانحطاط بسبب انقساماتهم ، بحيث لم يبق في الملك شخص من جنس محمد . فقد خرج الاتراك من الشمال ، وأصبح محمد ملكا في فارس ، وعبد الله في القيروان ، ودابر بمصر ، وكثير غيرهم في أماكن أخرى (2) . وهؤلاء الشعوب أسسوا ملكا جديدا بقوتهم الخاصة ، بدون التعلل بالدين ، وأقاموه على أسس وثيقة بحيث لم يمكن زعزعته منذ ذلك الحين . وعرف بالعكس ، نموا اما عن طريق الحيلة أو عن طريق القوة . وغطى أو دفن ملك العرب ، وكانت له فتوحات في بلاد النصارى، فاباطرة القسطنطينية ما قصروا في الدفاع عن انفسهم ضدا على الغير ، وحققوا انتصارات مختلفة . ولكن قوة الاتراك نمت في مدى ستمائة سنة حتى انهم ما وطئوا مكانا بقدمهم إلا تعذر اخراجهم منه . وكان دون جان النمساوي ولد الامبراطور الذي لا يغلب شارلكانت ، وأخو فيليب الثاني ، هو الوحيد الذي عكر انتصاراتهم وأوقف تقدمهم ، بفضل معركة ليبانت كما سنذكر ذلك في مكانه . ولنرجع الآن الى موضوعنا التاريخي . لقد استدعاهم محمد لنجدته ضدا على خليفة بغداد ، فخرجوا من بلادهم كما فعلوا ذلك بناء على دعوة من العرب الذين أقنعوهم بالدخول في دينهم . وكانت هاته الشعوب تقطن حوالي جبال القوقاز وتمتد من ورائه الى الشمال . ويسميهم بلينوس الهون التوتاسيت ويقسمهم الى اربعة : التوساجيت ، الترك ، والموسكوفيين ، والاودين، ولكن المؤلفين الاغريق يدعونهم باسم واحد لأنهم يقطنون نفس البلد .

وبدون ان نخالف بلينوس، فان السيت الذين يقطنون من وراء جبل طوروس ويمتدون (3) على طول البحر الشمالى الى اقصى الشرق، كانوا منقسمين منذ أقدم الأزمنة الى عدة شعوب وقبائل، كما هو شأنهم اليوم. وهاته الشعوب الأربعة

(1) هل المراد به البساسيري ؟......
(2) أسماء غريبة راجعة لجهل المؤلف بتاريخ الاسلام الحقيقي . (مترجم) .
(3) التتــار .

الذين ذكرنا اسمهم منذ قليل يدخلون في ضمنهم. ونظرا لخصالهم الحربية، فقد أسسوا مملكتهم بقوة السلاح، ودعوا باسماء مختلفة من لدن المؤرخين، فتارة الهون، وطورا الموسكوفيين، وآخر الترك، وآخر التوساجيت. ولكن الهون الذين كانوا يوجدون اقرب الى البحر السيتي في سكناهم عرفوا باسمهم قبل ذلك منذ زمان بعيد على يد اتيلا، ودفعوا جيرانهم الى ان يفعلوا مثل ذلك. فالموسكوفيون ألفوا البلاد واعطوها اسمهم. ويسميهم سيدرونيس وزونار (4) وغيرهم من المؤلفين الاغريق الاتراك ثم الهون. ويقول بيروز بان الهون ينحدرون من هون ابن تيسكون، وان تلك الشعوب كانت مقسمة الى عدة امم تحمل كل واحدة منها اسم من يحكمها. ولم يشأ الهون ان يتخلوا عن اسم مؤسسهم. وهو الاسم الذي يخلع ايضا على الذين بقوا منهم في ارضهم الاصلية، ولم يتخلوا عن فنهم السحري الذي يعرف اقبالا كبيرا لدى تلك الشعوب. ولذلك فان البعض يقولون انهم ينحدرون من الفونيس. (5)

فالترك اذن، أو التوساجيت، الذين ينحدر منهم اولئك الذين نخشى اليوم قوتهم، ينتسبون لتلك الشعوب التي كانت تستوطن الجزء الشمالي من القوقاز، برغم اختلافهم معهم في الاخلاق والعادات، لكنهم مع ذاك متشابهون في اشخاصهم، ومتصادقون مع بعضهم حتى انهم يعتبرون كجنس واحد. ولعلهم كذلك. كما ان الأرمن جيرانهم يسمون المكلفين بالدين عندهم الحكماء اي القديسين، وهم الذين يسميهم الأتراك التوتاسيت اي ما يكون معناه اصحاب القربان. ويقول بروكوب بانهم لم يكونوا جيران الهون الآخرين، ولم تكن لهم اتصالات بهم، ولم يكونوا رعاة مثل السيتيين، ولكنهم كانوا مستقرين بشمال فارس في اتجاه أرمينيا، وكانوا يحتلون اجود الاراضي الواقعة بين تلك الجبال. وهم بيض البشرة حسان الوجوه وليسوا مثل الهون الأخرين مخضري البشرة، دميمي الخلقة كالمتوحشين. ويضيف ان حكومتهم كانت على احسن تنظيم حتى انها لم تكن تقل في شيء عن حكومة اليونان والرومان، وان اميرهم الذي كان من جنسهم كان قصره بمدينة كوركا، حيث كان يساعده عشرون من اعيان البلد بمشورتهم. ويقول مؤلفون آخرون بان الترك ينحدرون من قبائل اسرائيل العشر، الذين وقع

---

(4) Cédrenus , Zonare

(5) Faunes

ترحيلهم الى ميديا ، بينما يذكر آخرون انهم ينحدرون من ياجوج وماجوج المذكورين في الكتب المقدسة، والذين ينسب اليهم آخرون جنس القوط والتتار ، وينسبهم البعض الى الطرواديين، وليس من الصعب اقامة الدليل على عكس ذلك، ولكن بدون ان نفند أو نحبذ الآن احد هذه الآراء، نقول ان الاتراك اتوا لنجدة محمد تحت قيادة الشجاع المقدام تنكروليبكس موكاليت (6) الذي حارب البساسير خليفة بغداد والهنود الذين هزمهم بكثرة مارماهم به من السهام. واراد محمد ان يمنعهم من الرجوع الى بلادهم، ليستفيد منهم في حروبه، فقطع ممر الرس بحيث اضطروا للانسحاب الى مكان خال (7) لانهم لن يكن لديهم من القوة ما يمكنهم من محاربته، (8) ومن ثم بدؤووا يغيرون على العرب ليحصلوا على قوتهم، ووجه لهم محمد جيشا قوامه ثلاثون الف رجل. فتوغل متهورا داخل تلك الصحراء، دون ان يتزود بالماء والطعام، فتكبد الهزيمة ذات ليلة اثر هجوم فجائيٍ. واضطر الى تخليص نفسه بالفرار. وجمع الاتراك غنائم كثيرة اثر الانتصار من السلاح والخيل. فلم يسغ لهم ان يظلوا منزوين بالصحراء مثل قطاع الطرق. واتشروا في البرارى حيث التحق بهم من كل جهة اناس ليعيشوا على التلصص فكونوا جيشا من اربعين الف رجل، وكان محمد نفسه سببا في تزايد عدده بسبب القساوة التي كان يعامل بها القادة والجنود الذين افلتوا من الهزيمة. بحيث ان عددا من هؤلاء التحقوا بذلك الجيش، اما بدافع الانتقام او الخوف. ولما راى طنكووليبكس نفسه على جانب من القوة، مشى لحرب محمد، قرب الباكان، ومع جيش يتجاوز عدده خمسين الف رجل (9) ومائة من الافيال المحملة بالأبراج، وكانت المعركة قاسية وطويلة حتى ان محمدا وقع من الفرس لأنه كان يجري من هنا الى هنالك لتشجيع ذويه فمات من جراء وقوعه. فحيى جيشه في الحين طنكروليبكس ملكا، ففتح بدون ابطاء ممر وادي الرس، واصبح سيداً على كل تلك الامبراطورية. ثم هزم العرب واستولى على اقليم الحجاز، الواقع داخل الجزيرة العربية، وانصاع له الهجريون. فجعل على البلاد ولاة من الاتراك بدلا من ابنائها.

---

(6) Tangrolipix Mucalet

(7) كارپونيتدن .

(8) لم يكونوا إلا ثلاثة آلاف .

(9) فرس ، عرب ، كبريون (؟) ، خراسانيون .

(10) سنة 958 .

اسبانيا

ولنرجع الآن الى قضايا المغرب. علم دون رامير بموت عبد الرحمن وبصغر ولده، فدخل الى مملكة طليطلة وحاصر مدينة طلبيرة التي خربها، بعد استيلائه عليها. ومن ثم اجتاز الى قلعة رباح، التي حاصرها كذلك. ولكن المنصور هب لنجدتها، فجرت المعركة وغلب العرب ورجع الملك منتصرا الى ليون. وعقدت بعد ذلك هدنة بطلب من المنصور لمدة ثلاث سنوات. ومات دون رامير على التو ودفن بعاصمته بدير سان سوفور، الذي كان امر ببنائه من اجل ابنته، ولم يعش خلفه دون اوردونيو كثيرا بعده، ومات سنة تسعمائة وتسع وخمسين، تاركا التاج لدون سانشو، اول حامل لهذا الاسم، واخوه الذي دعى السمين وكانت له عدة قضايا تتطلب التسوية مع دون اوردونيو، ابن دون الفونس الرابع الذي طرده اخيرا من دولته واكرهه على الانسحاب الى قرطبة وذلك سواء ليحصل على نجدة من اميرها او ليتلقى العلاج من بعض اطبائها المشهورين الذين بفضل بعض العشب الطبية خففوا من الشحم الذي كا يضايقه. وفي السنة الموالية خرج مع المنصور على راس جيش (11) واسترجع دولته دون ان يحمل السيف في يده، لأن دون أوردونيو لم يجرؤ على الظهور في الميدان. ولكن لم يطلب شيئا من الكونت فرناند كونزاليس، الذي كان يحكم قشتالة، لأن ذلك لم يكن داخلا في نيته، ومنذ ذلك الحين لم يعترف هذا الاقليم بمملكة ليون، ولكن بما انه لم يكن محسوبا في الهدنة، فانه دخل في حرب ضروس مع أهل طليطلة وأكرهه المنصور على الخروج اليه وحصار سبيولفد التي انجدها الجيش من الاراغونيين والنافاريين والبروفانسيين والكاسكونيين (12)، وبعد ذلك قتل خمسة عشر الفا من الأعداء، ورجع منتصرا الى قشتالة. واستولى في السنة التالية على مدينة تارانس، وبما ان المنصور هب لنجدتها، فقد قتل له عشرين الف رجل وأكرهه على المهادنة لمدة ثلاث سنوات مات خلالها الكونت. ومات دون سانشو أيضا، تاركا كخلف له ولده دون رامير، (13). الثالث بهذا الاسم الذي كان لم يتجاوز الطفولة بعد، فكان تحت سلطة بعض الاوصياء

---

(11) سنة 963 .
(12) سنة 965 .
(13) سنة 970 .

الذين أكدوا الهدنة مع ملك قرطبة. (14) ومنذ تلك السنة الى سنة تسعمائة وثمانين لم يحدث شيء يذكر ضد العرب. ولكن جرت حروب كبيرة بين اصحاب ليون وقشتالة وتلقى الكونت غرسي فرنانديز النجدة من ملك نافاريا ومن جيوش كاسكونيا وبرفنسا (15).

آسيـــا

فاذا رجعنا الى آسيا، نجد الامبراطور باسيل بورفيروجينيت بعد ان هدأ ثورات سكلير وفوكاس، دخل الى سوريا، وكانت له مناوشات مع العرب الذين استولوا على طرابلس ودمشق وصور في فترة تدهور ملكهم ،ومن هناك بدأوا يغيرون على انطاكية. وبعد ان حاربهم الامبراطور وغلبهم فرض الجزية على تلك المدن، ثم رجع منتصرا الى القسطنطينية، مع بعض السكان كرهائن ، وبعد موت باسيل وتولي اخيه قسطنطين الامبراطورية، وقطع خليفة مصر (16) الهدنة وكان قد وضع نفسه تحت جزية الامبراطورية وخرب قبر المسيح وجميع الاماكن المقدسة ووجه جيشا بحريا قويا الى جزر كيكلادوس. ولكنه تكبد الهزيمة على يد أميرال الامبراطورية الذي عاد منتصرا الى القسطنطينية مع اثنتي عشرة سفينة مع ذلك الاسطول بعد ان أغرق البقية في قعر اليم، وفي عهد الامبراطور أرجيروبوليتان، استرجع العرب مدنية فينيقية وسوريا، التي كان الأباطرة السابقون فتحوها وأسروا كل رجال الحرب الموجودين بها. وفي تلك الأثناء نهب امير حلب اوبيروى اراضي انطاكية والجزء السوري الذي كان تابعا للامبراطور، وكان قسطنطين لا يزال على قيد الحياة، فهزم قائد تلك القاعدة ، الذي سلك سلوك الجبناء في المعركة. وغضب الامبراطور لهاته الخسارة، فاراد ان يسير بنفسه. ولكن خليفة مصر وجه له هدايا بقصد تطييب خاطره آمرا بأن تقدم له الجزية، ورغم كون رؤساء جيشه أشاروا عليه بأن يقبل هاته العروض، فقد تخطى نصيحتهم آملا ان يحقق النصر، وجاء ليخيم أمام حلب التي كانت محصنة أحسن تحصين. ولكن العرب، وهم اصحاب جرأة، أقاموا كمائن حول معسكره، وقتلوا أو اسروا كل اولئك الذين ينفردون ليذهبوا للغابة او الى الماء او الى حشيش الرعي في انتظار ان تتجمع

---

(14) هشـام .
(15) دون سانشو أباركا .
(16) الظـاهر .

قواهم ليدخلوا في المعركة. وأخيرا جاءوا من كل مكان لمهاجمة المعسكر حيث اصاب الذعر رجاله فلجأوا للفرار. وكان من الممكن ان يقع الامبراطور في الأسر، لو لم يقم احد رجاله باغاثته، ولم يشأ العرب ان يطاردوه مخافة ان يقعوا في مفاجأة واكتفوا بنهب المعسكر وباسر بعض الناس الذين أصابوهم فيه، ثم رجعوا مثقلين بالغنائم، وانسحب الامبراطور الى انطاكية مع فلول جيشه، ومن هنالك الى القسطنطينية. وأمضى مع امير حلب هدنة لعدة سنوات. (17)

من جهة اخرى، دخل عرب ايقونيا الى ميزوبوتاميا (بلاد الرافدين) ووجه خليفة مصر جيشه البحري لنهب شواطئ صقلية ولكن جيش الامبراطور هزمه واحرق قسما من سفنه، بينما كسرت العاصفة الباقي في بحر صقلية. وفي نفس الوقت تقريبا، وجه خليفة القيروان (18) اسطولا من الف سفينة لنهب شواطئ ايطاليا وجزر البحر المتوسط ولكن بما انها تشتتت بسبب عددها الكبير، فقد هزم أسطول الامبراطور قسما منها ورجع بعدد كبير من الاسرى الى القسطنطينية ولكن الذي كان يتولى القيادة باسم الامبراطور (19) على ضفاف الفرات استولى بالقوة على مدينة الرها ووجه رسالة الى الامبراطور كان قد عثر عليها بسميساط وقيل انها بخط يد السيد المسيح بنفسه. وحاصر العرب الرها، ولكن قسطنطين وجه اليها النجدات، وهو حاكم انطاكية واخو الامبراطور ميخائيل باليولو ج.

وفي نفس الوقت مات الظاهر (20) خليفة مصر، تاركا التاج لمولد مازال طفلا (21) تحت وصاية والدته التي كانت نصرانية، والتي ابرمت الهدنة مع الامبراطور لمدة ثلاثين سنة، مع الالتزام باعادة بناء معبد القدس وغيره من الاماكن المقدسة التي كان الظاهر (20) قد خربها، واغتنم العرب في تلك الاثناء فرصة الحرب القائمة بين البابا يوحنا الثالث عشر والامبراطور اوتون الأول والامراء النصارى الآخرين (22)، فقاموا بعدة غارات في بوى وكالبريا واستولوا على مدينة كوسنزة وخربوها وأثاروا

---

(17) ابن عمار .
(18) عبد الله .
(19) جورج مانياس .
(20) في الاصل : دابر ، ولا شك أنه تحريف عن الظاهر الذي لم يكن في الوقت الذي يتحدث عنه المؤلف (مترجم) .
(21) عـامر .
(22) سنة 972 .

الرعب في كابوا. وقد انضم اليهم عرب كركانو إلى اخرين من افريقيا وصقلية، ولكن السلافيين الذين كانوا اعتنقوا دين النصرانية منذ عهد ادريان الثاني، جاؤوا اليهم على اثر ذلك في بوى ونالوا من غطرستهم بهزائم متعددة، وقام الهنغاريون بنفس العمل بعد ذلك بقليل وطردوهم من بوى التي باعوها منذ ذلك الحين الى امبراطور القسطنطينية الذي ابرم الصلح مع عرب كلابريا. ولكن امبراطور المانيا اوطون اتم طردهم من ايطاليا ، ومن بقى منهم بها خضعوا لسلطانه.

صقلية

وفي نفس الوقت كان هنالك اخوان منصُور وعبد الله في نزاع فيما بينهما بصقلية، واستنجد الأخير بالامبراطور الذي وجه له جيشا بحريا، تحت قيادة البطريق جورج مانياس. ولكن قبل دخوله الى الجزيرة، ادرك الاخوان خطأهما فتصالحا، وضمّا قواتهما لصد هجومه، ولكنهما رايا ان لا قبل لهما بمنعه من الدخول، فاستقدما النجدة من افريقيا، ولكن النصارى كانوا سادة الموقف، فبعد ان هزموا العرب في عدة مواقع، وخربوا مذن كطافيا ومسينة وسراكوزة، وغيرها فرضوا على الجزيرة جزية الأمبراطور.

آسيا

من جهة اخرى، تحالف البساسير، خليفة سوريا مع السودان الآخرين من اجل الاستيلاء على مدينة الرها. فارادوا ان يدخلوا اليها بالمباغتة متظاهرين بانهم يريدون توجيه هدايا الى الامبراطور. فحملوا الف رجل في سلال على ظهر خمسمائة جمل، وتوجهوا نحو تلك المدينة ظانين انهم يتركونهم يدخلون، ولكن الحاكم لم يأذن بالدخول الا للرؤساء، وعددهم اثنا عشر، مع خدامهم. وفي تلك الاثناء، سمع متسول وهو يطلب الصدقة من سائقي الجمال أحدا داخل السلال يسأل عن المكان الذي يوجدون به، فذهب ليبلغ الخبر للحاكم في الحين فاعتقل الرؤساء داخل المدنية، وخرج مع جنود، وكلما فتح سلة ذبح من فيها، ثم عاد الى الحصن فقام بنفس العمل مع الرؤساء، باستثناء واحد منهم طرده بعد ان قسا في التمثيل به.

وعلم خليفة القيروان (23) في تلك الاثناء بهزيمة ذويه في صقلية، فجمع جيشا لحرب مانياس، وانزل العرب في القامة التي كانت ما تزال بايديهم فقام بغارات داخل الجزيرة برمتها. ولم يرض مانياس بتلك المذلة، فجمع جنودا من كل الحاميات، وطلب من البطريق اتيان، الذي كان يقود الجيش البحري، ان يحرس كل الشواطئ حتى لا يمكنهم الهروب في اي مكان.. ثم دخل معهم في المعركة وهزمهم. ولما راى الخليفة عبد الله ذويه في حال سيئة، نزل في فلك صغير وفر الى قرطاجنة، مخترقا خطوط العدو، وعلم بذلك مانياس، فرفع يده على البطريق اتيان، الذي انتقم من هاته الخسارة بان اتهمه بالنية على الاستيلاء على الجزيرة، ولما علم الامبراطور بالنبا، قبض عليه، واتى به الى القسطنطينية، واسند حكم الجزيرة الى اتيان الذي ترك العرب يعودون الى الاستيلاء على الجزيرة، ذلك ان عبد الله ماعتم ان عاد الى افريقية حتى جمع جيشا من الافارقة والمصريين لينتقم من الخسارة التي لحقت به ، وتواطأ مع المنصور احد الاخوين المتآمرين على الجزيرة ، كما ذكرنا، فاستولى عليها في وقت قصير ، باستثناء مسينة التي كان يوجد بها حاكم شجاع (24) .

اسبانيـــــا

فإذا عدنا الى اسبانيا نجد المنصور، نائب ملك قرطبة يساعد الكونت دون فيلا، الذي استنجد به، والذي كان سلب من امارته من لدن كونزاليس، أبي كارسي فرنانديز، فوجه اليه قسما من جيشه تحت قيادة القبطان رضوان الذي دخل الى قشتالة في سنة تسعمائة وثمانين، وقام هنالك بنهب كبير، لكنه غلب من لدن كارسي فرنانديز ودون سانشو أبارية، ملك نافاريا، ورجع الى قرطبة، وتوجه فرنانديز ضدا على ليون. فلما راى المنصور تقدمات الكونت، من اجل ان ينهي في دفعة واحدة تلك الحرب، وجه لولده المظفر، الذي كان يحكم موريطانيا، بأن يتهادن مع خليفة القيروان، وان يقدم الى اسبانيا بعد ان يترك حامية على الحدود، وكتب نفس الشيء الى شيوح زناتة وغيرهم من رؤساء افريقيا الذين كانوا

---

(23) عبد الله .

(24) كطاكلون أمبوست .

منحاشين الى جانبه، ثم انه دعا الى حرب مقدسة، على نمطه، (25) ضدا على النصارى فجلب اليه جموعا من العرب الى اسبانيا، ونزل فريق منهم بمالقة وآخر بجبل طارق وبغيره من موانئ ذلك الشاطىء وساروا جيمعا نحو قرطبة، حيث كان المنصور ينتظرهم بجيشه، ومن ثم دخلوا الى قشتالة، واستولوا على سانت اتيان دي كرمدس التي عمرها بالعرب بعد ان قتلوا كل من كان فيها، وبما ان الحصار استمر اكبر مدة من الصيف فقد رجعوا ليأخذوا استراحتهم في ضواحي قرطبة. وفي السنة التالية عادوا لحصار سيمانكاس (26)، في ملكة ليون، فاستولوا عليها . وبرغم كون الاوصياء على الملك الصغير دون رامير، اشتكوا من قطع الهدنة، وان هشام امر المنصور بالحفاظ عليها، فانه لم يرد المدينة وبعد ان حصنها عمرها بالعرب، وفي تلك الاثناء، راى الامبراطور باسيل وقد استولى على اقاليمه بايطاليا، (27) ، فاجتاز الى بوى مع جيش من اليونان والعرب، وانشب الحرب معه، وغلبه واسره، (28) واتى به الى صقلية، وكان السكان هنالك قد افسدتهم الوعود، فأطلقوا سراحه . ومن جهة اخرى استولى المنصور على سيبولفيدا، (29) وبعد ان حصنها، ملأها بالعرب وفي السنة التالية (30) وجه جيشه تلبية لطلب عاملي سرقسطة وطرطوشة من اجل حرب دون سانشوابارکا، ملك نافاريا الذي كان يقم بغارات في كل البلاد، وبما ان الجيش قد انشطر شطرين، فان حاكم سرقسطة قام بغارات في كل نافاريا، وفعل مثله حاكم طرطوشة في قطلونيا حيث حارب دون بوريل كونت برشلونة قرب مونكادا وغلبه بعد معركة كبيرة. وانسحب الكونت الى مدينته، فحاصره العرب فيها واستولوا عليها يوم السادس من يوليو، بعد ان فر في الليل، ومن هنالك رجعوا الى طرطوشة محملين بالغنائم بعد ان خربوا المدينة واخذوا كل سكانها، ولم يكن الحظ مع حاكم سرقسطة اذ اضطر الى الانسحاب من نافاريا بعد ان تكبد خسائر وبدون ان يستولى على اي مكان ذي اهمية.

---

(25) يسمي العرب هاته الحروب غزوات .
(26) سنة 982 . وكانت تسمى قديما سيتانكا .
(27) سنة 983 .
(28) يوم بازونيل في كالابريا .
(29) المسماة قديما سيتبولفيكا .
(30) سنة 985 .

ومع فصل الربيع، (31) عاد حاكم طرطوشة الى قطلونية وأتم اخضاع هذا الاقليم لسيطرة العرب، باستثناء قلعتين : سربلون ومونكادا. وفي نفس السنة، حارب اهل غارسيا أهل ليون، فكانت خسائر من الجهتين واغتنم المنصور الفرصة للدخول الى البلاد وفتح قلمرية وبويرتووبراكا مع البلاد المجاورة، ثم مدينة بروطونيا التي خربها وسيطر على بلاد البرتغال من ليما لى مونديكا ورجع منتصرا الى قرطبة، وفي نفس السنة مات دون رامير بمدينة ليون تاركا كخلف له اخاه برمود الذي واصل الحرب مع قشتالة واخضع اشتوريا. وفي سنة تسعمائة وثمانٍ وثمانين عاد الكونت بوريل بقصد تعمير برشلونة بالسكان، وكان العرب قد خربوها. وجرت له معه حروبٌ حصل فيها على بعض النصر. ولكن المنصور استمر في مشروعه فدخل الى قشتالة وحاصر مدينة اتيانسا طول الصيف ثم استولى عليها وخربها وعاد ليقضي الشتاء في قرطبة، ولما رأى الملك برمود العرب يتوسعون يوما اثر يوم، وجه الى ملك قرطبة من اجل تأكيد الهدنة التي كانت له مع اخيه. ولكن بدلا من ذلك وجه المنصور ليحاصر مدينة سمورة ويستولى عليها ويخربها، ثم يعود مثقلا بالغنائم الى قرطبة، وفعل نفس الشيء في السنة التالية في اوسما (32)، وبعد سنتين دخل الى منطقة كامبوس، فنهب كل ما كان في طريقه واستولى على مدينة بلنسية صلحا بعد حصار طويل. ومن هناك توجه لحصار ليون. ولكن دون برمود جمع جنوده الذين انضمّ اليهم عدد من الفرنسيين والبروفانسيين مع الكاسكون فدخلوا معه في المعركة، وتوجس المنصور الشر، فرمى بثيابه نحو الاعداء، وتلك عادة جارية عند العرب من اجل اثارة شجاعتهم وهجم في نفس الوقت فحصل على الانتصار، بحيث اضطر دون برمود الى الهروب للجبال . وفي تلك الاثناء واصل المنصور بعد انتصاره حصار ليون وكاد يستولى عليها لولا الامطار المتوالية التي الزمته بالتراجع نحو قرطبة، (33) ولكنه عاد في السنة التالية ليعيد الحصار الذي واصله الى ربيع السنة الموالية حيث هجم عليها بقوة بلغت من الشدة حتى انه استولى عليها عنوة، برغم جهود كيلان كونزليس حاكم غاليسيا الذي ادخله الملك اليها للدفاع عنها. ذلك انه كان مريضا في الفراش وعلم ان

---

(31) سنة 987 .

(32) سنة990 .

(33) سنة 994 .

المدينة كانت مفتوحة من جهتين، فتسلح بكل سلاح وذهب ليواجه المهاجمين ودافع ثلاثة ايام، وفي اليوم الرابع اخذ بالقوة واستولى العرب على المدينة وخربوا كل ما فيها، تاركين فيها برجا كعلامة للذكرى، ثم استولوا على البلاد وعادوا الى قرطبة. وفي سنة تسعمائة وخمس وتسعين، دخل المنصور الى البرتغال حيث استولى على مدينة توى وخربها، مع غيرها من مدن الاقليم، ثم انتقل الى كومبوستيلا فحاصرها واستولى عليها وانتهك حرمة كنيسة سانت ياقب، ووضع ابوابها في مسجد قرطبة. ولم يغادرها حتى كان الطاعون قد تسرب الى معسكره، وأهلك قسما كبيرا من جنوده. وفي تلك الاثناء، استرجع النصارى شجاعتهم بعد ان اشرفوا على الهلاك وعاد السلام بين دون برمود والكونت غرسي فرنانديز، (34) بواسطة بعض رجال الدين. فدخلوا الى مملكة طليطلة مع دون سانشو من نافاريا وحاصروا حصن قلعة النسور بين الدويرو والتاجو، وفي الحين خرج المنصور من غالسيا ليواجه الموقف واجتاز مضيق زبريروس ودخل الى مملكة ليون، وكانت المعركة حامية ولكن النصارى انتصروا في الاخير واجبروا المنصور على الفرار مع قليل من رجاله، فانتقل الى بوردى كريتشه بين برلانك وقلعة النسور واصابه المرض ومات من الكمد في غرفة حيث اقفل على نفسه رافضا ان يتناول الطعام او الشراب وحمل من هنالك ونقل الى مدينة سالم حيث دفن، وقد سرت الاشاعة انه يوم هزيمته قبل وصول النبأ الى قرطبة، سمع صوت في السماء فوق النهر (35) يقول انه فقد طبله في قلعة النسور وحظه، واسف العرب لذلك الحدث الذي اعتبروه كاكبر خسارة وقعت لهم باسبانيا وذكروا سبعين ألفا من المشاة وأربعين الفا من الفرسان الذين ماتوا هنالك واشادوا بأحد ابطالهم شعرا ونثرا على غرار ما وقع لرولان(36) . ومات دون سانشواباكا، ملك نافاريا في السنة التالية (37) تاركا وراءه ولدين، فتولى مكانه اكبرهما دون غرسية الرعديد، بينما اصبح الآخر، دون كونزال ملكا على ارغون. ولم يحدث شيء يستحق الذكر لا في تلك السنة ولا في التي بعدها، فقد كان ملك قرطبة يسترجع انفاسه والامراء النصارى يؤمنون حدودهم، وفي سنة تسعمائة وثمانٍ

---

(34) في رواية أن الكونت لم يحضر بنفسه ، وإنما اكتفى بتوجيه بعض رجاله .

(35) الوادي الكبير .

(36) لصك بن بهلول أو قاسم الماحري، وأصله من جبال غمارة – كذا في الهامش ولم نتبين المقصود من ذلك (مترجم) .

(37) سنة 996 .

وتسعين، بويع عبد الملك ابن المنصور مكان ابيه ليقود الجيش، فحاصر آبلة حيث جاء الكونت فرنانديز مسرعا، وهزم مع مقتلة كبيرة. وجرح، فاخذ وحمل الى قرطبة حيث توفى يوم التاسع والعشرين من يوليو، بعد ان حكم قشتالة ثمانية وعشرين عاما، (38) وتولى مكانه سانشوغرسية ولده وافتدى أباه بثمن كبير، ودفنه في قبر جده، واصدر قوانين جد صالحة. وفي السنة التالية مات عبد الملك في قرطبة وحل محله اخوه عبد الرحمن، لكنه كان مستهترا حتى انه اهمل شؤون الحرب. فثار عليه عرب اسبانيا وانقسموا الى فريقين الافارقة من جهة تحت قيادة سليمان، والأندلسيون من جهة أخرى تحت قيادة محمد. ودخل هذا الأخير الى قصر قرطبة عن طريق المباغتة، واعتقل الخليفة الذي كان هو الاخير من سلالة عبد الرحمن، ولم ينبس احد بكلمة، بسبب رذائله وجبنه، ولكي يصدق الناس بموته امر بذبح احد النصارى في مكانه ثم تسمى بعد ذلك ملكا وخليفة، واستولى على المدينة، ولدى هذه الانباء شهر عليه سليمان حربا ضروسا كما لو كان يحارب طاغية أو مغتصبا. وفي تلك الاثناء، دخل دون سانشو من قشتالة الى مملكة طليطلة، حيث قام بنهب كبير، دون ان يقاومه احد، لأن الكل كانوا في حالة ثورة . ومن جهة أخرى ، وجه خليفة القيروان الذي كان هو اقوى امير بافريقيا كلها جيشه الى موريطانيا بطلب من هاته الشعوب التي كانت تريد ان تخلص نفسها من ظلم مغراوة والامويين الذين اضاعوا بتلك الطريقة سيادتهم على تلك البلاد. والتجأ المظفر ابن المنصور، الذي رجع من اسبانيا اثر وفاة والده الى مدينة ارشقول، فاخذ عنوة وقتل هو وآل عبد الرحمن الذين كانوا معه، وهذا هو الاسم الذي كان يطلقه اهل افريقيا على عرب اسبانيا، (39) ولكن بعد تراجع جنود عبد الله، ثار مغراوة وصنهاجة الذين منهم ملوك تلمسان ، المدعوون بنو عبد الواد. واقتدى بهم غمارة وهوارة، الذين يقطنون بجبال الاطلس الصغير، قرب البحر المتوسط، وانقسموا الى دويلات صغيرة، كل واحدة تحت رئيس قبيلته، بقصد المحافظة على حقوقهم وامتيازاتهم، بحيث ان عرب الاندلس لم تسند لهم منذ ذلك الوقت اي قيادة بافريقيا، وفي سنة تسعمائة وست وثمانين، مات الخليفة عبد الله،

(38) سنة 1000.

(39) هكذا يقول المؤلف ولا نجد أثرا لذلك في المصادر العربية (مترجم) .

فخلفه القائم بامر الله الذي ادعى انه الوارث الشرعي لاسرة العباس [40] وبمساعدة العرب اصبح في وقت قصير سيدا على كل شرق افريقيا ، ومن هناك امتد الى المغرب ، فنهب اقاليم الهبط والريف وغيرها من أقاليم مملكة فاس ، وبفضل ضابط من الصقالبة ، اصبح سيدا على كل بلاد البربر ونوميديا وليبيا وجمع ثروات كبيرة من القيروان وأصبح اقوى امير حكم بافريقيا الى ذلك الوقت [41] .

آسيـــــا

واما في آسيا ، فان طانجروليبيكس نصب نفسه ملكا على الفرس واخضع تلك الاقاليم وتوجه بقواته لحرب ملك بغداد[42] ،وغلبه في عدة معارك ووضع حدا لامبراطورية خلفاء بغداد الذين كانوا يدعون انهم الخلفاء الشرعيون لمحمد .. ورغم انه استمر البعض منهم منذ ذلك الوقت يعملون في الميدان الروحي ، ولم تكن لهم قوة ولا سلطة مستقلة ، ولكن احد اولاد البساسير ، اسمه الفير ، فرَّ الى مصر ، وحكم بها مدة كما سنذكر ذلك .

بقي الاتراك اذن على دين الاسلام ، فحافظوا على الحكم والسلطة الدنيوية ولم يتركوا للخلفاء الا صفة الاساقفة ورجال الدين ، وحينما يموتون يحل محلهم شريف مثل سنجل اليونان مع البطارقة . ومن ثم اصبح كل الفقهاء والعلماء الطامحين الى هذا المنصب يتسمون بالشرفاء الذين هم مثل الصوفية بفارس ، وهؤلاء الشرفاء [43] لهم اعتبار كبير بافريقيا ومصر وسوريا مثل الآخرين بفارس ، وارمينيا لانهم ينظر اليهم كآل محمد .

---

(40) أبو يزيد بن عبد الملك بن مروان ــ هكذا في الهامش وهو خلط واضح (مترجم) .
(41) جوهر الكاتب .
(42) البساسيري – قد أشرنا فيما سبق الى خطأ المهمش (مترجم) .
(43) لا نحتاج الى التنبيه على ما في هذا الكلام من جهل (مترجم) .

الفصل التاسع والعشرون

الفير (1) الخليفة السابع والعشرون وما جرى في عصره

جاء الفير الى مصر ، فاستقبل كملك مقدس من لدن ملك البلاد ، وجمع المصريون كل قواتهم ليقاوموا الاغتصاب وحاربوه طوال سنتين . ولما رأى ان كل العرب يثورون من اجل خليفتهم ، فكّر في حيلة لتصفية الجو ، وهي أن يوجه من أجل مبايعة الفير في كل ما يخص الميدان الروحي، على ان يأخذ منه السيف والحداء للدلالة على منزلته وان يرجعه الى مقامه ببغداد (2)،شريطة ان يظل السيد المطلق في كل ما يخص السلطة الدنيوية . وجرى الوفاق على هذا الاساس ، وادار التركي اسلحته ضدا على أمير من جزيرة العرب كان يسمي نفسه خليفة ووجه له جيشا تحت قيادة قتلم (3) ابن اخيه ، وهزم الاتراك وجرت عليهم مقتلة عظيمة ، ولدى هاته الانباء ، عزم ان يمشي بنفسه الى الحرب ووجه للبطريق اتيان ، حاكم ميديا باسم الامبراطور (4) ، ليترك له حق الجواز فقابل طلبه بالرفض ، فهزمه في معركة وأسره بواسطة ولد أخيه وأراد هذا الامير ان يقنع عمه بفتح ميديا، بسبب خصب البلاد ، وسهولة الاستيلاء عليها ، فرفض كلامه وتولى بنفسه قيادة جيشه، بسبب الهزيمة التي وقعت له سابقا . ولما رأى الامير مدى احتقار عمه له خشي أن يصادف معاملة أكثر سوءا، وفرّ مع جنوده الى مدينة بيسار التي استولى عليها ، ولم يأبه له عمه في الحين ، وسار الى ذلك العربي (5) الذي كان هزم ابن اخيه ، فاضاع المعركة الثانية مع مقتلة كبيرة من الاتراك والفرس ، ثم عاد

(1) حاولت أن نحقق من اسم الفير هل هو الأمير الفاطمي الذي كان في عصر البساسيري أم هو شخص آخر ؟ ولا أحتاج الى التنبيه على الخلط الكبير الموجود في هذا الفصل (مترجم) .

(2) كما أشرت من قبل كان المؤرخون الاوروبيون يجهلون وجود بغداد ويذكرون بابل التي كانت في حكم الانقراض (مترجم) .

(3) هل هو تحريف لاسم قطلغ خان (619هـ / 632) الذي كان في أتابكية كرمان ؟ مهما كان الجواب فالفارق التاريخي كبير جدا (مترجم) .

(4) قسطنطين المبارز أو الراهب .

(5) في خراسان .

الى بغداد، وفي السنة التالية ، ذهب ليهاجم ابن اخيه قتلم ، في المدينة التي انحاز اليها. لكنه وجه اثناء الحصار ابنا آخر لاخيه اسمه عفان الأصم مع عشرين ألفا من الرجال لنهب ميديا. ولكن لم يعد من الجميع اكثر من الفين، فقد قتل الباقي أواسر مع ابن اخيه. وكاد يموت من الغيظ لما وصلته الانباء، ووجه الى هنالك جيشا قوامه مائة الف جندي تحت قيادة اخيه عالم ابراهيم، ولما علم الوالي بذلك طلب النجدة من الامبراطور وفرق جنوده على المدن في الانتظار وذلك حتى لا يفتح المعركة قبل ان تصله النجدات، ولما رأى عالم انه لا يستطيع اجتذابه الى المعركة، (6) هاجم قرية ارفى التي لم تكن مطوقة باسوار، ولكن بما انه كان يوجد بها عدد من التجار الاغنياء، فقد تحصنوا في الازقة بالقناطر واكياس الصوف، وقتلوا له عددا كبيرا من الرجال بالحجارة، والسهام المقذوفة من الابواب والنوافذ الى درجة انهم ابطلوا مفعول جهوده طول ستة ايام. ولكنه وضع النار في الدور القريبة فانتشرت شيئا فشيئا نحو الاخرى، واكره السكان على التخلي عن المكان، حيث اكتشفت عدة ثروات كبيرة من الذهب والفضة واشياء اخرى لم تحرقها النار. وعلى اثر ذلك وصل والي ايبيريا (7) بالنجدة فجرت المعركة منذ الفجر بشجاعة حتى فر الاتراك الى احد الجناحين ووقعت متابعتهم الى اقصى من ذلك في الليل، بدون ان يتوقف القتل والضرب ولكن والى ايبيريا اخذ في الجناح الآخر، دون ان يعلم به اصحابه ولا ان يغيثوه، وكاد يسري الاعتقاد بانه في عداد الموتى، لولا وصول الخبر بان الاعداء اسروه، الشيء الذي نقص من فرح الانتصار، ولدى هاته الانباء، وجه الامبراطور في الحال سفراء من اجل فديته مع قدر كبير من الهدايا وطلب هدنة. وتاثر السلطان من ذلك فرد له الأسير مع المال والهدايا، راجيا منه ان لا يعود الى محاربة الاتراك. وبعد ذلك بقليل جاء من قبله شريف الى القسطنطينية، في هيئة عظيمة، مطالبا بالجزية، فثارت ثائرة الامبراطور من هاته الجسارة، ورده خائبا. فاستشاط السلطان عضبا حتى انه دخل في حرب مع النصارى وتوغل في ايبيريا على راس جيش كبير، (8) لكن السكان التجأوا الى القصور والحصون بكل ما كانوا يملكون من نفائس، وتجمع الجيش الامبراطوري في

---

(6) بعثكان ـــ كذا بالهامش !

(7) ليباريت ـــ من دون شك أنه لا يقصد إيبيريا حيث توجد إسبانيا .

(8) حتى مدينة كوم ـــ هل المراد مدينة قم الموجودة داخل إيران ؟ (مترجم) .

قيصرية، فدخل هو الى ميديا وقرر في الاخير، ان يقوم بحصار الأماكن لما راى الناس يختبئون في القلاع فهاجم اذن مدينة منزيكرت، المحاطة بثلاثة اسوار والمزودة كما يجب بالماء وبكل ما كان ضروريا للدفاع بحيث انه بعد ثلاثين يوما من الحصار كان مكرها على الانسحاب مع خسارة رجاله وسمعته، وعلى اثر ذلك شعر عمه عالم ابراهيم بكبر السن، فاراد ان يعين خلفا له احد أبناء اخيه، (9) على حسابه فاتصل بابن اخيه الآخر، الذي كان قد ثار عليه (10) وحاربه قرب بازار حيث غلب ابراهيم وقتل، ولكن ولد اخيه فر مع ستة آلاف من الرجال بصحبة مالك ابن عالم، ووجه لقسطنطين دوكا الذي كان يحكم القسطنطينية ليحصل منه على نجدة ضدا على السلطان. وظل ينتظر الجواب في مدينة كرصي، فاشعر بان السلطان آت لمهاجمته ففر الى بلاد العرب السعيدة، لكن السلطان نهب ايبيريا، وعلم ان ميخائيل آت اليه بالجيش الامبراطوري فانسحب الى بلاده، وكأنه لم يرض ان يحارب بنفسه، احد قواد الامبراطور، وترك فقط ثلاثة آلاف من الرجال تحت قيادة ضابط محنك لالحاق خسائر بالاقليم، وخرج بعد ذلك للحرب في عهد الامبراطور رومانوس ديوجينوس، ولما رأى الامبراطور سائرا نحوه، قسم جيشه الى فرقتين، وجه احداهما الى الجنوب والاخرى الى الشمال واكتفى بالحاق الاضرار. وبعد ان نهب مدينة قيصرية الجديدة عاد جنوده محملين بالغنائم ، لكن الامبراطور أخذ الأمر بحزم كبير ، فاغلق الممرات بصفوة جنوده ، مما اضطرهم الى التخلي عن كل شيىء والفرار من اجل انقاذ انفسهم، ولم يكن عدد القتلى كثيرا لان الجيش النصراني كان مرهقا بطول المشي، فلم يستطع ان يطاردهم واكتفى باسترجاع الغنائم وتحرير عدد من النصارى الذين كانو يحملون معهم. ودخل الامبراطور بعد ذلك الى سوريا ووجه جيشا إلى مليتى، الذي قام بغارات في كل البلاد، واخذ الى حلب عددا كبيرا من الرجال والقطعان بعد ان استولى على مدينة هيرابوليس (منبج السورية) صلحا . وفي نفس الوقت جهز الاتراك جيوشهم من جديد . وبما ان قسما من الجيش الامبراطوري كان متحركا في كل الجهات، فانهم وثبوا عليه واكرهوه على الفرار، وكاد الضرر يكون قويا لولا ان

---

(9) أران .

(10) قتلـم .

الامبراطور لم يأت بسرعة من منبج. واعتقد حاكم حلب لدى وصول هاته الانباء ان جيش الامبراطور باسره حاقت به الهزيمة، فانحاز الى جهة الاتراك . وبما انهم كانوا مسيطرين على البادية، وكانوا يطوقون معسكر الامبراطور من كل جهة، باغتهم هذا الملك بان اخرج جيشه سرا من تحصيناته وهاجمهم فجأة فأثار الاضطراب في صفوفهم، ولكنه لم يتم انتصاره لانه طاردهم بتراخ. ومع ذلك فقد اعتقد انه انتزع الرعب الذي كان مسيطرا على رجاله من جهة الاتراك، فبنى قلعة بمنبج، واستولى على عدد من الحصون في تلك الحدود، وانسحب الى اقليم اذنة حيث وضع جنوده في حال الاستراحة الشتوية، نظرا لما كان هنالك من توافر الاقوات. ومات السلطان بسبب الشيخوخة تاركا وراءه نزاعات بين الاتراك حول من يتولى مكانه وان كان اوصى بالعهد لابن اخيه اكسان. (11)

اسبانيـــــا

فلنعد الآن الى افريقيا واروبا. لقد كان العرب منقسمين على انفسهم باسبانيا، مما جعل الامراء النصارى لا يفكرون الا في تحصين حدودهم (12) والاستيلاء على ما فيه فائدة لهم. فاشعل دون سانشو الحرب بقوة على مملكة طليطلة. ودخل كونت برشلونة (13) الى بلاد ملك طرطوشة، وقتل له عددا كبيرا من الرجال في معركة، وفعل مثل ذلك من جهتهما، ملكا اراغون ونافاريا فاحرزا عدة انتصارات على العرب المجاورين لهم. ولكن هاته الشعوب رات ان كل مصائبها آتية من انقسامها، فاتحدوا كلهم تحت امرة محمد، ملك قرطبة الذي وزع جيشه الى فرقتين : وجه احداهما الى طليطلة تحت قيادة عبد الله ، وقاد الاخرى بنفسه الى مدينة سالم. ومات في تلك الاثناء دون برمود (14) تاركا كخلف له ولده الفونس الخامس ممن حمل هذا الاسم. ولم يحالف التوفيق محمدا فيما عزم عليه، فان عبد الله بعد ان استولى على طليطلة ثار عليه، وعقد هدنة مع دون الفونس وتزوج اخته (15) وقدم لها هدايا سرية، واستقبلها احسن استقبال وجعل في خدمتها عددا

---

(11) حسن أم أرسلان أم اسم آخر ؟ (مترجم) .
(12)
(13) ريموند بوريل .
(14) سنة 1009 .
(15) دوناتيريزا .

من النصارى من الجنسين، ولكن بما ان كل هذا لم يكن يقع الا باعتبار مصلحة الدولة، فانه لم يستمتع بذلك الا بالقوة ثم طردها الى ليون حيث دخلت الى احد الأديرة، ومات عبد الله بعد ذلك بمديدة، ولدى وصول النبأ، انتقل سليمان الى طليطلة حيث دخل بدون مقاومة، وعقد هدنة مع دون سانشو صاحب قشتالة، وتخلى له عن عدد من الحصون حتى يحصل على مساعدته ضد ملك قرطبة. وجمع هذان الاميران بين قواتهما، واتجها صوب قرطبة، واكرها محمدا على التخلي عن محاربته للأراغونيين ليواجههما. وكانت المعركة دامية من الجهتين. الا ان محمدا غلب وفقد اكثر من ثلاثين الف رجل بحيث انه لم يجرؤ على الانسحاب الى قرطبة، وسار في طريق مدينة سالم، ولكنه علم ان الكونت وسليمان متجهان في طريق قرطبة، فكتب الى الوالي ان يخرج هشاما من السجن، وان يظهر للناس حتى يحول دون استقبالهما هنالك، ودافع الشعب عن بلده بحماس لما راى هذا المشهد الذي كان يتجاوز أمانيه، ولكن الكونت ضغط عليهم بشدة حتى اضطروا الى الاستسلام، ووضعوا المدنية بين يدي سليمان، فعاد منتصرا إلى قشتالة. وفي تلك الاثناء جمع محمد عددا كبيرا من الافارقة والعرب باسم هشام ورجع الى الاندلس حيث علم بان سليمان كان يعيش في غفلة بين الملذات. فتحالف مع القطلانيين على ان يرد لهم حصونهم التي كانت في يد بعض القادة من حزبه وان يسيروا جميعا لمحاربة سليمان، فانضم اليه، اذن، كونت برشلونة (16) مع كونت اورجيل (17) وغيرهما من الأساقفة والفرسان، وحينما احتشد كل الجنود، اتجهوا في طريق قرطبة وخرج اليهم سليمان منها، وجاء ليقابلهم على تسعة فراسخ منها في ارض منبسطة، وكانت المعركة دامية، برغم انتصار المسيحيين فيها. (18) وقد مات فيها اساقفة برشلونة وجيرون واكشونبة مع عدد من النبلاء الشجعان. (19). ثم تقدم محمد امام قرطبة بدعوى اعادة هشام الى عرشه. ففتح له السكان الأبواب، وذهب كونت اورجيل لياخذ استراحته الشتوية في برشلونة التي تولى الحكم فيها، وفي السنة التالية توفى دون غرسية ملك نافاريا (20) تاركا وراءه ولده الاكبر دون

---

(16) ريموند .
(17) أرمنجو .
(18) سنة 1010 .
(19) سنة 1012 .
(20) هرطال بكار ــ كذا ولم نهتد للمراد منها (مترجم) .

سانشو كخلف له، وبويع الخليفة هشام للمرة الثانية ملكا على قرطبة. وانسحب سليمان الى قصر الصفراء. ولم يطمئن على وجوده هنالك، فانتقل الى بلاد البربرصحبة بعض الافارقة الذين تبعوه في تلك الحرب. ويسمى العرب المكان الذي يوجد به ذلك القصر صفر بسبب سوق يقام به كل سنة في شهر صفر، (21) يأتي اليه عدد كبير من قطعان الماشية والسلع. واشتهر محمد بذلك الانتصار حتى انضم اليه عدد من الناس، وما هو الا ان حشد جنودا كثيرين، فاخذ طريق المرية وانتزعها عنوة من يد عربي كان ثائرا وقطع راسه، واستولى كذلك على جيان وبياسة وارجونة مع عدد من الاماكن الثائرة التي وضعها كلها في طاعة الخليفة، ثم مات بعد ذلك، فبايع اهل طليطلة مكانه اخاه الاكبر عبد الله ولكنه لم يقبل ان يكون تحت طاعة هشام، مقتديا بأبيه، وهاجمه بقواته، فانشب المعركة مع اهل قرطبة، وقتل. ولما رأى سكان صليطلة موت ملكهم بايعوا في الحين آخر من اسرة بني أمية، اسمه خير، (22) وفي تلك الأثناء اراد عرب البلاد البربرية الموجودون باسبانيا ان يساعدوا قائدا شجاعا من قوادهم اسمه علي، فحملوا السلاح على الخليفة هشام الذي مات في ذلك الظرف مما جعلهم يسيطرون بسهولة على قرطبة وفسح هذا الموت المجال الى آخرين من البيت الاموي وغيرهم من الكبراء أن يثوروا في المدن التي كانوا ولاة عليها ويحملوا لقب الملوك وثار على علي أثار (23) وقامت حروب عديدة فيما بينهما، مستعملين فيها كلاهما عرب افريقيا، لكن مدينة جيان استسلمت لعلي، فتواطأ على أثار مع بعض السكان عن طريق الرشوة فقتلوه غدرا. وكان لهذا العمل الشنيع ما احقد عليه الاندلس باسرها حيث لم يعد يعترف به كملك. وبايع اهل قرطبة اخا المقتول قاسما على الخلافة. فرأى علي آثار ان خيانته لم تعد عليه بفائدة، فحاول ان يقنع عبد الرحمن ابن اخي هشام الخليفة، بحمل السلاح ضدا على هذا الخليفة الجديد، متعهدا بمساعدته بالسلاح و بكل ما يستطيع، واجتذب الى هذا الحلف ابن الحق (24) الذي ثار في سرقسطة وعاملي بلنسية وطرطوشة الذين دخلوا كلهم في الحرب مع قاسم لانه كان

---

(21) والمراد به الشهر الثالث من سنتهم القمرية المقترنة مع شهر يوليوز ــ هذا. مثال آخر من جهل المؤلف بشؤون الاسلام (مترجم) .

(22) لعله يقصد ابن خيران العامري الفتى الصقلبي الذي كان في خدمة العامريين ، ومن ثم يظهر جهل المؤلف حتى بأحداث الاندلس ورجالها (مترجم) وفي الهامش : أمية .

(23) لم نهتد لحقيقة هذا الاسم . ولعله يدل على أحد زعماء الصقالبة الذين كانوا ملتفين حول راية المرتضى في جيان لمجابهة علي بن حمود . وإذا صح ذلك ، فالاسم ، على أي ، محرف (مترجم) .

(24) اسم محرف عن أبي يحيى التجيبي الذي كان واليا على سرقسطة والثغر الاعلى . (مترجم).

يستعين بعرب بلاد البربر. واجتمع كل هؤلاء الرؤساء وذهب عبد الرحمان الى جيان حيث وصل جزولة من المغرب منذ قريب ، وبعدما حاصرهم تغلب عيهم بعد شيء من المقاومة ، ونهب اكثر ما كان لديه من الحامية. ثم حاصر مرسية واستولى عليها ووضع كل الاقليم تحت طاعته. (25) وفي السنة التالية ذهب ليهاجم غرناطة (26) التي لم تكن آنذاك آهلة بالسكان، وكان العرب يسمونها حصن الرومان او مدينة الحب. وكان عليها رئيس شجاع اصله من جبال غمارة. (27) ولما حاصرها عبد الرحمن حصارا شديدا حتى استحال الدخول اليها خشي السكان انتصارا يتلوه شر، فتفاوضوا معه بواسطة فقيه، لكن الذي كان متوليا عليها استطاع ان يوضح لهم المصائب التي ستحيق به تحت حكم طاغية كان عدوا لدودا لعرب افريقيا، حتى عزموا على الدفاع عن انفسهم. فأخذ ثلاثمائة فارس والفين من الرجالة من بين اللاجئين من الاماكن المجاورة وخرج الى شعب باير (28) حيث يوجد الآن مستشفى سانت لازار على مرمى منجنيق من المدينة، فباغت الاعداء بسبب الاتفاق وقتل منهم عددا كبيرا حتى ظل الشعب مدة طويلة مغطى باجساد القتلى، ثم انتقل الى خيام عبد الرحمن فنهبها. (29) ولما وصل اليها، قتله مع عدد من قواده وكبراء حاشيته. ومازالت ذكرى هذه الوقعة حية في غرناطة بقصر المنتصر، حيث يشاهد في اعلى السطح فارس على جواد من البرونز رافعا يده اليمنى بحربة محددة من الطرفين(30). وفي يده اليسرى ترس كتب فيه هاته الكلمات، يقول بادس بن حبوس : يجب المحافظة على الاندلس بهاته الطريقة . وهذا الجواد موضوع على سن من حديد بمهارة حتى إن أقل ريح يديره ، ولهذا سمي الديك اذ اتخذ كرفرف لمعرفة اتجاه الريح. (31) وبعد هذا الانتصار، وجه الهدايا الى قاسم الخليفة، الذي اقره على امارة غرناطة والبيرة، وتولاها خلفاؤه من بعده طوال سنوات عديدة، وبعد ذلك بسنة مات قاسم بقرطبة. (32) فبايع عرب بلاد البربر، الذين

(25) سنة 1013 .
(26) سنة 1014 .
(27) باديس عن حبوس .
(28) جبل سركو أو البشرات .
(29) قرب الطرف .
(30) سلاح عربي .
(31) ديك الريح .
(32) 1015 .

كانوا يحملون اسم الغزاة او حماة الشرع، يحيى برغم انف اهل قرطبة، الذين لم يرضوا بهاته البيعة التي تستضيمهم ، فوجهوا سرا الى بادس، حينما خرج يحيى من قرطبة ليهاجم مالقة، فأرسل إليهم قائدين (33) مع عدد من الجنود ، ودخل هؤلاء بغتة ، فذبحوا كل الفئة المناوئة واستولوا على القصر وحرروا المدنية من سيطرة يحيى الذي قتله احد رجاله بمالقة بعد مضي احد عشر شهرا على توليه. فبايع اهل مالقة احدا غيره (34) لم يعش الا سبعة واربيعن يوما، وبعده ولده محمدا، وفي نفس السنة مات دون سانشودي غرسية كونت قشتالة، وبعض الروايات تزيده اثنتي عشرة سنة: فخلفه دون غرسية سانشيز، الذي كان اميرا شجاعا وانتصر في عدد من المعارك على العرب.

وفي سنة 1016 قتل محمد غدرا، قتله أهل مالقة، وادريس أمير سبتة لأخذ الثأر من مقتل يحيى، فاجتاز الى جبل طارق مع عدد من الأفارقة، وتقدم لمحاصرة مالقة، وبعد أن استولى عليها، وانتقم شر انتقام من اولئك الذين قتلوا قريبه، وإن كان لا يظهر أن السكان كانت لهم يد في ذلك القتل. ثم نصب نفسه ملكا على مالقة. لكن أهل إشبيلية يايعوا هشام بن محمد ملكا عليهم، وكانوا طامحين الى السيادة على قرطبة وغرناطة. فهجم عليهم باديس وادريس مجتمعين وتسلطا بالسفك والاحراق على كل مافي طريقهم. وخشي أهل اشبيلية من الوقوع في قبضة بادس، فسلموا أنفسهم لادريس، وكذا فعل سكان القلعة وقرمونة وغيرها من الاماكن. ولما رأى هشام نفسه مكروها باشبيلية، انسحب الى قرطبة حيث بقي شهورا الى أن خلعه رعاياه أنفسهم من الملك. ونظرا لما عرفه الوضع من الفوضى، تقدم أحد العرب من الاسرة الاموية اسمه المنظري، فطلب من الشعب أن يبايعه كملك. فنصحه أصحابه بأن يعيش في بيته بسلام، فأجابهم أنه لا يخشى الموت شريطة ان يستمتع بالملك ولو يوما واحدا، ولكنه قتل في الحين. وطارد السكان هشاما ونفوا كل أفراد الاسرة الاموية. وعلموا أنه كان يطلب المساعدة من كل جهة، فوجهوا للقبض عيه وسجنوه ثم بايعوا كملك عليهم جهور، (35) الذي كان من الغرب. ومات آنذاك ادريس. وطالب جهور بخلافته. فرفض أهل اشبيلية

---

(33) خير والجيد . كذا في الهامش . .
(34) اسماعيل . كذا بالاصل ولعله يشير الى ابن عباد (مترجم) .
(35) سنة 1017 .

الاعتراف به وبايعوا كملك عليهم على ابن قاسم الشجاع، الذي لم يعترف هو أيضا بحكام قرطبة ولأحفاده من بعده الذين خلعهم المرابطون من الملك بعد دخولهم الى إسبانيا.

وفيما كانت هاته الاحداث جارية بالاندلس، كان الملك دون الفونس يمارس الحرب بالبرتغال وبعد أن نال عدة انتصارات على العرب وطرد أكثرهم من الاقليم، أصابه سهم أثناء حصار بازو وهو يتقدم للتعرف على الاسوار ومات بعد ذلك في مدينة بويرتو، وبذلك انتهى الحصار. وخلفه ولده دون برمود. وكانت له عدة حروب مع القشتاليين ومات في الاخيرة منها في يورني دي طامرون (36) من غير أن يحدث شيء يستحق الذكر. وحل محله دون فرناندو وتزوج بأخت برمود، (37) وكان أيضا ملكا على نافاريا لانه ابن لدون سانشو الكبير. فكان أول ملك لقشتالة، من جهة وفاة أمه الملكة إلفيرة، ابنة دون غرسية. وكانت له، أيضا مملكة أراغون من جهة أخيه دون رامير ودام في الملك أزيد من أربعين سنة. وكان أقوى الملوك بإسبانيا منذ القوط. ولذلك لقب الكبير وشاهد اضطرابات باسبانيا أثناء ملكه. وكان يحكم بطليطلة حفيد لخير، اسمه على ميمون. فأشهرعليه الحرب بعد أن نهب بلاده، (38) وأكرهه على أن يكون تحت تبعيته. ويذكر أن سانتا كافيلد المدفونة في إقليم بوريبة، كانت بنته وأن ابن راجل الذي ألف في التنجيم الشرعي ، وعليا أبا الهاشم مع عدد من العلماء كانوا من مفاخر طليطلة آنذاك .

إفريقيـــــا

وفي تلك الاثناء، كانت إفريقيا هي أيضا مسرحا للحروب مثل إسبانيا بسبب طموح خليفة القيروان الذي بعد أن استولى على عدد من الاقاليم بفضل أحد القادة الصقالبة، (39) أصبح يفكر في مشاريع أكبر ، فغزم علي توجيهه الى فتح مصر وسوريا والفرس، وكلها بلاد كانت تحت حكم ملوك لم يكونوا مثله من اسرة محمد. وواعده هذا القائد الشجاع بأن يجعله ملكا على كل تلك البلاد وأن يمكنه

---

(36) قرب نهر قريون .

(37) دونا سانتشا .

(38) وادي الحجارة والقلعة ومجريط .

(39) جوهر الكاتب .

من إقامة عاصمة في بغداد ، حيث حكم أسلافه، وأن يثأر له من كل المظالم التي أصابتهم من بني أمية، فارتكز على هذه الآمال، ووضع تحت تصرفه جيشا قوامه ثمانون ألف رجل، مع كل ماهو ضروري لمشروع كبير من هذا الحجم، ووجهه عن طريق صحارى برقة ال الاستيلاء على مصر. وأظهر من الفظاظة لدى دخوله الى ذلك الاقليم ما جعل والى الاسكندرية باسم الخليفة، (40) يفر حتى لا يقع في يده لانه لم يكن يأمل أي مساعدة من الاتراك الذين كانوا منشغلين بالحرب في آسيا . وهكذا أصبح سيدا على مجموع مصر في ظرف قصير من الزمان ، غير أنه منذ ذلك الحين، فكر في امكان عودة الجيوش من اسيا، معززة بقوات الخليفة، فانسحب الى القاهرة وحصنها بالاسوار والابراج، سواء لمنع العدو من اجتياز النيل أو للتمركز بالمكان ريثما تصل النجدة من إفريقية. وامتلات تلك الارض التي أحاطها بالأسوار من السكان الى أن أدركت من الشهرة ما جعلها تدعى القاهرة العظمى بعد أن كانت شيئا تافها من قبل. ولما رأى أن لا شيء يتحرك، وأن الاتراك لم يأتوا، وجه الى خليفة القيروان يعلمه ويدعوه للقدوم لأخذ زمام ممتلكاته مع التأكيد على أن كل السكان سيبايعونه، لأنهم مبتهجون للتخلي من غطرسة الاتراك وخلفاء البيت الاموي. فحشد جيشا من خمسين ألف رجل وسارالى مصر (41) في نفس الطريق التي سلكها قائدة، بعد أن ترك على ولاية القيروان أبا الحاج ابن باديس، الافريقي الأصل من قبيلة صنهاجة.(42) وكان له أفخم استقبال في الاسكندرية ، ومن ثم سار الى القاهرة ، حيث قدم له قائده بيانا عن كل ما قام به، ومكنه من كل كنوز القاهرة. وبينما كان يفكر في الاستيلاء على بغداد، بلغه أن ابا الحاج ابن باديس أثار كل البلاد في غيبته ووجه الى الخليفة إلفير (43) ليعترف به وليثبته على ملك افريقية كما كان. وأوقف النبأ مشروع بغداد، وجعل القائم يسب حملة مصر. ولما رآه الصقليي في تلك الحال، أشار عليه، كي يهدئه ويسهل عليه الانتقام من عدوه بأن يفتح باب افريقية

(40) الفير ابن أمية — كذا في الهامش — .

(41) 998 أي 397 للهجرة — كذا بهامش الأصل . والصحيح أن دخول المعز الفاطمي كان في سنة 973 م الموافق لـ 362 هـ (مترجم) .

(42) تحريف لاسم المعز بن بادس وسيتكرر فيما بعد (مترجم) .

(43) الخليفة العباسي الذي خطب باسمه المعز بن بادس هو القائم[422 — 467] (مترجم) .

للعرب، التي كان أسلافه أقفلوها من قبل ومن ثم يتسنى له أن يكسب المال والشهرة ويحقق الهدف من مشروعه. استحسن الخليفة هذا الرأي، وإن كان تخوف من أن يستولى أولئك الذين يوجههم على افريقية، لكن بما أنه رأى نفسه محروما من تلك البلاد، فقد غض طرفه عن أي اعتبار آخر، وأطلق الاعلان في كل بلاد العرب، (44) بأن الاذن ممنوح لكل من أراد أن يرحل الى افريقية بمركوبهم وجهازهم مقابل دينار لكل واحد عند الخروج من مصر، حيث يمكن الحصول على الزاد وكل لوازم السفر، بشرط القسم على محاربة أبي الحاج . وما أن أذيع الخبر حتى كانت ثلاث قبائل عربية من الرحل تلبي النداء. وكان عددهم مليونا، على ما يذكر ابن الرقيق، (45) المعاصر لتلك الأحداث، وإن كان عدد المحاربين ينحصر في خمسين ألفا. فدخلوا الى بلاد البربر (46) مخترقين صحاري برقة وخربوا طرابلس وقابس وغيرها من أماكن افريقية الشرقية. ومن هناك اجتازوا الى القيروان حيث التجأ أبو الحاج واستولوا عليها بعد حصار دام ثمانية أشهر، وقتلوه بعدما اذاقوه ألوانا فظيعة من العذاب. وفر أولاده، البعض منهم الى تونس والآخرون الى بجاية حيث تولوا الملك ومن بعدهم ذريتهم طوال سنين عديدة. وخربت القيروات بعد ثلاثمائة وسبعة وأربعين عاما من تأسيسها، ومائتي سنة بعدما بنى بنو الأغلب رقادة وظلت مدة طويلة على تلك الحال . واقتسم العرب المنتصرون البلاد فيما بينهم وفرضوا غرامات باهضة على جيرانهم، برغم اعترافهم بالقائم كخليفة مادام على قيد الحياة. ولكن بعد مماته أصبحوا أسيادا مطلقين، وظلت القيروان قاعا صفصفاً الى عهد الموحدين ، اذ اجتاز عبد المومن من تلك المناطق وانتزع مدينة افريقية من يد النصارى وغيرها من المدن التي كانوا احتلوها منذ تخريب القيروان وأعاد بناء هاته الاخيرة (47) على هذه الصورة التي توجد عليها اليوم . وظل القائم ، في تلك الاثناء ، حاكما بمصر هو وخلفاؤه الذين تولوا الملك بعده طوال مائتي سنة الى الخليفة الاخير العاضد الذي قتله صلاح الدين أول سلطان على مصر . وبنى اولئك العرب مساكنهم بالبوادي الافريقية كما ذكرنا ذلك في الكتاب الاول (48) ،

(44) الصحراء والبتراء والسعيدة .

(45) انظر الكتاب 1 في الفصل 28 .

(46) سنة 1001 أي 400 من الهجرة .

(47) لا يوجد بها إلا قسم واحد مسكون .

(48) الفصل 18 .

فكانت لهم حروب كبيرة مع زناتة ومع خلفاء أبي الحاج، وتسببوا في متاعب لمغراوة وهوارة المتملكين لموريطانيا آنذاك، أو على الأقل، لأكبر جزء منها الذي انتقصوا منه شيئا فشيئا. مما مكن لمتونة (49) من الاستيلاء على كل البلاد والانتقال الى اسبانيا حيث قاموا بنهبها من جديد كما سنذكر ذلك في مكان آخر.

آسيــــا

بالنسبة لآسيا، كان الامبراطور ديوجين قد بنى قلفة منبج كما ذكرنا واستولى على عدد من الحصون التي كانت في يد الاتراك. وفي الربيع، جاء الى قيصرية وعلم أن الاتراك يقومون بغارات في البلاد، فقدم أمامه قسما من جيشه وتبعهم في حسن نظام فقتل منهم عددا كبيرا وأسر الكثير من الرجال. ثم انتقل الى الفرات حيث ترك قسما من جيشه تحت قيادة فيلاريت الذي كان من جنس البراكميين، وعاد الى الشمال. ولكن الأتراك تجمعوا بعد ذهابه، فقتلوا عددا كبيرا من الناس، واستولوا على أمتعتهم ونهبوا بعد ذلك إقليم كابادوص الى ايقونية المدينة الشهيرة سواء بتجارتها أو بطيب أرضها فأداروا عليها الحصار. ولما سمع الامبراطور النبأ، وكان آنذاك في سبسطا، أخذ الطريق اليهم لمهاجمتهم. وعلم، وهو في الطريق إليهم لمهاجمتهم، بأنهم استولوا على ايقونيا، وأنهم انسحبوا لما علموا بمجيئه بعدما خربوها. فرأى حينئذ أن سفره عديم الفائدة فطلب من حاكم أنطاكية (50) أن يذهب الى مبسويستا مع قسم من الجيش ليحاصر الممرات التي سيجتاز منها الاتراك. ولكن الاتراك حينما وصلوا الى سهول طرسوس، وجدوا الارمن قد تجمعوا لهم هنالك من كل مكان وسلبوهم غنائمهم. وعلموا بالكمين الذي نصب لهم في مبسيويستا، فهربوا ليلا من طريق أخرى. وغضب الامبراطور من نجاحهم في التخلص، وعاد الى القسطنطينية. وجاء الاتراك، مرة أخرى، في السنة التالية للقيام بغارات في الامبراطورية ابتداء من الربيع. فوجه لهم ميخائيل كومنين (51) الذي لم

---

(49) فرع الصنهاجيين المستقرين بنوميديا.
(50) كطاكوتو.
(51) قائد جيوش الشرق.

تكن له شعرة واحدة في ذقنه والذي كانت له عدة انتصارات عليهم حتى إن الامبراطور غار من المجد الذي ادركه، فأخذ له قسما من جيشه ونحاه الى سوريا. ولكن، لما وصل الى سبسط، هاجمه الاتراك الذين تظاهروا في أول القتال بالفرار ثم كرُّوا عليه وهو يطاردهم في غير نظام فأسروه مع آخرين معه وقتلوا معظم جنوده ونهبوا معسكره. ولدى هاته الانباء قرر الامبراطور أن يذهب بنفسه لمهاجمتهم. وبينما هو يتهيأ، وصل كومنين الى القسطنطينية مع الشخص الذي كان أوقعه في الاسر، ذلك أن هذا التركي (52) علم أن السلطان يريد القبض عليه بتهمة الاجرام، ففر الى الامبراطور، الذي أسند اليه وظيفة مشرفة، (53) بسبب كفاءته وحنكته. وفي السنة التالية، تابع الامبراطور مشروعه، برغم بعض أسباب التشاؤم فجاء في الربيع الى قيصرية، وتحصن في مكان منيع، (54) في انتظار العدو. وعلى إثر ذلك، كان جيش من السكوتيين الذين كانوا في خدمته يريد أن ينسحب ولكنه طارده وأرجعه وأعاده الى القيام بالواجب. وغير خطته لما علم أن الاعداء لم يكونوا على استعداد للقتال، (55) فأمر جنوده أن يتزودوا لمدة شهرين نظرا لكونه ملزما بأن يقطع صحاري شاسعة. فقسم جيشه (56) إلى ثلاث فرق وجه إحداها لمهاجمة سلياطا، والاخرى إلى مانسيسرت، واحتفظ بالثالثة معه. وتخلى الاتراك عن مانسيسرت، فاستسلم سكانها. ولكن الجنود الذين تركوا فيها كانوا مرهقين من كثرة تحركهم، فوجهت لهم النجدة تحت قيادة نقفور بريان، الذي وجد نفسه مازال ضعيفا فوجه في طلب النجدة من الامبراطور، الذي أرسل إليه نقفور آخر، المسمى باسيلاس، معاتبا إياه على جبنه. والتقي باسيلاس مع بريان فحاربا الاتراك مدة طويلة، ولكنه لم يجد عند بريان ماكان يأمله من العون، فقام بآخر مجهود وطردهم الى معسكرهم. على إثر ذلك سقط فرسه بسبب جروحه، فلم يستطع أن يقوم لثقل أسلحته، فأخذه الاتراك وحملوه الى السلطان (57) الذي أحسن معاملته بسبب شجاعته. وخرج الامبراطور من تحصيناته مع فيالقه ليجرب قدرة الاعداء، وهل

---

(52) حسن .
(53) جعل منه رئيسا .
(54) في كريابيكا .
(55) في تيودزوبيل .
(56) تحت قيادة روسل اللاتيني أو الروماني .
(57) حسن .

لديهم الشجاعة للقتال. ولكنهم ظلوا في معسكرهم الى حلول المساء حيث انقضوا على جنوده بصياح عظيم وهم يتراجعون، وجعلوهم في حال استنفار طوال الليل. و في الغد انحاش فيلق من البربار، الذين كانوا في خدمة الامبراطور، الى جهة الاتراك فخشي أن يقتدي بهم الآخرون. فوجه في طلب فيالق سلياط. ولكن نظرا لابطائهم، ولانسحابهم لما حصل لهم من الرعب، قرر أن يجرب حظه في الحرب. فوجه له السلطان رجالا يدعونه إلى التفاوض فكان جوابه أن هذا لا يمكن أن يكون إلا إذا سحب السلطان جنده حتى يتمكن من التخييم بذلك المكان، وبدون أن ينتظر الجواب تقدم لمجالدته وتظاهر السلطان بأنه خائف وانسحب شيئا فشيئا وهو يجابهه من حين لآخر. ولكن بما أن الوقت كان متأخرا، فإن الامبراطور بدأ يتراجع نحو معسكره وكان قد تركه بدون حامية. ولما بدأ لواؤه يتمايل في الرجوع، ظن جنوده الواقعون في الصفوف البعيدة أنه يفر، فأداروا ظهرهم والتحقوا بمعسكرهم وهم يجرون. ووقف الامبراطور ليحاول إيقافهم، ولكن بدون جدوى . فاغتنم الاتراك الفرصة، فاضطر لمواجهتهم، وبذل كل ما كان ينتظر من شجاعته الى أن جرح هو وفرسه ولم يعد قادرا لا على الهروب ولا على الدفاع عن نفسه فأسر وحمل الى السلطان. (58) فعامله المتوحش باحترام وهو لا يصدق أنه هو في البداية. ولكن شاهد السفراء يعترفون بأنه هو، وكذلك باسيلاس الذي وقع في الاسر، يرتمي على ركبتيه باكيا، (59) فنزل له من عرشه وصبره وهو يقبله، ونصب له خيمة فيها جهاز ملوكي. ودعاه للجلوس على مائدته، وحرر كل ما طلب من الاسرى. وبعد أن أمسكه مدة، أبرم الصلح معه وحرره مصحوبا بخفير دون أن يطلب منه أي شيء. وبعد عودته أقام بعض الوقت في تيودوسبيل. لمداواة جروحه، ثم أخذ طريق القسطنطينية مع رجال السلطان، ولكنه لم يجد الامور على ما يرام من أجل استقباله. ذلك أن يوحنا قيصر، ومن يسير معه في حزبه الذين كانوا، على ما يقال، سببا في خسران المعركة، كانوا يكرهونه. فعملوا على تعيين ميخائيل دوقا مكانه وتمكنوا من شخصه فسملوا عينيه بقساوة لاتقاس مع ما أظهره البرابرة من شفقة عليه أثناء المحنة (60) وغضب السلطان لما بلغته هاته الانباء فوجه جيشه

(58) حسن .

(59) يذكر المؤلف أنه وضع رجله على بطنه ، تبعا للتقاليد .

(60) ومات على هذه الحال محروما من الامبراطورية ومن النظر .

الى الامبراطورية، لامن أجل القيام بغارات، ولكن من أجل الاستيلاء عليها، لأن الأمر أصبح سهلا، مادام لم يكن هنالك شخص لمقاومته. ولكن الامبراطور الجديد، بعد إقرار الأوضاع في القسطنطينية، وجه له جيشا تحت قيادة اسحاق كومنين والمسمى روسل، الذي ثار في مدينة ايقونيا، فحارب تارة الاتراك، وطورا رعايا الامبراطور. وأما كومنين الذي كان يقود بقية الجيش، فقد هزم وأسره الاتراك، وفدى نفسه منهم فيما بعد بالمال. ووجه الامبراطور، لدى هاته الانباء، عمه يوحنا قيصر لمحاربة روسل . ولكن المتمرد استولى على مضيق القسطنطينية وخيم قبالته، (61) ولم يقبل أي تفاهم ثم ناشبه المعركة ، فهزمه وأسره مع جماعة كبيرة من النبلاء. وبعد ذلك أقام الحصار على القسطنطينية. ولما رأى أن الامبراطور يستنجد بالاتراك، لم يجد نفسه قادرا على مجابهة الاول والثاني وأخرج قيصر من السجن ونادى به امبراطورا. ثم دخل مع الاتراك في القتال، فهزمهم. ولكن بما أنه وقيصر معه كان يسعيان الى النصر بتهور، فقد قبض عليهما، لانهما ابتعدا كثيرا عن رجالهما. ووقع افتداؤهما في الحين، الاول من لدن زوجته والثاني من لدن الامبراطور. وما أن استرجع روسيل حريته حتى التحق بأرمينية حيث كان مسكنه في زمان سابق. وتحالف مع الاتراك، ولم يكف عن محاربة الامبراطور. فوجه له هذا الأخير اليكسيس كومنين، الذي ما أن وصل الى أماسيا، حتى أخذ يتفاهم سرا مع الاتراك الذين سلموا إليه روسيل مقابل قدر كبير من المال. وهكذا رجع به الى القسطنطينية حيث أودع في سجن ببرج. وبينما كانت هاته الاحداث جارية في الامبراطورية، كان قوت لومو ابن أخي السلطان الأسبق (62) ساخطا على السلطان الجديد الذي اختير مكانه. فتهيأ لمحاربته، الا أن الخليفة البير، الذي كان يتمتع بسلطة كبيرة، خاف من أن يؤدي الانقسام الى اضمحلال مملكة الاتراك، كما حدث بالنسبة لدولة العرب، فتدخل في الخلاف. وجاء اليهما، برغم كونه لم يخرج للناس منذ زمان طويل فهدأ من نزاعهما بمحضره، وأقام السلم على هذه الشروط وهي أن السلطان (63) يحتفظ بالمملكة ويترك كاباضوسا لقوت لومو، (64) حيث يساعده على التوسع في ارض الروم. وبعد هذا

(61) استولى على سانجوريوم .

(62) طنجروليبكس .

(63) ــ أكسان أو كاسيان ــ ولعله أرسلان من أمراء السلاجقة (مترجم) .

(64) لعله قطلمش عم السلطان السلجوقي ألب أرسلان (1062 – 1072) .

الصلح، استولى الاتراك على ميديا والاقاليم الشرقية الأخرى ووجهوا جيشا بحريا استولى على جزر شيو وليزبوس وساموس ورودس وكانديا وقبرص. ولكن الامبراطور استرجعها بعد ذلك. ثم استقر السلطان بالفرس، واسند حكومة دمشق وما كان يملك في مصر (65) لابن أخ له يدعى دوكاط، وذلك ليقاوم المصريين مثلما كان قوت لومو يقاوم الاغريق. فقد أصبح الخليفة القائم سيدا على مصر وسوريا الى اللاذقية وأعطى حلب لسوموكو، الذي تكلمنا عنه من قبل، وحصل على مبايعة كل هؤلاء الحكام بوصفه سلطانا. وترك لقوت لومز وحده أن يتسمى « سودان » .

إيطاليـــا

اذا عدنا الى الغرب، وجدنا أن العرب الذين كانوا يمتلكون صقيلية أوقدوا نار الحرب في بلاد يوى وكلا بريا ضدا على نائب الامبراطور هنالك فانتزعوا منه عدة أماكن أثناء الانقسامات التي كانت تعاني منها إيطاليا. وعلى إثر ذلك ظهر قائد نور ماندي، اسمه غليوم برافور أوفوربرا، في إيطاليا حيث استقر مع بعض أصحابه. فتحالف مع أمراء كابواوسالرن وأعلن حربا ضروسا على العرب، مستعينا بنائب الامبراطور (الاكساركوس)(66)، بحيث إنه بعد ما ألب عليهم كل القوات طردهم، في الاخير، من صقلية. ولكن بما أنهم كانوا يريدون أن يتقاسموها فيما بينهم، فإن نائب الامبراطور الذي كان هو الاقوى فيهم، نحى الآخرين. وحينما رأى النورماندي هذا السلوك القبيح، أسرها في نفسه آنذاك، وافترق مع الاميرين المتحالفين، وكان أحدهما قد انسحب الى كابوا والاخر الى سالين، ودخل بجنوده الى بوى وكلابريا واستولى على ملف وغيرها من المراكز . وتوجه الاكساركوس لدى هاته الانباء من صقيلية لمحاربته. فهزم. وترك النورماندي يمتلك بدون منازع بوى. ولما استرجع الامبراطور قسما منها منذ ذلك الحين، فإن دراكون أخا غليوم تحارب مع جيشه ثلاث مرات في يوم واحد فغلبهم وطرد الاغريق من البلاد. وعلى إثر ذلك اجتاز عرب افريقية الى ايطاليا في جيش عرمرم ، فحاصروا في نفس الوقت كابوا وبارى، ولكن غريغوريوس الذي كان يقود جيش

(65) أو ، بالاحرى ، في سوريا .

(66) EXARQUE هكذا كان يسمى القائد المعين بإيطاليا باسم الامبراطور

الامبراطور البحري، انضم الى البندقيين ورفع الحصار عن باري، بينما تلقت كابوا الاغاثة من امبراطور ألمانيا، (68) الذي كان يوجد آنذاك بروما، فمشى نحو العرب وهزمهم لكن بوبجان الذي حل محل ملوك (69) في النيابة عن الامبراطور بإيطاليا، ساعد عرب بوى وكلابريا على النصارى. فغضب أمبراطور ألمانيا عليه وأدار أسلحته ضده وحاربه مدة طويلة. ومن جهة أخرى، فإن العرب الذين ألفوا صقلية، تلقوا مساعدة من خليفة مصر، واسترجعوا من الجزيرة القسم الذي كان ينظر الى الجنوب. عن طريق علقمة (70) التي كانت أقوى مركز آنذاك بالجزيرة ففتحوها كلها. ولكن روجرورويرت نورمانس استوليا عليها منذ ذلك الحين بواسطة الوالي على صقيلية من لدن خليفة مصر ، وثار السكان على العرب وعلى اليونان المقيمين بها. (71) واسترجعوا، أولا، مدينة مسينة، وثانيا المراكز الاخرى. بحيث إن روجر لما طرد الاعداء من مجموع الجزيرة، انتخب كونت على صقلية، حيث تولى اخفاده من بعده الملك هنالك، بدون أن يعود للعرب أي سلطان فيها. بل على العكس من ذلك ، كان ملوك تونس يؤدون الجزية لهاته الدولة (72).

سننتهي هنا من الحديث عن خلفاء بغداد ، لأن حكم العرب انتهى بالكلية في آسيا، ولانه لم يبق الاخلفاء مصر(73) وهم الذين كانوا يحاربون الاتراك ثم النصارى الذين ذهبوا للاستيلاء عل القدس. وبما أننا لن نتحدث عن تاريخ آسيا الا بصورة عابرة، بسبب خلفاء محمد الذين حكموا هنالك، وأن غايتنا الجوهرية هي تاريخ أفريقيا، فسنتحدث الآن عن الافارقة ، الذين اقاموا سلطانهم في هذا القسم من العالم، في إطار تدهور الدولة العربية، ومن هنالك نقلوا الحرب الى إسبانيا، ولن نسميهم عربا بعد هذا، بل مغاربة (المور) ، لأنهم أقاموا امبراطوريتهم في مراكش وفاس وهما عاصمتا موريطانيا الطنجية أو ترمسان (تلمسان) عاصمة موريطانيا القيصرية ، ولأنهم بفضل هذا الشعب المحارب أخضعوا العرب الذين سبقوهم الى ذلك الفتح والذي حكموا مدة طويلة في أفريقيا.

(67) هو المتكبر ذو الذراع الوارد ذكره في رواياتنا .

(68) هنـري .

(69) MOLOQUE

(70) أو أركامو .

(71) بتيمين ، أميرال بلكافر .

(72) راجع التاريخ .

(73) خلفاء القائم .

فإذا عدنا إلى اسبانيا، (74) وجدنا دون غرسية، ابن دون سانشو الاكبر، ملك نافاريا، يهزم العرب وينتزع منهم قلهرة وتطيلة، ويفرض الجزية على حكام سرقسطة ووشقه، وكان في مستطاعه أن يقوم بفتوح أخرى لو لم يحدث الانقسام بين أمراء النصرانية ويفرض عليه ذلك أن يتخلى عن الأمر.

(74) سنة 1039

الفصل الثلاثون

أبو تاشفين (1) ، أول ملوك إفريقيا وما جرى في عهده

كانت غطرسة العرب الجدد بافريقيا وطموحهم القوى سببا في إثارة البلاد عليهم، (2) سيما وأنه لم يكن هنالك ملك معترف بسلطته، وأن الخليفة القائم كان قد استقر بمصر، وانشغل في سوريا بحروب أكثر أهمية. فثار أحد الافارقة، وهو مرابط، من قبيلة صنهاجة، من الفرع المدعو لمتونة، اسمه أبو تاشفين، من مواليد كركلا، في القسم الجنوبي من أفريقيا حيث تقع أقاليم نوميديا وليبيا. ذلك أنه، لما كان يحكم في تلك الاصقاع، حيث انسحب فرارا من سيطرة العرب، فقد جذب إليه عددا لا يحصى من الشعوب، بدعوى التحرر والانعتاق من الظلم، سواء ظلم أهل البلاد البربرية، أو أهل إسبانيا. (3) وأول ما فعله أنه وجه بعض المرابطين ينادون بالحرية في الاقاليم، ورأى أن الشعب كان يستمع إليهم، فحشد جيشا قويا من الافارقة يحتوى على صنهاجيين وعلى زناتيين وغيرهم من أبناء نوميديا. وقطع جبال الاطلس الكبير، قرب مدنية أغمات، فأصبح سيدا على إقليم مراكش. ومن ثَمَّ أخضع العرب ومغراوة الذي كانوا يمتلكون جزءا من موريطانيا الطنجية. وجعل مقر حكمه في أغمات وتسمى بأمير المؤمنين، (4) أو ملك السنيين، مدعيا أن هذا الاسم من حقه بسبب المذهب الذي كان يعتنقه، والذي يصل الى طريق الكمال عن طريق الدرجات الخمسين من الطاعة. (5) وبما أن كل هؤلاء الرؤساء كانوا مرابطين، فإن المؤلفين الافارقة كانوا يدعونهم بهذا الاسم، كما يفعل الآن سكان الاقليم الذي خرجوا منه. ويسميهم مؤرخونا المرافطين مضيفين أداة التعريف،

(1) هذا تحريف من المؤلف لاسم يوسف بن تاشفين (مترجم) .

(2) سنة 1051 .

(3) بديهي ما في هذه المعلومات من خرافات (مترجم) .

(4) لقب المرابطين كان هو أمير المسلمين (مترجم) .

(5) خلط واحد ، ولعل رقم خمسين هو تحريف لأركان الاسلام الخمس (مترجم) .

حسب عادة العرب ومعوضين الباء بالفاء تبعا للنطق الاسباني. فهم الذين تحدث عنهم المؤلفون الاسبانيون أكثر من غيرهم، لانهم أصبحوا أقوياء ودخلوا الى إسبانيا على رأس جيوش جرارة وبينما كان أبو تاشفين ينتصر بافريقيا، كان عرب اسبانيا يتقاتلون فيما بينهم ، ويمنحون الفرصة لملوك النصارى من أجل الاستفادة من انقساماتهم، لانهم كانوا مقسمين الى عدة ملوك لم يكونوا كلهم أقوياء. كان الملك دون فرناندو قد هزم أخاه دون غرسية في يوم أطابويركاس، فاستولى على مملكة نافاريا، (6) وانتصر في عدة معارك على العرب. وبعد ثلاث سنوات من ذلك، جمع جيشا قويا وتقدم الى ماردة وبطليوس ودخل الى البرتغال حيث استولى على عدد من الحصون. وقام واليا ماردة وبطليوس، ومعهما المدد من ملك اشبيلية، بمحاربته، (7) وغلب العرب فكانت فيهم مقتلة كبيرة. وواصل هذا الملك انتصاره فحاصر بازو حيث جرح الملك دون الفونس، فخربها بعد أن استولى عليها انتقاما لموته، وقتل شر قتلة ذلك الذي كان سببا في الحدث . ومن ثم انتقل الى لاميجو التي استولى عليها مع عدد من الاماكن الاخرى المجاورة، ثم عاد منتصرا إلى ليون. وجمع جيشه في البسنة التالية، ورجع الى البرتغال فحاصر مدينة قلمرية، واستولى عليها وحصنها. ويقول البعض إن الحصار دام سبع سنوات، وبعدها قبلت الاستسلام صلحا. وفي سنة ألف وتسع وخمسين، رجع الى العرب وأخذ منهم مدن كورماس وبرلاكا بتفاهم معهم وأكيلرا وقصر سانت يوست عنوة. وبعد أن خرب كل إقليم طركونة تصدى لمدينة سالم، وفعل مثل ذلك بالمنطقة كلها. وفي نفس السنة استولى عنوة على قصر مونتمور بالبرتغال، فمنه كانت تقع مضايقات لرعاياه، ثم قام بنهب الغرب واتجه الى اشبيلية، وجعل ملكها (8) تابعا له. ومن ثم سار الى إعادة بناء سمورة، التي كان وقع تخريبها في عهد المنصور، فهنالك وجه اليه ملك سرقسطة (9) يقدم له السلام بواسطة سفيره . وفي السنة التالية دخل الى مملكة طليطلة (10) التي وضع ملكها نفسه تابعا له، وانتقل معه الى بلنسية حيث عمل

(6) سنة 1054 .
(7) أبو خالد بن قاسم ــ كذا في الهامش .
(8) أبو عابد الغالب المنصور ــ كذا بالهامش والظاهر أنه يريد ابن عباد (مترجم) .
(9) الفلجيل ــ لم نتبين حقيقة هذا الاسم الوارد في الهامش. لكن المتولي على سرقسطة في تلك الآونة كان هو. المؤتمن ابن هود وولده المستعين من بعده (مترجم) .
(10) سنة 1060 .

معه نفس الشيء، وبعد ذلك انسحب منتصرا الى ليون لقضاء الشتاء بها. وكل هؤلاء الامراء بعدما اعترفوا بسيادته عليهم ، وجه لهم أبو تاشفين يحثهم على الثورة عليه بحيث إنه شاهد بأن لا سبيل لوضع الثقة في اولئك المسلمين ، فجمع جيشا قويا لمحاربتهم. (11) وجاء إليه ملكا سرقسطة وطليطلة ليقدما له الجزية ويعداه بمرافقته. وبما أنه كان قد استعد استعدادا كبيرا، فإنه دخل الى مملكة بلنسية فأشعل النار واراق الدماء في كل مكان ولكنه لم يستطع أخذ المدينة، فرجع الى ليون لقضاء الشتاء ومات هنالك في سنة ألف وثلاث وستين. وخلف ثلاثة أولاد، دون سانشو الذي كان ملكا في قشتالة ، ودون ألفونس بليون، ودون غرسية بغاليسيا والبرتغال. فأما دون سانشو فإنه منذ السنة الاولى من ملكه ذهب لحصار بلنسية، وفرض على الملك أن يقدم له الولاء، وسار بعد ذلك الى ملك سرقسطة الذي كان تابعا للملك أبيه. والذي كان محتميا بملك نافاريا ليرفض تقديم الطاعة له. وبما أنه لم يكن قادرا على الصمود أمام حصار طويل، فإنه استنجد بملك نافاريا. ولكن دون سانشو ضغط عليه بقوة حتى وجد نفسه مضطرا الى الاستسلام قبل أن تأتيه النجدة، وفي سنة ألف وسبع وستين مات ملك نافاريا، ومنذ ذلك الحين الى سنة ألف واثنتين وسبعين وأولاد دون فرناندو في حرب فيما بينهم. (12) ولكن الملك دون سانشو غلب الملك دون ألفونس وسجنه ثم أعاد له حريته، بشرط مغادرة البلاد. ومن ثم انسحب الى طليطلة التي أقام بها مدة (13)، وقطع في نفس الوقت على ميمون (14) ملك طليطلة الهدنة التي كانت له مع دون سانشو ملك قشتالة، فذهب لحصار شقوبية التي استولى عليها صلحا. وبعد ذلك مات دون سانشو وهو يحاصر سمورة التي كانت في ملك أخته فراكة. وعلم أخوه الملك دون الفونس ، الذي كان انتزع منه مملكة ليون بموته وهو في طليطلة، حيث كان ملتجأ، فتحالف معه على ميمون، ثم تقدم الى سمورة فجاءته البيعة بصفته ملكا على ليون وقشتالة. (15) وفي نفس السنة توفي أبن عباد، ملك اشبيلية، وثار عرب قرطبة على ولده، الذي كان آنذاك بالمدينة. ولكن ملك طليطلة ذهب الى أبعد من ذلك. فقد شهر عليه الحرب وبمساعدة الملك دون الفونس نهب إقليم

(12) في كولبيير .

(13) على نهر بيفركوس .

(14) لا شك أنه يقصد المأمون بن ذي النون الذي كان ملكا على طليطلة وناحيتها (مترجم) .

(15) كان سادس من يحمل هذا الاسم .

اشبيلية. وفي سنة ألف وأربع وسبعين، حشد الملك دون ألفونس جيشا كبيرا، فدخل الى إسترا مادوره واجتاز الى مارِدة فحارب الامراء التابعين لابن عباد، الذي عجز عن مواجهة هذا العدو القوي، فأبرم معه الهدنة على أساس أن يؤدي له نفس الجزية التي كان يؤديها أبوه لدون سانشو، وفي نفس الوقت، ثارت مدينة قرطبة ومدن أخرى من الاندلس على ابن عباد، (16) فطلب النجدة من دون ألفونس وجمع جيشا قويا وذهب لمحاصرة قرطبة واستولى عليها. ولكن أهل غرناطة وجيان حيث كان يحكم المظفر، (17) دافعوا بشجاعة عن أنفسهم، فطلب ابن عباد الاغاثة من دون ألفونسو، الذي وجهها اليه تحت قيادة السيد، (18) الذي اشتهر اسمه في التاريخ. وحظى المظفر، من جهته بمساعدة أمراء نصارى آخرين ساندوه في هاته الحرب. فدخل الى أراضي اشبيلية وحاصر قبرة في سنة ألف وست وسبعين. وما بلغ ابن عباد هذا النبأ حتى تخلى عن حصار جيان، وذهب للنجدة برفقة السيد . فغلب المظفر وقتل كونت برشلونة الذي كان يرافقه . وفي نفس السنة، دخل ألفونسو الى مملكة أرگون، فنهب كل شيء الى سرقسطة، التي ذهب ملكها لحصار مدينة كورماس ليشغله بها، ولكن السيد بعد أن عاد من حرب غرناطة سار لنجدتها وأجبره على الانسحاب الى مملكة طليطلة متكبدا خسائر. وقد أصاب تلك البلاد بأضرار، برغم الهدنة المبرمة بين دون ألفونسو وهذا الامير.(19) ولذلك فقد تلقى الأمر من دون ألفونسو برد جميع المراكز، وكذلك كل الغنيمة التي حصل عليها. وبما أنه رفض الطاعة، فقد طرد، وثارت ثائرته لهاته الاهانة، فأخذ ثلاثمائة من الخيل وأربعة آلاف من الرجالة من الذين تطوعوا للسير معه وأخذ للعرب قصر كاسترخون ونهب منطقة وادي الحجارة الى درجة أن على ميمون اضطر، ليحصل على السلم، أن يؤدي أرزاق جنوده، على شرط أن يذهب لمحاربة ملك بلنسية الذي كان عدوا له. وأثناء رحلته، استولى السيد على قصرالقوصر، وحصنه لنفسه مع المدنية. لكن، لما علم ملك بلنسية بالنبأ، ذهب لمحاصرته. وعندها خرج السيد في وقت غير معتاد من المركز وأثار الرعب في المحاصرين، فهزم منهم أزيد من ثلاثين ألفا، ثم تابع انتصاره فنهب البلاد. وفي سنة

(16) ملك اشبيلية .

(17) ابن أو حفيد البادسي ــ هذا الاسم غير مستعمل في أسرة بادس بن حبوس على ما يظهر (مترجم)

(18) رودريگودياز .

(19) على ميمون .

ألف وستين، حارب دون ريموند أخاه دون سانشو، ملك نافاريا، وقتله، وظن أنه سيظل بذلك مسيطرا على المملكة بدون منازع. ولكن الملك دون ألفونسو، جرده من الملك. وفي نفس السنة، خرج السيد من القوصر بجيش كان يتضخم يوما عن يوم لدى سماع أنباء انتصاراته، فذهب لينهب ضواحي سرقسطة، وأكره ملك العرب (20) على أن يعطيه أجرا وأن يجعله في خدمته. وبعد دخوله للمكان، مات الملك ، تاركا ولدين أكبرهما سليمان الذي ظل في سرقسطة، بينما الآخر عبد الحق، (21)، انسحب الى دانية منازعا أخاه على إرث العرش. وكان السيد من حزب الاكبر، بينما كان دون ريموند كونت برشلونة من جهة الاصغر. وانتهت الامور الى قيام المعركة. وانتصر السيد فيها، وأسر الكونت ريموند، ثم انتقل الى مونسون التي كانت مع عبد الحق، فجعلها في حوزة سليمان. ثم حرر الكونت دون فدية وعاد ليقضي الشتاء في سرقسطة. وتلاقى الكونت مع عبد الحق فخسر معركة أخرى مع السيد في سنة ألف وثمان وسبعين. وفي السنة التالية، مات علي ميمون، ملك طليطلة، تاركا ولده الاكبر هشاما ليخلفه ولم يدم في الملك الاسنة، فحل محله أخوه يحيى. ولكنه كان قبيحا ومستهترا الى درجة أن السكان ثاروا عليه، وبالاخص في بلنسية، التي كان واليها أبو بكر يسير بهواه مع ملك بطليوس. وكذلك كان شأن سكان طليطلة. الشيء الذي دفع يحيى الى الالتجاء الى الملك ألفونسو، فأمده بجيوش كثيرة تحت قيادة دون ألفار، (21)، الذي عندما وصل الى بلنسية صادف استقبالا من السكان بدون صعوبة. ومن جهة أخرى، غضب الملك ألفونسو من المعاملة التي عامل بها أهل طليطلة ملكهم اذ رفضوا استقباله كما ترجى منهم فدخل الى البلد واستولى على مدينة هويطة وحصنها، ثم أقام الحصار أمام طليطلة. لكنه رأى أنه يصعب عليه الاستيلاء عليها بالقوة وأن سكانها لم يكونوا يقبلون الاستسلام، فقام بإتلافات داخل البلد وانسحب الى هويطة، واستولى على كل المراكز الموجودة بين هاته وسيكانسا ،ثم ذهب ليقضي الشتاء في نحارة. وعاد في السنة التالية لمحاربة العرب وأخذ منهم كليار، وأرفالة وغيرها من حصون المنطقة، ثم انتقل الى آبلة، فحاصر اسكالون، فاستولى عليها ونهبها، ومن هنالك وصل الى طليطلة، فوضع الجزية على البلاد بعد أن دخل الى مجريط ، وعاد ليقضي الشتاء

---

(20) الفويجل ـــ كذا ، والصحيح كما ورد من قبل أن اسمه المؤتمن (مترجم) .
(21) فانييزمينايا .

في قشتالة . وفي نفس السنة حارب ملك اشبيلية (22) أهل طليطلة بأمر من الفونسو إذ كان تابعا له ، ودخل من جهة وادي يانا فانتزع قلعة رباح من يد العرب ، وفيلشيس وكونسويكرا وغيرها من الحصون المجاورة . وفي السنة التالية، (23) دخل الملك ألفونسو من جهةسيبولفيدا من جهة مضايق سوموسيرا (24) وعمر هيتا بالسكان وقد كان العرب تخلوا عنها، واستولى على أماكن أخرى، ثم على وادي الحجارة وقلعة هناريس وذهب كل البلاد، ثم رجع ليقضي الشتاء في قشتالة. ولكي لا يضيع الوقت في بداية السنة الموالية، (25) عاد عن طريق ربريروس واستولى على مدنية مكادة ، ومن ثم انتقل الى طليطلة فخرب كل البلاد وعاد منتصرا الى بلده. وفي السنة التالية، عاد لمحاصرة طليطلة بقوات عظيمة فنهب وأتلف ضفتي نهر التاج . ومن جهة أخرى، استولى ملك اشبيلية على سوريطا، وعاد هو أيضا منتصرا إلى بلده. وفي سنة ألف وثلاث وثمانين، وجه ابن فلك، التابع لملك سرقسطة، وحاكم قصر بويصة، الى الملك ألفونسو يقول له بأنه اذا أراد أن يأتي بنفسه، سلم له المكان. ولكن المستشارين عارضوا في ذلك، فاكتفى بأن وجه دون رامير، ولي عهد نافاريا والكونت دون كونزالو سالفادور، صهره مع أكثر من الف فارس. فما وصلوا الى المكان حتى قتلوا أو أسروا. وقد ظلت ذكرى هذا الغدر حية في قصر أونيا حيث دفن أكثر من قتل هنالك. وفي نفس السنة، دخل الملك الفونسو الى مملكة طليطلة، محرقا ومتلفا كل شيء ، وخرب عدة أماكن ثم عاد الى قشتالة.

وعاد في سنة ألف وخمس وثمانين، وخيم تحت أسوار طليطلة، وكان السكان قد أعوزتهم الأقوات، فاستسلموا بشروط. وهكذا عادت هاته المدينة الى حكم النصارى يوم خامس وعشري مايو، (26) بعد أن حكمها العرب طوال ثلاثمائة واثنتين وسبعين سنة. وإليها نقل الملك ألفونسو بلاطه، وتسمى أمبراطور إسبانيا. وكان أبوتاشفين (27) في نفس الوقت يمارس حربا ضروسا ضد عرب إفريقيا وغيرهم

---

(22) ابن عبـاد .

(23) سنة 1081 .

(24) مونسوم .

(25) سنة 1081 .

(26) يوم الأحد ، يوم القديس أوربان .

(27) الظاهر أن المؤلف يعتقد أن يوسف بن تاشفين ورث الملك عن أبيه (مترجم) .

من الرؤساء. وهزمهم في عدة معارك وطردهم من القسم الغربي من موريطانيا الطنجية، بفضل الجيوش اللمتونية المنتصرة، أي من الأرض التي توجد بها حاليا مملكة مراكش. وتوفي على إثر ذلك، (28) تاركا كخلف له ولده يوسف الذي كان من كبار الشجعان.

(28) سنة 1086 . كما أن هذا التاريخ غريب لا يقترن مع وفاة أي أمير مرابطي . (مترجم) .

الفصل الواحد والثلاثون

يوسف بن تاشفين، الملك الثاني لافريقيا من جنس المرابطين

بعد وفاة أبي تاشفين بايع الافارقة من قبيلة صنهاجة ولده يوسف الذي ملأ الدنيا بصليل الاسلحة. وما أن تولى الملك، حتى استهان بأغمات الواقعة في الجبال، وبنى مراكش، أو حسب رواية أخرى ، أتمها بعد أن كان أبوه شرع في تشييدها. وهنالك جعل مقر مملكته. وبعض الاسبانيين المتأخرين ينسبون بناءها الى ابن تامون (1) الذي فر من موريطانيا الطنجية في أيام الخليفة عبد الملك. ولكن الرأي السائد، والمؤكد من لدن المؤلفين من أبناء البلد،(2) ومن عدة كتابات، هو أن أبا تاشفين كان أول مؤسس لها. وتحفل كتب التاريخ العربية والافريقية بذكر ولده وحفيده الذين وليا الملك بعده، وما قام به كل واحد منهما. والشخص الذي نتكلم عنه الآن أفسد وخرب كليا إقليم تامسنا في سنة ألف وإحدى وسبعين ، أي عام اثنين وسبعين وأربعمائة من الهجرة . ولما كان على درجة كبيرة من القوة في موريطانيا الطنجية وفي نوميديا، فإنه وجه الى بلاد تمسان (تامسنا) سفراء مع بعض المرابطين، داعيا السكان للتخلي عن مذهب (قمين) الذي تمكن منهم، كما ذكرنا ذلك. ولكن السكان وثقوا بقواتهم، واستهانوا بقوات يوسف وتهديدات المرابطين، فاجتمعوا بمدينة آنفا التي كانت عاصمة الاقليم، وبدون أعتبار أي شيء آخر، سفكوا دم المرابطين والسفراء. فكان جوابهم الوحيد قرارهم بتكوين جيش من خمسين ألفا للقضاء عليه ، وغضب يوسف لهذه الجسارة، فلم يترك لهم الوقت ليهجموا عليه. ولكنه باغتهم في أرضهم بعد أن اجتار وادي أم الربيع، وحاربهم حربا شديدة قبل أن يتمكنوا من الاتصال بقواتهم. وفوجيء زناته واندهشوا، ولم يقدروا على قتاله وتخلوا عن البلاد وانسحبوا مع أميرهم الى جهة

---

(1) المشهور بابن درامون : لا يوجد في المصادر ولا في التاريخ المتداول أثر لهذا الاسم ولا لهاته الرواية (مترجم) .
(2) يوحنا ليون وغيره .

فاس (3) ليحصلوا من هنالك على النجدة. ولما انتصر يوسف، هدم كل الحصون وذبح حتى الأطفال، لينتقم من المصاب الذي حل بسفرائه، دون أن يجد أية مقاومة. لأن أهل فاس، بدلا من نجدتهم، قاموا بمطاردتهم وكأنهم رعايا ثائرون عليهم. ثم التقوا بهم على وادي أبي رقراق، بأمتعتهم وعائلاتهم، مجهدين، يكادون يموتون من الجوع، فأثخنوا فيهم، ولم يفلت من يديهم الا من غرق، أو من قفز الى أسفل الصخور. تلك هي الصورة التي هلك بها ذلك الشعب الابي الذي لم يجد من يرشده والذي يبلغ تعداده مليون نسمة من كل جنس وكل سن. وبعد هذا الانتصار، رجع يوسف الى مراكش وترك الاقليم للحيوانات المتوحشة. وبعد ذلك بمدة، ذهب لمحاربة أهل فاس، الذين كانوا تحت حكم أميرين. فغلبهما قرب جبل هونكي (4) على بعد تسعة فراسخ من مكناس، وأصبح سيدا على البلاد دون مقاومة. ومن هنالك اجتاز الى مملكة تلمسان، فطرد من بجاية خلفاء أبي الحاج . (5) وعفا عنهم منذ ذلك الحين كآفارقة من قبيلته. وأرجعهم الى امارتهم حيث ظلوا هنالك باستمرار طوال عهد المرابطين. وفعل مثل ذلك مع أهل الجزية، ثم عاد منتصرا الى مراكش، فحمل مثل أبيه لقب أمير المؤمنين. (6) وفي عهده استولى الايطاليون على مدينة مهدية بافريقيا، التي احتفظوا بها سنوات عديدة الى أن استرجعها عبد المومن، الملك الثاني للموحدين. ولكن مؤرخ فاس (7) لا يقول بأن الذين استولوا عليها كانوا نصارى، وإن كانوا حسب نظرى نصارى من صقلية.

إسبانيــــا

وفي تلك الأثناء ، ذهل عرب اسبانيا من سقوط طليطلة ، ومن تقدّم الملك ألفونس، فوجهوا الى افريقيا لدى يوسف والامراء الاخرين، ليبلغوا حالة البؤس التي كانت فيها البلاد، وما سببته من تضحيات بالدماء من لدن أسلافهم، وما كانوا فيه من عجز عن تلافي التدهور بأنفسهم نظرا لضعفهم، وتشتت كلمتهم. وتأثر يوسف من شكواهم، ووعدهم بتجنيد جيش في دولته، بحيث

(3) في ظرف ثمانية اشهر .

(4) اسم لم نجد ما يقابله في المصادر العربية (مترجم) .

(5) كما ذكرنا من قبل ، يقصد بهذا الاسم المحرف ابن باديس المعز (مترجم) .

(6) بيّن في الهامش كيف وقع تحريف هذا الاسم الى أميرالومين في الاسبانية . ومن المعلوم أن يوسف بن تاشفين لم يتلقب إلا بأمير المسلمين (مترجم) .

(7) الشريف . كذا بالهامش . فهل يقصد الشريف الادريسي مثلا ؟ (مترجم) .

حشد أربعين ألفا من رجال الحرب، تحت قيادة على بن عايش، (8) الذي انضم الى ملك بطليوس وغيره من الملوك المتحالفين، ودخلوا جميعا الى قشتالة. وجمع الملك ألفونس جنوده وسار لملاقاتهم، بينما كانوا ينهبون إقليم آبلة وهزمهم في يوم سكاليا، (9) اذ قتل منهم عددا كبيرا وأكره الآخرين على الانسحاب. وفي نفس السنة، ثار أهل بلنسية على أميرهم وانضموا الى ملك طرطوشة. (10) وكان دون رامير، ملك آراغون في الوقت ذاته على خلاف مع عبد الرحمان ملك كيسكار، (11) وبعد أن قام بتخريب بلاده، دخل معه في المعركة وغلبه. ولكن العربي جمع جنوده بمساعدة السيد ودون الفونسو وأجرى معركة ثانية، وغلب مرة أخرى مع السيد، ووجد نفسه مضطرا ليدخل في تبعيته.

وفي سنة ألف وثمان وثمانين، ذهب ألفونسو ليحاصر قصر الرويضة، (12) لينتقم من مقتل ولي العهد. (13) ولكنه لم يستطع أن يستولى عليه طوال الصيف، ورأى الشتاء يقترب، والعرب يستعدون لنجدته، فرفع الحصار بعد أن تلقى مراسيم الطاعة من ملك سرقسطة. وجاء إليه، في نفس السنة، ملك أشبيلية، (14) ليتفق معه على مصالحة ملك بطليوس الذي أصبح تابعا له. ومن جهة أخرى، فإن يحيى بعد أن طرد من بلنسية حاصر شاطبة التي كانت قد ثارت عليه. فاستولى عليها، ثم هزم ملك طرطوشة أخاه (15) الذي ذهب لينقض على بلنسية، مستجيبا لدعوة أهل المدينة. وواصل ملك أراغون في السنة التالية (16) الحرب ضدا على عبد الرحمن، ملك كيسكار، فاستولى صلحا على مدينة مونصون، (17) وأجبره

(8) القائد الذي وجهه يوسف على رأس أول جيش مرابطي الى الأندلس اسمه داود ابن عائشة وليس عليا (مترجم) .

(9) يجعل البعض هاته المعركة في السنة السابقة ـــ هكذا ذكر في الهامش ، وهو الصواب ، لأن معركة الزلاقة ، التي يسميها المؤلف سكاليا ، جرت في يوم الجمعة 12 رجب سنة 479 الموافق لتاريخ 23 أكتوبر سنة 1086 . ولا أدل على تحامل المؤلف وتشويهه للتاريخ من كونه يحول هاته المعركة إلى انتصار للنصارى ، مع أن المصادر تجمع كلها على أنها كانت انتصارا كبيرا ليوسف ابن تاشفين (مترجم) .

(10) يحيـى .

(11) قرب تطيلـة .

(12) قرب موريل .

(13) دون رامير .

(14) ابن عباد .

(15) ابن الحاج ـــ وهو القائد المرابطي الذي كان واليا على بلنسية . إلا أن تاريخ الأحداث عند المؤلف ينطوي على أخطاء .

(16) سنة 1089 .

(17) دون سانشورامير .

على أن يصبح تحت تبعيته. وفي تلك الاثناء، قامت الحرب بين عرب اسبانيا وأمرائها. فاستعاد يحيى بلنسية، (18) ودخل ملك سرقسطة في الحرب مع ملك طرطوشة، بمساعدة السيد ودون الفونسو، في حين كان ملك أراغون (19) وكونت برشلونة في جانب خصمه. وبنى الملك دون سانشو راميرو قصر كاستلار على نهر إبره، على بعد خمسة فراسخ من سرقسطة. ومن ثم استولى على مدن شانتا اوليلي، والمنار، ونافار، ودولون، حيث حدد الحدود وألحق أضرارا كبيرة بأراضي سرقسطة. ومن جهة أخرى، دخل ملك بطليوس الى البرتغال، (20) وإن كان تابعا للملك ألفونسو، الذي حشد جيشه واستولى صلحا على الاشبونة، ثم عاد الى قشتالة، بعد أن تملك كل البلاد التي مرَّ بها . ولكن ملك اشبيلية (21) تدخل في الصلح بينهما على شرط أن يؤدي ملك بطليوس الجزية التي كان مدينا له بها وزف ملك اشبيلية بنته (22) زوجا للملك الفونسو الذي كان أرملا، مع عدد من المدن (23) من مملكة طليطلة كمهر ملكها إياه ، وهذه السيدة التي عمدت قبل العرس، وسميت ايزابلا أو، حسب البعض، مارية ولدت له دون سانشو الذي قتله العرب في معركة وهو ما يزال طفلا. وكانت هاته المدن تؤوى عددا من العرب الذي أصبحوا تابعين للملك مدجنين، حسب الاسم الذي أطلق على العرب الذين أصبحوا من رعايا الامراء النصارى، دون أن يتخلوا عن دينهم، وليس على اليهود كما يظن البعض. وبينما كانت هاته الاحداث جارية بقشتالة، كان ملك أراغون في حرب مع عبد الرحمن، (24) وجاء ليحاصر كيسكار بنجدة من الفرنسيين والكاسكون. لكنه جرح بسهم في أسفل ذراعه، وهو يتعرف على السور ومات يوم رابع يونيو تاركا عرشه لولده دون بيدرو الذي واصل الحصار طول تلك السنة والتي تلتها مع أخيه دون ألفونسو. واستنجد عبد الرحمن بملك سرقسطة الجديد، (25) الذي جاء مسرعا إليه

(18) سنة 1090 .

(19) دون ريموند .

(20) سنة 1093 .

(21) ابن عباد .

(22) زايدة — وهنا أيضا اختلاف ودس من المؤلف ، فزايدة لم تكن بنتا لابن عباد ، وانما كانت زوجا للفتح ابن المعتمد بن عباد فرضت عليها ظروف قاسية أن تخضع لالفونسو ، ولم تتزوجه برضى المعتمد ومقابل حلف الفونسو (مترجم) .

(23) قونكة ، سوريتا ، أوكانيا ، كونسويكرة ، الماكرو ، قلعة رباح .

(24) سنة 1094 .

(25) عبد الله المقابل ولد سليمان (كذا) .

مع الكونت دون غرسية دونشار ونصارى آخرين. ولكن الملك دون بيدرو ذهب للقائهم قرب ألكوراس حيث قتل أزيد من ثلاثين ألفا من العرب وأسر الكونت. (26) وقيل إن القديس جورج شوهد في جيش الاراغون، وهو يحارب من أجلهم، ومنذ ذلك الحين اتخذوه وليا لهم. واستسلمت مدينة كيسكار دون إبطاء الى دون بيدرو وانسحب الملك عبد الرحمن مع كل السكان، بعد سنتين من الحصار. وفي السنة التالية ذهب ملك سرقسطة لحصار كيسكار بعد أن انسحب منها دون بيدرو وسرح جنوده ، لكن هذا الملك هب في الحين لنجدتها ودخل بغتة الى معسكرهم وهزمهم وحرر المدينة من الخوف الذي كان ينتابها من الوقوع مرة ثانية في أيدي المسلمين .

وفي نفس الوقت حاصر ملك طرطوشة بلنسية، التي وجه ملكها يطلب في الحين النجدة من الملك الفونسو الذي لم يكن في مستطاعه أن ينجده بالسرعة المطلوبة لأن جيشه كان في خدمة ملك إشبيلية صهره ضدّ ملك غرناطة ، فالتجأ هذا الأخير إلى الملك دون بيدرو والى السيد الذي سطا على عدد من المراكز التي كانت بيد العرب . وبينما كانا يتهيئان لتقديم النجدة، وقع الصلح بينه وبين ملك طرطوشة، بحيث إنهما لما وصلا، وجدا الحصار قد رفع، وظلا اياما يستريحان في ضواحي المدينة. وبينما كانا هنالك، اتفق ملك بلنسية (27) مع السيد ليتلقى عونه ضدا على العرب. ولكن ما أن انسحب النصارى حتى استولى ملك طرطوشة بمساعدة كونت برشلونة (28) على قصر مونفيدرو ورجع لحصار بلنسية التي اضطر للانسحاب عنها عند قدوم السيد. واستولى هذا الاخير على عدد من حصون (29) هذا الامير مما أدى الى قيام المعركة بينهما. وهزم فيها كونت برشلونة الذي هب لنجدة أمير طرطوشة، وقتل أو أسر عدد من أتباعه. وأدت هاته الهزيمة الى موت أمير طرطوشة، (30) من الكمد، وحصل رعاياه بعد وفاته على حماية السيد، مؤدين له نفس الجزية التي كانوا يؤدونها لكونت برشلونة. وكانت الحرب مستعرة جدا

(26) سنة 1096 .
(27) يحيى .
(28) دون ريموند .
(29) دانية وغيرها .
(30) ابن الحاج .

بين ملكي اشبيلية وغرناطة، حيث كان جيش ألفونسو ينتصر تحت قيادة دون ألفارو الذي اضطر هذا الامير الى طلب النجدة من افريقيا. وفي تلك الأثناء، ذهب دون ألفونسو بنفسه ليحاصر مدينة أبذة، وبما أنه لم يتمكن من فتحها، فقد رجع ليقضي الشتاء في قشتالة.

بينما كانت هاته الاحداث جارية لم تكن افريقيا أقل تعرضا للحرب من اسبانيا بسبب طموح يوسف، الذي بعد أن سيطر على فاس، وجعل ملوك تلمسان وتونس تحت تبعيته، صار يواصل حربا مستمرة ضدا على العرب المنزوين في جبال وصحاري نوميديا وليبيا. وكانوا يقومون بغارات في بلده، ويضايقون كثيرا سكان البلاد الاصليين. يضاف الى ذلك وجود أماكن منيعة ومدن حصينة في تلك الجبال، كان أسيادها لا يريدون الاعتراف بسلطانه. ولكنه ما أن أتم بناء مدينة مراكش، (31) وقضى عليهم طوعا أو كرها، حتى عزم على الجواز الى اسبانيا، تلبية لطلب ملك غرناطة، الذي اتفق مع غيره من ملوك العرب في البلاد للاعتراف به ملكا عليهم، آملين أن يستعيدوا سطوتهم بمساعدته، وهكذا قبل يوسف عروضهم واجتاز بوغاز جبل طارق، (32) وضم قواته الى قواتهم وتصدى لمحاصرة طليطلة. وما علم الملك ألفونسو بذلك حتى جمع كل النبلاء باستثناء السيد، الذي كان يحارب ملك سرقسطة ليعوقه عن الانضمام الى الامراء العرب الآخرين. وذهب لفك الحصار. إلا أن يوسف لم يجرؤ على انتظاره وانسحب الى غرناطة قبل وصوله، ومن ثم الى المرية دون أن يقوم بشيء يذكر.

ولما رأى ملك سرقسطة ضعف موقفه، وجه الى ألفونسو للاعراب عن احتراماته، ولكنه لم يشأ أن يستقبله ووجه للسيد بأن يواصل الحرب. وبعد انسحاب ألفونسو، توجه يوسف لمهاجمة مدينة مرسية التي كانت في قبضة أمير عربي تابع للملك قشتالة واستولى عليها صلحا، فوجه ولده مع أنشط الجنود لتطويق دون ألفونسو في كونسويكرا بسرعة فائقة الى حد أنه وجد نفسه محاصرا قبل أن يعلم بوصوله. ولدى هاته الانباء هب دون ألفارو مع كل ما أمكنه جمعه من الرجال ورفع الحصار. إلا أن يوسف رأى بعد انسحاب النصارى أن عرب

---

(31) سنة 1097 .

(32) سنة 1098 .

الاندلس ندموا على استدعائه، فاستولى على ممالك مرسية وغرناطة وقرطبة وجيان وعلى قسم من مملكة بلنسية وعاد مع ولده الى إفريقيا، بعد أن ترك ابن أخيه محمد واليا في غيابه مع جزء من الجيش. وفي السنة التالية، دخل الملك دون الفونسو يتبعه ملك اشبيلية العربي والسيد ومعهم عدد من نبلاء النصارى من بادومورادال ونهب أقاليم أندة وباجة وجيان وكل سهل غرناطة. ومن ثم أراد أن يسير الى قرطبة فرغب إليه السكان في أن يعين ملك اشبيلية أميرا عليهم، وكان له ذلك من قبل، وهكذا ملكه قرطبة وغيرها من مدن الاقليم، ورجع منتصرا الى طليطلة.

وفي نفس الوقت جاء جيش بحري من الجنوبيين مشتمل على أربعين سفينة، وهجم على مدينة طرطوشة من جهة البحر، بينما كان ملك أراغون وكونت برشلونة يحاصرانها من البر. ولكنهم تراجعوا كلهم دون أن يقوموا بشيء. ومن جهة أخرى، كان ملك سرقسطة يتخوف من جيش السيد، فجعل نفسه في تبعية دون ألفونسو واقتدى صاحب ركينة بمثاله وكذلك جميع عرب المنطقة.

ما ان عاد يوسف الى إفريقيا، حتى نادى بالجهاد الذي هو بمثابة حرب مقدسة عند المسلمين. ولما جمع عددا كبيرا من الجنود ركب البحر من سبتة ونزل في مالقة، ومن هنالك انتقل الى مدينة غرناطة ثم الى الاندلس حيث التقى بمحمد وذهبوا جميعا لمحاصرة طليطلة بعد أن نهبوا وخربوا. ولما علم دون ألفونسو بالنبأ، وكان آنذاك في نشارة، بادر مسرعا لرفع الحصار. ولكن يوسف لم يجرؤ على انتظاره واستولى على كونسويكرا وحصنها، ومن ثم تراجع الى قرطبة ووجه محمدا مع قسم من الجيش لمحاصرة بلنسية التي استولى عليها وقتل ملكها. (33) ورأى ألفونسو، في تلك الاثناء، أن العدو انسحب الى طليطلة، فقام بنهب كل منطقة أبذة وباجة وجيان ليجتذب يوسف الى القتال، ولكنه انسحب الى بلاد البربر ، بعد أن جعل جيوشه في حالة استراحة شتوية في مواقع الحدود وحاصر دون ألفونسو كونسويكرا، لكنه لم يستطع الاستيلاء عليها وانسحب الى طليطلة. وفي نفس الوقت طرد المقابل، (34) ملك سرقسطة، التابع لالفونسو، السيد من بلده، فسار الى يوبلة واستولى على المنطقة وأخذ كوككلية ثم استصحب عددا من الرجال

(33) يحيى بن علي ميمون ــ لا شك أنه يريد يحيى القادر بن يحيى المامون ، ولكنه كان قبل ذلك التاريخ بعشرين سنة (مترجم) .
(34) اسم محرف إما عن المقتدر بن هود ، والملك الذي كان في التاريخ المشار اليه هو حفيده أحمد المستعين (مترجم) .

المنضمين اليه، فذهب لنجدة يوسف ابن يحيى ملك بلنسية ضدا على المرابطين، الذين كانوا قتلوا والد هذا الملك واستولوا على مدينته. وظهرت منه أفانين من الشجاعة في تلك الحرب حتى طردهم من بلنسية. وبعد أن استخلص من هاته المدينة الجزية مقابل حمايتها، ترك فيها يوسف ملكا عليها وعاد الى يوبلا. ولكن ما أن تم انسحابه ورأى أهل بلنسية أنفسهم أحرارا حتى طردوا يوسف وولوا عليهم أبا القاسم ملكا. فلم علم السيد بثورتهم، رجع اليهم في الحين وحاصر المدينة طوال تسعه أشهر(34) ، مما جعل العرب ينسحبون منها في نهايتها صبيحة عيد القديس يوحنا، فدخل إليها بجنوده ووجه هدايا الى الملك ألفونسو حتى يأذن لرعاياه بالسكنى فيها. فحصلت الموافقة على هاته الرغبة. وفي السنة الموالية، (35) اجتاز جيش قوي للمرابطين من إفريقيا الى اسبانيا وذهب ليحاصر بلنسية مع رؤساء آخرين من البلاد. وكان الهجوم شرسا الى درجة أن السيد وجد نفسه مضطرا للاستنجاد بملك أراغون دون بيدرو فهب هذا الاخير للمكان، وخرج السيد خرجة ضارية الى معسكر العرب فاجبرهم على الفرار. مما اعتبر من قبيل المعجزات لانه كان يحارب بنسبة واحد على مائة. وفي نفس السنة دخل الملك ألفونسو وصهره ملك اشبيلية الى استرامادورة فانتزعا أراضي كثيرة لملك بطليوس سلمها ألفونسو للملك العربي. (36) وفي السنة التالية أراد أن يقطع الطريق على نجدات إفريقيا فتهادن مع يوسف ملتزما بأن يمنحه مدن جبل طارق والجزيرة وطريفة. ولكن ما أن تملكها حتى فسخ الهدنة وانتقل الى اسبانيا بقوات كبيرة وهاجم مملكة أشبيلية. وذهب الملك في الحين لمجابهته مع ملك بطليوس وبعض جنود دون ألفونسو وأجروا معه المعركة قرب شريس على الحدود. فقتل ابن عباد وأسر أولاده مع ملك بطليوس. (37) واستولى يوسف بعد انتصاره على مدن شريس وإستجة واشبيلية وقرطبة وما يتبعها. فأصبح سيدا على الاندلس وعلى مملكة غرناطة الى مرسية ، وبعد ذلك بث جنوده على الحدود وعين ولاته على القلاع وعاد ليقضي الشتاء في بلاد البربر . ولما علم الملك ألفونسو بمجيئه، جمع جنوده لنجدة صهره لكن لما بلغه نبأ مقتله وعودة يوسف الى إفريقيا، دخل الى أرض

(34) سنة 1100 .

(35) سنة 1101 .

(36) سنة 1102 .

(37) مرة أخرى نشاهد في مثل هاته الرواية مبلغ جهل المؤلف بالاحداث التاريخية (مترجم) .

العدو واستولى على مدينة سالم ليتخذ منها حصنا واقيا من جهته، ثم عاث في تلك الاراضي وعاد للاستراحة الشتوية في طليطلة. وكان السيد قد مات آنذاك، فدخل المرابطون إلى مملكة بلنسية ، واستولوا على كل المدن ما عدا العاصمة التي لم يكن في طوق ألفونسو نجدتها مما جعل شيمين أرملة السيد تتخلى عنها وهي فارغة من السكان، وتلتجئ هي وأولادها الى قشتالة ولكن ملك سرقسطة (38) استولى عليها وعمرها بالعرب. وفي سنة ألف ومائة وأربع جاء الملك ألفونسو من جهته ، وملك أرغون دون بيدرو من جهته، فعاثا في بلاد هذا الأمير، ثم استولى ألفونسو على لصون وسيكانسا وعاد منتصرا الى قتشالة. وفي نفس السنة مات دون بيدرو صاحب أرغون وترك خلفا له أخاه ألفونسو، بحيث كان هنالك ملكان نصرانيان يحملان هذا الاسم بإسبانيا. وللتمييز بينهما، كان يدعى صاحب قشتالة امبراطورا، وحارب سرقسطة طوال ثلاث سنوات إلى أن أطبق عليها بالحصار بعد أن استولى على تطيلة وطركونة والقلعة وأيود مع كل الأماكن المجاورة. وفي نفس السنة (39) عبر يوسف الى اسبانيا. ولما كان ملك قشتالة عالما بأنه لابد من أن يجتاز من مضيق مرادل ليصل الى طليطلة، وجه ختنه (40) دون هنرى دوق البرتغال ليحول دون اجتيازه مع قسم من الجيش. ولكنه غلب في سهل قلعة رباح. مما جعل يوسف بهذا الانتصار سيدا على كل البلاد الى قونكة التي استولى عنوة على قصرها، وذهب من بعد لحصار طليطلة، ولدى هاته الأنباء تخلى الفونسو عن حاضرة سرقسطة وجاء لنجدتها فطارد يوسف، الذي كان قد غادر طليطلة واتجه نحو استراعادورة. والتقى الجيشان بين قورية وبطليوس وهزم النصارى لكن ليس بصورة تامة، وان كان ألفونسو جرح ومعسكره أخذ، وانسحب ألفونسو الى قورية بقصد العلاج، فذهب يوسف لحصار بطليوس وحاربها بشدة حتى ألجأها إلى الاستسلام وأصبح سيدا على تلك الدولة بكاملها. وعاد الفونسو على اثر ذلك الى طليطلة، وحاصر يوسف قورية التي استسلمت له صلحا، وكذلك استولى على الاشبونة. ولما كان الشتاء قريبا، فانه رجع الى قرطبة ومن هناك الى بلاد البربر . وحينئذ جمع الفونسو جيوشه وجيوش الأمراء النصارى الآخرين وذهب الى

(38) المقابل ــ كذا في الهامش .
(39) سنة 1107 .
(40) في النص أخوه ، ولكن وقع تصحيحه .

كونسويكرا حيث كان الملك عبد الله يحكم. ولم يجرؤ هذا على انتظاره وانسحب الى قرطبة، حيث تبعه الملك دون ألفونسو وحاصر المدنية، ودخل معه عبد الله في القتال، فغلب وأسر مع الرؤساء الآخرين الذين قام الفونسو بشنقهم. ثم دخل الى المدينة التي انقادت له صلحا، فأخذ عهد الولاء على السكان (41) وفي سنة ألف ومائة وثمان عاد يوسف الى اسبانيا واستولى على قرطبة، ثم رجع الى افريقيا، ولكن ما أن انصرف حتى عاد الفونسو الى الاندلس بجيش قوي وأجبر مدينتي قرطبة واشبيلية أن يكون ملكا عليهما ولدان لابن عباد، (42) ومدينتي غرناطة وجيان على أن تكونا تابعتين له. وفي نفس الوقت ذهب ملك اشبيلية الذي كان صهرا لالفونسو لتطويق مدينتي الجزيرة الخضراء وجبل طارق، وكانتا في حيازة يوسف، فاستولى عليهما. ومن جهة أخرى، حشد الفونسو جيشا بحريا وسار نحو بلاد البربر والتقى بيوسف في عرض البحر مع جيشه، فأغرق له عشر سفن، ولما وصل الى الشاطىء، وجه إليه يوسف يطلب منه المهادنة، فأجابه بأنه قابل، اذن، لأداء الجزية. فاستشاط يوسف غضبا ووجه له رسالة يتحداه وأقسم بأنه سيخرب كل بلاد النصارى. وعاد الفونسو الى اسبانيا دون أن يقوم بشيء يذكر. وجمع يوسف جيشه ودخل الى اسبانيا في سنة ألف ومائة وتسع . ولدى هاته الانباء، جمع الفونسو بقلعة رباح كل الرؤساء العرب الموالين له، وأصدر أوامره بكل ما كان يقتضيه المقام وذهب لقضاء الشتاء في طليطلة. وفي تلك الاثناء، نزل يوسف بمالقه وذهب ليحاصر قرطبة، وباتصالات سرية موفقة مع العرب الحاكمين في مدن الاندلس، استطاع أن يصل الى قلعة رباح ويذهب لحصار طليطلة قبل أن يجمع الفونسو جيشه. وحينئذ اجتمع الامراء النصارى (43) تحت قيادة دون سانشو، ولده الاوحد لنجدتها. ولما علم يوسف بذلك بدأ يتراجع، ولكنهم تابعوه بإلحاح حتى اظطر لاجراء القتال معهم، فغلبوا وقتل الامير دون سانشو (44) ومعه مربيه الكونت دوم غرسية دوگرينيون، وستة كونتات آخرين، (45) بالاضافة الى عدد آخر من ذوي الحيثيات. وسميت هاته الواقعة معركة الكونتات السبعة، ويذكر طارق المؤرخ

---

(41) الذين أصبحوا تابعين له .

(42) ابن عباد وقاسم .

(43) أمراء إسبانيا .

(44) قرب أوديسي في 39 مايو .

(45) الكونت كارسي فرنانديز ، الكونت مارتان ، الكونت كومير ، الكونت دون سانشو ، حفيد السيد الخ ....

العربي المشهور أنها جرت في جبل الزلاقة وأنه مات فيها خمسة وثلاثون ألفا من النصارى، مما أحزن الفونسو حزنا كبيرا حتى مات كمدا قبل نهاية السنة، (46) وبعد وفاته، تولى العرش دون الفونسو، ملك أراغون، الذي كان تزوج ابنته. ويسمى المؤرخون العرب الذين تحدثوا عن هذا الموضوع النصارى الالفونسيين، تذكيرا بأولئك الأمراء الشجعان. وبعد أن ورثت دونافراكا العرش إثر وفاة أبيها، سواء أكان تزوجها الفونسو من قبل أو في ذلك الظرف بالذات، فقد وقعت اضطرابات كبيرة باسبانيا، ومات يوسف إثر المرض في تلك الاثناء بمراكش التي عاد اليها بعد المعركة، وتولى مكانه ولده علي (47).

الاستيلاء على الارض المقدسة :

واذا عدنا إلى آسيا، ذكرنا كيف أن السلطان أكسان (48) بسبب الصلح الذي أبرمه مع قوت لوم (49)، تخلى له عن كباد وسيا وغيرها من الاقاليم الراجعة الى القسطنطينية مع لقب سلطان، وكيف احتفظ لنفسه بمملكة الفرس وبابل مع لقب ملك وجعل دوكات (50) في دمشق لمحاربة خليفة مصر الذي كان يعتبره ضالا، وأعطى لسنكين (51) مدينة حلب، ولسليمان نيقية، ولاشيان، (52) أنطاكية، وكلهم أولاد أخيه. وكان لسلطان كباد وسيا عدة حروب مع النصارى، فاستولى حاكم حلب على مملكة دمشق، وترك ولده نور الدين خلفا له، فكانت له عدة صراعات مع ملوك القدس. وكانت المدينة المقدسة آنذاك في ملكية الأتراك (53)، وكان النصارى القاطنون بها وبغيرها من الأماكن الخاضعة للأتراك يعاملون معاملة أسوأ مما كان عليه الحال مع العرب، فجاء متنسك مسيحي فرنسي مر من هنالك الى البابا أوربان الثاني وتشكى له من ذلك فجمع البابا مجمعا كنسيا في كليرمون بأوفيرن، وحض المسيحيين على المشاركة في عمل مقدس وأعلن الحرب الصليبية

---

(46) 11 شهرا ، اخرها يونيو .
(47) سنه 1110 .
(48) لعله يقصد أرسلان السلجوقي (مترجم) .
(49) لعله يقصد قتلمش جد سلاجقة الأناضول (مترجم) .
(50) المقصود ، ولا شك ، دقاق بن تتش الذي ينتمي لسلاجقة الشام (مترجم) .
(51) يقصد عماد الدين زنكي (مترجم) .
(52) لم نهتد لحقيقة هذا الاسم . فهل يقصد أرسلان ؟ (مترجم)
(53) ظلوا بها 87 سنة .

على مملكة سوريا (54)، وبدأ النصارى يتحركون من كل الجهات تجاه آسيا، تحت قيادة كودفروادو بويون، وأوستاش، وبودوان، وإخوته ربمد ريموند، وروربت، وكونتي فلاندر، وهوج الملقب بالكبير، أخي فليبب ملك فرنسا، واتيان دوفالوا، كونت شارتر، وجوتيي دوسان سيفران، أسقف بُو (55) وبطرس المتنسك المتسبب في هاته الحملة، ويقال إنهم كانوا خمسمائة ألف رجل دخلوا أراضي المسلمين، فكانت لهم عدة معارك مع أتراك آسيا وعرب مصر. وسار قسم منهم إلى تيقيا، مدينة بيتنيا، وآخر إلى أنطاكية على نهر العاصي، (56) حيث كان القديس بطرس جعل مقره قبل أن يقدم الى روما، وكان القديس لوقا كتب انجيله، وكانت على أربعة فراسخ من البحر وتحت سيطرة الاتراك منذ أربع عشرة سنة. وذهب قسم ثالث إلى القدس حيث اسسوا مملكة نصرانية بعد إراقة دماء كثيرة، وذهب الباقي إلى أماكن أخرى. وكان اليكسيس هو امبراطور القسطنطينية، وكان في حالة مهادنة مع بلكيوراك (57) الذي كان على رأس مملكة الفرس بعد وفاة أكسان، وسليمان صاحب كباد وسيا ومايتبعها من أقاليم (58) فكان سلطان الغرب، كما كان الآخر سلطان الشرق. وما أن وصل الجيش المسيحي إلى آسيا حتى هزم الاتراك الكونت ريموند الذي تهور في الدخول الى أراضي نيقية، وأجبروه على الفرار الى مكان خال، (59) حيث طوقوه من كل جهة فاظطر الى الاستسلام مع ما بقي له من جنود، وكان عددهم قليلا، فقد هلك الباقي في معارك مختلفة، وجزء منه مات من الجوع أو أخذ وذبح بدون رحمة. وذهب قسم من الجيش، أولا، إلى نيكومديا (60) ومن هنالك جاز إلى نيقية وبدأ في حربها فجاء سليمان بغتة ليهاجمه من جهة منطقة اسقف بيي، ولكن ذلك لم يفده شيئا ، لأن الفرنسيين قاوموه بشجاعة وأكرهوه على الانسجاب بحيث إن المدينة لم تتلق أي نجدة وأخذت. وبعد ذلك جرى القتال الظافر على بعد أربعة أيام من هنالك مع سليمان الذي كان جر كل قوات

---

(54) سنة 1096 أو 1090 حسب بعض الروايات .

(55) أوبيي .

(56) سابقا ريلاطا .

(57) بركيارق بن ملكشاة الملك السلجوقي (مترجم) .

(58) أوتنيسمان .

(59) ايفورك .

(60) مدينة في بيثينيا .

الشرق لنجدته. فأخذت ايقونية (61) قرب جبل طوروس، وكانت هي العاصمة، وعاصمة أمراء فريجيا وهرقل (62) . ومن هنالك توزع الجيش إلى ثلاثة أقسام، فدخل بودوان الى كليكية واستولى عل طرسوس والرها ومانوس. وجعل قسم آخر من الجيش الأرمني بالمير سيدا على ارمينية ، ثم استولوا على عبدوسية وقيصرية وسرووجية وسورة في مضيق جبل طوروس. وما أن قطع الاتراك هذا الجبل حتى وجدوا أنفسهم في الجهة الاخرى من السهل وهزموا. وبعد ذلك وقع السير قدما إلى أنطاكيه (63) التي استسلمت صلحا، ولكن بعد هزيمة الأتراك الذين هبوا لانقاذها وفقدوا أربعين ألف رجل وخمسة عشر ألف نجيب. ومن جهة أخرى جاء البندقيون باسطول من مائتي سفينة واستولوا على إزمير في شاطىء إيونيا (64). وبعد أن استولى اللاتينيون على أنطاكية أخذوا روجيا والباية حيث قضوا الشتاء، وما أن أقبل الربيع حتى عادوا إلى التحرك فهاجموا طرطوز ثم طرابلس الشام (65)، ودافعت إحداهما بشجاعة عن نفسها، بينما قبلت الأخرى دفع الجزية. وبعد ذلك اجتازوا انهار زبول وزباروبراي، فوصلوا الى بيروت عن طرق صعبة وخطيرة والى ساجت من بيروت. ومن هناك وصلوا في ظرف عشرة أيام الى قيصرية، ومن هناك الى رامة ثم الى القدس التي حاصروها، ثم أخذوها عنوة(66) ، بعد مقاومة شديدة، وكان كود فروا دوبويون أول من دخل إليها فنودى به ملكا عليها. وأثار هذا الفتح الرعب في قلوب المسلمين حتى إن الاتراك والمصريين تحالفوا جميعا على استرجاعها. ولكن كود فوروا هزمهم قرب عسقلان وقتل منهم أزيد من خمسين ألف رجل (67) . وكانت بحرية البندقية في تلك الأثناء تهاجم شواطى ليسيا وبامغيليا وكيليكيا وسوريا، وبعد أن نزل جندها في يوب أويافا التي كان النصارى قد أخذوها لتسهيل الحصول على النجدة والمؤن استولوا على عسقلان وبوفيريا وطبرية، وكلها مدن بحرية، وعلى إثر ذلك توفي كود فروا، مما تسبب في انسحاب عدد من أمراء النصارى لاستيائهم من انتخاب أخيه بودوان(68) الذي استولى من بعد على

(66) سنة 1099 أو 1100 . ويؤرخ مخطوط اسباني لذلك بسنة 1091 .
(67) عرب مصر .
(68) سنة 1101 .
(61) أسمها اليوم قونية .
(62) كورمانيا ، اليوم .
(63) مدينة فينيقية على نهر العاصي .
(64) مات بها أربعون ألف جمل .
(65) مدينة بحرية .

بطليمويد، بمساعدة البندقيين والجنويين وبويموند الذي كان يسمى نفسه ملك أنطاكيه. فاستولى أيضا على صيدا وبيروت بفينيقيا. وبعد ذلك مات بويموند، فتولى مكانه أخوه طانكريد. وانضم الاتراك إلى خليفة مصر وزحفوا نحو القدس، إلا أن بودوان ناشبهم المعركة بمعاونة طانكريد، فهزم وتكبد خسارة كبيرة، واستولى الأتراك على جبل سيناء. ومات بعد ذلك بقليل، فانتخب مكانه بود وان آخر ملكا. وخشي هذا الأخير من قوة المسلمين فطلب النجدة من الأمراء النصارى. ولم تكن مساعدة امبراطور القسطنطينية في المستوى. إلا أن كيوم دوق أكيتانيا (69) وهوكَ أخا الملك فليب، وإتيان كونت شارتر، وإتيان غيره كونت بوركون وتولوزة تسارعوا إليه بمشقة، وعند صولهم وجدوا أن المعركة جرت مع الأتراك، وأن بودوان غُلب وأخذ أسيرا ثم افتدي بالمال. وفي تلك الاثناء ناشب البندقيون المعركة في البحر مع خليفة مصر، فأخذوا منه سبعمائة سفينة من مرسى يافا، ثم حاصروا صور. ويقال إنه أثناء ذلك الحصار قبض الجند على حمامة كانت تطير فوق رؤوسهم وفي عنقها بطاقة مربوطة (70) وهي عبارة عن كتاب من ملك دمشق يَعِدُ أهل صور بالنجدة ويحثهم على الصمود، فوضع الجندي مكانها أخرى تقول العكس. فكان ذلك سببا في استسلام المدينة. وعلى إثر ذلك خرج بويموند ملك بوي من إيطالياوركب البحر مع جيشه ووصل إلى القسطنطينية فاستحلفه الامبراطور بأنه لا يحمل السلاح عليه، إلا أنه رجع عن قسمه بعد ذلك، وخشي أن يقبض عليه، فأمر بأن يوخذ في صندوق من الخشب على شكل تابوت، كانه ميت ، وهكذا فر إلى بلده. ومنذ ذلك الحين عاد بجيشه وحاصر مدينة دورازوا، ولما لم يستطع الاستيلاء عليها، تصالح معها وفي آخر عهد الامبراطور «ألكسيس» جمع الأتراك، وقد انتصروا على بودوان، جيشا قويا ليدخلو إلى أقاليم الامبراطورية. فوجه لهم الامبراطور «أوستاش كانيز» فلحقت به الهزيمة وأسر فاظطر الامبراطور الى أن يسير إليهم بنفسه ، لكن الأعداء كانوا قد انسحبوا . وبعد ذلك بقليل خرج في جيشه بقصد مطاردتهم فاستولى على فيلوملِيا التي كانوا تخلوا عنها عندما علموا بمجيئه ، وأخذ أماكن أخرى، ثم عاد الى القسطنطينية، حيث جاء اليه سلطان الغرب، (71) وعقد الهدنة معه.

(69) أوكوين .

(70) يقال انهم أسقطوها بسهامهم .

(71) سلطان كباضوسيا أو ايقونية .

وكان يوجد آنذاك فيما بين العرب والأتراك جنس أوأمة أو مذهب للحشاشين، وهكذا كان اسمهم، لأنهم كانوا يرتكبون كثيرا من القتل وضروبا من السلب والنهب، وكان مؤسس نحلتهم عربيا يدعى علاء الدين أو مصلح الشريعة (72)، وكان يقطن بطرف الفرس من جهة الهند في سفح جبل القوقاز، ويذكر أريان شعوبا (73) بهذا الاسم في تاريخ الاسكندر، ويجعل موقعهم بين نهر الأندوس والكوف. وفي هذا البلد، على ما يقال، نقلت قبائل إسرائيل العشر، وفيه شيد علاء الدين المذكور قصرا فخما في واد جميل محصنا بالطبيعة والفن، ووفر فيه بكثرة كل أنواع الملذات الحسية حتى يوهم شعوب تلك الأصقاع أنه قادر على أن يرفعهم الى السعادة الابدية (74). وكان يأخذ من هنالك كل الأفراد الذين يرغب في تسخيرهم في مشاريعه الكبرى. وكان هؤلاء أجمل الشبان. وبعد أن ينفق عليهم زمانا في الملذات، يخدرهم بمشروب يتناولونه، ثم يحملهم وهم في حال غيبوبة الى الخارج ويعلمهم أنهم كانوا قبل ذلك في جنة محمد، وأنهم سيعودون إليها حينما يموتون في طاعة أوامره، فكان ذلك سببا في جعلهم يستهينون بكل مخاطر الحياة، فيذهبون لقتل كل من أمرهم بقتله دون خوف. وبلغت هاته الفرقة من القوة حتى تكاثر أعضاؤها بسوريا فصار عددهم ستين ألفا وكأنهم فرقة تنتمي للفروسية. وكان رئيسهم الأكبر هنالك يدعى سكسمونسيوس (75) ويقطن بدمسق في دير فخم. وكان هنالك كثير غيرهم في أماكن مختلفة وجنتهم تدعى تيكاد (76). وقد هاجم هؤلاء العفاريت النصارى في كل آسيا، و تسببوا في سرقتهم وغدرهم، لأن كل نشاطهم كان موجها ضدا على النصارى، إلا أن التتار قضوا عليهم، وهدمت الاماكن التي كانوا يأوون اليها، وكذلك القلعة التي كانوا يقيمون بها مستمعين بالملاذ. ذلك هو تاريخ الذين دعوا غلطا باسم الارزاسيين، والذين يسميهم العرب بالغزاة ولم يبق لهم أي أثر. ولنرجع الآن إلى تاريخنا.

---

(72) هذا هو الاسم الذي كان يطلق على شيخ هاته الطائفة حسب ماركوبولو، وهو يقصد به داعي الدعاة في الموت، وإلا فإن مؤسس الطريقة هو الحسن الصباح الحميدي (مترجم).

(73) الساسانيون قرب أريان، واسمها اليوم ملهر — كذا في الهامش.

(74) اجملت هنا في كلمة ما ذكره المؤلف باطناب من الغرائب.

(75) لا شك أن الكلمة ترجمة للفظة شيخ الجبل التي أطلقها الصليبيون على رئيس الدعوة النزارية بسوريا (مترجم).

(76) اسم لم نهتد إلى حقيقته (مترجم).

الفصل الثاني والثلاثون

علي بن يوسف، ثالث ملوك المغرب المرابطين وما جرى عهـــــده

بمجرد أن تولى علي بن يوسف الملك (1) أمر ببناء المسجد الأعظم بمراكش وغيره من البناءات البديعة. وفي تلك الأثناء كان ألفونسو ملك أراغون يحاصر بلنسية التي استسلمت اليه ونال عدة انتصارات على عرب اسبانيا. وبعد أن استولى على عدد من المدن (2)، هزم ملك سرقسطة وأجبر المسلمين في كل تلك الأقاليم على الاعتراف به ملكا عليهم. ولكن الانقسام دب في الحين بين الأمراء النصارى، ووجد فيها العرب فرصة سانحة للاستنجاد بعلي الذي جاء بنفسه على رأس جيش قوي (3) ودخل الى مملكة طليطلة مصحوبا بعرب إسبانيا، وحاصر مونصانت، واستولى على اوريشة عنوة. لكن الفونسو هب لنجدة مونصانت، مما جعله ينسحب إلى قرطبة ومن هنالك الى بلاد البربر ، دون القيام بشيء يذكر. واجتاز في السنة التالية إلى اسبانيا، فوجد الحرب على أشدها بين الأمراء النصارى، فحاصر مدينة طليطلة، وهاجم أرباضها، وعاث في كل البلاد المحيطة بها ورجع من هنالك بالأسرى (4).

وعلى إثر ذلك، استولى أصحاب بيزة وجنوة، وكانوا أقوياء في البحر، بمساعدة القطلانيين على جزيرتي ميورقة ومينورقة، وبعد أن قتلوا ملك الأولى، أخذوا زوجته وولده الذي اعتنق المسيحية وأصبح منذ ذلك شماسا في بيزة، ثم أعيد بعد ذلك على رأس مملكة أبيه. وبينما كان كونت برشلونة منشغلا بهاته الحرب، ثار

(1) سنة 1110 .

(2) طرسونة ، قلعة أيوب ، تطيلة .

(3) سنة 1113 .

(4) بسيناس ، كفافياس ، ماجان ، أماكن سكرا .

رعاياه من العرب وانضموا إلى علي. ولما علم بذلك، رجع الى برشلونة فجمع جنده وشهر عليهم الحرب ، ولم يظهر بوضوح من تحقق له النصر فيها. وكان علي في تلك الأثناء محاصرالطليطلة، ولما رأى بعد تكرار الهجمات عليها أنه لا يستطيع التغلب عليها، رفع الحصار وعاد لقضاء الشتاء بقرطبة. وبينما كان يتهيأ ليعود إليها في الربيع، حصل الفونسو من البابا (5) على حملة صليبية، فدخل بجيش قوي الى بلاد العرب واستولى عنوة على مدينة موريلا، فجاء إليه بعد ذلك علي بكل قوات الأندلس، وناشبه المعركة، فغلب وقتل مع أكثر من ثلاثين الفا من العرب. ومن استطاع منهم الافلات عادوا الى بلاد البربر، حيث بايعوا ولده إبراهيم ملكا عليهم، وكان الملك ماقبل الأخير من المرابطين (6) .

آســـيـــا

وفي تلك الآونة، كان الملك على القسطنطينية هو يوحنا ابن ألكسيس، الذي حقق انتصارات عديدة على أتراك الفرس، واستولى على مدينة اللاذقية بفريجية وحصنها. ومن هنالك انتقل الى سوزبولي (7) التي كانت محصنة محروسة جدا، فوجه اليها من يناوش حاميتها واستدرجها الى كمين، فباشر فيها مقتلة كبيرة ودخل المدينة، واستولى بعد ذلك على القصر الذي كان يسمى رأس العقاب، واستسلمت معه عدة مدن مجاورة، وبعد ذلك، توغل في بيثينيا ويفلاكونية، واستولى في الحين على مدينة قسطمون حيث كان يحكم شريف فارسي فذهب لطلب النجدة من سلطان كبادوسيا، واسترجعها حينما انسحب الامبراطور الى القسطنطينية. ولكنه عاد اليها عند بزوغ ربيع السنة التالية، فعلم بأن الشريف مات (8) وأن الذي أصبح ملكا محله كان عدوا لمسعود الحاكم في ايقونية، فاتفق مع هذا الأخير وضم اليه قواته للقيام بمحاربته، ولكن سلطان كباد وسيا شعر بضعفه فتصالح مع مسعود، شريطة أن ينفصل عن الامبراطور، ففعل ذلك . فما كان من الامبراطور إلا ان هاجم السلطان، بقواته وحدها، بعد أن سحب رجاله، فاستولى على مدينة قسطمون، ومن هنالك اجتاز الى زنجر من أجمل مدن البونت ودخل

(5) باسكال الثاني .
(6) هذا بالطبع خطأ فادح من مارمول ، إذ طل عليٌ في الملك إلى سنة 1143 . والذي خلفه هو تاشفين لا إبراهيم (مترجم) .
(7) من مدن بمفيلية .
(8) محمد خلف سليمان أو تنيسمان ـــ كذا بالهامش .

أولا إلى أرباضها، ثم استولى عليها صلحا بعد هجمات متكررة، وترك فيها ألفين من الجنود كحامية لها وعاد الى القسطنطينية، ولكنها لم تبق طويلا في يده. فما أن غادرها حتى جاء الاتراك وحاصروها وأخذوها بالتجويع، بينما كان هو مشتغلا في جهة أخرى. وانتقل الإمبراطور بعد ذلك إلى كيليكية، وانتزع من يد الأعداء أدنة وطرسوس وأنابرس وقلعة باكا. ثم انضم الى رجال ريموند الذي كان بأنطاكية (9) فواصل طريقه في سوريا الفنيقية التي كانت بيد العرب . ولما وصل إل الفرات هاجم مدينة بيز (10) التي دافعت عن نفسها جيدا، ولكنه ضيق عليها كثيرا حتى أرغمها على الاستسلام صلحا، شريطة أن يذهب عنها السكان إلى حيث شاؤوا. ومن هنالك قطع الفرات، فخرب الأماكن التي كانت موجودة بالضفة الأخرى من النهر. وقام بتخريبات في كل الجهات، ثم ترك مدينة بيز لكونت الرها، واجتاز من بنيزو ذاهبا لمهاجمة حلب ولكن قبل أن يصل اليها، اجرى الأعداء معه الحرب فغلبوا وطوردوا الى المدينة . وفي الحين جاء الامبراطور ليحاصرها ونظرا لمناعة المكان ولصعوبة التفكير في أخذها بالقوة، لأنها كانت مدججة بعدد كبير من الجنود، ولكونه لم يكن مزودا بما يكفي من الماء والخشب والأقوات، فقد رفع الحصار واجتاز الى فاراب، فاستولى عليها كلية وسلمها إلى ريموند ومن ثم تقدم إلى كفرد (11) من أهم حصون الاقليم، فاستولى عليه، وزحف الى إيستريا القريبة من زيزرى الملاى بكل الخيرات، فتركها نهبا للسيت الذين استولوا عليها. ثم اجتاز بعذ ذلك إلى زيزرى فوجد كل الأتراك والعرب في تلك النواحي، اجتمعوا لنجدتها، وأن السكان أدخلوا جملة كبيرة من الخيل إلى المدينة. وعليها قطعوا النهر ليحولوا دون اجتياز النصارى ولكن، بما أنهم غلبوا، فانهم انسحبوا دون أن يحاولوا البروز إلا من وراء سور حصين ما كان ليفيدهم من حماية ما حوله من الاحراق، وأراد الامبراطور أن يمنع عليهم الخروج. فقسم جيشه الى أربع فرق (12) ليتم التعاون فيما بينها، الشيء الذي أدخل الرعب في قلوب الأعداء وجعلهم يتجنبون الخروج من المدينة ويقبعون في وسطها. وعلم الامبراطور على إثر ذلك بأن اتراك الفرس كانو

(9) أنطاكية على نهر العصي .

(13) ولدا اتاكبة وسوموك الذي كان يحكم حلب (كذا) بالهامش ، ولعله يقصد ولد أحد الاتابكة الذين كانوا حاكمين بالمدينة ، وأما الاسم الثاني فمن الصعب التعرف عليه : هل يقصد أحد بني سلدق الذين كانوا بأرض روم ، أو عز الدين سلوق بن علي الذي ينتمي لنفس الاسرة ؟ ومهما يكن ، فالخلط بين في مثل هذا الكلام (مترجم) .

(14) مسعـود .

يحاصرون مدينة الرها وأنها على وشك السقوط إذا لم تقع نجدتها. فأزعجه هذا النبأ المصحوب بالهدايا الموجهة اليه من لدن المحاصرين، ومن بينها صليب ثمين كان يملكه الامبراطور ديوجين، إلى رفع الحصار والتوجه في طريق انطاكية. وهاجم الأتراك مؤخرته إلا انهم هزموا وتركو رئيسين لهم في الأسر (13) ولما وصل الامبراطور الى انطاكية، سلك الطريق نحو القسطنطينية بعدما وجه فريقا من جنده لمحاربة سلطان ايقونية (14) الذي كان قام بعمليات نهب كبيرة في سوريا أثناء غيابه ، وبفضل انهزامه رفع الحصار عن الرها، بحيث ظل النصارى هم سادة الموقف، بفضل السلوك الحسن لهذا الامبراطور، الذي سنتحدث عن فتوحه فيما بعد.

(10) لست أدري هل هي مدينة بيسان الواقعة بين بيت المقدس وياف . ولكن المدينة التي يتحدث عنها توجد على نهر الفرات ولعله يقصد بيش الواقعة ببلاد الروم (مترجم) .

(11) لعلها كفرتوتا التي هي من كور نصيبين بديار ربيعة . (مترجم) .

(12) واحدة من المقدونيين ، والثانية من السيت ، والثالثة من اليونان واللاتينيين ، والرابعة من الفرس .

الفصل الثالث والثلاثون

ابراهيم بن علي، آخر ملوك مراكش، من دولة المرابطين وما جرى في عهده

إفريقيا : تولى ابراهيم مملكة أبيه وجده وأكّد الولاية لمن كانوا يحكمون باسمه أقاليم افريقية الشرقية ونوميديا، وبويع كملك بلقب آمير المومنين (15). وكان عرب تونس في تلك الآونة متضايقين من جيش للنصارى قدم من ايطاليا إلى مدينة مهدية التي كانت في حوزة الايطاليين، وإن كان مؤرخونا يسكتون عن ذلك ولكن عبد الملك يقول في أخبار المغرب بأن الروم ـــ هكذا يسمى الكتاب العرب نصارى إيطاليا، كما يسمون نصارى قشتالة فونسيس (16) ونصارى البرتغال شموريس، ونصارى اليونان النصارى أو القيصريين (17) والفرنسيين الفرنج – لما نزلوا بمهدية قاموا باتلافات كثيرة على طول الساحل، ومن هنالك ذهبوا إلى القيروان تحت قيادة فقيه وعدهم بأن يسلم المدينة اليهم، على شرط أن يتركوا له الولاية عليها. ولم يسيروا أكثر من يومين حتى وجدوا العرب على أهبة الحرب، وانضم الفقيه اليهم. وانقضوا بجمعهم على النصارى فقتلوا منهم سبعة آلاف ثم حاصروا بعد ذلك مهدية حيث التجأ الهاربون . ولكن بما أنهم لم يستطيعوا الاستيلاء عليها ، رفعوا الحصار عنها . وازداد الفقيه (18) سطوة بهذا الانتصار . فشهر الحرب على المرابطين ولكنه هزم واضطر للهرب الى نوميديا ، وقبض عليه الشيخ في بسكرة ، وكان من أسرة ابراهيم فسمل عينه ووضعه في مطبق حيث مات . وهذا أهم ما حدث بافريقيا .

---

(15) انه يخلط بين هذا اللقب ولقب أمير المسلمين ، وكلاهما يفيدان شيئا واحدا (مترجم) .

(16) لعدد من تسمى ألفونسو من ملوكهم ـــ كذا بالهامش والأصل . ولا أعرف مصدرا عربيا استعمل هاته التسمية (مترجم) .

(17) بسبب الامبراطورية التي كان على رأسها قيصر .

(18) عبد الغني .

إسبانيا :

وفي اسبانيا لما بلغت الأنباء بوفاة علي (19) وضع الملك الفونسو الحصار علي كاستيلار، وجاء ملك سرقسطة لنجدتها فهزم وحوصرت بعد ذلك سرقسطة واستسلمت في شهر دجنبر، وتسمى ولاة الأندلس كلهم ملوكا وأمراء. وقام ابن حميده (20) مع ممالك غرناطة وجيان والمرية ومرسية، ولما علم أن الفونسو قد استولى على سرقسطة، هب ليحاصر تلك المدينة مع ملوك آخرين من العرب، ولكن الفونسو ناشبه القتال وغلبه (21) بحيث إنه فقد عددا من أشراف قومه وولده، واستولى الغالب على عدد من المدن (22) وفي السنة الموالية، توغل في أقاليم لارده وطرطوشة فاستنجدتا بابن حميدة الذي جاء مع أحد عشر ملكا عربيا وتكبد الهزيمة (23) واستولى الفونسو، بعد انتصاره على مدينة أرانصويل صلحا، ثم عدا الى سرقسطة حيث وجه اليه ملكا لاردة وطرطوشة يطلبان منه المهادنة التي منحهم إياها لمدة ثلاث سنوات مقابل أداء جزية. ولما انتهت فترة الهدنة، دخل الفونسو على رأس جيش كبير إلى مملكة مرسية (24) التي استسلمت عاصمتها بعد الاستيلاء على بينيا كادبيلا، ثم انتقل الى المرية حيث دخل معه ابن حميدة في القتال وغلب، واتجه بعد ذلك إلى قرطبة فخرج لملاقاته لوط الذي كان تولى الملك فيها، وقبل أن يدخل في تبعيته وعاد منتصرا الى طليطلة. وماتت زوجته (25) على إثر تلك الأحداث، فاظطر لأن يتخلى عن ممالك قشتالة وليون إلى ولده الفونسو الثامن الذي دعي الامبراطور. ومنذ ذلك الحين والى سنة ألف ومائة واثنيتن وثلاثين جرت حروب كبرى بين المسيحيين (26) ولكن بما أن المسلمين لم يكونوا متفقين فيما بينهم، فإنهم لم يستطيعوا استغلال تلك الخلافات ولم يستنكفوا عن قتل الأسقف إتيان والفيكونت دون كَاسكون (27). وفي سنة ألف ومائة واثنتين وثلاثين

---

(19) سنة 1118 .

(20) أو ابن كامة — كذا بالأصل والهامش ، والظاهر أنه تحريف لاسم ابن حمدين القاضي . (مترجم)

(21) قرب دروقة .

(22) حارثة ، دروقة ، طركونة ، قلعة أيوب ، تطيلة ، سورية .

(23) سنة 1121 .

(24) 1125 .

(25) دونا فراكا ، وريثة تلك البلاد .

(26) سنة 1127 .

(27) اصطفان .

وجه دون ألفونسو جيشه ضد أصحاب بطليوس واشبيلية بقيادة كونز الى دي لارا الذي ناشبهم المعركة وغلبهم، ولما كان راجعا مثقلا بالغنائم، هاجمه ملك بطليوس الذي كان جمع جنوده[28]، ولكن هذا الملك هزم وقتل، بينما عاد كونزالي مكللا بالنصر الى قشتالة. وفي نفس الوقت، قام سيفادال[29] ابن لوط ملك قرطبة، المؤيد من لدن ألفونسو، بمحاربة ابن حميدة، وانتزع من يده غرناطة. ولكن ابن حميدة والأمراء الأندلسيين الآخرين بعثوا إلى إبراهيم بإفريقية يطلبون منه النجدة، وحصلوا عليها بشرط أن يؤدُّوا ثمنها. واستأسد ابن حميدة بسبب تلك النجدة، فشهر الحرب على سيفادال، الذي أصبح سيدا على جيان، وأخذ له قرطبة وأماكن أخرى من مملكتها. ولما رأى سيفادال ما حصل له، التجأ الى الفونسو الذي انضم اليه بحيث إنهما هجما في السنة التالية على ابن حميدة وأتلفا بلاده. ولكنه واعد سيفادال أن يرد له ما كان أخذ منه، بشرط أن لا يمد الفونسو بالتموين والعتاد. واظطر الفونسو بسبب ذلك للعودة إلى طليطلة. وفي الحين اتفق الملوك العرب باسبانيا على تكوين عصبة فيما بينهم، وأدخل فيها ملك لاردة وغيره من الملوك التابعين لألفونسو ملك أراغون. ولما رأى هذا الأخير ما حدث، جمع جيشه في سرقسطة ودخل الى كورة لاردة، فاستولى على مكناس وغيرها من الحصون[30] وحاصر فراغة التي لم يتمكن من إخضاعها. ولكن عاد إليها في السنة التالية.[31] ولكي يصرفه عنها جمع ابن حميدة جيوش العصبة والمرابطين، وبمساعدة سكان بلنسية، استولى على القصر ومشى نحو فراغة، وخاض المعركة ضد دون ألفونسو الذي غلب بسبب قلة جيشه بالقياس إلى جيش العدو. ومات في المعركة[32]. وبعد موته تولى خلفا له ألفونسو الثامن، ملك قشتالة، الشيء الذي أدى إلى عدد من الحروب وإلى انقسامات بين النصارى، لم يسلم منها حتى العرب أنفسهم، ذلك أن ابن حميدة دخله الغرور من انتصاره فأراد من أقرانه أن يسلموا له

---

(28) عمـر.

(29) لاشك أنه يقصد سيف الدولة بن هود الذي تسميه الرواية اللاتينية « سفا دولا » Zafadola . وأما لوط ، فهو تحريف لكلمة هود ، ويخطىء المؤلف عندما يقول إنه كان ملكا على قرطبة ، في حين كانت دولته بشرق الاندلس (مترجم) .

(30) سنة 1136 .

(31) 1137 .

(32) 7 يوليو 1137 .

بالسيادة عليهم ويحلوه بلقب أمير المسلمين. ولكن فراقي عبدلي (33) ثار بقرطبة مع كل جيرانه وجعل نفسه تابعا لدون ألفونسو، حتى يبقى في منصبه، الشي الذي تسبب في طول مدة الحرب. وعمد عربي آخر اسمه إسماعيل إلى ملك بطليوس فقتله (34) فأهاج تلك الدولة، ودخل إلى البرتغال مع عرب آخرين. ولكن الدوق ألفونسو هنريك غلبه (35) وطرد إلى بطليوس. ويقول بعض المؤلفين إن ذلك اليوم هو الذي وقع فيه المناداة بذلك الأمير الشجاع ملكا على البرتغال. وبعد ذلك، شهر دوم ريموند، كونت. برشلونة، الذي كان يدعى أمير أراغون ، حربا ضروسا على العرب ، على طول سنكا (36) ، وأخذ منهم عدة حصون. (37) واستولى الملك ألفونسو، من جهة أخرى على مدينة قورية صلحا، وحصنها حماية لحدوده. ولكنه ذهب ذات يوم للصيد، فجرحه خنزير برى في ساقه، فانسحب إلى طليطلة من أجل علاجه. (38) وفي تلك الأثناء دخل قائده العام (39) إلى بلاد العرب. ومن هناك أتى بأكثر من عشرة آلاف أسير. وفي السنة التالية جهز الملك جيشه، وما أن دخل إلى استرامادورة (40) حتى استسلمت له مدن كاسبرس، وتروخيو، والقنطرة، مع كل الأماكن التابعة لها. وبعد أن أخضع كل العرب القاطنين في تلك النواحي واستولى على حصونهم، جاز إلى إشبيلية فنهب الشرف وكل المنطقة، ثم رجع منتصرا إلى طليطلة، حيث عاد نونيو ألونسو ببقايا الزبير وابن زيد اللذين قتلهما بيده في معركة قرب وادي أدور. ولكن لما دخل في المعركة ضد ألفاش. (41) قرب مورا، قتل، وحملت رأسه مع أحد ذراعيه إلى قرطبة، وفي نفس الوقت كان سيفادال، ملك غرناطة ثار ومعه مدينة جيان للاستيلاء على قرطبة، فكانت له

---

(33) لم نهتد إلى التحقق من هوية هذا الشخص واسمه. فالذي أخرج ابن حمدين من قرطبة كان هو ابن هود، ثم عاد اليها وبقي حاكما لها أحد عشر شهرا ثم انتزعها منه ثانية ابن غانية الذي دعاه فريق من أهل قرطبة لانقاذهم من تعسف القاضي . والظاهر أن هنالك خلطا في الأحداث عند المؤلف بالاضافة الى تحريف الاسم ولعله بشير — وهذا افتراض — إلى فلوج العلج الذي ولاه ابن غانية على قرطبة (مترجم) .

(34) 1139 .

(35) في سهل أوريكا قرب كاستروفردي .

(36) سنة 1141 .

(37) أنكس ، كاتالى .

(38) سنة 1142 .

(39) رودريكوفرنانديز .

(40) سنة 1143 .

(41) في رواية نصرانية أخرى اسمه فرج . وواضح أن الاسم الذي أورده المؤلف محرف (مترجم) .

مقابلة مع ملكها الفاكس عبدلي. (42) وأغمد فيه الخنجر في أحد المساجد. ولكن بما أنه كان يريد أن يصير سيدا على المدينة، بمساعدة بعض الافراد من حزبه فقد هجم عليه الآخرون بالسيوف وطردوه منها، وأكرهوه على الفرار إلى جيان، واختاروا ابن حدو (43) ملكا عليهم. وكان هذا الغدر بداية حرب قاسية بين ملوك جيان وغرناطة وقرطبة استفاد النصارى منها كثيرا. وهكذا فإن الملك ألفونسو بعد أن دخل إلى أراضي هذا الأخير تقدم حتى وصل إلى اشبيلية، حيث واعده سيفادال بتزويده بكل المؤونة من أجل حصار قرطبة ، ولكنه لم يف بوعده مما اضطر ألفونسو إلى رفع الحصار. (44) إلا أنه أخذ معه عددا كبيرا من الأسرى وقطعان الماشية لدى عودته إلى طليطلة .

وفي نفس السنة كان ابن حميدة وجه جيشا بحريا للتحرك على طول شواطىء إيطاليا، فتصدى له أسطول الجنويين وطارده إلى ألمرية، وكان عدده اثنتين وعشرين سفينة دخلت فجأة إلى الميناء، ووجدته مجردا من الحماية الحربية، فأثارت الخوف في نفس ابن حميدة حتى إنه بذل أموالا كثيرة ليحصل على انسحابها. وقد وبخ البابا الاسطول الجنوى على قبوله لذلك المال. وفي السنة التالية تقاطع سيفادال، ملك غرناطة وجيان مع دون ألفونسو، دون أن يعلمه بذلك، وجمع جيوش العرب الاخرى، وقام بالعيث في مملكة طليطلة. (45) ولكن دون مانديك دى لارا بادره بالحرب فقتل سيفادال ومعظم رجاله. وبعد وفاته بايع أهل غرناطة وجيان ابن حميدة، الذي أصبح سيدا على قرطبة بعد ذهاب الجنويين. (46) وقد سلم له ابن حدو المدينة دون أن يجرؤ على الدخول معه في معركة، ولكنه وجه إلى دون ألفونسو يعلمه بأنه اذا أراد أن يذهب الى قرطبة، فإنه يمنحه الجواز في أراضيه. وقبل الامير هاته العروض ودخل في منطقة قلعة رباح التي استسلم إليه سكانها، ماعدا أهل المدينة الذين كانوا متعلقين بابن حميدة. الشيء الذي جعله يسير في طريق أخرى ويجتاز إلى المدورديل كامبو التي استولى عليها. ثم إنه قطع

(42) هل هو فرج أو فلوج ؟ (مترجم) .
(43) لعله تحريف لاسم ابن هود (مترجم) .
(44) سنة 1044 كذا بالهامش ، ولعله يقصد 1144 .
(45) سنة 1145 .
(46) سنة 1146 .

سييرا مورينا وتقدم إلى منتور التي استولى عليها أيضا وحصنها. وبعد ذلك جاء لمحاصرة قرطبة. ووافاه ابن حدو، فاستسلمت له المدينة في شهر مايو، عل شرط أن تكون تابعة لدون ألفونسو لا لابن حدو. وعلى ذلك الاساس دخل الملك إليها، فحصن القصر. وحينذاك، جاء ابن حميدة إليه وقبل يده وأعلن نفسه تابعا له، ومكنه من قلعة رباح التي كانت مدينة محصنة. وبعد ذلك عاد الملك منتصرا إلى طليطلة، تاركا قرطبة تحت حكم ابن حميدة. لكن هذا الأخير علم بأن جيشا إيطاليا جاء ليغزو شواطئه (47) انتقاما من غارات العرب البحرية، فطلب النجدة من الفونسو الذي أجابه بأنه لا يستطيع أن ينجده ضد جيش البابا، فقلق العربي لذلك وبدأ يحاربه. وكان البابا أوجين الثالث قد أخذ هذا الجيش (48) في خدمته ليستأصل مدنية ألمرية، حيث كانت تتجلى ثمانون سفينة للقراصنة، وأسند قيادته إلى أنفالدو دوريا قنصل مجلس الشيوخ بجنوة. (49) وما أن علم دون ألفونسو بأن الجيش أقلع في البحر حتى سحب جنوده من الحاميات طبقا لاتفاقه مع البابا، وسارفي اتجاه ألمرية حيث علم لدى وصوله أن جيش الجنويين غُلب عند نزوله وانسحب إلى رأس كاطا. وعند وصوله، وقع الهجوم على المدينة بحرا وبرا وأخدت بعد عدة هجمات، وقُتل أكثر من ثلاثين ألفا من العرب. وانسحب ابن حميدة إلى القلعة ودافع عن نفسه هنالك بشجاعة . وبما أنه لم يكن في مستطاعه أن يصمد، سلمها بشرط أن يخرج بنفسه ويخرج الخواتم سالمة ويعطي ثلاثين ألف دينار ذهبا للملك ويظل تابعا له. وأما الجنويون فقد اكتفوا، على ماقيل، بزمردة ثمينة، احتفظوا بها لنفاستها. ولما انسحبوا، وضع الملك حامية بالمدنية. وفي نفس الوقت وقع خلاف كبير بين دون ريموند كونت برشلونة، الذي صار منذ ذلك الوقت ملك أرغون ودون رامير، المدعو الراهب، من أجل مدينة طرطوشة. وبعد أن استولى عليها بمساعدة الجنويين، ترك القلعة في يدهم طوال أربعين يوما. ولكن المدينة بقيت في يده وأقطعها إلى ريموند دي مونكاد، الذي عمرها بالنصارى.

(47) ألمرية .
(48) كان من الجنويين .
(49) سنة 1147 .

إفريقيـــــا :

وفي إفريقيا، جرت ثورة كبيرة بدأت في القسم الغربي من موريطانيا الطنجية على يد بربري من جبال الأطلس الكبير، هو مؤسس دولة الموحدين أي أصحاب التوحيد (50) وهذا هو الاسم الذي أخذ بدل اسم عبد الله الذي كان يسمى به سابقا. (51) ونال تقديرا كبيرا على خطبه، وبالخصوص من الأفارقة المنتمين لقبيلة مصمودة التي هو منها. (52) وبعد أن جمع الجموع حوله بكثرة، تجرأ على مهاجمة ملك المغرب الذي لم يشأ أن يقضي على هذا العفريت وهو في مهده، ولا أن يخرج قوته ضد رجل غير ذي قيمة، وظل يتعاطي لملذاته ويثقل شعبه بالضرائب لارضاء خلاعته لكنه لاحظ في الأخير، أنه دخل إلى بلاده، وأنه تحت شعار الحرية أخذ يلحق أضرارا بأقاليمه. فخرج إليه، لكن بعد فوات الأوان، وبعدد من الجنود أقل مما كان يقتضيه الموقف، فناشبه المعركة فغلب وانهزم جيشه. (53) وكان الليل يقترب فوجه المنتصر عبد الله أسرع رجاله للاستيلاء على الممرات حتى لا يرجع إلى المدينة، فاضطر إلى الانسحاب إلى الجبل، ليلتجي إلى مكان حصين يجمع فيه فلول جيشه. لكن عبد الله علم بذلك، فوجه عبد المومن (54) بسرعة ليطارده مع قسم من قواته، وطوق مدينة مراكش بواسطة البقية. وطارده عبد المومن مطاردة دقيقة حتى إنه لم يترك له أي مجال ليتحصن في أي مكان، فوجد نفسه مضطرا في الأخير، والضغط يجرى عليه من كل مكان، إلى اللحاق بفاس، حيث رفض أهلها أن يستقبلوه، (55) وفضلوا أن يستقبلوا عدوه . فلم يجد لنفسه إذن أي ملجأ الا في مدينة وهران، التي كانت آنذاك آهلة بالسكان، فاستقبل فيها مع البقية القليلة التي رافقته. ولكن عبد المومن حاصره في الحين وهاجم المكان بشدة حتى إن السكان خافوا على أنفسهم وأرعبوا من تهديداته بالقضاء عليهم إحراقا وتقتيلا، فطلبوا من الأمير المسكين أن ينسحب من بلدهم

---

(50) أهل الموحدين .

(51) سنة 1140 .

(52) من جبل تينمل الموجود بإقليم مراكش ومن قبيلة هرغة .

(53) على منحدرات الأطلس قرب مراكش في مكان اسمه القاهرة أي مكان المصائب ــ كذا في الهامش ، وفيه تحريف لاسم البحيرة التي جرت بها المعركة المشهورة بين الموحدين والمرابطين (مترجم) .

(54) في رواية أنه ولده .

(55) كان مكروها لأنه نقل العاصمة من فاس .

لأنهم غير قادرين على حمايته. فخرج في ليلة مظلمة وخلفه إحدى نسائه التي كانت ترافقه دائما. ولكنه أدرك أن الحرس شعروا به وكذلك دوريات العسس، فهمز جواده غضبا فقذف به إلى أسفل صخر حيث تمزق جسده اربا إربا. وكان يفضل أن يموت هكذا على أن يقع في يد الأعداء .

وفي الغد فتح سكان المدينة الأبواب لعبد المومن، فبحث عن خصمه في كل مكان، ووجد الجثة الممزقة فرجه بقاياها إلى عبد الله. ومن ثم انطلق منتصرا يجوس خلال ديار مملكة تلمسان، ثم عاد إلى مراكش حاملا معه الغرامات التي فرضت على تلك الأقاليم. ووجد لدى عودته عبد الله قد مات فعقد كل الرؤساء اجتماعا وبايعوه ملكا بهذا اللقب : أمير المؤمنين أبا محمد عبد المومن بن عبد الله ابن علي. (56)وكان الهالك أمر وهو حي بتنظيم مجلس من أربعين عضوا على مذهبه، مع ستة عشر آخرين يقومون بوظيفة الكتاب. وكان أولئك يبتون في القضايا ويخرجون إلى البادية كلما اقتضى الامر القيام بالدعوة لمذهبهم والتعريف به، لأنهم كانوا كلهم دعاة. وكان أتباع المذهب يسمون الموحدين انتسابا لمؤسسهم، والمؤلفون العرب يسمونهم الدعاة بينما يسميهم الاسبان الموهاد مدخلين ال التعريف على الكلمة التي حرفوها. وقد حمل الملوك المنتسبون لهاته الدولة لقب أمير المؤمنين وكانت لهم سطوة كبيرة بإفريقيا واسبانيا. وما أن بويع عبد المومن حتى هجم على مراكش من كل الجهات (57) . ولما رأى أن السكان رفضوا الاستسلام ، أقسم أن لا يغادر المدينة حتى يحتلها ويخربها، واستولى عليها عنوة فقبض على ولد ابراهيم (58) وخنقه بيده. وبموته انقرض بيت المرابطين، الذين يسميهم المؤرخون الأفارقة اللمتونيين أو المرابطين، والذين أسسوا مدينة مراكش الجميلة. ولكي يبر عبد المومن بقسمه حول المدينة إلى تراب وأمر أكثره من الغربال. بل إنه أمر بتخريب قصور الملوك والمساجد، وبالاخص الجامع الكبير لعلى، حتى لا يترك أي ذكر لمؤسسين. وبعد ذلك شيد بناءات عظيمة باسمه. ولكنه لم يستطيع أن يمحو من ذاكرة الناس مامحاه من الأحجار، وسمع الناس في حياته يسمون الأشياء

---

(56) لا نحتاج الى التذكير بما في هاته الرواية من أخطاء وخلط وتحريف (مترجم) .

(57) سنة 1148 .

(58) اسحاق .

باسمائها القديمة، واضطهد بعد ذلك كل من ينتمي للبيت المرابطي، بحيث لم يبق ولا واحد في مجموع إفريقيا ممن علم به أو علم به ولاته، مما يدل على حرصه على تقوية سلطانه.

أسيـــا :

وأما في آسيا فقد كانت حرب الأتراك ما تزال مستمرة، وكان محمد ملك قيصرية قد جمع أموالا كثيرة وأصبح قويا بفضل ما جمعه من غنائم من النصارى، فاستولى على إبيير وعلى عدد من حصون العراق، وكان يدعى أنه من نسل الارساكيين أو التانيسمانيين، وكانت للامبراطورية معه حروب كللت بالنجاح. ومر الامبراطور يوحنا من فريجية على رأس جيش كبير، فوقف عند مدينة أطال ليصدر أوامره العسكرية من هنالك. ذلك أن عددا من الأماكن في تلك البلاد كانت في قبضة الأعداء وسكان بحيرة بسوس حيث كانت توجد جزر آهلة بالنصارى أصبحوا بسبب مجاورة الأتراك والتجارة معهم أعداء للنصارى الآخرين حتى إنهم نقضوا سيطرة الامبراطورية. وما أن وصل الامبراطور إلى بسوس حتى طلب من أولئك الجزريين أن يحصنوا تلك البحيرة وأن ينسحبوا إلى فارس. ولما رآهم رافضين أمر بصنع سفن ذات قعر مسطح وأطواف لحمل الآلات، وبها هاجم قلاع البحيرة واستولى عليها، متكبدا في ذلك خسائر من رجاله. فقد هاجَتْ عاصفة غمرت عددا من السفن بالماء وابتلعت الأمواج من كانوا على ظهرها. ومن هنالك انتقل إلى إيزوري، حيث أصدر الأوامر الضرورية، معلنا أنه يريد إرجاع الارمن إلى صوابهم فيجبر ملك (59) طرابزون الثائر على الرجوع الى الطاعة مع بقية البلاد. لقد كان يريد أن يوحد أنطاكية مع القسطنطينية وأن يقوم بنفس الشيء بعد ذلك بالنسبة للقدس. فوجه البعض من ذويه للتعرف على رغبة السكان فوجدهم على استعداد للتفاهم (60) ولكن لما اقترب منهم وجد الأمر بخلاف ذلك ، وحتى فالكون نفسه ملك القدس لم يشأ أن يتركه يدخل مع جنوده لزيارة الأماكن المقدسة ، وقال بأن المكان ليس فيه من الخصب ما

(59) كبـرا .
(60) كان المكان في قبضة نصارى الغرب .

يمكنه من استقبال ذلك العدد الضخم من الناس ، وأنه لا يمكنه أن يدخل على الأكثر إلا بعشرة آلاف من الرجال. ولما رأى الامبراطور أنه لا يستطيع أن يحصل على شيء من تلك الجهة، رجع إلى كيليكية وخرب كل شيء في طريقه، وإن كان يتطاهر بأن كل ما حدث كان مخالفا لأوامره. وبينما كان مخيما بين الجبال في كمكان يدعى عش الغربان، اشتهى أن يقوم بصيد الدب، فجرح نفسه بسهم مسموم مات منه، وخلفه مانويل كومنين على رأس الامبراطورية بدلا من أخيه إزاك الذي كان هو الأكبر، والذي حاربه بسبب ذلك. لكنهما تصالحا في الاخير، فقاد مانويل جيشه لمحاربة العرب، الذين كانوا يعيشون في تراقيا تحت سلطان إيقونيا. (61) فتقابل معهم في فيلومليا، حيث أصابه سهم في رجله وجرحه، ولكنه حصل على الانتصار في إيقونيا، وتفوق على السلطان إثر بعض المعارك. ولما رأى، في الأخير، أن عدد الأتراك يزداد ساعة بعد أخرى، وأنه يأتي منهم أكثر ممن قتل، انسحب بمشقة كبيرة إلى القسطنطينية. واعتبر هذا العاهل المصاريف الكبرى التي لم يكن بدٌّ منها، فأراد أن يجمع جيشه البحري في مكان حصين. ولكنه اعترف بالخطأ الذي ارتكب، لأن القراصنة الترك والعرب نهبوا شواطئه بدون منازع .

وفي تلك الاثناء، كان النصارى المحتلون لأنطاكية والقدس وغيرها من بلدان سورية قلقين من جهة الأتراك، فقام أمراء أروبا بحملة عسكرية ثالثة بقيادة الامبراطور كونراد الذي يدعوه البعض دوق فرانكونيا. وكانوا قد امتلكوا الأرض المقدسة وما يحيط بها (62) أزيد من خمس وأربعين سنة، مع حروب متواصلة. وفي ذات يوم، حينما أصبح فولك، صهر بودوان الثاني ،ملكا على القدس، قام النزاع بينهم وبين الامبراطور يوحنا، كما ذكرنا. وانضاف ذلك إلى الفتنة التي نشبت بين مانويل وايزاك من أجل العرش الامبراطوري، فكانت فرصة لكي يسترجع المسلمون قوتهم. وهكذا جاء الأتراك من الفرس بجيش قوي لمحاصرة أنطاكية. ولما علم فولك بذلك تقدم إليهم وقتل منهم أزيد من ثلاثة آلاف في معركة. ولكن آلاب (63) الذي كان ملكا على الفرس آنذاك، جمع كل قواه وجاء لحصار مدينة

(61) مسعود .

(62) زونار ، بلنديس ، بلاتين .

(63) هل يقصد السلطان السلجوقي ألب أرسلان الذي كان بالشام ؟ (مترجم) .

الرها (64) التي كانت مزدهرة آنذاك. وبعد أن حاربها بشدة، استولى عليها عنوة وعاملها بكامل القساوة العسكرية. وعلى إثر ذلك، ذهب فولك إلى الصيد حوالي القدس فسقط به فرسه وهو يجري وراء أرنب وقتله، وترك من بعده ولده بودوان خلفا له. وهذا التغيير خول الأتراك فرصة ليتوسعوا أثناء عهد أمير مازال في طور الشباب. وحزن النصارى لهاته الأنباء، وخصوصا لضياع الرها. وتكلف القديس برنارد(65) بأن يقنع الأمراء النصارى بهاته الحرب المقدسة والعادلة جدا(!) وبدأ هذا العمل في عهد البابا إينوسانت الثاني وخلفه سيليستان وَوَاصَلَهُ في عهد أوجين. وقد ألزمت رسائل هذا البابا وحجج هذا القديس الكبير لويس لوجون ملك فرنسا بالانخراط في سلك الصليبيين مع عدد كبير من النبلاء. وفي أثناء ذلك ذهب سان برنارد إلى المانيا يطلب من الامبراطور كونراد أن يقوم بنفس العمل. فكان جوابه بالقبول المعزز بالحماس. ولما كان من غير الممكن أن يذهب عاهلان كبيران في آن واحد بكل قواتهما، فقد تقرر أن يذهب الامبراطور هو الأول. وهكذا تحرك بجيشه في سنة ألف ومائة وست وأربعين. (66) مصحوبا بدوقات صواب ولورين وكونتات فلاندرة وفريز، ومركيزات النمسا وكَلف الذي تصالح معه في المناسبة، وغير هؤلاء من الأمراء والنبلاء الذين رغبوا في المشاركة في هذا الأمر. وكان جيشه متركبا من ستين ألفا من الخيل ومن نفس العد من المشاة. فاجتاز معهم من النمسا إلى هنغاريا ومن ثم إلى القسطنطينية حيث طلب من الامبراطور مانويل السماح له بالمرور وتزويده بالأقوات مقابل المال. فاستقبله بمظاهر الفرح الكبرى، مشيدا بمشروع مقدس كهذا ومظهرا إعجابه بالنخوة التي ظهرت في هذا الجمع الكبير. ثم وزع الجيش على القرى وواعد بأن يعطي أوامره من أجل توفير الأقوات، وأن يكون من كل شيء ما يفوق الحاجة، بشرط أن لا يحدث أي اضطراب. وبعد ذلك أتى بالأقوات. ولكنه كان متخوفا من أن تكون هنالك مؤامرة سرية. فأتى بالجنود إلى القسطنطينية وشحن بهم المدن المجاورة، لأنه كان يعرف أن ملك صقيلية آت بجيش ليحاربه. ولما غادر الألمان جهات القسطنطينية،

---

(64) أوحران التي يقال انها اعتنقت الدين على يد يهودا تادى .

(65) قس كليرفو .

(66) أو 1147 .

تقدموا نحو مدينة فيليب، مخفورين بجنود الامبراطور اتقاء للاضطرابات. ولما خرجوا منها، اشتبكت مؤخرتهم مع طليعة الاغريق، وكاد القتال أن ينشب لولا حكمة بطريق إيطالى (67) هدّأ الكل. ذلك أن الامبراطور كونراد عزم على الدخول في المعركة . فواصل إذن طريقه. ولما بلغ أندرينوبل تجاوزها مع جيشه، بعد أن ترك في المدينة أحد أقربائه أصيب بمرض، ولكن بعض الفتانين الذين كانوا غاضبين، أشعلوا النار في البيت الذي كان فيه وأحرقوه. ولدى هاته الأنباء، طلب من فريديريك ابن أخيه ، دوق صواب ، أن يأخذ الثأر من هاته الجريمة . وبما أن هذا الأمير كان فظا ومندفعا، فقد أحرق الدير الذي أحرق فيه المريض، وقتل كل اليونانيين الذين لقيهم، واسترجع كل المال الذي ضاع. وكان في ذلك تحريك للفتنة بالبلد، وكاد الشر أن يستفحل لولا رزانة أحدالأعيان من السكان (68) الذي أقنع فريديريك بالهدوء وأرجعه عن نواياه السيئة، ثم تابع الجيش سيره كما كان الامر من ذي قبل. وبعد ذلك وصل إلى السهل (69) الذي يجري فيه نهر ميلا، الذي ليس بواسع ولا عميق، ولكنه يغمر كل تلك الأراضي بالاخاديد التي تتفرع منه، والتي تمتلىء من مياه الأمطار في الشتاء، بحيث يلوح السهل كالبحر، ولا يمكن السير فيه آنذاك الا في المراكب، بل هنالك أوقات يستحيل فيها اجتيازه بسبب الريح. وارتفع النهر بغتة في الليل، في الوقت الذي كان فيه الالمان مخيمين في السهل، فغمره بالماء. وكانوا غافلين عن ذلك في الوقت الذي طفحت القنوات بالمياه التي دخلت إلى الخيام وحملت كل ما لم يكن قادرا على الرسوب في القعر. فمات كثير وهم نائمون. (70) واعتبر هذا المنظر المرعب كعلامة على غضب السماء على هذا الجيش العظيم. وحاول كل واحد أن يفر بعد ضياع جهازه، وحزن الامبراطور كونراد لهاته الكارثة العظمى وغادر المكان في الحين. ولما اقترب من القسطنطينية اجتاز إلى آسيا بكل جيوشه على ظهر سفن وجهها إليه الامبراطور مانويل ، وفي تلك الأثناء بدأت تُعوزه الأقوات ، برغم كون مانويل تظاهر ببذل كل جهوده لتزويده بها طبقا لوعوده. ولكنه كان يرجع بها سريا من الطريق، ويضع رجالا في كمين يقتلون كل من كان منعزلا. وكان الاغريق يسدون أبوابهم في وجه الجنود ويرفضون

(67) ميشيـل .

(68) بروسوك .

(69) شيروباكى .

(70) رجال ، دواب ، أمتعة .

استقبالهم ويقتصرون على إنزال ما يطلبونه من أعلى السور، بعد أن يتسلموا المال منهم. وفي بعض الأحيان يقبضونه دون أن يعطوهم شيئا في مقابله أو يضعون الجبس والجير وسط الخبز لتسميمهم. بل إن الامبراطور سك نقودا مزيفة ليسلمها لهم مقابل الصحيحة. وأخيرا عاملهم بأسوإ المعاملات مما لا يخطر على بال، وذلك ليمنع غيره في المستقبل من القيام بمثل هذا المشروع. بل إنه حرض عليهم قائدا كبيرا (71) من قواد الأعداء فهزمهم قرب مدينة بطجى، وقتل منهم عددا كبيرا. وبرغم كل ذلك، وصلوا إلى نهر مياندر حيث شاهدوا الأتراك مخيمين في الصفة الأخرى ليمنعوهم من العبور. فإن ذلك النهر لا يمكن قطعه خوضا في أي فصل، وكان مرتفعا آنذاك بمياه الأمطار. وفي هاته المناسبة برهن الألمان على مبلغ عزيمتهم، مبينين أنهم إن لم يقوموا بشيء ضد الاغريق، فلم يكن عن جبن، ولكن بدافع الشهامة. ذلك أن الامبراطور كونراد حينما وصل إلى ضفة النهر ورأى الاعداء مصطفين في الضفة الأخرى وهم يجرحون طليعته بالسهام، فإنه سحبها بعيدا عن إصابتهم وأمرها بالاستراحة لركوب الخيل في الغد والدخول مع العدو في المعركة عند الفجر. وفي الغد صفف رجاله على أحسن نظام، ولما رأى الأعداء من الجهة الأخرى وعلى رأسهم الرماة مستعدين لمدافعة الخيالة عند الجواز جمع الرؤساء حوله وذكرهم بالمصائب التي تحملوها حتى يصلوا إلى هناك، وكيف تخلوا عن راحتهم وملذاتهم من أجل مجد منقذهم، وأن عليهم أن يتغلبوا على هذا الحاجز الذي يعترض مشاريعهم، وبعد هذا سيصبح كل شيء سهلا بالنسبة لهم، وأن السيد المسيح (71م) أقدر على أن يحقق لهم النصر، وأنهم على أي حال، حينما يموتون من أجله، متأكدون من أنهم سيعيشون في الخلود، وأن عليهم أن يأخذوا الثأر من أولئك المسلمين الذين ذبحوا أقرباءهم وأصدقاءهم. وأنهم لن يجدوا قضية أحسن من هذه يموتون من أجلها، إذ سيحررون قبر السيد المسيح، وأنه قد فكر في حيلة لاجتياز هذا النهر الذي يخاض، وذلك بأن يتحركوا متزاحمين في فيالق كبيرة لدفع تيارالماء، فيمكنوا المشاة من المرور من تحت (72). وبعد ذلك أعطى إشارة الشروع في القتال، وهمز جواده ودخل في الماء توا تتبعه كل الخيالة

(71) بنبلان ــ كذا في الهامش ــ ولعله تحريف لاسم بلبان عزالدين (مترجم) .

(71م) قارنت عبارة الامبراطور بين النبيئين محمد وعيسى – عليهما السلام – بما يليق فحذفنا الكلمتين. (مترجم) .

(72) [illegible]

على الشكل الذي ذكر، مما سهل على المشاة أن يقطعوا النهر، نظرا لكثرة عدد الخيل. وجرى القتال بشدة داخل الماء ، وكأنه قتال على اليابسة، إلى حد أن العدو لم يستطع أن يصمد لشجاعة الألمان فاضطر إلى التراجع، وتراجع البعض منهم هاربين، بينا انسحب البعض الآخر وهو يقاتل، وكسيت الارض بجثث الأموات وجرى الدم في الاودية. ولم يمت عدد كثير من جهة النصارى، ولكن جرح منهم عدد بالنبال. (73) وبعد هذا الانتصار واصلوا طريقهم مستهينين بقوات العدو، متجهين إلى القدس عن طريق فريجية العليا وكليكية وبيزدية، التي كان البرابرة يحتلونها بسبب تهاون أباطرة القسطنطينية. ويقول البعض إن الامبراطور كونراد هُزم أمام الترك وأنه فر إلى القسطنطينية، حيث جمع فلول جيشه وسار الى القدس على ظهر سفن أعاره إياها الامبراطور . وبعد ذلك بزمان وصل الملك لويس أيضا، بعد أن عانى مصاعب من جراء بعض الاشغال الكبيرة وبعض المعاكسات أثناء السفر. ووجد استقبالا حسنا من لدن الامبراطور ومن لدن ملك القدس. (74) واجتمع كل أولئك الملوك وذهبوا لحصار مدينة دمشق التي كان يتضايق منها نصارى سوريا والقدس أكثر من المدن الاخرى مجتمعة. ولكن الأقوات بدأت تنفد، بينما المحاصرون كانوا يدافعون عن أنفسهم بشجاعة . فاضطروا إلى الانسحاب بعد أيام من الحصار. وهنالك من المؤرخين من يقولون إنهم أخذوا المدينة، ولكن بسبب خلاف حدث بينهم تفرقوا وذهب كل فريق إلى حيث شاء. وانسحب كونراد إلى القسطنطينية ومن هنالك إلى المانيا ليحول دون كلفون، الذي سبقه في الطريق، من الاستيلاء على الامبراطورية. وكذلك فعل لويس بعده بشيء قليل من الوقت. ودامت الحرب أربع سنوات دون أن تأتي بنتيجة تذكر، وتركت الاعداء أقوى مما كانوا في البداية.

إفريقيـــــا :

وفي غضون هاته الاحداث اجتاز (75) روجر ملك صقلية الذي كان حارب امبراطور القسطنطينية إلى إفريقيا بجيش عظيم ، ونزل في مهدية وجاس خلال الشواطىء والسهول بمساعدة العرب الذين كانوا يظنون أنهم يستولون على البلد مع

(73) نسطاس قونياطس الذي واصل رونار وكويون الكتاب الثالث .

(74) بودوان .

(75) سنة 1146 أو 1147 .

انحطاط الدولة المرابطية. ولكن الملك المغربي الذي كان حاكما هنالك رأى نفسه في وضع غير ثابت، فعقد الصلح مع روجر، مقابل إتاوة تعهد هو ومن يخلفه باداتها كل سنة، على آن يقدم لهم المساعدة عند الاحتياج. ومنذ ذلك الحين نزلت حامية من الصقليين بتونس، على نفقة المدينة. ويقول مؤرخ فاس (76) في مختصر التواريخ إن هاته الاتاوة ظلت تُسَدَّدُ إلى أن أصبح عبد المومن ملكا على تونس وأخذ مدينة المهدية من النصارى وطردهم منها فجعل هذا الملك يؤدي له الجزية، ومن جهة أخرى ، تحرك روجر الى أراضي مانويل بنفس الجيش الذي ذهب به الى افريقية واستولى على عاصمة جزيرة كورفو التي سلمه إياها أهل الجزيرة، واستولى على كورانت في البلوپونيز أوموريا، وعلى طيبة في بيوسيا ونكروبنت. ثم انتقل إلى شاطىء آسيا بقصد مساعدة النصارى الذاهبين إلى القدس، والتقى جيش الاتراك البحرى وكان قد أسر الملك لويس أثناء مروره بميناء القديس سمعون بانطاكية في طريقه إلى الأرض المقدسة، ولكنه انتزعه من يدهم بعد معركة ناجحة وأنزله في ميناء يافا. ومن هنالك ذهب إلى القدس، على مايرويه كولنس في مختصر تاريخ نابولي. وبعد ذهاب النصارى، تقاتل سلطان إيقونية وسوريا (77) مع ريموند ملك انطاكية، فغلبه وعاث في كل البلاد، ما عدا العاصمة التي ظلت محمية بصعوبة كبيرة من لدن ملك القدس .

(76) الشريف ـــ كذا في الهامش ، فهل يعني الشريف الادريسي ؟ (مترجم) .

(77) مسعــود .

الفصل الرابع والثلاثون

خبر عبد المومن ملك مراكش وما حدث في عهد من الوقائع

لما قام الموحدون في إفريقيا وتولى الملك بعد مؤسس دولتهم خليفته عبد المومن قسا قسوة شديدة على كبراء دولة المرابطين في مراكش واصطلى الجميع في إفريقيا بنار تلك الحرب . وكان المرابطون قد كسروا شوكة العرب النازلين بنوميديا (المغرب الاوسط) وغربوهم الى قفار الصحراء حيث اقتصروا على الاشتغال بفلح الاراضي ورعي السائمة ، ولما تأتت لهم الفرصة بسبب هذه النزاعات اهتبلوها فدخلوا بلاد البربر واستولوا على جهات مدينة تونس وجهات تلمسان وأخضعوا لسطوتهم سكان تلك المناطق من البربر الذين كانوا ضمن امبراطورية العرب منذ عهد الخلفاء . ولم يجعلوا حكمهم إلى نظر حاكم وحيد بل قام فيهم عدد من الامراء لان كل جماعة من أولئك الاعراب كانت تغزو لحسابها . ثم إن ولاة المرابطين على المدن والأعمال قد ثاروا على الموحدين ورفضوا الدخول في طاعتهم فنالت الناس معرة من قيامهم ، ولقد قام متآمرون في طرابلس والقيروان وفي تونس وبجاية ومدينة الجزائر وتنس وتلمسان و في أماكن أخرى . وكذلك كان للافارقة المستوطنين في الجبال حكام خاصون بهم ، وما أن تمكن عبد المومن من فتح مراكش وفاس حتى تيسر له في وقت قليل الاستيلاء على مجموع موريطانيا الطنجية (شمالي المغرب الاقصى) . ولقد تعزز بقبيلة مصمودة وخاصة منهم قومه فرع بني ورياكل فأخضع النوميديين وجزولة الغرب وتقدم متدرجا في فتح إمارة تونس وإمارة تلمسان حتى دان له معظمها طوعا أو كرها ثم انتزع من النصارى مدينة **إفريقية** (1) وعددا غيرها من المدن التي كانوا قد احتلوها على الساحل ولكن الاعراب دام لهم الظهور في إمارة تونس إلى أن أخضعهم يعقوب المنصور رابع ملوك الموحدين .

(1) يقصد بها مدينة المهدية (المترجم) .

أما في إسبانيا فقد استفاد أمراء النصارى من هذه الانقسامات فكسبوا عدة معارك ضد المسلمين . كان الامير ابن حميدة(2) قد أسلم حصن المرية للدون ألفونس ثم بعث اليه رسولا يبلغه استعداده لتمكينه من مدينة جيان إذا ما وصله من عند الفونس أحد كبراء رجاله ليتسلمها، وما أن وصل الكونت ما نريش دي لارا بعساكره حتى تقبض عليه الناكث واتخذ طريقه إلى قرطبة وجعله يتخلى عن المدينة. وعلى إثر هذه الخيانة دخل ألفونس أرض الاندلس بجيوشه بقصد الثأر فأفسد في جهات جيان وحاصر بياسة وفي تلك الاثناء مات وسرح أهل قرطبة الكونت مانريق والذين معه ووجهوهم إلى ألفونس وولوا عليهم ابن حدو بعد استرضائه. ثم إن أهل بياسة وأهل أبذة الذين حاصرهم الفونس وكذلك أهل غرناطة وأهل جيان شنعوا صنيع أهل قرطبة ولم يريدوا اتباعهم في فعلهم فاستنجدوا بعبد المومن، ولما كان هذا الامير منشغلا بغيرهم فقد اكتفى بأن أذن لهم في جمع العساكر من جبال غمارة فاجازوا إلى الاندلس عشرين ألفا كان يقودهم عبد العزيز، ولكن الملك ألفونس تربص لهم في طريق المرور فهزمهم وتشتت من نجا منهم في بلاد الاندلس. فأقام الفونس على حصار بياسة غير واجل ولا خائف وشدد عليها الخناق حتى استسلمت في السنة ذاتها. ثم إن الدون ريمند بيرانجر قد انتزع لاردة من المسلمين (3) وبعد ذلك استسلمت له أفراغة ومكناسة، وقام الفونس انريكي (ابن الرنق) من جهته وهو ملك البرتغال بحصار مدينة لشبونة يعززه جيش من الاجانب كانوا في طريقهم إلى الارض المقدسة قصد فتحها، فأخذها وعمرها بالنصارى. وفي السنة الموالية استولى صاحب غرناطة وصاحب جيان على قرطبة بفضل الجيوش التي وصلت اليهما من إفريقيا فحملوا ابن حدو على طلب النجدة من الدون ألفونس، فدخل الوفنس بلاد الاندلس وأفسد كثيرا من جهات جيان وأندوجار وأرجونة وأخذ مدينة منتور التي كان المسلمون قد استولوا عليها. وبعد أن حصنها مر إلى قرطبة (4) ولما استجمع المسلمون قواهم في تلك البلاد حاربوا ألفونس فانتصر عليهم ثم عاد إلى قرطبة فاستسلمت له وجعلها إلى نظر ابن حدو وكان حاضرا في ذلك الحصار.

(2) ورد هذا الاسم مكتوبا هكذا : Aben Guméda (المترجم) .

(3) في يوم القديس كريبان .

(4) في هذه المدة انتزعت الاقفال الكبرى من باب جامع قرطبة وحملت إلى بلد الوليد حيث ما تزال على الأبواب القديمة لكنيسة العذراء .

ولما شعر مسلمو اسبانيا بما هم عليه من الضعف الذي لا يقدرون معه على الصمود أمام المسيحيين أرسلوا رسلهم بالطاعة إلى عبد المومن الذي حقق انتصارات في إفريقيا. فأرسل اليهم ثلاثين ألفا من الرجال انضموا إلى صاحب غرناطة وصاحب جيان فاستؤنفت الحرب ضد ابن حدو (5) صاحب قرطبة فكان منه أن استنجد بالملك ألفونس فسار هو والدون ريمند بيرانجر للقاء المسلمين عند حصار قرطبة فهزمهم. ثم سار لحصار مدينة جيان ولما امتنع عليه الظفر بها عاث فسادا في تلك البلاد وعاد إلى قشتالة.

لكن الموحدين الذين نجوا من القتال ضد ألفونس التحقوا بعسكر غرناطة وساروا معهم لحصار مرسية وكان أميرها (6) من الموالين للدون ريمند، ولما علم بزحفهم اليه طلب النجدة من الدون ألفونس.

ولما علم الموحدون بذلك زحفوا إليهم والتحم الفريقان فانهزموا ثانية وخرجوا بخسارة فادحة من معركة ضارية.

ولما بلغ الخبر إلى عبد المومن أرسل جيشا ثانيا استأنف حربا دامت أكثر من ستين سنة.

وقد سلب الاميران النصرانيان المبرزان عددا من الحواضر التي كانت بأيدي المسلمين. فقد استولى ألفونس على وادي آش وبياسة عام ألف واثنين وخمسين . وفي العام الموالي حاصر مدينة أندوجار وفي حصارها مات فليكس إيبانيز التطيلي. وبعد أن أخذها صلحا سار إلى جيان ولما أشفق أهلها من تدميرها أخرجوا منها الموحدين وقدموا عليهم ابن حدو ووافق على ذلك ألفونس ورجع منتصرا إلى تطيلة . ثم إن الدون ريمند الذي تلقب بأمير أرغون (الثغر الأعلى) قد احتل جبال براديس إلى جهة نهر إبرة بين سرقسطة وطرطوشة واستولى على حصن شيفرانا وحصن مرابط وفي عام ألف ومائة وخمسة وخمسين توغل الملك ألفونس في بلاد المسلمين وطردهم من جهات قلعة رباح واخذ فحص كركوي وحصن المدور وجميع جهاتهما. ومن هنالك تجهز وزحف فاخذ حصن البطروج عنوة وأخذ سانتوسيم صلحا وبعد ما حصن تلك المواقع عاد إلى طليطلة. وفي العام الذي بعد

---

(5) لعله يقصد ابن مردنيش (المترجم) .
(6) سماه في الحاشية لوطا

هذا كمل لعبد المومن الاستيلاء على معظم بلاد البربر فعزم عل الجواز إلى اسبانيا بجيش عظيم. ولكن الموت أدركه قبل أ يحقق نيته وواصل ذلك التصميم ولده يوسف الذي صار إليه الأمر من بعده.

ومن جهة أخرى مات السلطان **مسعود** (7) صاحب الاعمال والامارات التي كانت تابعة للاتراك في بلاد المشرق وقد خلف من الأولاد ثلاثة ذكور اقتسموا ولاياته فكان من نصيب ابنه البكر ياكوبسان (يعقوب أرسلان) آماسيا وأقر وقابادوش التي تسمى بالسعيدة كما صارت إليه جميع أنظارها. أما ذو النون فقد كان من نصيبه قيصرية وسيواس، وأما قلج أرسلان فقد كان من نصبيه قونية. ولما لم يكونوا متمسكين بالوحدة ولا راضين بالقسمة فقد حارب بعضهم بعضا مدفوعين من الامبراطور **مانويل** الذي كان يحرض كل واحد منهم ضد الآخر بواسطة رسل سريين من عنده. ولما كان منحازا لياكوبسان فقد أرسل إليه هدايا عظيمة وعرض عليه معونته نكاية في أخيه قلج أرسلان الذي كان يضمر له عداء شديدا لان هذا الامير كان يضطهد النصارى ويضطهد إخوانه في آن واحد. فكانت الحرب أول قيامها بين قلج وأخيه وأسفرت بعد معارك عديدة عن غلبة ياكوبسان فكانت النتيجة أن ألقى المهزوم بأمره بين يدي مانويل الذي رحب به أعظم ترحيب لما علم أن انقياده له سيفيده في حروبه بآسيا. ولما استدرجه إلى القسطنطينية أمر بإقامة الاعياد والمسرات احتفاء به واحتفالا. ثم ودعه محملا بهدايا عظيمة ووعده وعودا جميلة إذا هو مكنه من سيواس. وبعد انصرافه بعث إليه الامبراطور بأنواع السلاح وبطرف وأشياء باهظة الثمن حتى يحمله على الوفاء بوعده قبل أن يدركه الندم. لكن قلج أرسلان قلب إليه ظهر المجن بعد عودته إلى إيقونيا وآذنه بالحرب واستولى على عدة حواضر من ممتلكات الامبارطور، وقام بعد ذلك بالزحف على أخيه ذي النون وانتزع منه قيصرية ثم بذل كل ما في وسعه للقضاء على ياكوبسان لكن هذا الأخير مات وأخوه على وشك الخروج لقتاله، وبعد موت ياكوبسان تسلل قلج ارسلان إلى آماسيه فاستولى على منطقتها وعلى قابادوش ومضى فيما صمم عليه من التوسع في تلك الجهات التي قضى معظم

(7) الذي مات في هذا التاريخ (ديسمبر 1141) هو الأمير محمد بن غازي الدانشمند وكان أقوى الأمراء المسلمين في آسيا الصغرى وهو الذي أدى نشوب الحرب بين أبنائه وإخوته إلى انقسام الامارة ثلاثة أقسام . أما مسعود فهو سلطان السلاجقة بقونية وقد هيأ له التقسيم المذكور الفرصة لتوطيد سيطرته على الترك ببلاد الاناضول ولعل أمر الرجلين قد اختلط على المؤلف (المترجم) .

ولاتها أو هلكوا في الحرب. ومن هنالك توجه بقصد قتال الامبراطور ولم يكف مع ذلك عت تسميته «أبي» بينما كان هو الآخر يسميه «ابني» وكلما هم الامبراطور بقتاله أزعج اليه السفراء محملين بالهدايا معتذرا له عما يحدثه الاتراك من الاضطرابات. ومع ذلك فقد قام هو بإفساد كثير في أرض لاوديقيا وقتل مطرانها (8) وارتكب غير ذلك من الشرور ، وكان يقول ساخرا إنه بقدر ما يسيء إلى الامبراطور بقدر ما ينال من إحسانه إذ كان هذا الاخير يبعث اليه بالهدايا كلما حقق عليه انتصارا حتى يثنيه عن المضي في توسعه. ولما عيل صبر الامبراطور أرسل لقتاله جيشا يقوده البازيلوس. ولما أبى الخروج للنزال اقتحم الجنود معسكره ليلا وقاموا بمذبحة عظيمة. ولما تفطن الاتراك لكلام النصارى أوقفوا تقدمهم في الظلام واسفر الفجر عن خسارة عظيمة في الجانبين ثم عاد البازيلوس إلى القسطنطينية .

(8) سليمان .

الفصل الخامس والثلاثون

ذكر يوسف ثاني من تسمى بهذا الاسم من ملوك المغرب وما وقع في عهده

لما تملك يوسف بعد موت أبيه عبد المومن أظهر إقداما وعداء شديدا للنصارى. فبعد أن قام بتهدين بعض الفتن وإقرار ولاته في تونس وبجاية جاز إلى إسبانيا في بداية العام ومعه ستون ألفا من الفرسان وما يزيد عن مائة إلف من الراجلة وذلك بقصد إنجاد الامراء المسلمين الذين قدموا له الطاعة ليتخلصوا من نير النصارى. وما أن وصل حتى بادروا للقائه وتقديم فروض الولاء والطاعة إليه، ولم يتأخر عن ذلك ابن حدو ولا غيره بالرغم مما تعهدوا به للدون ألفونس ولم يبق على عهده لهذا الملك سوى **لوط** صاحب مرسية وبلنسية. ولما بلغت هذه الأخبار الى الملك ألفونس جمع جيوشه وكان قد زود حواضر الثغور بما تحتاج اليه لما سمع بقدوم عدو بمثل هذه القوة والعدة، وأرسل مستنجدا بالبابا وبملك فرنسا. وأثناء ذلك كان المسلمون يستولون على ثغور الاندلس ولما حاصروا ألمرية هب ألفونس لنجدتها فأدركه المرض في بياسة وأسلم قيادة الجيش هنالك إلى ابنه وعاد إلى طليطلة. ولما كان يخترق جبال الشارات اشتد عليه الألم في مضيق الموراداال (9) حتى اضطره الى الاتكاء على شجرة بلوط ومات هنالك تاركا ملك قشتالة لابنه البكر الدون شانجه الملقب بالمحبوب وترك ملك ليون لفيرناندة. وتألمت إسبانيا لفقده تألما عظيما، ذلك بأن جيشه الذي غاب عنه قد تراجع وترك المسلمين يستولون على ألمرية ووادي آش ثم على مدينة أندوجار، وبعد ذلك حاصر العدو مدينة بياسة ومدينة منتور وكان الكونت الدون مانريش دي لارا صاحب بياسة قد استنجد بالدون شانجه فأجابه بأن حاله لا تسمح له بذلك فاضطر إلى تسليم المدينة، وفعل أهل منتور مثل فعله، ولما أخذها يوسف مضى إلى حصن البطروج، ولما كان يوالي زحفه كان الدون شانجه يستعد للقائه بعد ان عزز عساكره بمن وصلوا إليه من

(9) في مرج فرينيد يوم 11 غشت .

الانجاد الاجانب لكنه سقط مريضا في طليطلة ومات (10) . ولما كان قد انضم لجيشه عدد من شجعان النبلاء الذين هبوا من كل مكان على العادة في نصرة الصليب فإنه لم يقع التخلف عن الزحف لمقابلة العدو الذي كان يتقدم نحو إشبيلية، بل ناجزوه في حرب انهزم فيها وهلك عدد من رؤسائه وشجعان فرسانه من بينهم الرئيسان الاكبران بوجيم واد الجار. وبعد انهزام يوسف تراجع نحو إشبيلية وتراجع النصارى إلى طليطلة حيث ألقوا السلاح ورجع كل واحد إلى اهله بالنصر والغنيمة. وكان الدون الفونس قد تولى الملك في قشتالة بعد وفاة أبيه الدون شانجة. وهو ألفونس التاسع ولما كان عمره لا يتعدى ثلاث سنوات فقد كان الوصي عليه هو الدون جوتيير هيزنانديزدي كاسترو وقد فضل والده شانجه توليته ولم يول أخاه فرديناند صاحب ليون وكان هذا القرار سببا في أهوال عظيمة. أما يوسف فقد هادن النصارى حتى يفرغ لحرب الذين استدعوه من أمراء المسلمين في الاندلس فاشتغل بقتالهم حتى ساد على جميع إماراتهم. وقد بدأ بقتال لــــوط صاحب مرسية وبلنسية وكان يؤدي الجزية لريمون كونت برشلونة وكان يؤديها من قبل لدون ألفونس ملك قشتالة. وبعد قتال لوط مضى يوسف لقتال أبي الحجاج صاحب .ماردة حتى دان له بالطاعة والولاء وقد تعزز بكتائب من جيشه وأرسل جيشا آخر إلى قشتالة بعد أن أمّر عليه ولديه (11) فعادا محملين بالغنائم إلى طلبيرة. وبعد أن عاثا فسادا في جهات بلنسية وآبلة هاجمهما شانجه وقومس خيمني وهزماهما (12) واستعادا منهما كل ما حملاه من الغنائم. ثم إن الحرب اشتعلت نارها بين يوسف ولوط، وقد استنجد هذا الاخير بالنصارى واستطاع أن يستولى على غرناطة ثم فقدها ثم استعادها. وفي سنة ألف ومائة واثنتين وستين انتزع ملك البرتغال الدون ألفونس هنريكيز مدينة باجة من المسلمين وقام شانجه خيميني مع أخيه بشن غارة على حي شيرينا وعادا بغنيمة عظيمة من الماشية. ولما هب المسلمون لاسترجاعها أو قعابهم الهزيمة وعادا إلى آبلة محملين بالغنائم. وكان الخلاف قد زاد حدة بين قشتالة وليون. وكان الدون فرناند رويزدي كاسترو ابن أخي الوصي على العرش وحاكم عدد من الحواضر كان غائبا بطليطلة. وقد دخل الموحدون بلاده

(10) في متم غشت 1158 .

(11) فضالة وعمر .

(12) في مكان يدعى « سبعة أودية » .

وافسدوا فيها كثيرا ولما كانوا في طريقهم إلى الاندلس كمن لهم في الطريق وقاتلهم على مقربة من قلعة رباح ولكن المعركة لم تسفر عن تغلب احد الجانبين، وعاد كل فريق من حيث أتى، ومن جهة أخرى أخذ الدون ألفونس هنريكيز مدينة سمورة وحاصر قلمالة. ولما هب أمير بطليوس المسلم لنجدتها ومعه خمس عشرة مائة من الخيل وستون ألفا من الرجل ناجزه هنريكيز الحرب وهزمه وبقي على حصار قلمالة حتى فتحها صلحا. بيد أن ألفونسو ملك أراكون قد انتزع من المسلمين جميع العمائر الواقعة على ضفاف نهر إبره ونهر قلندشون حتى كانتا فييشا أعانه على ذلك **فرسان الداوية وفرسان القديس يوليان وفرسان قلعة** رباح وعدد من الفرنسيين والاسبانيين الذين جاءوا لنجدته. ومن جهة أخرى استولى [13] الملك الفونسو صاحب قشتالة على عدد من حواضر مملكة طليطلة التي كانت بيد فرناندو رويز دي كاسترو وكان هذا قد مال إلى حزب ملك ليون وتخلى له في الاخير على العاصمة والتجأ إلى يوسف وقد قوبل عند يوسف بالترحيب ومعه عدد من النصارى الذين اتبعوه. وأرسل لقتال ملك غرناطة الذي تصدى له بمعونة الدون ألفونسو. وأثناء ذلك كان يوسف بإشبيلية يقاتل الفونسو **ابن الرنق** أمير البرتغال الذي بعث بجيش لمحاربته يقوده ولده الدون **شانجه** ومعه شجعان من المتطوعة الذين هبوا لنجدته كما يهبون لحرب الصليب، وقاتل الدون شانجه المسلمين وطاردهم حتى أبواب إشبيلية وبعد ذلك حاصر **لبلة** ، وكان قد قام بهدم حصن الشرف. ولما بلغه الخبر بأن المسلمين حاصروا باجه، قام عن لبلة ولقيهم في الطريق وهزمهم وعاد منتصرا إلى البرتغال. وفي السنة التي بعدها بلغه أن جيش أمير بطليوس كان يعيث فسادا في البلاد التي بين **مونديج** ونهر **تاجه** فهب للقائه وهزمه في مقتله عظيمة محققا عدة انتصارات أخرى على المسلمين .

وأثناء وقوع هذه الوقائع علم يوسف بأن اقواما من الزناتيين قد ثاروا بإمارة تلمسان وأن غيابه جعل قبائل العرب تصول وتعتو على غيرها، فجاز إلى إفريقيا وقد خلف حربا ضروسا بالاندلس بين لوط أمير غرناطة معززا بالدون ألفونسو وبين **فرناندة رويزديكاسترو** والمسلمين من حزبه. ولما قام يوسف بتهدين الثورات التي وقعت بإفريقيا عاد إلى الاندلس ومعه عساكر لا تحصى عازما على إنهاء تلك

(13) عام 1166 في يوم 26 غشت .

الخلافات.وما علم ولاة ألفونسو بقدومه حتى عمروا الثغور وطلبوا النجدة من البابا فقام هذا الاخير بإصدار مرسوم صليبي وبعث إلى ألفونسو قسيسا من عنده ومعه عددمن صكوك الغفران. وهكذا قدم من فرنسا ومن ايطاليا عدد من المحاربين وعقد أمراء إسبانيا الصلح بينهم لما أوجسوا خيفة من جيوش المسلمين. واسترجع ألفونسو عددا من المدن الواقعة على امتداد ضفاف نهر إبره ونهر قلندة وفي مواقع أخرى. وقاتل يوسف لوطا طوال السنة دون أن يلحق به ضررا كبيرا بسبب التعزيز الذي كان يمده به الدون ألفونسو، غير أن لوطا قد مات من مرضه واستسلم سهل غرناطة ليوسف فساد على جملة حصون هذه الامارة وعلى مدينة جيان. ومر من هنالك على ألمرية واخضع هذه البلاد مخترقا إمارة مرسية واصلا الى قونقة، وحاصر ومعه ولده المنصور مدينة وبذة وكانت على وشك الاستسلام لعدم الماء لولا أن وقع إعصار في يوم القديس جوست جاء بوابل غزير أطاح بخيام أمير المسلمين. ثم إن عددا من أهل بيارن وأهل كاسكونيا وغيرهم من الاجانب قد هبوا لنجدة هذه المدينة مما جعل يوسف يتراجع إلى مملكة مرسية فاستكمل فتحها. وفي السنة التي بعدها خرج من قرطبة معززا بعساكر وصلت إليه من إفريقيا ومعه ثلاثة عشر من الأمراء المسلمين فدخل الى البرتغال على طريق إمارة بطليوس. ففتح هناك مدينة حصينة(14) وأفسد كثيرا في البلاد. ولما علم الدون ألفونسو ابن الرنق بقدومه حصن لشبونة. وترك فيها الأمير الدون شانجه، ومر إلى قلمرية وعمر كل هذه الاحياء بالرجال والعتاد وعاد إلى شنترين، وهنالك زحف اليه يوسف محاربا فدام الحصار خمسة أيام وخمس ليال بدون انقطاع، ثم إن ألفونسو ملك قشتالة أرسل اليها الانجاد وفعل أمراء أراكّون وليون مثل فعله، وكان القس الذي انتدبه البابا من جهته قد جمع عددا كبيرا من أهل كاسكونيا وبروفانسيا وبيارن ودعاهم لنصرة الصليب كما جمع الفرسان المنضوين تحت ألوية جميع العصب والطوائف، ولما علم يوسف أن كل شيء قد تهيأ لانجاد تلك المدينة ضاعف جهوده لاخذها وبينما هو يحاول ذلك إذ أصابه سهم فمات من إصابته. فمن قائل إن أحد رجاله قد أقدم على طعنه، ومن قائل إن الذي أصابه رجل من البرتغال. ومهما يكن فان المسلمين قد رفعوا الحصار وعاد القادمون من افريقيا إلى بلاد البربر.

---

(14) Torresnovas

وقد تولى من بعد ولده يعقوب المنصور فتسمى مثله بأمير المسلمين أما الدون ريمند بيرنجار كونت برشلونة، فقد مات وتولى من بعده ابنه الدون ألفونسو فصار ملكا لا راكون.

أما في آسيا فقد تعصب سلطان قونية وسلطان (15) مصر مجتمعين لشن الحرب على النصارى وجمع الامبراطور مانويل أسطولا مكونا من مائتي سفينة تحت إمرة اندرونيق قصد التصدي لهم في البحر بينما كان يهاجمهم برا بواسطة نصارى الضفة الغربية لنهر الاردن لكي ينتزع منهم مدينة دمياط. ولما أبلغ ما اعترمه لأمليريك ملك بيت المقدس الذي أبدى استعداده للذهاب إلى دمياط شخصيا، أعلمه بأنه واصل اليها في الحين ومعه ما يلزم من المال لرواتب الفرسان الذين سيقدم بهم اليه. وبعد ذلك بمدة قليلة وصل أندرونيق الى ميليبوط حيث وجد الامبراطور قد جاء اليها ليشهد جنود البحر ويدبر ما يلزم من الاوامر. ولما لبث هناك يومين (16) توجه إلى ميناء سيست وعبيد حيث شحن السفن بعدد من المحاربين ثم اتجه إلى قبرص، ولما لقي في طريقه ست سفن مصرية جاءت لغاية الاستكشاف أسر اثنتين منها وفرت الاخرى. ولما بلغ قبرص أعلم بوصوله ملك بيت القدس. وكان قد ندم على ما كان تقرّر من الخطة فأجل تنفيذها، وأعلمه أنه قادم عليه للمذاكرة في تلك الشؤون. ولما وصل أندرونيق إليه ووقف على ما يتعلل به من الصعاب طلب منه ألا يتأخر عن مثل ذلك المرام العزيز. وفي الاخير استقر امر الملك على أن يقدم على خطته برا بواسطة الاستيلاء على قريتين (17) واقعتين في سهل خصيب صالحتين لاراحة الجنود وانتعاشهم. سيما وأن سكانهما من النصارى وإن كانو ممن يدينون بالطاعة لملك مصر. وتوجه بتلك النية وما أن وصل حتى استسلم اليه السكان. ومن هنالك توجه الى دمياط حيث وجد جند البحر وكانوا قد قاتلوا العدو ودخلوا بسفنهم في النيل لمحاصرة المدينة من جميع الجهات، ولما أثلموا السور في عدة مواقع أمر بالاقتحام ولما أبلى اهلها في الدفاع عنها تحتم أن يجرى معهم اتفاق عرضت شروطه على الامبراطور فقبلها وعقد معهم السلم على ما يفيدهم أكثر مما يشرف النصارى حتى إن اندرونيق قد رجع مغضبا

(15) قلج أرسلان وعمر العاضد .

(16) في مرسى Célé

(17) هما تيني وتينيهي .

إلى القسطنطينية، وعاد الملك إلى بيت المقدس. وبعد ذلك سار مانويل لحرب سلطان قونية الذي لم يتوقف بالرغم من انعقاد الهدنة عن القيام بغزو أراضي الامبراطورية. وانتقل الامبراطور الى دوريليو عازما على تحصينها. ولما علم السلجوقي بذلك أرسل اليه يسأله لماذا هو مصر على حربه فأجابه بان سبب ذلك ما يعلمه من أفعال، فبادر إلى تحصين المدينة وحفر الآبار لان المياه تنعدم فيها. ولما رأى الاتراك أنه لم يكن تحصنها إلا ليطردهم من تلك الجهات حيث كانوا يرعون أغنامهم وحيث كانوا ينطلقون لغزو النصارى تفرقوا إلى مجموعات متعددة وجاءوا من جهات مختلفة لكي يمنعوا أشغال التحصين. فصاروا يقتلون أو يأسرون العملة الذين يجلبون الحجارة أو الماء، لكن الامبراطور عاد بنفسه ومعه الفرسان لنجدة العملة . وبعد أن حصن دوريليه وثغرا آخر (18) عاد إلى القسطنطينية. وفي السنة التي بعد هذه جمع جيشا أكبر قوة كان فيه إيطاليون (19) وتاتار ممن يسكنون على امتداد نهر الدانوب وعدد آخر من الاجناس وإتخذ طريقه إلى فريجيا ولاوديقيا، ولما وصل إلى قونية دخل معبد القديس ميخاييل الشهير ومن قونية واصل طريقه إلى لا مبى وبلغ سيلينا حيث منابع نهر مياندر، ويقال إن هذا المكان هو الذي أقدم فيه أبولون على سلخ مارسياس الذي أراد أن يتحداه في ميدان الموسيقى. ومنها انتقل إلى قم ثم إلى حصن قديم مهجور يسمى **ميريوكيفالوس** بسبب كثرة عدد رؤوس النصارى التي قطعها الاتراك على مقربة منه. وتابع طريقه متقدما بقدر ما يسمح بها ازدحام العربات وثقل العتاد، وهو حريص على تحصين اماكن نزول جيشه دون أي تفريط. ولقد تعثر سيره بسبب غزوات الاتراك ومناوشاتهم إذ كانوا يسممون المياه ويحولون بينه وبين أسباب التموين . وأثناء ذلك قام سلطان إيقونيا ، بالرغم من كونه قد جمع أجناداً كثيرة من الفرس ومما بين النهرين وغيرهما ، بإرسال وفد لطلب الصلح مع الامبراطور ، وكان ذلك الطلب مما لا يتردد عن قبوله أكثر القواد تجربة ، لأن السلجوقي كان متحكما في معظم الممرات والثغور الحصينة التي لابد لجيش الامبراطور من المرور بها . ولكن الامبراطور قد أصغى الى الاغرار الذين يجهلون كل شيء عن فنون الحرب فرد السفراء دون عقد أي اتفاق وقد أرسل السلجوقي بعثة جديدة بدون جدوى . وبعدما أرسل

(18) سوبليه .

(19) مدينة بالاس .

رجاله ليكمنوا في ممرات جبال طوروس وأمرهم بطرد المسيحيين منها اذا كانوا قد استولوا عليها . يوجد في هذه الجهة واد فسيح (20) يمتد نحو أعالي الجبال ثم يتجه الى جهة الشمال قليلا عن الساحل . ثم يتفرع الى أودية أخرى أكثر عراء . وهو محصن من الجهة الاخرى بصخور وعرة الانحدار . ولما كان على الامبراطور أن يمر من هنا بجيوشه فانه قد غابت عنه نباهته المعهودة وهو أشد ما يكون محتاجا إليها فلم يقم بالتعرف على الممرات ولا باستكشافها ولم يفصل العدة والمتاع عن الجيش حتى لا تعيقه في حالة القتال . بل إنه تقدم بهذا الترتيب: فالمقدمة كان عليها جان وأندرونيق (21) وقلب الجيش كان عليه قسطنطين ولا باردا وقد ترتبت فيالقهم على هيئة هلال ميمنته عليها بودوان ملك بيت المقدس وميسرته عليها تيودور ، وبعد هذا تأتي الامتعة ثم الامبراطور ومعه السواد الاعظم من الجيش. وكان أمير البحر أندرونيق على حراسة المؤخرة. هكذا كان ترتيب الجيش عند دخوله لهذه الاودية. ولما وصل إلى المضايق كذلك بلا خطر حيث يتعذر الانبساط تجمع الجناحان وانطبقا على من كان من الاعداء من الجانبين بقصد منع المرور وكان بإمكان بقية الجيش آن تمر كذلك بلا خطر لو رتبت على جنبات الممر سرايا لاخراج الاعداء من أعالي الجبال، ولو أنها أقامت الذرع المعروف في ذلك العهد لاتقاء رماح الاتراك وإبعادهم. ولما لم يفعلوا شيئا من ذلك فقد انقض عليهم الاعداء من كل جهة وهم يصيحون بأصوات عالية فخلقوا الاضطراب في صفوف النصارى وقتلوا منهم عددا كبيرا، وفر الجناح الذي كان عليه بدوان. وفي هذه الحالة جمع هذا الامير المقدام كتيبة من الفرسان وقاتل وسط الاتراك حتى قتل وهلك معه كل من اتبعه. ولما اعجب التركي بنصره عمل حتى قطع مقدمة الجيش عن وسطه وتمكن من الممرات التي تدافع اليها المسيحيون في ازدحام شديد فقتل بعضهم دون أن يستطيعوا دفاعا عن أنفسهم ودون أن يتمكن الامبراطور من إنجادهم بسبب عائق الامتعة، سيما وانهم كانوا محاطين من كل جهة بالصخور الشديدة الانحدار. وكان عدد من قتل من المسيحيين بسهام الاتراك كبيرا حتى إن الاودية التي امتلأت بجثث الموتى قد جرت فيها جداول من الدماء. وحينئذ، رفع الاتراك رأس ابن أخت الامبراطور (22) على سنان رمح وكان خاله ارسله على رأس

(20) يدعى كنيسور أو كلوس .
(21) ابن الملك قسطنطين .
(22) أندرونيق باتاك .

كتائب بفلا ــ كونيا لقتال الأرمينيين، ثم هاجموا مانويل من جميع الجهات ، باذلين في ذلك جهدا جهيدا لما علموا ان النصر رهين بالقضاء عليه وهذا ما جعله يضاعف من قواته ويشجع رجاله على فتح ممر ينفد منه بحد السيف. (23) ولما التحم بمن بقي له من الجند خرج من بين جم كثيف جاء يحيط به وحارب بضراوة، فأثخن بالجراح وتلقى بدرعه ثلاثين سهما وتبعجت خودته حتى تعذر رفع غطائها. ومع ذلك لم يتوقف الاتراك عن القتل والضرب، أما الذين ظنوا أنهم سيفرون مارين على جثث رفاقهم فقد ذبحهم الاتراك المنتشرون هنا وهناك في الجبال. ذلك لان المكان الذي نتحدث عنه ينقسم إلى سبعة أودية عميقة قريب بعضها من بعض، وحتى إذا اتسع الممر في بدايته فإنه يضيق شيئا فشيئا حتى لا يكاد يتسع في بعض الاماكن لاكثر من ثلاثة فرسان في وقت واحد. وبما أن الاتراك قد استحوذوا على تلك الامكنة فانه ما كاد يمر طابور واحد حتى أحيط به من كل جانب، ومما زاد الطين بلة هبوب ريح شديدة غطت الميدان بالغبار والرمال حتى تعذر على المحارب أن يرى غيره فكان على المقاتل أن يتعرف على مقاتله فكان أن سقط رجال من الفريقين ومع ذلك لم يسقط من الاتراك مثل العدد الذي سقط من المسيحيين ولم يفقدوا مثل من فقدوه من الشجعان. لان هؤلاء هم الذين صمدوا وحدهم للقتال. وعندئذ بقي الامبراطور بدون حراس ولم يبق معه سوى نبيل واحد في خدمته، آوى إلى جذع شجرة كمثرى ليسترجع أنفاسه ولما كان خادمه يصلح له الاسلحة التي كانت قد تحطمت برز تركي فألقى يده على لجام فرسه ليوقفه ولكنه ضربه بقطعة من رمحه فأرداه قتيلا . ولما تسابق إليه اخرون ليقبضوا عليه أخذ الحربة من حامل سلاحه فقتل الاول بينما ضرب خادمه عنق الثاني بسيفه. وأثناء ذلك وصل عشرة من فرسانه فجعلوه في وسطهم وساروا معه إلى كتيبة كانت في المقدمة. ولم يخل ذلك من مخاطرة لان الاعداء اعترضوا طريقه عدة مرات. ولما اجتاز هذه المضايق حيث كان عليه أن يمشي مدة طويلة على جثث الموتى وان يقطع نهرا يجري في وسطه لحق بكتيبة من رجاله وهاجم الاعداء. فقتل **جان كنتاكوزين**(24) ووقع الهجوم على الامبراطور بعد

---

(23) جاء ضمن الهوامش ما يلي : « ينسب له المؤلف هنا خطبة ألقاها في جنوده ، بيد أن الموقف لم يكن ليسعفه بإلقاء مثل تلك الخطبة » .

(24) كان قد تزوج [illegible] حي الملك أو [illegible] حته .

ذلك ولكنه قاتل باستماتة حتى تمكن من الافلات فلحق بمؤخرة الحراس الذين كانو ينتظرونه في معسكرة حيث كان بعض الفرق ما تزال منضوية تحت طاعته. فأمر بإقامة الحراسة طول الليل. وفي الغد وبينما كان الاتراك يستعدون لمهاجمته اشفق عليه السلجوقي فارسل اليه بعض لوازم الراحة وعقد معه الهدنة على شرط أن يهدم القلاع التي كان أعاد بناءها في سوبليه ودوريليه ولما رأى الامبراطور أنه قد ابتعد عن الخطر رفض أن يهدم تلك الحصون مما حمل السلجوقي على أن يجدد معه القتال فأرسل عليه أشجع فرسانه وأمرهم بأن يحطموا كل المواقع التي يمرون عليها ويأتوا اليه بالماء والرمل من البحر، فدخلوا ولا يات الامبراطورية وخربوا مدن فريجيا ومدن نهر مياندر ولكنهم وقعوا على غرة في كمين عندما أرادوا اجتياز هذا الوادي ففقدوا عددا من رجالهم وغنائمهم.

وأثناء ذلك وقعت في مصر حروب كبرى بين سلاطينها وقام صلاح الدين ابن أخي شيركوه بقتل الخليفة العاضد (25) وساد على مجموع البلاد ولكي نتجنب قطع تسلسل أخبارنا فستعرض لهذه الأمور عند حديثنا عن المماليك .

---

(25) هذا من افتراءات المؤلف إذ أن صلاح الدين لم يقتل العاضد (المترجم) .

الفصل السادس والثلاثون

خبر أبي يعقوب ولد يوسف ملك المغرب وما حدث في عهده من الوقائع

بعد موت يوسف وقعت فتن عظمى في إفريقيا حيث ثارت معظم المدن والبوادي ولكن أبا يعقوب (26) الذي يسمى عادة بيعقوب المنصور أخذ زمام الملك وأجبر جميعها على الخضوع طوعا أوكرها. وما لبث أن بويع في فاس.ولما استنكف أمراء تلمسان وتونس بادىء الأمر من الدخول في الطاعة، وكانوا يدفعون بالعرب خيفة لاقامة الفتنة، أظهر لهم يعقوب الصلح وحرض عليهم هذه القبائل. ولما رأى أن الحرب قد استحكمت بينهم جمع جيشا في جهات طنجة، واظهر أنه يريد تخليصهم من نير الأعراب. ولما وصل إلى تلمسان انضمَّ إلى أعدائهم فانتصر على أمراء تلك الجهات ونزعهم من الحكم. ولما كان حريصا على أن يستتب السلم في تلك البلاد وعلى ان يخلصها من عسف العرب فقد استجلب هؤلاء متعللا بكونه أراد أن يخرجهم من قفارهم وان يعطيهم بلدا خصبا يستوطنونه فجعل أعظم قبائلهم شوكة في دكالة وتلمسان وأزغار، وأرسل الآخرين إلى نوميديا وليبيا لكي يضعفهم بتفريقهم. أما الذين بقوا في موريطانيا الطنجية (المغرب الاقصى) فقد صاروا من أتباعه لأن هذه القبائل إذا ابتعدت عن قفارها ابتعدت عن بيئتها الطبيعية فتفقد قوتها وبأسها. وكان بإمكانهم الرجوع اليها لو استطاعوا اختراق المضايق التي يسكنها السكان الأصليون والبوادي التي استوطنها العرب القدماء من رعية الملك. وهكذا تخلوا عن عزتهم الأصيلة ليشتغلوا بالزراعة ورعي السائمة . أما الذين استوطنوا أزغاز فقد كانوا يؤدون الجزية أول الأمر، وأما اللذين نزلوا دكالة وتلمسان فلما كانوا أكثر عددا وأكثر وفاقا فقد أعفوا أنفسهم من أدائها. بل إنهم انتهوا بمرور الأيام إلى ان استخلصوها لانفسهم من سكان البلاد الاصليين مقابل كف

---

(26) كنيته أبو يوسف وليست أبا يعقوب (المترجم) .

يد التخريب عن أراضيهم ما داموا معتزين بكثرتهم وقوتهم . أما الذين أرسلوا إلى نوميديا وليبيا فلم تنفعهم تلك البلاد فأطاعوا أهلها لبعض الوقت ثم انتهى بهم الامر إلى ان اصبحوا سادتها، فعادوا الى بسط سلطانهم على ما جاورهم من الجهات غير معترفين بما عدا سلطة اشياخهم ورؤسائهم . أما الذين بقوا منهم في إمارة تونس ولم يتأت نقلهم لشدة شغبهم وتعذر إخضاعهم فانهم ثاروا إثر وفاة المنصور وسادوا على تلك البلاد. ودامت سيادتهم عليها إلى عهد بني مرين الذين أقطعوا تلك الامارة لقائد من فرسان زناتة (27) ظل عقبه من الذكور يحكمون تونس واحدا تلو الآخر إلى عهد حميدة الذي انتزع منه السيادة حاكم مدينة الجزائر (28) لحساب ملك الاتراك ؛ فقد ظل ذلك الفارس يسود على المدن والقرى متنازلاً عن نصف جبايته للعرب. ولما كان عدد هؤلاء يزداد مع الايام فإن العطاء قد اقتصر على من كانوا يوالون الدولة ويذودون عن البلاد. بيد أن الآخرين كانوا يقومون بغزوات في أماكن متفرقة واعمالهم تشبه أعمال اللصوصية حتى كان السفر في تلك البلاد متعذرا دون توصية من مكان إلى آخر، وكان ذلك يتم على الصورة التي نبينها : عندما يصل المسافرون الى مكان ما يكتب شيخ ذلك البلد سجلا بأسماء المسافرين ويرسل معهم رجلا يتقدمهم حاملا معه مزراقا وراية عليها شعار معلوم. حتى إذا بلغوا بلدا آخر تجدد خفرهم على تلك الصورة. وكان يؤدى عن كل رأس قدر معلوم وعن كل حمل قدر معلوم يستوي في ذلك اليهود والمسلمون. ومن لم يفعل ذلك تعرض للقتل أو للنهب . هذا ما كان يتعين فعله على من يريد أمن نفسه في هذه الاحياء التي كان يسكنها العرب.

رجع الخبر. لما ملك يعقوب المنصور بلاد البربر قام بغزو النوميديين (29) وأخضع من بها من ماسة إلى طرابلس بما في ذلك مملكة مراكش وفاس وتلمسان وتونس على مسافة يتعدى طولها اثنتي عشرة مائة فرسخ، وعرضها مائة وثمانون فرسخا ما بين البحر المتوسط ورمال صحراء ليبيا. ثم إن مسلمي إسبانيا كانوا يعترفون به ملكا لهم ، وكان يقوم في الأندلس بغزوات ضد المسيحيين حتى إنه كان أعظم ملك حكم في إفريقيا منذ عهد الخلفاء. وقد بنى مدينة الرباط بقرب

(27) أبو حفص .

(28) غلوش أو علي الفتاشي .

(29) يقصد سكان المغربين الاوسط والادنى .

سلا (30) بالاضافة إلى بنائه المنصورة والقصرالكبير والقصر الصغير بسبب ما اقتضاه مرور الجيوش إلى اسبانيا، كما بنى عددا آخر من المدن سنذكرها عندما نتحدث عن أمره بتفصيل، وهذا ما جعله يلقب بالمنصور ولم يكن اسمه الاصلي.

وإذا رجعنا إلى اسبانيا نجد أنه بعد وفاة لوط ملك بلنسية توزع ولاء رعاياه بين أبنائه وبين الموحدين ، كل فريق يوالي سيدا من الاسياد. وقد اغتنم الفونسو ملك أراگون هذه الفرصة ليحاصر المدينة بعد أن أفسد جهاتها. ولكن القائد المرابطي الذي كان على المدينة عرض عليه الولاء على ان يتركه عليها. وكذلك كان. ومن ثمة انطلق ألفونسو لمحاصرة شاطبة التي كانت لابن لوط. ولم يغادر حصارها حتى أعلن هذا الأمير عن ولائه له، إلا أن ملك نبرة كان يجول في طول بلاده وعرضها .

وفي السنة التي بعدها جاز يعقوب المنصور إلى الاندلس وكان قد هدّن إفريقيا وتلقب بالمنصور وبأمير المسلمين. وقد دخل على رأس جيش جرار إلى قرطبة. ثم عاد إلى افريقيا دون أن يقوم بشيء لما بلغه أن بعض العمال قد خرجوا عن طاعته. فترك الدون فرنانده رويز دي كاسترو قائدا عاما ومعه فرق من جيشه ولو أنه مسيحي. وما أن رحل يعقوب حتى قام فرديناند باستنفار المسلمين الآخرين فدخل البرتغال وحاصر مدينة اذريق بعد أن عاث في البلاد. ولما علم الدون فرناندة ملك ليون بذلك هب لانجاد المدينة. فقاتله (32) وهو أقل منه قوة ، فغلبه دون أن يهلك الجم الغفير من المسيحيين الذين كانوا تحت لوائه لانه لم يكن برغب في الاثخان فيهم، ثم إنه عمل خيرا بان بعث اليه رسله يعده بالاصهار اليه بأخته وبالتخلي عن محالفة المسلمين والدخول في حزبه. ثم انضم اليه أهل بطليوس وأهل ماردة وأهل الجهات المجاورة. وبعد هذه الحوادث وقعت الحرب بين ملك قشتالة وملك نبرة فأخمدت نارها مؤقتا بتدخل رسول البابا، ولكن ألفونس ملك قشتالة ذهب في السنة الموالية يحاصر قونقة ومعه ملك أرغون . ولما انشغل أهلها انسحب فرناندة رويز دي كاسترو وكان قد جاء معه ثم تخلى عنه بأمر من ملك ليون، وذهب ليستولي على عدة مدن في قشتالة كانت لاسلافه (33). ولما وقع ذلك

(30) في الهامش إشارة الى أن المقصود هو رباط المهدية ، والمهدية قريبة من سلا الى جهة الشمال وإن كان باني مدينة الرباط هو يعقوب المنصور نفسه .

(32) في المكان المسمى بالقديس جاك .

(33) كاسترو وشريش ودو يجناس الخ ...

ترك ملك قشتالة الحصار لملك أرغون وسار يريد استرجاع تلك المدن وقتال ذلك الامير. وحينئذ اجتمع مسلمو الاندلس لنجدة قونقة، ولما لم يقدروا على مناجزة ملك أرغون وكان قويا وأمره على غاية الاحكام والتدبير ذهبوا يفسدون أحياء طليطلة، ولما خرج أهلها وقعت عليهم الهزيمة وهلك اثنان من شجعان فرسانها. وبعد ذلك رجع المسلمون الى الاندلس ورجع ملك قشتالة إلى حصار قونقة (34) التي استسلمت في الاخير بعد عقد صلح مع أهلها ، وقام هذا الملك بإعادة تعميرها وتحصينها. ثم إن ملك أرغون قد دخل مملكة بلنسية (35) وفرض الجزية على جميع المرابطين في هذه الجهات ثم عاد منتصرا إلى بلاده. وفي سنة ألف ومائة وثماني وسبعين وقعت الحرب بين ملك ليون وملك قشتالة. وفي السنة التي بعدها قسم ملك قشتالة وملك أرغون البلاد التي أنهيا غزوها، فصارت مملكة بلنسية لملك أرغون وصارت مملكة مرسية لملك قشتالة، وبعد ذلك تمردت عليه. وفي سنة ألف ومائة وثمانين دخل المسلمون من أهل بطليوس إلى ماردة ودخل آخرون من هذه الاحياء الى البرتغال فحاصروا شنتاريو وشلب، ولكن الملك ليون الذي كانوا يدينون له بالولاء قد أمرهم برفع الحصار فأطاعوه. وبعد ذلك بسنتين انتقل ملك قشتالة من قلعة رباح إلى بلاد المسلمين ومعه جيش جرار فأخذ حصن شنتفيلة في أرض كونسو يكرا (36) وبعد أن ترك فيها حمية قوية مر إلى جهات مونتيل والكرس في أرض أبدة فحطمها تحطيما كليا وعاد منتصرا إلى قشتالة. وفي سنة ألف وثلاث وثمانين أخذ طريق بلش وعلرقون وقطع نهر شكر وقام بغزوات في كل أنحاء مملكة مرسية ثم رجع إلى طليطلة محملا بالغنائم. وفي السنة التي بعدها عاد إلى مملكة مرسية وأخذ صلحا حصن علرقون (37) ثم عاد منتصرا إلى قشتالة. وفي سنة ألف ومائة وخمس وثمانين، أخذ طريق طلبيرة فقطع نهر تاجه ودخل في بلاد ترجالة وعاث فسادا في شيرينة ومر منها إلى إشبيلية ثم جاء يحاصر حصن ركانه . ولما تمكن منه عاد إلى طليطلة محملا بالغنائم. وفي نفس العام مات الدون ألفونسو بن الرنق أمير البرتغال وتولى بعده ابنه الدون شانجه . وفي العام الذي بعده اخذ ملك ليون إينيشته.

---

(34) الدون كوديال والدون بيطرة وهما أخوان .

(35) في شهر أكتوبر .

(36) Consuégra

(37) على ضفة نهر شقر .

وفي نفس العام طلب البابا من ملك قشتالة أن يسير إلى الارض المقدسة صحبة الامبراطور فريديريك وملكي فرنسا وانكلترا لحرب صلاح الدين الذي بسط ملكه على معظم بلاد الشام وبلاد العرب بعد أن تخلص من آخر خلفاء مصر من أسرة القائم (38) وغدا يهدد بيت المقدس. وقد أجاب الملك بأنه لا يستطيع أن يتخلى عن الحرب التي بدأها ضد المسلمين في إسبانيا. ولما اشتد الخلاف بين فريدريك وبين اولئك الملوك الأخرين أبطلت الرحلة.

وفي سنة ألف ومائة وتسع وثمانين عقد فيليب ملك فرنسا السلم مع ريتشارد ملك انكلترا تمهيداً لتلك العملية. وقد انضمَّ اليهما كيوم ملك صقلية وعدد آخرون من أمراء المسيحيين. ولكن أمراء إسبانيا لم يتمكنوا من المشاركة فيها بسبب الحروب التي كانت بينهم وبسبب الحروب بينهم وبين المسلمين. وفي السنة التي بعدها دخل ملك قشتالة وملك أراغون في جهات عدة إلى منطقة استرمادور واقتحما حصن مغازل وباغنوس وعددا اخر من المدن ، ومنها توغلوا حتى الوادي الكبير مدمرين كل تلك الاحياء. وقد عادوا في نفس العام إلى استرامادور ودمروا ما تبقى في بلاد صاحب ماردة ثم مرا عبر جبال فريجنال إلى الشرق (39) وتوغلا حتى بلغا البحر وهما يحطمان كل شيء في طريقهما واستوليا بعد ذلك على قالاشبار وعادا الى بلديهما محملين «بالغنائم. وفي هذه الأثناء وصل الى لشبونة محاربون من الأنجليز كانوا في طريقهم لفتح الارض المقدسة فألح عليهم الدون شانجه ملك البرتغال في أن يعينوه على أخذ شلب من العرب ووعدهم بغنائم كبيرة فأجابوه لما طلب. فهاجمها الملك برا والانجليز بحرا حتى اضطر أهلها للاستسلام . وفي العام الذي بعد هذا استأنف ملك قشتالة وملك أرغون الحرب التي ابتدآها فاجتمعت لهما الجيوش ودمرا بلاد إشبيلية وقرطبة ثم عاثا في جهات مرسية وبلنسية وعادا منها محملين بالغنائم. وفي اثناء ذلك جاز بيرو هير ناندر دي كسترو ابن امير ليون إلى إفريقيا للدخول في خدمة يعقوب المنصور فاحتفى به احتفاء وعين له وفق رغبته راتبا على أراضي قرطبة وإشبيلية ثم بعثه ليتفقد حواضر الاندلس ويرتب أمورها حتى حين التحاقه به لانه كان يعد العدة للرحيل برسم غزو الاندلس. وهكذا قام بيروهيرناندز ابتداء من ربيع عام ألف ومائة وأربعة وتسعين باستنهاض جميع

(38) يقصد العاضد الفاطمي (المترجم) .

(39) وهو من أحياء إشبيلية .

المسلمين الموالين للمنصور ودخل بهم إلى البرتغال حيث أتلف كثيرا فيما بين نهر تاجو ووادي أنّه ثم أخذ أبرانت. ولما كان راجعا بالغنائم قام ضابط برتغالي بترويع معسكر المسلمين وقتل منهم عددا كبيرا. وفي نفس العام مات الدون شانجه الحكيم ملك نبره وكان شديد البأس على المسلمين ، أخذ منهم عددا من المدن (40) في النواحي المجاورة لمملكته .

وبعدما قضى المنصور على الفتن التي كانت في إفريقيا وأخضع ولايات شرق مملكته ونقل العرب إلى الغرب أعلن الجهاد الذي هو عند المسلمين بمثابة حرب الصليب عند النصارى. لان من غزا في الجهاد من المسلمين اعتقد أنه قد غُفر له ما ارتكب من ذنوبه وضمن الجنة إذا مات أو قتل نصرانيا، وهذا ما يجعلهم يسارعون إلى الدخول في جند الجهاد أفواجا دون أن يتلقوا على ذلك أجرا. وبعد أن جمع المنصور بهذه الوسيلة أربعمائة ألف من بينهم مائة ألف فارس جاز إلى الاندلس، ووصل إلى قرطبة حيث قدم للقائه بيرو هيرناندز على رأس الجند الذين كانوا تحت إمرته. ولما تم الاستعداد اتجها نحو طليطلة. وما أن سمع ألفونسو ملك قشتالة بخبر هذا الجيش العظيم حتى أرسل في طلب إنجاد امراء المسيحية في إسبانيا . ولما استبطأ وصولهم قام لمقابلة العدو بعد أن استأجر فرقا من كَاسكونيا وبروفانسيا. وجرت المعركة في يوم أربعاء على مقربة من مدينة الارك في التاسع عشر من يوليوز، وسالت فيها دماء كثيرة. ولما رأى ألفونسو أن رجاله قد دب فيهم الوهن قاتل العدو بنفسه حتى جرح بطعنة رمح في ساقه. فأبعده رجاله من المعركة وواصلوا القتال. ولما قهرهم الأعداء بكثرتهم انهزموا وتحقق النصر للمسلمين ، والتجأ قواد النصارى إلى الارك يحاولون الدفاع عن أنفسهم من وراء جدرانها ، وتمكنوا من النجاة بأنفسهم بفضل تدخل بيرو هيرناندز وبعد خروجهم وقع تدمير المدينة. وانتقل المنصور من هنالك إلى قلعة رباح فضيق عليها وأخذها عنوة. وفي حصارها مات الدون نونة دي فوينتس وهو ثالث سادة العصبة. ولما حصن المسلمون هذه المدينة عادوا الى قرطبة. وفي السنة التي بعدها مات ألفونسو ملك أرغون، وقام خلفه الدون بيدره بحروب شديدة ضد المسلمين وانتزع منهم فيها عدة حواضر (41) وألحق خسائر كبيرة بمملكة بلنسية. ولكن المنصور خرج حينئذ من

---

(40) منها : القلعة الجديدة وأليدو ولوشة وأرمايو وأرشيديو وبيجنادي وأرامون .

(41) حصن أداموس وفيك وسيرفيرا .

قرطبة ودخل بجيشة في استرامادور وفتح مدينة فرسان المعبد (42) عنوة ثم خربها. ومر بعد ذلك الى ترجالة ودخلها صلحا وحصنها ، وبعد ذلك فتح بلاسانسيا وكذا جميع المدن الواقعة على امتداد نهر تاجو إلى طلبيرة . لكن هذه المدينة الأخيرة امتنعت عليه . وبعد ذلك دمر تلك الضاحية وذهب يحاصر ترجالة ففتحها عنوة وفتح عسقلونة بعد مقاومة شديدة ثم ذهب لحصار طليطلة. وبعد أن لبث هنالك عشرة أيام تبين له امتناعها وأفسد في ضاحياتها وذهب لقتال مقودة ولكنه لم يتمكن من فتحها وعزم على التحرك إلى آبلة عبر قدم زيبريروس ولكنه علم بتحصنها وبنزول ملك قشتالة بجيشه فيها فدخل مملكة طليطلة ولكنه لم يتمكن هذه المرة أيضا من أخذها بسبب المقاومة الشديدة التي أظهرها فرسان قلعة رباح فجاء لاقامة الحصار أمام طليطلة . ولما تبين له أن حصار المدينة غير مجد اكتفى بإتلاف ما في بساتينها وعاد الى قلعة رباح بعد أن قضى هنالك أياما من شهر يونيه . بيد أن ملك ليون وملك نبرة قد قاما من جهتهما بشن الحرب على قشتالة، وكاد هذا الفعل يؤدي إلى خسران إسبانيا خسرانا كاملا. ذلك لان المنصور قد عاد لحصار طليطلة في السنة الموالية ، ولما أن جهوده ذهبت سدى رجع الى جهة مدريد فامتنع عليه أخذها كما امتنعت عليه قلعة هنارش لان الملك الفونس لما رأى أنه مضطر للتخلي عن حملته أصدر أوامره للذب عن هذه المدن، ومن ثمة مر المنصور بأوريشا وبلش ووبده وقونقه وعلرقون وهو ممعن في الافساد والتدمير دون طائل، ثم عاد إلى الاندلس ولم يعترض أحد طريقه بسبب ما كان من الشقاق بين أمراء النصارى. وقد سعى البابا (43) لانهاء تلك الخلافات فأرسل مندوبه إليهم ، ولكن سعيه لم ينجح ، ثم دعا إلى حرب صليبية. ولكن ملك قشالة طلب من المنصور أن يعقد معه هدنة فاستجاب له بسهولة نظرا للفتن الواقعة في افريقيا حيث ثارت عدة قبائل في غيابه. وكان العهد بينهما يقتضي أن يبقى كل واحد على ماكان بيده من المواقع مع إمكان القيام بتحصينه. وبعد ذلك عاد المنصور إلى بلاد البربر تاركا بيروهيرناندس دي كاسترو نائبا عنه في قيادة الجيش . وبعد رحيله تقاتل ملك قشتالة وملك ليون بضراوة أنستهما التفكير في المسلمين إلا أن ملك ليون قد ضاق في النهاية فانحاز

(42) Sainte Croix des Templiers

(43) سيليستان الثالث .

اليه بيروهيرنادس دي كاسترو ومعه ألف من حملة الرماح وعدد من الرؤساء المسلمين من أصدقائه وتعاهد معهم لمدة طويلة .

رجع إلى خبر إفريقيا. لما غاب المنصور ثلاث سنين في الحرب بالاندلس اغتنم عامله على مراكش فرصة غيابه لتحريف القبائل الموالية . ولما استمال العرب المقيمين في الجهات المجاورة دفع بالبلاد إلى الثورة. وحين علم المنصور بخبر هذه الفتنة عاد إلى إفريقيا بجيش عظيم ولم يجرؤ الثوار على لقائه بظاهر المدينة فتحصنوا بأسوارها. فحاصرها المنصور عاما كاملا بدون جدوى. ولما رأى ان الوهن أخذ يدب إلى جنوده استدعى قواده فحرضهم وأمر بإحضار سلاليم على قدر ارتفاع السور، وفي غده كانوا قد أحضروا منها أربعة آلاف (44). ولما جاء اليوم الموعود أمر باقتحام المدينة من كل جهة ، وتقدم أصحابه وهو يقول لهم إنهم حاربوا من قبل لاجل النصر والآن يقاتلون من أجل الثأر ومن أجل تخليص نسائهم وأولادهم من أيدي الغاصبين، واستمر الاقتحام ثلاثة أيام وثلاث ليال مع الاسترواح والاستمداد الدائمين. فلما أجهد الذين بداخل المدينة لجأوا إلى القصبة وبادر المنصور بدخول المدينة وأتى على كل ما وقع عليه، وهدد بالقتل كل من قام بدفن جثة من الجثث المسجاة في الازقة، ولما ذكروا له مغبة تعفن تلك الاجسام خرج من قصره وغطس بنفسه كم سترته في الدم وأدناه من أنفه قائلا : ليس أزكى من رائحة موت العدو ولا سيما إذا كان خائنا، ومنع إبعاد الجثث حتى تضمحل اضمحلالا تاما وبعد ذلك أمر بدق عظامها .

وكان العامل الذي اعتصم بالقصبة ومعه خليط من الرجال والنساء والاطفال قد قلت أقواته فاستشفع بمرابط ذائع الصيت. وكان المنصور قد أقسم أن يدخل من فوق الاسوار ، فبُينت له محلة فوق الباب فدخل منها. ولما كان في قصره جاء الناكث للسلام عليه يصحبه المرابط المذكور وعدد من شركائه في الفتنة. فارتمى على قدميه يقبلهما وهو يطلب الصفح، فلم يملك المنصور غضبه، فضربه بحذائه على رأسه، وأمر بضرب عنقه في الحين، وضرب أعناق من اتبعوه. ولما ذكره المرابط بالعهد الذي قطعه على نفسه، أجاب بأن لا عهد لمن لا عهد له (45) هذا ما وقع في هذه الثورة حسبما يذكره المؤرخ العربي الذي تحدثنا عنه. وقد أضاف

---

(44) حسب رواية المؤرخ المراكشي عبد الملك .

(45) ذلك لأنه عهد إليه بالتولي مدة غيابه .

بأن المنصورقد اشتد ندمه على نكث ذلك العهد فخرج سائحا هائما على وجهه حتى مات خبازا بالاسكندرية. يحكي أهل إفريقيا أخبارا أخرى عن هذا الملك سأذكرها عند ذكر وصف مدينة تونس. أما أهل مراكش فإنهم لما افتقدوا ملكهم الذي كانوا يكنون له محبة خاصة، وظنوا أنه رحل لزيارة قبر محمد بايعوا أخاه إبراهيم لينوب عنه مدة غيابه، ولما انقضى عام كامل دون ان يظهر له خبر بايعوا محمد الناصر ملكا عليهم وهو الذي انهزم في معركة العقاب.

وبينما كانت تقع هذه الحوادث في إفريقيا وفي إسبانيا كانت تجري في إيطاليا اضطرابات لا تقل عنها هولا بسبب الخلافات الناشئة بين الامبراطور والبابا. أما أمبراطور القسطنطينية فبعدما لحقت به الهزيمة النكراء التي ذكرناها، اغتنم الاتراك الفرصة لغزو سوريا والدخول في ولايات الامبراطورية. ولما رأى البابا ما كانت تسببه هذه الخلافات من الضرر للمسيحية سعى إلى الاصلاح، فانتقل إلى البندقية وعقد السلم مع الامبراطور الذي قبل قدميه وأعلن له الولاء. ثم عمل البابا هدنة لمدة خمس عشرة سنة بين فريدريك وملك صقلية. وتقررت هذه الهدنة في لومبارديا وتم توقيعها لما كان لوشيوس الثالث على كرسي البابوية. وأثناء ذلك مات امبراطور القسطنطينية (46) بعد أن قضى في الملك سبعا وثلاثين سنة، وخلفه ولده أليكسيس، وكان صغير السن ، لذلك كان الحاكم الحقيقي هو أندرونيق أحد أفراد أسرته ، وكانت له أطماع خبيثة في الحكم دفعته إلى قتل اليكسيس وقتل عدد من الكبراء الموالين له. وجرؤ على ارتكاب جرائم وأعمال فظيعة أدت بگيوم ملك صقيلية وبأمراء آخرين من النصارى إلى مجاهرته بالحرب، فأخذوا عددا من حواضره، بل إن أهل قسطنطينية قد تآمروا عليه وبايعوا إسحاق أحد أقارب مانويل أمبراطورا فحارب أندرونيق حتى تقبض عليه وقتله شر قتلة، وبقي يملك الامبراطورية في أمن وأمان .

أما في آسيا فإن صلاح الدين الذي ملك مصر، وعددا من مدن سوريا وأرمينيا وليقيه وما بين النهرين كان يهاجم من جميع الجهات الملك بودوان الرابع ملك بيت المقدس ويهدد أمراء أنطاكية وطرابلس وكل تلك البلاد. فهو قد استرد عددا من المدن كان بودوان يملكها في مصر وأعفى مملكة بيت المقدس من الجزية

---

(46) مانويل .

(47) دمشق وحلب .

التي كانت تؤديها لسلفه، (48) وضيق عليها، ولم يبق لها سوى الدفاع، وبينما كان البابا (49) يعمل ما في وسعه لتحريض أمراء النصارى على هذه الحرب إذ أدركه الموت في فيرون وخلفه أوربان الثالث فتابع مسعاه في التحريض ضد صلاح الدين. وبينما هم كذلك إذا ببودوان يسقط مريضا بالجذام في الناصرة فنقل إلى القدس تاركا الحكم لكي لوزيجنان وهو زوج أخته التي كان مات عنها كيوم دون مونتفيرات. وقد أغضب هذا الاختيار الامراء وقواد الجيش في سوريا (50) لانه مكن صلاح الدين من توسيع فتوحه. ذلك بأنه دخل البلاد بجيش عظيم فأخذ عددا من المدن وكان كي عاجزا عن توقيف زحفه. فاضطر بودوان إلى أن يضع الملك بين يدي أحد إخوانه ويسمى بودوان (51) هو الآخر، وقد عين حاجبا له ريمند كونت طرابلس إذ كان بودوان ما يزال طفلا صغيرا. ولكن كي لوزيجنان كان قد استحوذ على بعض الايالات، فما أمكن إخراجه منها. ثم إن بودوان العم وابن أخيه بودوان الصغير قد ماتا في تلك السنة. فتفاوض كي لوزيجنان مع بطريق بيت المقدس وكبرائها فاعترفوا به ملكا لان زوجته هي أخت الامبراطور الراحل. وتغيظ لذلك ريمند فحطم ما بقي من معالم الدولة وذلك أنه عقد السلم مع صلاح الدين ووعده بعدم إنجاد ملك بيت المقدس، وهذا ما جعل صلاح الدين يبادر بالهجوم كما قام بإرسال فريق من جنده لقتال أمير أنطاكية حتى يشغله عن إنجاد ملك بيت المقدس. ولما تبين لريمند أن المسلمين أخذوا يتمكنون يوما عن يوم من الأرض المقدسة اعترف بذنبه، لانه يعلم أن دوره آت بمجرد تحطيم مملكة بيت المقدس. فعقد السلم مع كي لوزيجنان وبعث جيشه لإنجاد عكا، واضطر لذلك صلاح الدين إلى رفع الحصار وإظهار نقمته على ريمند بحصار طبرية التي كانت في ملكه. وعندئذ قام ملك بيت المقدس وكونتات أنطاكية وطرابلس وكبار فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية وبقية أسياد البلد بالانضمام إلى بطارقة القدس والاسكندية وغيرهم من الاساقفة فجمعوا جيشا بلغ تعداده حتى ثلاثين ألفا من الفرسان وأربعين ألفا من المشاة بقصد فك الحصار، وبلغ الخبر إلى صلاح الدين

---

(48) إيمري .

(49) لوش الثالث .

(50) بويمند صاحب أنطاكية وريمند كونت طرابلس والجليل وطبرية الخ ...

(51) بودوان ابن سيبيلا والماركي دومو نتفيرات .

فزحف للقائهم وقد عولوا على النزول بموقع موات لقربه من مجرى مائي صغير، ولكن صلاح الدين سبقهم إليه فخاب أملهم فأنهكهم العطش والتعب، ولما يئسوا من زحزحته عن معسكره الذي سبق إليه نزلوا في بادية قاحلة. فما كان منه إلا أن ناجزهم القتال في غده وهم على غاية التعب ففعل فيهم مذبحة عظيمة، وكان جيشه أكثر عددا من جيوشهم وأسر ملك بيت المقدس في المعركة وتمكن ريمند من الفرار من أسره ولكنه مات فجأة بعد ذلك، أما بويمند فقد وقع في الاسر وقتل هو وفرسان الاسبتارية من أهل بيت المقدس الذين وقعوا في أيدي العدو، وكذلك كان مصير عشرين ألفا من النصارى، ولما انتصر صلاح الدين عاد لحصار عكا وأخذ برزية وعددا من المدن الاخرى وكان سكانها يبادرون إلى الاستسلام لما رأوا من معاملته الحسنة لهم، ويئسوا من انتظار النجدة ، وقد انتقل صلاح الدين إلى بيت المقدس وحاصره ودامت المقاومة شهرا كاملا ثم دخله صلحا. (52) وكان النصارى قد ملكوا فيه أربعا وثمانين سنة حكم فيها تسعة من الملوك. (53) ومنذ هذا العهد خرج من حكمهم وإن ظلوا زهاء قرن من الزمن يحكمون عددا من المدن في سوريا. صحيح أن الامبراطور فريدريك قد استعاد بين المقدس، ولكنه لم يلبث فيه إلا زمنا يسيرا كما سنذكر فيما بعد . ثم إن أنطاكية وصور وصيدا وطرابلس والمدن الأخرى كانت مهددة بالوقوع تحت نير المسلمين(54) لان صلاح الدين قد استولى على جميع مدن الضفة الغربية لنهر الاردن. ثم ان فريدريك آلمانيا، وكان طاعنا في السن منهوكا بما خاضه من حروب قد عزم بحماس كبير على أن يبذل كل قواه لاستعادة الارض المقدسة. وحذا حذوه في ذلك المسعى العزيز ملك فرنسا وملك انگلترا وعدة أمراء آخرين من أمراء النصرانية. وكان البابا أوربان قد مات وخلفه گريگوار الثامن ، فلم يبق على كرسي البابوية سوى سبعة وخمسين يوما . ولما رأى خلفه كليمان الثالث أن صلاح الدين قد تقدم بعد احتلال بيت المقدس مستوليا في إمارة انطاكية على خمس وعشرين مدينة قام بتحريض جميع أمراء النصرانية لكي يجتمعوا لحربه، وبادر عدد منهم الى الاشتراك في حملة صليبية، وكان السبق للامبراطور فريديريك الذي حشد جيشا عظيما من الفرسان والمشاة

(52) في 2 أكتوبر 1187 .
(53) گودفروا وبودوان الأول وبودوان الثاني وفولك وبودوان الثالث وإيمري وبودوان الرابع وبودوان الخامس وگي دولوزيجنان .
(54) عبّر عنهم كذلك بالكفار .

فتوجه الى القسطنطينية عن طريق البحر وبلغاريا وطراقيا يرافقه فريديريك دوق صواب وولده برتراند دوق مورافيا وأخوه الماركي دوباد وعدداَخرون من الدوقات والكونتات وعدد من الاساقفة والمطارنة. ثم تبعه فيليب ملك فرنسا وريتشارد ملك انكلترا وأوطون دوق بوركَونيا ومولوية البندقية وبيزة وكان في هذا العهد يتوفر على قوة بحرية معتبرة . ثم ان كونراد ماركي مونتفيرات وهنري كونت شامبانيا وعدد آخر من سادة إيطاليا وفرنسا وإسبانيا قد أبدوا رغبتهم في المشاركة في هذه الحملة. وقد انطلقت من فريز والدانمارك خمسون سفينة. (55) وجهز كونت فلاندرا اثنتي عشرة سفينة وجهز كَيوم ملك صقيلية ونابولي أربعين من القوادس بجميع أنواع عدة الحرب والأقوات وذلك لخفر الصليبيين وتأمينهم في البحر من القراصنة. وأثناء ذلك مات سلطان قونية (56) وكان قد دخل فريجية بجيش عظيم واستولى فيها على عدة مدن عنوة أو صلحا وقد خلفه ابنه بعده (57) ولما وصل الامبراطور فريديريك إلى القسطنطينية علم بأن كَي لوزيجنان قد هرب من السجن وأنه استطاع جمع شرذمة من الجند وقطع متعجلا نهر هيليوبت وبعد أن عقد السلم مع امبراطور القسطنطينية دخل آسيا الصغرى وقطع أرض الامبراطورية دون أن يعترض طريقه معترض. ولما وصل أرض خسروه عقد معه السلم وتعهد بالمرور دون أن يحدث فتنة إذا ما قدم إليه ما هو بحاجة إليه من الزاد ولكن خسروه نكث عهده وفعل ما في وسعه للقضاء على ذلك الجيش، فجمع العساكر واستولى على الممرات. هكذا بدأه الامبراطور بالحرب ولكنه لم يصل إلى قيليقيو إلا بصعوبة بسبب استيلاء المسلمين على المضايق ولما وصل الى السهل(58) قاتل السلجوقي وهزمه وأسر أخاه ثم تمكن بعد ذلك من الاستيلاء على قونية ومعظم جهاتها . وتحكى عن فارس (59) ألماني من جيشه غرائب من قبيل الخيال لولا أن الذي ذكرها هو مصنف معاصر، (60) فقد كان يتبعه على قدميه وزمام فرسه بيده وكان في غاية التعب عندما هاجمه خمسة من الجنود الاتراك، وفي رباطة جأش ضرب أول الجنود ضربة

(55) في الهامش : يقول المؤلف إنها زوارق .
(56) قلج أرسلان .
(57) خسروه .
(58) قرب قونية .
(59) Copatin
(60) Nicétas Coniate

على رأسه فشقه إلى سرجه . ولما شاهد الآخرون ذلك ذهلوا ولم يحركوا ساكنا. وقد رفع انتصار الامبراطور معنوية النصارى وفت في عزم المسلمين(61)، ثم ان كي لوزيجنان، وأخاه إيمري اللذين لجآ إلى طرابلس وصور مع عساكرهما قد ذهبا لحصار عكا حتى يمهدا لنزول أمراء النصارى وخاصة جيوش فرنسا وجيوش انكلترا. وأثناء ذلك وقع أن الامبراطور فريديريك أراد الاسترواح في يوم قائظ فنزل إلى نهر (62) فغرق فيه ومات (63) قبل أن يدركه أصحابه فكان ذلك حدا لامجاده، وتشتت جيوشه. ولما كانت المصائب لا تأتي إلا مجتمعة فان سيبيلا زوجة كي لوزيجنان قد ماتت بنزيف دموي أثناء الحصار. ولما كان لها أربعة أولاد فقد وقع النزاع بين أمراء النصرانية على خلافتها لان هيرفرند الذي كان قد تزوج أخت إزابيلا أراد أن يعلن نفسه ملكا. ولكن ماركي مونتفيرات (64) انتزع منه زوجته مدعيا أن زواجه بها لم يكن شرعيا. ولما تزوجها هو صار يطالب بالعرش لنفسه. ولما كان على صدر فإن كي قد أخفى هذه الفعلة . ثم إن جيش الامبراطور (65) الذي اختار ولده لخلافته قد اتخذ الطريق إلى سوريا بقيادة اثنين من كبار الفرسان كان الملك كي قد بعث بهما إليه. ولكنه لم يصل إلى أنطاكية حتى ذهب الطاعون بمعظم جيشه. وقد ركب البحر مع الباقين ، فلما وصل إلى صور ترك هنالك جثمان أبيه وذهب لحصار عكا التي وصل إليها فيما بعد ملك فرنسا وملك انجلترا. وطال الحصار عامين، ومات الملك أثناءه واستمات أهل المدينة في الدفاع قبل أن يستسلموا لانهم كانوا يتوفرون على كل ما هم في حاجة إليه. وقد انهزم صلاح الدين في عدة جولات، ولما تبين له أنه غير قادر على الاحتفاظ بجميع المدن قام باخلاء قيصرية وعسقلون وغزة ويورفيريا وعدد من المدن الاخرى . وكان على وشك تسليم بيت المقدس مقابل الهدنة لمدة معينة لو لم يدب الخلاف بين ملك فرنسا وملك انكلترا، مما اضطر الاول إلى الرجوع تاركا شطرا كبيرا من جيشه لدوق بوركونيا. وبغيابه استعاد صلاح الدين آماله وإن كان الملك ريتشارد المطاع من قبل الجميع قد استمات في مقاومته حصن يافا باسترداد عدد من المدن الاخرى

(61) يعبر عنهم دائما بالكفار .
(62) قرب سيتيا .
(63) في 10 يونيه 1190 .
(64) كونراد .
(65) فريديريك .

التي تخلى عنها، وأثناء ذلك قام الاسرى الاتراك الذين كانوا في صور بقتل ماركي مونتفيرات الذي كان قد سمي باسم ملك بيت المقدس ، وتزوجت أرملته بأحد أقارب ملك فرنسا يسمى هنرى حملت إليه في صداقها إمارة صور وحقوقها المزعومة في بيت المقدس . ثم إن ريتشارد قد كافأ كي لوزيجنان بإعطائه جزيرة قبرص التي كان قد فتحها قبل التخلي عن مملكة بيت المقدس، وقد استلم تلك الجزيرة وظل عقبه يحكمونها بعده إلى أن ساد عليها البنادقة بعد وفاة امرأة تنتمي إليهم كانت أميرة الجزيرة وماتت دون أن تخلف ولدا وتركتهم ورثة لها. وقد ملكوها مائة عام ثم فتحها الاتراك كما سنذكر ذلك في موضعه . وأثناء ذلك كان صلاح الدين قد حشد جنوده وقاتل النصارى فانهزم واضطر إلى الانسحاب إلى دمشق ومنها بعث يطلب السلم من ريتشارد على أن يسلم له بيت المقدس. وفي أثناء ذلك وقع أن دخل ملك فرنسا إلى نورمانديا، وكانت تابعة للملك الأنجليز، ووقع أيضا أن انسحب أسطول بيزة والبندقية بسبب تذمر رجاله، فاضطر ريتشارد إلى التعاقد مع صلاح الدين تعاقد الند للند، فاتفقا على هدنة تدوم خمس سنوات . وبعد أن ترك ريتشارد حاميات في المدن المحصنة تحت إمرة أوطون دوق بوركونيا وهنري صاحب صور وفرسان الدواية وفرسان الاسبتارية المنتمين إلى بيت المقدس ركب البحر إلى انكلترا. ولكنه وقع في طريقه في قبضة دوق النمسا. وتعرض لنكبات أخرى لن نذكرها لانها ليست من موضوعنا.

وبينما كانت تجري هذه الحوادث في سوريا كان الاتراك يعانون هم أيضا من الخلافات بعد موت قلج أرسلان سلطان قونية الذي تقاسم الملك أولاده الأربعة. لانه ترك لابنه مسعود مدن أماسية وأنقيرة ودوريليه وعددا آخر من مدن المجاز ، وترك لقوباطين مدن ميليتين وقيصرية وكولون وهي اليوم تعرف بتوشار. وترك لروقراطين مدن ميسية ودوقيه ومدنا أخرى على طول الساحل، وترك للشاه خسروه مدن قونية وليفاونية وبامفيليا وجميع جهاتها حتى قوتيان، وقد رأينا أن الامبراطور فريديريك انتزع من هذا الاخير مدينة قونية ولما مات قوباتين ثار نزاع كبير بين إخوته على توزيع ولاياته. وبلغ الامر بمسعود الى التقاتل مع روقراتين وانهزم الاول وفقد أملاكه، ولكن روقراتين الذي انتصر عليه طمع في الاستيلاء على قونية عاصمة

---

(66) إزابيلا .

الامبراطورية فاعلن الحرب على خسروه الذي دخل إلى هذه المدينة بعد موت فريديريك، فقد كان روقراطين يدعي أن خسروه لا يجوز له أن يتولى الملك لان أمه نصرانية. وهذا ما جعل خسروه يلجأ الى أمبراطور القسطنطينية، ولما لم ينل منه عناية خاصة دخل قونية واعتصم بها، ولكن ما كاد يدخلها حتى جاء أخوه وحاصره. ولما لم يكن ينتظر منه القيام بأمر ذي بال بسبب ضعفه فإنه قد فر إلى ليبان في أرمينيا، فلم يستطع الحصول هنالك على ما طلبه من النجدة واختفى في القسطنطينية حيث عاش مغمورا إلى أن مات.

وأثناء ذلك مات صلاح الدين في بيت المقدس وقد ترك امبراطوريته لخمسة أبناء كما وقع للسلجوقي. وكان من نصيب علاء الدين وهو ابنه البكر مصر ودمشق وحكم الاخرون سوريا وبلاد العرب. وكانوا كلهم يعترفون بالولاء المعنوي للخليفة في بغداد، لان صلاح الدين وإن كان قد قتل خليفة مصر لم ينكر الاعتراف بسلطة خليفة بغداد باعتباره خليفة لمحمد، وقد بقي أبناؤه على الاقتداء به في ذلك بعد موته، معتمدين في حكمهم على ميليشيا من المماليك كان أسسها صلاح الدين كما سنذكر فيما بعد .

وفي عهد امبراطور الغرب هنري السادس قام البابا سيليستين يريد أداء واجبه في حماية المسيحية، فحض أمراء أوربا على التجهيز لقتال المسلمين. وهو واجب على الامبراطور بصفة خاصة اعتبارا أن الهدنة قد بطل العمل بها بموت صلاح الدين. وبما أن امبراطوريته قد تجزأت إلى عدة أطراف فقد كان من الايسر استعادة بيت المقدس . ولما تعذر على الامبراطور الذهاب شخصيا إلى هذه الحرب لانه كان يخاف أن يؤدي غيابه إلى وقوع اضطرابات في ولاياته حيث لم تتوطد سلطته بعد، أرسل إليها جيشا قويا يقوده **مطران** مايانس يساعده مطران راتشبونه وبيرنار دوق الساكس وكونراد مستشار الامبراطرية وليوبولد دون إيستريا ولانجراف وتورانجيا ودوق برابان وعدد آخرون من الماركيات والكونتات ومن نبلاء السادة وكلهم شدوا الرحال بتقوى لارياء فيها، وبعد أن قاسوا من الشدائد ما لا يحصى في البر والبحر ساعدهم إسحاق أمبراطور القسطنطينية ووصلوا إلى سواحل فلسطين ونزلوا في مرسى صور ومرسى عكا حيث أخذوا يستعدون لخوض الحرب . ولما مات كي لوزيجنان ولم يخلف ابنا وارثا من الذكور خلفه أخوه في إمارة قبرص . ولما مات هنري صاحب عكا الذي تزوج زابيلا بنت بودوان وكان

يطالب بإمارة بيت المقدس، فإن إيمري قد تزوج أرملته واتخذ لقب أمير قبرص وبيت المقدس . وقد انضم رجال الامبراطور إلى رجاله وإلى فرسان الاسبتارية وفرسان الداوية، فانتزعوا بعض المدن من الاعداء(67) وكسروا شوكة المسلمين. وبعد أن أعادوا بذلك الامل لنفوس المسيحيين ورتبوا أمور مملكة الشرق تركوا حكمها لايمري وعادوا إلى بلادهم . ولكن تخاذله وعجزه عن الحكم جعل قواد جيشه يخلعونه ويولون مكانه جان دوبريني الشجاع الذي كان قد تزوج إحدى بنات زابيلا فأتت به من فرنسا لهذا القصد.

وبينما كان يحدث ذلك وقع من أليكسيس أن تنكر لاخيه إسحاق أمبراطور القسطنطينية الذي كان ينعم عليه بإحسانه فتآمر ضده مع عدد من الثوار وتقبض عليه وسمل عينيه واتخذ لقب الامبراطور. ولكن اليكسيس ابن أخيه إسحاق قد فر من طغيان عمه ولجأ الى حضرة أمبراطور ألمانيا(68) الذي كان قد تزوج أخته، ولكنه لم يحصل منه على عون بسبب الاضطرابات التي وقعت في الامبراطورية ، فما كان منه إلا أن سار إلى البندقية فوجد هنالك بودوان كونت فلاندرا وأخاه هنرى وبونيفاس ماركي مونتفيرات ولدي كونت سافوا وعددا آخرين من الأمراء والنبلاء . وقد جاءوا بعدد كبير من الجيوش استجابة لنداء البابا إنوسونت قصد فتح بيت المقدس. فاتفقوا جميعا ومعهم البنادقة على أن يعينوه وأن يعيدوه إلى كرسي الامبراطورية، فعاد إليها وحكم بمعية أبيه الأعمى. ولم يمض سوى وقت قليل حتى مات إسحاق فقام أولئك المنجدون لقتال ابنه اليكسيس مدعين أنه لم يف بوعده. وقام ميرتيل الذي كان إسحاق قد انتزع منه أملاكه بقتل الامبراطور أليكسيس غدرا ، ولم يمض عليه في الانفراد بالحكم سوى شهر واحد، ولما هاجم الامبراطور قام إليه أولئك المنتصرون وهزموه وطردوه. وبعدما أخذوا القسطنطينية وجميع جهاتها ورأى أن ليس هنالك من خلف شرعي قاموا بمبايعة بودوان كونت فلا ندرا امبراطورا . وما لبث البابا أن بارك ذلك الاختيار. وبعد ذلك قسموا بينهم حكم الاقاليم فأعطيت جزيرة كاندي وجزيرة نيگروبون للبنادقة أما بونيفاس ماركي مونتفيرات فكان من نصيبه إقليم تيساليا، وقد تلقب بالملك . أما الكبراء الاخرون فكانت من نصيبهم مناطق أخرى. ولكن اليونانيين لم يرضوا

(67) أخذ بيرزيت واستعيدت يافا .

(68) فيليب إيرين .

بذلك الانتخاب فاختاروا تيودور لاسكاريس أمبراطورا وهو صهر أليكسيس الغاصب فأقام عاصمته في مدينة أدرنة ، ولم يكتف بامتلاك بيثينيا وجهاتها . بل جاز إلى الضفة الاخرى جهة الشمال حتى بلغ بحر قاليقيا ومنطقة قابادوشيا فاستقر في نيقيا بيد أن يودوان قد وضع الحصار أمام أدرنة ومات وهو محاصر لها وترك أخاه خلفا له، (69) بينما ذهب الطاغية أليكسنيس في بحر إيجه متنكرا في ثياب الحجاج ليطلب من السلجوقي مساعدته على العودة إلى أمبراطوريته بمقتضى التحالف الذي كان بين أجداده وبين أباطرة اليونان . وقد جعلته أوهامه المشفوعة بالوعود المعسولة التي تلقاها يطلب من الامبراطور ثيودور التنازل له عن الامبراطورية. ولما أجابه بالرفض ذهب لحصار مدينة أنطاكية على نهر مياندر، وقام تيودور من جهته بجمع جيوشه وقد اطمأن لقدرتها وتجربتها لانها ضمت قدماء الجنود المحنكين فجاز مضيق جبل أولمب الذي يمتد من بيثينيا من جهة الشمال إلى حد فريجيا جهة الجنوب، ولما قطع نهر قنستر وجد نفسه في اليوم الحادي عشر وهو يواجه الاعداء، وكانوا يسيرون في غير نظام وهم غافلون عندما أخذوا على غرة، فانهزموا قبل أن يستبينوا أمرهم، وهلك معظم جيشهم في ذلك اللقاء ، وأقدم الامبراطور على قتل السلجوقي بيديه، وقبض على أليكسيس دون أن يؤذيه أو يسجنه. وبذلك انكسرت شوكة الاتراك لمدة من الزمن .

(69) بقي بودوان وخلفاؤه على الامبراطورية ستين عاما .

الفصل السابع والثلاثون

أخبار محمد الناصر ملك مراكش من نسب الموحدين وما حدث في عهده من الوقائع

لما تولى محمد الناصر محل أبيه أقر أمير تلمسان وأمير تونس في إمارتيهما وكذلك فعل مع عامل نوميديا وعامل ليبيا(70). ولما كان محبا للحرب فإنه رغب في وقف تقدم ملك قشتالة (71) الذي كان قد انتزع من المسلمين عددا من المدن، فخرق الهدنة التي عقدها معه والده. وهكذا جاز إلى إسبانيا ومعه ستة وعشرون ألفا من الفرسان وثلاثمائة ألف من الراجلة، وهذا عدد لا يصدق لولا أن كل المؤرخين من عرب وإسبان متفقون عليه. وقد صحبه كبار من المسلمين. وقد انطلق بهذا الجيش الرهيب من قرطبة في شهر يونيه ودخل إلى قرى قلعة رباح وحاصر شلبطرة وكان سكنها فرسان عصبة قلعة رباح الذين انتزعوها قبل وقت قصير من المسلمين. وقد طال حصار هذه المدينة الحصينة وحصار حصن مجاور لها (72)، وكان سيطول مدة أكبر لولا أن مات كبير سادتها (73) وعدد من الفرسان الشجعان، وبعد ذلك وقعت مداهمة المدينة وخربت عن آخرها. وقد ادعى العرب ان كبير فرسانها قد وافق على تسليم المدنية إذا لم تصله النجدة في أجل من الزمن. ولما أعلم الملك بذلك وكان في الحرب بجليقية أجاب بأنه لا يستطيع إنجاده فأسلم المدينة وعاد المنتصر إلى قرطبة. وبعد ذلك قدم الملك ألفونس إلى طليطلة بعد عقد الصلح مع أهل جليقية. ولما رأى أن محمدا قد انسحب أرسل ولده الدون فرديناند وطائفة من جنوده ليعيثوا فسادا في جهات ترجاله ومنقانجش ومنها كان

---

(70) يقصد المغربين الاوسط والادنى (المترجم) .

(71) ألفونس .

(72) Castille de Dios

(73) الدون مارتين .

(74) في جبل القديس فانسان

رجوعه إلى طليطلة فأصابه المرض، ومات بعد ستة أسابيع ومات أيضا الدون شانجه ملك البرتغال وترك خلفا له الدون ألفونسو الثاني الملقب بالبدين.

وحينئذ دعا البابا إلى حملة صليبية ضد المسلمين وجمع لها عددا كبيرا من أهل طليطلة وفرنسا وإسبانيا وإيطاليا وبروفانسيا وغيرهم. ثم إن ملك قشتالة ومعه أهل مجريط ووادي الحجارة ووبذة وقونقة وبلش وكبراء المملكة قد استولى على عدد من الحواضر (75) التي كانت بأيدي المسلمين . ولما رأى أنه قد تجمع بطليطلة عدد كبير من الاجانب عاد إليها لترتيب أمورها. وكان بعد استيلائه على شلبطرة قد أرسل كبير أساقفة طليطلة إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا لطلب الانجاد ضد محمد (الناصر) الذي كان قد أقسم ليهلكن المسيحيين. ثم إن البابا أعلن في كل مكان عن صكوك غفران كثيرة لكل من يذهبون إلى تلك الحرب، فكان أن تقاطر إليها المتطوعة من كل فج عميق ووقعت فتنة بالمدينة يوم الاحد من أيام الزفر وهلك فيها عدد من اليهود والاجانب. وكاد يستفحل أمر الاضطراب والشغب لولا أن ملك قشتالة وملك أرغون قد دخلا المدينة في يوم الرفات واستعملا الحكمة والهيبة في تهدين تلك الروعة. بيد أن الصليبيين الجدد الذين كانوا يصلون كل يوم قد أطالوا المكوث في طليطلة وجهاتها حيث أكثروا فيها الفساد قبل أن يتلقوا الامر بما كان عليهم أن يفعلوه. وأخيرا قام الامراء بدق الطبول في الثاني عشر من يونيه وساروا قاصدين الاستيلاء على مدينة كانت بأيدي المسلمين (76) ونهبوا كل ما كان فيها ، ومنها انتقلوا إلى قلعة رباح وشددوا عليها الحصار حتى استسلمت لهم، ثم أخذوا الارك وبينفونت وبيدرا بوينا وحصن كركوي ومنها جازوا عبر مضيق المورادال فهجموا على كاستل فيرات وأخذوها وهنالك شغّب الاجانب لان الملك أمر بكف يد النهب عن قلعة رباح، وعاد فريق منهم إلى طليطلة بقصد نهبها، فأغلق سكانها الابواب دونهم كما لو كانوا من الخونة . وكان ذهابهم شديدا على ملك قشتاله وملك أرغون وتسببا في إضعاف قواتهما لان عدد المنسحبين لا يقل عن ألف فارس وخمسين ألفا من الراجلة ومع ذلك لم يتوان الملكان في مسيرتهما سيما وأن الدون شانجه ملك نافار قد التحق بهما في الارك ومعه عدد من جنوده الكفاة. ولما بلغ خبر هذا الاستعداد العظيم لمحمد الناصر أرسل في طلب مقاتلين آخرين من

(75) Iorquéra , Las Guévas , Alcala

(76) Malgon

افريقيا فاجتمع له جيش لم ير مثله قط في إسبانيا. ولما وصل إلى بياسة علم أن الاجانب قد انسحبوا من الحملة الصليبية، واقترب من سفح المورادال وهو مغتبط اغتباطا شديدا، فاستولى على ممرات اللوشا الواقعة في واد شديد العمق غير بعيد عن وسط هذه الجبال حتى يتسنى له في ذلك الموقع التفوق في قتال النصارى. ولما وصل الملوك إلى ذلك المكان وراوا أن المسلمين قد استولوا عليه اندهشوا أيما اندهاش وعقدوا العزم في النهاية على أن يمروا عن طريق سهول طولون فقاتلهم المسلمون أربعة أيام كاملة لصدهم عن المرور. وفي الصباح الباكر من أحد أيام الاثنين دفع أمراء النصارى بجيوشهم إلى المعركة. وكان في الصدارة الدون دييغولوبيز دي هارو ومعه الدون روي دياز دي كانتانس وجمع الفرسان والاحبار من الممالك الخمس ، وكان ملك نبرة في الميمنة وملك أرغون في الميسرة وملك قشتالة في القلب وكل كان مع جنود بلده . وعلى هذا النظام تقدموا غير آبهين لملاقاة المسلمين (77) الذين كانوا كامنين في انتظارهم بنية الصمود والمقاومة. وبدأ الدون دييغولوبيز دي هارو بالقتال وكاد ينكسر بدفعة شجاعة من المسلمين لو لم يدركه بالانجاد أمير نبرة . كان هذا الملك على وشك الاضطرار إلى التقهقر في الاخير هو وكبير أساقفة طليطلة والحشد الاعظم من الجيش. وحمي الوطيس وأسفر عن انهزام المسلمين، ويقال إن عدد من هلك من الراجلة أكثر من مئة وخمسين ألفا وهلك معهم خمسة وثلاثون ألفا من الفرسان، ولاذ محمد الناصر بالفرار ومعه عدد من رجاله، ووقع ماكان بمعسكره من المتاع والعدة بأيدي الغالبين، وكانت خسارتهم قليلة وغنيمتهم كبيرة، وجرى تعقب المسلمين حتى أبذة (78) وقد التجأ إليها أهل بياسة وأهل باغنوش والمدن والحصون التي تخلى عنها المسلمون وحوصرت وبذة وفتحت وأخذ منها أكثر من خمسين ألف أسير. وتركت تلك المدن خالية واقتصر ألفونسو على تعمير القنشة وباغنوش وطولوز، وفيرات، وكانت هذه المعركة **عام أحد عشر ومائتين وألف الموافق لعام سبعة عشر وستمائة للهجرة وإن كان بعض المؤرخين العرب نصوا على أن وقوعها كان عام تسعة وستمائة** (79). ولكنهم متفقون على القول بان عدد من سقطوا فيها من المسلمين ستون ألفا وفيهم قائد الجيش وكان أشجع أهل زمانه من بين الافارقة .

(77) يعبر عنهم كذلك بالكفار .

(78) سماها المسلمون كذلك بسبب نصر عظيم حققوه فيها عند فتح الاندلس .

(79) الذي عليه جل المؤرخين أنها وقعت في الرابع عشر من صفر عام تسعة وستمائة هجرية ويوافق السادس عشر من يوليوز عام اثني عشر ومائتين وألف . وحتى على فرض أنها وقعت سنة 1211م . فمرافقه عام 610هـ (المترجم) .

الفصل الثامن والثلاثون

ذكر نهاية عهد الموحدين وبداية عهد بني مرين الذين تلقبوا بملوك فاس وذكر الحروب التي وقعت منذ ذلك العهد وحتى عام ألف وأربع مائة وواحد وسبعين

لم يطل مقام محمد الناصر في اسبانيا بل إنه عاد إلى بلاد البربر تاركا إمارة الجيش لاخيه أبي سعد (80) الذي سمي منذئذ بملك بلنسية . وقد عاش الناصر بعد رجوعه الى بلاده في غم شديد وسط مقت رعاياه الذين كانوا يرون أنه قد جر الهزيمة بجبنه وتصرفه الشائن . ولما مات ترك العرش للسعيد بن الرشيد (81) وهو من أحفاده، فثار ضده جميع عمال الولايات ولاسيما عمال تلمسان وفاس وتونس. وأول ثوار إفريقية من قبيلة زناتة يسمى يغمراسن بن زيان من بني عبد الواد الذين سبق لهم ملك تلمسان وكان قد دان بالطاعة للموحدين، وقام بإثارة المملكة كلها. ولما عجز عن مقاومة السعيد لجأ عند مجيئه إلى قلعة وتحصن بها، ولما أشرف على الهلاك أرسل أحد أبناء عمومته إلى السعيد وتظاهر له بالشقاق مع يغمراسن وعرض عليه أن يدله على مكان يسهل منه اقتحام القلعة ودخولها ولما تبعه السعيد ليقف على ذلك المكان تمكن منه وقتله وفر إلى القلعة . ويذهب بعضهم إلى القول بأن ذلك كان بتآمر مع بعض عمال الولايات الذين بيتوا نية الانتقاض ، وماج الجيش بموته واضطرب حتى إن يغمراسن قد تمكن من هزمه والانتصاب على إمارة تلمسان حتى وفاته وأوصى بأن يتسمى خلفاؤه من بعده ببني زيان بعد أن كانوا يدعون ببني عبد الواد . وبعد موت السعيد قدم الموحدون عمه عبد القادر (82)

(80) يقصد السعيد (المترجم) .

(81) الذي تولى بعد محمد الناصر أخوه يوسف المنتصر ثم ابنه عبد الواحد ثم عبد الله العادل بن المنصور ثم المأمون ابن المنصور ثم ابنه عبد الواحد الملقب بالرشيد ثم أخوه السعيد وهو المقصود هنا، لأن يغمراسن ثار في عهده (المترجم) .

(82) الذي تولى بعد السعيد هو أبو حفص عمر بن ابراهيم ويلقب بالمرتضى ولم يخلص له الملك إذ خرج عليه أبو العلاء إدريس المعروف بأبي دبوس الملقب بالواثق .

ولكنه كان ضعيفا فشاركه كثير من الادعياء من أسرته في الملك وظهر عدد من الامراء الصغار. فقد ظهر عبد الحق عامل الموحدين على فاس وكان من قبيلة زناتة من فرع بني مرين وصارت له شوكة وقوة ، واستحوذ أخوه يعقوب على مدينتي الرباط وأنفا بإقليم تامسنا وهزم الموحدين في معركة بين فاس ومكناس ففروا إلى مراكش، بذلك الانتصار زاد ظهور بني مرين وقوتهم، ذلك لان الملك قد صار بعد موت عبد الحق إلى ابنه، وكان عمه وصيا عليه. (83) ولما مات هذا الولد ظل العم سيد الدولة وتلقب بملك فاس وسمي **بمولاي الشيخ أو الملك القديم** كما كان يسميه رعاياه لانه كان حتى في حياه ابن أخيه يحكم الدولة بصفته أميرا على مكناس. واسم مولاي هذا يعني السيد ولا يُعطى إلا للملوك والامراء من النسب فهو مرادف لسلطان الذي يعني الملك وهم يستعملون هذا وذلك بدون تمييز. وبالاضافة إلى من ذكر ثار محمد بودبوس وهو عم السعيد بمنطقتي تادلا ودمنات وتحزب مع ملك فاس بإعطائه المنطقة الاولى ليستنجد به في قتال ضد عبد القادر. ولما علم سلطان مراكش بذلك الاتفاق وبزحف جيوشهما اليه لم يطق البقاء في عاصمته فكان ان استولى عليها أبودبوس وأرسل في أثره أحد قواده فلحق به وقتله في سجلماسة. ولما تحقق النصر لابي دبوس نكث عهد أبي يوسف وأعلن الحرب عليه باسم الموحدين قصد إخراجه من إمارة فاس التي كان قد انتزعها منهم. وكان ذلك سبب حرب ضروس انتهت بانهزام ابي دبوس وموته ثم فتح أبو يوسف مدينة مراكش. وبذلك صار لبني مرين ملك المغرب الاقصى (موريطانيا الطنجية) بصفة دائمة وسادوا في فترات مختلفة على مملكة تونس ومملكة تلمسان. وكان من عمال الموحدين من أبقوا على ما بأيديهم مقابل الاعتراف بسلطان فاس. فمنهم من كانوا في جبال الأطلس الكبير. وفي بعض الاماكن من إمارة مراكش، مواطن قبيلة مصمودة العظيمة مهد الموحدين وأصل الهنتاتيين الذين كانوا أمراء تونس .

رجع الخبر إلى إسبانيا. فبعد أن خسر محمد الناصر المعركة التي جرت في سفح جبال المودارال (84) وهي التي تحيي الكنيسة ذكراها كل سنة في السادس عشر من يوليوز، وبعد أن رجع الملك الفونسو منتصرا إلى طليطلة ضم المسلمون

(83) المتولي بعد عبد الحق بن محيو المريني هو ولده أبو سعيد عثمان ولم يذكر أنه كان محجورا (المترجم)

(84) أو سهول طولوزا .

في جيان وغرناطة وقرطبة قواتهم إلى ماتبقى من جيوش إفريقيا وذهبوا لغزو حصن باغنوش وحصن طولوزا وحصن فيرات . ولما تعذر عليهم أخذ أي منها حاصروا حصن القنشرة وقاتلوا أهله مدة اثنى عشر يوما، ولما أرسل إليه الملك الفونسو طرفا من جيشه (85) تحت إمرة مارتين نونه غنصالة لم يطيقوا لقاءه ففكوا الحصار وقام ذلك الجيش بأعمال الفساد في جهات جيان وغرناطة وعاد محملا بالغنائم إلى طليطلة في آخر شهر شتنبر. وأما المسلمون (86) فقد تجمعوا في مدينة لوشه التي كانوا يسمونها حصن لوشه، وانتلقوا منها لغزو قلعة بني سعيد وهي اليوم قلعة الملك، فتم لهم أخذها . وفي العام الذي بعده جمع الملك ألفونسو جيوشه واستعدادها. وقد أخذ حصن لوقوبين في شهر فبراير. ومنه تابع غزوه بحصار قلعة الاله ومعه نبلاء قشتالة وفرسان الطوائف الدينية. وقد انضموا إلى عساكر طليطلة ومقودة وعسقلونة . ولما أخذها (87) وأخذ حصن ابن الجوهر انتقل إلى مدينة الكرن وهلك قبل التمكن منها ألفان من النصارى بما استمات أهلها في الدفاع . وبعد ذلك ذهب لحصار بياسة وكانت بيد أبي محمد ابن عم محمد الناصر. ولما امتنع عليه أخذها عقد الهدنة مع هذا الامير الذي تسمى بملك قرطبة وطليطلة. وكان يوالي الموحدين. وبعد ذلك أخذ ألفونس مدينة القنطرة وعاد منتصرا إلى طليطلة. بيد أن البرتغاليين لم يبقوا مكتوفي الايدي. بل ان الدون مارتين كبير أساقفة لشبونة قد انتزع من المسلمين قصر أبي دانس مستعملا بعض الفرق الاجنبية التي حلت بالبرتغال في طريقها الى الأرض المقدسة وأثناء ذلك مات ألفونس ملك قشتالة في قرية من جهات آبلة وترك خلفا له هنري الاول. ولم يقع في عهده ما يستحق الذكريين النصارى والمسلمين. وبعد موته تولى ملك قشتالة الدون فرديناد الثالث ابن الدون الفونس ملك ليون، وكان يلقب بالقديس .

---

(85) الفرسان والمشاة من تطيلة ومجريط ووبذة .

(86) من مجريط ووادي الحجارة ووبذة وقونقة وبلش .

(87) في منتصف شهر مارس .

وفي عهد فريديريك الثاني ملك ألمانيا وقعت مبادرة جديدة لفتح الارض المقدسة، إذ تجمع عدد من المسيحيين وساروا لحصار دمياط واستولوا عليها بالرغم من كون العدو قد حصنها، ولكنه استعادها في العام الذي بعد هذا، وانسحب النصارى إلى صور وعكا.

وفي عام ألف ومائتين وثلاثة وعشرين مات ألفونس ملك البرتغال وخلفه من بعده ابنه الدون شانجه، وفي نفس العام تجمع سكان قونقة وويذة وألاركون ومويا وجميع الجهات المجاورة تحت إمرة الملك الدون فرديناند، وأتلفوا كثيرا في أراضي مملكة بلنسية، بينما دخل الملك بجيش عظيم إلى الاندلس حيث استولى على قيجاطة وأرغم عامل بياسة وعامل بلنسية على أن يؤدوا له الجزية. وفي العام الذي بعده عاد ثانية إلى الاندلس وأخذ مدينة أندوجار ومدينة مارطوش وكانت على غاية التحصين ثم تابع تقدمه في العام الذي بعد هذا فأخذ مدينة يودار ومدينة بلمار وأفسد كثيرا في أراضي جيان. ومن هناك جاز على شانت إتيان المرسى وأخذ حصن الطرف ومواقع أخرى من هذه الاحياء ثم باجة ومنها مر على لوشة إلى سهل غرناطة وعاث فسادا في البلاد، وأرغم أهل غرناطة على تسريح ألف وثلاثمائة من الأسرى المسيحيين، وحملهم على أن يؤدوا له الجزية. وفي هذا العام تآمر سعد الله بن فارس وهو ابن عم لمحمد الناصر على استجه وشريش وقرمونة وجميع مسلمي هذه الجهات، وسار لأخذ مرسية. ولكن نصارى هذه الأحياء هزموه وقتلوا عشرين ألفا من رجاله. ولما بلغ خبر ذلك لأبي محمد أمير بياسة وطد الهدنة مع الملك الدون فرديناند ومكنه لاتقاء شره من مدينة قابيا ومدينة شلبطرة وأعاد إليه قلعة بياسة فأمر بالدخول إليها كبير سادة (88) قلعة رباح بحشود من العسكر ثم وقع تمكينه من شلبطرة على إثر ذلك. ولما امتنعت المدينة الاخرى سار لحصارها الدون فيرنانده وأجبرها على الاستسلام، واستنكر المسلمون من أهل قرطبة تلك الممالأة فتآمروا ضد محمد فقتلوه، وبعثوا برأسه إلى ملك إشبيلية. ولكنه فعل بمن حملوه إليه مثل ذلك الفعل، حيث قطع رؤوسهم وألقى بها إلى الكلاب. ولما علم المسلمون من أهل بياسة بموت ملكهم حاصروا كبير السادة في القلعة. ولكن الدون فرنانده هب لنجدته، فسقط في أيديهم وأخلوا المدينة ورحلوا إلى غرناطة

(88) غنصالة إيبانيز .

وسكنوها. وقام الدون فرنانده بإعادة تعميرها بالنصارى في نفس العام . وبينها كانت تجرى هذه الوقائع في إسباينا سار الامبراطور فريديريك إلى سوريا وقاتل الأتراك في عدة معارك، وعقد الهدنة مع سلطان مصر، ودخل بيت المقدس وتتوج بها ملكا، وبينها كان الدون فرنانده ينتصر على المسلمين في إسبانيا كان الدون خايمي ملك أراگون يقاتل في جزيرة مايوركا، فاستولى على حاضرتها وأسر أميرها (89). ولكن سكان تلك الجزيرة لاذوا بالجبال متربصين بوصول الانجاد. ولما استبطأوا وصولها استسلموا للغالب ، وكانوا قد أمروا عليهم غيره. ولما ملك خايمي تلك الجزيرة سار في نفس العام إلى مينورقا ولكن أمير تونس جاء بقصد استردادها منه، غير انه عجز عن ذلك لأن الملك الدون خايمي قد هب لنجدتها.

وأثناء ذلك قام ابن هود وهو مسلم متضلع في العلم من رؤساء هذه البلاد بجمع عدد من الناس حوله مدعيا الولاية والصلاح، واستولى على بعض حواضر مملكة غرناطة، وتسمى بالمصلح المجدد لدين محمد، وحمل في وعظه على الموحدين، حتى استطاع أن يهزمهم وينتزع منهم ألمرية وغرناطة وقرطبة واستجه وعددا من المواقع الأخرى، وما ألقى السلاح حتى أخرجهم من هذه البلدان. وفي نفس العام استولى المسلمون من غرناطة على مدينة قيجاطة وحاصرها كبير أساقفة طليطلة (90) واستردها. وفي عام ألف ومائتين واثنين وثلاثين انتزع الدون خايمي ملك أراگون شبه جزيرة بوريش ومواقع اخرى على امتداد نهر شقر، كما أخذ برج مونقاد ومواقع مجاورة أخرى. وتمكن بذلك من الشروع في غزو مملكة بلنسية التي كانت بأيدي عدد من الأمراء الصغار. وفي العام الذي بعده قام الدون بيدرو إنفنت البرتغال وهو ما يزال على خلاف مع والده (91) بانتزاع جزر يابسة وفورمونتيره وقونشيرة وكابريره من المسلمين، واشتهر بعدد آخر من الاعمال الحربية. وفي غمرة القتال ضد ملك غرناطة قام الدون فرنانده من قشتالة بمحاصرة مدينة أبدة. ولما أخذها بعد أيام من الحصار أعاد تعميرها بالنصارى. وكان الملك الدون خايمي أثناء ذلك يقاتل أمير (92) بلنسية. وفي العام الموالي قام ابن هود أمير غرناطة بحشد

---

(89) أبو الحبيب .
(90) رودريق خيمينش .
(91) الدون شانجه .
(92) أبو زيان .

عساكره لقتال خايمي ولكنه ما أن وصل إلى ألمرية حتى اغتيل على يد أحد رجاله. وكان ذلك سببا في استفحال الفرقة بين مسلمي إسبانيا. وفي نفس العام توجه جيش من النصارى لغزو الأرض المقدسة فهزمه الأتراك في مكان بين غزة وعكا. ولم يكن للمسلمين (93) في اسبانيا مثل ذلك السعد، لان اللدون برناردين قيم الذي قاد جيش ملك أراگون قد هزم أمير بلنسية، كما تمكن سكان ثغور قشتالة تحت إمرة ألفارو كولودرو وبينيتو باغنوس من تسلق برج من أبراج قرطبة. ولما استوليا على المدينة عجل لهم الدون فرناند بالتعزيز، فأجبروها على الاستسلام (94). وكان سقوط هذه المدينة بيد النصارى سببا في إثارة اضطرابات عظيمة بين المسلمين ووقوع صدامات متعددة بين حكامهم : أبي زيان وزيدان بن سعيد في بلنسية وأبي الحجاج وابن هذيل في مرسية، وآخر في لبلة (95) وفي الغرب. وقد توسل أهل اشبيلية إلى جعفر لكي يتأمر عليهم، وطلب أهل أرجونة من محمد بن سعيد (96) أن يتولى عليهم، وكان أقوى أمراء المسلمين جميعا، تأمر بغرناطة وساد فيها بنوه بعده أكثر من مائتين وخمسين سنة، وعرفوا ببني الأحمر، حتى نزع ملكهم فرديناند وإزابيلا كما سنذكر ذلك في موضعه. وأما ذكره وذكر إمارته فإن أصله من أرجونه، وقد تولى عليها، وكان ثريا قويا ذائع الصيت بين المسلمين، أصله من الحجاز، ولم يكن من العرب الأصليين وإنما هو ممن ألحق بهم واعتنق نحلتهم. وقد ذكر الجوهري في قاموسه عند حرف الحاء قبيلة تسمى حمير، استولت على الكوفة، على البحر الاحمر (97). ومنها دخل عدد كبير من رجالها في خدمة خلفاء دمشق عند فتوح إفريقيا والأندلس وضموا إليهم المنحدرين من نسب بني الأحمر، ولم يكونوا حمرا، وإنما كان اسما لأسرتهم، ويثبت ذلك ما وقفنا عليه من رسوم التنافيذ التي أصدرها الحكام، يضاف اليها عدد من الكتابات العربية التي ما تزال منقوشة في أماكن مختلفة من مدينة غرناطة ومن القصور (98) التي شيدوها فيها وزينوها برفيع البنيان. ولنذكر كيف تدرجوا للوصول إلى الملك. لما انفصلت الأندلس عن حكم الخلفاء ظل فيها عدد من كبراء بني جلدتهم متقلدين المناصب والاحكام ولا سيما

---

(93) يعبر عنهم بالكفار
(94) في 29 يونيه 1236 .
(95) عبد الله بن عزون ؟
(96) من بني الأحمر .
(97) في الهامش ما يفيد أن التسمية في الاصل الاسباني هي : البحر الأعظم .

في أرجونة التي دامت لهم طويلا، ولما رأى ابن الأحمر استبداد الولاة كل بما كان بيده عند أفول أمر الموحدين وتيقن بما له من القبول عند أهل ولايته أراد أن يحذو حذو المنتزين، فادعى أنه رأى في نومه فرقا من النحل وسربا من الطير قد حطا على سقف داره . وقد وجد مرابطا (99) يتمتع بواسع التقدير والتبجيل فعبّر له تلك الرؤيا وبشره بالملك. ولما ذاع ذلك القول في المدينة قام العامة بتقديم ابن الاحمر أميرا عليهم وهم يتشوقون إلى ما يحدثه في المدينة من أمور، وتعهد بجمع كلمة المسلمين والذوذ عنهم، وكان قد شاع أنه المرشح لهذا الأمر. وقد تبعهم في هذا التقديم أهل جيان وأهل وادي آش وأهل بياسة ومدن أخرى. ثم تبعه أهل غرناطة. ولما دانت له هذه الحواضر والأقطار انتهى به المقام إلى غرناطة وتلقب بالملك محمد السعيد من بني الأحمر بن عبد الله بن الناصر (100) وقد تولى الملك من هذا النسب واحد وعشرون أميرا كان الأربعة الأول منهم هو وابنه واثنان من أحفاده. ثم انتقل الملك إلى ابن إحدى حفيداته وكان زوجها عاملا على مالقة (101) نسبه من نفس نسب بني الأحمر، ثم حكم ابنه البكر، ثم اثنان من أبنائه. أما ابنه الأصغر فهو أبو الوليد ومنه انحدر آخر ملوك غرناطة (102) الذي خلفه الملكان الكاتوليكيان. فالذين ملكوا من نسب بني الأحمر، عشرة، وغيرهم من أقاربهم أو من الغصاب كما سنرى في تسلسل حوادث التاريخ فقد دأب الملوك المسلمون إسوة بالعبرانيين على أن يجعلوا في ألقابهم الممالك والولايات التي يسودون عليها. فقد تسمى كل واحد منهم، تشريفا بأمير المسلمين على مثال أمراء مراكش وفاس وخلفاء بلاد العرب وسوريا وغيرهم من الأمراء المحمديين، وذلك على غرار تلقيب ملك روما بقيصر وملك مصر بفرعون. وقد اعتادوا أيضا على وضع اسم محمد قبل أسمائهم في جميع مكاتيبهم، وكثير من الناس يحملون ذلك الاسم على سبيل التعظيم لان محمدا هو مؤسس ملتهم وصاحب شرعها.

رجع لخبرنا. في العام الذي قام فيه محمد أبو سعيد ملكا على غرناطة، دخل الدون فرناند بلاد جيان وأخذ مدينة أندوجار وحصن مارطوش ثم عاد منتصرا إلى قشتالة. ومن جهة أخرى دخل الدون خايمى ملك أرغون مملكة

(98) تسمت بالحمراء نسبة إليهم

(99) سيدي المفتي .

(100) مولاي محمد ، أبو سعيد بن عبد الله بن ناصر

(101) فـرج .

(102) أبو عبد الله .

بلنسية، وبعد أن استولى على عدة مدن حاصر حاضرتها : وأثناء ذلك وصل أسطول للمسلمين عدته اثنا عشر من القوادس وستة من القوارب بعث به ملك تونس لنجدة أبي زيان الذي كان أميرها. ومع ذلك تمكن المحاصرون من منع دخول النجدة إلى المدينة واضطر القادمون بها للتراجع . غير أن أبا زيان الذي تقلصت ولايته إلى أقصى حدها قد اضطر في العام الموالي إلى الاستسلام شريطة أن يخلى سبيله في الخروج بجيشه وعدته هو ومن أراد الخروج معه وأن تُترك لمن يبقون في المدينة حريتهم، على أن يؤدوا الطاعة للمتغلب. هكذا دخل ملك أرغون مدينة بلنسية في الثامن من شتنبر من عام ألف ومائتين وثمانية وثلاثين. وبعد ذلك خرج لقتال ساكس، وفيه قتل المسلمون الدون أرطل سيد ألقون.

بينما كانت تجري هذه الحوادث في إسبانيا شبت نار حرب ضروس في آسيا. ذلك أن التتار الذين يسكنون جبال ريفيس جهة المحيط الشمالي قد انتشروا في مجموع آسيا وشنوا الحرب على الأتراك. وهؤلاء هم آخر شعوب الشمال الذين قال عنهم هوميروس إنهم أعدل شعوب الأرض قاطبة لا يتخاصمون ولا يتنازعون ولا يعرفون المال ولا الشهوات، يعيشون في سكينة بلا كتاب ولا شرائع. لا يهتدون إلا بالعقل الطبيعي. به يحكمون أمتهم ويستديمون حريتهم. يسكنون أرضا غير ذات خصب ولا زرع ولا حقول ولا كروم، قوتهم نبات الأرض وثمار أشجار البر وما يتأتى لهم من الصيد، ولباسهم بسيط من الجلود، لا يقيمون أعيادا ولا مشاهد، كانت هذه البلاد معينا بشريا لا ينضب، اندفعت منه في عصور مختلفة أمم لا يُحصى عددها عُرفت بكونها مبرزة في القتال. وقد كان هؤلاء الذين نتحدث عنهم يخضعون قبل انطلاقهم لامراء جيورجيا أو لبعض الأمراء الآخرين. وكانوا منقسمين إلى سبع قبائل (103) تكاثر نسلها وتكاثرت مواشيها حتى ضاقت بهم أرضهم، فعزموا على الخروج منها باحثين عن أرض أخرى، وكان يعسوب هذا الخروج شيخ من قبيلة تارتار يسمى كانجي من نسب وضيع، له شهرة كبيرة بالصلاح. فقد دعاهم، كما لو كان ذلك عن أمر إلهي، إلى أن يخرجوا للبحث عن أرض أكثر اتساعا وخصبا من أرضهم، تقع محصورة بين البحر المحيط وبحر قزوين. ولم يكن يفضي لها سوى ممر واحد محصور بين الجبال وبين البحر، وقد خرجوا من هذا الممر بقيادته، وظل اسم هذه القبيلة يطلق على جميع هذه الشعوب التي يرد

(103) تارتار وطانگور وقونات وطالاي وسينيك ومونگلي وتيبيت .

البعض أصلها وكذا أصل الاتراك إلى قبائل بني إسرائيل العشر، وإن كان اصلها في الحقيقة يمتد إلى ماجوج بن يافت الوارد ذكره في عدة مواضع من الكتاب المقدس، زد على ذلك أن القبائل العشر قد نقلت إلى بلاد الميديين وليس إلى بلاد الشيتيين. أما هؤلاء التتار فقد قادهم هذا الشيخ الصالح وكانوا يسمونه تشريفا باسم قام، وهو الأمبراطور أو الملك. فهبطوا في اتجاه بحر قزوين، وهنالك مات شيخهم هذا، فقدموا خلفا له أكبر ولديه، إذ كان له من الولد اثنان. وكان هذا المتولي يدعى أُوقات. وكان حكيما نبيها. وكان أول من اجتاز منهم مضيق بحر قزوين وقطع أرض سوقديان والنهر المسمى بهذا الاسم حتى اتخذ مشتاه على جبل طوروس في بلد رائق كثير الخصب أتاح لهذه القبائل أقواتا وافرة بالاضافة إلى ما كانوا قد سطوا عليه أثناء الطريق. فجبل طوروس هو أعظم الجبال المعروفة. يبدأ من جهة مغرب الشمس عند بحر إيجة ، ويمتد في سلسلة طويلة من الجبال حتى بحر المشرق، ويقسم آسيا إلى قسمين، وبعدما قضى أُوقات فصل الشتاء في تلك المنازل قام منها عند بداية فصل الربيع متسلقا تلك الصخور حتى أمكن له الانقضاض على السكان الذين كانوا يعيشون على السفح الآخر. وبعد أن دمر كل تلك الجهات انتشر قومه على ضفتي نهر الهندوس. وهنالك أسس قامبالو ليتخذها عاصمة لأمبراطوريته، وتتميز هذه المدينة باكتظاظها الشديد وبأنها أجمل بلدان آسيا. ولما استقر به المقام بعث الجيوش إلى جميع جهات الدنيا فغزا أراقوزيا وكارامانيا وعدة جهات أخرى، وانتهى إلى بلاد فارس، وطرد منها الأتراك، ثم استولى على سوريا وعلى بلاد ما بين النهرين وبلاد العرب وهدم مدينة بغداد الشهيرة وفيها كانت عاصمة الخلفاء، وبعد هذه الوقائع استولى التتار على أرمينيا الكبرى ومنها جازوا إلى إيبريا وفولشيديا يبثون الرعب في كل مكان. ولولا أن مفاتن بلاد الهند قد قعدت بقائدهم في قامبالو لوسعوا فتوحهم إلى أبعد مما وصلوا إليه. ولكن هذا القائد قد اكتفى انطلاقا من عاصمته بحكم الاقاليم بواسطة رجال من أهله وأصحابه الذين اتخذوا عوائد الفرس والكلدانيين والاشوريين وسموا كبيرهم بالراهب يوحنا . وقد اسسوا امبراطورية جديدة ذات قوة عظيمة.

ولما كان الاستطراد بذكر بعض التفاصيل من فتوحهم لا يخلو من المتعة فسأذكر أن أول ما فعلوه بعد اختراق الجبال هو فتح مدينة الاسكندرية وهي مبنية

(104) في عام 1258 الموافق لـ 618 للهجرة .

على المضيق المسمى بباب الحديد (105) وكان ذلك مبعث خوف شديد من قبل الاتراك حتى إن عزالدين حاكم سلطان قونية قد بادر لكي يستطيع التصدي للتيار، بعقد هدنة مع إمبراطور القسطنطينية لمدة سنين طويلة. وقد تساهل الامبراطور في الموافقة على رغبة عز الدين وقصده أن يكون حاجزا بينه وبين التتار الذين كانوا يهددون آسيا بالتدمير ، وكان نصارى الشرق إذ ذاك قد أنهكتهم الحروب المستمرة، فتركوا الحرث والعناية بالمواشي حتى اشتد احتياجهم واستنفد الامبراطور جميع كنوز مذخراته. ولما تبين له أن تلك الهدنة تجعله فارغا من المشاغل، فقد عزم على إصلاح الأرياف فطلب من رعاياه أن يعودوا إلى الاهتمام بالزراعة وأراد أن يكون القدوة في ذلك فاتخذ لنفسه حيا كان من الاحياء الخالية فغرس فيه الكروم وأشجار الزيتون وكان يأخذ نفقته من ريعها ويقوم بتوزيع ما فضل على القائمين بشئون الدين وعلى أماكن الاستشفاء. ثم أمر بأن تكون لكل مدينة مخازن للحبوب وغيرها لتوزيع القمح على السكان عند الحاجة، وبهذا استعادت البلاد جلالها الأول. ويذكر المؤرخون أن هذا الامبراطور الطيب عني بهذه الأشياء عناية كبيرة، ويذكرون أن ما كانت تربيه الامبراطورة من إناث الدجاج وحدها كان يقوم بحاجة دارها من البيض والفراخ وأنها استطاعت أن تصنع من المال الفاضل الذي يدره هذا الدجاج تاجا من الذهب مرصعا بالجواهر والأحجار النفيسة سمي بتاج البيض حيث كانت به أشكال تمثل البيض وحيث إنه معمول من مال مصدره البيض . ولم يدرك الامبراطور بهذه العناية إعالة شعبه فحسب بل أغناه بها، ذلك أن الترك الذين كانوا في حروب مستمرة مع التتار كانوا يعدمون الاقوات فيشترونها بالثمن الباهظ من النصارى باذلين فيها أنفس ما كان بأيديهم.

رجع إلى خبر التتار. ماأن استولوا على مدينة الاسكندرية حتى زحفت طليعتهم على الأتراك بقيادة قابوسابا، وقد ترصده سلطان قونية وهو عزالدين في بوصدرة بأرمينيا الكبرى ومعه جيش من الترك والعرب واليونانيين والايطاليين والالمانيين والفرنسيين وقد اجتمعوا كلهم ليتصدوا لعدوهم المشترك، فأما جان ليفيداند أو باليولوج كما يسمى، وهو صاحب قبرص وكان مغضوبا عليه من طرف الامبراطور، فكان على رأس اليونانيين، وأما بونيفاشيو مولينيو وهو من نبلاء

(105) مضيق بحر قزوين .

البندقية فكان يقود اللاتان الذين كانوا في خدمة السلجوقي. ولما رأى التتار مثل هذا الجيش العظيم المتكون من الأجناس المتعددة ظنوا أن أمدادا كبيرة قد وصلت إلى السلجوقي فأرادوا أن يولوا الأدبار. وأثناء ذلك وقع أن أحد أقارب السلجوقي قد تضيم والتجأ إلى التتار بمن معه من الجيش وأفهمهم أن كثرة أجناس العساكر التي مع السلجوقي مبعث للضعف أكثر مما هي سبب من أسباب القوة، فثناهم ذلك عن الانصراف، فباشروا القتال وألحقوا الهزيمة بالسلجوقي، وبعد ذلك عبروا نهر الفرات وأخضعوا الشام وبلاد العرب وفرضوا الجزية على تلك البلاد، وعادوا إلى الشرق محملين بالغنائم(106) . وفي العام الذي بعد هذا عادوا وقطعوا في زحف هائج نهر الفرات في جهته الشمالية في مكان غير بعيد من منابعه. ووصلوا إلى قابادوشيا وإلى نهر تيرمودون، واستولوا على قونية عاصمة هذه الامبراطورية. ولما أيقن السلجوقي بهلاكه صحب معه أخاه وذهب إلى امبراطور باليولوج الحاكم إذ ذاك، مستأنسا بما كان بينهما من ود قديم، وهو يطلب إنجاده ضد الاتراك أو إعطاءه بعض المضارب متربصا بماله وأهله. فما أجابه لاي من المطلبين، لانه أشفق من تقسيم جيشه، ولم يرد أن يعطي لأمير بهذه القوة كان له من سالف المجد ماكان، ملجأ يلتحق به فيه قواده وعساكره لمافي ذلك من خطر بتدمير البلاد نظرا لما هم فيه من الاحتياج عليه من القدرة على العدوان. ولما رأى السلجوقي أن الامبراطور يماطله دون جلوى سار مع أخيه إلى إقليم المجاز مستعينا ببعض الشيتيين(107) الاروبيين، ومثل بين يدي قام شيخ التتار فأعاده إلى إمارته على أن يؤدي له بعض الجزية. ولم يستمتع طويلا بذلك الانعام، إذ أعلن عليه أحد ولاة فارس (108) الحرب واضطره إلى الانسحاب حتى هرقلية بمملكة المجاز، ولبث هنالك إلى أن أعاده التتار إلى حكمه ثم قتل غيلة بعد ذلك. وبموته اضمحلت أمبراطورية الترك وانتقلوا من السعادة القصوى إلى البؤس المدقع بما وقع بينهم من الشقاق، الأمر الذي أسلمهم غنيمة لعدد من صغار الطغاة حتى شاع بينهم النهب والغضب لا من طرف السادة النبلاء فحسب، بل حتى من طرف العامة الذين نزلوا من الجبال لاسلاح لهم سوى قسيهم وسهامهم فجعلوا يقومون بأعمال القرصنة على

(106) لان زعيمهم ظل في بلاد سلطان المغول

(107) أوقات .

(108) عمار .

الطرقات الرئيسة وفي الاماكن التي لا تحميها حامية مدمرين كل ماجاورهم من البلاد. وعانى النصارى أكثر من غيرهم من هذا الضرر لان الامبراطور أراد تقليل نفقاته فأبطل حاميات المدن، فتقاطر عليها الترك للاحتماء من التتار، فكانوا ينهبون أهلها، ولربما وقعت مشادات بالايدي إذا وجدوا من يقاومهم. وقد أراد الامبراطور أن يقضي على هذه الفتنة، فلما علم أن جيشا من الاتراك قد التجأ إلى بافلاكونيا ذهب لمنازلته، وهزمه ولكن جنوده أبعدوا في تعقب الترك فانقلبوا عليهم وقتلوا منهم تلة على ضفاف وادي سانجار، ولم يفلت الامبراطور بنفسه إلا بمشقة كبيرة. وبعد هذا النصر قطعوا النهر وانتشروا ما بين بحر المجاز وغالاسيا وبين بحر ليقيا ونهر أوريمدون حيث تجمعوا للزحف ضد التتار.

تاريخ المماليك

في هذا العهد ازدهر حكم مماليك مصر وحققوا مثل ما حققه التتار، فقد استولوا على كثير من الاقاليم وحكموها مدة طويلة ومدوا حدودهم إلى بلاد بعيدة بعد أن كانت بدايتهم على نحو ما سأذكره. لقد فقد الخلفاء بمصر ذلك العز الأول وذلك الانجاد الذي حقق لهم ماكانوا عليه من المجد وانغمسوا في شهواتهم حتى أفسدتهم البطالة ولم يعد الطامع في دولتهم يحتاج من أجل غزوها إلى جيش كبير، مع العلم بأن هذه الدولة كانت على درجة من الازدهار. وهذا ماجعل بلدوين أمير بيت المقدس يتجه بجيوشه إليهم ويحقق عددا من الانتصارات حتى استطاع أن يفرض عليهم الجزية. ولما أظهروا الامتناع عن أداء ما كانوا يؤدونه قام خلف بلدوين في الملك وهو أخوه إيمري فجمع جيشا هزم به السلطان درغان في الصحراء الواقعة بين يهودا ومصر، وكان بإمكانه أن يتوسع في انتصاراته إلى أبعد مما وصل إليه لولا أن السكان فتحوا عرم السواقي وسدود الأنهار فأغرقوا البلاد بالماء (109) حتى كاد جيش النصارى يهلك من جراء ذلك واضطر إلى الرجوع إلى الضفة الغربية. وقام سنار (110) الذي كان درغان قد انتزع منه الامارة باللجوء إلى أعراب قبيلته فاغتنم فرصة هذه الهزيمة، فلجأ إلى نور الدين أمير دمشق وطلب منه أن يعينه على استعادة الملك الذي انتزعه منه درغان، وقد ارتاح لذلك الطلب لانه كان يأمل أن

(109) لأن النيل كان فائضا .

(110) كان المماليك رؤساء الجند عند الخلفاء .

يتسنى له الاستيلاء على مصر (111) إذا هو تمكن من الدخول إليها، وهكذا بعث إليها بجيش يقوده شيركوه وهو من أصل وضيع ولكنه قائد عظيم شغوف بتحقيق الانتصارات. واتجها نحو مصر واشتد خوف المملوكي منهما حتى إنه التمس إنجاد ملك بيت المقدس متعهدا بأن يؤدي له الخراج الذي كان الخلفاء يؤدونه لأسلافه. وبينما هو كذلك إذ اقترب منه العدو فاضطر إلى أن يزحف في اتجاهه مع تفادي منازلته في انتظار أن ينعقد العهد بينه وبين ملك بيت المقدس. وبينما هو كذلك إذ قتله أحد رجاله غدرا. وبعد سنار صار الترك سادة مجموع البلادالمصرية لان الخليفة قد احتجب في قصره وانغمس في لذاته ولم يكن يهمه أن يكون قائد الجيش هذا أو ذاك مادام معترفا بملكه. وأثناء ذلك استولى شيركوه على مدينة بيبليس التي كانت تسمى قديما بيلوز وأراد الاختصاص بها ضدا على سنار، فغضب لذلك وبعث يطلب من إيمري ملك بيت المقدس أن يقدم إليه ماكان يعتزم تقديمه لسلفه. ولما انعقد العهد بينهما حاصرا المدينة معا وضيقا عليها حتى اضطر شيركوه إلى تسليمها. ولما تبين لهذا الأخير أنه غير قادر على الوقوف في وجه عدوين لهما مثل هذه القوة وبأن نورالدين كانت له مشاغل في سوريا ضد المسيحيين تغنيه عن شؤون مصر التجأ إلى خليفة بغداد وفتح بصره على الفوائد المرتقبة من السيادة على بلد مثل ذلك البلد الغني، وأقنعه بأن يقدم على هذا الأمر الذي طالما تطلع إليه، وزين له ذلك حتى يتمكن من منافسه، وهكذا جمع جيشا من العرب والفرس والاشوريين والاتراك الذين هم تحت طاعته وجعل عليه شيركوه وأعطاه أزوادا عظيمة يقطع بها الصحراء ويتوجه إلى مصر. ولما سمع إيمري بخبر قدومه جمع جيشه وزحف إليه ونازله في الصحراء وانتصر عليه بعد قتال طويل، وطرده الى سوريا، فعاد الى بيت المقدس يحمل الغنائم. وبعد فترة من الزمن جمع إيمري جيشه وحاصر مدينة بيبليس فأحرق وأسال الدماء. وبعد أن بلغه أن سنارا يتآمر مع نورالدين لشن الحرب عليه، وإن كان البعض يدعي آن ذلك إنما كان تعلة لقيامه لغزو مصر. ولما علم سنار مافعله إيمري لجأ ثانية إلى نور الدين فأرسل إليه شيركوه ولكن تخوف سنار من أطماعه جعله يقرر استرضاء إيمري بمبالغ كبيرة وزحف توا إلى القاهرة. ولما خرج لاستقباله قبض عليه وحز رأسه. وبعد ذلك دخل المدينة وقدم التحية للخليفة فعينه مملوكا في مكان الهالك. وبعد فترة

(111) كان خلفاء بغداد في تنافس مع ملوك مصر .

من الزمن مات شيركوه من مرض أودى به وترك حلفا له ابن أخيه صلاح الدين. وكان كالاسكندر شجاعة ويقظة وكرما وتسامحا، وهو الذي قتل الخليفة (112) وقتل كل من تقبض عليه من أهله فوضع بذلك نهاية للخلفاء من نسب القائم الذي كان قد انتقل من افريقية إلى مصر كما سبق أن ذكرنا فانتصب ملكا في شؤون الدين والدنيا. ولما رأى ما عليه المصريون من الضعف والانغماس في الشهوات وإهمال شؤون الحرب حتى كانوا يستنجدون بالغير عند الضرورة، عزم على تكوين جيش من الرجال البواسل للدفاع عن البلاد. ولما كانت شعوب الشمال أكثر استعدادا للحرب من شعوب الجنوب. فقد تحالف مع الشراكسة (113) الذين يسكنون قريبا من البحر الاسود ومن بالوس ميوتيد، وشرط عليهم أن يقدموا له كل سنة غلمانا أصحاء الأبدان مقابل قدر من المال، فكان يربيهم على ممارسة السلاح ولا يباشر الحرب غيرهم في مجموع البلاد. وكان يولي النبهاء منهم المناصب الكبيرة. فهؤلاء متأصلون من أقوام لهم طبيعة متوحشة اعتادوا منذ نعومة أظفارهم على الاشتغال والمشقة، وعلى الصبر على الجوع والعطش لا يسكنون الحواضر قط، ينتشرون على ضفتي نهر فاز على حدود منطقة كولشيد قريبا من باب تانيس بمالا يزيد عن خمسين فرسخا. (114) وهم وإن كانوا على دين المسيحية يمارسون عددا من الطقوس الغريبة: فإذا ولد لديهم وليد ذهبوا به إلى نهر وغسلوه فيه. ومعظمهم أقوياء ضخام الابدان، يتميزون ببياض اللون وحسن المظهر. تكثر على طول بلادهم وعرضها البحيرات، وفيها ينبت القصب الذي به يبنون أكواخهم. وهم في حروب مستمرة ضد التتار وغيرهم من الشعوب المجاورة. لا يخلع نبلاؤهم الدروع المزرودة ولا يسمحون لعامتهم باتخاذ الخيل والسلاح ولا يسمحون لهم بالاشتغال بغير الحرث، يعيشون طلقاء، لا ملوك لهم. ولا يعرفون القراءة ولا الكتابة، إذ ليس لهم أبجدية خاصة. لذلك فشرائعهم غير مكتوبة. يسوون نزاعاتهم بالاحتكام إلى السلاح أو بالمصالحة. يكرمون الغريب إكراما كبيرا. يعيشون من الصيد وقطع الطرق، ويمتازون على غيرهم في الرماية. كان صلاح الدين يبعث إليهم كل سنة من يشتري منهم الفتيان الذين يأسرونهم في الحرب أو الذين يضطر آباؤهم لبيعهم

---

(112) العاضد الفاطمي ، وقد سبق التنبيه على أن صلاح الدين قد نحاه ولم يقتله .

(113) أو الرحح .

(114) يقصد بذلك المسافة بين تانايس ونهر الفولكا .

بدافع الفقر. فكان يربيهم على الكيفية التي ذكرناها. وكانوا يسمونهم بالمماليك أي العبيد. فبفضل هؤلاء ملك دمشق بعد وفاة نور الدين، وبهم طرد المسيحيين من سوريا ومن الضفة الغربية، واستولى في الأخير على الجزء الشرقي من افريقيا. ففي عهده لم يكن للأتراك سوى ثلاثة ملوك كبار: هو وملك الفرس وسلطان قابادوقيا. وقد حكم خلفاؤه في مصر مدة مائة وخمسين عاما، وكانت لهم سلطة مطلقة في شؤون الدين والدنيا. وكان الواحد منهم يلقب بالسلطان ولم يفلت من تغريم امبراطورية التتار سواهم، وذلك بفضل بسالة المماليك والتحالف مع الشراكسة. فكلما قام التتار يحاربون المماليك كان الشاركسة يدخلون بلاد التتار فيضطرونهم بذلك إلى الانصراف. يضاف إلى ذلك أن فرسان المماليك كانوا متفوقين على فرسانهم. فلما انقرض عقب صلاح الدين سار المماليك على تقاليد بلادهم، فلم يكونوا يقبلون أن يتخذ المصريون خيلا أو سلاحا. وقد اختاروا رئيسا عليهم السلطان الشهم بيبرس وكان من سلكهم، وشرطوا عليه عدم تفويت الملك بالتوريث وعدم مراعاة النسب في اختيار الملك. وكانت عشيرة الملك لا يمتازون في عيشهم عن المماليك المجلوبين من بلاد الشاركسة. ولم يكونوا يرثون من آبائهم، بل كانوا كغيرهم يرتقون حسب الاستحقاق وليس باعتبار النسب. وقد بدأت هذه المملكة في مصر حوالي سنة ألف وثلاثمائة وإن كانوا قد وجدوا قبل ذلك بكثير كما ذكرنا. وقد استمروا حتى قضى على ملكهم الأمبراطور سليم امبراطور الترك. وقد رأينا من المناسب للمقام أن نتعرض لتاريخهم لأنه تاريخ يستحق الذكر، ولانه يوضح عددا من الاشياء التي سنذكرها بصورة أكثر تفصيلا في القسم الثاني من حديثنا عن إفريقيا عندما نذكر وصف مصر.

ولنرجع إلى إسبانيا. كان أبو سعيد ملك غرناطة قد عمل هدنة مع الدون فرناند ولكنه ما لبث أن خرقها وهزم ألفونس أمير ليون وهو أخو الملك. ولكن الدون فرناند جمع جيشا وأخذ أركونة وهو مسقط رأس أبي سعيد، وأخذ معها بعض القلاع. (115) وبعد أن جال في البلاد أنهى جولته بحصار غرناطة. غير أن جزولة (116) الذين كانوا في جيان قد حاصروا مارتش قصد إلهاء النصارى. بيد أن الملك قد أرسل أخاه لنجدة المحاصرين، ولكن انسحب دون جدوى. وفي العام

(115) سيبالاخار وكامبوتيخار وموتينحار.

(116) من جزولة المغرب.

الذي بعده رأى أبو سعيد أن فرناند يجمع الجيوش قصد العودة إلى حصار غرناطة فعقد الهدنة معه وبمقتضى هذا العقد أعاد إليه مدينة جيان وأقر له بملك غرناطة وتنازل له عن نصف إيرادها، ومقابل ذلك قدم إليه الدون فرناند عساكر يستعين بها على رد بعض عمال المدن إلى الطاعة. وبعد أن فرغ من أمرهم وحيث إنه قد أمن جهة الدون فرناند، قام بشن الحرب على ملك إشبيلية. ولما دخل بلاده عاث فسادا في جهات قرمونية وأسلم مدينة القلعة (117) للنصارى. وبعد عامين من ذلك دخل الدون فرناند بجيش عظيم بلاد المسلمين بعدما تيقن ان لاخوف عليه من جهة غرناطة. فحاصر قرمونة، فما لبثت أن استسلمت وصار سكانها من أتباعه. واتبعتها في ذلك عدة حواضر أخرى (118). ثم إنه حاصر قلعة الملك وأخذها. وحوالي شهر غشت من السنة الموالية حاصر مدينة إشبيلية، ومعه ملك غرناطة.

وفي نفس العام اجتمع الاتراك والعرب وانتصروا في معركة ضد نصارى سوريا وانتزعوا منهم بيت المقدس وفعلوا بأهلها الافاعيل. ومن جهة أخرى قام لويس ملك فرنسا برحلة إلى الارض المقدسة سعيا في كسب الخير للنصارى، وبعد أن استراح مدة من الزمن في جزيرة قبرص سار لحصار دمياط في مصر فأخذها عنوة وبعد عامين وقع في الأسر هو وأخواه شارل وألفونس وعدد من النبلاء. ولكن الأعداء سرحوهم فيما بعد مقابل تسليم مدينة دمياط. ثم قاموا بتدميرها. وأثناء ذلك حمل السلاح خمسة آلاف من القساوسة والفتيان يريدون افتكاك الملك. ولما علموا بتسريحه عدلوا عن قصدهم.

وكان الدون فرناند يحاصر إشبيلية، ودام على حصارها أربعة عشر شهرا وثمانية عشر يوما، وبعدها استسلمت، فخرج منها المسلمون بأثاثهم وعدتهم ودخلها الملك في العاشر من دجنبر ومعه ملك غرناطة، وكان قد آوى عنده ملك إشبيلية وعين له بعض التركات ليعيش منها وهي الاراضي التي يوجد بها اليوم دير رهبان الشارترية القديم، وما يزال يسمى بمواريث عبيد. وفي شهر مايو من عام الف ومائتين واثنين وخمسين مات بإشبيلية الدون فرناند الملقب بالقديس، وخلفه ابنه

(117) قلعة وادي الدايرة .

(118) قنسطنطينة ورينه ولورا وجيانه .

الدون الفونس الحكيم، وقام في بداية توليته بقتال ملك أرغون. وأثناء ذلك انتقض المسلمون في بلنسية بإيعاز من الملك ألفونس، ودام انتقاضهم بعض الوقت، وأذعنوا بعد ذلك مقابل شروط لملك أرغون الذي كانت له المدينة، ثم قام بإهدائها لولده الدون ألفونس. وفي السنة التي بعدها قام الدون الفونس الحكيم بخرق الهدنة مع ملك غرناطة وانتزع منه تقيدة وحواضر أخرى من تلك الجهات، وعاد منتصرا إلى قشتالة. وبعد عامين استأنف الحرب، وحاصر مدينة شريش الفرنتيرة. وقام أهلها بطرد جزولة، واستسلموا وصاروا من أتباعه. وتبعهم في مثل ذلك سكان أركش ولبريشة. وفي عام ألف ومائتين وسبعة وخمسين دخل منطقة العرب وأخذ من المسلمين لبلة، وكان قد لجأ إليها أحد أولاده الذي كان يلقب بصاحب الغرب ثم تابع توسعه فأخذ عددا من المدن والحصون (119) التي كانت للامراء المسلمين ودخل أصحابها في تبعيته. وبعد ذلك قام بتشييد مدينة الملك. وفي ذلك العام مات الدون شانجة ملك البرتغال وترك من بعده خليفة أخاه الفونس.

كان المستعصم بالله الذي سبق ذكره هو الخليفة عندما قام التتار بغزو بلاد الفرس، ثم جاءوا للانقضاض على بغداد يقودهم قلاوون الشجاع. ولما تم لهم الاستيلاء عليها بلا مقاومة قبضوا على الخليفة وسجنوه في بيت ماله حتى مات جوعا جزاء له على عدم تجييش الجيش بخلا بتلك الاموال. وظل المسلمون بلا خليفة زهاء قرنين. ولكن مماليك مصر قد اتخذوا ذلك اللقب، وكانوا يجرون على مقتضيات ذلك المنصب في المراسيم والشرائع. أما في بلاد فارس فقد تولى الحكم منذئذ رجل عربي من سلالة علي وإليه ينتسب الصفويون ، وقد كان يحظى منهم بتعظيم كبير.

ومن جهة أخرى توجس ملك غرناطة وأمراء المسلمين في مرسية وبلاد العرب خيفة مما كان يحققه ملك قشتالة من تقدم. فبعثوا رسلهم سرا إلى ملك فاس وكان حينذاك على قوة كبيرة، وقد دان له مجموع المغرب الاقصى، وأغروا مسلمي إشبيلية بقتل الدون ألفونس وزوجته وبالانتفاض بعد ذلك. ولكن سعيهم كان بدون جدوى. إلا أن عددا كبيرا من المسلمين قد جازوا من إفريقيا وألفوا إسبانيا في غم كبير بأخذ عدد من الحواضر (120) وحمل جيمع المسلمين الذين كانوا

(119) جبيراكون وجيلفا وسيربا ومورا وألقابين وكاستروماريين وطبيرة ولولا .

(120) شريش الفرنتيرة وأركش وليبريشة وشذونة الخ...

تحت طاعة الدون إلفونس على الانتفاض. ولكن هذا الأمير أراد أن يشغلهم عن أنفسهم فأرسل أسطولا إلى إفريقيا، فأخذ مدينة سلا، ولكنه لم يستطع الاحتفاظ بها سوى عشرة أيام عاد بعدها إلى إسبانيا .

أثناء ذلك وقع تنازع كبير بين المسيحيين في سوريا. وكانت البداية بين أهل البندقية وأهل جنوة. وتقاتل أهل صور وأهل عكا قتالا عظيما. ومن جهة أخرى قام مانْفرْوا وهو ابن غير شرعي للأمبراطور فريدريك بالاستيلاء على مملكة صقلية على عهد البابا الاسكندر الرابع، وجلب من إفريقيا عددا من العرب وأرسلهم إلى مملكة نابولي قصد اغتصاب أراضي الكنيسة، وقد انضم هؤلاء إلى عرب لوشيريا وتوغلوا في جهات روما على عهد البابا أوربان الرابع وأفسدوا كل شيء حتى وصلوا إلى فروسالون. وأعلن عليهم أوربان حربا صليبية وطلب الانجاد من القديس لويس، فأرسل إليه جيشا تحت قيادة كَي قس أوكسير وريشارد كونت فاندوم وروبير ابن كونت فلاندرا وصهر أخي سان لوي إلى جهات روما. فطردوا منها الاعداء (121) دون استعمال السلاح. ولكنهم لم يستطيعوا طردهم من مملكة نابولي لانهم بعدما قطعوا إمارة نهر غاريان تحصنوا وراءه ومنعوا المرور على غيرهم. وقام البابا ضدا على مانفروا بتقليد ملك نابولي وملك صقلية شارل دوق أنجو، فوصل هذا الأخير الى إيطاليا . وتوج سان جان دولاتران في يوم الملوك من طرف البابا كليمان الرابع الذي خلف أوربان. وبعد ذلك قاتل مانفروا الملك فهزمه. وبعد شهر نازل عدوه بسهل شانت ماري دولاكَراديل، وهنالك سقط العرب ما بين قتيل وأسير، فاستولى على تلك البلاد وكان أول ملك تسمى بذلك الاسم.

فلنعد إلى خبر إسبانيا. في عام ألف ومائتين وثلاثة وستين دخل أمراء المسلمين الذين ثاروا على ألفونس أعماله وحاصروا أطريرة. ولما وصلت إليه النجدة تراجعوا عنها. غير أن المسلمين الذين جاؤوا من إفريقيا لانجاد ملك غرناطة كانوا يؤذون الناس من أهل تلك البلاد حتى إن أهل وادي آش وأهل مالقة قد ثاروا ضد ملك غرناطة وصاروا من أتباع ألفونس، فارسل إليهم ألفا من حملة الرماح تحت قيادة نونه دي لارا. وقد اعترف ملك غرناطة بذنبه وطلب من الدون إلفونس،

(121) يقصد المسلمين .

ألا يمنح حمايته لرعاياه، وعقد معه في مدينة القلعة التي تسمى اليوم بقلعة الملك. وكانت أهم بنود ذلك العقد تنص على أن يتخلى ملك غرناطة عن موالاة ملك مرسية (122) وأن يوالي الدون ألفونس وأن يمكنه من غزو هذه الامارة. (123) وما أن سار ألفونس لقتال ملك مرسية حتى جاء هذا الاخير لاستقباله، (124) وقد رأى أن أمير غرناطة قد تخلى عنه، فقبل يده ودخل في تبعيته. وانتقلوا جميعا من هنالك ودخلوا مرسية. وأعطاها ألفونس لاحد رؤساء المسلمين وكان أخا لابن هود (125) وشرط عليه أن يمده بثلث مجباها كل عام، وتخلى عن مواقع أخرى لملك مرسية ليسكنها، وينفق من إيرادها. ويذكر البعض أن الدون خايمي ملك أرغون قد استولى عليها سنة ألف ومائتين وأربع وستين لحساب الدون ألفونس وبأنه فتح مجموع هذه الامارة، غير أن هذين الاميرين قد سبق لهما أن اقتسما فتوحاتهما واتفقا على أن تبقى مملكة بلنسية لملك أرغون ومملكة مرسية لملك قشتالة (126). وقد غضب ملك غرناطة من هذا الغزو الذي انخرقت به السلم، فاتصل سرا بملك فاس، واتفق معه على أن ينجده مقابل اعتراف جميع مسلمي إسبانيا بملكه. وقد عمل أمير فاس (127) على تجميع جيوشه دون أن يثير حفيظة الدون ألفونس فأعلن أن قصده هو رد عامل سبتة إلى الطاعة. وزاد في إخفاء نيته بأن تعاقد مع ملك أرغون على ان يمده بجيشه البحري قصد حصار سبتة من جهة البحر ومن جهة البر وأعطاه مقابل ذلك مائة ألف بيسطوليس زيادة على أجور الجيش. ولكن الدون الفونس الذي ارتاب في أمر تلك الخديعة لم يكف عن تعزيز حدوده. وهكذا دخل أبو يوسف، ملك فاس الذي يسميه بعضهم بمولاي الشيخ، دخل إلى إسبانيا من مضيق جبل طارق ومعه سبعة عشر ألف فارس وأكثر من خمسين ألفا من الراجلة. وما أن دخلها حتى أسلم إليه أمير غرناطة (128) حصن الجزيرة وحصن طريف حيث انزل حامية ثم مر إلى مالقة لامضاء الصلح بين عاملها وعامل وادي آش وبين أمير غرناطة. ولما أن اجتمعت له جيمع عساكر هؤلاء سار لافساد بلاد إشبيلية

(122) محمد بن حامد .
(123) وادي آش ومالقة .
(124) في حصن الطرف .
(125) هو محمد بن هود .
(126) جاء في الهامش : مخالف لما ذكره من قبل .
(127) ابو يوسف .
(128) فرج .

وقرطبة. ولما امتنع عليه أخذ بعض الحصون البالغة التعزيز عاد إلى افريقيا، وبقيت بيده طريف والجزيرة. إلا أن الانفانت الدون شانجة قد دخل بلاد المسلمين بطرف من جيش أبيه فهزم قائدا (132) كبيرا من قواد المسلمين قرب وادي لكه حيث وقع العديد من القتلى والأسرى ثم عاد بعد ذلك إلى إشبيلية.

وبينما كانت تجري هذه الحوادث كان الترك (129) والعرب ينتصرون في سوريا. وقد قام السلطان بيكيدير (130) بهزم النصارى وأخذ عدد من مدنهم ثم حاصر أنطاكية وبعد عدة معارك فتحها عنوة وهدمها بعد أن قتل عددا من النصارى الذين كانوا بها وأسر عددا آخرين. وفي شهر يوليوز من عام ألف ومائتين وسبعين أبحر سان لويس (131) من إيك مورت بجيش عظيم وجاز إلى بلاد البربر وتغلب على المسلمين وغزا مدينة تونس التي كان أهلها يعتدون كثيرا على حجاج الاراضي المقدسة. وبعد أن نزل شاكي السلاح واستولى على مدينة المرسى التي بنيت على أنقاض قرطاجة، أقام معسكره على ربوة قريبة من البحر. وبعد شهر من الحصار تفشى الطاعون في معسكره وأودى بحياته وحياة أحد أبنائه وحياة المبعوث البابوي وبعدد كبير من جنوده. ولكن أخاه شارل ملك صقيلية وصل لانجاده فتابع الحصار وأرغم ملك مدينة تونس (133) على دفع الاتاوة لملوك صقلية. وعلى السماح لتجار النصارى بحرية الاتجار في ولاياته دون أن يؤدوا شيئا، وعلى أن يزود المتوجهين إلى الارض المقدسة بالاقوات وغيرها من الامور التي يحتاجون إليها، كما أرغمه على تسريح من كانوا عنده من الاسارى .

وفي نفس العام قام عثمان أخو ملك فاس بالجواز إلى إسبانيا ومعه عدد من المحاربين قصد تعزيز ملك غرناطة، ثم إن الانفت الدون فيليب أخا الملك ألفونس والدون نونه غنصالة دي لارا وكذا الدون لوب دياس دي هارو قد انضموا إلى المسلمين فعاثوا فسادا في كثير من بلاد النصارى، ثم عادوا إلى غرناطة بالغنائم، وما لبثوا أن خرجوا منها بقصد حمل عامل وادي آش على الطاعة. وفي أثناء ذلك مات ملك غرناطة وترك ابنه عبد الله خليفة، وقد أدى ذلك إلى اضطراب عظيم

(129) يقصد المماليك .

(130) يقصد البندقداري وهو سلطان مصر من المماليك الظاهر ركن الدين بيبرس الذي تولى من 1260 الى 1279م.

(131) لويس التاسع ملك فرنسا .

(132) ابن عقبة .

(133) مولاي عمر المستنصر .

في هذه الامارة فقد رغب بعض أهلها في تقديم أخيه يوسف بينما أراد آخرون تتويج عامل مالقة أو عامل وادي آش، ولكن الانفت الدون فيليب ومن كان معه من نبلاء النصارى في غرناطة قد فرضوا طاعة عبد الله، وفي السنة التي بعدها عادوا لخدمة الدون ألفونس، وقد عقد معه عبد الله السلم وصار من أتباعه. وبعد ذلك بيسير خرق الهدنة وانحاش لملك فاس ثم جاز هذا الاخير إلى الاندلس ومعه جيش عظيم. ولما علم بذلك نونه غنصالة دي لارا وكان انصرف لخدمة ألفونس وتولى على عمل قرطبة، زحف للقاء ملك فاس وأقدم على منازلته بعدد أقل من عدد جيوشه. وبعد مقاومة طويلة قتل نونة وتمت الهزيمة على أصحابه. ومات من هؤلاء مائتان من الفرسان وأربعة آلاف من الراجلة ولجأ الباقون إلى استجة. أما الجيش الآخر، وكان قد اتخذ طريقه إلى جيان، فقد لقي جيش الدون شانجة وكبير قساوسة طليطلة وابن ملك أرغون وكان فيه أهل طليطلة وأهل مدريد وأهل وادي الحجارة وأهل طلبيرة وكانوا قد خرجوا لاعتراض طريقهم. وتقاتل الفريقان وهلك النصارى عن آخرهم، وأسر هنالك الانفت وكان أسره شؤما على المتغلب، ذلك أن مسلمي إفريقيا ومسلمي إسبانيا هموا بالتقاتل في شأنه حيث ادعى كل فريق أن أسره وقع على يده. ولما رأى مسلم منهم أنهم على وشك الاقتتال القى بالانفت أرضا وطعنه برمح وحز رأسه وقطع يده التي كانت بها أختامه، وبذلك أعاد السكينة إلى صفوفهم. وأثناء ذلك سار الدون ألفونس بقصد تملك امبراطورية ألمانيا التي كان قد انتخب فيها، وترك حكم ولاياته لابنه الدون فرناند دي لاسيرد. ثم إن المسلمين أهل بلنسية الذين كانوا في تبعية ملك أرغون قد ثاروا ضده. وفي السنة التي بعد هذه مات الدون فرناند دي لاسيرد وقام أخوه الدون شانجه بتولي الحكم في غياب أبيه وثار ضده بعد أن كان عقد الهدنة لمدة عامين مع أمراء المسلمين.

وأثناء ذلك وقع نزاع كبير في إفريقيا بين وَلدَيْ عمر أمير تونس وكان قد أعطاهما عمل بجاية وعمل قسطينة. فقد بذل كل منهما الجهد لانتزاع ما بيد الآخر حتى استجار صاحب قسطينة بملك أرغون مقابل الدخول في تبعيته. وكان هذا الأمير شجاعا جريئا، فقبل ما عرضه عليه وجمع جيشا، وأبحر في الثالث من شهر يونيه ونزل في جزيرة منورقة للاستراحة، ومن هنالك أرسل سفينة ذات صاريين إلى قسطينة للاعلام بقدومه والخفوف لاستقباله والتمهيد لنزوله، وغضب

المسلمون لذلك وثاروا ضد أميرهم وتقبضوا عليه في قصره وقتلوه وأسلموا أمرهم لاخيه. ويدعي بعض المؤرخين، وان كان الرأي السابق هو السائد، أن السكان لم يقتلوه وإنما قتله أخوه بالذات، وكان قد أتيح له دخول المدينة سرا. وقد هلك مع المقتول أكثر من مائتين من النصارى كانوا في خدمته. بيد أن ذلك لم يثن ملك أرغون عن رحلته. فقد أبحر من ميناء ماون وكان في غاية الاتساع والامان، ونزل بميناء القلة بين عنابة وبجاية فأقام هنالك مدة يسيرة.(134) وأثناء ذلك كان بعض جنوده يقومون بغزو بعض القرى في تلك الجهات، وكان فرسانه يجوسون خلال تلك الديار مع بعض الراجلة. وقد كانت لهم عدة مناوشات مع العرب وأفارقة البوادي الذين كانوا يهبون من كل حدب وصوب بقصد دفعهم. وأثناء ذلك وقعت في صقلية فتن دعته إلى الرجوع، وكان ينتصر في إفريقيا لبعض السادة المسلمين الذين اتبعوه من اصحاب أمير قسنطينة. ثم إن مدة الهدنة بين الانفت الدون شانجه وبين المسلمين قد انقضت، فدخل هذا الأمير بكامل قواته إلى الاندلس وأقام الحصار أمام الجزيرة من جهة البحر ومن جهة البر. وقد حمل ذلك أمير فاس على التوجه إلى طنجة ومنها أرسل جيشا لقتال النصارى فأدى الامر إلى انهزامهم ورفع الحصار. ووصل الخبر إلى أمير فاس بأن عامل مالقة قد دخل في حرب الدون شانجه وصار من أتباعه، فجاز إلى الاندلس، إذ كان يخشى أن يتبعه غيره من رؤساء المسلمين في الانحراف. ولما اطمأن إليهم انعقدت الهدنة، لكن أمير غرناطة أبى أن يدخل فيها واستمر في تحصين مواقعه. ولم يحل ذلك دون رجوع الدون شانجه إلى بلده في العام الموالي، وفيه مات كبير فرسان القديس جاك في كمين نصب له، وهلك معه أزيد من ألفين من الرجال. ولكن الانفت لم ينفك يتابع مسعاه. ولما أفسد في سهل غرناطة عاد إلى جيان، ومنها عاد إلى قرطبة وكان قد استولى على مجموع بلاد أبيه الدون ألفونس. وكان لا يتوانى عن قتال المسلمين سعيا منه في استبقاء جيشه على حال الاستعداد. ولما دخل ثانية في العلم الذي بعده إلى هذا البسيط قصد تدميره جنح للصلح مرغما لكي تتسنى له مواجهة أبيه، وكان أبوه قد استجار بملك فاس لما أن رأى أن ولده قد انتزع منه كل أراضيه، فجاز مع ملك فاس إلى إسبانيا ومعه جيش عظيم. وقام الانفنت، وكان قد تلقب بملك قشتالة وليون، يبث عساكره على الحدود وعلى مواقعه الاخرى

(134) كان السكان قد أخلوا تلك المدينة .

وهو غير راغب في المنازلة. ولما تبين لملك فاس ضالة ما يحققه من التقدم، عاد إلى بلاد البربر. ثم إن الانفنت أراد أن يوطد الهدنة مع ملك غرناطة فأعاد إليه حصن أريناس الذي كان أبوه قد استولى عليه. وفي عام ألف ومائتين وثلاثة وثمانين عاد ملك فاس إلى اسبانيا في أوائل الربيع، عازما على قتال أمير غرناطة الذي كان منحاشا للدون شانجه، ولكنه لم يفعل خيرا مما فعل في جوازه السابق، وما لبث أن عاد إلى بلاد البربر. وأثناء ذلك مات بإشبيلية الدون ألفونس الملقب بالحكيم وقد ترك الدون شانجه سيدا غير منازع على مملكة قشتالة ومملكة ليون التي تملك معظم أراضيهما. وعاد ملك فاس إلى إسبانيا بجيش لم يجز بمثله من قبل. وحاصر شريش الفرنتيرة. غير أن الملك الدون شانجه ومعه عبد الله قد اضطراه إلى رفع ذلك الحصار وإلى العودة إلى إفريقيا بعد أن عقد الهدنة مع أولهما. ولما أمن أمير غرناطة، اشتغل ببناء قصر الحمراء وبناء عدد من الحصون الاخرى. ومات أمير فاس تاركا لخلافته ابنه أبا سعيد، فوطد الهدنة مع الدون شانجه ودامت إلى سنة ألف ومائتين وأربع وتسعين .

وأثناء ذلك، كان النصاى في سوريا مضطهدين غاية الاضطهاد. فقد انتزع منهم سلطان مصر عددا من المدن منها طرابلس وصيدا وصور وبيروت وعكا، وفي العام الذي بعد هذا فتح روجي دي لوري مدينة طولومينت عنوة. ولكن سلطان مصر قد استردها في نفس العام، ولما قام بهدم مدينتي طرابلس وعكا رحل النصارى الذين كانوا فيها عن طريق البحر قاصدين كاندي وقد هلك جميعهم في الطريق بسبب هيجان البحر.

ولما انصرفت مدة الهدنة بين أبي سعيد وبين الملك الدون شانجه جاز أبو سعيد إلى إسبانيا وحاصر مدينة باجه، ولما ورد إليه الخبر بأن الدون شانجه قام لادراكها بعد أن عقد السلم مع ملك غرناطة رفع عنها الحصار وعاد إلى إفريقيا. وحينئذ دنا الدون شانجه من طريف حيث كانت حامية أبي سعيد، وأخذها عنوة، وولى عليها الفونسو بيريز قزمان، وعاد إلى قرطبة. ثم إن الدون جان وهو أخو الدون شانجه قد استاء لبعض الامور فجاز إلى بلاد البربر واحتفى به أمير فاس وأمده بجيش ليستعيد به مدينة طريف. وجاء يحاصر المدينة، ولما امتنع عليه أخذها هدد قزمان بقطع رأس ولده إذا هو لم يسلمها إليه. ولم يؤد هذا التهديد إلى

انذهال قزمان، بل إنه ألقى إلى مهدده بخنجر من فوق السور وكأنما هو يدعوه لتنفيذ خطته، ثم ناداه بما يفهم منه أن الارهاب لن يجدي أبدا في حمله على ترك طاعة الله وطاعة ملكه. ولما لم يتراجع عن تمرده رفع المسلمون الحصار ، وتبين لملك فاس أنه لم يفلح في حروب إسبانيا تخلى عنها وأعاد الجزيرة لملك غرناطة. وفي العام الذي بعده تولى الدون فرناند على مملكة قشتالة ومملكة ليون خلفا لأبيه الذي كان موته سببا في فتن عظيمة بإسبانيا، وذلك لأن الانفنت الدون الفونس دي لاسيرد وهو ولد الانفنت الدون فيرديناد دي لاسيردا كان يؤيده أمراء فرنسا وأرغون. وقد تلقب بملك ليون وقشتالة. وكان في ذلك سبب قيام ملك غرناطة بنقض الهدنة مع الدون شانجه وإلحاق أضرار جسمية بالبلاد. وفي أثناء ذلك قتل المسلمون الدون رودريق كبير سادة قلعة رباح وهو يهم بدخول إحدى مدنهم، كما هزموا الانفت الدون إنريق وقتلوه في معركة وقعت بمكان بين جيان وأرجونة. ولما اعتز ملك غرناطة بما أحرزه من النصر حاصر مدينة القبداق وفتحها عنوة وتابع انتصاراته في وقت كان فيه أمراء النصارى يتناحرون فيما بينهم. وما أن حل فصل الربيع من السنة الموالية حتى خرج للغزو، فحاصر جيان وقتل عند دخول أرباضها هنريق بيريز دي أرانا الذي كان عاملا عليها للدون فرنانده، ولكن عبد الله ما لبث أن رفع عنها الحصار لما تيقن من امتناعها عليه، وتم فتح قيجاطة عنوة، وعامل أهلها معاملة قاسية.

وفي عام ألف وثلاثمائة وواحد ظهر بالأناضول رجل من الأتراك يدعى عثمان. وكان في ظهوره عقاب للمسيحيين. أصله من قرية تسمى بنفس الاسم. كان فلاحا غنيا ثم تمرس بالبحر حتى قويت شوكته بسبب ما كان من الفتن في تلك البلاد، وبلغ به الأمر أن غزا معظم بيثينيا ومدن البحر الاسود وتلقب بالسلطان ووضع أسس أمبراطورية العثمانيين التي قامت على أنقاض العالم المسيحي. ولم تكن إسبانيا أقل اضطرابا من آسيا بسبب غفلة الأمراء المسيحيين الذين أتاحوا لأمير غرناطة أن يحدث فسادا كبيرا في الأندلس، ولولا أن الموت قد وضع نهاية لفتوحه لكان إضراره أبلغ مما كان وأدهى. وقد ترك خليفة له ولده مولاي محمد الملقب بالأعمى، ولما علم هذا المتولي أن أمير فاس قد مات وبأن أحوال الدولة مضطربة أرسل صهره عامل مالقة للاستيلاء على مدينة سبتة وغزو جهات أخرى.وقد عاد إلى إسبانيا بعد أن ترك حاميته بتلك المدينة. ثم إنه خشي

من وقوع بعض الفتن في دولته فطلب إبرام الهدنة مع الدون فرناند، وكانت شوكته قد قويت، فوافقه عليها وشرط عليه التبعية وبعض الاتاوة، ودامت تلك الهدنة أربعة أعوام.

وبينما كانت تجري هذه الوقائع في إسبانيا قام فرسان القديس يوحنا ببيت المقدس بغزو جزيرة رودس التي كانت بأيدي الأتراك. ولما استولوا عليها يوم عيد صعود العذراء أقاموا بها وحصنوها بقصد التحكم في الجزر المجاورة لها وجعلها الدرع الواقي لأراضي المسيحية.

وفي هذا العام تحالف الدون فرديناند ملك قشتالة مع ملك أرغون. وبعد أن حصل من البابا على إذن القيام بحملة صليبية نقض الهدنة مع صاحب غرناطة وحاصر الجزيرة الخضراء، بينما كان حليفه يحاصر ألمرية ، وقد دام حصار المدينتين مدة طويلة. وفي أثناء الحصار الأخير أراد ملك فاس أن يسترد مدينة سبتة، فطلب من ملك أرغون أن يمده بجفانه الحربية ووعده مقابل عونه بأن يتنازل للنصارى عن الغنائم وألا يعقد مع صاحب غرناطة سلما ولا يشن حربا على أرغون. ولقد بعث إليه ببعض السفن تحت إمرة قومت قسطلونة، فأمكن التضييق على تلك المدينة من جهة البر ومن جهة البحر حتى استسلمت في أواخر يوليوز من عام ألف وثلاثمائة وعشرة، وفي أثناء ذلك ذهب ملك غرناطة لانجاده فهزمه ملك أرغون وبسبب ذلك لم تسقط المدينة. وفي أثناء حصار الجزيرة بعث ملك قشتالة بجيش عليه الدون قزمان بقصد أخذ جبل طارق. وأدى ذلك إلى حمل ملك غرناطة على عقد الهدنة معه والتخلي له عن مدينتين [135] واعطائه مائة ألف قطعة ذهبية لكي يرفع الحصار. ولكن أخا ملك غرناطة استنكر ذلك الاتفاق فتآمر ضد أخيه مع بعض كبراء أصحابه فقتله وتقدم للتولي مكانه. ولما انخرمت الهدنة بموت صاحب غرناطة دخل الانفنت الدون بيطرة أخو الملك الدون فرناند أراضي المسلمين. وبعد أن عاث فيها فسادا حاصر مدينة القبداق ودخلها صلحا غير أن فرج [135م] عامل مالقة قد جيش عساكر ضد ملك غرناطة الجديد. ولما رأى هذا الامير أن العدو قد جاءه من كل جهة، دخل في تبعية الدون فرناند طمعا في انجاده .

---

(135) بلمار وقيجاطة .

(135م) هو ابن عمّ ابن الاحمر الرئيس أبو سعيد فرج بن إسماعيل صاحب مالقة (المترجم) .

ولكن فرناند مات في العام الموالي وترك خلفا له الدون ألفونس الحادي عشر وهو الذي أسس عصبة فرسان الوشاح. وأثناء ذلك قام إسماعيل وهو ابن فرج من أخت ملك غرناطة، معضدا بعسكر ملك فاس فجرد عمه من الملك واضطره إلى ترك المدينة واللجوء إلى وادي آش. فكان هذا القائم أول من وصل إلى الملك من نسب امرأة، وإن كان أبوه من هذا البيت المالك. وقد طال القتال بين هذا العم وابن أخيه، وكان الاول معززا بعساكر الدون ألفونس والآخر معضدا بعساكر بلاد البربر. ولما شبت بينهما نيران الحرب دخل الانفنت الدون بيطره إلى سهل غرناطة وأعلن الحرب على قائد جيوش إسماعيل فهزمه وقتله وقتل معه عددا من علية قومه، ثم رجع من طريق أخرى، واستولى على مدينتين، ثم رجع منتصرا إلى إشبيلية. وفي العام الذي بعده دخل سهل غرناطة. ولما كان عائدا بعد إفساد كبير في معظم جهاته بلغ الخبر بأن إسماعيل قد توجه لغزو جبل طارق، فرجع من حينه يقصد تعزيز تلك المدينة. ولكن إسماعيل انسحب إلى غرناطة. فتعقبه وعاث ثانية في هذا السهل، وأخذ بعض المدن الصغيرة دون أن يجروء الأمير المسلم على منازلته. ولما أحس إسماعيل بعجزه عن الصمود أسلم عددا من المدن لملك فاس طمعا في إنجاده وجاز إلى الاندلس عدد من المغاربة لتملك تلك المدن، وألحقوا أضرارا بجهات إشبيلية. وفي العام الذي بعده توغل الانفنت الدون بيطره في أراضي إسماعيل، وبعد أن فتح عنوة مدينة تشقار، دخل حصنها صلحا ثم رجع منتصرا إلى إشبيلية دون أن يتمكن مسلمو إفريقيا من منازلته. وفي شهر يونيه من عام ألف وثلاثمائة وعشرين توغل الانفنت الدون بيطره وعمه الانفت الدون جان في سهل غرناطة. وفي غداة يوم عيد القديس يوحنا بلغا أبواب المدينة وأمعنا في تحطيم كل شيء. ولكن قائد (136) جيوش إسماعيل خرج إليهم ومعه عدد من الفرسان والراجلة، وهاجم مؤخرة الجيش حين انسحابه، وهب الانفتان، وكانا من الامراء الشجعان، لانجاد الجيش المهاجم، ودخلا في وطيس حام أجهدا فيه النفس بين لم صفوف الجيش ورد الفلول وبين مباشرة قتال العدو حتى سقط كلا هما من شدة الحر وفرط التعب. وكان أول الهالكين هو الدون بيطرة، ثم سقط بعده عمه. وزعم بعضهم أنهما ماتا غما وحسرة. وقد انسحب جيشهما بلا خسارة أخرى غير هذا الرزء العظيم، ولما بلغ الخبر إلى إسماعيل جدد قواته مستعينا بملك فاس، فأخذ

---

(136) عسـاد .

عدداً من المدن هي : تشقار، وأورش، وغالير، ومارطوش، وكانت هذه الاخيرة شديدة التحصين. ثم أمضى الهدنة مع ملك قشتالة تحسبا لعداء أمراء فاس. ولم يخطيءظنه فيهم حيث إن عثمان ابن عم ملك فاس كان يتآمر سرا مع بعض الرؤساء من مسلمي الأندلس لكي يتخلصوا منه ويستبدلوه بغيره، تضايقا منه بما أدرك من العلو والاستكبار. وكذلك دخلوا قصره بعد العشاء ذات ليلة وانتقلوا من حجرة إلى حجرة وعملوا ما في وسعهم حتى قبضوا عليه وكانوا على وشك أن يتخنوا فيه بسيوفهم لولا أن أدركه أحد أصحابه فنافح عنه طويلا حتى وقع القبض على الخائنين وقطعت رؤوسهم. ثم نزل أصحابه إلى المدينة فقتلوا كل من اشتبهوا في تآمرهم. ولكنهم لم يمسوا ابن عثمان بأذى لانه كان مستظهرا بجيوش إفريقيا، بل وقعت به الاستعانة في إنزال العقاب بالمجرمين. وما لبث إسماعيل أن مات مثخنا بجروحه. وبعد موته بويع ابنه أبو الحجاج ملكا. ثم تلقب بأمير المسلمين إسوة بأبيه، وكان سادس الملوك من بني الاحمر. وفي عام ألف وثلاثمائة وخمسة وعشرين مات دوني ملك البرتغال في مدينة شنترين وترك لخلافته ولده ألفونس الذي لقب بالمعتز أو بالقاسي. ولما انتقضت الهدنة بموت إسماعيل قام ابن عثمان، رغبة في الظهور، بغزوة داخل مملكة قشتالة، فحاصر مدينة روطة، ولكن الدون مانويل عامل الأندلس قام بمنازلته بين قرطبة وانتقيرة، وقاتله حتى أهلك الصناديد من عساكره واضطر الباقون إلى أن يولوا الادبار. وفي نفس العام قدم أحد أبناء هذا القائد (137) إلى بلاط ملك قشتالة ومعه عدد من النبلاء بسبب ضيم لحقه من الملك. ولجأ الدون مانويل لعلة مماثلة إلى المسلمين، وفي العام الذي بعده ذهب الملك ألفونس لحصار مدينة أولفيره. ولما علم بأن المسلمين في إيمونت وفي عدد من المدن المجاورة بدأوا يخرجون نساءهم وأطفالهم تحسبا للحصار، أرسل لقتالهم جيوش إشبيلية فانهزمت وأخذ علمها. وقد غضب ألفونس لهذه الخسارة فضيق على المحاصرين حتى استسلموا صلحا بوساطة ابن عثمان الذي كان في خدمة الملك. ومن هنالك قام هذا الامير متوجها إلى إيمونت فأخذها وأخذ عددا من المدن الصغيرة في هذه الجهات. وفي نفس العام مات عثمان أمبراطور الترك وخلفه ابنه أورخان.

---

(137) وهو إبراهيم .

وفي أثناء ذلك قام أسطول أرغون بمهاجمة أسطول فاس وأرغمه على الفرار بعد أن أغرق أربعا من سفنه وأسر ثلاثا، وأسر اثنتي عشرة مائة من المسلمين. ومن جهة أخرى قام الدون مانويل بقتال الملك ألفونس وذلك بمساعدة أرغون. وكانت قد وقعت بينه وبين سيده ذاك نفرة لجأ بسببها إلى ملك غرناطة. وما لبث أن تصالح معه وعاد إلى خدمته. وفي نفس العام حاصر آلفونس مدينة تيبة ، وقد أعد عثمان العدة لاغاثتها ولكنه لم يقدر على الدنو من المحاصرين تهيبا للنزال حتى استسلمت المدينة في شهر غشت، وبعد ذلك أخذ مدنا أخرى. وقد تخوف أبو الحجاج من غزو ألفونس فدخل في تبعيته وتعهد له باثنى عشر ألفا من قطع الذهب إتاوة كل عام. ولكن العهد بينهما انخرم في العام الموالي، وقد عاد الدون مانويل إلى خدمة ملك غرناطة، ولمَّ المسلمون جيوشهم، ودخلوا مملكة مرسية حيث استولوا على حصن وادي الرملة وعاثوا فسادا في مجموع سهل أورجيلة وسائر تلك الجهات.

ولما مات يعقوب بن يوسف ملك فاس تقاتل على خلافته في الملك ولداه أبو الحسن وسعيد، (138) فانهزم سعيد وبويع أبوالحسن ملكا. وذهب سعيد مستجيرا بملك غرناطة فوعده بالامداد. وأوغر عليه بذلك صدر أبي الحسن، ولكن ملك غرناطة جاز إلى بلاد البربر إما بسبب عجزه عن الصمود للدون ألفونس أو بسبب رغبته في التكفير عما فعله في حق ملك فاس باحتضان أخيه. وقد صدر منه من الثناء في حق ملك فاس ما سكنت به روعة هذا الأخير، وتلقى منه الوعد بتعزيزه في قتال ملك قشتالة. وفي العام الذي بعد هذا أرسل إليه ملك فاس ولده عبد الملك ومعه ثمانية آلاف من الفرسان وعدد من الراجلة فنزلوا بالجزيرة. وما لبث عبد الملك أن حمل لقب أمير الجزيرة. وبادر إلى غزو جبل طارق فأخذها وأخذ الجبل المشرف عليها، ومكنه عاملها من القلعة. ولكنه خشي سوء المعاملة من أميره ففر إلى بلاد البربر. وفي أثناء ذلك دخل صاحب غرناطة إلى مملكة قرطبة وبعد أن استولى على مدينة كاستروديلريو دمر القلعة بعد أن أخذها صلحا ثم عاد إلى غرناطة منتصرا. وما أن علم الملك ألفونس بالاستيلاء على جبل طارق حتى هب لحصاره. غير أن ملك غرناطة أراد أن يصرفه عن تلك الوجهة

(138) الصحيح هو وقوع النزاع بين أبي الحسن وأخيه أبي علي بعد وفاة أبيهما أبي سعيد عثمان بن يعقوب . وقد وقع للمؤلف هنا خلط في الأسماء والوقائع (المترجم) .

فدخل بلاده وأخذ مدينة بني مشيش ومنها انصرف إلى قرطبة. وعاث فسادا في تلك البلاد حتى اضطر ألفونس إلى رفع الحصار بعد أن وقع بين جيشين يقطعان عنه الازواد. وفي نفس العام قام هاشم ولد عثمان وأخ له باغتيال ملك غرناطة للاستحواذ على الملك، غير أنه وقع ما يخالف ذلك حيث إن أهل غرناطة اختاروا للامارة أحد أولاد الفقيد ودخل هذا الامير توا تحت حماية ملك فاس فنال منه التعزيز والتأييد وإن كان أصغر أولاد صاحب غرناطة سنا. ولقد كان أميرا شهما حكم عشرين عاما، وهو الذي بنى قصر الحمراء الفاخر، وبنى قصر قمارش وهو إحدى النفائس التي تزين هذا القصر، كما بنى مدخله الفخم ونقش عليه بالحروف العربية على مرمر مصقول : «أمر ببناء هذا الباب المسمى باب الشريعة أسعد الله به شريعة الاسلام كما جعله فخرا باقيا على الايام، مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد العادل أبو الحجاج يوسف بن مولانا أمير المسلمين السلطان المجاهد المقدس أبي الوليد بن نصر كافى الله في الاسلام صنائعه الزاكية وتقبل أعماله الجهادية» (139) وقد تم بناء هذا الصرح في السابع والعشرين من شهر المولد عام سبعة وأربعين وسبعمائة. فسنوات التاريخ الهجري سنوات قمرية كما سبق أن ذكرنا وهي تقل بأحد عشر يوما عن شهورنا . لذلك وجب إنقاص اثنتين وعشرين سنة من هذا العدد. ولقد تكنى كل أمير من أمراء غرناطة بأبي عبد الله محمد، ووهم بسبب ذلك بعضهم أنهم تسموا جميعا بهذا الاسم، والحق أنها كنية حملوها تعظيما وتبركا.

رجع إلى خبرنا. دخل ملك فاس في حرب شعواء ضد صاحب تلمسان، ولذلك استدعى ولده عبد الملك من الأندلس فرجع إليه بجيوشه بعد أن عقد هدنة مدتها أربع سنين مع ملك قشتالة وأدرج فيها صاحب غرناطة الذي أرسل هو أيضا عساكره لملك فاس . وقد دامت تلك الحرب ثلاث سنوات انهزم فيها صاحب تلمسان وضيع ملكه وضيع سجلماسة وهي متاخمة للمغرب الاوسط (نوميديا). وقد تابع ملك فاس فتوحه حتى استولى على تونس وصار من أقوى الأمراء الذين سادوا في إفريقيا منذ انحطاط امبراطورية الخلفاء . وبعد هذه الانتصارات وجه همته لغزو إسبانيا فأرسل عددا من الاسلحة وعدة الحرب إلى

(139) النص الأصلي مأخوذ للترجمة من كتاب عبد الله عنان : « نهاية الاندلس » .

الجزيرة الخضراء وجبل طارق وماربلة ومالقة وهو يعتزم أن يشهد الحرب بنفسه. وبينما كان منهمكا في الاستعداد لتلك الأمور العظام أرسل ولده أبا مالك على رأس جيش عظيم ضاربا عرض الحائط بالهدنة التي لم تنصرم مدتها بعد. ثم إن ملك غرناطة قد جمع جيوشه وحاصر سيلوس. ولكن رئيس الغزاة الدون ألفونس دوقزمان قد هب لنجدتها فانهزم المسلمون وأُجبر الملك على الانسحاب بعد ما تكبده من الخسارة. ولما رأى ملك قشتالة وملك أرغون ما اشتغل به ملك فاس من الاستعداد الكبير لحربهما وما ظهر من ذلك عندما استولى على جبل طارق مستعملا أربعين سفينة مأجورة من جنوة وسبعين سفينة أخرى من سفنه وسفن أتباعه، اشتد خوفهما من هذا الفاتح العظيم فأخذا في تجهيز الاساطيل والجيوش وتزويد الثغور بما تشتد إليه حاجتها ويضمن به صونها. وكان خوف أحدهما على إشبيلية وقرطبة وخوف الآخر على بلنسية. وفي أثناء ذلك كان أبو مالك يضر ما وسعه الاضرار بأهل مدينة ابن السليم وأهل شريش، وكان قد أرسل جيوشه لاراضي ليبريشة وأراضي أركش فعادت محملة منها بالغنائم. ولكن عمال تلك البلاد جمعوا قواتهم وهزموا تلك الجيوش واستعادوا ما حملته من الاسلاب. ثم إن أبا مالك قد توجه إلى قلعة جزولة فاجتمع له نبلاء ثغر شريش الفرنتيرة وجهات أخرى مجاورة، وهاجموا معسكره على حين غرة فقتلوا عددا من رجاله من بينهم أحد أبناء عمومته كان يدعى علودان (140) وفاجأه الهجوم ولم يتسن له ركوب فرسه وفر على رجليه هاربا. ولكنه لم يستطع الابتعاد بالسرعة اللازمة، وخاف أن ينكشف أمره، فآوى إلى غيضة أشواك هنالك. ولما رأى أنها لا تستره استلقى على الأرض كمن فارق الحياة. ومر به أحد النصارى فطعنه بالرمح طعنتين وتركه. ولما لم يعد يرى أحدا تابع طريقه. وبعد حين لقي مسلما فأمره بإعلام أصحابه بحاله. غير أن جراحه قد نزفت كثيرا فكان لا يتقدم خطوة حتى تخور قواه ويتهاوى إلى الأرض، فاضطجع قرب مسيل ماء وأسلم الروح هنالك. ولما وصل المسلمون اخرجوا جثته من المسيل وحملوها بألم عظيم إلى الجزيرة، ومن هنالك تم نقلها إلى بلاد البربر. وقد عجل موته برحيل أبيه قصد الانتقام له، ولم يكتف بما جمعه من الجيوش بل دعا إلى الجهاد في مجموع بلاد إفريقيا. وفي تلك الاثناء قتل المسلمون

---

(140) ورد مكتوبا هكذا : Aliatan

في جبل طارق قائد أسطول ارغون. وكان ذلك سببا في عودة قواته البحرية التي كانت تحرس المضيق، وإن كان بعضهم يزعمون أن رجوع تلك القوات كان على إثر وصول خبر الهجوم على مملكة بلنسية. وبعد أن أتم ملك فاس تدبير الاستعداد وحشد مائتين وستين سفينة لحراسة المضيق خرج من فاس متوجها إلى سبتة وهو يتوعد بقتال أمراء النصارى . وما أن بلغ خبر ذلك الزحف حتى انفرط عقد النصارى وتبددت عساكرهم وأسلحتهم وأفراسهم وعدتهم، ولم يستطع قائد أسطول الملك ألفونس بسفنه السبع والعشرين أن يحول دون الانفراط. ولما فشت الاخبار بتلك الحال صمم على أن يلقي بنفسه إلى الهلاك وذلك بمنازلة سبعين سفينة حربية كبرى بجانبها عدد من القوارب، فلقي حتفه وهلكت معه خمس وعشرون من سفنه. ومنذئذ جاز المسلنون بلا خوف ولا وجل. ولما دخل في اعتقادهم أنه لا شيء يستطيع أن يقف في طريقهم جاءوا بنسائهم وأولادهم لتعمير البلاد. وخلال أربعة أشهر جاز إلى الجزيرة الخضراء وجبل طارق ومالقه وماربلة وغيرها من الحواضر أناس من جميع الاجناس والاعمار، ويعتقد أن عددهم ينيف عن سبعين ألفا من الفرسان وأربعمائة ألف من الراجلين .

وبعد أن جاز السواد الاعظم جاز الملك. ومعه رجال بلاطه وحاشيته. وسرعان ما انتشر الخبر بأنه عازم على حصار طريف ليمر من هنالك إلى إشبيلية. وفي السابع والعشرين من شتنبر عسكر أمام هذه المدينة وحاصرها من كل الجهات، وشدد في الحصار برصد العساكر بين المدينة وبين البحر حيث لم يمكنه إعمال الخنادق وذلك للحيلولة دون دخول أي شيء أو خروجه. وزاد على ذلك بأن خندق على المدينة من جهة البر لمنع وصول النجدة. وقد كان في هذه المدينة جان ألفونس دي بينابيديس وروي غوميس دي كاستانيدا وجان فرنانديس كورنيل وفرناند كاريو وبيدروكاريو وشانجه مارتينز ومنكيل لوبيز دي هاروسكو، وغيرهم من الرؤساء الشجعان والسادة النبلاء. وقد سعى الملك ألفونس إلى مساعدتهم فأرسل فرناند رودريكيز إمام دير القديس يوحنا ومعه خمسة عشر من القوادس الشراعية واثنتا عشرة سفينة قصد إغلاق المضيق ومنع المرور منه، لأن طائفة من بحارة العدو كانت قد عادت إلى بلاد البربر وطائفة أخرى تجوب سواحل بلنسية حيث كانت تأسر السفن المحملة بالأقوات والعدة إلى المعسكر ولكن الرياح عصفت بتسعة من تلك القوادس. فهلك عدد من الرجال ورجع

آخرون إلى القنت. وظل المسلمون يعبرون المضيق دون منازع. وفي أثناء ذلك توجه ملك غرناطة إلى المعسكر ومعه سبعة آلاف من الفرسان وأكثر من خمسين ألفا من الراجلة تتبعه عددمن العربات المحملة بالأقوات. وعظمت بلية النصارى بما استحكم بين ملك قشتالة وملك البرتغال من النفرة ولقد أرسل ملك قشتالة زوجته إلى أبيها ملك الرتغال بقصد التوسط لديه في عقد السلم بينهما، ولكنها أخفقت في التوصل إلى أي اتفاق، وعادت بغمة شديدة. ولما كانت في طريقها بين أوليفانشا وبطليوس جاءها الخبر بوقوع الصلح بين الملكين، فأمرت بأن تبنى كنيسة في هذا المكان مازالت تسمى بكنيسة العذراء. ولقد توجه الملكان المذكوران بجيشهما إلى إشبيلية بقصد الزحف لانجاد طريف. فعسكرا قرب نهر سالادو على فرسخ من شريش، ولقد توجه إلى شريس قائد أسطول أرغون ومعه جيش من جنود البحر، ثم توصل بالأوامر لمراقبة المرور عبر المضيق، فعسكر قرب طريف وهو ينتظر أسطول جيش البرتغال. ولما رأى أمراء المسلمين ما أبرمه النصارى قرروا أن يعسكروا على سفح الجبل دون رفع الحصار، وكان النصارى على سفح آخر يدعى بحجرة الأيل. وبدأ التناوش بين الفريقين وأرسل أمراء النصارى ألف فارس وأربعة آلاف من الراجلة إلى جهة طريف لقتال ولد ملك فاس الذي كان يحرس الممر بألفين من الفرسان، فاخترقوا صفوفه وقتلوا عددا من رجاله وتمكنوا من إيصال نجدة إلى المدينة. وبعد ذلك أمروا بالدخول في المعركة ومنازلة العدو. أما ملك قشتالة فقد تصدى لملك فاس وكان قد رتب صفوفه في السهل جهة البحر. أما ملك البرتغال فقد نازل صاحب غرناطة وكان على سفح الجبل. ولما تمكن النصارى من المرور بين البحر والصخرة وكانوا معسكرين عليها، بدأوا معركة دامية أظهر المسلمون في أولها دفاعا مستميتا، ولكن الارتباك دب إلى تلك الجموع الكثيرة، فلاذوا بالفرار حتى بلغوا الجزيرة، ومنها جاز ملك فاس إلى سبتة ومر صاحب غرناطة إلى ماربلة، وتحقق النصر التام للنصارى. وقد أجمع كل المؤرخين على القول بأن عدد من هلكوا فيها من المسلمين مائتا ألف وأن من هلكوا من النصارى عدد كثير. ولما عاد المنتصرون إلى بلدانهم أقيمت المسرات الحافلة والمواكب الشاملة شكرا على هذا النصر العظيم.

وما أن حل العام الموالي حتى قام الدون ألفونس صاحب قشتالة بمتابعة زحفه فدخل مملكة غرناطة حيث استولى على قلعة بني سعيد الحصينة التي تدعى

بالقلعة الملكية. ثم استولى كذلك على حصن لقبين وعلى مدن قرطبة وباغة وروطة وبني مشيش وعلى عدد آخر من مدن هذه الجهة وقام قائد أسطوله بقتال أسطول صاحب فاس وأغرق منه ستة وثلاثين من القوادس، وأسر اثنين وعشرين. وفي نفس العام أمر الملك ألفونس بحصار جبل طارق وقاتل أهله قتالا عنيفا، ولكنه لم يتمكن من أخذه. وقد توجه من هنالك إلى الجزيرة مصحوبا بملك نبرة. ولما هب المسلمون لنجدتها قاتلهم قائد أسطول أرغون وأخذ اثنى عشر من قوادسهم.

وبينما كانت تجري هذه الحوادث في إسبانيا كانت آسيا تعاني بدورها من الانقسامات. فقد استغل الأتراك الخلاف بين دعيين متنازعين على الامبراطورية ليتوسعوا على حسابهما. فقد كان الطامح من أسرة باليولوج البيزنطية يشن الحرب على الطامح من أسرة كانتاكوزين وكان الامبراطور التركي أورخان قد استولى على بورصة وطفق يحقق انتصارات في كل مكان، وكان قد أصهر إلى الدعي من أسرة كانتاكوزين فتظاهر بقصد إنجاده فاستولى على مجموع بلاد قارامانيا، وبعد أن قتل واحدا من أولاد كانتاكوزين جرد والده من معظم ولاياته. وبالرغم من أن الامراء المسيحيين كانوا يرون بوضوح أن قوة السلطان التركي كانت تعظم على حساب قوة النصرانية، وبالرغم من أنهم كانوا يتمنون من قلوبهم أن لو كانوا صفا واحدا في وجهه، فإنهم لم يفعلوا شيئا إذا استثنيا أهل البندقية الذين أرسلوا قوة بحرية تجوب سواحل سوريا بدون جدوى أضف إلى هذه الحال أن البابا قد أدركه الموت في الوقت الذي أصدر فيه نداء للقيام بحملة صليبية.

ومن جهة أخرى قام ملك فاس بعد عودته إلى إفريقيا على إثر انهزامه بالدعوة إلى الجهاد في جيمع البلاد. وأقبل على تكثيف الاستعداد بقصد الجواز ثانية إلى إسبانيا. ولكن ما أن وصل إلى سبتة لانفاذ ما يتعين من الاوامر حتى ثار ضده أحد أبنائه (141) واتبعه أهل مكناسة ومدن أخرى. فأنفذ إليه السلطان أحد كبار الفقهاء قصد استرضائه، وبعد أن جرده من السلاح دبر في السر اغتياله. ثم إنه بعث أحد أبنائه لانجاد الجزيرة ومعه ستون من القوادس المحملة بالعساكر، وأمره بالانضمام فور وصوله إلى ملك غرناطة الذي دخل مملكة قشتالة بقصد صرف النصارى وإلهائهم ، وقد دمر بعض المدن وعاث فسادا في عدد من الجهات

---

(141) عبد الرحمن .

ولكن الدون ألفونس كان يزيد من التضييق على الجزيرة ويضاعف هجماته غير مصغ إلى عروض الصلح والاتفاق. ثم إن فرناند غنصالة داغويلار وآخرين من ولاة الثغور قد اجتمعوا للتصدي لملك غرناطة فهزموا طائفة من رجاله قرب نهر المروج وهم عائدون بعدد من الماشية والاسرى فجردوهم من كل غنائمهم. وفي تلك الاثناء انضمت جيوش ملك غرناطة وتوجه الجميع إلى الجزيرة بنية إنجادها أو القتال دونها. ولكن الدون الفونس لم يتزحزح عن خنادقه، ولما رأى المسلمون أنهم لا يقدرون على مهاجمته تقهقروا في اتجاه جبل طارق عازمين على مضايقته بعمليات قرصنية لأنه كان يرفض كل اتفاق. ولما رأوا أن المدينة قد سقط معظمها تفاوضوا على تسليمها لأن ابنا آخر من أبناء ملك فاس قد ثار على أبيه وانتزع منه منذئذ جميع ولاياته. وعلى إثر ذلك وقع تسليم الجزيرة مقابل هدنة تدوم مدتها عشر سنين وإتاوة يؤديها صاحب غرناطة مقدارها اثنا عشر ألف قطعة ذهبية. وبعد ذلك وقع تسليم مدينة الجزيرة فدخلها ألفونس في الثالث والعشرين من مارس عام ألف وثلاثمائة وأربعة وأربعين. وبقي بيد ملك فاس جبل طارق ورندة وماربلة وحصن الصفراء وإشتبونه وقسطلار بما في ذلك الحصون التابعة لها .

لما انتزع أبو عنان ولد صاحب فاس الملك من أبيه أراد القيام بمبادرة ضد النصارى تمكينا لسلطانه، فجمع لذلك عددا عظيما من الجيوش في سبتة وغيرها من المدن البحرية. لكن والده الذي كان قد التجأ إلى جهات سجلماسة قد استعاد عددا من حواضر مملكة فاس بفضل تعزيز أهل نوميديا (أهل المغرب الاوسط) فاضطر بذلك ابنه إلى صرف قواته إلى هذه الناحية .

وكان الدون ألفونس قد جمع قواته للتصدي لمسعاه، ولكنه لما علم بتغيير وجهته تقدم لحصار جبل طارق، غير أن الطاعون تفشى في معسكره وهلك فيه في السابع والعشرين من مارس وترك العرش لولده الدون بيطرة الذي لقب بالقاسي. ولقد ترتبّ عن موته رفع الحصار وإن كان هنالك من يرى أن الحصار استمر أربع سنوات أخرى .

وبينما كانت هذه الحوادث تجرى في اسبانيا استطاع التتار الذين كانوا يجوبون مجموع بلاد آسيا وهم يجرون ذيول النصر، استطاعوا أن يهزموا أورخان ويقتلوه ويقتلوا معه أكثر من خمسين ألفا من الاتراك . ولكن ولده مرادا قد أخذ منهم الثأر في بعض المعارك واستولى مندئذ على جزء من أقاليم الأمبراطورية الاغريقية . ذلك دفع بالامبراطور كانتاكوزين إلى اليأس حتى إنه تنسك وترك العرش للأمبراطور من أسرة باليولوج . ولكن هذا الأخير أشرك ابن كانتاكوزين المسمى ماتيو في شئون الأمبراطورية . ثم إن كَي ملك قرطبة لما رأى توسع مراد ، وكان قد استولى منذ وقت قليل على كَاليبولي قد طلب النجدة من البابا ، فبادر هذا الأخير إلى النداء بقيام حملة صليبية . ولكن وفاة البابا والخلافات بين الأمراء النصارى بددت هذه المساعي .

وفي العام الذي بعد هذا استعان ملك فاس بالدون بيطرة صاحب قشتالة فهزم والده في إقليم قوس ، وبذلك الانتصار صارت له جميع ولاياته ، ومنذئذ تم له تغريم مملكة تلمسان ومملكة تونس . وقد زين هذا الأمير مدينة فاس بالمباني الفاخرة ، منها مدرسة تحمل اسمه ، ولقد فاقت غيرها من مباني هذا العصر سواء في تصميمها أو في غناها ومواردها .

وفي نفس العام وقع اغتيال صاحب غرناطة من طرف أحد رعاياه ، وترك الملك لعمه أبي الوليد الذي تكنى بأبي عبد الله . وفي عام ألف وثلاثمائة وسبعة وخمسين مات الفونس ملك البرتغال ، وترك من بعده على الملك ابنه الدون بيطره الذي لقب بالعادل . وبعد عامين من تتويج أبي الوليد استولى أحد أهل بيته ، وهو محمد ، على الحمراء وطرد أبا الوليد بمساعدة إدريس بن عثمان وآخرين من رؤساء غرناطة ، وبعد ذلك استولى على مدن المملكة وحصونها ، واضطر أبو الوليد على اثر ذلك للفرار إلى رندة لعله يحصل على بعض العون من صاحب فاس ومن صاحب قشتالة على السواء ، وكان هذا الأخير آنئذ بإشبيلية . ولكن محمدا عقد الهدنة مع ملك أرغون ضد أبي الوليد ، كما أرسل سُفراءه في نفس الموضوع الى ملك قشتالة ، ولكن هذا الأخير لم يقبل أن يتعاقد معه حتى قطع علاقاته مع ملك أرغون ، ولكن هذا الارتباط لم يمنع الأمير المسلم الذي كان يخاف أن تضيع منه إمارته من عقد معاهدة سرية مع ملك أرغون وملك فاس ضد الدون بيطرة، ذلك لأن ملك أرغون وملك قشتالة كانا يتحاربان . ولكن ملك فاس الذي

كان صديقا للدون بيطرة قد بادر بإعلامه بتلك المعاهدة فما كان منه إلا أن عقد الصلح مع ملك أرغون نكاية في الناكث . ومع ذلك فقد أرسل في طلب أبي الوليد وتعاهد معه في اشبيلية وذهبا معا لحصار مدينة انتقيرة ، ولما امتنع اخذها ذهبا إلى سهل غرناطة بقصد القيام ببعض التحركات المثيرة في المدينة استجابة لرغبة ملكهما ، ولكن بدون طائل ، فعادا إلى اشبيلية . وبعد انسحابهما قام المسلمونَ من غرناطة ووادي آش بالتسرب من عمل كازورلا ونهبوا حصن بيال دي بيسيرو وعادوا من هنالك مسرعين بعدد من الأسرى والغنائم . ولكن الدون دييكَوغارسيا كبير سادة قلعة رباح والدون هنريق هنريقيز عامل الثغر ومينِدو رود ريقيزدي بييدما الذي كان يقود رجال أسقف جيان تصدوا لهم وهزموهم وقتلوا منهم عددا كبيرا ، واستعادوا منهم ما أخذوه من الغنائم . وفي العام الذي بعد هذا دخلوا أرض المسلمين و كمنت لهم كتيبة من الفرسان كانت آوت إلى المدينة فهزمتهم بعد أن دافعوا عن أنفسهم دفاعا مستميتا . وقد قبض كبير سادة قلعة رباح بينما قتل معظم الباقين أو أسروا . ولقد قام صاحب غرناطة بتسريح السيد المقبوض عليه تطييبا لخاطر ملك قشتالة وطمعا في أن يَقبله في تبعيته ولكن مبادرته ذهبت سدى حيث إن ملك قشتالة دخل في نفس العام إلى مملكة غرناطة واستولى على بعض الحواضر وعاد إلى إشبيلية محملا بالغنائم . صحيح أن الأمير المسلم(142) مالبث أن استرد بعض هذه المدن ولكنه ماكاد يولي ظهره حتى استولى أبو الوليد من جهة والدون بيطرة من جهة أخرى على حواضر جديدة . ولما تبين للأمير المسلم أنه لن يصمد طويلا سار في أربعمائة من الفرسان ومائتين من الراجلة للقاء الدون بيطرة في إشبيلية ليحكمه في الخلاف الذي كان بينه وبين أبي الوليد وليعرض عليه الدخول في تبعيته بمثل الشروط التي انعقد عليها الصلح مع أسلافه . وأظهر الملك الحفاوة به ووعده بالاستجابة لطلبه ، ولما كان الغد من يوم وصوله استدعاه لطعام العشاء . ولما كان على مائدته أمر بالقبض عليه ، وكان يواخده بقتل أبي الحجاج وبما ارتكبه من الطغيان ، فأركبه على حمار وسار من خلفه خمسة وثلاثون من كبار أهل حاشيته وأمر بأن يتقدم مناد يذكر في الطرقات بأعلى صوته السبب الذي عامله من أجله تلك المعاملة . وفي النهاية أمر باقتياده إلى الساحة المعروفة بساحة طابلادا ، وشهد قتله وقتل جميع الذين كانوا بمعيته . ومن الناس من يذهب الى القول بأن بيطره طعنه بحربة وهو يقول له إن ذلك جزاء

(142) عبر عنه بالكافر .

حمله على إمضاء عهد مع أمير أرغون كان سبب ضياع حصن حريزة ولكن الأمير المسلم رد عليه قائلا : يا له من عمل باهر تقوم به اليوم يا دون بيطره وعلى اثر ذلك قطع رأسه . وما أن علم أبو الوليد بموته حتى قدم غرناطة وأجمع أهلها على الدخول في طاعته وسمى بمولاي الشيخ بسبب تقدمه في السن وما سبق من توليته ، وحينئذ أرسل إليه الدون بيطره رأس محمد وجزاء على ذلك قام هو بتسريح جميع اسرى هزيمة قادس وأقر له بالتبعية .

وأثناء ذلك تابع مراد فتوحه فانتزع من النصارى مدينة فيليبوس ومدينة أدرنة . وقام الجنويون طمعا في المال بحمله والجواز به إلى أوربا مع ما في ذلك من الاضرار الفادح بالنصرانية . ومن جهة أخرى قام الدون بيطره صاحب قشتالة يعززه ملك غرناطة بتجديد الحرب ضد ملك أرغون ودامت تلك الحرب إلى قيام حرب مدنية بينه وبين أخيه كونت ترانستاماتار الذي أعانه بعض كبار النبلاء من قشتالة وأرغون وفرنسا في الاستيلاء على مدينة قالاهور . ولكن ملك غرناطة اغتنم فرصة تلك النزاعات فاستولى على حصن عشر . ولما آلت مقاليد الدولة شيئا فشيئا إلى كونت ترانستامار دخل صاحب غرناطة في تبعيته ، بينما لجأ الدون بيطرة إلى بايون ..

وأثناء ذلك مات الدون بيطرة ملك البرتغال وترك خلفا له فرناند . وفي نفس العام طلب ملك غرناطة من ملك أرغون أن يعقد معه الهدنة فاستجاب له بعد أن أخذ منه العهود المشفوعة بالأيمان على ألا ينجد الدون بيطرة وألا يبرم معه هدنة ولا سلما . ومع ذلك فما أن عاد الدون بيطرة وتمكن من التغلب على أخيه حتى بادر صاحب غرناطة إلى مسالمته ، ولما عاد قومت ترانستامار بعد ذلك معززا بجيش من الفرنسيين داخل أراضي قشتالة ، وقام صاحب غرناطة مؤيدا لصديقه بيطرة فأدركه بسبعة آلاف من الفرسان وثمانين ألفا من الراجلة ، وحاصر معه قرطبة التي كانت موالية لقومت ترانستامار، ولما تعذر أخذها عاد إلى قرطبة . وفي نفس العام زحف لقتال جيان فاستولى عليها ونهبها ولكنه لم يتمكن من أخذ قلعتها . ثم انتقل منها إلى بلد وبذة . فدخلها عنوة وأعمل قرصنة في أراضي مرشانة وأطريرة ثم عاد الى غرناطة بما زاد عن اثنى عشر ألف أسير ولم يسرح جيوشه حتى استرد عددا من الحواضر الصغيرة التي كان قد انتزعها الدون بيطره

من المسلمين قبل ذلك بمده يسيرة . وبعد ذلك حاصر كونت ترانستامار مدينة طليطلة فطلب الدون بيطرة النجدة من صاحب غرناطة بقصد رفع الحصار . فأرسل إليه عددا من الفرسان ، ولما خسر الدون بيطرة تلك المعركة عاد المسلمون إلى غرناطة وانسحب المهزوم إلى حصن مونتيل واعتصم هنالك حتى قتله أخوه فخلص له بتلك الوسيلة ملك قشتالة وليون . ولما زحف ملك البرتغال بقصد القتال في أراضي ترانستامار اهتبل صاحب غرناطة تلك الفرصة فانقض على الجزيرة وجعلها دكا ، ولم تقم لها قائمة بعد ذلك . وفي نفس العام عقد ملك أرغون هدنة لمدة خمس سنوات مع صاحب غرناطة وصاحب فاس . وقد أراد هذا الأخير أن يعيد تعمير الجزيرة الخضراء لكن قائد أسطول قشتالة أسر جميع سفنه والسفن التي كانت في عرض الجزيرة . وبعد ذلك انتهز صاحب غرناطة فرصة النزاعات بين النصارى فأتلف كثيرا في جهات الأندلس بدعوى تعضيد من كان في قرمونة من أبناء الدون بطرة . ولم تدم الحال على ذلك مدة طويلة ، ذلك أنه ما لبث أن عقد الهدنة مع ملك قشتالة الذي دخل في نزاع طويل مع كل من ملك نبرة وملك البرتغال .

أما في آسيا، فقد استولى مراد على طرف من أقاليم الامبراطوية بعد أن قتل عددا من النصارى وهزم طاغية سرفيا واستولى على البلاد التي كانت تحت إمرته ثم أمر بقتله . ولما دخل بعد ذلك إلى ميزيا العليا طعنه أحد خدام الطاغية المذكور انتقاما لسيده المقتول . وبعد موته آل أمر امبراطورية الاتراك إلى بايزيد . ولما هزمه قام بمقتله عظيمة في رجاله . وبعد ذلك عاث فسادا في أقاليم البوسنة وكرواتيا وإسكلافونيا وألبانيا وفلاشيا حيث سقط آلاف النصارى ما بين قتيل وأسير ، وكان ذلك مبعث رعب عمّ أمم النصرانية .

أما في إسبانيا فقد مات ملك قشتالة في شهر مايو من عام ألف وثلاثمائة وتسعة وسبعين، اغتاله مسلم من غرناطة جاء متظاهرا بالدخول في خدمته، فأهدى إليه، فيما أهدي، حذاء مسموما ما إن انتعله حتى مات منه تاركا ولده الدون جان خلفا له في الملك . ومات أيضا ملك غرناطة وترك ملكه لولده أبي الحجاج ولقي قبولا عاما ، وعقد السلم مع الدون جان ولم ينقضها مدة حياته . ولما لم يكن مشغولا بالحروب فقد انكب على تدعيم مملكته فأقام في غرناطة كثيرا من المباني الجميلة وقربه ذلك من قلوب رعاياه ، ولم يحدث في عهده ما يستحق الذكر بين

النصارى والمسلمين . وفي عام ألف وثلاثمائة وخمسة وثمانين مات الدون فرناند ملك البرتغال تاركا العرش للدون جان الملقب بالمذكر . ومات ملك قشتالة هو أيضا بعد أن خاض حروبا شديدة ضد دوق لانكلاستر وضد آخرين من أمراء النصرانية. وترك الملك لابنه هنري، كما خلف أبو عبد الله ابن ملك غرناطة والده، فكان الملك الحادي عشر من هذه الأسرة وكان صديقا حميما للنصارى . قد كانت له حروب مع ولده مولاي محمد الذي أراد أن يخلعه من العرش معتضدا بابن أمية وبأمراء آخرين من المسلمين، ولكنه اضطر في النهاية الى مصالحة أبيه.وبما أن ملك غرناطة كان يعيش في سلام مع ملك قشتالة فقد قام كبير فرسان القنطرة ، وكان برتغاليا ، يتحداه بأن يبعث مائة من رجاله للقاء مائتين من رجال صاحب غرناطة أو يبعث خمسمائة للقاء ألف ليبين للناس أن دين يسوع المسيح أفضل الأديان . ولم يستطع حتى الملك أن يثنيه عن المضي في هذا التحدي لأنه لم يكن ينقاد إلا لنصيحة ناسك كان يملي عليه هذا المصير . ولما اجتمع له عدد من العساكر توجه إلى غرناطة وعسكر على مقربة من نهر آصور دون اعتبار للهدنة المعقودة . ولكن ملك غرناطة جاء وانقض عليه بغتة بعدد من الفرسان والراجلة . وقضى على فرسان ذلك السيد إلا قليلا منهم وقتل أكثر من ألف ومائتين من الراجلة ، وفر معه من نجا منهم إلى قلعة الملك . ولم تنتقض الهدنة بهذه الهزيمة لأن تلك المغامرة كانت بدون موافقة قشتالة . وبعد عامين دبر ملك فاس قتل ملك غرناطة لانه كان يكن له كراهية شديدة وكان ذلك بأن أرسل إليه سترة مسمومة في عدد الهدايا . وبعد مضي شهرين من ارتدائه تلك السترة قضى نحبه بعد أن تساقط لحم بدنه إربا . وقد خلفه ولده محمد واستدام السلم في عهده مدة طويلة مع ملك قشتالة .

وفي نفس العام تابع بايزيد حروبه ضد الأمبراطورية ، وانطلق لحصار القسطنطينية بجيش عظيم ، ولما بلغه الخبر بأن فرنسا وانكلترا وبولونيا قد أرسلت لقتاله قوات عظيمة زحف للقاء تلك القوات في نيكوبوليس. كان الجيش النصراني عشرين ألفا من الراجلة. ووقعت معركة دامية كانت الغلبة فيها للمسلم (143) وإن كانت خسائره فيها أعظم من خسائر النصارى. أما فرسان فرنسا الذين

---

(143) عبر عنهم كذلك بالكفار .

كانوا في مقدمة الجيش فقد سقطوا جميعا في القتال أو في الاسر . وأما الملك سيجيسموند فقد فر بمشقة إلى ساحل البحر حيث وجد سفينة نصرانية على وشك الاقلاع ، فجاز إلى جزيرة روديس ومنها عاد إلى المجر ، وكان أهلها قد أقاموا عليه المآتم . وقد فسر البعض هذه الخسارة الكبرى بالانقسام في صفوف المسيحيين حيث كان الفرنسيون يريدون أن تكون لهم الصدارة على المجريين ، فكانت النتيجة عدم التعاون بين الفريقين . وكان أن بدأ أهل فلاشيا ثم أهل ترانسيلفانيا بالانسحاب وراء إتيان لوفايفود وبذلك تمكن المسلمون من الانتصار . ولما حقق بايزيد ذلك النصر عاد إلى حصار القسطنطينية . ولكنه مالبث أن اضطر لفك الحصار بقصد التوجه للقاء تيمورلنك الذي دخل أراضيه وعاث فيها فسادا . وكان هذا القائد قد بلغ من القوة شأنا عظيما ، فبعد أن كان ملكا للتتار وحدهم صار أمبراطورا للأتراك ومالكا للجزء الاعظم من شيتيا الاوربية وسيد إيبيريا وفارس وألبانيا وميديا وأرمينيا وما بين النهرين وآسيا الصغرى ومصر وسوريا . وقد بلغ عدد عساكره اثنتى عشرة مائة ألف محارب كان نصف عددهم من الفرسان ، وكان يطعم في بلاطه اثنتى عشرة مائة من السادة . ويذكر بعض المؤرخين أن بايزيد لقي تيمورلنك بجيش لا يقل عن جيشه ، وأن المعركة بينهما كانت على الحدود بين بيثينيا وغاليسيا حيث سقط مائتا ألف من الأتراك . ولما وقع بايزيد في الأسر هو وعدد من كبار السادة جيىء به حتى مثل أمام تايمورلنك فأهانه وأمر بأن يقيد بسلسلة من الذهب ويوضع في قفص من حديد ، وكلما جلس للطعام أمر بوضعه تحت مائدته فكان يلقي إليه باللحم كما يلقي بها للكلاب . كما كان يستعمله مرقاة لامتطاء فرسه . وكذلك ظل يعامله بازدراء أثناء تنقله في أرجاء آسيا دون أن يطلق سراحه . ولقد تحقق له بهذا الانتصار أن يملك مجموع البلاد الواقعة بين ثانايس وبين النيل . كما استولى على قفة التي كانت مستعمرة لاهل جنوة في جهات جبال طوروس . وبعد أن أخضع مجموع بلاد آسيا في بلده سمرقند ومعنى اسمها في لغة ذلك « مختلف الأمم » لأنه عمرها بجميع أسراه من الأمم المختلفة وأغناها بما سلبه من جميع المدن التي دمرها . وتحكى أمور كثيرة عن صلابته أو بالأحرى عن قسوته ، ومما يذكر عنه أن مضاربه كانت

بثلاثة ألوان ، فأول ما يقيم في الخيمة البيضاء عند حصار مدينة مّا ليعلن عن استعداده للرأفة إذا جاء أهلها مستسلمين ، ثم يقيم في الحمراء ليظهر أن المحاصَرين سيؤدون بدمائهم ثمن عنادهم . وبعد ذلك يبني خيمة سوداء إعلانا بان الأمان لم يعد له مجال ، ولقد تسمى بسوط الله أوبلاء الله ، ولو طال ملكه أكثر مما دام لدمر العالم ، لكن ملكه زال بموته بسبب ما دب من الخلاف بين ولديه ، فضاعت جميع فتوحه ، ولم يعد يذكر من عظائم الأمور التي قام بها الا القليل .

أما سيجيسموند فقد ثار عليه في نفس العام أهالي أقاليم فلاشيا وطرانسيلفانيا ومولدافيا وما وراء الدانوب، وولوا عليهم إتيان الفودي وقد اتبعه الاتراك مما يبين أنه كان السبب في الهزيمة . ومع ذلك فبعد هلاك بايزيد ولى الاتراك ولده سلطانا عليهم، فجمع مابقي من جيشه، ولكنه لم يقم بشيء يستحق الذكر، ومات بعد ثلاث سنوات وترك ولدين هما أورخان ومحمد، وقدم أكبرهما أمبراطورا وكان له قتال مع أخيه، ثم قتل غدرا على يد أحد أعمامه في المعركة، وبعد ذلك خلص أمر الامبراطورية لمحمد فملك في أمان وهو الذي حقق تقدما عظيما على النصارى .

وفي نفس العام نقض محمد صاحب غرناطة الهدنة مع صاحب قشتالة . فلما رأى أنه مشغول بالحرب ضد ملك البرتغال انتزع منه مدينة إيامنتي، وفي العام الذي بعد هذا دخل بلاد النصارى وأحرق مدينة قيجاطه وخرج إليه بيدور مانريق دي بينا فيديس ودييكّو شانجة، خرجا مع الدون ألفونس سيد أفالوش واتبعهم سكان أبدة وقهرمان بياسة ومعه فرسان آخرون . وكان مجموعهم اثنتي عشرة مائة رجل ما بين فارس وراجل، ولحقوا بالمسلمين في بسيط من الأرض، فكانت المعركة دامية هلك فيها من جانب النصارى القاضي المذكور والدون ألفونس سيد أفالوش والدون مارتين*لويس من سادة أفالوش وغيرهم من مشاهير النبلاء، ومقابل مائة من الهالكين في صفوف النصارى هلك ألفان من المسلمين . وقد انسحب النصارى إلى أعلى جبل دون أن تتشتت جموعهم بينما كان الأعداء ينهبون محلتهم . وفي ذلك الابان مات ملك قشتالة في مدينة طليطلة في العشرين من دجنبر تاركا في خلافته ولده الدون جان، ولم يكن له من العمر سوى عشرين شهرا، وترك وصيا عليه عمه الانفنت فرناند وكان محاربا شرسا . ففي العام الأول من وصايته دخل بلاد المسلمين واستولى على مدينة الزهراء ومدينة أوديتة . ولما

كان محاصرا لسيتينل بادر ملك غرناطة إلى جهة جيان بقصد صرف الانفنت عن ذلك الحصار، ولكن الانفنت لم يرفع الحصار إلا في شهر أكتوبر بسبب المقاومة المستميتة لسكان المدينة . غير أن النصارى قد استرجعوا في نفس الوقت: عددا من المدن الصغيرة التي كانوا قد استولوا عليها في عهد أبي الوليد . ولما رأى ملك غرناطة مقدار الضرر الذي كان الانفنت الدون فرناند يلحقه ببلاده ذهب لحصار مدينة القبداق بسبعة الآف فارس وستة وعشرين ألف راجل في شهر فبراير. ولما تيقن من تعذر دخولها عقد هدنة مع الدون فرناند وعاد إلى بلاده .
وكان الملك على هذا العهد بفاس مولاي أبو سعيد، وكان عاكفا على لذاته عزوفا عن الحرب، فأغرى ذلك ملك البرتغال الدون جيان بمهاجمة سبتة، ولما أبطأ إنجادها سقطت في يد مهاجمها . وزاد أبو سعيد في أعين رعاياه بغضا بهذا التخاذل، وكانوا يكرهونه لخلاعته، فأدى بهم الأمر إلى التآمر ضده وقتله كما سنذكر ذلك في مكان آخر . ولنعد الآن إلى خبر ملك غرناطة، فقد ألم به المرض في نفس العام، ولما كان محتضرا أزعج أحد قواد جيوشه إلى أخيه، وكان سجنه لقيامه ضده، وأمر مبعوثه أن يقطع رأس السجين حتى يضمن الامارة بعده لولده . ولما وصل ذلك الضابط وجده يلعب الشطرنج مع أحد الفقهاء . ولما أبلغه أمر الملك، طلب منه السجين أن يمهله ساعتين يعد فيهما عدته، ولما رفض إمهاله توسل إليه أن يمهله إلى حين إتمام الدور الذي بدأه في اللعب، ووافقه على ذلك .
وما أنهى لعبته حتى وصل كتاب من غرناطة فيه نعي محمد وفيه الخبر بأن أهلها اختاروا ذلك السجين للامارة عليهم، فعدل الضابط عن تنفيذ ما أرسل إليه، وقام عوض ذلك بمرافقة الأمير الجديد إلى غرناطة ليتسلم مقاليد الملك . وكان الثالث عشر من ملوك بني الأحمر . وقد بادر بتأكيد ما أمضاه أخوه من الهدنة مع النصارى، ولكن الانفت الدون فيرناند نقض الهدنة بعد سبعة أشهر لما تبين له أن الفرصة سانحة لقتال المسلمين، فجمع جيوشه ودخل مملكة غرناطة وفيها حاصر انتقيرة وكانت من المواقع الحصينة، صالحة لتكون ثغرا من الثغور لوقوعها بين رندة وغرناطة . ولما علم أبو الحجاج بذلك أرسل نجدة تتكون من أربعة آلاف فارس وخمسين ألف راجل يقودها اثنان من إخوته، ووقعت المعركة في السادس من شهر مايو وانهزمت فيها جيوش أبي الحجاج وهلك منهم فيها اثنا عشر ألفا من الرجال، وبعد ذلك عاد الانفت إلى حصار المدينة ودخلها وترك بها حامية . ولما رأى أهل المدن الأندلسية التي كانت تابعة لمسلمي إفرقيا أنهم لم يعودوا قادرين على مدافعة

العدو بإمكاناته ، الخاصة وأن أبا سعيد قد تخلى عنهم ، قاموا بالانضمام إلى مملكة غرناطة وموالاة أميرها . أما سكان جبل طارق فإنهم كانوا غير راضين عن ملك غرناطة، ولذلك ثاروا عليه وبعثوا إلى ملك فاس (144) يطلبون منه النجدة باعتبار روابط التبعية القديمة بينهم وبينه، وقد كان لامير فاس أخ شديد الاقدام ذو حُظوة عند الناس، فأراد الملك، أن يغتنم الفرصة المواتية لابعاده، فبعثه إلى إسبانيا ومعه ألف من الفرسان وألفان من الراجلة، وأمره بدخول تلك المعمعة في محاولة استعادة جميع المدن التي كانت لملك فاس . واستقبله الناس بترحيب في جبل طارق وفي ماربلة وفي عدد من المدن الأخرى في هذه الجهات . ولما بلغ الخبر إلى ملك غرناطة عقد الهدنة مع الأوصياء على الدون جان ومضى لحصار جبل طارق . وقد أرسل سعيد من هناك إلى أخيه يطلب النجدة، فلم يبعث له سوى عدد قليل من السفن الرديئة التجهيز ، وما لبثت أن سقطت في يد ملك غرناطة، ولا يستبعد أن يكون صاحب فاس أخبره بأمر تلك السفن تدبيرا لهلاك أخيه . وقد سقطت المدينة وأسر سعيد واقتيد إلى غرناطة وسُجن مدة طويلة في برج من أبراج قصر الحمراء . ولطالما التمس ملك فاس من صاحب غرناطة أن يقتله، ووعده، إن فعل، بالمال الكثير والتحالف المستديم وبالتعزيز ضد النصارى، ولكن صاحب غرناطة لم يقبل شيئا من ذلك مؤملا أن يستفيد من هذا السجين إذا اضطربت أمور إفرقيا .

أما في آسيا فقد استتب أمر الامبراطورية لمحمد بعد مقتل أخيه، فزحف لقتال سيجيسموند ملك بولونيا وهزمه في جهات فيلاديلفيا حيث هلك عدة آلاف من النصارى وسقط عدد آخرون في الأسر . ولما كان هو أول من قطع نهر الدانوب من ملوك بني عثمان، فقد غزا مقدونيا وتابع فتوحه الظافرة حتى وصل الى بحر اليونان، وكان في ذلك خسارة كبرى للنصرانية .

ومن جهة أخرى تآمر المسلمون في مملكة فاس على أميرهم فقتله وزيره بطعنات خنجر، وقتل الذكور من أولاده وعددهم ستة . وقد نجم عن موته وقوع اضطرابات عظيمة، وبقي أهل فاس ثمان سنوات لايملكهم أحد، وفيها أطلق ملك غرناطة سراح سعيد وأرسله إلى بلاد البربر على رأس جيش من عنده بقصد التمكن من ملك أبيه . فوقعت بينه وبين أخيه يعقوب وقائع عظيمة، وقد دمر عددا

(144) أبو سعيد .

من المدن التي رفضت الاعتراف به . وأثناء ذلك أرسل ملك غرناطة ولده ومعه أسطول بقصد استعادة مدينة سبتة التي كانت بيد ملك البرتغال، فحاصرها من جهة البحر بينما كان سعيد يحاصرها من جهة البر، ولكن الانفنت الدون هنري قد دافع عنها ببسالة، فاضطر المسلمون إلى الانسحاب خاسرين . وبعد أن ظلت مملكة فاس بدون ملك لمدة ثمان سنوات ظهر أحد أبناء أبي سعيد اسمه عبد الحق كانت أمه نصرانية إسبانية هربت به إلى تونس . واحتفى السكان بقدومه، وبايعوه ملكا، ولم يتخلف عن بيعته حتى أعمامه وقواد الجيش . إلا أنه تحول إلى طاغية ممقوت فتآمر ضده الخاصة من أتباعه، فاغتاله أحد سكان فاس كما سنذكر ذلك في موضعه .

وفي هذه المدة لم يقع بين النصارى وبين المسلمين ما يستحق الاشارة، لان ملك غرناطة ظل يقر بالولاء الواجب له نحو صاحب قشتالة، بينما كان هذا الأمير من جهته باقيا على الهدنة المعقودة . وفي عام ألف وأربعمائة وثلاثة وعشرين مات ملك غرناطة وترك خلفا له ابنه محمدا العسري وكان معروفا عند النصارى بالأيسر لانه كان كذلك . ولم يقع في عهده ما يستحق الذكر بين المسلمين والنصارى لان الهدنة استمرت بين الطرفين . وكانت لكل طرف مشاغله الخاصة .

وفي عام ألف وأربعمائة وأربعة وعشرين مات محمد امبراطور الترك وترك ولدين قامت بينهما منازعة كبيرة على الامبراطورية . ولما مات مصطفى خلا الجو لمراد . فهو الذي اسس الانكشارية أو أولاد السلطان الاعظم الذين كانت مهمتهم مقصورة على حماية شخص الأمبراطور . وبعد عامين جمع جيشا عظيما ضد طاغية سيربيا (145) وحاصر مدينتين دام صمودهما أربع سنين، وخلال تلك المدة عانت مدينتان أخريان عناء شديدا، ولما تقبض على ولدين من أولاد الطاغية أخصاهما وسمل أعينهما وتزوج أختهما بعد أسرها . ومن جهة أخرى خرج صاحب غرناطة من إمارته طرده ابن عمه محمد الصغير الذي كان يؤيده الشعب، فقام الأمير المخلوع باللجوء إلى بلاد البربر يطلب النجدة من ملك تونس الذي كان يجوب بلاد إفرقيا ويحقق انتصارات ساد بها على مملكة تلمسان وعلى جزء من مملكة فاس ومراكش عند استفحال الخلافات بين أمراء هذه البلاد . وأثناء ذلك

(145) أو روسيا .

بلغه أن يوسف بن سراج آحد أعيان بلده قد طلب من ملك قشتالة أن يستنفر من يعود به من تونس . وهكذا غادر تونس يصحبه ابن سراج ومعه ثلاثة آلاف رجل أمده بهم ملك تونس، فنزل في ألمرية فاستقبله المسلمون القاطنون بتلك الجهات ثم استقبله أهل غرناطة فقام بمحاصرة الذي اغتصب منه الملك في قلعة الحمراء، فقبض عليه وقطع رأسه . وأرسل الجزية إلى الدون جان . غير أن الهدنة بينهما لم تدم طويلا، إذ بعد عامين رفض ملك غرناطة دفع الجزية المعهودة بتحريض من المسلمين في بلاد البربر . فنجم عن ذلك أن استولى الماريشال بيرو غارسيا دي هيرا على مدينة خيمنيش، تسلق أسوارها ليلا . كما خرج الدون ألبارودي لونا قائد جيوش قشتالة إلى سهل غرناطة وعاث فسادا في طرف منه . ولكن حاكم كازورلا الذي دخل أراضي غرناطة من جهة غير هذه، قد انهزم ورجع بخسارة كبرى . بيد أن الملك الدون جان قد جمع جيشا يزيد تعداده عن ثمانين ألف رجل ودخل سهل غرناطة حوالي شهر يونيه، واصطحب معه حفيد الملك المسلم الذي كان الدون بيدرو قد قتله في إشبيلية . وخرج ملك غرناطة من جهته للقائه ومعه خمسة آلاف من الفرسان وعدد من الراجلين، ولكنه انهزم وهلك كثير من رجاله . ولو تابع ملك قشتالة تقدمه لسقطت غرناطة ولكنه عاد بالنصر والغنائم بعد أن أفسد تلك البلاد . ومن الناس من يقول إن قائد العساكر قد وقع إرشاؤه بأموال أرسلت إليه في قفاف من التين والعنب المجفف لحمله على رفع الحصار . وبعد ذلك أمد ملك قشتالة هذا الأمير الشاب المسلم الذي اصطحبه معه بعساكر فاستولى على مدينة مونتي فريو على مسافة سبعة أميال من غرناطة، ثم استولى بعد ذلك على مدن لوشة مع حصنها ثم خضعت له غرناطة التي فر ملكها إلى مالقة . ولكي يعترف هذا المنتصر بأنه مدين بتاجه لملك قشتالة أرسل إليه الجزية المعهودة ومعها عدد من الهدايا، وأطلق سراح اثنتى عشرة مائة من العبيد النصارى، ولكنه مات بعد ستة أشهر من ذلك، فنودي على الملك الذي لجأ إلى مالقة .

ولما بلغ خبر موته الى ملك قشتالة أرسل الدون ألفايز التطيلي بعساكر الثغور للقيام بغزوات في بلاد غرناطة حيث استولى على بعض الحصون (146) وعلى عدد من الغنائم من بلاد باقا . وفي نفس العام مات ملك البرتغال وترك في خلافته

(146) حصن بني سلامة وحصن بني موريل

ولده أدوارد وأثناء ذلك كان الدون دييكَودي ريبيرا يجوب بلاد العدو ويحاصر مدينة لـور فقتل بسهم من أعلى الاسوار ، ولكن الدون رودريق مانريق أخذ مدينة أشقر بتسلق أسوارها ليلا . ثم أخذ قلعتها صلحا . ومن جهة أخرى خرج كبير فرسان مدينة القنطرة للغزو في أراضي أرشدونة فسقط في كمين لم يخرج منه إلا بمائة رجل من جملة اثنتي عشرة مائة من جنوده . وفي العام الموالي قام الدون ألفاريز التطيلي بعمليات غزو في أراضي قادس بجيش تعداده ستة آلاف من الراجلين وألف من الفرسان، وهزم خمس عشرة مائة من الفرسان وأربعين ألفا من الراجلين الذين تم جمعهم من المدينة ومن الجبال المجاورة . وخرج الدون فرناند فاشيردو من جهته للاستيلاء على مدينة بلش البيضاء ومدينة بلش الحسناء فاستسلم حصناهما صلحا وظل سكانهما على ولاء للملك . فكانت عاقبة ذلك ماحققه النصارى من المكاسب الحربية على المسلمين إذ كانوا في كل يوم ينتزعون منهم موقعا من المواقع .

أما في آسيا فقد انتزع الامبراطور مراد مدينة تيسالونيق الشهيرة من البنادقة وارتكب فيها كل أوزار الحرب . وفي نفس العام تابع تقدمه ودخل إلى المجر وحاصر بلغراد، ولكنه اضطر إلى التراجع بعد سبعة أشهر من الحصار وقد هلك في المعارك خمسة عشر ألفا من رجاله وطارده في تقهقره جان هونياد قائد جيش ملك المجر، فحقق عليه نصرا تاما .

وفي أثناء ذلك تابع القشتاليون الحرب في إسبانيا فحاصروا مدينة جبل طارق بحرا وبرا، ولكن المسلمين استماتوا في الدفاع حتى اضطروا القشتاليين إلى رفع الحصار خاسرين . فقد وقع إغراق الدون هنري وتراجع ابنه دون أن يفعل شيئا يذكر . وكان النصارى أسعد حظا بانتزاع مدينة قلمالة من المسلمين، ولكن الدون ردريق دي بيريرا دخل بلاد المسلمين فهزمه ابن سراج ولم ينج من الهلاك سوى عشرين رجلا من أربع عشرة مائة رجل كانوا معه، ومات في القتال هو وقائد جيوش العدو ، وفي نفس العام مات ملك البرتغال كذلك، وترك في خلافته ابنه ألفونس .

أما المجر فقد دخل إليه ملك الترك في عهد لاديسلاس ملك بولونيا . وكان قائد جيوشه جان هونياد . فهزم مرادا مرة ثانية واضطره لطلب الهدنة . لكن

الهدنة لم تدم طويلا لان المجريين نقضوها بإيعاز من البابا أوجين فكان ذلك الغدر سببا في بلايا عظيمة حلت بالنصرانية، كانت أولاها ضياع سبعين من السفن الفخمة في مضيق القسطنطينية، ولما اضطر لاديسلاس لقتال مراد هلك ثلاثون ألفا من رجاله بحد السيف أو بالغرق في بحيرة مجاورة لمكان المعركة . وهلك في القتال رسول البابا الذي جاء لتكريس نقض الهدنة، كما هلك فيه الملك لاديسلاس نفسه . ولم يفلت جان هونياد إلا بمشقة عظيمة، إذ هرب في المقاتلين من أهل طرانسيلفانيا . ويلقي المؤرخون تبعة هذه الخسارة على الجنويين الذين نقلوا بسفنهم عبر مضيق البوسفور جميع جنود مراد مقابل فلس واحد عن كل رأس .

أما في إسبانيا فإن ملك غرناطة تعرض لمحن كثيرة حيث فقد ملكه، فانتزعه منه ابن أخيه (147) ، أعانه على ذلك بعض الكبراء حين قبضوا على الملك في قصره بعد أن استولوا على المدينة ، غير أنه كان في خدمة ملك قشتالة إنفنت آخر من المسلمين هو ولد ابن مولاي كان يطلب الملك فقام يقاتل الملك الجديد فرفده الدون جان حتى استولى على عدد من الحصون .

وفي نفس العام تابع مراد انتصاراته على أمبراطور القسطنطينية، فاستولى على مضيق كورانت وانتصر في إحدى المعارك على أخي الامبراطور ودمر جميع تلك البلاد . ثم قام لقتاله ملك بولونيا فهزمه، ولكنه ما لبث أن جمع جيشه فدخل في معركة أخرى مات فيها أكثر من ثمانين ألفا من الجانبين . وعدد قتلى النصارى أقل من عدد قتلى الأتراك . وفقد مراد ابنه في القتال بينما فقد ملك بولونيا قائد جيوشه .

وبينما كانت تجري هذه الوقائع في المجر عقد ابن عثمان صاحب غرناطة السلم مع الدون جان ملك نبرة، وأعلن الحرب على ملك قشتالة الذي يؤيد عدوه إسماعيل ، فلما دخل أراضيه استولى على قلعة بني موريل وقلعة ابن سلامة قرب بسطة وفي العام الموالي استولى على مدينة أريناس وعلى أشقر وعلى بلش البيضاء وبلش الحسناء وأفسد كثيرا في أرجاء تلك البلاد بما قام به من الغزو بنجدة ملك نبرة حتى عام ألف وأربع مائة وتسعة وأربعين .

---

(147) مولاي محمد بن أبي عثمان .

وفي عام ألف وأربع مائة وثمانية وأربعين قام أهل المجر وأهل طرانسيلفانيا بجمع جيش بلغ تعداده ستمائة ألف رجل فدخلوا بلاد الترك يقودهم جان هونياد فنازل مرادا ولم يحالفه الحظ في بداية المعركة ولكنه استجمع قواه في نهايتها وأظهر رباطة جأشه فكبد المسلمين مقتلة عظيمة. وفي العام الموالي اتجه مراد بجيشه لقتال سكانديربيرك فحاصره في مدينة كروى ولكنه استمات في الدفاع عدة شهور حتى اضطر التركي إلى الانسحاب بعد أن هلك معظم جيشه . وبعد ذلك مات مراد وترك في خلافته ابنه محمدا فكان ثامن الأباطرة العثمانيين وأمه بنت طاغية سيبريا الذي سبق ذكره ، وما أن مات أبوه حتى أقدم على قتل أخيه وأودعه مع أبيه في قبر واحد . وكان أول من قاتله هو سكاندربيرك ، حاصره في عاصمته كما فعل والده ، ولكنه ما لبث أن اضطر بدوره لفك الحصار . وفي العام الموالي حاصر مدينة أثينا فاقتحمها ودك بنيانها .

وفي أثناء ذلك كانت الحروب بين غرناطة وقشتالة يشتد أوراها فكان كل جانب يقوم بغزوات في أراضي الجانب الآخر . كما وقعت الحرب بين مسلمي غرناطة حيث قام أحد أقارب الملك بخلع قريبه وملك في مكانه مدة طويلة في أمن وسلام .

فتح القسطنطينية

ولما أن استولى محمد على مدينة أثينا أقام الحصار أمام مدينة القسطنطينية في التاسع من شهر أبريل عام ألف وأربعمائة وثلاثة وخمسين وكان امبراطورها حينئذ هو قسطنطين باليولوج ، وقد أرسل إلى كل الجهات يطلب النجدة من الأمراء النصارى ولكن بدون جدوى ، وقد كان الاتراك يحاصرون في آن واحد بيرا والقسطنطينية وكانوا يتقدمون خطوة خطوة ، وبذلوا جهدا كبيرا حتى تمكنوا من تدمير جانب كبير من الأسوار ولما لم يدافع ضدهم سوى ستة آلاف من اليونانيين فقد استطاعوا اقتحام المدينة عنوة في التاسع من شهر مايو بعد شهر من الحصار ، وارتكبوا فيها جميع أوزار الحرب . وكان البنادقة وبعض الامراء الآخرين من أمراء النصرانية يتأهبون في تلك الاثناء لانجادها بطلب من البابا ، ولكنها سقطت قبل وصول تلك النجدة . ومات الأمبراطور غما وحسرة ، وأمر محمد بحز رأسه وجره في أزقة المدينة نكاية وزراية . ثم أمر بهدم جميع الكنائس ما عدا كنيسة سانت صوفيا . وبعد ثلاثة أيام أقام الملك مأدبة لقواد عسكره وفي ختامها

أمر باحضار من كان في سجنه من نبلاء النصارى وقطعت رؤوسهم . ولما راى أهل بيرا ما حققه من الفتح استسلموا ، ولكن ذلك لم يشفع لهم حيث تعرضوا لمثل ما تعرض له أهل القسطنطينية من المعاملة القاسية . وهكذا ضاعت عاصمة الشرق المسيحي بعد أن كانت مقرا للأمبراطورية لمدة ألف ومائة وواحد وتسعين عاما . وكما أن الذي أسسها كان اسمه قسطنطين وكان اسم أمه هيلينا فإن الذي أضاعها كان اسمه قسطنطين وكان اسم أمه هيلينا . ومما يدعو الى العجب أن الفيلسوف الاغريقي الذي تحدثنا عنه في الفصل المخصص للخليفة المأمون لما رأى أسطوانة قديمة من البرونز معمولة من خانات الشطرنج الصغيرة وقد كتب على أول خانة منها قسطنطين الاكبر وعلى الخانة الثانية اسم البطريق كَريكَوار ثم أسماء الأباطرة والبطارقة الآخرين حسب ترتيبهم ، .قال للأمبراطور ميشيل : عندما تمتلىء الخانات ستنتهي الامبراطورية . ثم كتب بيده على الاسطوانة :« قسطنطين أقامني وقسطنطين يضيعني » وكذلك كان ، فقد كان اسم البطريق عند السقوط مماثلا لاسم البطريق عند التأسيس . وكان تمام امتلاء الخانات بنهاية سقوط المدينة . والقسطنطينية إلى حد هذه الساعة مقر للامبراطورية العثمانية .

وأما في إسبانيا فقد مات ملك.قشتالة في العشرين من يوليوز عام ألف وأربعمائة وخمسين ، وخلفه ابنه الدون هنري ، فبادر لقتال المسلمين وقد دخل بجيش قوامه أربعة عشر ألف فارس وخمسون ألفا من الراجلين إلى سهل غرناطة وأفسد معظم جهاته وقام في العام الموالي بقصد إكراه المدينة على الاستسلام بقهر الجوع .

وفي أثناء ذلك قام الامبراطور العثماني محمد وقد انتشى بفتحه الجديد لغزو بلغراد بجيش قوامه مائة وخمسون ألف رجل ، ولما علم البابا كالخت بذلك أرسل ندوبه لانجاد المدينة بعد أن دعا إلى حملة صليبية . ذلك أن التركي كان يذكر أنه سيقوم بغزو النمسا بعد فتح المجر وبأنه سيمر إلى إيطاليا عن طريق ألمانيا ، ولكن شاء الله أن يكتب النصر للنصارى . كان في المجر في ذلك الوقت راهب فرانسسكاني يدعى جان كستيران ممتلىء حماسا وفضيلة ، قام قبل وصول الرسول البابوي يحرض الناس على الحرب بقيادة جان هونياد الذي برز لحرب الاتراك فقتل منهم أكثر من أربعين ألفا واستولى على معسكرهم بما فيه من عدة وعتاد ، وأصيب محمد بسهم ، وفر إلى القسطنطينية حيث لبث مدة طويلة لا يخرج للناس ، ومن

فضل هذا النصر أن قام البابا بإحداث عيد التمتل أو عيد المخلص ويتم إحياؤه في السادس من شهر غشت من كل عام ، ويكون فيه من الغفران ما يكون في السر المقدس . وفي العام الموالي شن محمد الحرب على أوزون حسن ملك الفرس وقاتله في معركتين انهزم في إحداهما وانتصر في الأخرى . ويذهب البعض إلى القول بأن أوزون حسن كان من التتار وكانوا أولي بأس في آسيا . وبعد ذلك قام محمد بشن الحرب على امبراطور اطريبيزوند ، ولكن هذا الأخير جبن عن لقائه فاعتصم بمكان مكين . لكن محمدا انقض على بافلاكونيا ، ولما أخذها مر إلى طربيزوند فما لبث أن استولى عليها وقبض على الامبراطور وعلى زوجته . وبعد أن تم له الاستيلاء على على مجموع أراضي الامبراطورية ترك الحامية في المواقع الحصينةوعاد منصورا ودخل إلى القسطنطينية وأمر بقطع رؤوس المساجين . وهكذا لم يقض في فتح الامبراطوريتين سوى أربع سنيين .

أما في إسبانيا فقد تابع ملك قشتالة حربه على المسلمين وقد عاث فسادا في سهل غرناطة وهنالك مات كارسيلاسو دي فيكا بعد أن خرج للقتال في غير طائفته ، ولكن الملك ما لبث أن فتح مدينة خيمنس وأخذ حصنها ، وبعد ذلك انعقد الصلح ، ودخل ملك غرناطة في ولائه ، ولم تدخل جيان في الصلح . وفي نفس العام انهزم فيها القمت دي كاستانيدا وأسر المسلمون ، فكان ذلك سببا في تعميم الهدنة على أن تؤدي للملك جزية قدرها في كل سنة اثنا عشر ألفا من قطع الذهب .

تابع الأمبراطور التركي محمد فتوحه بأخد مدينة كورانت من البنادقة ، وفي العام الموالي شن الحرب على ملك ميسيا ، ولما قتله استولى على مملكته . ولكن أوزون حسن ، معززا بالبابا كاليخت ، قد أعلن عليه الحرب في آسيا ، فكان في ذلك تفريج كبير على بلاد النصرانية .

ومن جهة أخرى كان ابن ملك غرناطة على خلاف مع أبيه ، فكان أن دخل مملكة قشتالة والصلح منعقد ، فأسر وغنم ، ولكن الدون روديق بونس دي ليون وعامل أشونة كمنا له في طريق العودة فهزماه بعدد أقل من العدد الذي كان معه، فاستعادا منه الغنائم وأخذا أعلامه وطبوله . ولما كان الصلح قد انتقض قام جان دي قزمان قمت لبلة بعد عامين بأخذ جبل طارق من المسلمين ، وفي العام

الموالي قام الدون جان باتشيرو سيد حصن بليانة بأخذ مدينة أرشونة ، ثم تلت ذلك مكاسب أخرى .

وبينما كانت تجري تلك الوقائع في إسبانيا كان الامبراطور التركي يتابع فتوحاته لبلاد النصارى فأخذ جزيرة ميتلين . وفي العام الموالي أرسل البنادقة أسطولهم على طول الساحل قصد استرداد كولانت ولكن بدون جدوى . ومن جهة أخرى استولى المجريون على جيرسة من بلاد البوسنة.ولما جاء التركي لحصارها هب ملك المجر لنجدتها مما اضطره إلى الانسحاب في عجالة حتى إنه ألقى بأربع آليات مدفعية في النهر تخفيفا لأحماله وإسراعا في سيره ، وفي أثناء ذلك مات جان دولوزيجنان ملك قبرص ، ولم يخلف وارثا فصار الملك لأخيه الطبيعي يعقوب بتأييد من ملك مصر . ولما مات المتولي دون عقب ولا وارث صار الملك إلى زوجته ، وكان أصلها من البندقية . فاسلمت الأمر للبنادقة ، وظل بأيديهم إلى عهد سليم أمبراطور الترك . وفي العام الموالي أظهر الأمبراطور التركي محمد الصلح لملك ميسيا حتى حضر عنده فقتله خنقا وقبض على أخيه وأخته وقادهما منتصرا إلى القسطنطينية . وفي عام ألف وأربعمائة وخمسة وستين أمر ببناء حصن عظيم في إيبير ليكون حاجزا بينه وبين النصارى ومكانا لاستعراض العساكر . وتم بناؤه في ثلاثين يوما ، وإن كان قد بني على هيئة مدينة . وفي نفس العام أخذ البنادقة مدينة أثينا وحاصروا باتروس ، ولكنهم انهزموا في حصارها أمام الاتراك . وقد كانت هذه الحرب سجالا بين الطرفين عدة أعوام ، ولكن النصر كان للترك في النهاية.

وبينما كانت تجرى هذه الوقائع في المشرق ، مات ملك غرناطة في شهر مارس في مدينة ألمرية وترك في خلافته ولدا من أولاده دخل في نزاع وحروب دائمة مع عامل مالقة . وكان هذا العامل يجد العون عند ملك قشتالة ، وكان لملك قشتالة نفسه نزاع مع عدد من كبراء مملكته ، ولذلك لم يقع شيء يستحق الاعتبار بين النصارى والمسلمين في عهد هذا الملك .

وفي نفس العام جقق سكانديربيرك ملك إيبير نصرا عظيما على الأتراك وكانوا قد دخلوا بلاده فطردهم منها في عام ألف وأربعمائة وثمانية وستين إلى مصر وسوريا وكانتا تحت سلطة المماليك . ولما ستولى على عدد من المدن أضرم فيها النيران ونهب سكانها وخص النبلاء من الرجال والنساء بأقسى أنواع العذاب ، كما

عقد السلم مع ملك بلاد الهند ، وبعث إليه امرأة جميلة من حريمه يتزوجها وزفها إليه في حاشية كما تُزف الاميرات ومعها عدد من الهدايا النفيسة ، وكل ذلك بقصد حمله على قتال ملك الفرس ، ولكن بدون جدوى . ذلك لأن أوزون حسن قد شن عليه الحرب وقتل عددا من رجاله في مختلف المعارك . وفي نفس العام قام قائد أسطول البندقية بمطاردة أسطول الأتراك وكان هؤلاء قد ألحقوا أضرارا كبيرة بالنصارى في جهات مختلفة من بلاد اليونان . وفي عام ألف وأربعمائة وسبعين أرسل أمبراطور الترك ستة وعشرين ألفا من رجال الحرب على ظهر أربعمائة سفينة يقودهم الرئيس عمر بقصد النزول في جزيرة نيكَروبون ، فاستولى عليها بعد أن هلك أربعة آلاف من رجاله ورفع على الخازوق كل من كان في تلك الجزيرة من الجنود الايطاليين ، وأذاق أهلها من ويلات الحرب . وفي نفس العام دخل جيش تركي آخر إلى المجر فنهب وأتلف كل شيء في طريقه حتى وصل إلى زغرب ، ثم عاد محملا بالغنائم وبما يزيد على خمسة عشر ألفا من الأسرى . وفي نفس الوقت دخل الأتراك إلى دالماسيا وستيريا وفريول وعاثوا فسادا في هذه البلاد ورجعوا بعدد من الرجال وقطعان الماشية .

وفي عام ألف وأربعمائة وواحد وسبعين شن الدون ألفونس ملك البرتغال الحرب على المسلمين في بلاد البربر وأخذ منهم مدينة أصيلا ومدينة طنجة . وسنتعرض لذكر ذلك في الوصف المخصص لهذه المدن حتى تكون رواية تلك الاحداث أكثر إمتاعا . ولم يبق سوى أن نأتي هنا على ذكر نهاية ملك بني مرين وبداية عهد بني وطاس وما وقع من بداية عهدهم إلى عهد الشرفاء .

الفصل التاسع والثلاثون

نهاية ملك بني مرين وبداية بني وطاس وما وقع حتى نهاية ملكهم

شبت بين سكان المغرب الأقصى فتن وحروب لأن أحد سكان فاس يدعى الشريف قد اغتال عبد الحق آخر ملوك بني مرين ، وقد حمد الناس عمله لما عانوا من طغيان ذلك الهالك . ولكن الشريف قام بتولي الملك محله ، فقام ضده كبراء هذه الأسرة ولاسيما سعيد الوطاسي وكان يدعى أيضا بمولاي الشيخ ، ثم قام في أصيلا وأعلن الحرب على المتولي وأعانه عرب هذه المنطقة (148) وعرب أزغار . وكاد الوطاسي يدخل فاس ، ولكنه انهزم أمام هذا الشريف وانسحب بفلول رجاله إلى منطقة نفوذه . ولما علم أن عساكر المنتزي قد خرجت بقصد إعادة أهل تامسنا إلى الطاعة ، وكانوا قد ثاروا في تلك الفترة ، جمع ثمانية آلاف فارس من العرب ومن عشيرته فحاصر مدينة فاس حيث انحبس الملك الجديد دون أن يستطيع الخروج منها . ولما علم الوطاسي أن ملك البرتغال قد حاصر مدينة أصيلا ، وقد ترك فيها زوجته وأولاده ،قام عن حصار فاس وبادر لنجدتها ، ولما وجد أنها قد سقطت عقد الهدنة مع ملك البرتغال ، وعاد لحصار فاس حتى دخلها صلحا ، وهرب المنتزي بأهله إلى مملكة تونس . وهذا الداخل إلى فاس هو أول ملوك بني وطاس الذين انتزع منهم الملك الشرفاء الحسينيون في وقتنا هذا كما نذكر ذلك في محله . وبنو وطاس زناتيون مثل بني مرين ، ولكن فرعهم أقل قوة من فرع بني مرين وهم لم يحكموا سوى فاس بينما قام في مراكش والاقاليم (149) الأخرى أمراء صغار لا يعترفون بهم . وفي عهد هذا السلطان المريني ضاع من المسلمين ما بقي في اسبانيا على عهد فرناندو وازابيلا .

---

(148) الخلط وسفيان .

(149) سوس وسجلماسة .

أما في آسيا فقد حقق أوزون حسن ملك الفرس انتصارات على الاتراك وأخذ منهم عددا من المدن فذاع لذلك صيته في مجموع بلاد المشرق . ومن جهة أخرى انضم قائد جيش البنادقة إلى جيش ملك فارس فكبدوا الاتراك عددا من المعارك القاسية ، ولكن ذلك لم يمنع الاتراك من ارتكاب أعمال فظيعة في المجر .

وفي هذه الأثناء مات الدون هنري ملك قشتالة وترك الملك لاخته إزابيلا التي تزوجت بفرديناند ابن ملك أرغون . ففي البداية كانت لهم حرب مع ملك البرتغال الذي سعى إلى الاستحواذ على قشتالة بتأييد من بعض كبرائها بدعوى المطالبة بحق جان Jeanne التي كانت تدعي أنها ابنة الملك الراحل ، ولكن الجو صفا لفرديناند وإزابيلا بعد ذلك ليقضيا على ملك المسلمين في إسبانيا وإن كانا في أول أمرهما قد عقدا الصلح مع ملك غرناطة .

وفي نفس العام تقاتل محمد التركي مع أوزون حسن قرب نهر الفرات حيث انهزم هذا الأخير بينما رجع أمبراطور الترك منتصرا إلى القسطنطينية ومعه ستة آلاف وثمان مائة من أسرى النصارى. وكلما قام للرحيل من محلة في طريقه قتل منهم خمسمائة أسير، فخلف وراءه على طول أرمينيا مشاهد من الرعب والمذابح. وفي العام الموالي دخل الأتراك الى فلاشيا ومولدافيا فقاتلهم حاكمها إتيان بالاتيان وأحرز عليهم نصرا تاما ، كما حقق عليهم ماتياس كورفان ملك المجر بعض المكاسب وأخذ منهم قلعة حصينية على مقربة من نهر الساف . ومن جهة أخرى استولى الاتراك بالحيلة على مدينة قوسا التي كانت بيد الجنويين في منطقة طوروس

وفي عام ألف وأربعمائة وسبعة وسبعين مات ملك الفرس بعد أن ملك البارتيين والميديين وساد على معظم بلاد المشرق ، وترك خلفا له ابنه البكر فقتل جميع إخوته ليخلص له الملك . وفي هذا العام نزل الأتراك بجيشهم البحري في قبرص ، وعادوا بعدد من الأسرى بعد أن أفسدوا كثيرا ودمروا معظم مدينة نيقوزيا

وفي تلك الأثناء انكسر جيش تركي عظيم في ميزيا فاغتنم الفرصة لعقد هدنه مع السلطان الاعظم الذي انتزع منهم مدينتين ، فصالحوه على ثمانية آلاف دوكا في العام مقابل السماح لسفنهم بالملاحة في البحر الاسود . وبفضل هذه الهدنة جهز السلطان الاعظم جيشا بحريا عظيما فبعثه إلى بوي بينما دخل بنفسه إلى المجر وعاد بعدد كبير من الأسرى ، وكذلك فعل في مملكة نابولي ،وبعد ذلك استولى

على عدد من الجزر في مدخل مضيق البندقية ملحقا أضرارا بالغة في كل مكان مر به من بلاد النصرانية .

كان بين الملكين الكاثولكيين وبين ملك غرناطة هدنة منعقدة . وخلال ذلك كان المسلمون من أهل بسطة ووادي آش يغزون بلاد النصارى بغير إذن أميرهم ، فقام إليهم عامل كازورلا وقتل منهم خمس عشرة مائة واستولى على ثلاثين من أعلامهم وأسر منهم كثيرا ، ولم يهلك من رجاله إلا محارب واحد .

ولما أخضع السلطان الاعظم هذه البلاد الكثيرة وهو يتدرج من فتح إلى فتح أكبر منه جمع جيشا عظيما لغزو الاسكندرية بينما كان يجهز جيشا آخر لغزو روديس، ولما لم تنجح تلك الحملة الأولى جهز حملة ثانية فهجم على هذه الجزيرة وهاجم المدينة كذلك من أربع جهات بأربعة حشود متفرقة ولكن الفرسان استماتوا في الدفاع واستبسل منهم على الخصوص أوبوسون كبير فرسان طائفة القديس يوحنا، فكان ذلك سببا في انسحاب قائد (150) جيش الترك بعد تسعة وثمانين يوما من الحصار، وقد قتل من رجاله خمسة عشر ألفا وجرح منهم عدد كبير .

وفي نفس العام نزل أقومات بجيش آخر في بوي وفتح عنوة مدينة أوترانت ونهب النصارى من أهلها ورتب فيها حامية جيدة . ولم يحالف الاتراك مثل هذا السعد في موريا حيث اجتمع اليونانيون وهزموهم وقتلوا منهم ستة آلاف .

الصفويون وأصلهم :

ولنذكر الآن أصل الصفويين لأن معرفة أخبارهم لن تكون أقل متعة من معرفة أخبار الكثيرين ممن أدرجناهم في هذا التاريخ . كان جد هذه الاسرة يدعي أنه منحدر أبا عن جد من الحسين الابن الثاني لعلي وفاطمة بنت محمد . وبما أن أحفاد محمد من الفرع الآخر يكنون بالشرفاء فإن ابناء علي يتسمون بالصوفية كما لو أنك قلت حكماء أو عرفاء، وهم يحظون في فارس بما يحظى به الشرفاء من التبجيل لان ذكرهم لعلي لايقل عن ذكرهم لمحمد . ويشتق بعضهم معنى هذا الاسم من كلمة صوف العربية لانهم بمقتضى شرعتهم لايلبسون ذهبا ولا حريرا وإنما يلبسون قبعات من اللبد .

---

(150) مـازك .

وكان اسم هذا المؤسس هو الشاه إسماعيل . وكان أول من اشتهر من عائلته بالتقوى هو موسى القاسم عندما مات آخر خلفاء بغداد(151) فلما رأى أن امبراطورية الخلفاء قد اضمحلت بدأ يدعو لنحلة علي بحرية أكبر . ولما ساد على منطقة صغيرة تُدعى أردبيل دُعي أتباعه بالأردبليين وسماهم آخرون بالاثني عشرية إحياء لذكر اثنى عشر من أبناء الحسين . ولكي يتميزوا عن غيرهم من أتباع محمد كانوا يجعلون في قبعاتهم اثنتى عشرة ثنية، ستا في جانب وستا في الجانب الآخر وقد دُعوا أيضا بالكسيلية أو الرؤوس الحمر بسبب حمرة عمائمهم . وبعد موت موسى القاسم اشتهر ابنه گينيس (152) بالصلاح والولاية اشتهارا عظيما حتى إن تيمورلنك عندما وصل إلى بلاد فارس عند غزوه لآسيا قام بزيارته وأهدى إليه ثلاثين ألف أسير طلبهم منه لكي ينشر فيهم دعوته، وبهم قاتل ولده الشيخ حيدر أهل جورجيا بقصد حملهم على الدخول في نحلته . وكان يحكم بلاد فارس في هذه المدة تركي يدعى أميرا وكان يقاتل أوزون حسن ملك أرمينيا الكبرى الذي كان تركيا مسلما مثله ساد على بلاد فارس بعد موت أمير . ولما كان أوزون حسن من نسب متواضع فقد أصهر بابنته وهي حفيدة امبراطور طربيزوند الى الصفوي لكي يدعم بهذا الزواج تأسيس ملكه، وهذا هو السبب في كون ملوك فارس يميلون إلى النصارى . وبعد موت أوزون حسن قام ولده بدافع الخوف من زوج أخته أو بدافع احتقاره، بإرسال إمداد سري إلى أهل جيورجيا حتى يتمكنوا من القضاء عليه في هذه الحرب . ولما مات الشيخ حيدر ترك ولدين صغيرين هما إسماعيل وسليمان فقام هذا الامير بإبعادهما إلى مدينة شيراز وأمر عاملهما بأن يودعهما قلعة حصينة محروسة إلى أن يرد له أمر في شأنهما، ولكن هذا العامل اشفق من حالهما حيث لم يكن عمر الولد الاكبر يتعدى ثمان سنوات، وتعظيما لنسب الولدين أبقاهما لديه وعاملهما بالتكريم ورباهما مع أولاده، ولما لزمه مرض عضال زودهما بالمال والعدة وأرسلهما محروسين إلى إقليم جيلان على مقربة من بحر قزوين وجازا من هناك إلى بلاد التتار حيث بقي عدد من أصحاب والدهما وثلة من أتباع نحلته . لقد خشي العامل المذكور أن يقوم ولده بعد موته بتسليم الولدين للحسين الذي خلف والده في الملك، وبقي الولدان ما يقارب ثمان سنوات في عاصمة هذا الاقليم الذي تُجلب منه إلى البندقية كميات كبيرة من الزرابي

---

(151) المستعظم بالله الذي قتله التتار .

(152)

الحريرية وأنواع أخرى من الجوخ، ويقال إن الولد الاكبر لم يكن يعيش في ماكله وملبسه طيلة تلك المدة إلا مما كان يأتيه من الصدقات وإن كان أمير البلد يكن لهما محبة شديدة، وكان يقدم ما يفضل عن حاجته إلى الفقراء .

ووقع أن مات يعقوب باشا ابن أوزون حسن الذي قتل الشيخ حيدر واستولى على بلاده ، فخلفه ابنه حسين ووقعت في عهده اضطرابات بسبب قيام إخوانه عليه . وكان من نتائج ذلك أن تعاقب على ملك تلك البلاد خمسة متولين في ظرف عامين. وكان قد كبر سنا وشأنا ، وقد التحق به عدد من أقاربه ومن أصحاب أبيه، فوقع أن عاد الى أردبيل فتلقاه أهلها وقدموه عليهم وسموه صفويا. ولما قضى بضعة أيام في هذه البلاد دفعه ليعلن أنه يريد الذهاب للأخذ بثأر أبيه، وهكذا توجه معه ما يقارب ثلاثمائة من الفرسان وما يزيد قليلا عن هذا العدد من الراجلين فباغت مدينة سينياق وأضرم فيها النيران وأراق الدماء. ولما سمع الناس بهذا النصر جاءوا للالتحاق به وصدعوا بأنه النبي الجديد(153) الذي سيأتي لينشر العدل ويقضي على جميع المذاهب ماعدامذهب علي. لان أتباع محمد يذهبون إلى القول بأن فرقة واحدة من اثنتين وسبعين فرقة في دينهم هي الفرقة النّاجية وأن ما عداها في النار، ولذلك يحاول كل واحد أن يظهر أن فرقته أفضل الفرق . وعلى هذا الأساس كان شيعة علي يدعون أن إسماعيل رسول من الله جاء مبشرا من عنده، (153) فهب إليه الناس كما يهبون للجهاد لولا أن قوة عاتية حالت دون ذلك وهي قوة الأتراك الذين هم أعداء ألداء للصفويين . وعلى إثر هذا النجاح الأولي تزايد عدد جيشه حتى بلغ ألفين فوجد من نفسه الجرأة على التوجه إلى طوريس وكانت مدينة كبيرة شهيرة . وفي عام ألف وخمسمائة هاجم الملك ألفانتي الذي كان يحكم في هذا التاريخ، فهزمه بالرغم من أن جيشه كان يتكون من خمسة الآف من الفرسان وعدد كبير من الراجلين . ولما استولى على طوريس إثر هذا الانتصار اضطهد كثيرا رجال الحرب من أعدائه دون اعتبار للسن ولا للجنس . ولكي ينتقم من عدوه الملك يعقوب أمر بنبش قبره وإحراق رفاته وألقى برماده في مهب الرياح حتى لا يبقى منه شيء يذكر . وقد أرادت أمه وهي أخت يعقوب أن تثنيه عن فعله فدخل عليها وقد تملكه غضب شديد فقتلها أو أمر بقتلها حسب اختلاف الروايات . لقد استتبع الاستيلاء على طوريس خضوع ضواحيها طوعا أو

(153) لعله يقصد بذلك « الامام » على مذهب الشيعة وإلا فهذا من افتراءات الكاتب وتحامله (المترجم)

كرها . أما الملك ألفانتي فقد شرع في تجميع جيش جديد بمساعدة كبراء من فارس ، وبعد ذلك توجه إلى طوريس ، ولمادنا منها بعث بالجيش ليبارز في فضاء خال لان من عوائد الفرس القديمة ألا يقاتلوا وسط الزروع . ولكنه انهزم وقتل وانتصر الصفوي وإن كان عدد رجاله أقل من عدد جيوش الهالك، وعاد إلى طوريس وقد فقد قليلا وغنم كثيرا . وقد كان هذا الانتصار مبعث إعجاب كبير حتى إن التركمان، وهم المحاربون الاشداء في هذه البلاد، صاروا يفرون إذا ذكر اسم الصفوي . وقد أتى إليه الناس أفواجا فازداد جيشه عددا وعظم شأنا . كان للملك الفانتي ابن عم هو مراد . وكان مراد هذا عاملا على شيراز وهي بلد البسط الجميلة المصنوعة من الحرير . وفيها تصنع أيضا كل أنواع الاسلحة التي يستعملها المحاربون سواء منهم الراجلون أو الفرسان لان الفرسان في بلاد فارس يحملون الأسلحة كما يحملها السادة الفرنسيون، وكانت الأسلحة المصنوعة في شيراز تفوق نوعا مّا تلك التي تصنع في ميلانو . لقد كان من المفروض أن يؤول حكم مدينة طوريس إلى عامل شيراز، لكنه لما علم بموت عمه ألفانتي وبغزو إسماعيل لها وبما صاحب ذلك من ارتكاب الأعمال الفظيعة جمع جيشا قوامه اثنا عشر ألف فارس وما يناسب هذا العدد في الراجلين وذلك بقصد إيقاف تقدم إسماعيل واستخلاص عرش فارس لنفسه . وبعث بذلك الجيش لقتال الصفوي ولكن هذا الاخير لم يبق في طوريس لانتظاره وإنما خرج للقائه في شيراز التي تبعد عنها بما يقارب مسافة عشرين يوما، ولما التقى الجمعان في منتصف الطريق على وجه التقريب استعدا للتقال فبادر الصفوي بالهجوم.فهلك عدد من رجاله ولكن من بقوا منهم أظهروا استماتة عظيمة، كما لو أنهم يدافعون عن الملة، ومالبثوا أن داسوا جثث الذين سقطوا من أصحابهم وأثخنوا في العدو وأحدثوا فيه مقتلة عظيمة، فهلك معظم الرجال والأطفال لأنهم كالفرس تتبعهم عائلاتهم عند الخروج للحرب، أما النساء فقد اقتسمهن الجنود وتزوجوا بهن وفر مراد نحو بغداد بمن نجا من أصحابه . وبعد أن انتصر الصفوي توجه إلى شيراز ودخلها دون أن يلقى مقاومة تذكر . ولما كانت هذه المدينة زاخرة بما يحتاج إليه الجنود أثناء الراحة والاستجمام فقد أمضى فيها عدة شهور فعزز جيشه حتى كان عند خروجه يتكون من خمسين ألفا من المحاربين المجهزين وخمسة عشر ألفا من حملة السلاح، ولما تجمع له هذا الجيش العظيم قرر أن يهاجم سبعة من القلاع الشديدة التحصين

لم يسبق لأحد من ملوك الفرس أن استولى عليها قبل أوزون حسن ، ولكنه بقي في حصارها مدة عامين ، وفقد كثيرا من رجاله بمن فيهم قائد جيوشه . ولما استولى عليها عاد منتصرا إلى شيراز، ثم استولى على عدد آخر من كبريات مدن فارس وميديا ومن بينها إير وكانت كثيرة السكان . ومنها توجه إلى كورانيان، وفي طريقه أخذ قلعة حصينة كان بعض التركمان قد لجأوا إليها . وكان ينطلق منها للقيام بغارات على طريق طوريس . وقد وجدوا فيها عددا من الزرابي الحريرية كانوا جمعوها من عمليات النهب التي قاموابها . وبعد ذلك قام بغزو عدد من الأقاليم وصار من القوة بحيث استطاع في عام ألف وخمسمائة وثمانية أن يقضي قضاء مبرما على التركمان . وبلغ عدد جيوشه أربعمائة ألف جندي من بينهم مائة ألف فارس من الخيالة الخفيفة وغيرها . وبعد تحقيق هذه الانتصارات طمح إلى تحقيق ما هو أعظم منها، فقسم ولايات سلطان مصر وولايات السلطان العثماني على كبار ضباط جيشه كما لو أنه قد تم له فتحها، فقرر أن ينطلق لغزو بغداد حتى يدخل الى ما بين النهرين ثم الى أرمينيا بعد ذلك فتكون حدوده هي حدود سلطان مصر من جهة وحدود العثماني وملك الاناضول من جهة أخرى، فيتسنى له أن يتوجه حيث يشاء، وقد بث بذلك الرعب في قلوب كبار الأمراء في آسيا وإفريقيا وأوربا . كان قصير القامة مائلا إلى السمنة بشوشا شديد التمسك بالعدل . إذا بلغه أن عاملا من عماله يسيىء معاملة رعاياه بطش به . ثم إنه كان طموحا متسامحا ولكنه من النخوة بحيث لم يكن يُرى إلا من وراء حجاب . وكان محبا للآداب والفنون، وإذا أُهديت له تحفة نادرة جازى عليها بضعف قيمتها، وما انصرف أحد قط من مجلسه إلا راضيا . وقد جعلته عفته وتمسكه بدينه لايتزوج إلا زواجا شرعيا . وكان يكن لليهود كراهية شديدة حتى إنه كان يسمل أعينهم، وكان يقول انه يفعل ذلك ليطمس أبصارهم كما طُمست بصائرهم . أما الأتراك فكان يقتل من وقع منهم بين يديه قتلا ذريعا، وكان يذهب في القساوة عليهم إلى حد تدمير معابدهم ومساجدهم كما يُفعل بالمارقين . وبالعكس من ذلك كان يظهر تسامحا مع النصارى ولا يمس قط كنائسهم حتى إنه اصطحب معه بطريق أرمينيا ومعه عدد من الأساقفة ورجال الدين عندما خرج يريد تحطيم أمبراطورية السلطان التركي . وقد طلب من النصارى أن يشنوا الحرب على سلطان الترك في أوربا بينما يقوم هو بشن الحرب عليه في آسيا . وقد تقبض السلطان التركي على سفير من سفرائه

وأمر بقتله تحت التعذيب . أما السفراء الآخرون فقد اعتقلهم البنادقة، وبسبب فعلهم هذا أنحى عليهم باللوم السيد لويس هالفن دوفيرساي في الخطاب الذي بلّغه من ملك فرنسا إلى الأمبراطور مكسيميليان في عام ألف وخمسمائة وسبعة . وأخيرا أقدم الصفوي إسماعيل على مابيته من إهلاك السلطان التركي بشن هجومات عليه فأخذ إزمين في تركيا فحصنها وكان أمير كارمانيا قد مكنه من المرور بأرضه . وقد سعي بايزيد إلى عقد السلم معه فقدم اليه مليونين من قطع الذهب، كما أعطاه إمبراطورية طريبيزوند، ولكنه رفض ذلك وقال مثل ماقاله الاسكندر لداريوس : إنه لايريد أن يترك الكل مقابل الجزء . وقد توصل إلى مبتغاه حتى إنه قام قبل عام ألف وخمسمائة وعشرة بحصار مدينة حلب وهي لاتبعد سوى مسافة ثلاثة أيام عن خليج لاياس وبأقل من ذلك عن بيت المقدس . وقد بعث في نفس العام بسفارة إلى البندقية لكي يطلب قدوم أسطول البنادقة لحصار بيروت بينما يقوم هو بمهاجمة السلطان برا . وقد ترتب عن ذلك حدوث عدد من المغامرات سأضرب عنها صفحاً تجنبا للتطويل. وفي هذا كفاية لما توخيناه من بيان الكيفية التي استتب بها الأمر لخلفاء محمد في فارس حيث مايزالون إلى وقتنا هذا . ثم إننا ذكرنا كل ذلك بالتتابع حتى لا نقطع تسلسل الأحداث .

ولكي نرجع الآن الى تتابع السنوات فسنذكر أشياء وقعت من قبل . فقد توفي الدون جان ملك البرتغال في يوم الأحد ثامن أكتوبر من عام ألف وأربعمائة وواحد وثمانين وترك في خلافته ابن عمه الدون مانويل وكذلك مات محمد بعد أن انتزع من النصارى امبراطورية القسطنطينية وأمبراطورية طريبيزوند وعشر ممالك ومائتي مدينة ، وبعد أن مارس القساوة في كل مكان . وبموته وقع بين أولاده نزاع على الملك . وكانت الغلبة لبايزيد فخلص له الملك في عام ألف وأربعمائة . وفي نفس العام انتزع فيرديناند ملك نابولي مدينة أوترانت حررها على يد ولده ألفونس. أما جان كاستريو ولد سكَانديريك فقد استعاد منهم مملكة أبيه. وأما ماتياس كورفان ملك المجر والملك الفودي فقد استوليا على ميسيا العليا التي تسمى اليوم بالبوسنة وحققا على الأتراك عدة انتصارات .

ولنذكر الآن ماكان من غزو مملكة غرناطة على يد فيرديناند وإزابيلا . كان أبو الحسن ملك غرناطة هو الأمير التاسع عشر من بيت بني الأحمر وقد صار أقوى من تولوا هذه الامارة منذ انقراض خلفاء عبد الرحمان . وقد تأتي له ذلك

بسبب ما وقع بين الأمراء النصارى من النزاعات . فقد كانت إمارته غنية وكثيرة السكان بعد أن لجأ إليها المسلمون من جهات إسبانيا ليكونوا رعية لأمير من أمتهم وكان يتوفر على مدافع وذخيرة بالاضافة الى جيشه من الفرسان والراجلة المجهزين بالبنادق ، وقد سارعت إليه العساكر من كل بلاد البربر ولا سيما من المناطق القريبة مثل جبال غمارة ، وكان عطاء هؤلاء المحاربين يزيد على عطاء غيرهم لأنهم كانوا ألداء للنصارى . فلما كان فرديناند وإيزابيلا مشغولين بالحرب ضد ملك البرتغال قام صاحب غرناطة بأعمال تدمير كبيرة في الأندلس وفي مملكة مرسية وحتى اضطر فرديناند وإزابيلا الى عقد الهدنة معه . لكن الأمير المسلم عندما علم أن قلعة الزهراء قد خفت حراستها بسبب اطمئنان النصارى إلى الهدنة هاجمها ليلا بتسلق أسوارها فقتل حاكمها وأسر جميع من كانوا بداخلها.وقد تأثر فرديناند و إزابيلا لهذا الغدر وهذه الخسارة تأثرا عميقا ، فما كان منهما إلا أن هبا لانجاد تلك الثغور فقررا مواصلة السعي حتى يستكملا فتح هذه المملكة التي كانت عرقلة مستمرة في طريق استكمال أهدافهما ويقضيا على أتباع محمد في إسبانيا . ولذلك قاما في نفس العام بحصار مدينة الحمراء التي كان المسلمون يسمونها بسور غرناطة . وكان الملك المسلم يحاول استعادتها باستعجال ، لكن جهوده كانت غير مثمرة لان الملك فريناند أغاثها في الوقت المناسب . ولقد تابع فرديناند غارته فدخل سهل غرناطة وأفسد فيه مرتين ورجع منتصرا إلى قرطبة بعد أن عمر الثغور وشحن حصونها بالحامية .

ووقع أن المسلمين نشب بينهم الخلاف في وقت كانوا أحوج ما يكونون الى الاتحاد . كان ملك غرناطة قد بلغ من الكبر عتيا ، وقد كف بصره وكان شغف بامرأة نصرانية أسلمت ، فقام بقطع رؤوس أولاده من امرأة مطلقة حتى يرثه في الملك أبناؤه الآخرون، وأمر بتنفيذ ذلك القتل في قصر الحمراء في القاعة المسماه ببهو الأسود . ولكن أمهم المطلقة وهي من بنات عمومته قد أنقذت أصغر أولئك الأولاد بإنزاله ليلا من أعلى برج قمارش مستعملة لذلك حبلا معمولا من خمر وصيفاتها ومن شعر رؤوسهن . ومن هنالك نقله بنو سراج إلى وادي آش لأنهم كانوا مسخطين بسبب إقدام الملك على قتل بعض أهليهم بدعوى أن أحدهم قد أخرج أخته من البلاط . ولكن الملك إنما فعل ذلك لأنه أوجس خيفة من بني سراج الذين كانوا يظاهرون أولاد المرأة التي طلقها . ولما أقدم

على هذه الفعلة الأخيرة صار مذموما محقرا في أعين كبراء الدولة، مما دفعهم إلى استقدام ذلك الأمير الصغير من وادي آش، ولما كان السلطان ذات يوم في أجنته خارج المدينة نادوا بنصرة ذلك الطفل وأغلقوا أبواب الحمراء لمنع الملك من الدخول وعيّروه بقتل أبنائه . وحينئذ هرب عن طريق وادي لكرين إلى حصن موندوشار، وقام من هنالك يوجه لغزو الأمير الفتي أحد إخوانه (153) المشهورين بالحنكة والاقدام، وقد هلك في هذه الحرب عدد من كبراء الدولة من الفريقين على غير توقع منهم لذلك الدمار، فما توصلوا إلى صلح ولا استنجدو بالملكين الكاثوليكيين . وفي أثناء ذلك قام صاحب قادس ومعه نُبلاء من النصارى بغزوة في شرقي مالقة، (154) ولكن المسلمين اجتمعوا لحربهم فهزموهم وقتلوا ثلاثة من إخوة السيد المذكور واثنين من أبناء أخيه وعددا من أهله وخدمه وأسروا كونت سيفوينتس وأخاه الدون بيطره وعددا من الكبراء الآخرين وأثخنوا فيهم حتى هلك معظم النصارى أو وقعوا في الأسر . وقد اعتز ملك غرناطة الجديد بهذا النصر اعتزازا عظيما فأراد أن يغزو بنفسه أرض الأندلس وهو يظن أنه لن يلقى فيها مدافعا بعد تلك الهزيمة التي لحقت بالنصارى فبادر بجمع من استطاع جمعهم من المحاربين الفرسان والراجلين واصطحب معه عامل لوشة وعددا من النبلاء فحاصر قلعة اللشانة وهي مدينةتقع في حكم الدونزيليين ...

ويروى بعض شيوخ العرب في غرناطة، أن عصا الراية التي كان يحملها الامير ارتطمت بقوس باب الغيرة، وهو يغادر المدينة لمحاربة النصارى، وانكسرت عندها، فتطير بعض رفقائه من الحادث ونصحوه بالعدول عن خوض المعركة التي خرج من أجلها، لكنه لم يبال بنصيحتهم .

وصل الامير الى ضفاف سيل القايرا، فإذا بثعلب يخترق صفوف جنوده دون أن يتمكن أحد من النيل منه، فتشاءم الجنود وداعبتهم الرغبة في عدم مواصلة زحفهم، معلنين أن المعركة ستكون وخيمة العواقب عليهم، الا أن قائدهم حثهم على الاعتصام بحبل التعقل، وواصل بهم السير حتى أشرفوا على بلدة لوسيانة المسيحية، فحاصرها وغنم كثيرا من محصولات مزروعاتها .

---

(154) يكنى أبا عبد الله هو أيضا .

(155) في شهر مايو من عام 1483 .

بلغ الى علم كونت مدينة كابرا الذي كان وقتئذ في فاينا، ماتعرضت له لوسيانة، فشكل على جناح السرعة جيشا وقاده نحو المدينة المحاصرة، ليعزز به قوات حاكم دونزوليس . ولما رأى ملك العرب ما رآه من تكتل النصارى، رفع الحصار عن لوسيانة وتوجه الى لوشة بعدد كبير من الأسرى وغنائم هامة، فتعقبه المسيحيون، وهم مسلحون بايمانهم مع قلة عددهم بالنسبة للعرب، وهاجموهم عند مم جدول يبعد بفرسخ ونصف عن لويسانة وهزموهم باذن الله . وخلال المعركة، لقي الوالي العطار حتفه مع كثير من الجنود، من بينهم الاشراف، ووقع الأمير أبو عبد الله في قبضة النصارى الذين غنموا أيضا غنائم هامة من بينها تسع رايات. بعد ذلك عادت قوات النصارى منتصرة الى قواعدها .

وقعت هذه الأحداث، في نفس الوقت الذي فتح فيه السلطان العثماني بايزيد، فالونيا باليونان ويصادف نقل أخيه الذي كان أسيرا بمدينة رودس اليونانية الى روما، حيث توفي مسموما . الا أنه لم يكن لغزو النصارى مملكة غرناطة أي تأثير على المملكة التركية.وأشير الى أن فردناند، الملك الكاثوليكي دخل بجيشه الى سهل غرناطة، حيث قام بعمليات إتلاف فظيعة، وهاجم موقعي اللورة ومونتيفريوز وحاصر تشارة، فاستولى عليها ثم حطمها عن آخرها وعاد الى قرطبة .

أما الذين أسروا الأمير أبا عبد الله، فانهم قادوه الى قرطبة، حيث تفاوض مع الملكين النصرانيين — فردناند وزوجته ايزبيلا — بواسطة بعض الشخصيات ووعد أن يكون تابعاً لهما مقابل تخلية سبيله . فقبل عرضه، لكنه احتجّ على سياسة النصارى الرامية الى التفرقة وتجزئه الدولة . ولم يكتف المسيحيون بتحريره بل اشترطوا عليه أن يقبل مساعدتهم العسكرية لشنها حربا على أبيه وعلى المدن الموالية له .

لما عاد أبو عبد الله الى غرناطة، استقبله أهلها بالجفاء، بسبب المعاهدة المخزية التي أبرمها مع النصارى، فتحالف أنصاره السابقون ضده، وتضامنوا مع عمه أبي عبد الله، الذي كان من حزب أبيه المولى الحسن، فلقبوه بأبي عبد الله الباسل، تمييزا لابن أخيه الذي لقبوه بأبي عبد الله المشؤوم .

بعد انتشار خبر تواطيء الامير السابق مع النصارى، زحف خمسة عشر واليا عربيا من ولاة مملكة غرناطة، الى حدود الأراضي الواقعة تحت سلطان

النصارى، ونهبوا منها مانهبوا، وأتلفوا ما شاؤوا مدّعين بأن ملكا أسيراً لايمكنه أن يعطي أي أمر .

تصدى لهؤلاء الولاة وجنودهم، حاكم مدينة بالما، وهزمهم ثم استولى على خمس عشرة راية، وأسر العديد منهم ومن قوادهم، ولاذ الباقي بالفرار .

لكن حاكم مدينة قادس اعترض سبيلهم، وقتل منهم عددا، وأسر منهم ما استطاع، ثم هاجم مدينة الزاهرة، واحتلها وقتل حاكمها ثم استولى على حاميتها وشرّد أهلها، وبعد ذلك حصنها وعمرها بالنصارى .

تضاعف، من أجل ذلك، حقد أهل غرناطة على أبي عبد الله المشؤوم، فاستولى عليه الرعب، وسرى فيه الجزع، وفقد الاطمئنان على نفسه وعلى حياة أفراد أسرته، فرحل رفقة زوجته وأبنائه، الى مدينة المرية .

على اثر ذلك، نصب أهل غرناطة ملكا عليهم، المولى حسن، أبا الامير المنحوس، فنشبت بين الأب والابن سلسلة من المعارك الفتاكة .

وحّد النصارى صفوفهم ووطّدوا العزم على مواصلة زحفهم لتصفية الوجود العربي من اسبانيا . وفي هذا النطاق، توجه الملك فردناند الى ضواحي مدينة مالقة ونهب حقولها وبساتينها . ولما احتل بلدة اللورة، استسلم له كل من الحصين وستنيل . بعد ذلك، أوقف فردناند العمليات الحربية وذهب الى اشبيلية لقضاء فصل الشتاء .

وفي العام الموالي، أي في سنة 1485، استأنف فردناند نهب القرى وضواحيها، ولما استولى على عدد من الحصون، مثل قرطامة وشور وغيرهما، شن هجوما عنيفا على مدينة رندة، انتهى باستسلامها، بعد مقاومة عنيفة من لدن سكانها وحماتها،دامت عدة أيام .

كان فردناند يعرض على العرب الذين يستسلمون لسلطانه، ضمان الأمن على حياتهم وممتلكاتهم وحرية ممارسة شعائرهم الدينية، والنظر في قضاياهم من طرف قضاتهم وطبقا لاحكام شريعتهم ودينهم، مقابل قبولهم الولاء والوفاء التام والخالص للملكين النصرانيين . ورخص فردناند، من جهة أخرى للموالي العرب، ممارسة التجارة مع كافة المدن الاسبانية، على أساس ألا يدخلوا هذه المدن أو

يقيموا فيها بعد غروب الشمس، الا باذن خاص من الملكين أو ممن يمثلهما في تلك المدن،كما عرض على الذين يرفضون هذه الشروط بيع ممتلكاتهم والرحيل مع أسرهم الى افرقيا الشمالية، على متن سفن وضعت تحت تصرفهم، وقد أعطيت الأوامر لضباط وحراس الحدود بأن يعاملوا المهاجرين معاملة حسنة .

وخلال العام الموالي، استولى النصارى بالتتابع على تسع عشرة قرية واقعة في جبال الثلج، وسبع عشرة في جبال الغوفان وسائر مواقع جبال فلالونكا . ثم دخلوا الى مدن مربيلا ومونيميور والكورتوس وغيرها من المدن المجاورة . وأضاف الملك فردناند الى ذلك، قبل أن يلتحق هذه المرة بقرطبة لقضاء فصل الشتاء، تدمير عدة حصون والاستيلاء على أخرى مع تعيين حكام عليها .

لم تضعف العمليات الحربية مع ذلك، لأن الملكين الكاثوليكيين كانا يصران على إثارة الفتن والتفرقة في صفوف العرب. فذهبا يغدقان المال والعتاد على أبي عبد الله المشؤوم، المقيم بالمرية، ويعطيان التعليمات الى ضباطهما المقيمين بالمدن، لمده بكل ما يحتاج اليه من مساعدات، ليحارب إخوانه الذين عكفوا على مقاومة النصارى .

لما لمس عرب غرناطة. عجز ملكهم عن ممارسة الحكم، وقد بلغ من الكبر عتيا، وأصابه العمى، بايعوا أخاه أبا عبد الله الباسل، معتبرين أن أبا عبد الله المشؤوم، فقد كل أهلية للعرش، بسبب اتخاذه النصارى أولياء . ثم وضعوا الملك الهرم وأسرته في الاقامة الاجبارية بقلعة موندخار، وكان ذلك سبب هلاكهم التام، لأن الامير الجديد أجرى اتصالات مع بعض فقهاء المرية، ليساعدوه على الدخول ليلا الى المدينة، حتى يتمكن من إلقاء القبض على أبي عبد الله أو قتله .

لما علم أبو عبد الله المشؤوم بنوايا عمه، فرّ من المرية ليلا والتجأ لدى النصارى، ولما دخل أمير غرناطة الجديد الى المرية واستولى على الحصن، توجه تواً الى البلاط لالقاء القبض على ابن أخيه، لكنه لم يجد فيه الا أخاه الصغير الذي كان أبو عبد الله المشؤوم قد نقله معه الى المرية حتى لا يقتله أبوه، فقتل أبو عبد الله ابن أخيه الصغير، وقتل كل الذين تواطئوا مع أبي عبد الله المشؤوم . استفظع هذا الأخير ما حل بأخيه وأنصاره، وهاله الأمر حتى إنه أقسم أن لن يتصالح مع عمه مهما كانت الأحوال، ورغم الظروف العديدة التي سنحت من بعد، ليمحو آثار الخصام بينهما .

لم يبق المولى حسن محبوسا في قلعته إلا أياما معدودة حتى قضى نحبه، فانضمت جميع الهيآت والقوى في الدولة لملك غرناطة الجديد، الذي نظم صفوفه وشرع يحارب النصارى، فكان النصر حليفه في عدة معارك، نذكر من بينها، انتصاره على حاكم بلدة كابرة وقتل أخيه، في حين كان فردناند يزحف بفلول قواته، نحو مدينة موكلين .

انتقلت الى فردناند أنباء تحركات ملك غرناطة المظفرة، فتراجع عن خطته وانطلق يهاجم مواقع كمبيل وحرابل التي كان العرب يتحصنون بها في توجيه ضرباتهم الى مدينة جيان .

كانت هجومات فردناند على كمبيل وحرابل عنيفة، فأخلاها سكانها، والتجأ قائدهما العربي بحاميته الى غرناطة .

في خضمّ هذه الاحداث، تمكّن أحد فرسان القنطرة الذي كان مرابطا بحدود الحامية، من تسلق أسوار بلدة سالية والاستيلاء عليها . بعد هذا أمر فردناند بتحصين المواقع التي احتلها، وعاد الى طليطلة .

هاجم الملك النصراني، عام 1486، مدينة لوشة، بجيش عرمرم، لكن جهاز الدفاع صمم على الصمود، فحاصرها الملك أمدا طويلا، توصل بعده الى التفاوض مع أهلها، فسلّموه مفاتيحها . على اثر ذلك، استسلمت له القرى المجاورة، مثل اللورة وموكلان، وغيرهما، وعين عليها حكاما، الا أن سكان لوشة العرب هاجروها والتجأوا الى غرناطة .

اشتغل العرب خلال هذه الحروب، بنزاعات مسلحة فيما بينهم، إذ كان أبو عبد الله المشؤوم، لايكتفي بعرقلة تحركات عمه، بل يهاجم قواته، واصطدمت فيالق الجيوش العربية، في معركة ضارية بقرية بليزبلانكو، وكانت قوات النصارى تحارب الى جانب أمير غرناطة السابق .

أصبحت مملكة غرناطة والقلع المحصنة الواقعة في تخومها، خاضعة لحكم أبي عبد الله الباسل، لكن هذا الأخير طغى في البلاد، واستعمل السيف في رقاب معارضيه من العرب، فغضب رعايا مملكته وثارت ثائرتهم، وبلغ صدى سخطهم عليه الى فرناند الذي اتخذها مناسبة لتوسيع الشقة بين العرب والاستفادة من خلافاتهم .

كانت القوات الموالية لأبي عبد الله المشؤوم تنهزم كلما اصطدمت بقوات أبي عبيد الله الباسل . لذا قرر الامير السابق أن يواصل محاربة عمه حتى يسترجع عرشه . لكنه فكر في سلوك منهج آخر نظرا لضعف قواته .

اختفى من ميدان المواجهة حينا، لكنه سرى عبر طرق ملتوية، واخترق المسالك الجبلية الوعرة . ولما دنا من بلدة البيازين المحاربة لغرناطة، ترك جنوده واصطحب معه خمسة من رفقائه، واستطاع إرشاء أحد حراس أبواب البلدة، ففسحوا له المجال ولما دخل الى البيازين ليلا، صار يقرع أبواب المنازل بيتا بيتا يلتمس من أصحابها النصرة والمنعة، ضد عمه .

عندما أصبح ، تنوقلت عبر البلدة أنباء دخول أبي عبد الله إليها سرًّاوراجت أخبار دعوته الى استعادة العرش، وأخذ سكان البلدة يحصنون الأزقة، ويشددون الحراسة على الممرات التى قد تستعملها قوات ملك غرناطة اذا ما دخلت الى بلدتهم وفعلا، شن أبو عبد الله الباسل هجوما على أنصار ابن أخيه بالبيازين، وجرت بين الفريقين معركة عنيفة بالأسلحة وحتى بالأيدي، وسقط على إثرها عدد كبير من القتلى، من الجانبين ، وتمكن ملك غرناطة من السيطرة على الموقف، ووضع في البلدة قوات للحراسة. اما ابن أخيه فإنه لم يجد مفرا من الاعتصام بقلعته ودامت المعركة خمسين يوما دون أن يتوصل أحد الفريقين إلى القضاء على الآخر.

الا أن أبا عبد الله المشؤوم تيقن أنه لن يقوى على الصمود طويلا، فاستنجد بالملكين النصرانيين، فلم يتهاودا في إعطاء الاوامر الى حاكم الحدود، ليمدّه بالمساعدة، فأرسل الى البيازين قوات تتألف من خمسمائة من الرماة، لتعزز جنود أبي عبد الله المشؤوم، فكان الفوز حليف القوات المتكتلة ضد ملك غرناطة.

بينما كانت الأسلحة تتقارع في هذه الجبهة، اغتنمها فردناند فرصة لحصار بليز مالقة، عندها، اهتزت مشاعر الفقهاء والشيوخ في غرناطة للتصدعّ الواقع في صفوف العرب والذي يستفيد منه المسيحيون، فصعدوا الى القصر وقدموا ملتمسا الى الملك، يلاحظون فيه أن النصارى يحاصرون بليز، وبفقدان هذا الموقع، ستسقط مالقة لا محالة ، كما سيضيع الباقي ، وان ابن أخيه تحصنَّ في البيازين ولن يستطيع أحد أن يزحزحه عن موقعه ، لأنه يعتمد على قوات العدو ، وكل هذه الأحداث

تجري ، في حين أن النصارى لم يلبثوا يتقدمون ، وطلبوا منه أن يتمسّك بجانب الحكمة ، فينظر بعطف الى مصلحة الدولة ، ويبرم صلحا أو هدنة مع ابن أخيه ، ولو كان ذلك على حساب حقوقه ، حتى يتسنّى له ردَّ النصارى على أعقابهم خاسرين .

تأثر الملك بتدخل أصحاب الملتمس ، فأوفدهم الى ابن أخيه ، لعلّه يهتدي الى الرّشد ، ولكن هذا الأخير لم يستجب لمسعاهم ، ولم يثق بنوايا عمه ، لسبب خذلانه السابق ومن أجل المعاملة القاسية التي تعرض لها أنصاره على يده ، ولو أنه الى حد التنازل له عن العرش .

وطال حصار بليز ، ووجد أبو عبد الله الباسل نفسه في موقف لا يحسد عليه ، خصوصا وان الفقهاء وأعيان غرناطة الحو عليه في نجدة الموقع المهدد بالسقوط ، وهو يوجد في أقصى الجنوب ، فما كان منه إلا أن عزز حامية قصر الحمراء ، وقوى الكتائب التي ترابط بالبيازين ، ثم قاد جيشا يتألف من بعض الفرسان من المشاة ، وسار به عبر الطريق المقطوعة والثانوية ، ليهاجم بغتة النصارى الذين يحاصرون بليز .

إلا أن القوات المعادية كانت على علم بتحركاته ، فتصدّت له بطريقة محكمة ولم يجد مناصا من الانسحاب ، مخلفا ، وراءه عددا من القتلى والأسرى . دخل أبو عبد الله الى الموجنيكار ، لكن لم يلبث الا قليلا حتى غادرها في اتجاه المرية ، ومن ثم الى قادش .

تلقي أهل غرناطة بامتعاض ، نبأ انهزام ملكهم أمام بليز ، فخلعوه ونصبوا مكانه ابن أخيه ، وسلموا له مفاتيح قصر الحمراء ، وما في المملكة من حصون .

اعتلى أبو عبد الله العرش ، ودشّن حكمه بأن أمر بقطع رؤوس أربعة أشخاص من وزراء عمه الذين عارضوه سابقا ، وأوفد رسولا الى الملك النصراني فرناند يطلعه على تطور الحالة ، ملتمسا منه تأمين سلامة رعايا مملكة غرناطة والحفاظ على المواقع التابعة لها ، كما التمس منه اعطاء الاوامر الى حكام المناطق والمواقع الخاضعة له ، كي يجتنبوا القيام بكل ما من شأنه أن يسيء الى علاقتهما ، مع احترام حقوق المواطنين العرب ، وحرية تنقلهم عبر البلاد ، وعدم مضايقاتهم في تجارتهم ، مقابل ذلك ، أكّد أبو عبد الله وفاءه بالعهد الذي قطعه على نفسه

والقاضي بولائه للملك فرناند وإخلاصه له ، من الموافقة على تسليم غرناطة الى الملكين النصرانيين في حالة ما اذا أفلحا في غزو الميرية وبياسة وقادس ، مذكّرا بأنه في هذه الظروف ، لن يطالب عند انسحابه من غرناطة ، الا أن يمنح مكانا يقضي فيه بقية أيام حياته .

لبّى الملكان رغبة أبي عبد الله وابلغا المواطنين العرب في المدن والقرى التي لم تدخل بعد تحت سلطانهما إن هم رفضوا أبا عبد الله ملكا ، فسوف يحتلّان مدنهم وقراهم ، وأعطياهم مهلة ستة أشهر لاتخاذ قرار في الموضوع .

لم تمض إلا أيام معدودات حتى أعلن سكان بليز العزّل ، عن استسلامهم الى فردناند ، فدخل الملك النصراني البلدة يوم الجمعة 27 أبريل ، وحذا حذوهم سكان قرى ومدن أخرى ، بنفس الشروط ، ونذكر من بين هذه المدن رندة وماربيلة .

كلما احتل فرناند بلدة أو مدينة عين عليها حاكما ، وكلما تسلّم مفاتيح قلعة أو حصن نصّب فيها قائدا . وفتح احتلال بليز ، لفردناند ، طريق اقامة الحصار حول مدينة مالقة ، التي تبعد عن بليز بخمسة فراسخ .

أظهر سكان المدينة بسالة كبرى ، إذ صمدوا مدة طويلة في وجه جيوش النصارى ، لكنهم اضطرّوا للاستسلام ، بعدما ظلت المدينة عربية طيلة سبعمائة وسبعين عاما . ودخلها الملكان النصرانيان ، يوم 8 غشت 1984 .

كان لسقوط مالقة في أيدي النصارى صدى كبير في البلاد ، وأثر عميق في باقي مواقع المنطقة الجنوبية الغربية ، اذ أخذت القرى تعلن عن اذعانها للأمر الواقع ، بدون مقاومة .

قبل أن يعود الملكان النصرانيان الى قرطبة ، أسكنا العديد من المسيحيين بمالقة ، وعيّنا حكاما على جميع المواقع التي امست منضوية تحت لوائهم .

كانت قوات النصارى تحتل مملكة غرناطة من جهتها الغربية ، فدخل فردناند هذه المرّة الى المملكة من جهتها الشرقية حيث تقع مدن بيرة و موخكار وجفكار والميرية وباسا وقادس ، التي كانت كلها تدين بالولاء للملك ابي عبد الله المخلوع ، وبما أن هذا الاخير لم يقو على الظهور في البوادي ، فان بلدتي بيرة وموخكار أعلنتا عن استسلامهما وكذلك كان الشأن بالنسبة للمدن الأخرى ،

التي أصبح سكانها قاطبة رعايا وموالي الملكين-النصرانيين ينطبق عليهم ماينطبق على الذين سبقوهم فى الانضواء تحت لواء المسيحيين .

دخل فردناند بعد ذلك الى المرية في زيارة استطلاعية ، ثم ولّى نحو باسا وقرى أخرى كانت في طريقه ، والتي أعلنت بدورها عن طاعتها ، ثم توجه توا الى بلدة باسا التي كان يقيم بها الملك المخلوع .

جرت معركة حامية الوطيس أمام باسا ، اذ قتل خلالها صاحب مونتيفا الاكبر ، وحاصر بعد ذلك فردناند بلدة كفكار ، فاستسلمت كغيرها ، ثم عيّن عليها الملك حاكما قبل أن يقصد طليطلة لقضاء فصل الشتاء.

في الوقت المناسب ، أعطى الملكان النصريان تعليماتهما الى حكومتهما بخصوص الحرب التي قررا مواصلتها ضد العرب ، وانصرفا الى جيان ، وذلك خلال عام 1489 .

تجمّعت قوات الملكين النصرانيين بمدينتي أبيدة وبايسة وفي بطاح كاسورلا التي وقع عليها اختيارهم لجلب جيوش غرناطة اليها . وعندما تمّت الاستعدادات للقتال ، ذهب فردناند الى باسا ، وفي الطريق ، استولى على قلعة كولار بعد معركة عنيفة كما استولى على قصور استراتيجية لضمان أمن معسكره .

حاصر باسا لمدة ستة أشهر وعشرين يوما ، لأن أصحابها أظهروا من الشجاعةوالاستماتة ما لم يكن في حسبان النصارى .واستشهد الكثير من العرب ، ومات العديد من جنود فردناند ، لكن الملك لم يفقد الأمل في غزو المدينة ، لأن منافذ نجدتها كانت منعدمة . ويوم 4 دجنبر من نفس السنة ، دخلت إليها فلول النصارى ، مع الحاكم الذي عين عليها مسبقا . ولم يجد الملك أية صعوبة للاستيلاء على باقي المواقع الصغيرة المبثوثة في المنطقة وعلى ضفاف نهري المنصورة والميرية وبالجبال المجاورة .

لما علم الملك المخلوع والمقيم بقادش ، بالكارثة التي حلت بالمسلمين ، فضّل أن يسلم غرناطة الى النصارى بدون قتال بدلا من أن يراها خاضعة لسلطان ابن أخيه. واعترافا له بالجميل خصص له الملكان مكانا ومعاشا ، ثم اصطحباه معهما لمشاهدة دخولهما الى غرناطة ، وكان حاكم باسا وأسرته ، ضمن الموكب الملكي — الا أن أبا عبد الله استأذن الملكين النصرانيين فى السماح له بالرحيل الى إفريقيا الشمالية لأنه تحاشى الحياة في الارض التي لم يبق عليها ملكا .

كانت مدينة غرناطة وما حولها من القرى التي استطاعت الحفاظ على سلامتها ، خارجة من سلطان النصارى ، إذ لم يتم بعد الاسترداد الشامل . وعرض الملكان النصرانيان على مولاهما أبي عبد الله ، الذي اختاره العرب ملكا عليهم مكان عمه ، مبالغ هامة من المال وبلدة اندراش ليستقر بها .

لكن أمير غرناطة نقض عهده ، إذ ندم على تواطئه مع النصارى ، فرفض العرض ، مبررا عدم انصياعه اليهما بتضخّم عدد سكان غرناطة الساخطين على ما حدث من تغيرات في المنطقة ، غير قابلين للاستسلام دون الدفاع عن كرامتهم وشرفهم . ثم صرّح بأنه من الصعب عليه جداً أن يستجيب لكل مطالبهما في وقت وجيز .

سلك الملكان النصرانيان مسلك المساومة ، فضاعفا من المبالغ المالية التي عرضاها على أبي عبد الله ، لكن أمير غرناطة أصرّ على الرفض وأمر بالجهاد ، فدعا سكان ما بقي تحت سلطانه من رقعة الملكة ، الى قتال الغزاة.

كان لدعوة الامير أثر إيجابي لدى العرب ، فتجنّدوا وخرجوا وراء أميرهم للقتال ، واسترجعوا بعض المواقع ، من بينها قلعة بادول ، دون أن يتمكن فردناند من أن يحول دون ذلك ، لأنه كان يوجد جهة قادس ، وبعدما عزز فرناند المواقع الجنوبية بالجنود والعتاد ، برح الميدان وراح الى قرطبة لقضاء فصل الشتاء .

خلال السنة التي أعقبت هذه الأحداث توغل الملكان في سهل غرناطة وكان يوجد من بين أعضاء حاشيتهما ، الملك الخلوع أبو عبد الله ، وحاكم باسا ونفر من الشخصيات السامية .

بدأ فردناند العمليات الحربية ، باعطاء الامر الى جنوده ، باتلاف كل ما يمكن اتلافه في السهل . وأوشكت عمليات التخريب أن تصل الى أبواب المدينة ، الامر الذي حفز السكان على القيام بمقاومة عدوهم إذ كانوا يخرجون عدة مرات من المدينة لمحاولة ردّ النصارى على أعقابهم .

لقي ماركي فليانه ، حتفه أثناء احدى المجابهات ، كما قتل بعض الشخصيات السامية التي رافقت الملكين النصرانيين ، وأصيب فردناند بجروح في دراعه ، فغادر الميدان موليا الى قرطبة ، وقد أمر بتعزيز القوات المكلّفة بالدفاع عن الحدود .

تمكّن ملك غرناطة عندئذ ، بتنظيم الحصار حول قلعة الهندين التي لا تبعد عن المدينة الا بمسافة فرسخ ونصف ، وكانت في القلعة حامية قوية مدجّجة بالاسلحة فهاجمها الملك وأمطرها بوابل من الحجارة التي كانت تقذفها آليات خاصّة ، كالمنجنيق .

ولما تبيّن للحاكم المسيحي ألّا سبيل له الى الخلاص ، وقد تصدّعت جدران القلعة وأتلفت تحصيناتها ، وأصبحت كلها على وشك الانهيار ، استسلم للملك ، والنيران تشتعل في أجنحة القلعة ، أمر وقتئذ أبو عبد الله بتحطيم القلعة عن آخرها ، وعاد الى غرناطة وقد سبى حاكم القلعة و من نجا من حامياتها .

شاع خبر هذه الانتصارات في مختلف الجهات ، وخلّف اثرا طيّبا في نفوس المسلمين ، فكان انطلاقة لتذكية حبّ الجهاد في أوساطهم ، فثار عرب المناطق الجبلية ووادي البشارى على حكامهم النصارى ، وقاد ملك غرناطة بنفسه عمليات حربية ضدّ مدن مرشان وبيلودوي والميرية وقادش ، فدخلها مظفّرا اذ لم تستطع حامياتها أن تصمد أمام جيشه .

عندما كنت أُؤرّخ لهذه الأحداث ، روى لي شيخ عربي غرناطي كان يقيم آنذاك في البيازين ، أن كافة المواقع التي توجد في منطقة البشرات ، ثارت على النظام النصراني ، ومن بين جميع القلع التي أعلنت عن ثورتها ، لم تصمد أمام السكان العرب ، الا حامية حصن مندخار .

الا أن الانتفاضة العربية كانت محدودة ولم تعمّر الا قليلا ، لأن العرب كانوا يفتقدون الثغور ، للتوصّل بالامدادات الحربية والبشرية من المغرب ومع ذلك فان العرب راحوا يدهنون حكام مدينة سالوبريني ، الموالين للنصارى كي يسلموا لهم ميناء المدينة التي رابطوا حولها . لكن جيوش فردناند هبّت لنجدتها

تراجع أبو عبد الله ، فطارده فردناند وقام بالحاق خسائر جسمية بسهل غرناطة ، ثم ولّى عائدا الى قرطبة .

تلقى فردناند أنباء مفادها أن عرب باسا وقادش والميرية ، يجرون مباحثات سرية مع ملك غرناطة ، قصد مدّهم بالمساعدات الضرورية لقلب الأوضاع ، فذهب الملك النصراني على جناح السرعة الى قادش ، وأمر بطرد جميع العرب من المدن الخاضعة لسلطانه ، مع تمكينهم من التسهيلات لبيع ممتلكاتهم والهجرة الى شمال افريقيا ، وتهديدهم ، في حالة رفضهم ، بالتجريد من كل ما يمتلكونه .

بعد أن أعاد فردناند الامن الى نصابه ، رجع الى قرطبة ، مع عزمه غزو غرناطة في السنة الموالية .

خلال أبريل من عام 1491 ، دخل فردناند مرّة أخرى الى سهل غرناطة بجيش يتألف من ثلاثة آلاف فارس ، وعشرة آلاف من المشاة ، يقوده ماركي فلاينة . وكان من وراء هذه الكتائب ، كتائب أخرى كثيرة العدد ، مستعدة للتدخل في كل وقت وحين ، لتعزيز السريات الاولى ، وأعطيت لقوات النصارى تعليمات بتحطيم كل المواقع العسكرية العربية والقرى التي ثار سكانها ضد سلطان النصارى في منطقة لكران.

لما نفذ ماركي فلاينة جميع العمليات المدمرة التي أسندت الى سرياته ، ولّى راجعا الى بادول ليقدم الى فردناند جموع الأسرى الذين سلبهم والغنائم الهامة التي اغتنمها فأمره فردناند بمواصلة مهامه قصد إضعاف العرب قبل أن يقوم هو بحصار غرناطة .

علم ملك غرناطة بما يخطط فردناند ، فأرسل قوات للمرابطة بالطرق الجبلية التي سيمرّ بها فردناند ، لكن النصارى فاجئوا العرب وهاجموهم بأسفل التبلار مارين بالقنطرة ، إذ طردوا الحمية التي كانت بها وأخرجوابعد ذلك الجنود العرب من مخابئهم الجبلية ، ثم عاد فردناند الى الأنخرون ، حيث أقام الى ان تم القضاء على جميع الطلائع العربية وتم تخريب كافة الاماكن الاستراتيجية التي كانت تحيط بغرناطة .

أتلفت جيوش النصارى المواقع الغرناطية المتقدمة ، وأفسدت مزارعها عن آخرها ، ثم رابطت على بعد فرسخين من غرناطة ، عازمة على الّا تبرح مواقعها حتى يتم غزو المدينة .

استغرق حصار غرناطة ثمانية أشهر وعشرة أيام ، أي من 25 أبريل عام 1491 حتى اليوم الثاني من يناير 1492

قاوم المسلمون بكل قواهم محاولات فردناند ، لكنهم لم يستطيعوا أن يزحزحوه عن معسكره ، وشارك في المعارك البطولية الخواص والعوام من الجانبين ، اذ كان كل فريق متشبعا بروح النضال ، عازما على تحقيق المآثر والمعجزات .

التحقت الملكة إيزابيلا بميدان الوغى ، رفقه ابنها الأمير دون خوان واحدى الاميرات من البلاط . وخلال إحدى الليالي لمس لهيب قنديل ، خيمة من خيام معسكر النصارى ، فاتشرت فيه النيران وأصيبت الملكة ، وعدد من أفراد حاشياتها بحروق .

لهذا السبب ، أمر فردناند ببناء معسكر من الحجر والآجرّ ، على شكل مدينة ، وخطط فيها الممرّات والمسالك وقسمه الى أجنحة ، ووضع حوله الأبراج وعزز تحصينه ، ثم أحاطه بسلسلة من الخنادق ، وصار كالمدينة المغلقة ، فأطلقت عليها الملكة إيزابيلا ، اسم « سانت فوى »أي « الايمان المقدس » .

أخذ اليأس ينال من عزيمة سكان غرناطة ، ونفذت المذخرات من المواد الغذائية ، ولم يبق أمل يذكر في الانتفاضات العربية أو النجدة من الخارج . اذ ذاك ، اتصل بأبي عبد الله وفد يتألف من بعض وجهاء المدينة والقضاة والفقهاء ، والتمسوا منه فتح مفاوضات مع الملكيين النصرانيين .

استجاب الملك لطلب علية قومه ، إذ أوفد الى الملكين النصرانيين بعثة تتألف من اثنيْ عشرْ شخصا ومعهم ابنه ، وأعطاها كامل الصلاحيات للتفاوض .

على اثر هذا الاتصال ، منح الملكان لأمير غرناطة مهلة سبعين يوما ثم أرسلا ابن الأمير وعددا من أعضاء البعثة ، الى مكان أمين ، بصفتهم رهائن .

بدأت المفاوضات بين الجانبين يوم 5أكتوبر ، وانتهت يوم 25 نونبر الموالي ، فحددت شروط استسلام المدينة وسكانها كما يالي :

« بمقتضى الاتفاق ، يتعين على شعب المدينة وسكان البيازين والضواحي وعلى ملك غرناطة والضباط والوجهاء أن يسلموا الى الملكين النصرانيين أو الى ممثليهما ، قصر الحمراء والقصور الأخرى والحصون والأبراج والأبواب ، وقصور البيازين ، بدون مخادعة ، في أجل أقصاه أربعون يوما ، كما يتعين على كل هؤلاء بعد انقضاء هذا الأجل ، أن يعتبروا أنفسهم رعايا للملكين النصرانيين ، يدينون لهما بالوفاء والولاء والاخلاص ، وفي اطار تنفيذ مقتضيات الاتفاق ، يجب على العرب ، قبل استسلامهم بيوم ، أن يسلّموا الى النصارى خمسمائة أشخاص يكون على رأسهم الوزير يوسف ابن قميحَة ، ومن بينهم الأطفال وأفراد من أسر قادة المملكة

المنهارة ومن بين سكان البيازين ، بصفتهم رهائن موضوعين تحت تصرف الملكين النصرانيين لمدة عشرة أيام ، أي الفترة التي تستغرقها تصفية استسلام المملكة وتنصيب القوات المسيحية في مواقعها : ونصت الاتفاقية كذلك على التزام الملكين وابنهما الامير دون خوان باعتبار العرب من رعاياهم مع المحافظة على سلامتهم ومصالحهم وممتلكاتهم ، من الملك الى آخر طفل ، سواء كانوا من المدينة أو من أهل الأرياف ، وحمايتهم من أي سوء أو اذى ، ولن يعاملوا الا في إطار القانون والعدل ، شأنهم شأن كافة الرعايا والموالي ، وللذين لا يطيقون الحياة في ظل النظام الجديد ، كامل الحرية لبيع أمتعتهم وممتلكاتهم ، والهجرة الى إفريقيا الشمالية ، على متن سفن ستوضع تحت تصرفهم » .

وجاء اليوم المعلوم، فأقبل الكاردنال مندوس بمعية أربعين من أعيان النصارى ليتسلموا قصر الحمراء والمواقع المحصنة، وطبقا لما نص عليه الاتفاق، وجب عليهم ألا يظهروا بشوارع المدينة، اتقاء لاستفزاز السكان .

تقدم أحد المهندسين النصارى وسار في الطريق التى تمر اليوم بكنيسة القديس الشيخ أنطوان وبمنسك الشهداء الذي شيدته الملكة ايزابيلا مكان سجن أسرى النصارى الى أن وصل قصر الحمراء .

ما كاد الموكب الذي يتقدمه الكاردنال ينطلق نحو المدينة، تحت حراسة كتيبة من جيش النصارى، حتى انطلق معه فردناند، على رأس عدة فيالق من جيشه، فاخترق سهل غرناطة ثم استوقف موكبه في مكان لايبعد عن المدينة الا بنحو فرسخ ونصف .

عندما بلغ الكاردنال أمام سجن النصارى، وجد في انتظاره أبا عبد الله، الذي نزل من الحمراء مشيا على القدمين. حياه الكاردنال ونطق بكلمات ما، فرد عليه أبو عبد الله بأنه سيسلمه غداته مفاتيح القصور والمواقع المحصنة، التي أراد الله أن ينزعها من العرب، جزاء لهم على ما قدمت أيديهم .

عاد أبو عبد الله نحو قصر الحمراء، رفقة الكاردنال ومن معه، دخل النصارى الى قصر الحمراء في جو أثقله الهدوء، ولما استخلصوا لأنفسهم مجموع مرافقه، صعد الكاردنال الى أحد الابراج بالقصر ونصب فوقه صلبيا كبيرا من فضة، ولواء الملكية المسيحية . وقد أصبح يسمى هذا البرج برج الناقوس، وكان يطل

على سهل غرناطة ويمكن منه، مشاهدة معسكر فردناند .

وما أبصرت المملكة الصليب منصوبا فوق قصر الحمراء، حتى انحنت نحو الارض، واقفة على ركبتيها وهي تصلي وتوجه الشكر الى ربها . أثار المشهد الحماس في نفوس أعضاء حاشيتها فعكفوا يرتلون الاناشيد الدينية .

عند ذلك بدأ فردناند وبعض علية القوم وأعيانهم يزحفون نحو غرناطة، ولما دخلوها، تقدم نحوه أبو عبد الله، ممتطيا جواده، ولما دنا من فردناند، تهيأ للنزول عن صهوته ليقدم التحية الى الملك النصراني، لكن هذا الاخير أومأ اليه ألا يفعل، شفقة عليه. فقبل أبو عبد الله مع ذلك ذراع فردناند اليمنى وقدم اليه مفاتيح القصر، فتناولها الملك النصراني وسلمها الى كونت تنديلا الذي أصبح أول حاكم نصراني على غرناطة .

قصد فردناند قصر الحمراء، عابرا الطريق الذي سلكه الكاردنال من قبله، ويروي بعض سكان المدينة أن أبا عبد الله، ترك فردناند والتحق على الفور بأحد المنازل حيث كانت أسرته في انتظاره . لكن الذين عاينوا الوقائع، رووا لي أن أبا عبد الله برح المدينة في اتجاه البشرات حيث آوى هو وحاشيته، الى بيوت كانت معدة اليه من قبل . وأضاف هؤلاء، قائلين إنه لما بلغ مكانا على مقربة من بادول، تتراءى منه أسوار غرناطة وقصورها، وقف واستوقف، وبكى واستبكى، متحسرا على ما فاته وضاع منه والى ما آل اليه . فنادته أمه قائلة : «أو تبكي يابني، كامرأة، على ما لم تفلح في الدفاع عنه كالرجال !» أرجّح مصداقية هذا القول لان العرب يسمّون هذا المكان : «عين الله العظيم» .

استقبل سكان غرناطة الملكين النصرانيين بالتحيات والاحترام، وأعربوا لهم عن رضاهم، ولما رأى أهل القرى المجاورة والمناطق الجبلية أن اخوانهم بغرناطة لم يتعرضوا لأي سوء ، طفقوا يسلمون بالامر الواقع، وقد كانوا إلى الأمس القريب أشد عداوة للنصارى وأكثر وفاء لأبي عبد الله .

مع سقوط غرناطة، أصبح جميع التراب الاسباني خاضعا لسلطان النصارى، بعد ما لبث عربيا اسلاميا طيلة سبعمائة وثمانية وسبعين عاما. ومع انهيار الكيان العربي في اسبانيا، بدأت تحركات القوات العثمانية في أروبا الشرقية وشمال البحر المتوسط تثير الانتباه، اذ تمكن بايزيد السلطان العثماني، من غزو

منطقة الايبر، باليونان، والتي دامت مستقلة حرّة الى حين، واسترجع، في نفس الوقت، ماتياس كوبان ملك المجر، مدينة سبات التي استولى عليها الاتراك، ثم نصب فيها حامية مدججة بالسلاح، لضمان سلامة مملكته .

وما مضى عام على انسحاب الاتراك من المدينة الستراتيجية المجرية، حتى أرسلوا، وذلك عام 1493، جيشا قويا ومنظما، يقوده الضابط قادوم باشا، لمقاتله المجريين، فهاجمهم، وقتل منهم سبعة الآف جندي، وأرسل قادوم باشا رؤوسهم الى السلطان العثماني بإصطنبول، دليلا على انتصاراته .

لكن الجيش التركي انهزم عام 1494، في اقليم قرواطة، بيوغسلافيا، أمام جنود الامبراطور ماكسيمليان، وفي عام 1498، قاد السلطان بايزيد بنفسه معركة ضد اقليم البندقية . ولما دخل الى اقليم الدلماتية، بالبلقان، قام باتلاف العديد من المنشآت وغنم غنائم هامة وسبى أعدادا كبيرة من المسيحيين . وعندما كان في طريق العودة الى بلده مرّ باقليم الفريول، فقتل من سكانه أربعة آلاف مسيحي وأمر باغراق المآت من الاسرى الذين بدؤوا يعرقلون عملية الرجوع، عند اجتياز أحد الانهار .

بعد ذلك بسنة، استولى بايزيد على مدينتي قرون ومضون اليونانيتين، ولما دخلت جيوشه مدينة مطون، أمرهم بقطع رأس أسقفها وقتل كافة سكانها المسيحيين، ثم شفع ذلك باحراقها وتدميرها .

انتزع السلطان العثماني عام 1500، من نفوذ جمهورية البندقية، مدينتي لوباندرة ودوراس وبث الرعب بين سكانهما، فاستنجد حكّام البندقية بالبابا الذي كان جيشه وقتئذ يحاصر مدينة نوبيليا باليونان . وكان الاتراك يخططون لفتحها وفتح البندقية التي كانت تعتبر يومها حصنا متقدما للدفاع عن أمن روما وبقية الاقاليم الايطالية .

أوفد البابا كبير ضباط جيشه للالتحاق ببحرية البندقية، بعدما كان على رأس القوات التي طردت قوات الاحتلال الفرنسي من مدينة نوبيليا . دمّر ذلك الضابط مواقع جزر بحر الايجي، ثم التحق بجزر لوكاد وسيفالونيا ونيريتا التي أصبحت تسمى كلها جزر سانت مور، ثم أمر بعد ذلك برفع الحصار عن نوبيليا .

أما في بلاد الفرس، فقد ادعى أحد العرب هناك،واسمه الياس، النبوة، فآمن به مائة وخمسون ألف شخص أو يزيدون، خصصوا أموالهم لخدمة الفقراء وتمويل الجهاد .

علم بايزيد أن عددا من أنصار الياس يوجدون من بين الاتراك في اصطنبول، فاقتفى أثرهم باحراق منازلهم بمن فيها من الاحياء، ثم أعدم عددا آخر، حتى لايتفشى في البلد أمر الياس .

وفي نفس السنة، جنح السلطان بايزيد الى السلم، فعقد صلحا مع ملك المجر ومع حاكم البندقية، حتى يتفرغ لاخماد نار الفتنة في بلاده، لكنه انهزم في معركة ضد الفرس، فعدل عن الحروب حينا من الدهر .

وفي عام 1510 أو عام 1508، حسب بعض الرواة، قام حاكم الدونز ليس الاسباني بعمليات حربية لغزو ميناء المرسى الكبير . وتوجد تفاصيل هذه المعارك في الجزء الخامس من هذا الكتاب .

الفصل الأخيـر

نهاية حكم بني وطاس وبداية عهد الشرفاء ومختصر ما وقع من أحداث في تلك الحقبة من الزمان

كان في المغرب ، في هذه الفترة من الزمان عدة أمراء ، يتقاسمون السيادة ذلك ما جعل الكثير من الحواضر تنفرد باستقلالها ، ولم يكن حينئذ للملوك بني وطاس ما يلزم من السلطة لبسط نفوذهم على مجموع تراب موريطانيا الطنجية .

ظل مانويل ، ملك البرتغال ، مصمّما على نشر العقيدة المسيحية ، وتوسيع حدود مملكته ، فراح يواصل الحروب التي كان يشنّها سلفه ، ولم يكتف باحتلال الثغور المغربية ، بل طفق يحصنها ويشيّد القلاع ، فكانت قواته تحتل سبتة وطنجة وأصيلا والقصر الصغير والعرائش وأزمور والجديدة وأسفي وأكَدير وقلعة أكّوز(1) .أما الحديث عن هذه الغزوات ، فسيأتي في الوقت المناسب .

كانت الحاميات الرتغالية هائلة ، ولم يستطع أي أحد من الأمراء المتحكمين في المغرب ، من أن ينال منها أو يتغلّب عليها ، وكان مانويل وحده ، مثارا للخوف ، وبات جيشه يضم ، زيادة على الوحدات المسيحية ، ستة عشر ألف فارس وأكثر من مائة ألف من المشاة ، كلهم من العناصر العربية أو البربرية ، كانوا يخوضون تحت لوائه ، القتال ضد أعدائه العرب (2) وسيأتي وصف هذه المعارك في حينه .

ظهر في وادي درعة ، وبالأخص في زاوية تكَمدارت ، شيخ له باع طويل في العلم وخبرة واسعة بشؤون الدين والدنيا ، يدعى محمد بن أحمد (3) ، أو الشريف الحسني ، والذي يزعم أنه سليل النبي محمد ، وزعم فريق من الناس أنه سليل أبي الحاجكس (؟) الذي ثار على السلطة في القيروان ، في حين ذهب آخرون الى أنه من أحفاد الشريف الذي اغتال بفاس آخر ملوك بني مرين .

(1) يسمى اليوم هذا الموقع، « الصويرة » ، ويقع علي مقربة من مصب نهر تانسيفت . (المترجم) .
(2) عرب معقل (المترجم) .
(3) بل هو محمد بن عبد الرحمن الزيداني المعروف بأبي عبد القائم بأمر الله . (المترجم) .

صار شريف درعة ينهج نهج أسلافه الذين اكتسبوا الشهرة والمجد ، وعلا شأنهم بين الناس بما حققوه من مأثورات دينية وبما ادعوه لأنفسهم من قداسة وشرف ، فكانت حروب البرتغال في المغرب ، وعجز الملوك فيه عن وضع حد لشوكتهم ، مدعاة ليقوم أبو عبد الله محمد بوضع اللبنات الاولى لامبراطورية سيتم انجازها على يد أبنائه .

كان لأبي عبد الله محمد ثلاثة أولاد وهم عبدالكبير وأحمد (4) ومحمد (5) ، بعثهم لأداء فريضة الحج وليتعرف عليهم أهل الحجاز ، ولما رجعوا من الحرمين ، أشاعوا بين الناس أنهم ينذرون أنفسهم للرحمن ، فاعترف لهم البرابرة وغيرهم بالشرف ، وكانوا ينتقلون وهم يذكرون اسم الله ، خاشعة قلوبهم ، لا يسعون الى مال ولا جاه ، ولا يرغبون في العيش الا من الصدقات ، فكان الناس يتقاطرون عليهم أينما حلوا وارتحلوا ، للتبرّك بطلعتهم ولتقبيل ملابسهم .

كانوا في المكر خبراء ، وباللسان فصحاء ، فأقنعوا الناس بأنهم شرفاء من سلالة النبي محمد ، وأنهم حسنيون بالضبط . ثم لم يلبثوا الا أياما حتى التحقوا بأبيهم الذي كان يرابط بزاوية تكَمادّارت ، وهي المعروفة بزاوية الشرفاء .

كان الأخوان أحمد ومحمد ، متفوقين على أخيهم الأكبر في المعرفة والعلم ، والفصاحة ، والرجاحة فأرسلهما أبوهما الى فاس ، وترتب أحمد في مجلس القرويين لتدريس العلم ، وتقرّب محمد الى السلطان مولاي الشيخ (6) فعينه مؤدبا لأولاده .

تلكم هي الظروف التي جعلت الأخوين يستوطنان فاس ، فمال الناس الى حبّهما واكتسبا جاها وشهرة في المدينة بفضل علمهما الواسع . كانت لأبيهما أفكار سامية ومقاصد خفية ، فأعمل فيها مكره . أثار ذات يوم انتباه ولديه الى المتاعب التي يتسبب فيها للمغرب تألب العرْب والبرابرة على السلطة ، بمساندة من ملك البرتغال ، ثم دعاهما الى استئذان ملك فاس ، في التنقل عبر البلاد ، حاملين طبلا ولواء ، ليحضا الناس على الجهاد ضد النصارى ، دفاعا عن الشريعة الاسلامية ، وبين لهما أن لا أحد أولى منهما بالقيام بهذا الدور، وهما من طينة الشرفاء .

---

(4) المعروف بأحمد الأعرج .

(5) المعروف بمحمد الشيخ (المترجم) .

(6) هو محمد البرتغالي ، ويدعى بالبرتغالي لأنه قضى سنوات عديدة من شبابه في البرتغال بصفته رهينة . (المترجم) .

عرض الاخوان على الملك محمد البرتغالي فكرة الجهاد في سبيل الله ، لتأمين سلامة مناطق سوس وحاحا ودكّالة وتامسنا ، وطلبا منه أن ينتدبهما لهذه المهمة ، فاستحسن الملك رأيهما ، لكن أخاه مولاي ناصر الذي كان له اطّلاع كبير على تواريخ قطره وعوائد مواطنيه وأخلاقهم وطبائعهم ، نصحه بالاعراض عن هذا الرأي وحذّره مما يتظاهر به الاخوان من الصفات ، ومما قد يبيّتانه من دسائس للدولة ، وما مثل الادارسة والمغراويين والمرابطين والموحدين ، بخاف على الناس .

لكن الملك لم يحفل بتحذير أخيه ، معتبرا أنه لن يخشى منهما سوءا ما دام نفوذه منعدما في الجهات التي سيؤمّانها ، واعتبارا لما لهما من تقدير وما يحظيان به من جاه لدى رعاياه . نزل محمد البرتغالي عند رغبتهما وأمر لهما بعشرين فارسا لمرافقتهما ثم زوّدهما بالمال والمؤونة وبرسائل توصية لدى أصدقائه من العرب والبربر.

حلّ الاخوان بدكالة . هنالك اجتمع الناس حولهما وأقاموا المحافل تكريما لهما ، فنادوا بوجوب الجهاد ، لطرد النصارى الغزاة ، ومن ثم زحف موكبهما الى حدود أسفي وخطبا في المحافل ، فتحركت مشاعر الناس ، وراح سكان البوادي والمداشر يغدقون عليهما العطاء ، لكن لم يكن الاخوان يرغبان في الثروة بقدر ما كانت لهما رغبة في المجد ، ثم شدّ الاخوان الرحال الى سوس وقد انضم الى موكبهما في الطريق ، جمهور من الفقهاء والاصدقاء والأقارب ، فتضخّم الموكب ، وكان الاخوان يعظان الجماهير ويستنفرانهم لاجلاء النصارى من ربوع البلاد ، وشاع في المغرب أن الجالس على العرش بفاس ، انتدبهما لقيادة الجهاد ، فبايعهما العديد من الناس ، والتحق بصفوفهما الاعداد من العرب والبربر ، الذين لم يكونوا منضوين تحت لواء أي سلطة ، فمضوا يشنون الغارات على القبائل العربية المتحالفة مع البرتغال .

فكّر الشريفان في القيام بعمليات حربية ، وعرضا على القوم ما يعترض ذلك من مشاكل ، فأسرع الناس الى امدادهما بزكواتهم وأعشارهم ، بعدما أمسكوا عن دفعهما ، وهم يحيون أحرارا مستقلين ، نظرا لانعدام وجود السلطة المركزية في أوساطهم. وكان أهل درعة هم الذين بادروا الى تمويل مشاريعهما بالزكوات.

كادت ترودانت خالية من السكان نظرا لعمليات النهب التي كانت تمارسها فيها قبائل العرب ، ولم تكن فيها سلطة نظامية ، ولم يكن في المنطقة لبني وطّاس أي شأن ، فوجدها الشريفان لقمة سائغة ، فاستوليا على المدينة وحصّناها ثم استوليا على تيدسي ، الواقعة في أرباضها

بايع سكان ترودانت وتيدسي، الشيخ الشريف أبا عبد الله محمد القائم بامر الله، وقدموا له زكواتهم لتهيء جيش يتألف من خمسمائة فارس، مهمته الجهاد ضد النصارى المحتلين لأكدير .

أصبح للشريف شأن يذكر وأخذ يحظى بالاحترام في هذه المناطق، ولما استقر بترودانت، دعا لتشييد قصر على بعد فرسخ ونصف منها، فأوى اليه، ليكون أمره مسموعا مطاعا بين اهل سوس، كما كان الشأن لبنى مرين من قبل . وفعلا كانت كافة فئات السكان تخشاه، الاغنياء منهم والفقراء، فاستتب أمره بينهم، لامن الناحية الدينية فحسب، بل وحتى من الناحية الدنيوية، لان قصده كان هو الجهاد ضد النصارى وتحرير البلد من قبضتهم .

تضاعفت شوكة النصارى على ضوء تواطيء بعض قبائل سوس معهم، فراح يقاتل المزواريين منهم الذين ظلوا يتحكمون في حواضر درعة ويتعاونون مع النصارى، وهزمهم بعد معارك عديدة ثم أخضعهم لنفوذه .

كانت حاحا ودكالة وتامسنا تتعرض دوما لأعمال النهب والسبي ، من طرف البرتغاليين المرابطين بأسفي، فتحالف الشريف مع مسلم جنوى نصب نفسه أميرا على أهالي تاغزوت في جنوب سوس .

لم يمانع المسلم العلج في أن يمر الشريف أبو عبد الله محمد، بتاغزوت ليزحف على حاحا. وهناك ذهب الشريف يحض البربر على مناصرته ويدعوهم الى الانضمام اليه، حتى يتمكن من تخليصهم من الكابوس المسلط عليهم من لدن النصارى وحلفائهم العرب، فباركوا مسعاه وأجمعوا على بيعته ليفتح أبصارهم على دينهم وليحمي شؤونهم في دنياهم، وقرروا أن يدفعوا اليه الزكوات عن محصولاتهم الزراعية وعن انعامهم، فأمر بانفاقها على فلول الانصار الذين امسوا يتقاطرون على معسكره من سائر الآفاق .

أصبح الشريف يلقب بأمير حاحا ففتح تزنيت، وطاب له المقام بها حينا من الدهر، وقد جعلها بمثابة عاصمة اقليمية وقاعدة عسكرية تنطلق منها الهجمات على أسفي وعلى قبائل عبدة، من العرب والبربر الذين استحبوا الولاء لملك البرتغال . الا أن قواته فشلت في النيل من جيش الحاكم البرتغالي (7) الذي كان يرابط بالمدينة - ولنا عودة الى هذا الموضوع في مقام آخر ـــ فاستقر رأي الشريف الذي أنهكه الكِبر ، على الرحيل الى جهة أخرى في حاحا، فوافاه الاجل بعد قليل .

حمل أولاده الثلاثة مشعل الجهاد، ورغبة الهيمنة تتأجج في صدورهم فكانت كلمتهم نافذة ودعوتهم مسموعة وأعرب لهم الناس عن الولاء والطاعة، ولم يمانعوا في تسليمهم الزكوات والأعشار .

كان الاقبال عليهم منقطع النظير، فأخذت الشهرة طريقها اليهم بكيفية مطردة سواء بين أهالي سوس أو من بين أهالي درعة: مقدّمين طاعتهم لهم عن رضى منهم واصفاق ، فحاصروا بلدة الجدّ (8) التي كانت فيها السيادة على السكان لشيخ بربري خاضع لنفوذ ملك البرتغال يدعى سيدي بوجيمة، فاستولوا عليها ثم أقاموا فيها التحصينات ونصبوا فيها حامية . ولما لبثوا فيها أياما وأحسوا بتعرضهم للخطر بجوار النصارى، رحلوا الى قصر في شمال المنطقة أي بالضبط على بعد خمسة وعشرين فرسخا من أسفي، فرمّموا القصر المذكور وحصّنوه واتخذوه بيتا لهم، وصاروا ينطلقون منه لتوجيه ضربات مظفرة الى البرتغاليين وسأعود الى الحديث عنها فيما بعد .

مال اليهم سكان القبائل العربية وأهل الحواضر، فذهبوا يؤدون اليهم الزكاة والاعشار، فاجتمعت لديهم أموال مكنتهم من الانفاق على كتائبهم وعلى أنفسهم .

ورداً على تدخلات قوات الشرفاء، قام قائد حامية أسفي القبطان لوبيز بريكة، بحصار مدينة آنكة . ولما علموا بذلك، هبوا لنجدة المدينة، فبغتت قواتهم قوات البرتغاليين وقتلوا منهم عددا كبيرا وأسروا قائد الحامية والعديد من ضباطه وذوي المراتب الممتازة في صفوفه . لكن أخاهم الاكبر، عبد الكبير، قتل في هذه

(7) المسمى بنتيو فردناند أتايد .

(8) هكذا وردت في النص .

المعركة التي استبسل فيها البرتغاليون، وعاد الاخوان أحمد ومحمد مظفرين الى قصرهما، وقد ازدادا شهرة، لأن القائد البرتغالي الذي انتصرا عليه، كان يثير الرعب في أوساط سكان المنطقة وبين أهالي الجهات الاخرى .

كان في هذا العهد، ناصر بوشنتوف احد البرابر المنتسبين الى قبيلة هنتاتة، يستبد بحكم مراكش التي هاجرها السواد الاعظم من سكانها، وعلى احوازها، بينما ظلت الجهات الاخرى بالمنطقة منضوية تحت لواء اقطاعيين يدينون بالولاء لقواد من الأعراب .

أصبح احتلال مراكش حلما يلاحق الشريفيين ، لاسيما وان تحقيقه أضحى في نظرها عملية عسكرية هامة من شأنها أن ترفع من شهرة جيشهما وتفسح لهما المجال لبسط نفوذهما على أقاليم أخرى . من أجل ذلك، بادرا الى ابرام تحالف مع ناصر بوشنتوف، وعرضا عليه خدماتهما ثم أهدياه بعض الجياد وبعض الاسرى النصارى، فأعجب بمنجزاتها واستقبلهما بحفاوة بالغة في مراكش، وأغدق عليهما العطاء، وخصص لهما نصيبا من الزكاة لتمويل العمليات العسكرية .

كان بوشنتوف مولعا بالصيد، فراحا يرافقانه الى الصيد، بين الفينة والاخرى . وذات مرّة تزوّدا من جملة ما تزودا به الى الصيد، بحلويات يابسة، وقد دسّا السم في بعضها وأمرا أحد رجالهما بالسهر على الحلوى المسمومة، وتقديمها الى بوشنتوف عندما يريد أن يشرب ماء .

وذلك ما تم، حيث تناول بوشنتوف الحلويات المسمومة، فتوفي بعد ستة أيام .

بقي أحمد في المدينة، بينما ذهب أخوه محمد الى قصر الشرفاء بسوس لتعبئة الجنود والقدوم بهم الى مراكش . واستغل أحمد الظروف التي خلفتها وفاة بوشنتوف، فخطب في الناس واستقطب اهتمام الشخصيات التي تحيط ببوشنتوف، فأجمعوا على بيعته دون سواه، باعتباره حفيدا للنبي محمد، وأهلا ليكون وارث العرش ، واستطاع أحمد أن يستميل المعارضين، فاعترف به السكان قاطبة، مع رجائهم في حكم أفضل، من طرف الشرفاء .

صارت مدينة مراكش وأحوازها تحت هيمنة أحمد، فقرب اليه ابناء الهالك وأسند اليهم مسؤوليات أكبر مما كانت لديهم من قبل، وراح يستميل القبائل

العربية المجاورة لاستتباب الأمن في المنطقة ، ثم أوفد رسولا الى فاس لاطلاع الوطاسي على ماجريات الاحداث، مؤكدا له بأن أهالي المنطقة بايعوه بعد وفاة بوشنتوف وأنه تولّى دفة تسيير الامور باسمه وتحت سلطته، وأنه على استعداد لارسال الجبايات الى فاس واشفاعها بالهدايا التي سترضيه .

أصبح الشريفان يسودان في البلد، واشتدت شوكتهما في كثير من الجهات، وأخذ القلق ينتاب حاكم أسفي (9) وحلفاءه من العرب والبربر، بشأن الجبايات، لأن الشريفين باتا يحضان العرب على التخلص من نفود ملك نصراني . واذا ما صادفتهما صعوبات في اقناع الاهالي لجؤوا الى إثارة الخلافات بينهم .

وهكذا، نشبت معركة بين قبائل دكالة التي انقسمت الى فريقين، كل فريق يعتمد على مساندة الشريفين . لكن الاخوين لم يتدخلا . ولما قتل وجرح عدد من المتحاربين من الجانبين، وسرى العياء فيما بقي من أحيائهم هاجمهم الشريفان وهزماهم بكل سهولة، ثم عادا محملين بالغنائم المختلفة، من اسلحة وجياد وأنعام، لاسيما وأنهما نهبا المداشر والدواوير .

تزايد عدد أنصار الشريفين خصوصا وأنهما انطلقا يوزّعان الأسلحة والجياد على الذين كانوا يفتقرون اليها، ثم بدآ لايعيران أي اعتبار الى ملك فاس، وبدلا من موافاته بخمس الغنائم، لم يبعثا اليه الا بستة من الجياد، ومن الابل بستة، فأعرب لهما عن سخطه من جراء ذلك .

ولما توفي ملك فاس ، أخفى ابنه (10) ، وهو من المؤيدين لدعوة الشرفاء، نبأ وفاة أبيه عن الناس، ثم اعترف للشريفين بالامارة على المناطق التي استوليا عليها، مقابل استلامه بعض الجبايات .

تضاعفت قواتهما بسبب موت ملك فاس، وتحالفا مع بعض قواد المناطق الجبلية الذين كانوا يضمرون العداء لأمير فاس، فأخذا يعرضان عن موافاته بنصيبة من الجبايات وبلغاه بأنهما يمثلان الخليفة الشرعي للنبي محمد وأن لهما في المغرب حقوقا أكثر من غيرهما، وأنهما سيعتبرانه صديقا اذا بادلهما المودة ، أما اذا عارضهما في الجهاد ضد النصارى، فانهما لن يقصّرا في الدفاع عن أنفسهما

(9) المسمى نينيو فرنانديس .

(10) أبو العباس أحمد (المترجم) .

وسيبتدئان به، أمام الله والرسول .

كان محمد (11) وهو أصغر الشرفاء ، يقيم عادة في هذا الوقت بترودانت، فحصنّها وجمّلها بكل ما لديه من امكانات، ثم أخذ يدبر لقتال النصارى المقيمين بأكَدير، فنظم جيشا يتكون من عناصر عربية وبربرية، وذهب لحصار الموقع العسكري البرتغالي . لكن جهوده تحطمت أمام تحصينات المدينة، وفقد العديد من الجنود، فولى عائدا الى ترودانت، بينما صفت لأخيه أحمد الاعرج السلطة على المناطق المتاخمة لاقليم مراكش، وذلك بفضل مساعدة بعض الولاة والشيوخ من أصدقائه . وراح أحمد من جهة ومحمد من جهة أخرى، يستخلصان الزكوات، إذ لم يبق لهما ما يطالبان به البربر سوى ذلك.

لما رأى أبو العباس أحمد، ملك فاس، أن قوات الشريفين مضت تزداد عددا وعتادا مع الايام وعلم أن الاخوين اتخذا لنفسهما لقب الملك بدون خجل، ساءه الامر واغتاظ ، ثم سعى الى استدارك الأمر ولو بعد فوات الأوان ، فقرر أن يضع حدا للحالة التي تسود البلاد، وذلك باعلان الحرب على الأخوين فقاد جيشا بنفسه قوي العدد والعتاد، مجهزا ببعض وحدات المدفعية .

حاصر ملك فاس مراكش عدة أيام، ثم أخذت مدفعيته تقصف جهة السور القريبة من ضريح سيدي بلعباس الذي يحظى بعناية كبرى من طرف السكان . ولما أخذت قذائف المدفعية تهدد بانهيار البرج القريب من باب المدينة، اذا بالشريف محمد يقدم من ترودانت على حين غرة، ويدخل المدينة على رأس ثلاثة آلاف فارس، وأقسم للملأ أن الحصار لن يزيد يوما واحدا ، ثم خرج بعد ذلك لتعزيز صفوف أخيه، فلم يستطع جيش ملك فاس الصمود أمام الأخوين، وقد أصيب بخسائر فادحة في الارواح والعتاد، وتراكمت الأشلاء بجوار مخيم الملك .

في ليلة ذلك اليوم، أتى رسول (12) من فاس ليخبر الملك الوطاسي أن أخاه استولى على فاس الجديد بتواطيء بعض سكانه . عندها رفع الملك الحصار عن مراكش وهرع الى قاعدة ملكه، وهو يطوي المراحل بسرعة غير عادية، وذلك ما زاد في شهرة الشريفين .

---

(11) محمد الشيخ .

(12) هو مولاي مسعود .

أخذت قوات الأخوين أحمد ومحمد تطارد جيش الملك حتى وصلا إلى أعمال هسكورة، ثم عرجا على تادلا، وهناك، أمدّهما السكانِ بالمساعدات، ولو أن أكثرهم ظلوا الى حين يدينون بالولاءِ للوطاسيين .

بعدما قضى الملك على الفتنة في المدينة، فكر من جديد في وضع حدّ لعصيان الشريفين ، لذا قرر العودة الى مراكش لاستئناف القتال ضدّهما . لكن الاخوين كانا على جانب كبير من اليقظة، فقرّرا أن يتربصا له بوادي العبيد، رغم قلّة عدد جنودهما التي لم يكن فيهم من الفرسان الا سبعة آلاف، ومن الرماة الا مائتان، في حين كانت قوات الملك الوطاسي تضم تسعة عشر ألف فارس، وألفين من الرماة وسبعة عشر مدفعا .

وادي العبيد، نهر عميق، وكان كل من الجيشين المتحاربين يترقب من سيبادر بعبوره لينقض على الآخر، أما مجرى النهر، فانه كان يلتوي هنا وهناك، تعلوه بين الفينة والاخرى تلال وجبال، وقد حطّ كل جيش في أرض بطحاء . وبدأ التراشق بينهما، واستمر ثلاثة أيام .

لما تبين لملك فاس أن أعداءه يهدفون الى منعه من عبور النهر، قرّر أن يتحدّاهم . لذا، قسم جيشه الى ثلاثة فيالق وعقد قيادة أولها لابنه، وهو فيلق الرماة، وكان يساعد الامير في هذه القيادة، أبو عبد الله، ملك غرناطة المخلوع الذي التجأ الى بلاط فاس، بعد نكبته التي وصفناها في الفصل الذي قبل هذا . أما قيادة الفيلق الثاني، فانها كانت من نصيب صهره مولاي ادريس بمعية الوالي العطّار، بينما احتفظ الملك لنفسه بقيادة الفيلق الثالث، يساعده عدد من الشيوخ وكبار المسؤولين .

قام أبو عبد الله، ملك غرناطة السابق، باجتياز النهر، على رأس عناصر من الجيش الوطاسي، وتوغل في الجهة المجاورة لمعسكر الشرفاء، ثم أرسل بعض الرماة لمهاجمة أعدائه عساهم ينشغلون عن مراقبة مواقع ملك فاس، ومع رجائه بأن بقية الجيش ستتمكن من العبور . الا أن أبا عبد الله أخطأ في مخططه لأنه أغفل ردود فعل الشرفاء .

كان جيش الاخوين الشريفين يتألف من فرقتين، فرقة الرماة التي يقودها محمد الشيخ وفرقة المشاة التي كان يقودها أخوه أحمد الاعرج، ملك مراكش . ولما

شاهد الاخوان أن رحي المعركة تدور فوق مجاز النهر، في مكان منحدر، انقضّا على العناصر التي تجرّأت على العبور، وقتلا ابن ملك فاس وعددا من قواد الجيش، فارتبكت قوات الوطاسيين وبدأت عناصرها تفرّ، فاصطدموا بالقادمين لنجدتهم واختلط الحابل بالنابل، فأصيب بعضهم بجروح، وغرق منهم عدد آخر وهم على جيادهم، وقتل أبو عبد الله وهو يدافع عن عرش أجنبي بعدما تخلّى عن التضحية بحياته دفاعا عن مملكته .

شهد الملك الوطاسي الكارثة التي حلّت بجنوده ، وهو لم يعبر النهر بعد ، واتّضح له عجزه التام عن مجابهة الشرفاء ، فترك ابنه قتيلا والجنود الذين كانوا معه، وتخلى عن حريمه وعن أمتعته ، ثم لاذ بالفرار الى تادلا ومنها الى فاس .

على اثر هذا النصر الذي كتب للشرفاء هبّ سكان المنطقة لمبايعتهم ، ودفعوا اليهم المعونة والزكاة . وفي السنة التي تلت هذه الأحداث ، اجتاز الشرفاء الأطلس الكبير على رأس قوات أكثر عددا ، وأهم عتادا مما مضى ، وراحوا يحاصرون مواقع تفيلالت ، مستخدمين في قصفهم لها المدافع التي غنموها في معركة وادي العبيد .

واستسلم للشرفاء والي تفيلالت ، فأقطعوه أرضا في الغربة ، ثم حملوه معهم الى مراكش بعدما تركوا حامية بالمنطقة ، وفتح لهم هذا الفوز طريق الهيمنة على كافة اعمال تفيلالت ، اذ خضع السكان لسلطانهم طوعا أو كرها .

عجز ملك فاس عن التوجه الى تفيلالت ليطرد منها الشرفاء ، ولكنه تظاهر بالاهتمام بأمرهم ، فأوفد عناصر من جيشه للمنطقة لاستخلاص الامدادات المالية من سكان تخوم المنطقة . هنالك تصدى لهم محمذ ، ملك سوس ، وهزمهم فولّوا على أعقابهم خاسرين ورجع محمد الى مراكش ، وقد ترك وحدات من جيشه بتادلا، وبعد ذلك دخل الى ترودانت مظفّرا سالكا سلوك الملوك .

اهتم محمد الشيخ بأمن ترودانت ، فأقبل على تدعيم تحصيناتها ، ثم أرسل جيوشا الى تفيلالت والى ليبيا (13) وقد أمر الجنود بقتل كل من يرفض الولاء لهم ونهب ممتلكاتهم . كان نتيجة ذلك أن صفت لهم كثيز من الامصار التي كان أهلها من البربر يعيشون مما تنتجه الأرض ، شأنهم في ذلك شأن القبائل العربية .

---

(13) كذا في النص .

لم يفت ملك سوس أن أكَدير باتت مستعمرة برتغالية ، غير بعيدة من ترودانت . فجمع الجموع ، وشكّل جيشا مجهّزا بالمدافع التي غنم بعضها أثناء المعارك التي خاضها ضد ملك فاس . وقد اقتنى البعض الآخر بواسطة أحد المسلمين العلوج .

حاصر الملك أكَدير أياما عديدة ، فاستسلمت له حامياتها ، وسبى كل البرتغاليين الذين كانوا يتواجدون فيها ، وسأتحدث عن هذا في الفصل الثالث من هذا الكتاب .

حقق الشرفاء نصرا مبينا بقضائهم على البرتغاليين في أكَدير ، ورفعهم هذا النصر الى المقام المرموق الذي وصلوا إليه اليوم . أما أخبار الحرب والمغانم الكثيرة التي وقعت بين أيديهم ، والأسرى الذين عادوا بهم من أكَدير ، والاصداء التي خلفتها الوقعة في الداخل والخارج ، كل ذلك تظافر لحمل البرابرة وأهالي المدن والامصار ، على الاعراب لهم عن الولاء والوفاء ، زد على هذا أن القبائل العربية التي كانت تتعاون مع البرتغاليين أعرضت عنهم وأصبحت تأتمر بأوامر الشرفاء ، فعظمت شوكة هؤلاء ، الى درجة رأى معها ملك البرتغال أن مستعمراته بالمغرب أصبحت تكلفه كثيرا ، فقرّر الجلاء عن بعضها ، وأخص بالذكر أصيلا والقصر الصغير وأزمور وأسفي ، مع تهديم بعض تحصيناتها . أما الجيوش التي كانت ترابط بها ، فانها التحقت بالمواقع الباقية .

كان لهذا العمل انعكاس كبير على الوضعية السياسية في البلاد ، لأن الشرفاء استفادوا منه . وقد تضاعف في مختلف الأوساط المحلية ما كان لهم من شهرة .

يقول المثل ان الخلاف وليد الطموح ، وقد صدق المثل مرة أخرى في الخلاف بين الأخوين ، أحمد الأعرج الذي ظل يبسط نفوذه على مراكش وأعمالها ، بينما كان محمد الشيخ يبسط سلطانه على كافة أعمال سوس ، نيابة عن أخيه أحمد الأكبر منه سنا

لكن محمداً الشيخ كان يمتاز عن أخيه بعدة صفات ، منها البسالة والحكمة وطيب الخاطر والليونة ، فأحبّه الناس أكثر من أخيه ، لا لأنه حرّر منطقة سوس من الاستعمار البرتغالي فحسب ، ولكن أيضا لانه كان دائما يتقدّم قواته في معاركها ، وكانت له فصاحة في اللسان وموهبة في الكلام والخطابة .

بعد فوزه على البرتغاليين ، لم يرسل لأخيه أحمد الأعرج سوى بعض الاسرى ، ذكورا واناثا ، من بينهم حاكم موقع أكدير ، بينما احتفظ بالعدد الكثير منهم الجنود المحنّكون والصنّاع الذين يصهرون الحديد فيصنعون منه الأسلحة ، لكن أخاه ألحّ عليه في أن يوافيه بخمس الغنائم وبالمدفعية والرماة وبأربعمائة من الأسرى البرتغاليين .

رفض محمد الشيخ تلبية مطالب أخيه ولم يفلح الوسطاء في اقناعه بالاستجابة لما يريده أمير مراكش ، فراح أحمد الاعرج يُكره السكان الموالين لاخيه حتى يُحوّلوا اليه زكواتهم وامداداتهم ، وكان محمد الشيخ يستخلصها منهم مع ذلك ، وفضّل استنزاف الأموال من الشعب ، بدلا من قطع العلاقات مع أخيه .

طلب أحمد الأعرج من أخيه تحديد موعد لمعالجة الخلاف القائم بينهما ، لكن محمد الشيخ رفض اللقاء ، مدّعيا أن مشاغله لاتسمح له بذلك ، وبيّن له بالمناسبة أنه لا يخشاه ، ثم استفسره أحمد عن الاسباب التى صدّته عن الاعتراف له بحق خلافة أبيهما ، وقد حقّقا معا انتصارات باهرة مؤكدا ضرورة التمسك بالوحدة بينهما ، ثم بنصيبيه من الأموال التي تركها أبوهما في خزائن ترودانت ، والأموال التي غنماها معا في المدن والامصار لهما شؤونها ، وكذلك من الغنائم التي حصلا عليها في المعارك التي خاضاها ضد ملك فاس ، وأنه ليس من العدل أن يكون عرض نفسه لأخطار جسمية والا يستفيد الا قليلا من الغنائم . فكان ردّ محمدان طالب من أخيه أن يعترف له بابنه الاكبر محمد الحرّان ، وليا للعهد على البلاد ، تنفيذا لِوصية أبيهما الذي قال وهو يحتضر ، بأن من يولد له ولد أول من الأخوين سيتولى ولاية العهد .

اغتاظ أحمد لمطالب أخيه ، فأمر ضباطه بالاستيلاء على جميع المدن التابعة لنفوذ محمد . هنالك ، تدخل رجل صالح يدعى سيدي رحال (14) ، ودعا أحمد للتمسك بجانب الحكمة تلافيا لقطع العلاقات مع أخيه ، ثم عرض وساطته على الاخوين ، فنظم لقاء بينهما ، على ضفاف نهر ايسل ، حيث حضر كل منهما ومعه خمسمائة فارس .

تقابل المعسكران في السهل ، وكان كل منهما في حالة استنفار وتأهب ، وراح الفقيه سيدي رحال ، ينتقل من معسكر الى آخر ، ساهرا على ترتيبات

(14) سيدي رحال الزمراني ، الموجود ضريحه غير بعيد من تاساوت (المترجم) .

اللقاء بين الأخوين .

بدأ الاخوان يتجه أحدهما نحو الآخر ، وأخذا يتقاربان ، وكل منهما مستعّد للطوارئ،ولما دنا محمد من أخيه ، انحنى احتراما له ، ثم تصافحا وتعانقا بشدة حتى كاد أحمد يرمي أخاه على الأرض .

كان محمد أقوى من أحمد ، فانسلّ من بين يديه ووكزه دون أن يضربه ثم آخذه على خذلانه ، قائلا بأنه يعرفه جيدا ويعرف مكره وانه لن ينخدع بأعماله ، فأجابه أحمد قائلا :« أعرف أنك تسعى الى هلاكي ، لكنني سأحطم كبرياءك ».

ثم امتطى كل واحد منهما فرسه وعاد الى معسكره راحلا الى ممالكه. ولما وصل أحمد الى مراكش، جهّز جيشا أوفده تحت قيادة ابنه الاكبر، مولاي زيدان الى درعة، ليأتيه بالجبايات. وأرسل محمد قوات تتألف من ثلاثة آلاف فارس للدفاع عن سكان أعماله ، تحت قيادة مومن بلعيش ، ابن العلج الايطالي الذي أسلم ، لكن جنوده انهزموا واعتصم بلعيش بأحد القصور في انتظار النجدات ، لكنه اضطر الى الاستسلام لعدم توفره على الماء،وقد أمنه زيدان كما أمن من معه من الجنود . ولما استسلم جنود بلعيش ، تراجع مولاي زيدان عن وعده ، وأمر بقطع رؤوس كل ضباط خصمه ، ثم أرسل بلعيش أسيرا الى مراكش ، حيث لبث أمدا طويلا سجينا ومكبّلا بالاصفاد .

اشتدت ضراوة النزاعات المسلحة بين الاخوين ، اذ أن محمداً أرسل الى حاحا لجمع التبرّعات جيشا آخر يتألف من العناصر المستبقاة من القوات المنهزمة ومن عناصر فتية . لما بلغ هذا الى علم أخيه ، أرسل بدوره وحدات للمرابطة على ضفاف نهر نفيس ، يقودها ابنه لمحاربة قوات محمد الشيخ ، فهزمها وعاد مظفّرا الى مرّاكش .

دفعت هذه الانتصارات أحمد الأعرج الى الظن بأن صفوف أخيه قد تضعضعت فعبأ قوات هامة للقضاء عليها نهائيا . لكن محمد الشيخ لم يركن الى الاستسلام، فدعا جميع ولاة أعماله الى تجمع ضخم حضره شيوخ القبائل والفقهاء الذين تعهدوا بمناصرته ، فخطب فيهم بفصاحته التي تأخذ بالألباب مبرزا طغيان أخيه ، ثم طالبهم بمساعدته بكل ما لديهم من امكانات فوعدوه بمواصلة دعمهم

له و بوفائهم التام ، فشكرهم على عبارات ولائهم له وقبض لحيته بيده حسب العادة المحلية وأكد لهم بأنهم إذا ظلوا أوفياء لوعودهم فإنه سينتصر على أخيه وسيأتي به أسيرا الى ترودانت .

استنفر محمد الناس فلبى دعوته جموع هامة من المتطوعين وعلم أن أثناه شرع في الاستعدادات لغزو منطقة سوس ، فقرر أن يفاجئه بهجوم محكم ، بأحد الممرات عبر الأطلس الواقعة بين مراكش وترودانت وأرسل فريقا من الرماة يقوده محمد العلج ، وهو من أصل برتغالي ، وفرقة من المدفعية لترابط بمخابىء ومغاور الممر الجبلي .

وفعلا ، وصلت هذه الجموع الى مواقعها تحت ستار ظلام الليل ، يقودها في الخلاء والمنعرجات الوعرة عناصر من البربر . وقد أخذت ، قبل ذلك ، قوات قادمة من مراكش تزحف نحو المكان ذاته المعروف بمعسكرتن ، تسعى لاحتلاله .

بعد ذلك بيوم وصلت محلة محمد الشيخ بدورها الى عين المكان، ثم حطت في سهل غير بعيد، تحميه المدفعية المستترة في مخابئها . الا أن أحمد الاعرج لما أبلغه أحد الفارين من معسكر أخيه أن قوات ملك سوس وصلت الى معسكرتن، غير اتجاهه واختار ممرا آخر غير بعيد عن معسكر قوات أخيه، ليكون في مأمن من قصف المدفعية، ثم قسّم جيشه الى أربعة فيالق، تضم في مجموعها أربعة عشر ألف فارس .

كان ابنه الثاني يقود قوات الطلعية، وأمره بأن يتمهل في الزحف نحو مقصده، عبر الممر الضيق الخطير . وكان أحمد يمشي وراءه، وبمعيته ابنه أبو عصام . في حين كان ابنه الاكبر، مولاي زيدان يسير خلفه مع القوات الخلفية، كل واحد منهما على رأس أربعة آلاف فارس، وبقي اثنان آخران من أبنائه، قائمين على حراسة الذخائر والامتعة ، تحت إشراف ابنه مولاي القائد .

لما علم محمد الشيخ بأن أخاه انحرف عن الطريق التي كان ينتظره بها، ترك في مقر القيادة بعض العناصر من جيشه، ثم أرسل ابنه محمد الحرّان على رأس ثلاثة آلاف فارس للتعرّض الى ملك مراكش، ولحقه هو على رأس بقية الجيوش .

وبالفعل اصطدم ابنه محمد الحران بوحدات الطليعة التابعة لجيش مراكش باحد السهول، ونشبت معركة بدون سابق اعلان، دامت زهاء ساعة، مات خلالها

عدد من الضباط من الطرفين ــ اذ كان يريد اظهار بطولته وشجاعته ــ وتميّز خلال الاشتباك رجال الرماية الذين اضحوا يفتكون بالعدو من مواقعهم، لايخافون أية اصابة. وقتل ضابط لامع (15)، من قوات أحمد الاعرج، التي أخذت بعد ذلك تضطرب وأحست ببوادر الانهزام .

في هذا الظرف الدقيق تدخّل محمد الشيخ، وأمر بتضييق الخناق على قوات أخيه، فما زادها ذلك الا اضطرابا وفوضى، فتزحزحت عن موقعها . وراح عناصرها يفرون من الميدان، طالبين النجاة من أعلى الجبال، فاصطدموا بعضهم بالبعض، وأخذ الفرسان منهم يتساقطون على الارض في المسالك الضيقة، فكنت ترى الجياد تتكبكب على منحدرات الجبال لانها لم تضع قوائمها على أرض ثابتة، وصار الفرسان يتركون خيلهم مفضلين الفرار على الاقدام، لكن اعدائهم تعقبوهم واحدا واحدا، وتصدى لهم البربر من حيث لم يحتسبوا، فقتلوا منهم ما لايحصى، وغنموا من أمتعتهم مغانم كثيرة .

تخلّى أحمد الاعرج وابنه أبو عصام كذلك عن مطيتيهما، وسارا يمشيان على الاقدام، لايعرفان أين يتجهان ، فضلّا الطريق، ووقعا في الاسر، في جملة عدد كبير من ذوي المراتب العليا . وتبين أنهما الوحيدان اللذان نَجَوَا من الهلاك، من بين ثمانية آلاف فارس كانوا معهما .

رجع ملك سوس الى ترودانت بعد انتصاره الساحق، ومعه العديد من الاسرى، من بينهم أخوه وأبو عصام . أما مولاي زيدان فقد تمكّن من الفرار وعاد الى مراكش رفقة الفلول من جنود أبيه .

كان مولاي زيدان أميرا عظيما، وكان يعطف على النصارى، فلم يرض بأن يكون أبوه أسيرا وعمه يرفل في العز، فسعى الى التحالف مع الامبراطور الاسباني كارلوس الخامس ومع ملك البرتغال . لذا فاتح في الموضوع بعض النصارى من أ سرى الحرب المعتقلين بمراكش، وكنت أنا من بينهم . وقد قبل بعض الاسرى النصارى خدمة مولاي زيدان، مقابل مكافآت عن ذلك . لكن، لما أخذ مولاي زيدان يفكّر في تسليح النصارى وإدماجهم في قواته، نصحه أحد أولياء مراكش، الفقيه الجيهاني، وفقهاء آخرون، بالعدول عن مشروعه، خشية اثاره

(15) يدعى أحمد بن فارس .

فتنة كبرى عبر البلاد، ورأوا من الأليق، بدلا من ذلك، أن يوفد زوجته مريم وهي ابنة عمه محمد ملك سوس، لتتفاوض مع أبيها بشأن ابرام اتفاقية حول تحرير الاسرى . كللّت مساعي المرأة بالنجاح، فوافق أبوها على اخلاء سبيل أخيه وابرام صلح بينهما على شرط أن يتقاسما السيادة على المدن والامصار التي صفت لهما شؤونها، وذلك بالشكل التالي : الاعتراف لمحمد بالسيادة على منطقة سوس والجهات الواقعة جنوب الاطلس ، والمناطق الصحراوية الواقعة في أقصى جنوب سوس، ويحتفظ أحمد بالسيادة على الاقاليم الواقعة شمال الاطلس الكبير، مع أعمال تافيلالت المتآخمة لمملكة فاس ، على أن يتقاسما تركة أبيهما مناصفة، مع الاعتراف بمحمد الحرّان الابن الاكبر لمحمد الشيخ بولاية العهد على المملكتين معا، وأن يليه على عرش البلاد مولاي زيدان، الابن الأكبر لأحمد الاعرج، وأن يتم تحرير جميع الاسرى من الجانبين بدون فدية، وأنه يتعين قبل ذلك، على مراكش وأبنائه وضباطه الذين وقعوا في الاسر، أن يقسموا بأنهم لن يخالفوا أي فصل من فصول الاتفاق وألا يعودوا مرّة أخرى الى محاربة ملك سوس . وجاء في الاتفاق أيضا أن كلا من ملك مراكش وأخيه سيحصلان على أخماس الغنائم التي قد يشتركان في الحصول عليها استقبالا، وأنه عندما يتم توحيد الجيشين ، سيقع الاعتراف بملك مراكش عاهلا على البلاد .

تلكم هي الشروط الواردة في معاهدة الصلح المبرمة بين الأخوين . لكن ما كاد أحمد الاعرج يصل الى مراكش، حتى أعلن عن رفضه تطبيق بنود المعاهدة بدعوى أنه كان مرغما على قبول فحواها وهو أسير، وأنه لن يتخلّى عن حقوق ابنه مولاي زيدان في ولاية العهد، لأن المشروعية قائمة بجانبة، فأعاد تنظيم جيشه وأعلن الحرب على أخيه، وجرت هذه الاحداث سنة 1545 .

علم محمد الشيخ ما بيته أخوه ضده، فقام بالزحف نحو مراكش على رأس قواته، وأمر أبناءه بأن يلتحقوا به مع بقية القوات . وقد عبر محمد الشيخ ممرات الاطلس في أيام قلائل ، حتى اذا وصل الى مكان لا يبعد عن مراكش الا بسبعة فراسخ، التقى بجيش أخيه، فانطلقت شرارة الحرب بينهما، وكان الجو يومئذ معتدلا، لاتهب فيه ريح ولا تثقله حرارة رغم كثرة الضياء التي أضحت تبهر الكون . ووقع شيء غريب يثير الاندهاش، ألا وهو أن لواء ملك مراكش، ارتطم بسدرة فقبضته أشواكها، وانكبّ مرافقو الملك مدة خمس عشرة دقيقة لفكّه من

السدرة، فاستغل ملك سوس اشتغالهم بأمر اللواء، ووجه الى خصمه ضربات خاطفة مفاجئة، كان لها انعكاس حاسم على سير المعركة، اذ تضعضع جيش مراكش وأخذ يتقهقر الى أن جنّ الليل واستمرت المعركة طرفا منه، وصار الجنود يفرّون من القتال تتعقّبهم عساكر جيش محمد حتى أبواب المدينة . هنالك أخذ ملك سوس يوجه النداء الى أهل مراكش، يشرح لهم الموقف ويدعوهم ليستسلموا، ثم هددهم بقصف المدينة بالمدافع والاستيلاء على ممتلكاتهم إن هم امتنعوا .

اندهش حاكم المدينة وظن أن الملك أحمد هلك أو أسر، فلم يجرؤ على المقاومة، وفضل السعي وراء كسب عطف الذي كُتب النصر للوائه، فأعلن للسكان أن مملكة سوس ومملكة مراكش تشكلان دولة واحدة، وهكذا فُتحت أبواب المدينة وقيل : «يحيا الملك» .

دخل الملك بعد ذلك الى القصبة، ومنها توجه الى قصر أخيه . فوجد النساء والفتيات في حالة ارتباك لا مثيل لها، وقد أخفين ما لديهن من نفائس، تاركات كنوز الملك معرضة للنهب، فأمنهن على أنفسهن وأمتعتهن، ووضع ثروات أخيه في مكان أمين، ثم ذهب الى خزائن الأسلحة ليتفقّدها .

وعند بزوغ الفجر تقدم أحمد وجماعة من الفرسان إلى المدخل الخلفي للقصر، وقد لحق بهم نفر آخر منهم باتوا يبحثون عن أثره بعد ما ضل السبيل في الليل، فقرع أحمد الباب بشدة، لكن ناداه منادٍ من اعلى السور ونصحه بالفرار، لأن أخاه أصبح سيد القصر، فانطلق غاضبا ، ملتجئا إلى حمى زاوية الولي الصالح سيدي عبد الله بن الصافي .

أوفد أحمد من ملجئه ابنيه الكبيرين الى فاس يطلبان النجدة من الملك الوطاسي فوعدهما بارسال الامدادات الى أبيهما ، لكن الجنود الذين كانوا يحاربون الى جانبه لفظوه في ساعة بؤسه والتحقوا بمراكش ، فأحسن محمد استقبالهم ووزع عليهم النقود والهبات وأدمجهم في قواته . كان محمد حكيما يعنى عناية كبرى بكل شيء . لما علم أن ملك فاس أحسن وفادة ابني أخيه، فكّر في الامر، وأوعز إلى فقهاء المدينة أن ينظموا لقاء بينه وبين أخيه، على بعد فرسخين من مراكش .

وفي يوم اللقاء، أقبل محمد وحطّ محتله بجانب النهر على ربوة صغيرة، كانت خيمته مستديرة، تظهر للمشاهد من بعيد، وستائرها كلها مرفوعة يحيط بها

الضباط والحراس . كان محمد يرتدي قميصا من الزرد تحت لباس مصنوع من الحديد وقد جلس وسط الخيمة على أريكة منبسطة، لكن مجلسه كان محصنًا لا يراه أحد ولايمكن أن توجّه له أية ضربة الا من الأمام، وكان يقبض على سيفه، والجيش في حالة تأهب يحيط بالمحلّة، في حين وقف بعض الجنود في الوسط، يظهرون للعيان من بعيد .

تقدم للتحية على محمد، أبناء أخيه الصغار، وتبعهم الكبار، ثم كبيرهم، فراحوا يقبلون يده أو ركبتيه، فقبل رؤوسهم، بعد ذلك أخلوا المكان والتحقوا بكبار شخصيات البلاط الذين كانوا واقفين بجانب الخيمة . ثم وصل الشريف أحمد هو الأخير، محفوفا بفقيهين والولي الصالح الذي توسط لاصلاح ذات البين بين الاخوين .

لما رأى محمد أخاه قادما، قام واستقبله بمدخل الخيمة، فتعانقا وبكيا، ثم جلسا على نفس المنصة، ومضى كل منهما ينظر الى الآخر، ويتنفسان الصعداء دُون أن يستطيعا النطق بشيء . قطع محمد الصمت قائلا لأخيه :

«نقضت العهد، وخنت الوعد، ضعف الايمان مستقبح في الملوك أكثر من غيرهم . ان الله لم يرجيء انتقامه من الخونة، ولولا فضله وعونه لما تمكنت من فتح مراكش وانتزاع السلطان منك، خيانتك وضعتك في مرتبة لا تحسد عليها، حتى إن رعاياك وأهلك وذويك يستفظعون ما أقدمت عليه . انك أكبر منّي سنًا، ووضعتك في مقام أبينا، ودمت على طاعتك، واني مستعد لأبقى كما كنت، اذا تفضّلت وقبلت أن تعتبرني بمثابة ابنك، كما اني مستعد للاعتراف بك ملك البلاد، وأنا خليفتك، وسأمتثل لأوامرك وأدعو الناس ليعربوا لك عن ولائهم، لكن سكان مراكش طلبوا مني ألا أسمح لك بالعودة الى مدينتهم لانهم يخشون أن تصب عليهم سوط غضبك، واني وعدتهم باحترام رغبتهم . لذا فاني أرى أنه من الافضل أن ترحل الى تافيلالت للاقامة بها حينا من الدهر . أملي أن تكون الانتصارات التي حققناها معا فاتحة عهد لآمال كبرى وانتصارات أخرى ، وقد يتم ذلك بعون الله ونبيه محمد ، وسأعين أبناءك في أعمال يتولون شؤونها وأغدق عليهم العطاء بيدي .

أصغى أحمد الى العتاب ودافع عن براءته بكل هدوء والتمس من أخيه أن يصفح عما صدر عنه من أخطاء ، وأوصاه برعاية مصالحه . وبعدما قضى الليل

بعين المكان وهو آمن ، برحه صبيحة اليوم الثاني ، متوجها الى تافيلالت ، رفقة عياله وبعض قواد البربر الذين آثروا الانضمام الى حاشيته .

لما رجع محمد الى مراكش ، قام أهلها بتنظيم حفلات كبرى احتفاء بالسلم ، غير أنه لم يهدأ لمحمد بال ولم تغمض له عين ، وهو يرى أن على عرش فاس ملكا استقبل ابني أخيه وتواطأ معهما ضده . لذلك قطع كل العلاقات مع الملك الوطاسي وطالبه بالتنازل عن ولاية تادلا ، بدعوى أنها تابعة لمملكة مراكش ، وأمر ابنه الثاني عبد القادر بأن يلتحق بالقوات التي أرسلها الى المنطقة ، تحت قيادة بلعيش (16) وكانت مهمة هذه الجيوش هي استخلاص الاتاوات من سكان الاقليم ، والاستلاء على قلعة محصنة (17) كان ينزل بها ملوك مراكش وفاس أثناء مرورهم بولاية تادلا .

تم الربط بين قوات بلعيش وبعثة عبد القادر بتفزة ، وبعدما جمعت قوات محمد الشيخ التبرعات قامت بحصار القلعة ، لكن حاكمها كان مستعداً للطوارئ ، اذ سهر على ادّخار كميات كبيرة من المواد الغدائية ، ومنح المأوى فيها لأكثر ما يمكن من الناس ، وتحصن بها للدفاع .

كان عبد القادر واثقا من نفسه ومن تفوقه على خصمه ، وهو يقود فرقة تتألف من المرتزقة الاتراك ومن المغاربة والعلوج الذين انخرطوا في جيش أبيه ، وكان عدد جنود الفرقة ألفا أو يزيدون، ومعهم الفرسان ووحدتان من المدفعية.

أوى هؤلاء الجنود الى البيوت التي أخلاها أصحابها ، والواقعة شرق القلعة . لكن عبد القادر لمس استحالة استخدام المدفعية من هذا الموقع الصعب المسالك ، فانتقل الى الجهة الغربية السهلة العبور والتي يتيسّر منها توجيه القذائف الى برج واقع خارج القلعة يشرف على عين ماء توجد أسفل واد عميق . وكان الناس يهبطون الى العين ، وهم يلتمسون الاحتماء من جدار محصّن ، فأدرك عبد القادر أهمية هذا الموقع وتبيّن له أنه اذا استولى على البرج سيتحكم في الطريق المؤدية الى العين ، وسيستحيل بذلك على السكان المحاصرين أن يتزودوا بالماء وعندئذ لن يقى أمامهم سوى الاستسلام

(16) ابن العلج الجنوي الذي اعتنق الاسلام .

(17) قلعة فشتالة .

بعد ذلك نصب الامير مدفعا على مرمى من البرج ، وبدأ القصف ، لكن البرج كان منحدرا بالنسبة لفوهة المدفع ، لذا كانت القذائف تخطيء مرماها ، فترتطم بتحصيات الجدار أو تضيع في الطبيعة . اذ ذاك أمر الامير بشن غارة على الموقع ، فصار الاتراك والعلوج يتسلقون السلاليم وهم متحمسون ، وأظهر أصحاب البرج بسالة كبرى في الدفاع عنه ، حيث استطاعوا أن يخرجوا من باب خفي يطل على الخندق المحيط بالبرج ، وأخذوا يوجهون ضربات قاضية الى المهاجمين الذين استعملوا السلاليم . عند ذلك تأكد الامير من عدم جدوى المدفعية ، فوضع متفجّرات بالقرب من البنايات السكنية ، لكن أصحاب القلعة علموا بالمخطط الجديد بفضل حيلة أحد الأفراد الذين كلفوا بوضع المتفجرات والذي راح يردّد أثناء عمله قائلا :« حذار حذار أيها البئيس ، الجرذان أخذت تقوّض كساءك من الاسفل » أدرك حاكم القصر مغزى التحذير فبادر الى إتلاف المتفجرات .

علم عبد القادر أن الملك الوطاسي غادر قاعدة ملكه لنجدة القلعة ، فرفع الحصار عنها وولى عائدا الى مراكش ، وقد كلف مومن بمهمة مراقبة التخوم .

عبّأ الشريف محمد جميع الفرسان الموجودين في مراكش وفي سوس ، وانطلق بهم لقتال قوات ملك فاس ، وقد أضاف اليهم تعزيزات أخرى متركبة من ثمانية عشر مدفعا وكميات هامّة من الذخائر ، والتحقت قواته بالقوات التي كان مومن بلعيش على رأسها .

كانت قوات الوطاسيين تتألف من ثلاثين ألف فارس ، وهم خير ما في المملكة من فرسان فاس وبلش غمارة ودبدو ومن العرب ، ومعهم ثمانمائة من الرماة الأتراك أو مسلمي العلوج ، تحت قيادة ضابط أصله فارسي (18) قدم من الجزائر ومعه أربعمائة من الاتراك . علاوة على هذا ، كان الجيش يضم ألفا من الرماة المسلحين بالبندقيات ، وأربعة وثمانين مدفعا من النحاس . أما محمد ، فقد كان له ثمانية عشر ألف فارس ، وثلاثمائة من الرماة الاتراك ، وأكثر من ألف من البندقيين العلوج وغيرهم ، زيادة على ما ذكر من المدفعية .

---

(18) اسمه سفيان .

اجتازت قوات ملك مراكش وادي العبيد ، وهي تتمهّل في زحفها نحو الميدان ، وفي غاية النظام ، مع رجائها أن تملّ القوات المعادية الانتظار وأفرادها بعيدون عن أهليهم وذويهم ، وقد يهجرون الميدان اذا أصابهم الملل، وكان محمد وهو عازم على محاربة عدوه يتظاهر بعدم رغبته في القتال .

حطّ ملك فاس محلته بسهل على ضفاف نهر درنة ، في موقع استراتيجي ، يحده النهر من جهة ، والجبل من جهة أخرى . تأخر موعد المجابهة بكثير ، ولما رأى الشريف السعدي أن جنود ملك فاس أصابهم العياء ، أخذ يزحف نحوهم رويدا رويدا . ابتهج ملك فاس بانطلاق عدوه ، خوفا على جيشه من شدة الملل ، فأعلن حالة الطوارئ في قواته ، وقسم الجيش الى خمسة فيالق ، اذ نصب مولاي أبا حسّون (19) على الفيلق الذي وضعه عن يمينه، ونصب أخاه أبا خسون على الفيلق الذي وضعه عن يساره ، وكان يساعد كلا منهما اثنان من أبنائه (20) جعلهما على الفيلقين الثالث والرابع ، في حين احتفظ لنفسه بقيادة الفيلق الخامس وهو أهم الفيالق . وكان أحد أبنائه الآخرين يساعده في القيادة .

وضع ملك فاس ، فرقة المدفعية في مكان استراتيجي ، بمهبط الجبل ، وكان الضابط الفارسي الذي تحدثت عنه أعلاه يقود هذه الفرقة الى جانب طابور الاتراك والعلوج وفريق الرماة الوطاسيين ، وراح ينتظر عدوه .

قبل ذلك بيوم ، اجتمع الشريف السعدي بالقواد وبأبنائه ، على مقربة من خيمته ، واستعرض الجيش وألقى فيه خطابا طويلا ركّز فيه على أهمية المعركة التي كانوا عليها مقبلين ، وعلى أبعاد النصر الذي سيحققونه ، مثيرا انتباههم الى نائجه ، اذ سيمكّنهم جميعا من مغانم كثيرة ، وسيفتح لهم الطريق المؤدية الى فاس وسيجعل الشواطئ البحرية تحت هيمنتهم ، ثم نهض من مقعده وبقي الآخرون جالسين ، وعرض على المتشكّكين من الجنود أن ينسحبوا فورا دون خشية عقاب ان فعلوا وذكرهم أن الملاهي والملذات التي ينغمس فيها أهل فاس ، تقوّض العزائم ، ولذا ، لا يمكن للمترفين أن يصمدوا أمام شجاعة الجنود الأشاوس الذين تربّوا منذ نعومة أظفارهم على استعمال الاسلحة وقاموا بفتوحات عظيمة ، وأضاف قائلا بأنه يعقد عليهم الآمال ليرفعوا عرشه بعد أيام

(19) حاكم غمارة .

(20) وهو بوزكري ، وحاكم دبدو .

قلائل ، الى أسمى مقام بافريقيا ، وبذلك سيكللون أعمالهم بالمجد الخالد ، وطلب منهم بعد ذلك أن يستعدوا للقتال ، وأن يعربوا عن حاجياتهم ان كانت لهم مطالب ، ثم اختتم خطابه قائلا « أيها الناس ، ليس لي ما أضيفه لكلامي سوى أن الباب مفتوح لمن أراد أن يتخلّى عنّا ، أما الذين عزموا على خوض غمار المعركة ، فينبغي لهم أن يقدموا الدليل على قدراتهم ، مع الامتثال لتعليمات رؤسائهم ، ولهم في القتال حياة » ثم أخبر الضباط أن المنجمين والعرافين تنبؤوا بأنه لن يستشهد من جنوده الا فرد واحد ، وهو زنجي ، وأن ملك فاس سيقع في أسره .

لما فرغ الملك من القاء خطابه ، هتف الجنود قاطبة للاعراب عن حماسهم ، ولتأكيد التحام صفوفهم ، ثم التحق كل واحد منهم بالوحدة التي ينتمي اليها . وعند فجر اليوم الموالي ، بدأت قوات السعديين تزحف ببطء نحو ميدان الوغى، وهي مقسمة الى خمس فرق ، مركبة على شكل هلال يقود طرفه الايمن بلعيش ، ويقود طرفه الايسر أحد أبنائه (21) ، بمساعدة اثنين آخرين ، على طرفي الهلال .

أما محمد الشيخ وأبناؤه ، فانهم كانوا يقودون الوحدات المرتبة وسط الهلال ، المؤلفة من خمسة آلاف من أجود الفرسان وخير الجياد . وكان الفرسان واضعين الخوذات على رؤوسهم مرتدين أقمصة من الزرد ، يحمل كل واحد منهم رمحا ودرعا بينما كانت تتقدم الملك فرقة من الرماة على جيادهم ، من خلفها فرقة المدفعية وبعض المدافع الخفيفة المنصوبة على ظهور البغال ، يقوم على كلّ قطعة منها جنديان أحدهما على اليمين والآخر على الشمال ، وكان بجانب كل مدفع كمّيات من البارود ، والكور ، يمكن استعمالها في كل حين ، مع تصويبها الى أي جهة .

كانت قوات المعسكرين ، تعتمد على الفرسان ، اذ لم تكن متعودة على المشي ولم يكن بينها مشاة ، وبماأن الجنود كانوا في سهل ليس فيه شجر ، كنت أرى كل ما يتحرك فيه . وكان الملك يرى للعيان وهو ينتقل من جهة الى جهة ، يحرّض الجنود على الشجاعة والثبات ، والانضباط ، حتى لا يشرعوا في القتال قبل أن يتلقوا منه الاشارة .

---

(21) مولاي مسعـود .

أضحى الجيشان في حالة تأهب قصوى ، ومضى كل واحد منهما يراقب الآخر مدة طويلة تحت شمس محرقة . ولمّا بدأت الشمس تميل الى الزوال ولّاها جنود محمد الشيخ ظهورهم بينما كانت تعمي أبصار جنود جيش فاس ، عندئذ رفع محمد علما أبيض عليه كتابة بحروف ذهبية ، كان يحمله دائما معه،ثم تناول ثلاثة قضبان ، وأمر أحد حاملي التروس أن يتقدم أمامه ، ودفع بجواده ، ورمى القضبان الى الأرض ، واحدا تلو الآخر ، ثم همز فرسه ، وعلى الفور أمر الجنود بالانطلاقة وراء العلم ، فكانت اشارة بدء القتال رصاصة في الفضاء ، عند ذلك أخذت الفيالق تتحرّك وغادر الرماة مكانهم والتحقوا بالجناحين ، لتتمكن المدفعية من القيام بعملها . لكن الاشتباك بدأ بالأيادي والكلام دون أن يشكل خطرا على حياة المتحاربين ، وذلك لأن جنود فاس لم تكن لهم رغبة في القتال رغم تدخلات أبي حسون وتحريضهم عليه . وما هي الا لحظات ، حتى أخذ محمد يشتت صفوفهم وهم يفرّون ، فاندهشنا نحن الذين نشاهد أطوار المعركة ، لم يمت خلالها الا فرد واحد من قوات الشريف ، مقابل أربعين من الجانب الفاسي .

لما شهد ملك فاس حالة جنوده ، سعى الى اجتياز النهر ليلحق بهم ، لكن جواده تعثر بين الحجارة ورمى به الى الماء ، وفي الحين ، انقضّ عليه خادم زنجي لأحد أبناء الشريف ، ووجّه اليه ضربتين بسيفه على الرأس وهمّ بقتله لولا أن حاجب الامير صدّه عنه قائلا إنه الملك ، حينئذ ، أسرع اليه سيده ، الأمير مولاي أبو بكر ، وانتشله منه بمساعدة أحد أبنائه الذي كان يرافقه دوما . على اثر ذلك ، تشتّت جيش فاس عن أكمله ، وانسحب أبو حسون في نظام بمعية بعض الجنود ، وقد بذل قصارئ الجهود لكي لا يصيبه أذى . الا أن الفارسي الذي كان على رأس حرس المعسكر ، لما شهد الهزيمة التي لحقت بقوات فاس ، أمر الأتراك والعلوج وجميع الموالي أن يتخلوا عن خيولهم ، ثم شرعوا يحصنون موقعهم ، بربط المدافع بحبال ، لكي لا يستطيع عدوهم الهجوم عليهم وقتلهم . ولبثوا وقتا طويلا في موقعهم دون أن يهاجموا ، فأوفد اليهم ملك مراكش رسلا يدعونهم الى الانضمام الى قواته بنفس الشروط التي كانوا يعملون بها في قوات ملك فاس ، مع السماح لمن أراد منهم أن يعود من حيث أتى . لكن الفارسي لم يؤمن بهذه الوفادة ، وصرّح بانه اذا كان الملك يرغب في استخدامهم ، فإنه ينبغي أن يبعث اليهم أحد أبنائه للتفاوض معهم .

استحسن محمد الاقتراح ، ودعا ابنه مولاي القائد الى التوجه لدى الفارسي ، وفعلا انضم الفارسي وكثير ممن كانوا معه الى قوات الملك ، واستسلم كل الرجال الذين كان لهم أهل وأبناء بفاس، وانسحبوا من الميدان .

ولما تم الاستيلاء على معسكر ملك فاس ، وعلى ما كان فيه من دخائر ، مع خيام الملك ، دخل محمد الى احدى الخيام ، رفقة بعض أفراد حاشيته والضباط ، ثم قال للملك الأسير :« اسمع يا أحمد الوطاسي ، ان الله غضب عليك وأنزل عليك اللعنة من جراء الذنوب التي اقترفتها والأعمال الشنيعة التي كنت ترتكبها كل يوم بفاس ، وما أسرك اليوم الا تجسيد لارادة الله وعظمة نبيه محمد ، لاتخف ، فاني لن أعاقبك على مساندتك لأخي وابنه ضدّي ، انك لست في قبضة ملك نصراني ، ولكنك بين يدي مسلم مثلك ، سوف تعود الى عرشك اذا كان سلوكك حسنا» فرفع الأسير رأسه وهو يتألم من الجروح التي أصيب بها ، وقال :« ارادة الله نافذة ، وأعمال الرجال محك أقوالهم ، لا يستطيع أحد من الملوك أن يمحو العيوب والخطايا المنتشرة في الأرض منذ أن خلقها الله ، ولا أظن أن هذه المثالب تبرر محاربتك لي وأنا لم اقترف أية اساءة اليك من قبل . لعلك تتذكر أني أحطتك ، أنت وأخاك بعناية كبرى ، قبل أن يصبح لكما شأن عظيم . ألا تذكر أنني وأبي لم نتهاون قط في تلبية رغباتكما ؟ الله وحده يعلم هل ما ألقاه الآن جزاء لما كسبت أيدينا . لا يحسن بك أن تؤاخذني على الحفاوة التي استقبلت بها أبناء أخيك ، اذ لو كنت أنت الوافد عليّ للقيت مني تكريما مماثلا ».

ابتسم محمد على اثر هذه العبارات.ومضى يواسي ملك فاس ، ثم أمر له بجناح خاص ودعا اليه طبيبا يهوديا لعلاج جروحه ، وفي نفس اليوم ، تقدم اليه حاكم القصر الذي سبق الحديث عنه ، فأحسن إستقباله ، وتسلم منه مفاتيح القصر ، وحذا حذوه ولاة مملكة فاس كلهم .

بعد مضي يومين ، رحل محمد وقواته في اتجاه فاس ، ومعه الملك الوطاسي وابنه أسيرين ، وقد وعد ملك فاس بالتنازل عن ولاية مكناس لفائدة محمد ، الّا أن الامور بفاس جرت على غير ما كان يتوقعه ، اذ أن أبا حسون ، لما وصل الى فاس ، رفقة بعض الجنود ، أبى أن يترك بها فراغا سياسيا ، ورفض تنصيب أخي

الملك(22) في غياب الملك ، فاستدعى كبار المملكة ورؤساء القبائل وأعلن لهم أن الله اختار مولاي القصري ليكون خلفا لأبيه على عرش فاس ، ثم انحنى وقبّل قدمي الامير ، وتبعه في ذلك جميع الحاضرين على شرط أن يرد مقاليد الامور الى أبيه بمجرّد ما يفرج عنه ملك مراكش .

عيّن مولاي القصري أبا حسون خليفة له وأضفى عليه صبغة الأمير ، ثم أمره بالسهر على مصالح الدولة ، وجعل بقاءه في هذا المنصب مرهونا بسلامة العرش .

كانت أم القصري نصرانية من قرطبة ، ولما أصبح ابنها ملكا ، قال له الفقهاء بأن الله عاقب أباه لأنه كان يبيح للنصارى عصر الخمر بفاس ويبيعها للمسلمين ، وكان يربّي الأُسُد ، وتقديرا لهؤلاء الفقهاء ، أمر القصري بتحطيم الجرات التي كانت الخمور تدّخر فيها ، وأمر أيضا بقتل جميع الاسد .

كان الشريف يسرع الخطى نحو فاس، واجتاز ممرا يبعد عن المدينة غربا بنحو اربعة عشر فرسخا، حيث لا يقوى سكانه القليلو العدد على أن يمنعوا جيشا بأكمله من اجتيازه، ثم تقدم حتى بلغ موقعا لا يبعد عن المدينة الا باربعة فراسخ .فأراح فيه محلته . ومن هناك حمل فارس من الملك الأسير رسائل الى زوجته أم القصرى، والى ابنه والى أبي حسنون، يلتمس منهم تسليم مكناسة الى الشريف الذي وعد بتحريره واعادته الى عرشه، وهو أمر لا ينبغي الاستهانة به في مثل هذه الظروف . وعلاوة على ذلك، بعث الشريف رسائل الى عدد من الشرفاء والى بعض اصدقائه بفاس ، يستحثهم على تنفيد مطالبه طوعا بدلا من تنفيذها وهم كارهون .

استقبل أبو حسون سفراء الشريف بحفاوة، وحدثهم بما جعلهم يأملون في تلبية رغبة الشريف، وهو يعلم أن قوات ملك مراكش لن تستطيع البقاء طويلا في معسكرها دون مؤونة ، متعمدا التسويف .

وذات ليلة، استدعى ابو حسون وجهاء المدينة وممثلي سكان جميع الحرف ثم خرج على رأس ثمانية الاف من الرماة، وفرقة من الفرسان ليهاجم عدوه، في حين تلقى أهل مكناس الامر باغلاق ممر الخنق . وعقابا لأهل فاس، أمر الشريف

---

(22) المسمى بوزكري .

قواته بإتلاف كل اثار العمران التي توجد في المسافة الفاصلة بين معسكره ومدينة فاس، ثم وقف على قطع رؤوس اكثر من مائتين من الاسرى، ووصل الى ممر الخنق في ظرف يوم وليلة قبل أن يقطع عليه ، عائدا الى مراكش، وملك فاس وابنه مكبلان بالأغلال .

وما كادت تمر سنة على ذلك، أي عام 1545، حتى علم ملك مراكش أن خلافات كبيرة تصدع صفوف أعدائه، فشكل جيشا قويا يتألف من جميع فرسان سوس ومراكش، ومدعّما بأربعة وعشرين مدفعا، وعدد من الجمال تحمل الذخائر والمؤن، ونصّب على رأس الجيش ابنيه محمد الحران وعبد القادر، وأمرهما بالزحف نحو فاس عبر القصر الكبير . وفعلا، انضم الى قوات ملك مراكش، أمير عربي من ولاية القصر الكبير، فأصبحت لهما السيطرة المطلقة على المنطقة وعلى مكناسة . وتلقى ملك مراكش خطابين، أحدهما من والي تطوان والثاني من والي الشاون،يعلنان فيهما عن ولائهما واستعدادهما لمساعدته على الاستيلاء على فاس، وأعربا عن مناوأتهما لأحمد القصرى .

لما علم أمير فاس بذلك، أرسل أبا حسون الى تطوان على رأس جيش، لكنه عجز عن الدخول الى المدينة نظرًا لتحصيناتها المنيعة، وعاد الى فاس حيث مضى يعزّز القوات التي أعطيت لها الاوامر للتصدي الى جيش محمد الشيخ المرابط بالقرب من المدينة، وقد استمال محمد الشيخ ولاة القصر الكبير والعرائش والغرب، فاقتنعوا بالانضمام اليه مع القبائل العربية . وأمام تدهور الأحوال اجتمع أبو حسون بكبار المسؤولين، فلم يستطع أن يكظم غيظه فوجّه اليهم عتابا شديدا لأنهم لم ينفذوا تعليماته ثم امتطى فرسه واختفى .

ولما رجع أحمد القصري الى فاس أوفد أخا له الى حاكمي الشاون وتطوان ، يطلب منها اللحاق به مع قواتهما – وقد أراد بذلك أن يمتحنهما – لكن المبعوث فشل في مهمته ، وعجّل بالعودة الى فاس قبل أن يقع في الأسر . إذّاك أوفد القصري ابنه رفقة مربيه لدى أبي حسون يطلبان منه نسيان ما حدث ، ويذكرانه بما عليه من واجبات تجاه الدولة بصفته أميرا ، فتأثر أبو حسون باستعطاف الرسول ورجع الى فاس حيث خصّص له استقبال رسمي بوصفه خليفة الملك .

دخل ولدا محمد الشيخ في هذه الفترة من الزمان الى القصر الكبير، وأخذا يستوليان على القصبات والمواقع المجاورة، وهي خالية من المدافعين عنها . وتدخل

الفقهاء في الامر، لاصلاح ذات البين بين الشرفاء والوطاسيين ، فأبرم الصلح بين الجانبين على أساس أن تسلّم مكناسة الى الشرفاء، مقابل الافراج عن الملك الأسير، وتم تنفيد الاتفاق .

قبل أن يبرح الشريف المكان أهدي اليه ملك فاس فرسين من أجود ما في رباطه، فتسلمهما الشريف شاكرا، لكنه نبّه ملك فاس الى أنه مستاء جدا من سلوك القصري واخوته، وأنه يريد أن تسلّم له فاس بمجرد ما يطالب بها، فوعده الملك بتلبية رغبته .

لما دخل الملك الوطاسي الى فاس، تسلم من ابنه مقاليد الحكم، ولم يمض شهران على ذلك حتى كان الشريف يرابط بالقرب من المدينة ويلح على الملك بالوفاء بوعده .

لم يكن للملك فاس جيش يستطيع المجابهة، فرد على محمد الشيخ بأن ابنه وسكان المدينة يرفضون الاستسلام ، ولا يقدر على ارغامهم لما يريده الشرفاء . اغتاظ الشريف الى درجة أنه أمر بقطع رأس مبعوث الملك (23) ، وهو من علماء فاس، ثم أشار الى أربعة آلاف من الفرسان بقتل ونهب كل من يجدونه خارج أسوار المدينة . وبدأت المعارك، وانهزم الفرسان ذات مرّة، ووقع في صفوفهم ضحايا كثيرون . عندئذ رحل الشريف مسرعا الى مكناس وأرسل في طلب جميع القوات، مع ابنيه عبد الله وعبد الرحمن . فوصلت الامدادات من مراكش ومن سوس .

بعد ذلك، انطلق الشريف بجيشه نحو القصر الكبير، وعرّج على ولاية اسغر ثم أتى نهر سبو ، وحط غير بعيد من فاس .

لكن مولاي زيدان، الذي قدم من تافيلالت لتعزيز قوات الملك الوطاسي، كان بالمرصاد، ومنعه من عبور النهر، فوقعت معركة حامية بينهما حتى على الممر الذي يسمح بالعبور ، سقط خلالها عدد كبير من جنود الجانبين، ولم تتوقف الا بعد مغيب الشمس .

مرض أبو حسون بعد أيام، ورأى مولاي زيدان أن الامور لا تسير حسب ما يرضيه فولى مدبرا الى تافيلالت، اذ ذاك اجتاز الشريف النهر، وقد هزم قوات الملك، ثم عسكر على مسافة فرسخين من فاس، عند عين الجدول الذي ينساب

(23) لا تذكر المصادر العربية رسولا من الفقهاء .

خلال منازل المدينة، وأمر ابنه عبد الرحمن باقامة حصار على الجدول، بغية تضييق الخناق على السكان .

بدأت الاسواق في المدينة تفتقر الى المواد الغدائية، فأمر الملك خليفته أبا حسون بأن يحاول فك الحصار عن المدينة . الا أن بعض العناصر المتواطئة مع الشرفاء أطلعت محمد الشريف على ما يبيته الملك، فأرسل التعزيزات الى ابنه عبد الرحمن . ولما خرج أبو حسون على رأس جميع الفرسان، لفك الحصار، وقع في فخّين، لكنه نجا بحياته ولم يرجع معه الى المدينة الا اثنا عشر من فرسانه الذين نجوا، فطلبوا الذهاب الى غمارة .

اتخذها أهل المدينة فرصة للجهر بما يكابدونه من معاناة، مدة سنتين، وشكلوا مظاهرات للاعراب عن تأييدهم وولائهم للشريف، وبلغ أصداء الانتفاضة الشعبية الى محمد، فرحّب بهم، ودنا من أسوار المدينة وفتح مفاوضات سرية مع أهلها .

وذات ليلة، فتحت قوات الشرفاء ثغرة في السور المحيط بفاس البالي، ودخل محمد المدينة والوطاسيون عن ذلك غافلون . ولما بلغ الخبر الى الملك بقصره، تلقّى الجنود الا وامر بصدّ المهاجمين وجرى قتال عنيف في الأزقة بين الطرفين، وكاد النصر يكون حليف ملك فاس، لولا أن السكان، وخاصة النساء منهم، لما سمعوا البعض يهتف بحياة الشريف، والبعض يهتف بحياة المريني (24) ، انطلقوا يهتفون بحياة من ينقذهم من الجوع، ثم شرعوا يقذفون جنود الملك بوابل من الحجارة من سطوح منازلهم .

انسحب الملك على اثر ما وقع تحت سمعه وبصره، وعاد الى القصر . أما الشريف، فانه استولى على فاس البالي وقصرها، وترك فيهما حامية بقيادة حمّو بن داود، ورجع الى معسكره . خلال الليلة ذاتها، نصح أبو حسون الملك بمصاحبته الى بلش، حيث يستنجد بقوات النصارى ويستأنف القتال، لكن الملك أجابه بأنه لا يستطيع أن يترك أمه وأهله تحت رحمة عدوه، بل يفضل مفاوضة الشريف في مصير أسرته .

---

(24) يعني الوطاسي .

برح أبو حسون فاسا على صهوة جواده، وخرج من باب خفي . ولما أصبح اليوم التالي، اتصلت أم الملك بالشريف، تستعطفه باكية، ليترك لابنها السيادة على بعض الولايات يقضي بها ما بقي من عمره، فوعدها الشريف بذلك، على أن يجلو ابنها عن المدينة حاملا أمتعته في أجل أقصاه ثلاثة أيام . وتمّت مشيئة الشريف، فدخل المدينة واستولى على القصر، وغرب الملك المنهزم الى مراكش، بينما نفي ابنيه أحمد القصري وأبا ناصر الى ترودانت في انتظار اتخاذ قرار آخر في شأنهما (24م) .

بعد أيام قلائل دخل محمد باحدى بنات الملك السابق، وأقام حفلات فاخرة بالمناسبة وبذلك صفت له شؤون المدينة وأعمالها . ثم بعث برسول الى أخيه مولاي أحمد يأمره بمغادرة تافيلالت والاستيطان بتيغوريث في الصحراء، عقابا له ايفاد ابنه مولاي زيدان الى قتاله . فردّ أخوه على ذلك بأن أرسل اليه جميع ابنائه ليعملوا تحت أوامره، لكن مولاي محمد ألحّ على أخيه بأن يذهب الى منفاه الجديد رفقة ابنيه زيدان وناصر، في حين زوّج الصغيرين (25) من أبناء أخيه باثنتين من بناته .

لما استقرّ أحمد بمنفاه الجديد، اغتنمها عبد الرحمن فرصة للسطو على أعمال تافيلالت . لكن أحمد استحبّ الفساد وطغى في البلاد، فلم يصبر الأهالي على الظلم وجنحوا الى العصيان، واستنجد أحمد بأخيه الملك، فتعصّب له اخوه لانقاده وتأهّب لارسال وحدات الى الصحراء، الا أن مولاي عمر، أحد أقارب الملك الوطاسي المخلوع، والذي كان واليا على بعض أعمال فاس، حرّك مشاعر رعاياه، فأوقدوا نار الفتنة ، الأمر الذي جعل الملك يضع الامر في مقدمة اهتماماته، ويعدل عن تقديم العون الى أخيه .

سعى ملك فاس الى اسقدام مولاي عمر لتقديم التهاني والولاء كسائر الولاة، لكنه اعتذر عن الحضور، وأناب عنه ابنه للقيام بهذه المهمة، وفهم محمد أن الوالي يتهرب من لقائه، فأمر بتغريب ابنه الى مليلية . وبعدما قضى بها مدة، تمكن من الاتصال هناك بأبي حسون، فاتفق الرجلان على مناهضة ملك فاس .

(24م) هذا خلاف المتواتر عند المؤرخين من أن محمد الشيخ قتل كل الوطاسيين إلا أبا حسون الذي تمكن من الفرار إلى الاسبان ثم إلى أتراك الجزائر .

(25) أبو حسون والمنصور .

على اثر تقلّص نظام الدولة الوطاسية، اتجه أبو حسون الى موقع بادس على شاطئ البحر المتوسط . ومن هناك، أوفد بعثة عسكرية على متن زورق حربي الى اسبانيا، لطلب الحماية من الامبراطور كارلوس الخامس، مقابل التنازل له عن موقع بادس، كما التمس منه العمل على الاطاحة بالشرفاء السعديين، وطلب منه أيضا أن يرسل اليه سفنا لتقلّه هو ومن معه الى اسبانيا .

في نفس الوقت، كان أبو حسون يخادع محمد الشريف بايهامه بأنه وفي له وأنه يضع مواقعه وقواعده تحت تصرفه . ولم يحفل كارلوس الخامس بطلبات أبي حسون ولا بعروضه، فأراد أبو حسون سبق الاحداث ، وأعلن للاسرى النصارى الذين كانوا في قبضته أنه قرّر خلاصهم، وجهّز سفينتين ودعاهم الى الابحار به الى اسبانيا .

لم يكتم الاهالي ما يدبّره أبو حسون، فأرسلوا بعثة الى ملك فاس لاطلاعه على مجرى الاحداث . غضب محمد الشيخ، وألّح في طلب أبي حسون لاطلاعه على أمر هام . لكن أبا حسون أرسل ابنه الناصر لدى الملك ليعتذر له عن عدم الحضور، مدعيا أنه مريض لا يقوى على التنقل . لم يقتنع الملك بذلك، وشدد في طلب أبي حسون، مبرزا أن الأمر هام جدا ولا يمكن الفصل فيه الا معه. إلى جانب ذلك تباحث الملك مع أعضاء وفد السكان مبنيا لهم ضرورة القاء القبض على الخائن .

علم أبو حسون بما يبيته له الملك ، فتوجه الى بادس لكن حاكمها (26) منعه من الدخول اليها كما رفض أن يسلم الموقع الى الشريف . عندئذ ذهب أبو حسون على جواده الى ضواحي بادس واستنفر الجنود لمرافقته الى فاس، وهو يخفي نواياه الحقيقية .

اضطرب جنوده أمام الأحداث، فطمأنهم بإعلان حالة التعبئة والاستعجال، ثم قصد مكانا يبعد بأربعة فراسخ عن بادس ليقضي به الليل . وبعدما انتصف الليل، انسل من مرقده والناس نيام، ورافقه أربعة وعشرون من أسراه النصارى، فركبوا سفينة صياد وتوجّهوا الى مليلية ، وقد ترك أبو حسون فرسه بالقرب من الشاطئ .

---

(26) يدعى الزرهـوني .

وفي أثناء هذه الاحداث، كان الشريف يواصل فتوحاته، ودخل ثلاثة من أبنائه، وهم الحران وعبد الله وعبد القادر ، الى تلمسان بدون قتال ، لأن القائد التركي الذي كان يرابط بها سلمها اليهم . ونصب الحران أخاه عبد الله قائدا على المدينة ، ثم توجه نحو وهران لحصارها وقد أرسل بعض الوحدات لقتال حاميتها ، لكنه ولى عائدا الى فاس وهو مريض ، فوافته المنية بها .

علم الشريف أن قوات تركية هائلة غادرت مدينة الجزائر قاصدة تلمسان ، فأرسل ابنه عبد القادر بتعزيزات الى أخيه عبد الله ، وبما أن الوحدات السعدية تعبت من جراء حروبها الاخيرة قرر محمد الشيخ ارسال إمدادات أخرى لنجدة ابنه تتألف من أربعة آلاف فارس من قواته الخاصة ، وأمر ابنه عبد الرحمن الذي كان يرابط بتافيلالت ، بالالتحاق به في أربعة آلاف فارس اخرين ، كانوا في أحسن الاحوال بعدما استراحوا كثيرا.

كان الاميران الفتيان ، عبد الرحمن وعبد القادر ، أخوين من أبيهما ، فلم يحصل الاتفاق والوفاق بينهما ، وكان خلافهما سببا للنكبة التي أصابتهما في تلمسان ، اذ طلب عبد القادر من أخيه عبد الرحمن استبدال ألفين من الفرسان القادمين من تافيلالت ، بمثلهما من الفرسان الذين كانوا معه ، وقد أنهكتهم المعارك ، فرفض عبد الرحمن بادئ الامر ثم وافق على طلب أخيه ، ورفض أيضا أن يخوض الى جانب عبد الله المعركة ضد الاتراك ، تلك المعركة التي قتل فيها أحد أقاربه (27) وجرح فيها اخر في ذراعه . ولما دخل الى المعركة أحد أبناء عمه ، ضربه عبد الرحمن بسيفه على ذراعه ، فاشتكى منه الى الشريف . ويظن بعض الناس أن الشريف أمر بتسميمه ، فمات بعد شهر .

في خضم هذه الاحداث ، تمرّد برابرة جبل درن الواقع شرق ترودانت ، واعتقد الشريف ان عصيانهم يعود الى تحرشات الملك الوطاسي السابق والى أبنائه الذين كان بعضهم مغرّبين بمراكش ، وآخرون بترودانت ، فبعث اليهم عملاءه فلبحوهم كافة . ثم قاد عبد الله وحدات من الجيش ، تتألف من ثلاثة آلاف من الرماة الأتراك والعلوج المسلمين ، لقتال المتمردين . ولما بلغوا أسفل الجبل ، أمر عبد الله قائد العلوج بتسلقه مع رجاله ، وتجاهل الجبليون وجودهم اذ

(27) يدعى البهاسي (؟)

تركوهم يتسلقون الجبل، لكن لما كادوا يصلون الى أعاليه ، أغاروا عليهم فجأة وأمطروهم بكميات هائلة من الحجارة أودت بحياة معظمهم، ولم ينج منهم الا ثلاثون .وغداة الحادث أمر عبد الله الجنود الاتراك الذين اشتهروا ببسالتهم بأن يتسلّقوا الجبل ، ثم وجّه توبيخا شديد اللهجة للعلوج الذين وصفهم بالجبناء . لكن حظ الاتراك لم يكن أحسن من حظ العلوج ، اذ تكبّدوا خسائر جسيمة في الارواح عندما حاولوا تسلّق الجبل ، ولم ينج من فريقهم الا خمسون .

اغتاظ الشريف الى حدّ كبير بسبب الخسائر التي منيت بها قواتُه ، فاستدعى ابنه وقرّر أن يجابه بنفسه أولئك البرابر ، ظانا أن حضوره كفيل بالتأثير عليهم ، فقاد جيشا نحو جبل درن ، لكنه بعدما نهب القرى والمواقع المتواجدة حواليه ، لم يستطع الوصول الى قمة الجبل واضطرّ الى العودة .

قلت سابقا إن أبا حسون ذهب الى مليلية ، وفعلا ، طرق هناك أبواب الامير ماكسيمليان، حاكم اسبانيا بالنيابة عن امبراطورها كارلوس الخامس ، فوعده بتسليمه بادس كما وعده بالاعلان عن ولائه التام الى الامبراطور كارلوس اذا ما ساعده هذا الأخير على استرداد العرش بفاس . فجهّز الامير الاسباني اسطولا يتألف من ست عشرة سفينة حربية كان أبو حسون على متن احداها ، وأوفد قائد البحرية الاسبانية للاستيلاء على بادس ، لكن حاكم الموقع صدّ المهاجمين على أعقابهم ، ورفض أن يستسلم للاسبان ، وأمام تعنتهم ، رماهم بالقذائف ، فولوا على أدبارهم ، وتوجه القائد الاسباني رفقة أبي حسون الى مالقة .

ومن هناك رحل أبو حسون الى مدينة الوليد لمواصلة محادثاته مع ماكسيمليان ، ووقعت هذه الأحداث سنة 1545 . لم يكن ماكسيمليان مؤهلا للفصل في قضايا من هذه الخطورة والأهمية ، لذا ، التحق بكارلوس الخامس الذي كان وقتئذ في شغل شاغل بأوسبورغ ، ولم يكن له مناص من إرجاء استقبال ماكسيميليان من يوم لآخر ، حتى ملّ ماكسيمليان الانتظار وولّى راجعا الى اسبانيا ، رفقة الامير فليب ، نجل الامبراطور .

ولما تأكد أبو حسون أنه لن يجني في الوقت الراهن من مساعيه لدى الامبراطور الاسباني ما يشفي غليله ، التجأ الى رحاب البلاط البرتغالي بلشنونة . وخلال اقامته بالعاصمة البرتغالية ، حمل اليه مولاي أبو بكر رسائل من بعض سكان فاس ، يلتمس منه أصحابها أن يعود الى فاس لتسيير دفة الحكم ، ووعدوه

باخلاصهم وولائهم ضد محمد الشيخ .

اهتم عاهل البرتغال الى حدّ كبير بالشروح التي قدمها له أبو حسون ، فمنح أبا حسون مبالغ مالية ، ثم وضع تحت تصرفه فرقة من الجيش تتألف من خمسمائة جندي . وأبحر أبو حسون مع الجنود على متن خمس سفن ، ثم نزل بميناء الحسيمة ، وهو لا يبعد عن بادس الا بنحو سبعة فراسخ ، وكان يرافقه أيضا بعض النبلاء البرتغاليين . ولم يلبث الا قليلا حتى أقبلت عليه أفواج من سكان الجبال ، لتعلن الولاء له .

كانت السفن البرتغالية راسية بالميناء ، فأبصرها صالح رايس حاكم مدينة الجزائر ، وهو عائد من جبل طارق على رأس أسطول يتألف من ثماني عشرة سفينة حربية . ولما تبيّن له أنها سفن مسيحية ، أقام حصارا حولها ثم هاجمها . دامت المعركة بين الاسطولين الى صبيحة اليوم التالي ، ثم استسلم الاسطول البرتغالي الى القائد التركي ، رغم تذخل أبي حسون الذي لم يجد بدّا من المثول أمام صالح رايس في محاولة لاقناعه بالافراج عن السفن البرتغالية ، بدعوى أنها تتعاون معه للاطاحة بعدوهما المشترك ، الا أن القائد التركي وجّه اليه توبيخا شديد اللهجة ، واتهمه بالخيانة العظمى ، لأنه سعى الى الاستنجاد بالنصارى ولم يفكر في طلب المساعدات من القوات التركية .

لما عاد صالح رايس الى الجزائر ، أحس أبو حسون بعدم قدرته على البقاء بالحسيمة ، فهرع الى الحاكم التركي ، والتقى به في جهة ما بالمناطق الجبلية القريبة من تلمسان، وهناك، قدم له اعتذاراته عن تهوره، في مقابل هدية بسيطة استعاد أبو حسون الجنود البرتغاليين الخمسمائة والسفن الخمس ، ثم عرض عليه الحاكم توحيد جهودهما للاطاحة بالجالس على عرش المغرب .

استحسن أبو حسون العرض التركي ووعد صالح رايس بأن يعطي للجنود الاتراك أجرا يوميا قدره ألف بستول كما وعده وعدا قاطعا بأنه سيتنازل له عن النفائس والكنوز التي توجد بقصور فاس ، بعدما يسترجع العرش .

وتنفيذا للاتفاق المبرم بين الجانبين ، غادر رايس مدينة الجزائر وقصد تلمسان على رأس قوات تتألف من أربعة آلاف جندي تركي مجهزة بعتاد حربي ومعززة باثنى عشر مدفعا ، واستنفر عدادا آخر من الجنود في الطريق .

والتحق بأبي حسون كذلك ، مولاي عمّار قائد دبدو الذي سبق له أن لجأ الى مليلية. وقد استعاد بعد ذلك السيادة على اقليمه .

في هذه الأثناء ، كان محمد الشيخ يقيم بمراكش ومنها يشرف على العمليات الحربية ضد برابرة جبل درن . لما علم من نوايا أعدائه . رحل الى فاس على رأس ما كان له من جنود وفرسان . ثم تحرك نحو تازة ، وأنزل محلته هنالك في انتظار الاتراك القادمين من تلمسان ، الا أن صالح رايس كان يزحف ببطء ، وهو يستنفر أكثر ما يمكن من المقاتلين ، فاضطر محمد الشيخ الى الرجوع الى فاس ، لأن المؤونة كانت تنقصه ، ولأن أبناء أبي حسون كانوا يتربصون في معاقلهم بالجبال ، الى القوافل المحملة اليه ويحجزون حمولاتها.

لم يمض على مغادرة محمد تازة الا أيام قلائل حتى دخلها صالح رايس ، واستسلم له السكان بعدما قبل أن يسمح لجنود الحامية ، وعددهم مائتان ، بان يبرحوا الموقع. بعد ذلك زحف القائد التركي نحو فاس عبر ممرات ممتازة تقيه ضربات القوات المعادية التي ظلت تترصد له بالسهول ، بخيولها وفرسانها .

وذات يوم ، وقع عبد الله بن محمد الشيخ ، وهو يقود الفرق الخلفية ، في كمين نصبه له الاتراك ، فهزموه وغنموا كل ما كان لديه من مؤونة وعتاد حربي . ولم ينج عبد الله الا بالفرار . واضطر الى المشي ليلا ونهارا حتى وصل الى فاس .

بعد ذلك بأيام ، حطّ صالح رايس باحدى ضفتي نهر سبو ، ذلك ما أرغم الشريف على الخروج اليه ، لأن العرف جعل فاس تمتاز بكونها تحتم على كل من يتولى الملك فيها ان يخرج لقتال العدو اذا كان يرابط على مقربة من المدينة . ولم يكن أهل فاس ليرضوا بأن تلحق بالمدينة خسائر ، من جرّاء تشبثهم بولاء لا خير من ورائه ، خصوصا اذا كان الجالس على العرش لا يستطيع الدفاع عنها .

من أجل ذلك ، اجتمع الشريف بمجلسه ، ووافق الجمع على ان يشن غارة مفاجئة على العدو الذي يكون التعب قد أضناه بسبب المشي طوال أيام عديدة . فأرسل الشريف ثمانية آلاف فارس لقتال الأتراك، ثم نصحه قائد حرسه قارة علي ، وهو تركي ، بأن يكاتب القائد صالح رايس ، ففعل . لكن الشريف أمر بقطع رأسه ، وخرج بعد ذلك من فاس على رأس جيش منظم وحطّ بمحتله على الطريق المؤدية الى دبدو ، سعيا وراء قطع السبيل على الأعداء ، أو على

الاقل ، لمقاتلتهم في مكان استراتيجي مناسب ، كما تقدم له أن فعل ضد الملك الوطاسي .

كان جيش محمد الشيخ يتألف من ثمانين ألف جندي ، أكثرهم من الفرسان ، زيادة على الفرسان الذين ذكرتهم أعلاه ، وذلك لأن أهالي سوس ، ودرعة ومراكش وفاس ، هبّوا لتعزيز الجيش .

رابط محمد الشيخ غير بعيد من الاتراك ولم يكن يفصله عن معسكرهم الا النهر . ولما رأى صالح رايس ذلك، فهم أن محمد الشيخ أراد أن يمنعه من عبور النهر . اذ ذاك، نصب مدافعه الاثنى عشر على طول النهر، وأمر باطلاق النار، ثم أمر كل فارس أن يحمل معه راميا على جواده . عندئذ انسحب جيش محمد الشيخ من مكانه، فرارا من القذائف، واستطاع صالح رايس وجنوده عبور النهر . وعندما مرّ الرماة كلهم ليشكلو جدارا أمام الخيالة ، مستعينين بدروعهم، وأبلى الاتراك بلاء حسنا، اذ أن فرسان محمد الشيخ لم يتمكّنوا من النيل منهم، وقطع النهر جميع الوحدات التابعة للقوات التركية، خلال عشية واحدة .

اتخذ صالح رايس معسكره بين النهر وجدول عميق يمر بالقرب من فاس، وقضى الليل يقظا وسط السلاح . وفي غداة الغد قسم محمد الشيخ جيشه الى ثلاثة أقسام ، فوضع ابنه عبد الله على رأس قسم وأمره بالتمركز على جانب الطريق الرئيسية، ببلدة دار الدباغ، وأمر القسم الثاني بالمرابطة في السهل، والقسم الثالث بالتمركز في منتصف الطريق التي كان بها موقع محصن يتوفّر على اثني عشر مدفعا .

لما شهد صالح رايس نظام جيش محمد الشيخ، قسم جيشه الى فرقتين، تتألف كل واحدة منهما من ستة آلاف جندي على وجه التقريب، أغلبيتهم مسلحون بالبندقيات أو السهام ، ثم جعل أبا حسون على رأس فرقة، وأمير دبدو على رأس الفرقة الاخرى، ليزحفا معا نحو بلدة صفرو، قصد اثارة انتباه العدو واستجلابه نحو صفرو لكي يجلو عن مواقعه ويترك طريق دار الدباغ مفتوحة .

ان السيطرة على دار الدباغ الواقعة على ربوة صغيرة، تفسح المجال نحو التقدم الى فاس عبر طريق وعر مُستوٍ لايُمكن لخيول العدو أن تركض فيه . وهكذا نجح مخطط صالح رايس، اذ بمجرد ما أوهم كل من أبي حسون وأمير دبدو أعدائهما بأنهما يتّجهان نحو صفرو، تقدم فرسان سوس، وعددهم ثمانية آلاف،

للدفاع عنه ، وذلك لأن خزائن المؤونة كانت فيه ، بينما توجه صالح رايس نحو دار الذباغ فأجلى عنها حرّاسها واستولى عليها . لكن الفرسان السوسيين أدركوا الخدعة وتراجعوا، فاشتبكوا مع القوات الخلفية لصالح رايس، وقتلوا من جنوده عددا كبيرا وغنموا ثلاثة مدافع . فاستعاد الاتراك هذه المدافع، ثم ضاعت منهم مرّة أخرى، وأخيرا استرجعوهـــا .

أمام هذه الأحداث، أعطى الشريف الاشارة ببداية القتال، لكنه لما رأى أن المرتزقة الاتراك لا يطلقون النار على جنود صالح رايس، وهم يقتربون منهم، أدرك أن هناك خدعة، فأمرهم بالتوقف ، كما أمر العلوج بالتقدم نحو الطليعة، غير أن فعالية هذا الاجراء أضحت بدون جدوى، لأن تغيير الخطة جاء بعد فوات الاوان، اذ أن قائد الحرس التركي أسقط لواء الشريف وأمر المرتزقة بالهجوم على العلوج، فقتلوا منهم الكثير، ودفعوا آخرين الى الفرار . عندئذ أمر صالح رايس المدفعية باطلاق النار عُلى آعدائه الذين كانوا يرابطون في الطريق، في حين أغار عليهم الاتراك الذين استولوا على الهضبة، وكبّدوهم خسائر فادحة ، وذلك ما دفع الشريف الى دعوة ما بقي من قواته الى التراجع، اتقاء هزيمة نكراء وقضاء مبرم على الجيش .

توجّه الشريف نحو فاس الجديد، على رأس عناصر الجيش التي أقبلت من سوس ومراكش، لأن العناصر الفاسية تخلّت عنه برمّتها ولجؤوا كلهم الى فاس البالي .

أما الاتراك، فانهم واصلوا زحفهم بانتظام نحو المدينة حتى بلغوا باب فتوح، وهناك رابطوا، واتصل بأبي حسون العديد من أصدقائه . أمر محمد الشيخ ابنه عبد الله بالتوجه الى فاس البالي مع الفرسان، ففعل ، ثم أخذ يقصف بمدفعين معسكر الاتراك من باب فتوح. اغتاظ صالح رايس وأرسل في طلب أبي حسون وعاتبه على ما وعد به، إذ تقدم له أن صرح لصالح رايس أن سكان فاس سيستسلمون بدون مقاومة، فطلب أبو حسون من صالح رايس أن يمده بخمسمائة من العساكر الاتراك (الانكشارية) الذين كسروا أبواب المدينة العتيقة، واقتحموها دون أن يعترض سبيلهم أي أحد من الأهالي .

استنتج عبد الله من ذلك أنه لايمكنه الثقة بأهل فاس البالي، فخرج مسرعا من أحد الابواب الخفية والتحق بفاس الجديد، مارّا بالمرس، وأطلع أباه على

ما حدث . في الحين، أمر الشريف أحد قواد الجيش، ويدعى علي بن أبي بكر، بأن يعبيً الجنود أمام أبواب فاس الجديد، وكأنه في حالة الدفاع عنها، بينما ينسحب هو ــ محمد الشيخ ــ بحاشيته . بعد ذلك، دخل الى قصره، ودعا كل واحدة من نساء حريمه أن تبحث لنفسها عن وسيلة للنجاة، إما على فرس أو على جمل، وتنطلق نحو مرّاكش . ثم امتطى فرسا، وخرج راكضا من الباب السري، وسيفه بيده .

خرجت النساء من القصر بدون حرس، مثنى مثنى على مطية، فوقع معظمهن في شباك أهالي ضواحي المدينة، وفرت الاخريات الباقيات، كل منهن حسب وسائلها. ووقعت على الأرض من مطيتهما اثنتان من بنات الشريف، فتوجهتا الى القصر وطلبتا من المسيحيين الذين كانوا فيه، أن يقوموا بحمايتهما الى أن يقدم صالح رايس أو أبو حسون، فقبلوا وأوصدوا الابواب .

قبل أن يبرح الشريف القصر، ترك أبواب خزائنه مفتوحة، فتناول منها حشمه وخدمه، كل حسب استطاعته، فأصبح بعض حاشيته أثرياء، وأعداؤه أصبحوا أكثر ثراء منهم، بحيث لم يبق من نفائس محمد الشيخ الا القليل . ولما تأكد علي بن أبي بكر أن الشريف في مأمن على حياته، فاوض الاتراك في خروجه بأسلحته وأمتعته وخيوله، فسمحوا له بذلك، وأهداه صالح رايس سيفا من الفضة، ثم غادر المدينة .

لما أمسى صالح رايس سيد المدينة، نصحه بعض مساعديه الأقربين الذين كانوا يضمرون العداء لابي حسون، ألا ينصّبه ملكا على البلاد، نظرا لتعاطفه مع النصارى وإعراضه عن الجهات الاسلامية، فأمر رايس بالقاء القبض عليه، ونصّب ملكا مولاي أبا بكر الوطاسي ابن الملك الراحل وولي عهده . فكان ردّ فعل السكان قاطبة أن تمرّدوا على الاتراك، فاضطر هؤلاء الى اطلاق سراحه، سعيا وراء إخماد الفتنة، ثم عرضوا أبا حسون على الجمهور خلف نوافذ الحصن، الا أن الناس ضاعفوا من هتافاتهم المعادية، غير قانعين برؤيته وراء الشبابيك، مطالبين بتسريحه [27م].

ولما تزايد غضب الجمهور، لم يجد الاتراك بدّا من اخلاء سبيله، وخرج أبو حسون من السجن، لكنه وعد حلفاءه الأتراك بأنه لن يتواني في الوفاء لهم وانه لن يلبث الا قليلا حتى يعود اليهم .

(27م) لا أثر لهذه الأحداث في المصادر المغربية ، ولعلها من نسيج خيال مارمول. (مترجم) .

دخل أبو حسون الى جامع القرويين، وأخذ يشتكي من معاملة الاتراك الذين حبسوه وأوشكوا أن يقطعوا رأسه، ورفض أن يعود الى القيادة التركية الا اذا رافقة أحد الضبّاط، فكان له ما شاء . وعندما مثل أمام صالح رايس، استقبله بحفاوة ثم نادى به ملكا، وقضى أن يدفع كل بيبت أوقية من الفضة غرامة على تمرد السكان ضد الاتراك .

لم يقلع صالح رايس عن الشعور بالحقد على أبي حسون، لكنه قبل أن يبرح المدينة، أعطى تعليماته الى مولاي أبي بكر لكي يتوجّه الى مراكش ويعرض على محمد الشيخ قبول التبادل بين بنات الشريف اللواتي بقين في فاس على اثر نكبة أبيهن، وبنات أبي حسون اللواتي تم تغريبهن الى ترودانت، ويطلعه أيضا بأن صالح رايس لا يمانع في عودة الشريف الى فاس لشنّ غارة عليها واسترداد العرش متى شاء، اذ أنه قرّر أن يكف عن امداد أبي حسون بأية مساعدة عسكرية.

استجمع صالح رايس بعد ذلك عرباته وقواته ورجع الى الجزائر التي وصل اليها بعد أربعين يوما من المشي، محملا بمغانم كثيرة، من بينها كنوز ملك فاس .

عندما جلس أبو حسون على اريكة العرش بفاس، قام حاكم بادس بتسليم هذا الموقع الى ابن الملك الجديد . فاغتاظ صالح رايس لهذا النبأ، وأوفد مبعوثا الى أبي حسون يطالبه بالحاح أن يسلّم بادس الى قائد اسطول تركي يتألف من خمس عشرة قطعة كانت حينئذ راسية في عرض بادس . لكن أبا حسون اعتذر عن عدم تلبية رغبة القائد التركي بدعوى أن الحاكم الجديد الذي تولّى السيادة على المدينة لا يرغب في التنازل عنها . أمام هذا الرفض أمر صالح رايس قائد الاسطول المرابط عرض شواطىء المغرب بأن يستولي على بادس مهما كان الثمن .

وفعلا، قام القائد البحري التركي بالتحايل على محمد بن ابي حسون، وأفلح في ابعاده عن مركز القيادة، ثم أكرهه على ارسال خاتمه الى خليفته يطلب منه أن يسلم بادس الى أحد القراصنة الاتراك، وهكذا نجحت المؤامرة وأصبحت بادس خاضعة للنفوذ التركي[28] .

أما محمد الشيخ، فانه كاتب ابنه الذي يتولّى السلطة بمكناس وأمره بالجلاء عن المكان والالتحاق فورا بمراكش . وعلى إثر ذلك، دخلت مكناس بدورها تحت سلطة أبي حسون .

---

(28) [illegible] الأتراك على بادس (مترجم)

في خضمّ هذه الاحداث، قام أحمد الاعرج بتحركات في منفاه بتفيلالت، اذ طفق يستنفر ويعبئ كل من يمكن تعبئته من الاشخاص، وأخذ يتنقّل بين القرى والمداشر في المنطقة، وراح الناس يستقبلونه بالحفاوة والتكريم، اينما حلّ وارتحل، ولم يكن من يقف هناك ضده ويمنعه من التحرك، اذ كانت المنطقة خالية من أية حامية .

ومعالجة لهذه الاوضاع، عمل محمد الشيخ على اعادة تنظيم الجيش، فجعل قواته شطرين، شطرا تحت قيادة ابنه عبد الله، وأمره بالزحف نحو فاس لقتال أبي حسون، وشطرا جعله من نصيبه وزحف به تجاه تفيلالت .

كان الجيش الذي انطلق نحو فاس، يتألف من آلاف الفرسان والجنود المحنكين من بين أجود قبائل عرب الرحامنة . ولما علم أبو حسون بالقوات التي تزحف نحو فاس، أمر ابنيه مولاي ناصر ومولاي محمد بالتصدّي لها .

كانت أم مولاي ناصر جارية ولم يعترف به أبوه بعد، بينما كان أخوه مولاي محمد من فراش شرعي . ولما اقترب الاخوان من صفوف قوات العدو، نصح بعض الضباط مولاي محمد أنه سيعمل عملا صالحا اذا انفصل عن أخيه، وتصدى وحده لعبد الله حتى ينفرد بشرف النصر، فاستجاب للنصيحة .

تسرّبت الى علم عبد الله تفاصيل الخطة، فنصب كمينا لمولاي محمد، فوقع فيه وانهزم . ولما رأى مولاي ناصر جنود أخيه مقبلين وهم يطلقون الأعنّة نحو السماء، خشي أن يكون الامر ناتجا عن خيانته، فولّى عائدا الى قاعدته .

تقّبل أبو حسون باستياء كبير الفشل الذريع الذي مني به ابناه، فراح يجمع الحشود من الجنود، وقادهم بنفسه لخوض القتال، فأمسى النصر حليفه، واضطرّ عبد الله الى العودة الى مراكش . ترتّب عن هذه المعركة اندحار كافة العناصر العربية القادمة من سوس والتي كان الشرفاء يعلّقون عليها آمالا كبيرة، خصوصا انهم كانوا يشكلون العمود الفقري العتيد للجيش الذي رابط ردحا من الزمان في تلمسان، بعدما فتحتها قوات محمد الشيخ .

أما في منطقة تفيلالت، فان محمد الشيخ قام بحصار شديد للموقع الذي تحصّن به أخوه أحمد وابناؤه . لكن لما بلغه تقهقر الجيش الذي زحف نحو فاس، اذاع في ربوع تفيلالت انباء معاكسة . كان لها أثر سيئ على معنوية أخيه وانصاره .

فما كان من أحمد الا أن دعا اليه ابنيه وأعرب لهما عن حزنه لما وصل اليه من سوء الحال، وأخبرهما بأن كل الآمال التي كان يعقدها على أبي حسون ذهبت أدراج الرياح، ثم دعاهما الى الارتماء على قدمي عمّهما واستعطافه عساه أن يغفر لهما زلتهما .

لبّى ولدا أحمد أمر أبيهما، واستأمنا الشريف، فأمنهما على نفسيهما، لكن محمد الشيخ تنكّر لذلك، اذ أنه خشي أن يكتشف ولدا أخيه حقيقة مصير جيش عبد الله، فيندما على ما صنعاه. وتلافيا لذلك، أمر حرّاسه بالقاء القبض عليهما بمجرّد ما يبرحان خباءه، ثم حكم على أخيه بالمُقام الاجباري باحدى الزوايا، وضم جيش أحمد الى جيشه، وقاد الكل الى فاس، فلما دنا من مشارفها أمر بقتل ابني أخيه زيدان وناصر، اتقاء كل تمرّد محتمل .

استنفر أبو حسون كل قواته، وعززها بعناصر عربية استقدمها من الاقاليم التي كان له نفود عليها، وخرج لقتال الشريف . كانت المعركة حامية الوطيس، سالت فيها الدماء أنهارا. وبالفعل، فان محمد، نجل أبي حسون، كان على رأس الفرسان الذين يشكلون الجناح الايمن لجيش أبيه، فتغلّب على الكتائب الاولى التي طلعت في الميدان وقتل عددا لا يحصى من جنودها . هذا من جهة ومن جهة أخرى ، كان محمد الشيخ يقود دائرة الحرب بنفسه ويخوض المعمعة بدون هوادة ، فتمكن من البطش بعدوه الذي فقد الكثير في ساحة الوغى ، بين جرحى وقتلى ، حتى إن مَن بقي من جيش عدوه أخذ يتراجع فارا من الميدان عائدا نحو المدينة. وأثناء العمليات الحربية التي استبسل فيها أبوحسون وابنه، أصيب أبوحسون بضربة أودت بحياته، فاكتملت الطامّة على جيشه، وجلا عن الميدان في فوضى لا مثيل لها، فشرع محمد الشيخ يطارد الفارين حتى بلغوا أبواب المدينة، ولاذ محمد نجل أبي حسون بالفرار طالبا الاحتماء وراء الجبال . ولما تمكّن من العودة الى المدينة، لقي من سكانها استقبالا باردا، اذ أعرض الناس عنه ونأوا بجانبهم فأدرك أنه فقد مكانته في نفوسهم،وتشاور مع أخيه الناصر، فاتفقا معا على اللجوء الى مكناس، ومن ثم رحلا الى سلا حيث أبحرا الى اسبانيا على متن سفينة تجارية أوربية، لكن قراصنة بريطانيين تعرضوا للسفينة التي كانت تقلهما، وسبوا جميع ركابها .

أما أبو بكر، فانه لم يقو على البقاء بعد الهزيمة النكراء التي مني بها جيش أبي حسون، وبعد مقتل هذا الأخير، فلاذ بالفرار الى تلسمان، ومنها رحل الى

مدينة الجزائر ، لكنه لم يلبث الا قليلا حتى كان من جملة الموتى الذين عبث بهم وباء الطاعون الذي اجتاح المنطقة .

دخل محمد الشيخ ثانية الى فاس، وهو يحمل لواء النصر، وفي ظرف وجيز، أصبحت له السلطة بدون منازع على جميع تراب المملكة، لكن باله لم يرتح لتمرّد أهالي جبال درن بالاطلس الكبير، فأراد أن يعالج الموضوع بالحكمة . لذا ترك نجله عبد الله بفاس، يسيّر دفة الحكم ، وقفل عائدا الى مراكش . وهناك عقد الصلح مع بربر درن، ثم استقدم من تفيلالت أخاه أحمد وبقية أبنائه، وزّج بهم جميعا في غيابات السجن . بعد ذلك، رحل الى ترودانت، وتزوّج احدى الحسناوات، اذ كانت عادته أن يتزوج مرّة كل سنة .

لما فرغ محمد الشيخ من غمرة أفراحه وحفلاته، حشد الحشود والّف جيشا عرمرما من الفرسان، ومن ألف ومائتين من المرتزقة الاتراك الذين كانوا يشكلون حرسه الخاص، ثم زحف نحو جنوب سوس .

وما أن بلغ الجيش الى موقع يسمى بأكلكال ، بين جبال الاطلس الكبير في الطريق المؤدية من مراكش الى ترودانت حتى أعلن الاتراك رفضهم لمواصلة السير، وامتدّت أيديهم الى الملك فاغتالوه . وبما أن هذا الحدث يكتسي أهمية كبرى ويسترعي الاهتمام، بات من الضروري أن أتعرّض اليه بالتدقيق .

كان يومئذ بالجزائر، ضابط كبير سفّاك للدماء، يدعى حفصي، وهو بالضبط حفصي باشا، أبوه هو المكنّى «بربروس» وقد عرض هذا الضابط خدمته على حاكم الجزائر، لكي ينفذ عملية اغتيال محمد الشيخ الذي يعده عدوا لدودا . استحسن الحاكم الاقتراح ووعد السفاك بمكافأة هامّة ان هو نفذ العملية بنجاح وعاد سالما، أما اذا اغتال الشريف ووقع عليه القبض وقتل، فان المكافأة ستسلم الى أهله وأنجاله .

وتسلم حفصي قسطا مسبّقا من المكافأة قبل أن يبرح الجزائر رفقة عشرين من المرتزقة الاتراك، ولما وصلوا الى المغرب وحلّوا بفاس ، أخذوا يوهمون الناس بأنهم فرّوا من بطش الحاكم الجزائري وطغيانه، وبعدما استمالوا القلوب وهوت اليهم الافئدة، عرضوا خدماتهم على الامير عبد الله، لكنه رفض قائلا بأنه في غنى عنهم ولاثقة له بالاتراك . ومع ذلك، فانه أمر لهم ببعض المساعدات وحملهم على الرحيل الى

مرّاكش للاتصال بأبيه .

استطاع حفصي دخول القصر بمراكش فأدانه الشريف منه وأكرم مثواه ثم عينه قائدا على حرسه . وفي رحلة المحلة نحو ترودانت، غضب الحرس بأكمله، وتمّرد على الشريف ورفض أن يواصل الطريق، لأن الشريف لم يؤد لهم رواتبهم منذ سنة نظرا لقيامهم بعمليات النهب التي كانوا يمارسونها بين الفينة والاخرى، ضد سكان الحواضر والبوادي .

رأى حفصي أنها المناسبة لتنفيد مشروعه، فعرض على بعض زملائه الاتراك أحد أمرين : اما اختطاف الشريف ونقله الى تلمسان عبر الصحراء، واما اغتياله، مع الاستيلاء على أمتعته وأمواله في كلتا الحالتين .

ونفذ العملية بأسهل ما كان يتوقعه ضباط من الحرس التركي. وذلك ما يحدث في تنفيذ المآمرات اذا أحكم المتآمرون خطّتهم . وفعلا، كان الشريف يوما جالسا داخل خبائه، فادعّى أفراد الجماعة التركية رغبتهم في الاستعراض أمامه، لذا، حملوا سيوفهم وركبوا خيولهم. وتقدم نحو الشريف قائدهم حفصي محفوفا بأربعة من رفاقه، لتحية الملك . ولما دنا حفصي منه وأخرج سيفه، اذا بأمين المال وعلج من أصل برتغالي، يصيحان وهما يدعوان الشريف الى الفرار حتى لايذهب ضحية الخيانة . نهض الشريف من مكانه وسعي الى الهروب، لكن رجليه ارتطمتا بحبل يشد الخيمة الى الأوتاد وهو مُوَلٍّ ظهره الى حفصي ، فوقع على بطنه ، وانقض عليه التركي بسيفه فنزل كالصاعقة على رجليه، فقطع احداهما، في حين تولّى الآخرون طعنه حتى لفظ أنفاسه . وهرول نحوهم بقية الاتراك، وفرّ أمين المال وكذلك الجنود العرب الذين كانوا حاضرين، ولم ينهض لمقاومة الخونة الا العلج الذي لقى مصرعه دفاعا عن سيده .

اجتمع الاتراك على اثر تنفيد عمليتهم الجريئة، وجهروا بوفاة الشريف، معترفين بأنه لقي على أيديهم مصيره المحتوم، لأنه كان طاغية . بعد ذلك قاموا بنهب خيام المحلّة وسطوا على كنوز القتيل وسبوا اثنتين من بناته . ثم أعلن حفصي لكافة عناصر العسكر، أنهم أحرار يمكنهم أن يذهبوا أين شاؤوا، لكنه عرض على الذين يرغبون في البقاء أن ينضموا الى حزبه، مقابل تسلّمهم ما كان لهم من حقوق مالية لم تصرف اليهم بعد .

شكّل حفصي قوّة من الاتراك وبعض العرب والعلوج الذين انضمّوا الى صفوفه، ودخل الى اقليم سوس، وأخذ ينتقل بين ربوعه بكل حرية، الى أن دخل الى مدينة ترودانت التي كان بها أحد أبناء الشريف، وقد غادرها مكرها، فاستولى حفصي على القصر وعلى ما كان فيه من كنوز .

كان يقطن بترودانت، في هذه الاثناء، يهودي أعلن اسلامه ، يدعى القاضي موسى ، وكانت مهمّته الاشراف على مصانع السكر التي أنشأها الشريف في الاقليم، وكان موسى وقتها في السجن، لعدم أداء ديونه . كان هذا الاسلامي داهية، فلما علم حفصي بامره أطلق سراحه وعينه قاضي القضاة في المدينة .

بعدما تولى موسى القاضي هذا المنصب، نصح حفصي بالاعتصام بالمدينة حتى تصل اليه النجدات من الجزائر . لكن حفصي لم يثق بنصائح موسى وظن أنه يريد بذلك أن يجعله في موقف حرج مع الشريف، في انتظار وحدات النجدة التي قد تأتي من فاس ومراكش، لذلك قرر ان ينسحب، لأنه نفّذ المهمة التي أقبل من أجلها الى المغرب.، ولأنه أصبح غنّيا. وبعد ما أقام في ترودانت عشرين يوما، برحها في اتجاه تلمسان، عبر الصحراء .

عندئذ، اتخذها اليهودي فرصة للتدليل عن إخلاصه للشريف، وأشعر ابنه عثمان برحيل بربروس، فاستنفر ابن الشريف القوات المتواجدة بالمنطقة، وحشد شيوخ القبائل العربية والبربرية، وحرضّهم على ملاحقة حفصي الذي قال عنه إنه فرّ بكنوز المملكة .

أخذت القوات التي شكلها ابن الشريف، تلاحق الاتراك وتطاردهم في ترحالهم، الى أن أبادتهم ولم يبق منهم الا خمسة وقعوا في الأسر . وبعد أن استرجع عثمان كنوز أبيه وحرّر أختيه، عاد الى ترودانت لتسيير دفة الحكم . الا أن حاكم مراكش، المسمى علي بن أبي بكر، خشي وقوع تمرّد بها وأن ينادي السكان المتهورون بأحمد ملكا على البلاد دون انتظار أمر الأمير الجديد، فأمر بقتل أحمد وأبنائه وأحفاده .

الغريب في هذه المذبحة التي ذهب الشرفاء ضحاياها، أن الاخوين، محمدا وأحمد، اللذين ظلا يتطاحنان بدون هوادة من أجل انفراد كل منهما بالحكم، لقيا حتفهما بالعنف . أما مولاي عبد الله الذي أخذ يسود البلاد طولا وعرضا، فانه كان ملكا وديعا بالمقارنة بهما .

ومن بين الضحايا الذين زهقت أرواحهم على يد حاكم مراكش، ولدان لمولاي زيدان، انجبتهما زوجته مريم بنت محمد الشيخ . وفي أعقاب الكارثة التي أفجعت مريم التحقت ببلاط أخيها بفاس وصدرها يغلي نقمة على حاكم مراكش . لذا راحت تبيت ما تبيت لخلق الظروف الملائمة للثأر . وتمكّنت من اشفاء غليلها بعد زمان، اذ نصبت فخًا لحاكم مراكش، فوقع فيه وقطع رأسه . لكن ما هي الظروف والملابسات التي أودت بحياة مولاي أبي بكر ؟

بعدما أصبح مولاي عبد الله ملكا على البلاد، استقدم الى فاس مولاي أبا بكر ورقاه الى مرتبة ضابط سامٍ وألحقه ببلاطه . كان يحظى أكثر من غيره برضى وعطف الملك، وذلك يرجع لانتمائه الى أشهر القبائل في اتقان فنون الحرب والاستماتة في القتال والولاء والوفاء للشرفاء ، وهي قبيلة زرقانة . من أجل ذلك رفعه مولاي عبد الله الى درجة ولي الدولة ، وهي الرتبة المقابلة لرتبة رئيس الوزراء في بلدان أخرى، أو رئيس الحكومة، ويدخل في اختصاصاته تعيين خلف للملك بعد وفاته .

كان للشريف ولد، وهو ولي العهد بالطبع، لكنه كان صبيا، وعملت مريم أن القوم لا يزكّون تنصيبه في محل أبيه، فأخبرت أخاها بما يتردد في الاوساط الشعبية، وطلبت منه استفتاء ولي الدولة في الموضوع، لانها كانت تعلم بأنه يميل الى راي الجمهور ويناصر أخا الملك .

مرض الملك ولازم الفراش وانقطع عن الناس، وأخذ مولاي أبو بكر يتردد كثيرا على البلاط ليتفقّد أحوال الملك، لكنه لم يظفر بالدخول عليه، فساوره الريب فيما حدث، وذهب به الظن الى أن الملك قد هلك، وألح على أخت الملك في أن تكشف له عن الحقيقة، لأن شؤون الدولة باتت معلقة، ولم تصدر أوامر لتسييرها وتنفيد ما يجب تنفيذه .

رأت الاميرة مريم أن الوقت حان لتوريط مولاي أبي بكر والانتقام منه، فأبلغت أخاها المريض ما يجري في رأس الوزير، ثم اسدلت غطاء أبيض عليه بعدما اتفقت معه على اختبار الوزير . بعد ذلك، دعت الوزير الى الدخول الى غرفة أخيها وقالت : «ان الملك قضى نحبه، ويجب أن تنادى بابنه خلفا له» . فأجاب مولاي أبو بكر «ولي العهد ما زال صبيا، وحالة الدولة تستلزم أن يتبوّأ

العرش رجل قوي راشد، وللملك أخ تتوفّر فيه هذه الشروط»، ثم برح الغرفة . عندئذ، نهض الملك من فراشه وارتمى على الارض لأن المرض أنهكه، ثم تناول عكازا واستعان به للوصول الى باب الغرفة بشيء من السرعة، وصاح قائلا لوزيره انه يشكره على اخلاصه وعلى نواياه الرامية الى تجريد ابنه من حقوقه المشروعة ، وتفويتها الى أخيه، ثم أكّد له بأنه لم يمت، وذكّره بأنه لازال قادرا على تحمل أعباء الملك .

أحس الوزير باضطراب كبير لدى سماعه ردّ فعل الملك، وأحس بالعي في لسانه فهرول نحو بيته خائفا . هناك تنكّر في زّي النساء وقصد زاوية خارج المدينة ليعتصم بها ريثما يأتيه أحد خدامه بحصان مجهّز للسفر الى أحد المواقع الشاطئية التي يحتلها النصارى، وبينما كان قابعا تحت شجرة زيتونة، اذا بقنّاصة راجعين من الصيد يرمقونه، فحسبوه امرأة، فدنوا منها وكشفوا عن وجهها، فاستغربوا أمر الشخص المقنّع وتعرّفوا على حقيقته بعد حين، فأرغموه على مرافقتهم، وسلّموه الى مولاي عبد الله الذي لم يلبث أن أنزل به عقوبة الاعدام . هكذا انتقم الشريف لأخته دون أن يأخذ بعين الاعتبار ما قدمه له مولاي أبو بكر من خدمات .

بعد مصرع الوزير بأيام، أمر الشريف بقتل محمد ابن أخيه الاكبر عبد القادر أمير مكناس، وذلك لأنه خشي أن يتوصّل الى العرش، خصوصا وأنه كان يحظى بعطف الناس وحبهم، نظرا لخصاله الحميدة . وتجدر الاشارة الى أن محمداً كان قد تزوج السيدة صوفية بنت أخت مولاي عبد الله . وهكذا صفا الجو للملك الذي عظمت شوكته، فأصبح أقوى وأعظم ملوك إفريقيا آنذاك، اذ أن حدود مملكته كانت تتاخم جنوبا بلاد السودان، وتطل شمالا على مضيق جبل طارق، وتحاذي تلمسان شرقا ، ويحدها المحيط الاطلسي غربا . وبذلك كانت المملكة السعدية تضم أربع عشرة ولاية، من مراكش الى فاس، علاوة على ولايات أخرى تقع في الصحراء الوسطى والكبرى . وفعلا، فقد كانت لها في الصحراء، تخوم تصل الى تداغوست، التي تبعد بمسافة ثمانية أيام عن آخر حدود السوس الاقصى، وتمتد الى الساقية الحمراء المجاورة لغينيا، وهي المناطق والامصار التي توجد فيها شعوب وقبائل ميالة الى الحروب ومحبة للقتال .

كان جيش مولاي عبد الله يضمّ وحدات يبلغ تعدادها ستين ألف نسمة، كلهم فرسان مستعدون للمجابهات المسلحة، يرابط منهم خمسة عشر ألفا بدرعة

وسوس، وخمسة وعشرون الفا بمراكش، وعشرون الفا بفاس، من بينهم خمسة آلاف يشكلون حرس الملك . الى جانب هذه الاعداد، كان يوجد في الجيش الفان من الرماة العلوج منضوون تحت لواء المشاة وخمسمائة من الفرسان، وكذلك ألف من الرماة المنتمين الى أهل سوس، وقد أنيطت بهؤلاء السوسيين مهمّة السهر على استتباب الأمن بفاس الجديد ، لأن الملك قد اختار أن يكون مُقامه فيه .

كان هؤلاء الجنود قاطبة يتقاضون رواتبهم بانتظام، سواء كانوا في حالة حرب أم في حالة سلم، وظلت أجورهم تدفع لهم دفعة واحدة، كلّ أربعة أشهر، مشفوعة بنصيب من القمح والشعير . كان الملك يستدعي الى جانبه شيوخ القبائل العربية وأعيان المدينة ورؤساء القبائل البربرية ليتشاور معهم قبل أن يتخذ أي قرار هام له مساس بمصير الدولة . ولم يكن من عادته أن يطيل البقاء بينهم ، إذ بمجرد ما ينفض الاجتماع يخلي سبيلهم .

تلكم كانت أخبار الشرفاء السعديين باختصار، وقد شملهم حديث واحد لأعطي القارئ نظرة عامّة عن الموضوع حتى يبرز في خطوطه الكبرى . أما الآن ، فإنّي أعود الى بقية الحديث عن تاريخ افرقيا .

* * *

عندما بدأت شوكة الشرفاء السعديين تشتدّ وتعظم في افرقيا، قام الكاردينال جيمنيس، أسقف طليطلة وحاكم مملكة قشتالة، عام 1509، بشن غارات متتالية وعنيفة على وهران، آلت الى احتلال المدينة من طرف النصارى، وسنعود الى هذا الموضوع بتفصيل، في الباب الخامس من كتابنا .

وفي عام 1510، تمكن دون بيدرو، حاكم مملكة نافار، من احتلال مدينة بجاية . وخلال مجرى هذه الاحداث، شكّل فرسان جزيرة رودس – وهم الذين يعدّون العمود الفقري للقوات المسيحية – اسطولا لمناهضة أهداف الخليفة التركي بايازيد وحليفه أبي ناصر، سلطان المماليك الذين كانوا يحكمون مصر، وقد تحالفا على محاربة النصارى، وفي اعتقادهما أن الصلح المبرم معهم انما هو لفترة مؤقته، يجوز نقضه عندما تكون الفرصة ملائمة لمهاجمتهم .

قلت : إن المسلمين (28) راحوا يبيتّون للسطو على رودس، وفي هذا الاطار، أوفد بايزيد ابنه قرقوط في مهمة لدى حاكم مصر، على رأس جيش مدجّج بالسلاح متوفّر على كميات هامّة من الذخائر والمؤن، تكفي لتجهيز مائة سفينه حربية، تعهّد أبو ناصر بابحارها . لكن مصر كانت تفتقر الى الخشب الصالح لبناء السفن، فذهب أبو ناصر يستورده من سوريا التي كانت فيها مساحات غابوية هامّة .

أخذ بايزيد، بعين الاعتبار، الهدنة التي ابرمها مع عاهل رودس، لذ أراد أن يجتنب اثارة تخوفاته عندما قرر أن يرسل تحت غطاء الكتان والتستّر خمس عشرة سفينة ، وزوارق، وألفا من الجنود التركيين والمماليك، بقياده قرقوط .

كانت الزوارق تحمل المنتجات القطنية والقلوع والحبال، بينما كانت المراكب الاخرى تحمل المعدات الصالحة لتجهيز السفن الحربية . توجّهت هذه الوحدات كلها الى ميناء حيفا . ورغم غطاء السرية التي أبى الاتراك الا أن يضعوه على هذه العملية، فان خبرها وصل الى علم حاكم رودس الذي كان رد فعله الغاء معاهدة الهدنة، بدعوى أن ما قام به الاتراك عمل عدائي لا محالة، فهاجم فجأة تلك السفن وهي راسية في ميناء حيفا، وتمكّن جنوده من الاستيلاء عليها بعد معركة حامية الوطيس .

لقي القائد البحرى المصري حتفه اثناء القتال، ولاذ قرقوط بالفرار داخل الاراضي الفلسطينية، ومني مشروع الاتراك بالفشل . استنكر السلطان أبو ناصر ما أقدم عليه عاهل رودس، وانفجر غضبه ضد النصارى المتواجدين يومئذ بمصر وسوريا، فزجّ بهم في غيابات السجون، وامتدّ غضبة أيضا الى الرهبان الذين يباشرون شؤون كنيسة القيامة، فأمر بسجنهم وهدّد بتدمير كنيستهم، الا أنه عدل عن تنفيد تهديده، اعتبارا للعلاقات الوديّة القائمة بينه وبين عاهل فرنسا، وتشفّع لديه قنصل فرنسا بالقاهرة، فيليب دوبارس، في النصاري، فاكتفى أبو ناصر بمنعهم من التجوّل، ثم تراجع عن قراره بعد أيام، وسمح لهم بالتنقل بكامل الحرية، وأفرج عن كافة المعتقلين المسيحيين، وكان ذلك عام 1511 .

خلال نفس السنة، علم سليم، الابن الثاني لبايزيد، أن والده يفكّر جديّا في التنازل عن الخلافة لابنه حكمت، فلم يتقبّل سليم نوايا أبيه بطيب خاطر،

(28) سماهم مارمول ــ كعادته ــ كفّارا

وراح يتدبّر الامر لابعاد أخيه عن الخلافة ، والتمس من أمير التتار مساندته فلقي التفهّم في رحابه وحصل على تأييده المطلق بعد ما تزوّج احدى بناته .

نشبت خلافات في البلاط التركي، وتحيّز الاكنشاريون لجانب سليم، فرجّحوا كفته ضد أخيه علانية، حتى إن البعض من الملاحظين في البلاد، مالوا الى الظن انهم كانوا وراء الأيدي الأثيمة التي امتدّت الى بايزيد، فدسّت اليه السم وصرعت ابنيه حكمت وقرقوط وأنجالهما .

ما أن تولى سليم الخلافة حتى أعلن عن رغبته في تمديد صلاحية معاهدة السلم التي سبق لأبيه ابرامها مع المجريين والبندقيين، لكنه شن هجوما على قوات الصفوي شاه اسماعيل وهزمها بسهول الجلدران بأرمينيا، ثم دخل منتصرا الى تبريز عاصمة البلاد ، غير أنه لم يقم بين جدرانها إلا مدّة قصيرة، اذ أرغمه اسماعيل على الجلاء عنها، فقصد مسرعا مدينة أوماسية، وقد تكبّدت قواته في سعيها إلى عبور نهر الفرات خسائر فادحة في الارواح والعتاد .

وفي السنة التي تلت هذه الاحداث، أعلن سليم لقومه أن جيشه منكب على الترتيبات لغزو أرمينيا من جديد، فاستنفر الناس وحشد الحشود . لكنه أمر الجيش باختراق حدود ولاية كابادوسا لمحاربة حاكمها الذي ضايقه سنة من قبل، عندما كان معرّجا على الممرّات الجبلية، وانتصر سليم وذبح الحاكم وبعث برأسه الى والي البندقية، ثم توجّه الى مصر لاشهار الحرب عليها، وانتصر سليم أيضا على أبي ناصر الذي لقي حتفه اثناء تقهقر جنوده . وجرت هذه المعركة عام 1516.

واصل سليم حروبه مدة عامين ضد المماليك في مصر وسوريا . واستولى على القاهرة والاسكندرية ودمشق، وأسر سلطان مصر الجديد، طومان باي فأمر بقتله شنقاً، ثم ذبح في يوم واحد كل الاسرى من المماليك الذين وقعوا تحت يديه، فصفت له بعد ذلك شؤون البلاد وأصبح سيدها المطلق، كما هو الشأن اليوم .

واذا ما رجعنا الى الحديث عن اسبانيا، نجد أن الامبراطور فيردناند الذي استكمل اعادتها الى نفود المسيحيين، وافاه الاجل في نفس السنة، بعدما قامت جيوشه بغزو مملكة نابولي، وخلفه على عرش مملكتي قشتالة وليون صهره فيليب، ابن الامبراطور ماكسيمليان الذي تولى الملك في المملكتين بعد وفاة الملكة ايزابيلا، اذ سلمه مقاليد الحكم عليهما صهره، لان حفيد هذا الاخير وولي عهده

كان وقتئذ ما يزال صبيّا . لهذه الاسباب، كان فيليب يساهم في تسيير دفّة الحكم، الى جانب الملكة جان أمّ ولى العهد، قبل أن يصبح امبراطورا على المانيا باسم جديد، وهو شارل الخامس .

وكان عام 1520 مشؤوما على الامبراطور سليم ، اذ لقي فيه حتفه على اثر عملية اغتيال ، وهكذا يكون الله قد أرسل من انتقم منه لأبيه بايزيد ؛ وقد ترددت بين جوانب العالم ، قبل وفاته ، أصداء غزواته وحروبه . وتولى الخلافة بعده ابنه سليمان ، يوم 23 من شهر دجنبر . وتوفي كذلك في نفس السنة دون مانويل حاكم البرتغال ، وخلفه ابنه دون خوان الذي أمر قوات الاحتلال التابعة له بالجلاء عن مواقعها بأسفي وأصيلا والقصر الصغير .

وفي نفس السنة ، اجتاحت جنود سليمان أراضي المجر ، واحتلت بلغراد ، ونهبت العديد من القرى والمدن ، وعاد سليمان مظفرا الى استنبول . وبعد ذلك بسنة، ولم يمر على هذا الغزو عام ، حتى أرسل الخليفة العثماني في شهر يونيو أسطولا يتألف من أربعمائة مركب لمهاجمة جزيرة رودس، فلقي البحارون الاتراك، مقاومة عنيفة من لدن فرسان الجزيرة ، الا أنهم استطاعوا أن ينتصروا عليهم ودخلوا تراب الجزيرة يوم الاحتفال بذكرى ميلاد المسيح ، واضطر الفرسان الى الهجرة ، قاصدين جزيرة صقلية التي استوطنوها مؤقتا الى أن وضع الامبراطور كارلوس الخامس ، تحت تصرفهم ، جزيرة مالطة للاقامة بها نهائيا .

وفي عام 1526 ، دعا الملك لويس ، حاكم المجر ، الى حشد أكثر ما يمكن من الجنود لصد الاتراك الذين اجتازوا حدود بلاده ، ونشبت معركة بين الجانبين ، انهزم خلالها حاكم المجر، ومات غرقا في احدى البحيرات أثناء فراره ، كما غرق معه عدد كبير من أفراد حاشيته ، فدخل سليمان مظفرا الى مدينة بودا ، والحق بها وبسكانها خسائر فادحة ، وأمر باحراق المكتبة القيمة التي كان يملكها ماتياس كوربان ، كما ألحق أضرارا جسيمة بربوع البلاد .

زد على هذا أن وفاة عاهل البلاد ، تسبّب للمجر في متاعب جمّة وفي خسائر كانت أكثر جسامة مما ترتّب مباشرة عن الغزو التركي ، ذلك أن مشكلة خلافة العاهل الراحل طغت على جميع المشاكل ، وأدّت الى اشتباكات عنيفة بين أنصار فردناند ، شقيق شارل الخامس ، وأنصار خوان سيبوص الذي بات يحظى

بتأييد البابا . ودامت المعركة بين الجانبين أمدا طويلا .

لكن في عام 1529 ، قام سليمان مرّة أخرى باجتياز حدود المجر ، واستولى على حصون بودا بعد اجراء مفاوضات مع أهلها ، ثم شرع يمارس أعمال التخريب والنهب عبر البلاد ، وشن سلسلة من الغارات على فيينا ، وأقام حولها حصارا استغرق اثنين وعشرين يوما ، وانطلقت بعض عناصر قواته تبطش بالأهالي في مختلف جهات البلاد ، وتسبي منهم الكثير . غير أن سكان فيينا لم يستسلموا للاتراك ، ولو أن أسوار المدينة لم تكن عالية جدا ، فاضطرّ سليمان الى رفع الحصار عنها ، ورجع الى بلاده ، بعدما رجّح كفّة خوان سيبوص وساعده على اعتلاء كرسي الملك في بودا.

فقد سليمان في هذه العمليات ، أكثر من ثمانين ألف جندي منهم من لقوا حتفهم في الوغى ، ومنهم من مات جوعا ، وآخرون ماتوا من شدّة البرد ، وفقدت الوحدات الاسبانية العديد من رجالها وعلى رأسهم لويس دافلوس قائدهم الذي لقي مصرعه بعدما اخترق سيف أحد الأتراك جسده ، ودفن في مقبرة الأمراء باحدى الكنائس.

استأنف سليمان الحرب ضد المجر ، فتميز غزوه الثالث لها بالغارات المتتالية العديدة التي شنّها على موقع غونفي المحصن ، بقوات تتألف من مائتي ألف جندي ، وقد صمد نيكولا جيريس ، قائد الموقع ، في وجه الهجمات التركية ، بطريقة تثير الاعجاب ، الا أنه اضطر الى الاستسلام في النهاية ، ولكن بشروط.

لم يرض كارلوس الخامس بهزيمة أخيه ، فعبّأ جيشا من الاسبان والالمان والطاليان ودخل بهم الى المجر ، وكان عددهم تسعين ألفا من المشاة ، وثلاثين ألفا من الفرسان المجريين ، غير أن سليمان عدل عن مجابهتهم ، وولّى عائدا الى استنبول ، بمغانم كثيرة وأسرى عديدين ، معرجاً على المناطق الجبلية الواقعة بولاية بافاريا.

وفي عام 1534 قام سليمان بتحرّشات ضد جان زابوليا ، أمير ترانسيلفانيا ، ودفع بلويس غريت ابن حاكم البندقية الى شن حرب عليه . وفعلا تحرّك لويس غريت يقاتل قوات ترانسيلفانيا ، ودخل الى مدينة مدفيز منتصرا ،

غير قريب من قواعده . لكن جان زابوليا اغتنم هذه الظروف وشن هجوما مضادا على عدوه ، فاستطاع أن يلحق بجنوده هزيمة نكراء ، وقبض على البندقي وأبنائه ، فقتلهم أمام أبيهم ، ثم أمر بذبحه.

وفي نفس السنة ، تلقى سليمان طلبا من خير الدين بروبروس ، يحثه فيه على ارسال الامدادات العسكرية الى الرّشيد ، أحد اخوة ملك تونس ، والذي اضطر الى الهجرة الى استانبول ، فاستجاب له سليمان ، وأرسل وحدات بحرية لقصف مدينة تونس واعادة الرشيد الى عرش البلاد ، وتمكن خير الدين بذلك من الاستلاء على المدينة ، بالتعامل مع بعض الخونة ، وأقصى عن العرش الرشيد ومحمد بن أبي حفص.

التمس أهل تونس العون من كارلوس الخامس ، فهبّ لنجدتهم ، ودخل تونس بمعية الملك المخلوع ، بعدما استولى عليها وأقصى عنها وعن شواطئها عساكر خير الدين ، وسلم مقاليد الحكم فيها الى محمد بن أبي حفص ، ووضع تحت تصرفه حامية اسبانية ترابط بحلق الواد . ولنا عودة الى هذا الموضوع في فصل آخر.

كان ترويل أحد الامراء الايطاليين يتعامل مع الخليفة التركي ويؤيد مطامحه فدعاه الى غزو ايطاليا . لذا ، أعد سليمان جيشا بحريا يتألف من مائة وخمسين مركبا كبيرا ، وثمانين سفينة متوسطة ، وستين زورقا ، ووضعه تحت قيادة كل من خير الدين بروبروس ولوسرين باي . واعتقد الناس جميعا أن الوحدات البحرية قصدت انجر . .

رابط المشاة ، وعددهم يتجاوز مائتي ألف ، على مقربة من منطقة فالونيا ، المواجهة لسواحل مقدونيا ، وعندما مرّ البحارة الآخرون ببحر الأيوني ، نهبوا جزيرتي زانتة ، وسيفالونيا ، ولما دخلوا ميناء كورفو ، رحّبت بهم القوات البندقية ، اعتبارا للسلم القائم بين الطرفين .

أثارت تحرّكات الاسطول التركي تخوّفات الامبراطور كارلوس الخامس ، فعهد الى اندري دوري قائد أسطوله بتفقد أحوال اعدائه الاتراك ، فتوجّه اندري دوري الى مياه البحر الايوني ، بأسطول يتألف من خمسة وعشرين مركبا ، ومن ثم انتقل الى جزيرة زانتة ، وجزيرة سيفالونيا ، ليرى هل يستطيع أن يهاجم بعض السفن التركية التي ربما تكون بعيدة ومنفصلة عن بقية اسطولها . وبالفعل ، فانه

صادف ثلاث عشرة سفينة كبيرة محملة بالمؤونة والذخائر ، بعيدة عن الاسطول التركي ، في طريقها الى فالونيا ، فاستولى عليها ، وبعدما غنم القسط الاكبر من حمولتها ، أحرقها . وبما أن البحر كان غاصاً بسفن الاتراك ، وجب على أندري أن يسرع حتى لا يقع في اصطدام معها . وعلم من الاتراك الذين أسرهم ، أن الجيش ينتظر وصول اثنتي عشرة سفينة ، على متنها جنود أتراك ولفيف من الجزائريين ، فقرر أن يطاردها ، لكنه صادف سفينتين تركيتين فارغتين أمرهما القائد البندقي بالارساء بأحد الموانىء ، لأن ربانيهما تخلّفا عن تحياته ، ثم عاد الى كورفو.

هنالك علم أن اثنتي عشرة سفينة توجد في طريقها نحو فالونيا ، وعرف أيضا متى غادرت قاعدتها ، والطريق التي تمخر فيها عباب البحر ، فمر برأس كورفو ، وما ان اكتشفها بجزر مرلاية ، حتى رفع على أعمدة سفنه لواء القديس مارك ليغالطها ، فاتجهت نحوه مطمئنة ، ظانة أنها ستلتقي بالأصدقاء . رأى رئيس كل سفينة تركية انه من الواجب المبادرة بالتحية بواسطة الطلقات المدفعية ، حسب العرف الجاري به العمل في مثل هذه المناسبات ، لذا أبعد الرؤساء القذائف الحربية عن المدافع وعوّضوها بما يصلح للتحية ، وهكذا حيوا جميعا ما ظنّوا أنه اسطول القديس مارك . لكن اندوري فاجأهم عندما ردّ على التحية بقصف مدافع بوراجه . عندما اكتشف الاتراك الخدعة التي ذهبوا ضحيتها ، راحوا ينظمون دفاعهم وهم في بلبلة من الأمر ، ودارت بينهم وبين الاسطول المعادي معركة ضارية ، قتل خلالها جميع الجنود الاتراك واللفيف الجزائري ، كما قتل أربعمائة من النصارى وجلهم من الاسبان ، وعاد على اثرها اندري دوري الى ميناء ميسين ، يجرّ السفن التي غنمها.

كانت هذه المعركة سببا لقطع العلاقات بين الباب العالي ومملكة البندقية لأن الخليفة العثماني ظن أنها لم تقع دون علم العاهل البندقي ، غير أن أغلبية وحدات الجيش التركي الذي كان يرابط في فالونيا ، انتقلت الى ايطاليا ، بعشرة آلاف من المشاة وألفين من الفرسان ، واستولت على قصر كاسترو الواقع على بعد فرسخين ونصف من مدينة أوترانتة ، وألحق عناصرها اضرارا بليغة بمنشآت توجد على الشواطىء . لكن حاكم المنطقة ردّهم عن أعقابهم بعد مقاومة عنيفة ، وقتل منهم عددا كبيرا ، ثم استرجع القصر .

بلغت هذه الاخبار الى سليمان ، فأمر بالرحيل عن فالونيا للقتال مع البندقيين ، ثم استدعى باربروس الذي كان آنذاك بشواطىء بريا ، وأمره بالتوجه الى كورفو.

أما قائد القوات البندقيه ، فانه رأى من الضروري استدعاء بعض جنود بحريته لتعزيز الدفاع عن قصري الجزيرة ، ثم التحق بباقي القوات البحرية التي كانت متواجدة بخليج البندقية .

تبيّن للاتراك ، أنهم لن يستطيعوا الاستيلاء على كورفو ، فرفعوا عنها الحصار ، وقد استغرق عشرة أيام ، ثم انسحبوا ، لكنهم تركوا ضواحي مواقعها طعمة للنار ، واتلفوا منشآت بواديهاوأسروا ستة عشر ألفا من سكان المنطقة ، قتل سليمان معظمهم . وفي طريق العودة الى استنبول ، مرّت القوات البحرية بجزيرتي زانتة وسيتيرا ، ونهبت ما فيهما، ودمّرت مدينة ايزين عن كاملها ، واستولت على باري وناكسة .

في هذه الاثناء ، تم الربط بين عناصر القوات البندقية ، فدخلت الى خليج دالماتيا واستولت عنوة على مدينة اسكاردون ودمّرتها تدميرا حتى لا يقع منها شيء في أيدي الاتراك . بعد ذلك ، قامت البندقية بنشاط واسع ، هذفت من ورائه الى تشكيل جبهة مؤلفة من الملوك المسيحيين أعلن عن ميلادها بروما في اليوم الثامن من شهر فبراير 1538 . ساهم البابا في قوات التكتّل المسيحي بستّ وثلاثين بارجة، وامبراطور اسبانيا باثنتين وثمانين بارجة ، والبندقيون بمثلها ، وذلك ما يجعل عدد البوارج مائتين . وتم تعيين بطريق أكيليا قائد للقوات التابعة للبابا ، واندري دوري قائدا للقوات الاسبانية ، وفانسا كابيل قائدا للقوات البندقية ، مع جعل هذه القوات كلها تحت الرآسة العليا لفردناند غونزاغي ، خليفة ملك صقلّية في حالة ما اذا نزلت هذه القوات بالبرّ.

لما علم سليمان بميلاد التحالف المسيحي ضده وتشكيل قوات لمحاربته ، أمر بابروس باستعجال قواته ، ومغادرة خليج جليبولي ، لاصابة البندقيين بأكثر ما يمكن من الدّمار والخراب .

قام خير الدين باربروس بشن غارة على موقع كاينة بجزيرة كانديا ، لكنه لم يتمكن من الاستيلاء عليه رغم حصار طويل ، ورفع الحصار مسرعا بعدما فقد

العديد من الجنود منهم من لقوا مصرعهم ، ومنهم ألف أسروا ، فذبحهم آهل كانديا

ثم مر بموقع سودة في خليج أمفيمالينا ، ولم يستطع أن يقوم هناك بأي عمل ، فرحل الى بلد ريتينيو ، الا أن الأهالي منعوه من النزول بأراضيهم اذ أخذوا يقصفونه ، فأرغموه على مغادرة الشواطىء .

وعندما أصبحت جيوش التكتل المسيحي على أتم الاستعداد ، والقوات البندقية مرابطة أمام جزيرة كورفو ، أبحر كل من أندري دوري وفرناند غونزاغي من ميناء ميسين على رأس القوات البحرية الامبراطورية المتألفة من قدماء الجنود الاسبان ، ومن فيالق نابولي وصقلية وولاية لومباردية .

لم يستطع باربوس مهاجمة القوات المسيحية ، فدخل الى خليج لارثة ، وشيّدت وحداته ، موقعين محصنين عند مصبّه ، ونصب فيهما مدافع كثيرة . وشيّد قائد الوحدات البحرية البابوية ، الجنرال غريمانس ، هو أيضا موقع لبريقيس الذي لا يبعد عن تحصينات خليج لارثة ، ونزل به ، غير أن الاتراك أسرعوا وأغاروا على الوحدات البابوية ، وقتلوا وجرحوا منها العديد ، ولاذ الباقي منهم بالفرار على متن بوارجهم ، ثم التحقوا بحلفائهم ودخلوا جميعا الى ميناء فونتي ريغلو ، ومنه توجهوا الى خليج ليبارنتة ، مصممين العزم على محاربة باربروس اذا ما تجرأ على الخروج من تحصيناته ، لانه كان يتوفّر على مائتي سفينة حربية شراعية .

لما علم باربروس بأن قوات التكتل المسيحي تتجه نحو جزيرة سانت مور ، غادر الخليج بقوات تتألف من سبع وثمانين سفينة ، وثلاثين بارجة وزوارق صغيرة ، اذ أن مجموع الوحدات كان يقدّر بمائة وستين ، واختار مكان المعركة حيث تكون وحداته في مأمن من قصف مدافع التكتل المسيحي . الا أن اندري دوري لم يبتعد عن قواعده ، وسعى الى جلب باربروس اليه ، فلم ينخدع القائد التركي . وأمام هذا الموقف ، رأى أندري دوري أن يحمل المشاة الاسبان على متن السفن البندقية ، وأن يتجه بهم لمحاربة باربروس . لكن قائد الجنود الاسبان رفض هذا المخطط ، بدعوى أنه لم يتلق الأوامر بتنفيذه ، وان السفن الاخرى غاصة بجنود البحرية الكفيلة بمواجهة الاتراك ، واشترط أن تؤمّن له النجدات قوات خلفية ، اذا ما اتفق الجميع على خوض المعركة ، وهو يأمل أن يتحقق النصر .

ترتّب عن هذا الموقف تباين في الرأي وخلافات جمّة بين كبار ضباط التحالف المسيحي ، لذا ، أعلن اندري دوري عن عزمه على خوض المعركة ولو

بمفرده فأمر الوحدات التابعة له بالاقلاع نحو كورفو ، وبعد شيء من التردد تبعته بقية الوحدات المسيحية في غير نظام ولا خطة موحّدة .

تصدى الاتراك للسفن المسيحية ، وبالأخص التي كانت في المقدمة تحت قيادة أندري دوري ، لكنهم فقدوا كثيرا من جنودهم ، لأن الاسبان تفوّقوا عليهم في القتال الذي استبسل فيه خاصة جنود سفينتين كان يقودهما ضباط اسبانيون محنّكون ، وفقدت القوات المسيحية في هذه المعركة ثلاث بوارج كبيرة أغرقت ، كان على متن احداها الضابط المشهور لويس دوفيغيروي وفريقه ، وسفينتين كانتا مشحونتين بالمؤن والذخائر ، فضلا عن سفينتين تابعتين للأسطول البندقي ، ولم يستطع المسيحيون الصمود أمام الأتراك ، وراح باربروس يطاردهم ولم تنج بقية وحداتهم الا بفضل الظلام الذي جعلها تحتجب عن الابصار ، فقرّر بربروس أن يرابط بسفنه في شواطيء جزيرة صغيرة تقع على بعد ثلاثة فراسخ من جزيرة كورفو شرقا ، مترصّدا للنصارى .

كان المسيحيون يؤمنون بضرورة القتال ضد الاتراك ، لكن عدم الثقة فيما بينهم ، جعلهم يتماطلون في اتخاذ موقف موحّد ونهج خطة واحدة ، ذلك ما حمل خير الدين بربروس على الاعتقاد بأن النصارى عاجزون عن مجابهته ، فولّى راجعا الى خليج لارثة ، وتوجّهت بعده قوات النصارى الى خليج كتار ، حيث أغارت على موقع كستلنوفا الذي كان مواليا للأتراك ، وتعاقبت الغارات عليه حتى استسلم بعد ثلاثة أيام من القتال .

عاد أندري دوري الى ايطاليا بعد النصر الذي حققه المسيحيون ، خصوصا أن فصل الشتاء كان على الأبواب ، وترك في الموقع حامية اسبانية يترأسها فرنسيسكو سارميانتو ، رغم ارادة الجنود البندقيين الذين ودّوا أن يتسلموا مقاليد الموقع .

أدرك البندقيون بعد ذلك أنه لا ترجى أية فائدة من وراء التحالف المسيحي ، فنقضوا عهدهم ، وجدّدوا ميثاقهم مع الاتراك ، عام 1539 ، مقابل التنازل لهم عن موقعين في حدودهم مع مقدونيا ، وحصنين من دلمسيا ، وثلاثة آلف سوكين (28)

(28م) السوكين : وحدة نقدية (مترجم) .

وفي عام 1540 ، قام باربروس بتعزيز قواته البحرية ، اذ استنفر وحدات جديدة من المدفعية والسفن الحربية وسفن شحن الذخائر والمؤن ، ثم شن غارة على موقع كستلنوفا ، فاسترجعه بعد قتال عنيف ، لكنه فقد في المعركة كثيرا من جنوده ، وقتل فرانسيسكو سارميانتو حاكم الموقع وعدد كبير من جنود الحامية . وبعد هذه الكارثة وجّه المسيحيون اللوم الى البندقيين الذين لم يعربوا بجد عن تأسفهم لفقدان الموقع ، ويفسر موقفهم ببعد الامبراطور الاسباني عن بلدهم .

غادرت ميناء الجزائر ، في نفس السنة ، خلال شهر شتنبر ، قوات بحرية تتألف من ست عشرة بارجة ، تحمل ألفا وستمائة جندي ، تحت قيادة الشاب قارة مامي والقرصان الهرم علي أحمد ، قصد مهاجمة السفن الاسبانية ، حسب ما رواه أسرى المعركة . لكن القوات التركية لم تعثر على السفن الاسبانية في شواطيء جزر مايورقة ، وقررت اجتياز مضيق جبل طارق والغارة على بعض المواقع الاسبانية

واتفق أن فرّ بعض السجناء الاتراك من سجنهم بقرطجنة ، على متن سفينة ، وبما أنهم كانوا يعرفون جيّدا الشواطيء الاسبانية ، وقد ذهبوا مرارا الى جبل طارق ، قالوا لقارة مامي أنه إذا وصل الى الجبل عند الفجر ، من جهة كنيسة نوتردام أوربّا ، يمكنه بسهولة الاستيلاء على المدينة اذ أن لها ثغرة من هذه الجهة ، والناس يكونون في الصباح منشغلين بجني العنب .

أعجب قارة بالمعلومات واستحسن الرأي ، فأمر بانزال الجنود في ثغرة المدينة، ورأى حارس البرج الواقع بالمدينة الذي كان يكنّي بالتركي، الجنود وهم ينزلون الى البرّ، سأل عن هويتهم، فأجابه أحد الاسلاميين بأن السفن تحمل قوات اسبانية، ومع ذلك شك في أمرهم لما رآهم يسرعون في الانزال وتبين له أنهم أعداء، فراح ينذر الناس في كل مكان ، لكن لم يحفل به أحد ، ولو أن الناس أخذوا يطلون من النوافذ ، واعتبروه سكران . وعلى ضوء لامبالاتهم ، أنزل العدو تسعمائة رجل توجه منهم خمسمائة نحو القلعة بالجبل ليحولوا دون فرار السكان ، أما الباقون فانهم دخلوا المدينة وتوغلوا فيها الى أن وصلوا دير الشراطين وهم ينهبون ما يجدون .

اضطرب القوم اضطرابا كبيرا عندما شاهدوا الاتراك في الأزقة ، وبينما كانت النساء مع أطفالهن يهرولن نحو القلعة ، كانت طوائف أخرى من السكان

تعلن تأييدها للاتراك ، فاستردّوا بذلك بعض أمتعتهم ، ولو أنه قتل وجرح الكثير منهم .

أسر الاتراك العديد من الأشخاص الذين كانوا موجودين بالأزقة المؤدية الى القلعة ، ولولا مهارة أحد الرماة الاسبان الذي كان محصنا بالبرج ، لكانت الحالة أسوأ ، اذ أنه راح يسدد سهامه نحو الأتراك ، فأصابت حامل لوائهم وذلك ما حملهم على التراجع والانسحاب من الباب الذي تجمعت النساء أمامه دون أن يستطيعوا الاحتماء وراء أسوار القلعة ، لأن حاكم الموقع أغلق الباب حتى لا يتسرب منه الأتراك مع جملة الفارّين من السكان .

الى جانب ذلك ، هرع سكان البادية الى نجدة إخوانهم بعدما طرق مسامعهم اعلان الخطر ، فانقضوا على الاتراك بكل شجاعة ، وأرغموهم على إخلاء المكان ، فانسحبوا بانتظام بأسراهم ومغانمهم ، وأضرموا النار في بعض المنازل .

بعدما أبحر الأتراك ، بدؤوا يتنقلون على طول الشواطيء ، وينزلون في بعض الأمكنة منها ، فينهبونها بكامل الحرية ، لأن أهلها انصرفوا لتعزيز صفوف أهل المدينة ، لكن فرسان شيريزا اعترضوا سبيلهم ، ونشب بين الجانبين اشتباك عنيف ، فقد خلاله الأتراك عددا من القتلى ، واضطر الباقي منهم الى الجلاء .

كانت يومئذ ترسو بميناء جبل طارق سفينة حربية بدون أجهزة الحرب ، وهمّ الاتراك بالاستلاء عليها ، فبعثوا بحارين على متن زورقين لجرها نحوهم ، لكن البحارة أثناء العملية دنوا جدا من الاسوار ، ابتغاء الاحتماء من قصف مدفعية القلعة ، فاحترقت السفينة وغرقت . بعد ذلك ، رحلوا الى المغرب قاصدين تطوان حيث باعوا في أسواقها غنائمهم وسباياهم ، ثم توجهوا الى بادس ، لتطهير سفنهم .

تناهى في تلك الاثناء الى علم دون لويس هوتادو ، حاكم غرناطة ، خبر محاولة غزو الاتراك جبل طارق ، فاستنفر القوات الموجودة في المدينة وفي القلعة ، وأسرع لنجدة جبل طارق ، لكن لما بلغ بلدة عنتقيرة ، علم أنهم برحوا الجبل ، فاتجه نحو مالقة ، ومن هناك أوفد رسولا الى أخيه برندان المندوسي قائد البحرية الاسبانية ليطلعه على ما حدث .

على اثر ذلك ، توجه برندان المندوسي نحو قرطاجنة ، ودخل ميناءها بالمجاذيف ،وشحن السفن بالمؤن والذخائر ، وأضاف الى أسطوله سفينتين أخريين كانتا راسيتين ، وأبحر نحو الشواطئ المغربية ، فتنقل طولها الى أن وصل الى مصب نهر المنصور(؟) وهو يتسقط أخبار أعدائه ، لكنه لم يعثر على أثر ، فاعتقد انهم التحقوا بمدينة الجزائر ، معتبرا أن ذلك ضروري لهم . لذا مر أسطول برندان المندوسي بميناء الغزوات ، ومكث فيه حينا من الوقت ، فلم يعلم شيئا عن الاتراك ، وغادر الميناء ثم دخل وهران ذات يوم جمعة ، ولم يستطع أن يفعل أكثر مما طلبه منه أخوه . وفي عشية نفس اليوم ، غادر وهران مارا بشواطئ المغرب في طريقه نحو جبل طارق ، ووصل الى رأس بين الفلك ، ومن ثم أرسل رسولا الى مليلية لاستيقاء الاخبار .

علم قائد البحرية الاسبانية أين يوجد الاتراك وقتئذ ، ولم يشك في أنه يتحتم عليهم اذا ارادوا الرجوع الى قواعدهم أن يمروا بالطريق التي سلكها هو عندما توجه الى الجزائر . لذا ، هيأ السفن ، وشحن في كل واحدة بما تستطيع حمله من الاحجار التي أخذها من جدول قريب ليتولى أمرها في المعركة المسيحيون المحكوم عليهم بعقوبة التجذيف . ثم نصب حارسين في رأس بين الفلك ، بينما تستر الاسطول خلف الرأس وبعث بعض رجاله الى البر ليتعلموا لغة أهل البلد ، بعد ذلك ، علم من مواطن مغربي اختطفه أن الاتراك يرابطون في بادس حيث انكبوا على اصلاح سفنهم ، فصدقه وأطلق سراحه ، ثم أعطاه ثلاث أوقيات من الزمرد ، وثمان قطع من الذهب ، وطلب منه أن يتجسس على الاتراك ليأتيه بخبرهم في ظرف ثلاثة أيام ووعده بمكافأة أهم ، فقبل الرجل العرض .

لم ينتظر قائد الاسطول أن يعود اليه جاسوسه ، بل انساق وراء نصيحة أحد مساعديه ، فأبحر نحو جزيرة عربلان التي تشرف على اسبانيا والمغرب ، وقضى بها ليلة الخميس .

باتت كلاب البحر تزمجر طوال الليل ، فتطير بعض الجنود منها ولو أن الأمر عاد ولاخوف منه ، لان المنطقة تعج بتلك الاسماك . وما أن طلعت الشمس حتى أقلع برندان المندوسي ، وما هي الا لحظات حتى اشعره أحد البحارة الذي كان يترقب السفن من المرصد ، أن الاتراك يوجدون على مسافة ثلاثة فراسخ من الجزيرة

وبالفعل ، فان قارة مامي كان قد برح أمس ذلك اليوم ، موقع بادس ، بغية شن غارة على ادّرة ، قصد نهبها ، لكن البحر كان هائجا ، فحول اتجاهه نحو الجزيرة المذكورة . ولما أشرف عليها رأى أمامها عشر سفن بدأت تمخر عباب البحر ، غير أن القائد الاسباني أمرها حينا بالرجوع الى الجزيرة .

عندئذ ، استدعى قارة مامي علي أحمد والرؤساء الاخرين للتشاور ، فنصحه معظمهم بالعدول عن المغامرة نظرا لعدم تكافؤ القوى . لكن علي أحمد كان على رأي مخالف ، اذ ظن الا وجود لسفن حربية أخرى غير العشر التي عثروا عليها ، والتي ظنها أدبرت خوفا من الاشتباك مع الاتراك ، وأكد بأنه لاينبغي لهم أن يتركوا الفرصة تضيع لتحقيق النصر المؤكد ، ثم أعاد الى ذاكرتهم حادثة بورتاندة وما ترتب عنها من مجد لبربروس ، وأضاف بأنه مستعد لمحاربة الاسبان بأربع سفن فقط ، اذا ما تخلف الآخرون عن القتال ، وأنه لن يندم أبدا على ما سيقدم عليه . أمام هذا التعنت ، لم يجد قارة مناصا من اللجوء الى الأزلام جريا على عادة القراصنة الاتراك قبل الشروع في أية مغامرة ، وكانت الازلام ايجابية ثلاث مرات متتالية ، الامر الذي أثار التفاؤل في نفوس جميع القراصنة .

بعدما حصل الاتفاق على المعركة ، قام القادة يدعون ربهم ويصلون ، جريا على عادتهم قبل البدء في القتال ، ثم نظموا سفنهم على شكل هلال تتوسطه سفينة قائد الاسطول وأخذوا يزحفون رويدا رويدا ، تحت رنين الصواري ، والاعلام ترفرف فوق أعمدة السفن .

أما القائد الاسباني ، دون برندان المندوسي ، فانه رتب كل شيء ، استعدادا للمجابهة ، ثم شكر ربه الذي قرب اليه أعداءه لينتقم منهم على الخسائر التي ألحقوها بجبل طارق وسكانه ، وراح يحرض الجنود على الاستماتة في القتال ، وحرر السجناء المسيحيين من الاغلال ، وزودهم بالاحجار والعصي . وأخيرا وعدهم بأنه سيطلق سراحهم اذا ما قاموا بواجبهم أحسن قيام . بعد كل هذا ، وضع برندان المندوسي البساط الخشبي الذي يساعد على الانتقال الى سفن العدو ، ورفع الأولوية واللافتات ، ورتب الجنود في الاماكن المناسبة ، ثم توجه توا نحو الاعداء وسط رنين المزامير والابواق .

كانت سفن برناداان تتحرك في شكل ثلاث فرق ، وكان على متن احدى سفن الوسط ، تحيط بها ست بارجات ركبها عدد كبير من الرماة وبحارة جنّدهم المندوسي في مدينة موتريل ، ولكي يكون قصف مدفعيته مصيبا أمر القائمين على المدافع ألا يشرعوا في القصف الا اذا أشار اليهم بذلك .

لما اقتربت سفن المسيحيين من أهداف مدفعية الاتراك ، أخذ هؤلاء يقصفونها ، فأصيبت سفينة برندان وأخذ الماء يتسرب اليها ، لكن من حسن الحظ أن كانت على متنها امرأة ، فانتبهت الى الثقب وأغلقته ببعض ملابسها وبفراش . أما باقي الكور ، فانه كان يضيع في البحر أو يمر فوق السفن دون أن يلحق بها خسائر تذكر . ثم دنت سفينة القائد التركي من سفينة القائد الاسباني ، وكان قصف المسيحيين مركزا ومصيبا ، فقتلوا الكثير من اعدائهم وألحقوا بأسطولهم أضرارا جسيمة .

كان ستار من الدخان الكثيف يحجب هذا عن ذاك ، ولم يكن المرء يسمع الا الصياح . وما ان انقشع الجو ، حتى بدأ الاشتباك بالايادي بين الجانبين ، وكان الاتراك يصلون على نبيهم ويستصرخونه ، والنصارى ينادون بعيسى ومريم العذراء والقديس جاك . ودام النصر يتأرجح بدون استقرار بين هذا الجانب وذلك ، اذ كان التفوق تارة لصالح الاتراك ، وتارة لصالح النصارى . والواقع أن الاتراك كانوا يتقنون فنون القتال ، كما أن الحجارة التي كانت تنهال عليهم من لدن أسرى النصارى أدت مفعولها . الا أن لواء النصر انتهى لجانب برندان المندوسي ، وذلك بسبب ترثيه وكفائته ، وهو يحارب بلسانه وبيده ، وكان بجانبه رام يستخدم قوسين ، يسدد نبالهما الى الشجعان من الاعداء فقتل بعضهم .

أحست سفينة القيادة التركية بضغط كبير ، فاستنجدت بعلي أحمد ، فزودها بعناصر جديدة اقتحمت سفينة القيادة المسيحية وحققت فيها انتصارات .

غير أن المندوسي ، كان يعلم علم اليقين ، أن النصر النهائي سيتحقق بتفوق احدى سفينتي القيادة على الأخرى ، فتقدم الى المعركة بجانب طائفة من جنوده ، رغم إصابته بجراح في رأسه من جراء سهم ثقب خودته ، ثم إنه تلقى هو الاخر تعزيزات من مركب يسمى « النصر » صعدت اليه من سلم المؤخرة ، ومن مركب يسمى « سان مارك » الذي دمر قاعدة الاسلحة الواقعة في سفينة قيادة

العدو ، وذلك بطلقة مدفعية واحدة .

بدأ الاتراك يحسون بالهزيمة ، وبدأ النصارى يتأكدون من الانتصار ، فاقتحموا سفينة قيادة عدوهم ووجهوا ضربات قاضية لمحاربيها ، واستولوا على لوائها . قتل قارة مامي ، فأحدث مصرعه اضطرابا في صفوف الاتراك ، والقي بعضهم بانفسهم في البحر لكي لايقعوا في الاسر . وأراد علي أحمد أن يفر فارتمى بنفسه في البحر وأخذ يسبح حتى وصل الى سفينة صغيرة سريعة لكن مركبا تابعا لأسطول النصارى طارده واسره .

دامت المعركة ساعة على وجه التقريب قتل خلالها سبعمائة جندي تركي وأسر من الباقين خمسمائة ، في حين لم يفقد النصارى سوى مائتين من جنودهم ، لكن خمسمائة منهم أصيبوا بجروح متفاوتة الخطورة ، ومات خلال العمليات ، أربع قواد أشاوس مع أبرز جنودهم .

فر الى الجزائر من نجا من الاتراك ، وقد فقدوا تسعة مراكب شراعية ومركبا مجذافيا ، كانت من نصيب الأسرى الذين استرجعوا حريتهم . وغنم النصارى كميات هامة من الفضة والاحجار الكريمة والثياب الحريرية ، ولو أن الاتراك ألقوا بأكياس منها الى البحر عندما تأكدوا من انهزامهم ، لكن النصارى انتشلوها كما أنقذوا بعض الاتراك من الغرق .

توجه أفراد الاسطول النصراني بالشكر الى ربهم على ما حققوه من نصر ، ثم انطلقوا نحو شاطىء موتريل، ومنه أرسل القائد العام للاسطول البشري الى حاكم غرناطة الذي أسرع الى تنظيم استعراضات شعبية واحتفالات في الاندلس كلها ، ثم توجه الى مالقة فرافق القائد العام للأسطول في زيارته الى كاتدرائية المدينة ، في موكب يضم الضباط والجنود والاسرى الذين استرجعوا حريتهم ، وكلهم يحملون الشموع . وبعد الصلوات ، وزعت الصدقات وأعلن للاسرى النصارى المحكوم عليهم سابقا بعقوبة التجذيف أنهم أصبحوا أحرارا وحل محلهم الاسرى الاتراك .

بعد هذا العرض نرجع للحديث عن أحداث المجر . سبق لي أن قلت إن سليمان ساعد يوحنا سيبوس على اعتلاء عرش المجر . وفي عام 1541 ، توفي العاهل المجري ، مخلفا ولدا اسمه ايتيان وليا لعهده .

كان ايتيان يحظى بعناية كبرى من لدن أوصيائه ، وخاصة منهم مطران فاراداان . ذهب هؤلاء الاوصياء يلتمسون الدعم المادي والمعنوي من سليمان ، ضد الملك فرناند الذي يسعى لاقصاء ايتيان عن عرش البلاد .

قبل سليمان ملتمس أوصياء العرش في المجر ، فرابط على رأس قوات هامة ، قرب العاصمة بودا ، واستقدم الامير ايتيان للتعرف عليه ، ثم أعاده الى أمه ، وجرد أفراد حامية العاصمة من أسلحتهم ، واستولى على بودا بدون قتال ، ومن ثم ، ذهب الى بستة واستريغونيا ، وألبا ، ودمر مدينة الكنائس الخمس ، فمكنته هذه الاعمال من السيطرة على معظم أجزاء بلاد المجر .

وفي نفس السنة ، سعى الامبراطور كارلوس الخامس الى تأمين سلامة بحر بونانت ضد القراصنة الاتراك الموجودين بالجزائر ، الذين كانوا في كل حين ولحظة يهاجمون سفن النصارى ، لذا ، توجه بجيش عرمرم الى بحر بونانت الذي كان خاضعا لهيمنة أحد الايطاليين الاسلاميين المدعو أغا حفص ، ووقع اشتباك عنيف بين قوات كارلوس الخامس والبحارة الاتراك والعرب ، وكان التفوق لجانب النصارى ، الا أن هبوب عاصفة هوجاء فاجأتهم وشتت شملهم ، واتلفت العديد من سفنهم ، الامر الذي اضطر معه كارلوس الى الانسحاب باستعجال وطلب اللجوء الى موقع رأس ميتافوس البعيد شيئا ما عن مدينة بجاية. وسيأتي الحديث بتفصيل عن هذه الوقعة ، في الجزء الخامس من الكتاب ، في الفصل المتعلق بوصف بجاية .

لما استولى سليمان على مدينة بودا وهيمن على معظم التراب المجري ، أسس ملوك النصارى عصبة ضده ، متحيزين لجانب الامبراطور كارلوس الخامس ، وشكلوا جيشا قويا تحت قيادة جوهاشيم ، دوق براندبورغ ، الذي اجتاز به المجر ، لكن وباء تسلط على الجنود النصارى وأودى بحياة معظمهم ، دون أن يتمكنوا من استرداد بودا التي دافع عنها الاتراك بشجاعة فائقة لامثيل لها .

وفي السنة الموالية ، اتفق المجريون والاتراك على الهدنة ، لأن كلا من الجانبين اشمأزّ من الحرب ، وفي عام 1546 ، أرسل سيجيموند ، عاهل بولونيا ، قوات دمرت موقعا عسكريا كان الاتراك قد أقاموه على حدود بلاده. وفي عام 1547 ، سعى مصطفى بن سليمان وحاكم أماسية ، الى الاستيلاء على مقاليد الحكم في

تركيا ، ملتمسا العون من المصريين والفرس . لكن سليمان دخل في الحرب مع الصفوي تولشا ، فتكبد خسائر هامة في الارواح ، كما انهزم حلفاؤه التتار على يد الفرس ، في محاولتهم تعزيز صفوفه ، وعاد سليمان الى استنبول بعدما فقد رجاله وسمعته .

في نفس السنة ، قام القرصان التركي ، الرئيس درْغوت ـــ الذي سنتعرض للحديث عنه في الجزء السادس – بحملة على طول شواطىء نابولي وصقيلية ، فاستولى على موقع كاستيل – أعمار ، وغنم كثيرا من الغنائم ، لان سكان المنطقة لم يكونوا مستعدين للدفاع عن أنفسهم وأمتعتهم .

أما سليمان ، فانه لم يلبث يفكر في الانتقام من الصفوي تولشا . لذا ، عمل على تأمين الهدنة والصلح مع الملوك النصارى ، فجدد معهم العهود ، ثم حشد جيشا كبيرا بفضل المكافآت التي راح يعطيها للجنود ، وبعدما ترك في البحر مائة سفينة بحرية للدفاع عن استنبول ، غادر عاصمته ، الا أن الجوع ووباء الطاعون فتكا بجنوده ، وهلك في العاصمة وحدها سبعون ألف نسمة .

انتقل القرصان درغوت الى افريقيا ، واستولى على مدينتي سوسة والمنستير وعلى مواقع أخرى ، إلا أن ضباط الامبراطور كارلوس الخامس التابعين للقوات البحرية التي كان يرأسها أندري دوري ، وللقوات البرية التي كان يقودها خليفة ملك صقيلية ، استطاعوا طرد درْغوت عن سوسة والمنستير وغيرهما من المواقع الافريقية ، وستأتي تفاصيل هذه الاحداث في الجزء السادس من الكتاب .

غضب سليمان على إثر تدخلات كارلوس الخامس في افريقيا ، واعتبرها غير مشروعة باعتبار أنها أتت أثناء الهدنة من جهة ، ولأنها مست مواقع كانت تحت اشراف الاتراك من جهة أخرى. من أجل ذلك ، أعلن بدوره عن نقض المعاهدة مع النصارى ، وارسل وحدات بحرية عديدة تحت قيادة أمير البحر سنان ، يرافقه كل من صالح رايس ودرغوت وغيرهما من القراصنة الأبطال ، فنبهوا شواطئ ايطاليا ، والحقوا أضرار كبيرة بصقيلية وبجزيرتي كورسيكا ومالطة ، ثم عرجوا على شمال افريقيا واستولوا على مدينة طرابلس التي كانت تحت نفود كهباري ، وهو الرئيس الفرنسي للطائفة الدينية المدعورة « بطريقية مالطة » ، وجرت هذه الاحداث ، عام 1551 .

وخلال عام 1553 ، قام بعض الوسطاء والوجهاء في تركيا باصلاح ذات البين بين سليمان وابنه مصطفى ، وتم الصلح بينهما . الا أن سليمان لم يطمئن على نفسه ، فأمر بالقاء القبض على ولده وتعذيبه حتى الموت ، ذلك مادفع جانشير ، أحد اخوته الى الانتحار ، احتجاجا على قسوة أبيه . وكان سليمان يحب جانشير بقدر ما كان يكره مصطفى .

قام صالح رايس عام 1555 ــ وليس هو نفس الشخص الذي تحدثنا عنه في عرضنا لتاريخ السعديين ــ حاكم الجزائر ، بحصار مدينة بجاية ، بعدما نصحه بذلك أحد الفقهاء . كان الجيش الموجه لهذه الغاية يتألف من عشرين مركبا بالمجاذيف وأكثر من اربعين ألفا من المشاة . أغار صالح رايس على القلاع ، فاستولى على القلعة الشاطئية ، وعلى قلعة أخرى جلا عنها النصارى ، ثم على قلعة ثالثة تدعى « القلعة الملكية » ، وسنعود الى الحديث عنها في الجزء الخامس .

وفي السنة ذاتها ، بعدما استولى صالح رايس على بجاية وعاد منتصرا الى الجزائر ، التمس من حكومة تركيا تزويده بجيش بحري يهاجم به مدينة وهران . وبلغه الخبر أن القائد الأعظم سيوافيه باسطول يتألف من أربعين سفينة حربية تحت قيادة مامي رايس ، وكان عليه أن يتسلم مقاليد هذه الوحدات بميناء عنّابة ، لكنه أصيب بداء الطاعون في رأس ميتافوس ، فولى راجعا الى الجزائر حيث قضى نحبه بعد ثلاثة أيام .

بعد وفاة صالح رايس ، اتفق ابنه محمد باي والقواد الاتراك ، على الزحف نحو وهران ، لكن النصارى دافعوا عنها بشجاعة كبرى ، تحت قيادة القرطبي دون مارتان ، فاضطر الاتراك الى الانسحاب بعدما فقدوا كثيرا من رجالهم . وإنما أتعرض لهذه الاحداث بايجاز ، اذ سأذكرها بتفصيل في مقام آخر ، عند وصفي لكل موقع .

وفي عام 1556 ، استولى سليمان على بعض المواقع في استيريا ، بعد فشله أمام تحصينات سجيته، وأضرم النيران في كثير من هذه المواقع (29) ، وانسحب . وفي هذا العام كذلك ، انسلخ الامبراطور كارلوس الخامس عن أمور

(29) المواقع التي أحرقها سليمان هي : كوبا ، كابنيسفار وبابوزا ، سان مارتان ، سيليا ، سان لوران كاليانج ، وغيرها.

الدنيا وترهب ، فحل محله ابنه فيليب الثاني ، الذي كان ملكا على انگلترا . وفي يوم الجمعة 11 يوليوز من نفس السنة ، توفي يوحنا عاهل البرتغال ، فخلفه حفيده دون سيباستيان (30) ، الذي كان يرعاه عمه وزوجته الملكة كاترين ، وذلك لأنه كان ما يزال صبيا عند وفاة جده ، لكنه تبوأ عرش البرتغال عام 1557 ، يوم 20 من شهر يناير ، وعمره اذ ذاك أربع عشرة سنة ، وقد وافق هذا اليوم يوم ميلاده .

لما رفع الاتراك الحصار عن وهران ، رحل دون مارتان القرطبي الى اسبانيا لتحضير غزو مستغانم ، فحصل في اسبانيا على ستة الآف جندي ، ثم عاد الى وهران ومنها انطلق للهجوم على مستغانم ، فأصيب بهزيمة نكراء (31) ، وفقد جيشه برمته ، بما فيه فرق المدفعية ، كما سنرى في الجزء الخامس ، الفصل الثامن والعشرون .

بعد مضي عامين (32) جهز فيليب الثاني جيشا بحريا بصقيلية ، جعل على رأسه دوق ميريناسيلي ، وكلفه بمهمة طرد التركي درغوت عن جزيرة جيلفا فاستولى النصارى على القلعة ، وراحوا يشيدون قلعة أخرى لايواء المشاة الاسبان المرابطين بالموقع . وفي هذه الاثناء ، وصلت قوات بحرية بقيادة أبي علي باشا فأغرقت عشرين سفينة من أسطول النصارى وسبعة عشر مركبا ، أما الباقي من وحداتهم ، فانه لاذ بالفرار نحو صقيلية (33) ، للاحتماء بالقلعة التي يشرف على أمرها ألفار دوساند ، والتي استولى عليها الاتراك بعد هجوم واسع النطاق في معركة خلفت كثيرا من القتلى ، وأحرقت السفن والمراكب أثناءها كما سنرى فيما بعد .

وفي نفس العام ، استولى الخليفة العثماني على قلعة فيليك في المجر ، وتصالح مع الامبراطور فرناند الذي اعترف له بالسيادة على القلعة الى الابد .

بعد انهزام دون مارتان أمام مستغانم ، حشد حفص باشا حاكم الجزائر ، جيشا يتألف من العرب والبربر والأتراك زحف به برا وبحرا على المرسى الكبير الحصين الذي كان دون مارتان القرطبي يستبسل في الدفاع عنها .

(30) والده هو دون خوان وامه هي بنت كارلوس الخامس .
(31) عام 1558 .
(32) عام 1560 .
(33) الجزء السادس ، الفصل 41 .

وما كاد الاتراك يستولون على قلعة سان ميشال الواقعة على جبل غير بعيد ويأخذون في قصف المدينة، حتى أقبلت سفن إسبانية لنجدة النصارى المحاصرين بها، ودارت بين الجانبين معركة طاحنة أسفرت عن مصرع خيرة عناصر الاتراك، سواء منهم الانكشاريون أو البربر والعرب، وانسحب من بقي من الاتراك منهزمين. وسيأتي الحديث عن هذا الموقع في مقام آخر(34).

وبعد مرور سنة استولى ماكسيمليان ملك بوهيميا الذي خلف فرناند على رأس الامبراطورية على موقع كان خاضعا لنفوذ فايفود، تحت حراسة حامية تركية على اثر هذا العمل، أرسل سليمان جيشا لاحتلال مالطة، لكن فرسان الجزيرة دافعوا عنها أيما دفاع، خصوصا أنهم تلقوا تعزيزات في الوقت المناسب. من طرف الملك المسيحي، فاضطر الاتراك الى الجلاء عن المكان، بعدما فقدوا شرفهم وأغلبية جنودهم.

قام سليمان، عام 1566، باجتياز حدود بلاد الامبراطور ماكسيمليان، واستولى بالقوة على قلعة سيجات، ثم حاصر مدينة جول، لكن مرضا ألم به أثناء الحصار، فمات على اثره قبل دخول قواته الى المدينة بعشرة أيام، وبقيت وفاة الامبراطور في طي الكتمان الى أن اعلن أهل مدينة جول عن استسلامهم للاتراك، ونودي بسليم بن سليمان امبراطورا، فترك حامية في كل من المواقع التي تم احتلالها، وعاد الى استنبول.

ولم تمر سنتان على هده الأحداث ــ أي عام 1568 ــ حتى شهدت مدينة غرناطة انتفاضة كبرى من لدن سكانها العرب الذين اعتنقوا المسيحية كرها وأرادت السلطات الحاكمة أن ترغمهم على عدم الكلام باللغة العربية، والانسلاخ عن تقاليدهم وتغيير ملابسهم. جاءت الانتفاضة الاولى على أيدي عرب مدينة بشرة الذين هاجموا القساوسة والمسيحيين، وأضرموا النار في الكنائس، وقتلوا عددا من روادها وانتهكوا حرمة القيم الدينية النصرانية، مستنجدين بالاتراك وبعرب المغرب، وهم يصلون على محمد وينادونه. لكن دون يوحنا النمساوي أخا الملك قضى على العصاة قضاء مبرما وأهلكهم عن آخرهم،

---

(34) الجزء الخامس، الفصل 28.

(35) توفي في المعركة، دراغوست، وعلوش علي الاسكندري.

وسنرى هذا في الكتاب الذي ألفناه ، ونراجعه من أجل النشر بعون الله .

بينما كانت هذه الأحداث تجري في اسبانيا ، كان سليم امبراطور الأتراك يجمع الحشود لتشكيل قوات عظيمة هدفها إبادة النصارى ، وكان يسعى أيضا للقيام بعمل لاسترداد المجد الذي فقده أبوه بفقدان جزيرة مالطة . من أجل ذلك أرسل مبعوثا الى البنادقة يطالبهم بتسليمه جزيرة قبرص ، باعتبارها تابعة لدولتي سوريا ومصر .

استقبل المبعوث التركي في البندقية حسب الاعراف الدبلوماسية المعهودة ، وتقدم الى مجلس الشيوخ ، وبعدما ألقي خطابا طويلا ، عرض على الاعضاء الرسالة التي حملها اليهم من طرف السلطان الاعظم وهي تحمل خاتمه وجاء في الرسالة ما يلي :

« السلطان سليم ، امبراطور استنبول وبلاد الروم وافريقيا ، واسّيا ، وتريبزوند ، ملك بونت وبيتينيا وأشاي وأركانيا وأرمينيا ، ملك بلاد التتار الكبرى والصغرى وجميع أقاليمهما ، ملك الجزيرة العربية وتركيا وروسيا وصاحب السيادة على مجموع الاراضي التي تمر بها الروافد السبع لنهر الغانج ، وبصفة عامة صاحب السلطان على كل الأراضي التي تغطيها السماء وتضيؤها الشمس ، المنحدر من شجرة التقديس العليا ، ابن سليمان الاعظم مدمّر الشعوب النصرانية وقاهر ما في الكون ، اليكم معشر الظالمين المسيطرين على الجهات التي يجب أن تكون تحت نفوذي وسلطاني ، لانهامن حقي ، أبعث لكم بسفيري لتتفقوا معه على الطرق السلمية لتنفيذ مايتحتم على أن أقوم به ضدكم وضد المدافعين عنكم من اراقة دمائكم بواسطة سيفي المظفر . انكم لن تجدوا ما يحميكم من بأس سيفي ، ولن تنفعكم القوى والاموال اذا امتنعتم أن تسلموا الي حالا مملكة قبرص التي تحتفظون بها ظلما وعدوانا منذ عدة سنين ، وهي تدخل بالطبع في ملكي ، بوصفي صاحب السيادة على سوريا ومصر . سأنقض عليكم براً وبحرا ، على شاكلة عاصفة هوجاء ، لتدمير قواكم وتقتيلكم تقتيلا شنيعا ، متّبعا في ذلك ما وعد به النبي محمد . ان السفير الذي بعثته لديكم مؤهل ليشرح لكم الاسباب التي تحملني على القيام بهذا العمل النبيل ، وليعلن لكم عن حالة الحرب بيننا اذا ما رفضتم الاستجابة الى طلبي . وكتبت هذه الرسالة بتاريخ السنة الرابعة على تربعنا العرش في قاعدة ملكنا استنبول التي تمت فيها ابادة اسلافكم ، لانهم أبوا

الاستسلام الى أسلافي ، وستلقون نفس المصير » .

أجاب عاهل البندقية على هده الرسالة ، بعدما اطلع عليها واستمع الى السفير التركي ، وجاء في جوابه : « ان الاسباب التي من أجلها يرغب الامبراطور العثماني أن تسلم اليه جزيرة قبرص ، ليس لها ما يبررها حتى يتم له التنازل عن مكان نحن اصحابه الشرعيون منذ القدم ، وانه اذا ما طاب للامبراطور أن يغتصب متاع الغير ، دون اعتبار العدل ، فلربما لن يتحقق له ما يريد بالسهولة التي يظن ، لاننا لا نفتقر الى الارادة ولا الى القوة للدفاع عن أنفسنا ومصالحنا .

بعد ذلك ، ردّ البنادقة السفير على أعقابه ، وقد أعلن لهم عن حالة الحرب في حينه ، ثم قرروا اذخار المؤن والاسلحة وحشد الحشود وكل ما يحتاجون اليه للدفاع عن جزيرة قبرص .

لما رجع السفير الى استنبول، أطلع الامبراطور على نتيجة مهمته ، فأمر سليم باعداد قوات بحرية تتألف من ثلاثمائة سفينة حربية شراعية وعدد من المراكب والزوارق والبوارج الضخمة، وارسلها الى قبرص تحت قيادة أبي علي باشا وعلي باشا، وهما أميرا البحر، بمعية مصطفى باشا والى مصر الذي أسندت له مهام قيادة القوات البرية، وبرحوا جميعا استنبول في شهر مايو سنة 1569، وعرجوا على رأس فينيقيا لحمل الفرسان، ومن ثم قصدوا قبرص وأنزلوا فيها جيوشهم لحصار نيقوسيا.

نيقوسيا مدينة كبيرة كان يرابط فيها فلول من الايطاليين، أرادوا تنظيم الدفاع عن المدينة، لكن السكان نصحوهم بالعدول عن ذلك، لانهم لن يستطيعوا الصمود، ونشبت خلافات في هذا الموضوع بينهم وبين الايطاليين، الأمر الذي استفاد منه الاتراك ، اذ استطاعوا أن يدخلوا المدينة منتصرين بعد عشرين يوما من حصارها، وأسروا كل أفراد الحامية الذين كانوا فيها، وعددا كبيرا من وجهائها الذين مالوا الى ارغام السكان على مناهضة الاتراك، فنكلوا بهم وتركوهم يموتون ألما.

بعد دلك، ترك اميرا البحر التركيان حامية بالقلعة، وجنودا لتعمير المدينة، ثم برحاها، وقد صحبا معهما بعض الاسرى الفتيان لخدمتهما، وغلمانا وفتيات لتقديمهم هدية إلى الخليفة العثماني. توجه أميرا البحر الى فاماغوستا، وحاصرا

موقعها المنيع بثمانين ألف جندي ووحدات من المدفعية. لكن قبل بداية المعركة، بعث أبو علي باشا الى سكان فاماغوستا بالخطاب التالي :

« من أبي علي باشا ، القائد العالم لهذا الجيش العظيم ، وضابط الباب العالي السعيد ، الى حكام فاماغوستا ووجهائها وسكانها ، أنهى الى علمكم اني حللت بهذه الديار لأستلم مقاليد شؤون الجزيرة التي استولى عليها البنادقة جورا، وبما اني ألاحظ ميلكم نحو مقاومة جيش لا يقهر ، فاني أنصحكم بالتمسك بجانب الحكمة والتبصر وأن تلقوا اسلحتكم وتستسلموا ، مقابل حفاظكم على أرواحكم وأمتعتكم وممتلكاتكم وأزواجكم وأطفالكم ، مع أداء الجزية ، ولن تكون وضعيتكم سيئة بالمقارنة مع وضعية بقية رعايا الخليفة الأعظم . أما اذا رفضتم هذا العرض ، فستلقون الدمار لا محالة ، الا أني أكره أن يكتسح الدمار والخراب ربوع هذه الجزيرة قبل أن أنذركم ، ولو أنكم اقتحمتم هدنة فانها لن تنفعكم شيئا ، لذا فاني أدعوكم لاتخاذ قرار عاجل ، والا يغرنكم حكامكم بوعود كاذبة . اني أؤكد للجنود المتواجدين في المدينة ، ولأعيانكم ، أنه يمكنهم أن يتنقلوا بكامل الحرية ، وان يذهبوا أينما يشاؤون ، كما أنه سيكون من حق الأهالي الذين يرغبون في البقاء في المدينة ، أن يحتفظوا على ممتلكاتهم وصبغة الحكم التي ارتضوها ، على شرط أن يؤدوا الى الباب العالي ما كانوا يؤدونه الى البنادقة . وأخيرا ، أدعوكم أن تسلموا جوابكم الى حامل رسالتي ، دون اهانته أو القيام بما من شأنه أن يقلقه ، واني أقسم بالله العظيم الذي به أومن ، وبالسيف الذي أحمله ، أني لن أترك أحدا منكم على قيد الحياة . امضاء : أبو علي باشا ، من الجيش السعيد للامبراطور الأعظم . » (36)

بعد اطلاع الحكام على هذه الرسالة ، وتلاوتها على السكان ليردوا عليها ، أكد الجميع للسفير تعلقهم وتشبثهم بالوفاء لمجلس شيوخ البندقية ، معلنين أنهم لا يرون ما يدفعهم للندم على ذلك ، اعتبارا لرفق حكومة البندقية بهم ورعايتها لمصالحهم . أما فيما يتعلق بطلبه استلام مقاليد شؤون الجزيرة ، فانهم أعربوا له عن رجائهم في الله لكي يخيب مسعى أولئك الذين يريدون اغتصاب حقوق الغير ، وأنهم لا يثقون بوعوده في أن يعاملهم معاملة حسنة ، لأن الاتراك الذين

---

(36) يقول المؤلف إنه لم يذكر فحوى الرسالة بكاملها بل انه اقتصر على مجمل مضمونها .

نقضوا عدة مرات وعودهم وعهودهم للامبراطوريات القوية لن يمتنعوا عن نقض وعودهم لأهال عزل يسكنون جزيرة ، وليكن في علم الاتراك انهم اذا ما أساؤوا الينا فانما يسيؤون لانفسهم ، وان تهديداتهم الجوفاء ليست كفيلة بتجريد البنادقة عن حقوقهم ، واننا لن نكون أسوأ حظا اذا أبرمنا معكم هدنة ، وان حكامنا لا يخادعوننا ، وأنهم لو ولدتهم امهاتهم في كنف الباب العالي لكانوا له أوفياء مثل وفائهم للبنادقة ، وأضافوا قائلين بأنهم يفضلون ارجاء الحديث عن المعاملة الطيبة التي وعدهم بها الى النهاية التي لم يصلوا لها بعد ، ولربما كان من المستحسن أن يفكر الاتراك في مصيرهم قبل أن يفكروا في مصير الاخرين ، وان أهل قبرص سعداء في ظل حكومة البندقية ، ولن تكون سعادتهم أفضل حتى لو كانوا مستقلين . ولهذا ، فانهم لا ينخدعون عندما تعرض عليهم وعود بالحياة في حرية مزيفة . زيادة على ذلك ، فلا ينبغي للخليفة العثماني أن يثق بصدقهم اذا هم خانوا الميثاق الذي يربطهم بالبنادقة الذين ظلوا دائما يرعون شؤونهم ، ويبذلون قصارى الجهود للذود عنهم . واختتم أهل فاماغوستا ردهم قائلين بأنهم صمّموا العزم على ألا يعيروا أي اهتمام لوعود الاتراك ولا لتهديداتهم ، وأنهم ينصحونهم بالعدول استقبالا ، عن عرض مماثل .

لم يكن هذا الجواب ليسر أبا علي ، وهو يعلم أن الموقع لن يستسلم بسهولة ، لانه مشيد على صخرة بجانب البحر ، ولا يمكن الاشراف عليه من اي جهة . اذ ذاك ،أناط مصطفى باشا بمهمة قيادة الجيش البري ، وكلف أتابهات حاكم رودس بمهمة مراقبة الجزيرة بخمسة عشر مركبا وخمس سفن ، لمنع الامدادات من الوصول اليها ، ثم رجع الى استنبول مع بقية الوحدات .

انتهت ترتيبات الابحار ، واستعدت الوحدات لمبارحة المكان ، ولم ينتظر الربابنة الا الاشارة من ابي علي باشا ، وقد حشد قواد الجيش قبل ذلك اسراهم من وجهاء نيقوسيا الفتيان ذكورا واناثا على متن سفينة كانت تحمل من جملة بضائعها شحنات من المتفجرات . ولما رأى أحد الرجال الاسرى جنديا دنا من احدى بنتيه الشابتين ،وأخد يكرهها على عرضها ، تناول جذوة من النار ورماها على برميل مليء بالبارود ، فتفجرت السفينة في حينها ، وعلى ظهرها ألفان من الركاب او يزيدون ، وتطايرت اشلاؤها المشتعلة وتساقط بعضها على سفينتين كانتا على مقربة من مكان الحادث ، فالتهمتهما النيران بدورهما

شهد أهالي فاماغوستا من موقعهم ماحدث للسفن الثلاث ، فعمتهم الفرحة وهم يجهلون أن من بين الضحايا يوجد عدد هام من النصارى كلهم من خيرة شباب نيقوسيا وأكثرهم جمالا وشرفا .

ذهب الجيش البحري قاصدا رودس من أجل قسط من الراحة ، معرجا على جزيرة كيو ، حيث أرسى فيها قرابة عشرين سفينة ، وتوجه الباقي من الوحدات ، الى استنبول . أما السفن التي بقيت في كيو فانها انتقلت الى داتان للتزود بالمواد الغذائية ، ثم عادت الى كيو لقضاء الشتاء .

ما كاد قائدا جيش قبرص يصلان الى استنبول ، حتى شاع خبر مفاده أن البنادقة اغتنموافرصة اجلائهما عن المياه القبرصية ، لارسال اثني عشر مركبا وبوارج تحمل الذخائر والجنود لتعزيز حامية فاماغوستا ، فامر الامبراطور السفن العشرين التي ورد ذكرها بمطاردة الوحدات البندقية واحتجازها . من أجل ذلك ، اتجه نحو قبرص والى الاسكندرية الذي يقود تلك الوحدات ، وهو ضابط ماهر في القوات البحرية . الا أن السفن البندقية برحت المياه القبرصية بعدما انجزت مهمتها، وقد ظن حاكم رودس أن عددها كبير، فالتجأ الى طرابلس، وهبت عاصفة أوشكت معها جميع السفن التركية على الغرق، واحترقت اثنتان منها على مقربة من فاماغوستا ، وعادت السفن الاخرى الى استنبول وقد ذهبت رحلتها عبثا .

في بداية الربيع ، حمل علي باشا الذخائر والمؤن ، الى القوات المرابطة بقبرص ، على متن ثمانين مركبا ، وأضاف الى أسطوله الوحدات التي كانت راسية برودس والاسكندرية ، ثم قام بجمع الاحجار طوال الشواطئ لتحصين معسكره . وذهب الى كاستيل – روصو لنقل فارطا باشا الذي يرابط بالارخبيل ، والتحق به بعين المكان والي الجزائر على رأس القوات البحرية الغربية . وهكذا فان الاسطول التركي أمسى يتألف من مجموعه من ثلاثمائة واربعة عشر مركبا.

توجه الاسطول ، من كاستيل ـــ روصو الى جزيرة كانديا ، وكان أبو علي باشا يظن أنه سيجد هناك مائة سفينة بندقية ، ولكنها انسحبت قبل وصول الاتراك ، فنزل هؤلاء بالمنطقة ونهبوا ما فيها ، كما استولوا على برج شيده البنادقة ، وعلى عشرين مدفعا ، وأحرقوا سفينتين كانتا في ورش الحوض البحري . بعد ذلك ، مروا بقلعة كانديا ، ونهبوا ما حولها . لكن رياحا مهولة هبت واتلفت أربعة

مراكب تركية . ولما أشرقت الشمس ، توجه الجيش نحو استريق التابعة للسيادة البندقية .

غير أن الاتراك لم يتمكنوا من الاستيلاء على القلعة المنيعة ، فانزلوا قواتهم برأس الماين ، وهو عبارة عن مجموعة من الصخور المتوغلة في البحر ، أعاليها مبثوثة بالكهوف والمغامرات ، تُؤوي قوما من اللصوص المحترفين ، يعيشون بريع نبالهم وأقواسهم . ولما توغل الاتراك في المنطقة ، تصدى اليهم أولئك اللصوص وقتلوا منهم أكثر من سبعمائة جندي وأرغموهم على الرجوع الى مراكبهم .

اتجه الاسطول التركي الى جزيرتي قورون وموضون للتوقف بهما هنيهة ، ثم انطلق نحو زانته ، وأغار على القلعة بدون التمكن من زحزحة وسائلها الدفاعية ، فقام الاتراك اذ ذلك باضرام النار في المنازل التيّ توجد في ضواحيها ، وتوجهوا الى سيفالونيا ، وهي تابعة لنفوذ البنادقة ، حيث سبوا أكثر من ثلاثمائة امرأة وطفل ، وهاجموا قلعة الجزيرة لكن بدون جدوى ، اذ أن حاميتها صمدت أمامهم وكبدتهم خسائر هامة في الارواح .

تراءت للاتراك اثنتا عشرة سفينة بندقية قادمة للاستطلاع ، فاسرعوا نحوها رتمكنوا من الاستيلاء على إحداها وعلموا من ربابنتها الاسرى أن الملك والامراء النصارى تحالفوا لتشكيل قوات بحرية عظيمة لاسعاف البنادقة . عندئذ ، ارسل علي باشا مبعوثا ليخبر السلطان العثماني بما جد في الامر .

وفعلا ، فقد أراد البابا بي الخامس ، أن يجنب المسيحية عواقب العاصفة التي هزت أركانها والتي أمست تهدد كيانها ، فاوفد حاجبه (37) لدى فيليب الثاني يستعطفه، ولدى باقي الملوك النصارى الكاثوليك يسترحمهم ويبين لهم أبعاد الخطر الذي يحدق به هو أيضا ، ويدعوهم لتوحيد الصفوف والجهود لمجابهة الظروف السيئة ، والا فان المسيحية لن تلبث الا قليلا حتى تذهب في مهب الرياح ، إذ لايستطيع أي أحد من الملوك المسيحيين أن يصمد وحده ، ولكن قد ينتصرون اذا تكتلوا . وأوضح الحاجب للملك فيليب الثاني ، بصفته أكثر حماسا وأشد بأسا من الآخرين بانه يتعين عليه أن ينضم الى التكتل المزمع تشكيله بكل ثقله وامكاناته ، وان البابا يعده بالانضمام اليه باسلحته الروحية والمادية ،وأنه اذا ما

---

(37) يدعى الاستاذ طريس .

رسّى الاسطول الاسباني بصقيلية ، فسيكون ذلك العمل رادعا للاعداء ، وسيحول دون تمكنهم من القيام بأي هجوم على النصارى ،وفي حالة تعرض أبناء المسيحية الى هجوم من جهة أخرى ، فان الاسبان سيهبّون للذوذ عنهم .

اقتنع فيليب الثاني بالعرض الذي ألقاه أمامه الحاجب البابوي ، وأرسل على الفور تعليماته الى الكاردينالين باشيكو وجرانفيلو والى دون جيان السنيوجي سفيره ، للاعراب الى البابا عن موافقته على الانضمام الى الحلف المسيحي الى جانبه والى جانب حكومة البندقية . وأعطى البنادقة نفس التعليمات الى سفرائهم ، فبدأت المحادثات مع ممثلي البابا ، وتم الاتفاق في وقت وجيز على تشكيل التحالف المسيحي الذي عيّن على رأسه برتبة قائد أعلى ، دون جيان النمساوي ، وهو أخ غير شرعي لفيليب الثاني ، وقد أسندت إليه مهمة الاشراف على عمليات قمع الانتفاضة العربية بغرناطة. وبعدما قضي عليها أبحر الى ميسين، وهو المقر الذي اختاره البابا لتجمع القوات البحرية المسيحية .

على اثر هذه الاحداث ، تحرك الاسطول التركي نحو كورفو التي كانت خاضعة للنفود البندقي ، لكن الاتراك لم يستطيعوا أن ينزلوا بها ، فقصدوا ميناء بسكارة الذي كان يقابلها ، فرسوا به بضعة أيام ، غنموا خلالها ثلاث سفن كانت متوجهة الى كورفو ، وبارجة كانت قادمة من ميسين في مهمة استطلاعية ، فأخبرهم ركابها أن دون جيان يوجد بميسين مع أسطول التحالف المسيحي . وبالفعل ، فان هذا الامير الشجاع استعجل الالتحاق بمقر التجمع المسيحي ، تحسبا لاقلاع الاتراك الى استنبول وضياع فرصة مقاتلتهم .

لما علم علي باشا أن أسطول المسيحيين يوجد بميسين ، أمر بالهجوم على قلعة بندقية [38] كان وراء اسوارها مائتان من الجنود الايطاليين ، فاستولى عليها بعد غارة خاطفة ، وبطش بالحامية بطشا . واستولى الاتراك أيضا بمقربة من القلعة على سفينة بندقية كبيرة كانت متجهة الى كورفو ، وتحمل على متنها الجنود والذخائر ، فأكد لهم ربابنتها خبر الاستعدادات المسيحية لقتالهم .

ابتهج علي باشا لما تلقاه من أخبار ، فأمر الاسطول بالتوجه نحو خليج البندقية . وفي الطريق احتجز الاتراك سفينة بندقية أخرى محملة بالجنود والذخائر

(38) تدعى قلعة شومارة .

كانت متجهة الى كورفو . بعد ذلك أنزل الاسطول بعض الوحدات من الجيش بالبرية ، فاحتلوا موقعي دوليسن وبوديا وقلعتين أخريين كان يرابط بهما جنود بنادقة، فحطموهما تحطيما ، ثم انتقل الاسطول الى ميناء بيسكار حيث قام بحمل ثمانمائة حصان نهب بها الفرسان جزيرة كورفو بكاملها ، لانهم لم يستطيعوا الاستيلاء على قلعتها ، ثم عادوا الى بسكار . ومن هناك ، أمر علي باشا القرصان قارة فوشة بالذهاب الى صقيلية للتجسس على المسيحيين ، وبعد أيام قلائل عاد قارة من صقيلية ، واطلع علي باشا على تحرك أسطول النصارى نحو كورفو . وبالفعل ، فان دون جيان النمساوي برح ميسين يوم 17 شتنبر لمجابهة الاتراك ، ووصل هو الاول الى ميناء سان جيان ، ثم التحق بجزيرة فانو ، وهي مكان تجمع وحدات التكتل المسيحي . ولما وصل اسطول النصارى الى كورفو ، كان يتألف من ثمان ومائتي سفينة ضخمة ، وست بوارج وخمسة وعشرين مركبا ، ثم عاد النصارى الى سان جيان ، وقد أشفقوا مما تعرضت اليه كورفو من عمليات تخريبية لكن بعض الجنود المسيحيين تخلفوا عن وحداتهم، فألقى اليونانيون القبض عليهم وباعوهم لقارة فوشة الذي كان يراقب تحركات النصارى عن كثب وراء الصخور ، على متن سفينة صغيرة لا ساري لها . ولما استنطقهم قارة فوشا ، أطلعوه على اسرار النصارى . وعلم دون جيان من جهته ، على لسان أحد جواسيسه ، أن الاتراك يشكلون اسطولا متماسكا ويتجمعون كلهم بجزيرة ليبانتة .

استدعى دون جيان قادة اسطول التكتل المسيحي ، وناقشوا مسألة الحرب ، فأجمعوا على قتال الاتراك ، وتحركوا نحو سيفالونيا .

إرتأيت ان اترك الحديث عن هذا التحرك ، والعودة الى فاماغوستا ، ليكون كل شيء موضوعا في اطار منسق .

أخذ مصطفى باشا يشدد الخناق على فاماغوستا التي كانت حاميتها تتألف من عشرة آلاف جندي ، منهم الايطاليون والالبانيون والقبرصيون الذين صمدوا في وجه الاتراك ، وكان مصطفى باشا قد تلقى تعزيزات من بينها ثمانون مركبا محملة بالجنود والذخائر والمؤن ، والخشب الصالح لقواعد المدفعية ، والصوف والملابس وكل ما يحتاج اليه جنوده .

أنزل مصطفى باشا بعض الوحدات خلف فاماغوستا ، وسار يقترب تدريجيا من الاسوار عبر الخنادق التي حفرها الجنود ، في حين كانت القوات

الدفاعية تحصن مواقعها هي الاخرى ، خصوصا في الجهات التي أضحى من المتوقع ان يشن عليها الاتراك غاراتهم . وقد تميز في هذه العمليات ، كل من براغدان والي الموقع ، واستور بايون وطائفة من الضباط المحنكين والجنود الذين تقاسموا مهام الدفاع والصمود حسب مايلي : كلف آندري برادغان بالدفاع عن القصر ، من جهة البحر ومن جهة مستودع السلاح ، وكان عليه أيضا أن يقوم بالدفاع عن برج أندوزي . أما آستور بايون ، فكان مكلفا بالدفاع عن برج سانت ناب ، واستندت الى الضابط تسبيل مهمة الدفاع عن برج كامبو سانتو .
وأما لوي مارتينانك وستة ضباط آخرون ، فكانوا مكلفين بالأسلحة الثقيلة، وكل واحد من هؤلاء كان قائما على باب من ابواب الموقع ، يساعده فريق من الجنود اليونانيين . وكان الضابط فرانسيك بوغون قائما على برج مستودع السلاح ، وبيتروكونتي على جدار بين البرجين ، والفارس دي فوت كلف بالدفاع عن برج الكامبو سانتو . وكان لوي مرتينانك مكلفا أيضا بحماية مصف المدافع ويمد المساعدة الى أندروزي وحراس السور الممتد الى برج سانت ناب . أما كونت هرقل مارتينانك ، فكان عليه أن يحمي مرصد سانت ناب .

تكلف فريق آخر من الضباط بمهام مختلفة ، اذ وزعت عليهم المسؤوليات بدقة بالغة لم يغفل منها أي شيء ، حتى ان المدافعين عن المدينة ، كانوا بين الفينة والاخرى ، يقبضون على طلائع الاتراك ويفتكون بهم فتكا .

دنا الاتراك من أسوار المدينة ، بعدما حصنوا مواقعهم ورتبوا رواجم المدافع ، ثم أخدوا يقصفون فاماغوستا ، يوم 19 ماي ، وكانوا يتوفرون على سبعين مدفعا ضخما وأربعة قواعد للقصف ، وكانت المدافع مرتبة على عشر رواجم ، تقصف في آن واحد خمس جهات من المدينة ، أي من باب ليميسي الى مستودع السلاح . وتعرض للقصف المكثّف المستودع ذاته ، والسور ، وبرج اندروزي ، وبرج سانت ناب،وباب ليميسي مع تحصيناته المجاورة .

انصرف الاتراك في البداية التي بث الرعب في نفوس السكان ، اذقصفوا منازلهم وجعلوهم يفرون من بيوتهم ويلجؤون الى الكنائس ، ثم حولوا القصف نحو المدفعية المعادية التي كانت تضايقهم . لكن المسيحيين ظلوا على حذر باستمرار، ليلهم كنهارهم ، ملتزمين مواقعهم ، بدون هوادة على قصف الاتراك ، وتمكنوا من تدمير خمسة عشر من أجود المدافع التركية . وقتلوا أكثر من عشرين ألفا من

أعدائهم ، ولم يتركوا لهم المجال للقيام بعمل فاصل .

بدأت كميات البارود ، تقتل عند المدافعين عن المدينة ، وقد تأخر وصول الامدادات ، فقرروا تقنين استعمال البارود ، وأمروا بالاقتصار على ثلاثين قصفة في اليوم لكل مدفع ، مع تسديد القصفات بدقة الى أهدافها ، وبحضور كل مسؤول عن موقعه حتى لا يخالف أحد هذه التعليمات الحكيمة ، لتلافي الكارثة .

في يوم 29 من شهر ماي ، وصلت فرقاطة من كانديا ، نقل أصحابها الى أهل فاماغوستا ان كل الاجراءات اتخذت لتصريف الامدادات نحو الجزيرة ، فأذكى الخبر معنوية المحاصرين وضاعف من شجاعتهم وقدرتهم على الصمود . غير أن الاتراك حالوا دون انسياق المدافعين الى الغبطة والسرور ، واستولوا بعد بذل جهود كثيرة ، على جدار غير بعيد من أحد الخنادق وملؤوا الخندق بالتراب من الجهة التي توجد بها الرواجم . لكن أصحاب القلعة استرجعوا الموقع والثغرات التي أحدثها الاتراك في الجدار . وأقام الاتراك فوق الخندق عوارض خشبية ، وواصلوا هجماتهم ، فاصيب المهندس المسؤول بسهام ، وأصيب معه آخرون فقتلوا كلهم ، واتم الاتراك ملء الخندق بالتراب حتى سوى مع مستوى الجدار الذي كان يخفيه ، وأحدثوا ثغرات في الجدار نفسه ، وتزودوا بأكياس من الصوف ، ثم ظهروا على العوارض التي كانت تؤدي الى مواقع النصارى ، وشرعوا يضعون المتفجرات لنسف الجدار الهلالي وأبراج سانت ناب واندروز وكابو سانتو ومخزن السلاح . وكان المسيحيون يطلقون عليهم من فوق الاسوار وابلا من النار ، وخرج اليهم عدد من الشجعان وخاصة الرماة منهم ، فاشتبكوا معهم وجردوهم من أكياس الصوف ومن دروعهم ، ثم أخدوا يتلفون الالغام ، ولم يعثروا الا على تلك التي كانت موضوعه لتدمير برج سانت ناب ، رغم الحركة الدائبة التي كانت تشهدها تحصينات القلعة بقيادة استوربايون

أشعل الاتراك فتائل ألغام مخزن السلاح فتحطم،وأحدث الانفجار ثغرة واسعة في السور ، ودمر جزءا هاما من جدار الحصن . وماهي الا لحظات حتى قام والي الاسكندرية بغارة على الموقع ، وتبعه فيلق من الاتراك صعد الى السور ، ورفع فوقه الراية التركية .

كان النقيب بيتروكونتي المكلف بالدفاع عن هذا الجناح على مقربة منه ، وبما أن الالغام ألحقت أضرارا بالسور ، هب كل من أستوربايون ولوي مارتينانك الى مساعدة النقيب ، وقاتلوا جميعا بشجاعة كبرى ، وطردوا الاتراك وقتلوا منهم عددا هاما . ونادى قائدهم على خمسة أفواج متتالية من جنود لم يقاتلوا بعد ، لكن النصارى ردوهم على أعقابهم بعد أن كبدوهم خسائر فادحة في الارواح . ولما علم مصطفى باشا أنه فقد في المعركة ألفا وخمسمائة جندي أمر بالتراجع ، ولم يفقد النصارى في الاشتباك الذي دام خمس ساعات سوى مائة جندي ما بين قتيل وجريح . وقد لقي حتفه في القتال كل من الكونت جيان ، وفرانسوا غوري والنقيب برندان الغوبي ، كما جرح هرقل ما لا تستة، وبييتر، وكونتي وغيرهما .

عندما جن الليل ، رست سفينة قادمة من كانديا ، وأبلغت أصحاب القلعة أنباء رفعت من معنويتهم وقوّت عزيمتهم . عندئذ ، قام نقيبان بوضع العوارض في مكان الرواجم . وفي الجهات التي كان من المتوقع أن يضع الاتراك فيها الالغام ، نصبت الحواجز وهي تتشكل من صناديق وفرش وأكياس مملوءة بالصوف وبالتراب المبلل ، وشرعت النساء في صنع هذه الاكياس من مختلف أنواع الاغطية والزرابي وملئها بالتراب المبلل ، لتقيهن من قذائف القصف التركي ، وظل القوم يصلحون نهارا ما يفسده الاتراك ليلا ، وعكف الاهالي على شغل بدون توقف ، لأن الأتراك لم يتيحوا لهم فرصة للراحة ، سعيا وراء ارهاقهم ، وتحطيم معنويتهم .

في يوم 28 من شهر يونيو ، فجر الاتراك الالغام التي زرعوها تحت جدار دفاعي شكله شكل هلال ، من بين تحصينات المدينة ، كان مشيدا في الصخرة فاحدث فيه الانفجار ثغرة كبيرة ، تسرب منها بسرعة ، عدد من جنود الاتراك ، بحضور الباشا ، وتسلقوا السور بجهالة . لكن فرقة الكونت مارتينانك تصدت لهم وصمدت في وجههم وردتهم على أعقابهم بعد أن كبدتهم خسائر جسيمة ، في حين ، لقي مصرعه في صفوف النصارى ، نقيبان ، وملازم أول ، وأصيب ثلاثة أفراد بجراح . وأغار الاتراك على مخزن السلاح ، معرضين أنفسهم لخطر أشد من الذي كان يشكله هجومهم على النصارى ، الذين لم يفقدوا الا نقيبا واحدا لقي مصرعه ، وجريحين اثنين . دامت المعركة ست ساعات ، ولم ينصرف خلالها المطران الميشي الى اغلاق الثغرة ، لانه راح يحرض قومه على الصمود وهو يحمل

صليبيا. وخاض المعركة ، الى جانب الرجال ، عدد من النساء كن يحملن الحجارة ويصببن الماء على الجدران .

أمام صمود الاهالي ، شن الاتراك هجوما شاملا على المدينة ، وشيدوا ست قواعد حول الاسوار التي أخذوا يقصفونها بشدة ، مستخدمين في ذلك ، ثمانين مدفعا ضخما ، فدمروا الاسوار ومواقع دفاع القلعة ، ولم يبق للمقاومين ما يحميهم من القصف ، فقتل منهم الكثير ، وتحطم الجدار الهلالي ، وفر المدافعون عنه . وفي اليوم التاسع من يوليوز ، قام الاتراك بهجوم آخر ، على أبراج سانت ناب واندروزي ومخزن السلاح ، لكنهم لم يتمكنوا من إسكات أسلحة المدافعين ولو أنهم سيطروا على موقع الجدار الهلالي ، وتكبد الجانبان المتحاربان خسائر هامة ، سببها الانفجارات المتوالية التي كانت تعصف بهؤلاء وأولئك ، وأفقد النصارى عددا من ضباطهم .

وقام الاتراك بهجوم آخر على الموقع يوم 14 يوليوز ، فاستولوا على باب ليميشي ، وحاولوا التقدم ، لكن لغما قويا انفجر تحت أقدامهم ، فأودى بحياة أربعمائة منهم ، وانسحب الاخرون .

وقام الباشا في الغد بتفجير ألغام وضعها في الاسوار الامامية لكنها لم تأت بما كان يريد ، فامر بتشييد تحصينات بجانب السور ، وأقام معسكرا فيها ، ووضع ست رواجم للمدفعية فوق السور ، وشرع جنوده في اتلاف أجهزة دفاع النصارى ، وهم مستترون بجلود البقر ، لكن أفراد الحامية كانوا يطلقون عليهم النيران من كل جهة ، كما أن النار كانت تلتهم بعض تحصينات المدينة . وانكبت النساء في هذه المرة أيضا على اخماد النار .

ولما استحال على الباشا اعادة الاستيلاء على باب ليميشي ، أمر بصب القار وغيره من المواد المحرقة ، على المدافعين ، فشب حريق مهول في الموقع ، وعجز عن اطفائه ، ودامت النيران مشتعلة طيلة أربعة ايام ، تنبعث منها حرارة تشوي الوجوه ، وروائح كريهة تزكم الانوف حملت المدافعين على الفرار ، وقد انهكهم التعب ، ونال منهم العياء ، وفقدوا العديد من القواد والضباط ، ونضبت مخازن مؤنهم ، وراحوا يتغذون بلحوم الحمير والبغال ، ولم تبق لهم خمور ، فذهبوا يشوبون الماء بالخل ويشربونه ، بينما ازداد الاتراك عزيمة ، وصاروا يكثفون هجماتهم على القلعة ، واستطاعوا بناء ربوة تعلو سور المدينة ، مكنتهم من اقتحام بعض المواقع

الاستراتيجية والاستيلاء عليها . ولم يبق في المدينة واقفا على الأقدام الا زهاء ستمائة جندي ايطالي ، لكنهم لم يكونوا في الحالة التي تسمح لهم بالاستمرار في الصمود ، لأن عناصر الكتائب اليونانية والالبانية والقبرصية الذين هبوا للدفاع عن فاماغوستا ، لقوا مصرعهم في معظمهم أو أصيبوا بجروح بليغة أقعدتهم عن كل نشاط .

أمام هذه الاوضاع ، طلب ممثلو الأهالي من حاكم المدينة أن يشرع في التفاوض مع الاتراك من أجل الاستسلام ، حفاظا على ما بقي سالما وعلى حرمة النساء والأطفال ، وذلك لأن الاسعافات لم تصلهم بعد . لكن الحاكم طلب منهم الصبر والمزيد من الصمود، وأرسل في الحين سفينة الى كانديا لتطلع المسؤولين فيها على حقيقة الاحوال بفاماغوستا . وفي هذه الأثناء ، فجر الاتراك ألغاما بالقرب من باب ليميشي ، فانهار ، كما انهار برج مخزن السلاح ، وقتل كل عناصر فرقة حراسته ، ثم شنوا هجوما على رواجم المدافع ، ودامت المعركة من منتصف النهار الى حيث اظطروا الى إخلاء المكان ، وقد فقدوا بدورهم في هذه الهجمات ، ما يزيد عن ثلاثة آلاف جندي بين قتيل وجريح ، مقابل مائتي قتيل في صفوف النصارى .

وفي غداة ذلك اليوم ، استأنف مصطفى باشا غاراته على المدينة ، لكنها كانت أقل شراسة من التي سبقتها ، ولو أن مراكب عريمات قصفت المنازل والحقت بها أضرارا . والجدير بالذكر ، أن هذا الضابط البحري التحق بالمعسكر تركي وهو يحمل عددا كبيرا من ألوية النصارى الذين انتصر عليهم جنود علي اشا . ولما شهد سكان المدينة والمدافعون عنها تلك الرايات ، دب الفشل في صفوفهم ، وأعلنوا استسلامهم ، ورفعوا راية بيضاء يوم فاتح غشت ، وسلموا رهائن الى الاتراك ، من بينهم الكونت هرقل دومارتينانك وماتيوغولفي وأحد وجهاء المدينة . وكان يمثل الاتراك في المفاوضات نائب القائد مصطفى باشا ونقيب الانكشاريين . أما من الجانب الاخر ، فان أستور بايون هو الذي كان الناطق باسم أهل فاماغوستا ، حيث قبل الاستسلام مشترطا أن تنسحب حامية القلعة بأسلحتها وأمتعتها وخمسة مدافع وثلاثة أحصنة ، وأن يؤمن لها الأتراك الوصول بسلامة على متن السفن الى جزيرة كانيا ، مع السماح للسكان الراغبين في الهجرة معهم بمغادرة المدينة صحبة أزواجهم وأولادهم وأن يأخذوا أمتعتهم ، كما

يجب أن يعامل الذين يرغبون في البقاء معاملة حسنة ، مع احتفاظهم بممتلكاتهم وعقيدتهم .

قبل مصطفى باشا هذه الشروط لأنه انتظر طويلا الاستيلاء على المدينة ، وأرسل سفنا الى الميناء لنقل المهاجرين وأمتعتهم ، وكان ذلك يوم 15 غشت . ولما ركب المهاجرون السفن رأى رؤساؤهم أنه من الأليق أن يسلموا على مصطفى باشا ويودعوه، واتفقوا على أن يبعثوا اليه بخطاب يحمله بيتروكونتي ، ويخبره بأنهم سيزورونه في الليلة ذاتها ، ليقبلوا يده ويقدموا له الجنود الاتراك الذين أسروا في المعارك ، ويستعطفوه في أن يأمر بعدم الاساءة الى أهل فاماغوستا ، وأن نقيبا بقي في القصر للسهر على تطبيق بنود وثيقة الاستسلام .

دخل الاتراك الى المدينة ، ولم يضايقوا أهلها في أعمالهم ، الأمر الذي جعل النصارى يطمئنون على سلامتهم . ورد مصطفى باشا على الخطاب الذي تلقاه من القادة السابقين للمدينة معلنا استعداده لاستقبال ممثليهم متى شاؤوا ، وأنه سيكون مسرورا باستقبال القواد الابطال اذا جاؤوا للمدينة ، وطمأنهم على سلامتهم وإخوانهم الذين آثروا البقاء .

وبالفعل ، تقدم خلال الليل لتحية مصطفى باشا كل من أستور بايون ، ولوي مارتنانك وأنطونيوكيريني بمعية ضباط آخرين وعدد من أعيان المدينة ، فاستقبلهم الباشا بحفاوة ، لكنه أخذ على برغدان قائد الحامية كونه قتل بعض الأسرى الاتراك اثناء الهدنة . فأنكر مخاطبه أن يكون فعل ذلك ، ولم يقتنع الباشا ، وأمر باعتقال جميع أعضاء وفد النصارى ، وإعدامهم واحدا واحدا بحضوره . ولما أتى دور برغدان ، تقدم اليه الباشا ، وأمر بأن تقطع أذناه أولا ، ثم وضع رجله على بطنه وقال له : .

«كلب ، أين مسيحك ؟ اطلبه لينقذك !» ولم يرد عليه برغدان . وا[illegible] تمكن أحد خدام الباشا من اخفاء لوري دوماتينانك ، واتخذه خادما له .

بعد ذلك ، أطلق مصطفى باشا سراح اليونانيين والقبرصيين كافة ، وأمر باعدام مائتين من النصارى الأجانب الذين خرجوا من معاقلهم على اثر الهدنة ثم ولى اهتمامه الى الذين مكثوا على متن السفن ، فحجز أمتعتهم واعتقلهم

ما كاد يدخل مصطفى باشا بدوره الى فاماغوستا ، يوم 16 غشت ، حتى أمر باعدام النقيب تيبيولوشنقا ، ثم أمر بتطويف الحاكم برغدان من راجمة لاخرى ، ومن موقع لآخر ، وهو يحمل سلة على كتفيه مليئة بالتراب ، وسلة اخرى بيده ، وكلما مر بهذه الجهات أرغم على تقبيل الأرض . وبعد انتهاء الطواف نقله جلاده نحو سفينة ، وأصعدوه الى مقعد الحراسة بقمة أحد الصواري ، لكي يراه أهل المدينة ويشاهده الأسرى ، ثم أرجعوه الى الساحة العمومية بالمدينة حيث سلخوا جلده حيا . ذلكم ضرب من ضروب قسوة المسلين [39] وصورة عن خيانتهم للثقة التي وضعها فيهم حاكم شهم ، ذنبه أنه قاوم عدوه ، معتمدا على المسيح وعلى أمه العذراء . ولما قضى بردغان نحبه ، ملأ الجلادون جلده بالتبن وبعثوا به الى سائر المواقع الشاطئية الشامية .

شاعت أنباء عن القوات التركية الغازية مفادها أن الجيش لم يكن يتألف سوى من مائتي ألف جندي ، من بينهم ثمانون ألف مقاتل ، بغض النظر عن الجنود الانكشاريين وعددهم أربعة عشر ألفا ، سواء منهم التابعون للباب العالي أو غيرهم ، لكن كان من بين الجنود ستون ألف مرتزق انضموا إلى الجيش التركي على اثر ما بلغهم عن كنوز فاماغوستا الباهضة ، أما الباقي ، فكانوا أسرى أو عبيدا .

دامت معارك فاماغوستا خمسة وسبعين يوما ، أطلق خلالها مائة وخمسون ألف طلقة مدفعية . وكان كبار قواد الجيش التركي هم : مصطفى وهو القائد العام ، وحاكم ميبو ، وحاكم ناتوليا ، وحاكم كرامانيا ، ونقيب الانكشاريين ، وحاكم طرابلس الشام ، ووالي اليونان ، والوالي سيفاس ، وثلاثة ولاة من الجزيرة العربية ، ومصطفى باي الذي كان قائدا على فرق المرتزقة ، ووالي مالاسيا .

وفي هذه المعارك ، لقي مصرعه كل من والي ناتوليا ، والقائد العام لفرق المرتزقة ووالي ملاسيا وحاكم طرابلس الشام والجزيرة العربية ، وعدد آخر من كبار الضباط والجنود ، فضلا عن ثمانين ألفا من المقاتلين من مختلف الأوطان ، حسب ما ورد في تقرير الباشا . أما من جانب النصارى ، فقد مات أكثر من خمسة آلاف جندي ، واثنان وعشرون نقيبا ، وستة وثلاثون أسيرا .

---

(39) عبّر عنهم كذلك بالكفـار .

هذه حصيلة حصار فاماغوستا الشهير ، وقد وقفنا عنده طويلا لأنه حديث بالنسبة لباقي الأحداث ، ولأننا أردنا أن نبين قدرات هذا الجبار الذي يهدد المسيحية في كل حين .

بعد تقديم هذا العرض الضافي عن الاحداث التي كانت فاماغوستا مسرحا لها ، أعود لألقي نظرة على الوحدات البحرية ، مشيرا في البداية الى أن دون جيان النمساوي ، الذي كان يرابط بجزيرة سيفولونيا ، تحرّق شوقا الى قتال الاتراك وتلقينهم درسا ، لما بلغه نبأ سقوط فاماغوستا ، لذلك أبحر في الليلة الموالية من الميناء الذي يسميه النصارى بوادي الاسكندرية ، والذي يبعد بنحو ثلاثة عشر فرسخا عن خليج ليبانتة .

وما أن علم علي باشا بأن اسطول النصارى يتحرك حول كورفو ، حتى خلع معطفا ثمينا كان يرتديه ، وأهداه لبحار حمل اليه خبر التكتل المسيحي ، ثم أمره بالعودة الى التجسس على النصارى . واشتغل الاتراك طيلة ثلاثة أيام ، باقامة الافراح والحفلات واطلاق الطلقات المدفعية في الفضاء ، احتفاء بالنصر الذي حققوه . ولما انتهت الافراح أعاد علي باشا ترتيب المدفعية والبنادق ، ووزع الرصاص على الرماة والنبال على أصحاب الأقواس ، كما ضاعف حصة كل واحد من الخشب ، ومنع علوش من الرحيل الى تونس ، ولو أنه طلب منه الاذن من أجل ذلك ، ثم بعث برسول الى استنبول ليطلع الامبراطور على تحرك أسطول النصارى نحو قبرص ، وقبل أن يبرح خليج ليبانته ، بلغه أن الجيش النصراني يوجد بسيفالونيا ، وهي نقطة غير بعيدة من قبرص ، عندئذ أمر بركوب الفرسان بأسلحتهم ، وبعدما حشد أكثر من سبعة آلاف جندي ، غادر خليج ليبانته ، ونزل بالقلعة الواقعة على بعد بضعة فراسخ من مواقع جيش النصارى .

عندما أظلم الكون ، أتى قارة فوشة ليخبر علي باشا بأن النصارى اقتربوا من مواقع الاتراك فاعلن علي باشا حالة الطوارىء في صفوفه ودعا الجنود للاستعداد للقتال .

أما دون جيان النمساوي ، فانه أعلن بدوره حالة الطوارىء ، وأعطى التعليمات لضباطه ، وعين لهم الأماكن التي ينبغي أن يحاربوا فيها . كان أسطوله يتألف من خمسة عشر مركبا اسبانيا ، وثلاثين تابعة لمملكة نابولي ، وعشرة

لصقلية ، وأحد عشر لأندري دوري وثلاثة لمملكة جين ، وأربعة لولاية لوملان ، وأربعة لنغرون ، واثنين لجورج غريمالدي ، واثنين لاتيان دي مار ، وثلاثة لمالطة ، ومائة وتسعة للبندقية ، إضافة الى عدد كبير من الزوارق السريعة وأربعة فراقط

كان الجيش البحري المسيحي مقسما الى أربع فرق ، رئاسة الفرقة اليمنى منها الى أندري دوري ، وهي تتشكل من خمسين وحدة ، يتقدمها مركبان شراعيان ضخمان ، وكان زعيم البنادقة يترأس وحدات الجناح الأيسر البالغ عددها خمسين مصحوبة بمركبين شراعيين كذلك . الى جانب هذه المهمة ، أسندت اليه رئاسة الفرقة الوسطى ، وعدد وحداتها ستون سفينة ومركبان شراعيان . أما الفرقة الرابعة فكانت فرقة احتياطية من نصيب الماركي دي سانت كروة ، وهو القائد العام لبحرية نابولي ، وعدد وحدات هذه الفرقة احدى وثلاثون سفينة .

صعد دون جيان النمساوي بعد ذلك الى سفن القيادة وتفقدها بدقة ، وقد كلّف دون لوي دي روكيسانس الحاكم العام لقشتالة بتفقد باقي الوحدات ، ثم ولى عائدا الى مقر قيادته .

في نفس الليلة ، وفي نفس الساعة التي برح فيها اسطول النصارى ميناء وادي الاسكندرية ، غادر الاسطول التركي المواقع التي تركناه فيها ، وفي يوم الاحد 7 أكتوبر ، تمّت المواجهة بين الاسطولين ، على مقربة من موقع اسكور شلارس . عندها أطلق قارة فوشا الذي كان موجودا بين الاسطولين على متن زورق الاستطلاع طلقة مدفعية لانذار علي باشا . فصعد الجنود الاتراك الى الصواري لمشاهدة السفن المسيحية وترتيبها .

كانت فرقة أندري تتقدم الاسطول ، وهي التي تقرر لها أن تأخذ مكانها في عرض البحر ، بينما استترت الوحدات الاخرى وراء الجبال ، وقام النصارى باستكشاف ما في البحر بدورهم ، فانكشف لهم زورق قارة فوشة ، وصعدوا هم كذلك الى الصواري ، فرأوا اسطول العدو منتشرا في البحر ، وأشير الى أن اسطول الاتراك كان يتألف من مائتين وسبع وثلاثين سفينة عظيمة ، وخمسة وأربعين مركبا شراعيا .

لما رأى دون جيان النمساوي هذه الوحدات ، حمد ربّه وشكره على الفرصة التي منحها اياه ، ثم أمر بطلقة مدفعية ، اشارة الى قادة الفرق لكي يستعدوا ، كما

أمر برفع لواء الحرب وأعطى الاشارة لبداية المعركة .

ركب أحد الضباط فرقاطة حاملا صليبا بيده ، وصار يطوف على الوحدات يحثهم على الصبر والثبات والاستماتة في القتال ، ويعدهم بالنصر المبين ان وضعوا ثقتهم في عيسى وفي العذراء ، وهما يشكلان السبب الذي يقاتلون من أجله ، هدفهم الدفاع عن الشرف وتحقيق المجد ، مع القيام بالواجب على الوجه الأكمل .

كان الجنود والضباط يلقونه بالهتافات ، وهم يعدونه بالكفاح حتى الموت ، ثم ولّى ذلك الضابط الى مقر قيادته لمواصلة مهمته القيادية ، في حين بدأ اسطول الأتراك يدنو من أسطول النصارى .

رفعت القيادات ألوية المسيح وألوية التكتل الصليبي ، وكان مرقوما على الالوية الاولى الصليب ، وعلى الالوية الثانية رموز أسلحة البابا والسلطان الكاثوليكي وملوك البندقية . ولما رفعت هذه الالوية حياها حشود البحرية في جو مليء بالخشوع ، وكانت تتقدم فئات من الرهبان أوفدهم البابا خصيصا اليهم ليساندوهم معنويا بصلواتهم ودعواتهم ، حتى لم يبق جندي واحد يخشى الموت أو يرفضه ، وكلهم اعربوا عن رغبتهم في الموت ابتغاء الحياة الدائمة في الآخرة .

ومن غريب الصدف ، أن الرياح انحبست ، فلم ير الاتراك مندوحة من استعمال المجاذيف ، ذلك ما أتاح للوحدات النصرانية امكانية التجمع وأخذ مواقعها في أحسن الظروف .

كان يوجد على يمين مركب دون جيان النمساوي سفينة القيادة التابعة للبابا، وعلى متنها مارك أنطوان ، وميكائيل الاسكندر حفيد البابا ، دوق موندراغون ، وبومبي كولون ، ورومغان ، مع كثير من النبلاء ؛ وعلى يساره كانت توجد سفينة القيادة البندقية . كانت سفينة دوق الصافوى تحاذي سفينة البابا ، وعلى متنها أمير ايربان ، بينما كانت سفينة البندقيين تحاذي سفينة جين التي كان على متنها أمير بارمة ، وعلى مقربة من هذه السفن كانت وحدات مالطة بقيادة الضابط بيدرو جيستينيان .

كانت المراكب الشراعية الضخمة ، محملة بكميات كبيرة من البارود ومدجّجة بالمدافع ، وهي تتقدم الوحدات كلها ، تهدف الى اثارة الرعب والفوضى

في صفوف العدو ، عندما تبدأ العمليات الحربية .

كانت القوات المسيحية تضم في صفوفها سبعة آلاف جندي اسباني ، واثني عشر ألف ايطالي ،وثلاثة آلاف من المتطوعين من مختلف الاجناس ، دون الاسرى والسجناء المحكوم عليهم بعقوبة التجذيف ، وثلاثة من المشاة الألمان .

كان جيش العدو منظما في شكل هلال ، رأسه الايمن موجه نحو اليابسة، تحت قيادة محمد باي والي نيغربونت ، وسيروكوباي والي الاسكندرية ، وكان هذا الجناح يتألف من ستين مركبا شراعيا ، في حين كان الرأس الأيسر تحت قيادة قلوش علي والي الجزائر ، ويتألف من ستين مركبا شراعيا . كان علي باشا يتوسط الهلال ، وهو مكلف بقيادة مائة سفينة عظمى ، وعلى يمينها تجاه اليابسة ، كان فرطة باشا ، ويواجه البحر اثنان من أولاده على متن سفينة قيادية . وكان محمد باي أحد أحفاد باربروس يدعم الوحدات التركية ، على رأس فرقة تتألف من أربعين سفينة ، أما شعبان الشرايبي حاكم طرابلس الغرب ، فانه كان يترأس الجناح الأيمن ، ويقود فرقة تضم اثنتين وعشرين سفينة .

كلما اقترب الاسطولان أحدهما من الآخر ، كان رئيساهما يحثان سفنهما على التمسك بالوحدة ، حتى لا تعبث بها القوات المعادية . وامر علي باشا بإزالة الاغلال التي كانت تقيد أسيرين اسبانيين في سفينته ، وأمرهما بالصعود الى أعلى الصاري ليدلاه على سفينة دون جيان ، فتعرفا عليها بما يحيط بها من سفن ، وبالألوية العديدة المرفوعة فوق أعمدتها . اذ ذاك أمر علي باشا بالهجوم عليها ، ولما علم أن السفينتين اللتين تقومان بمساندتها اسبانيتان ، لأنهما لا تتوفران على سطح في أعلى الصاري ، قال لأصحابه بأن الوقت حان ليظهروا كفاءتهم واقتدارهم وان النصر سيكلفهم ثمنا باهضـا .

وأما دون جيان، فأنه هو الآخر أمر وحداته بالتوجه نحو سفينة الباشا، كما أمر الفراقط التي كانت في سياجه أن تبتعد لكي لا يعتمد على مخرج من المعركة سوى النصر ، ثم أمر بقطع الأخشاب التي تتقدم المراكب ، لتتمكن المدفعية من إصابة أهدافها بدقة .

أمر الباشا بعدم استعمال المدافع قبل أن يبدأ الاشتباك ، لكن دون جيان سبقه الى اطلاق النار ، وكان القصف مكثفا فاجأ الأتراك الذين أفلتت المبادرة

من أيديهم .

بدأت المعركة حوالي الساعة الحادية عشرة، وكان دوي المدافع يزمرج بشدة الى درجة لم تحكها الرعود أو البروق أو الزلازل ، وما هي الا لحظة حتى كان ستار كثيف من الدخان يغشي الجيشين المتحاربين .

كانت سفن الجناح الايسر هي الأولى التي اشتبكت مع العدو ، وتلتها في ذلك سفينة دون جيان التي هاجمت سفينة الباشا من الأمام ، فكان الاشتباك عنيفا من الجانبين لم يسبق له مثيل في المعارك البحرية ، لأن الباشا كان محاطا في سفينته بأربعمائة من أجود الرماة ، تسانده ثمانية مراكب لتزويده بالمقاتلين الاحتياطيين ، كما كان مع دون جيان زهرة جنود فيالق اسبانيا ، وكان مدير ديوانه العسكري يحرس مقدمة السفينة بمائة جندي ، ودون بيدرو يحرس الأفران ، على رأس خمسمائة جندي ، بينما كان لويس كاريو ،قائد الحراس ، على رأس نفس العدد من الجنود ، يسهر على سلامة السفينة . أما باقي المقاتلين فانهم كانوا موزعين على مختلف أجنحتها ومرافئها . وكان عدد من سامي الضباط يحيطون بدون جيان ، في حين كان آخرون مكلفين بالسهر على العمليات الحربية وتنسيقها في نقط مختلفة من السفينة القيادية .

اشتدت المعركة بين الجانبين ، واستطاع المسيحيون اقتحام سفينة الباشا مرتين ، لكن الأتراك ردّوهم عن أعقابهم في كل مرّة ، حتى انهم شعروا بالخوف وظنوا بدورهم أن الاتراك سيحتلون سفينة القيادة المسيحية ، وسقط في المعركة عدد كبير من القتلى والجرحى من الجانبين ، وقتل ضباط مسيحيون . وتدخل الرماة الذين كانوا على الأفران ، وتبعهم الجنود الاسبان ، فقتلوا كثيرا من الاتراك ، ومن جملتهم علي باشا الذي أصابته رصاصة في رأسه ، فاقتحم المسيحيون سفينته واستولوا عليها .

شكر دون جيان ربّه هلى هذا النصر وأمر بنقل الخبر الى الوحدات الأخرى التي لا زالت تحارب الاعداء ، ورفعت الرايات المسيحية على أعمدة السفن التركية التي استسلمت ، وبقيت المعركة تعرف أشواطا أخرى استبسل فيها كل الضباط والقواد الذين كانوا يرأسون التكتّل الصليبي ، وقد هلك منهم البعض في هذه المعركة الضارية . وأذكر من بين الوحدات التي تعرضت لمحنة كبرى ، الوحدات

المالطية والصقلية التي هاجمها القائد التركي علوش علي ، وتفوق كثيرا على جنودها فقتلهم جميعا ، وغنم لواء التكتّل المسيحي ، لكنه اضطر للفرار مع طائفة من جنوده ، على اثر تدخل سفن مسيحية عديدة في المواقع الذي كان يحارب فيه . ولاننسى أن نذكر أندري دوري الذي برهن على عبقرية كبرى اذ استطاع أن يجلب الى عرض البحر بعض السفن التركية ، وتمكن من الانتصار في الاشتباك معها ، وأهلك ملاحيها وجنودها .

بعدما أنهى دون جيان معركته مع فرقة الباشا ، هبّ لنجدة الفريق الصقّلي الذي كان في محنة كبرى ، ورافقه في ذلك الحاكم السامي لمملكة قشتالة على متن سفينته . ولما رآهما الأتراك متجهين نحوهم لاذوا بالفرار . وبما أن الحاكم السامي كان يستولي على كل سفينة وجدها ، عثر على احدى سفن القيادة التركية التي كانت تقل أبناء الباشا ، فاستولى عليها بعد معركة عنيفة .

بعد ذلك ، قرر أندري دوري وجماعة من كبار الضباط أن يتوجهوا الى رأس قريب للنزول به ولمنع الاتراك الفارين من اللجوء اليه ، وقد كانوا مرغمين على التماس النجاة من اليابسة ، ولم يسلم من المعركة البحرية الكبرى الا قلوش علي ، ومعه أربعة مراكب وبعض الزوارق . وقتل من الجانب المسيحي عدد من الضباط بمختلف الرتب ، كما قتل قواد بعض الوحدات ، مثل القائد البندقي ، ولقي أكثر من ستة آلاف جندي حتفهم ، ما بين اسبانيين وايطاليين .

أما من الجانب التركي فقد هلك أكثر من ثلاثين ألف جندي وأسر ألف ومائتان ، وغنم النصارى خمسة وثمانين مركبا ، وأغرقوا ثلاثين من مراكب العدو ، وحرروا ألفا وخمسمائة أسير نصراني من مختلف الجنسيات . ونذكر من بين القتلى في صفوف الاتراك ثلاثين واليا ، ومائة وستين نقيبا وبايا ، أشهرهم علي باشا القائد العام للجيش ، وهويدر باي والي كيو ، وقارة باي يوك ، وجعفر الشلبي حاكم ولاية السبال، وبردو آغا المسؤول الكبير عن خزائن السلاح باستنبول، ومصطفى شلبي وزير المالية ، والقائد شلبي حاكم ولاية سميترة ، وقائد ولاية غالبويا وسيروكوباي كبير الربابنة في القوات البحرية ، وعدد آخر من سامي الضباط والشخصيات العسكرية والمدنية .

وعلى اثر انتهاء المعركة ، أخذ دون جيان والحاكم السامي لمملكة قشتالة، يتفقدان أحوال الجرحى ويعالجانهم . ولما دنت الشمس من المغيب ، لجأ الاسطول

المسيحي الى ميناء باتيلا لقضاء الليل ، ثم أبحر في صبيحة اليوم التالي نحو ليبانتة .

ولم يلبث فيها الاسطول الا يوما أو بعض يوم ، حتى قرر دون جيان الرحيل نظرا لقرب حلول فصل الشتاء ، وعاد الى خليج البندقية ، ومنها ذهب الى ميناء ميسين حيث استقبل بالهتافات والتصفيقات ، واقيمت الحفلات بالمناسبة ، وشكر المسيحيون ربّهم على عنايته وعلى النصر الذي حققوه بفضله ...

انتهى الكتاب الثاني

تم الجزء الأول ، ويليه الجزء الثاني
وأوله : الكتاب الثالث عن أقاليم
المغرب ومدنه وقراه وسكانه .

فهـــرس
موضــوعــات الجـزء الأول

الكتـــاب الثانـــي
في ملة محمد وانتشار خلفائه في أوربا وآسيا وافريقيا

رقم الايداع القانوني
1984 — 117

مطبعة المعارف الجديدة
الرباط 707-08.09.15.38 ☎